



القسطنطينية

المدينة التي اشتهاها العالم 1453 - 1924
(الجزء الأول)

تأليف: فيليب مانسيل

ترجمة: د. مصطفى محمد قاسم





سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

علم للعفتي

صدرت السلسلة في يناير 1978
أسسها أحمد مشاري العدواني (1923-1990) ود. فؤاد زكريا (1927-2010)

القسطنطينية

المدينة التي اشتهاها العالم 1453 - 1924

(الجزء الأول)

تأليف: فيليب مانسيل

ترجمة: د. مصطفى محمد قاسم



يوليو 2015

426

علم للمعرفة

سلسلة شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة
والفنون والآداب

أسها

أحمد مشاري العدواني

د. فؤاد زكريا

المشرف العام

م. علي حسين اليوحة

مستشار التحرير

د. محمد غانم الرميحي

rumaihim@outlook.com

هيئة التحرير

أ. جاسم خالد السعدون

أ. خليل علي حيدر

د. علي زيد الزعبي

أ. د. فريدة محمد العوضي

أ. د. ناجي سعود الزيد

مديرة التحرير

شروق عبدالمحسن مظفر

a.almarifah@nccalkw.com

سكرتيرة التحرير

عالية مجيد الصراف

ترسل الاقتراحات على العنوان التالي :
السيد الأمين العام
للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص. ب. : 28613 - الصفاة
الرمز البريدي 13147
دولة الكويت
تليفون : 22431704 (965)
فاكس : 22431229 (965)
www.kuwaitculture.org.kw

التنفيذ والإخراج والتنفيذ
وحدة الإنتاج في المجلس الوطني

ISBN 978 - 99906 - 0 - 458 - 0

رقم الإيداع (2015/417)

العنوان الأصلي للكتاب

Constantinople: City of the World's Desire, 1453~1924

by

Philip Mansel

John Murray (an Hachette UK Company), London 2006

This is an authorized translation from the author, Philip Mansel. All Rights reserved.

طُبِعَ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ ثَلَاثَةٌ وَأَرْبَعُونَ أَلْفَ نَسْخَةٍ

رمضان 1436 هـ - يوليو 2015

المواد المنشورة في هذه السلسلة تعبر
عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس

المحتوى

9 تقديم المترجم

19 تصدير

23 الفصل الأول
الفتاح

59 الفصل الثاني
مدينة الله

103 الفصل الثالث
القصر

137 الفصل الرابع
الحريم والحمامات

177 الفصل الخامس
مدينة الذهب

209 الفصل السادس
الوزراء والترجمات

251	الفصل السابع وآثار المتعة
285	الفصل الثامن السفر والفنانون
327	الهوامش
359	البibliوغرافيا

تقديم المترجم

لم يكن آل عثمان أول سلالة تركية حاكمة، ولم تكن القسطنطينية أول عاصمة لدولة تركية ولا لآل عثمان أنفسهم، لكن الاقتران بين آل عثمان والقسطنطينية أنتج أقوى وأكبر إمبراطورية تركية إسلامية، وربما في تاريخ العالم، غطت مناطق شاسعة من جنوب أوروبا وشرقها ووسطها وغرب آسيا ووسطها وشمال أفريقيا، وامتد نفوذها إلى شرق آسيا وجنوب شرق آسيا، وكانت على امتداد تاريخها واحدة من القوى العظمى العالمية وجزءاً من نظام الدول الأوروبية، وكانت عاصمتها واحدة من أكبر العواصم الإمبراطورية في العالم وأعظمها ثراء، وفي بعض الفترات أكبرها وأعظمها ثراء على الإطلاق.

فقبل القسطنطينية كانت للأتراك دول كثيرة، بعضها إمبراطوريات كبرى، غطى بعضها - متتالية ومتزامنة - الصين وشرق آسيا حتى شرق أوروبا وجنوبها، مروراً بموطنهم

«على مدار معظم تاريخها، كانت القسطنطينية - من دون منازع - المدينة الأكبر والأكثر ثراء في أوروبا كلها»

المترجم

التاريخي آسيا الوسطى. فمن آسيا الوسطى، التي وصفها السير هالفورد ماكيندر Halford Mackinder في عنوان مقالته الشهيرة بأنها «المحور الجغرافي للتاريخ» أو «القلب» الأوراسي للعالم، خرجت قبائل السهل البدوية التركية في غزوات متتالية على الهلال الخارجي «للحواف» المحيطية في الشرق والغرب والجنوب. فكانت منهم الدولة الغزنوية (961-1186) ومقرها غزنة وكابول في أفغانستان، والدولة الخاقانية التي أزاحت السامانيين في بخارى وسمرقند وبلاد ما وراء النهر في العام 999. وكان من أقوى دولهم وأوسعها امتدادا إمبراطورية واي Wei في شمال الصين وعاصمتها شانغان ثم لويانغ، وكان الأتراك السلاجقة الحكام الفعلين للخلافة العباسية إبان القرن الحادي عشر، فضلا على غلبة العنصر التركي على المماليك الذين حكموا حواضر المنطقة العربية في مصر والشام بداية من أحمد بن طولون ومرورا بالإخشيديين ودولة المماليك البحرية (1249 - 1381) والبرجية (1381 - 1517).

وفي الأناضول نفسه، كان العثمانيون مجرد قادمين جدد بعد سلطنة الروم أو سلاجقة الروم، وهي دولة تركية - فارسية سنية حكمت الأناضول بين العامين 1077 و1307، وبعد الدولة الدانشيمندية التركية التي حكمت المناطق الشرقية والشمالية من الأناضول إبان القرنين الحادي عشر والثاني عشر. وقبل القسطنطينية، كانت للعثمانيين أنفسهم إمارة مستقلة في شمال غرب الأناضول على حافة الإمبراطورية البيزنطية عاصمتها بورصة في آسيا ثم إدرنة في أوروبا.

لكن مع فتح القسطنطينية، اجتمعت عائلة حاكمة مميزة في رؤيتها للحكم والدولة وعاصمة كانت الأعظم في زمنها، لينتج الإمبراطورية العثمانية الكبرى، ولتبدأ قصة العشق بين سلالة حاكمة أحبت عاصمة وتعلقت بها، وعاصمة صنعت سلالة حاكمة وإمبراطورية.

أسست القسطنطينية على يدي الإمبراطور الروماني قسطنطين - ومنه استمدت اسمها - في موقع مدينة بيزنطة السابقة التي كان اليونانيون قد استوطنوها في بدايات فترة توسعهم الاستعماري بين العامين 671 و662 قبل الميلاد. ومنذ ذلك الحين، أصبحت القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الرومانية، ثم عاصمة بيزنطة أو الإمبراطورية الرومانية الشرقية، ثم عاصمة الإمبراطورية

اللاتينية، وهي الدولة الصليبية الإقطاعية التي أقامها قادة الحملة الصليبية الرابعة على الأراضي التي انتزعوها من الإمبراطورية البيزنطية بقيادة البندقية، ثم عاصمة الإمبراطورية العثمانية.

وعلى مدار معظم تاريخها، كانت القسطنطينية - من دون منازع - المدينة الأكبر والأكثر ثراء في أوروبا كلها، أو كما كتب أحد البيزنطيين «المدينة التي يشتهيها العالم». وربما لذلك، سعت القوى الأوروبية جميعها إلى السيطرة على القسطنطينية ومنطقتها الخلفية، لأسباب عسكرية وسياسية بالطبع، لكن قبل ذلك لأسباب اقتصادية ودينية وثقافية وروحية، باعتبارها قلب العالم المسيحي وقبلة.

وفي العام 1453، دخل محمد الفاتح القسطنطينية مظفراً على حصان أبيض، وبدأ بذلك العشق العثماني للمدينة الذي دام حتى العام 1924، حين غادر آخر السلاطين العثمانيين - عبد المجيد - تركيا منفياً في قطار الشرق السريع. وعلى مدار خمسة قرون إلا قليلاً كانت القسطنطينية بتنوعها العرقي والديني والثقافي الشديد مركزاً لسلالة حاكمة استثنائية بكل المعاني، إذ من اللافت للنظر أن السلاطين العثمانيين الذين غزوا المدينة جهاداً في سبيل الله وأعلنوا أنفسهم خلفاء و«غزاة» باسم الإسلام، ومع أنهم حوّلوا المدينة من عاصمة المسيحية الأرثوذكسية الشرقية إلى مقر الخلافة ودار السلاطين والخصيان والإنكشارية، فإنهم لم يقضوا على الكنيسة الرومانية، بل تعهدوها ودعموها، واعتبروا أنفسهم في الوقت عينه - على نحو ما فعل محمد الفاتح نفسه - ورثة الإسكندر الأكبر والأباطرة الرومان العظماء.

كانت القسطنطينية العثمانية مدينة متفردة في كل شيء، نشأ تفرداها من تفرد العائلة الحاكمة. فالمدينة التي تعايشت فيها الأديان ومارست شعائرها، وقوميات لا تحصى وحافظت على خصوصياتها، وكانت في الوقت عينه دار خلافة المسلمين وكرسي البطريركية المسكونية والحرية العظمى اليهودية، كانت انعكاساً لأسرة حاكمة تجمع التناقضات عينها. فالعثمان الذين قتلوا من أنفسهم ما لم يقتله منهم الأعداء، عبر عادة قتل الإخوة، إلى الدرجة التي جعلتها على طول معظم تاريخها «أسرة بلا أمراء»، أظهرت تسامحاً مع أصحاب الأديان الأخرى وأبناء القوميات المختلفة، عزّ وجوده في ذلك الزمان، كان في الوقت عينه أحد عوامل استمرار العائلة والمدينة وعوامل انهيارها.

ففي مقابل التنصير القسري لبقايا الأندلسيين بعد سقوط غرناطة - وقبله في الممالك التي سبقتها إلى التداعي - واضطهادهم ومحاربة تميزهم الثقافي حتى بعد أن تنصروا وطردهم أخيرا من شبه جزيرة أيبيريا في العقد الأول من القرن السابع عشر، أثر آل عثمان التعددية والتنوع، فأعادوا البطيركية الأرثوذكسية المسكونية بعد أن أغلقها أصحابها عقب الفتح، بل فتحوا عاصمتهم وولاياتهم لليهود الذين طردهم ملوك إسبانيا في العقد الأخير من القرن الخامس عشر، وفتحوها مجددا للمسلمين الأندلسيين الذين لحقوا باليهود بعد قرن منفيين من إسبانيا بمئات الآلاف، وكانت طوال تاريخها العثماني «مأوى العالم» أو ملاذ الكون، كما أرادت لها العائلة العثمانية.

على جانب الانهيار، لم يكن أصحاب الأديان والقوميات الأخرى في مستوى رقي الأسرة الحاكمة التي سمحت لهم بالعيش وممارسة الشعائر، فكانوا أعداء داخليين لا يمنعهم عن هدم الدولة والمدينة إلا قوة الدولة ومنعتها. لكن لم تكن الدولة تضعف، حتى صاروا أحد أهم معاول هدمها، وكانوا بالفعل طابورا خامسا للقوى الأجنبية المعادية التي صارت بفعل تسامح العائلة الحاكمة أيضا قوى داخلية ممثلة في السفارات الأجنبية التي بدأ وجودها كرهائن لدى السلطان وانتهى إلى قوى تفرض الوصاية على السلطان والدولة باستخدام «الامتيازات» وجيوش دولهم المترتبة، إذ كانت القسطنطينية أيضا من أوائل المراكز الدبلوماسية التي استقبلت سفارات أجنبية «دائمة» أو «مقيمة».

لذلك كان أول أهداف القومية التركية هو القضاء على هذه التعددية و«تترك» هذه الكوزموبوليتانية^(*)، بل نقل العاصمة من المدينة يأسا من تراثها «العثماني» العنيد. فلم يكن من الوارد أن يواصل الأتراك - مثلا - التعايش مع يونانيين المدينة الذين كانوا يخرجون للاحتفال بانتصارات الجيش اليوناني على الجيش التركي واحتلاله للمدن التركية. لذلك كان إلغاء الامتيازات التي جعلت السفارات الأجنبية دولا داخل العاصمة أيضا هدفا آخر للنزعة القومية التركية. والأهم من ذلك أنه جعل الخلافة نفسها - راعية هذا التعدد والتنوع - هدفا للهدم من جانب النزعة القومية التركية.

(*) الكوزموبوليتانية cosmopolitanism تعني التعددية في كل شيء التي تكاد تضع العالم كله في مكان واحد. [المترجم].

أما على جانب دعم بقاء الإمبراطورية وعاصمتها، فقد كان تسامح آل عثمان مع الآخر وكوزموبوليتانية المدينة ووجود السفارات أحد الأسباب التي جعلت دول أوروبا تحافظ على «رجل أوروبا المريض» وتدخل حروبا لمنع انهيار الإمبراطورية أو سقوط المدينة، كما حدث في العام 1829، حين استدعى السفيران الفرنسي والبريطاني أسرابا من أسطوليهما للحيلولة دون احتلال روسي للمدينة، إذ كانت السفارات الأجنبية في بعض الأحيان تحرس المدينة بدرجة أقوى من أسوارها، وكما حدث في مؤتمر برلين الذي أعاد إلى الإمبراطورية العثمانية معظم البلقان بدعم من النمسا وبريطانيا، على الرغم من أن الإمبراطورية كانت في أضعف لحظاتها في الداخل والخارج.

مثل آل عثمان، كانت القسطنطينية ملتقى لكل الأضداد: الأديان المتقاتلة والقوميات المتعددية خارج أسوارها، والمتع الحسية على اختلافها وإلى أقصى درجاتها، وعاصمة العدو التي يجب أن تستعاد والذي يجب أن يباد والملجأ والملاذ أو «مأوى الكون» كما أسماها حكامها، ومدينة التدين الشعبي «الطريقي» والجهادية الإسلامية وقبول الآخر لدرجة تقبل تعيين الكثيرين منهم في أرقى مناصب الدولة.

فمنذ أن دخلها محمد الفاتح على حصانه الأبيض، صارت القسطنطينية، المدينة الواقعة على قارتين، مكان التقاء وساحة حرب في الوقت عينه، مدينة اشتهاها العالم كله، وأسهم أهلها قبل أعدائها في تدميرها. فالعاصمة العثمانية الكوزموبوليتانية، كانت في الوقت نفسه عاصمة الإسلام والكنيسة الأرثوذكسية وجزءا من نظام الدول الأوروبي ومقصدا للأفكار والبشر من باريس إلى دلهي وجاكرتا. وكانت المدينة ذات أهمية إستراتيجية كبيرة، واشتهتها في فترات مختلفة روسيا وألمانيا وبلغاريا واليونان، حتى احتلال الحلفاء لها بعد الحرب العالمية الأولى.

وكما كان البسفور بجماله وتآلقه مقبرة للحريم والجواري اللاتي كانت التقاليد العثمانية تمنع سفك دمائهن، كانت أجنحة الحريم سجنا للأحياء من أمراء آل عثمان، وكانت قصورهم مسرحا لمقتلهم بأوامر الجالس على العرش العثماني. فالمدينة التي وسعت كل القوميات والأديان ضاقت على آل عثمان الذين استنوا قانون قتل الإخوة، فكان السلطان الذي يجلس على العرش يشرع على الفور في قتل كل إخوته، حتى الرضيع منهم.

لم تتجَلَّ تناقضات القسطنطينية أبْرز مما تجلت في الانكشارية، تلك القوة التي كانت تُزوّد بصبية مجموعين عبر آلية الدفشمرة من منطقة البلقان، وكان أفرادها في الوقت عينه مجاهدين وفاتحين وغزاة باسم الإسلام وعصا الدولة خارج العاصمة، ومجرمين ونهابين وخارجين على الدولة داخل العاصمة، وأتباعا متعصبين للطرق الصوفية، ورعاة للحانات والمواخير وملاكها لها، وجيش الإمبراطورية والتمسك على حكامها وأهلها.

يقدم الكتاب تاريخ مدينة صنعت سلالة حاكمة، أو سلالة اقترن تاريخها بمدينة. فيغطي كل شيء حول القسطنطينية من العمارة والأحياء والتنوع الديني والقومي والثقافي، إلى السلاطين والانكشارية والسفراء الأجانب والحريم والخصيان. إنه تاريخ رائع لمدينة وأسرة حاكمة، يمتد من فتح المدينة الذي حوّل إمارة آل عثمان التركية إلى إمبراطورية عالمية، حتى إعلان وفاة الإمبراطورية ومولد الجمهورية التركية.

ومن خلال إيراد اقتباسات عديدة من مراسلات الديبلوماسيين المعاصرين وروايات الرحالة الأجانب والكتابات التاريخية، يلقي المؤلف الضوء على صراع القوة الواضح داخل المدينة بين نخبتها الحاكمة. وهو ما يقدم سردية درامية ومنحرفة غالبا لسلالة استثنائية، تكشف عن قدر هائل من مكائد القصور.

ويقدم الكتاب أيضا تاريخا للعلاقات «الفريدة» بين الإمبراطورية العثمانية والقوى الأوروبية، وتفرد هذه العلاقات ينبع من أنها شملت - من بين أشياء أخرى - أول وأقدم تحالف إستراتيجي بين الإمبراطورية الممثلة للإسلام والملك الفرنسي «الأكثر مسيحية» و«الابن الأكبر للكنيسة». وفي هذا الإطار، يقدم الكتاب رواية مفصلة لجهود التحديث والتطوير التي بذلتها الإمبراطورية العثمانية للحاق بالقوى الأوروبية المنافسة. ويتابع الكتاب أيضا تطور الامتيازات الأجنبية من معاهدات تجارية بين الإمبراطورية والدول الأوروبية إلى منصات للتدخل الغربي في شؤون الإمبراطورية وولاياتها.

وإلى جانب العشق العثماني للمدينة، يقدم الكتاب تواريخ عائلات أخرى عاشت في المدينة مثل عائلة كوبرولو الألبانية وعائلة دي تيسا الإيطالية وعائلة مافروكورداتو اليونانية وعائلة الأشراف العربية، التي يتعقبها المؤلف في تاريخ

إنساني جميل وممتع حتى مناطق شتاتها بعد سقوط مدينتهم الكوزموبوليتانية في خاتمة تعطي القارئ العربي المعنى: «وانفضَّ سامر العثمانيين»، فلجأ «العثمانيون» من كل الملل والقوميات إلى الشتات الذي ماتوا فيه غرباء بعيدا عن المدينة التي أحبوها والثقافة الكوزموبوليتانية التي تشربوها.

أما بالنسبة إلى القارئ العربي، فإن كتاب القسطنطينية - إضافة إلى ما سبق - يقدم تاريخا للأتراك ودولتهم من الداخل، في مقابل تاريخ تأثيرات الإمبراطورية العثمانية على الولايات العربية التي كانت تابعة لها، ما يفيد في الوقوف على عملية صنع القرار في الدولة التي سيطرت على المنطقة العربية لأكثر من أربعة قرون، وكان لقراراتها وأفعالها وتحالفاتها وعداواتها تأثير باق على البلدان العربية.

لقد تزامن تساقط «دول الطوائف» الأندلسية أمام تقدم عملية الاسترداد المسيحية الإسبانية مع صعود الدولة العثمانية، وسبق فتح القسطنطينية في العام 1453 سقوط آخر معاقل المسلمين في الأندلس - غرناطة - في العام 1492. وقد شكّل فتح المدينة وتوسع الإمبراطورية في أوروبا تعويضا «نفسيا» للعرب والمسلمين بعد خسارة الأندلس. ولا شك أن الإمبراطورية لكونها الدولة الإسلامية الأكبر في زمانها ولضمها أجزاء كبيرة من هذا العالم، قد دافعت عن هذا العالم الإسلامي ضد التوسع الغربي الإسباني في شمال أفريقيا، والبرتغالي في البحر الأحمر والخليج العربي، ومنعت بالتأكيد طامعين آخرين من المنبع، أي منعتهم من تحويل طموحاتهم التوسعية إلى محاولات.

لكن في المقابل، ومن منظور التأمل المتأخر للأحداث، نجد أن الدولة العثمانية قد أضرت بالشعوب العربية، إذ أثبت التاريخ الحديث أن التجزؤ السياسي للإخوة في الدين والتنافس، حتى التقاتل بينهم، كان الميزة التي أدت إلى غلبة الدول الأوروبية في السباق العسكري والحضاري على الدولة الإسلامية الواحدة. فعلى خلاف رؤية الكثير من العرب المعاصرين، كان التجزؤ السياسي أنفع من الوحدة لقوة المجموع، فقد كانت الدول والكيانات السياسية في المنطقة العربية قبل العثمانيين قوية على المستويات السياسية والاقتصادية والعسكرية مادامت كثيرة ومتعددة، وحتى متنافسة فيما بينها. ولم تقصّر هذه الدول - من قبل أن يظهر العثمانيون إلى الوجود - في الدفاع عن المنطقة منذ الحملات الصليبية وانتهاء بتصدي الدولة

المملوكية المصرية للبرتغاليين في البحر الأحمر. لكن بعد أن توحدت هذه الكيانات جميعها في دولة واحدة مع الغزو العثماني للمنطقة العربية، دخلت المنطقة، ومعها الإمبراطورية العثمانية نفسها، في حالة من الجمود والتدهور، لم تفق منها إلا بعد قرون على أصوات مدافع نابليون وهي تدك طوابي الإسكندرية.

يتمثل أحد الأدلة القوية على نظرية «التجزؤ السياسي والتنافس العسكري الداعم لقوة المجموع وغلبته» في حالة أوروبا على امتداد العصرين الحديث المبكر والحديث، حيث أدى التجزؤ السياسي لأوروبا ووجود عدد من الدول المتنافسة لا تخضع لهيمنة مركز واحد، إلى الإفـساح في المجال للتنافس بين الدول على السيادة العسكرية والاقتصادية والثقافية، ما أدى إلى غلبتها مجتمعة أمام العدو الإسلامي الواحد الذي بقوته يقوى العالم الإسلامي وبضعفه يتدهور هذا العالم ويغلب عليه أعداؤه. ففي مقابل «نظام الدول» الأوروبي الذي ضَمَن أن تظل الدول الأوروبية تنافسية عسكريا، ضَمَن التوحد الإسلامي تحت مظلة الإمبراطورية العثمانية الركود والجمود والتخلف على المدى الطويل.

وفضلا على ما سبق، فإن نظرة التركي إلى العربي لم تخلُ من العنصرية على مدار تاريخ الإمبراطورية. فمع أنهم كانوا يجلّون «العربي» كفكرة بسبب عروبة النبي والقرآن، بيد أنهم في الممارسات نبذوا العرب وأقصوهم ولم يروا فيهم إلا محكومين. سيلاحظ القارئ أنه من بين القوميات والأعراق الكثيرة التي شكلت النخبة العثمانية في القسطنطينية، كاليونانيين والأرمن واليهود والشركس والأكراد والبلغاريين وغيرهم، كان العرب الأضعف حضورا. ومناصب الدولة التي وُزعت على كل الأعراق لم تخطئ طريقها إلى العرب إلا قليلا. وعلى الرغم من أن «الولايات» العربية كانت تشكل معظم مساحة الإمبراطورية، لا تجد عربيا بارزا في تاريخ الإمبراطورية بين الوزراء والمسؤولين. حتى الوجود العربي في القسطنطينية «عاصمة دولتهم» لم يكن ملحوظا مثل بقية القوميات والأعراق طوال عمر الإمبراطورية، ولم يظهر إلا في آخر عهدها مع السلطان عبد الحميد الثاني. لا يعد ذلك غريبا على دولة اعتبرت نفسها جزءا من أوروبا وكانت عينها لا تنظر إلا ناحية الغرب والشمال.

وإلى جانب التدهور الحضاري الذي أصاب منطقتنا نتيجة للحكم العثماني الذي عزل العرب عن العالم والقطيعة في خبرة الدولة المستقلة لدى شعوب منطقتنا

العربية التي كانت لها نتائج سياسية واجتماعية وثقافية كبيرة على المنطقة مازلنا نعيش تداعياتها، تتمثل السوءة الكبرى للحكم العثماني في تحويل عواصم وحواضر عربية كانت متقدمة ومزدهرة ومحتكة بالعالم إلى أطراف وأقاليم منسية ومقطوعة الصلة بالعالم.

ففي مقابل كل قصر أو «يالي» [بيت خشبي على البحر] أو «كوناك» [بيت أو قصر ليس على البحر] ازدانت به القسطنطينية، وفي مقابل مظاهر الثراء والترف التي عاشت فيها سلالتها الحاكمة ونخبته، كان النسيان والتريف والتخلف يلف حواضر العرب التي كانت في السابق أعرق من القسطنطينية وأكثر ازدهارا، في القاهرة ودمشق وبغداد، حيث باتت عواصم العرب النابضة بالثراء والثقافة، أطرافا منسية ومصدرا للجباية للإنفاق على مباهج العاصمة. تجلى ذلك في مستوى العمارة وعدد السكان الذي تراجع في عواصمنا بعد قرون الحكم العثماني إلى حال أسوأ من تلك التي كان عليها قبل العثمانيين، وذلك بالطبع لحساب تعمير القسطنطينية وإثراء نخبتها. فقد كانت الوفرة وحياة البذخ التي تعيشها العائلة الحاكمة وأهالي القسطنطينية جميعا، على حساب الفلاحين والحرفيين الفقراء في مصر وسورية والعراق وغيرها من ولايات الإمبراطورية العربية والأوروبية.

أما فيما يتعلق بعملية الترجمة، فقد حرص المترجم على الوصول إلى الأصول العربية للكلمات والأسماء التركية، وهي مهمة ليست سهلة بسبب تحريف الكثير من الأسماء والكلمات عن أصولها العربية، لذلك حرص المترجم على كتابة الكلمات الأجنبية للكلمات والأسماء التركية إلى جانب تعريبها، تحوطا لاحتمال الخطأ في تعريبها. أما الكلمات التركية التي ليس لها مقابل في اللغات الأجنبية مثل yali [يالي] وKonak [كوناك] وغيرهما، فقد آثر المترجم كتابتها هي نفسها بحروف عربية حفاظا على روح النص من جانب، ومن جانب آخر تفضيلا للكلمة التركية المعربة على كلمات معربة غير تركية مثل «شاليه» مثلا ترجمة لكلمة «يالي»، مادامنا في الحالين سنكتب كلمات غير عربية بحروف عربية.

بترجمة هذا الكتاب، يكون المترجم قد نقل إلى العربية كتابين مهمين حول أهم حدثين للعالم الإسلامي في العصر الحديث المبكر: سقوط الأندلس وطرده بقايا المسلمين منها في كتاب «الدين والدم - إبادة شعب الأندلس» الصادر عن مشروع

«كلمة» التابع لهيئة أبوظبي للثقافة والتراث، وفتح القسطنطينية الذي شكل تعويضا نفسيا للعرب والمسلمين في الكتاب الحالي.

لقد وجد المترجم متعة لا توصف في ترجمة هذا الكتاب، انعكست في الحواشي الكثيرة التي أضافها إلى شرح ما يحيل إليه النص باقتضاب أو ما قد يستغلق فهمه على القارئ العربي. فلولا الاستمتاع بالترجمة لما وجد المترجم صبورا ولا عزمًا للوقوف أمام كل حدث وشخصية ومكان، ليضيف حاشية تزيد متعة القارئ بالنص وإفادته منه، حيث أضافت هذه الحواشي إلى العناية «الممتع» الذي كان زاد المترجم طوال رحلة ترجمة هذا الكتاب الذي يتمنى أن يجد فيه القارئ العربي هذه المتعة في قراءته وضمه إلى مكتبته.

ولا يفوت المترجم في النهاية أن يتقدم بالشكر إلى سلسلة «عالم المعرفة» على نشرها هذا الكتاب الذي ضَمِنَ بنشره عبر هذه السلسلة المرموقة أن يصل إلى أيدي أكبر عدد ممكن من قراء العربية من المحيط إلى الخليج. كما يتقدم المترجم بالشكر إلى المؤلف الذي أرسل إليه الكتاب الأجنبي على نفقته ولم يبخل في الرد على كل استفسارات المترجم حول نص الكتاب.

الدكتور مصطفى قاسم

الرياض - نوفمبر 2014

تصدير

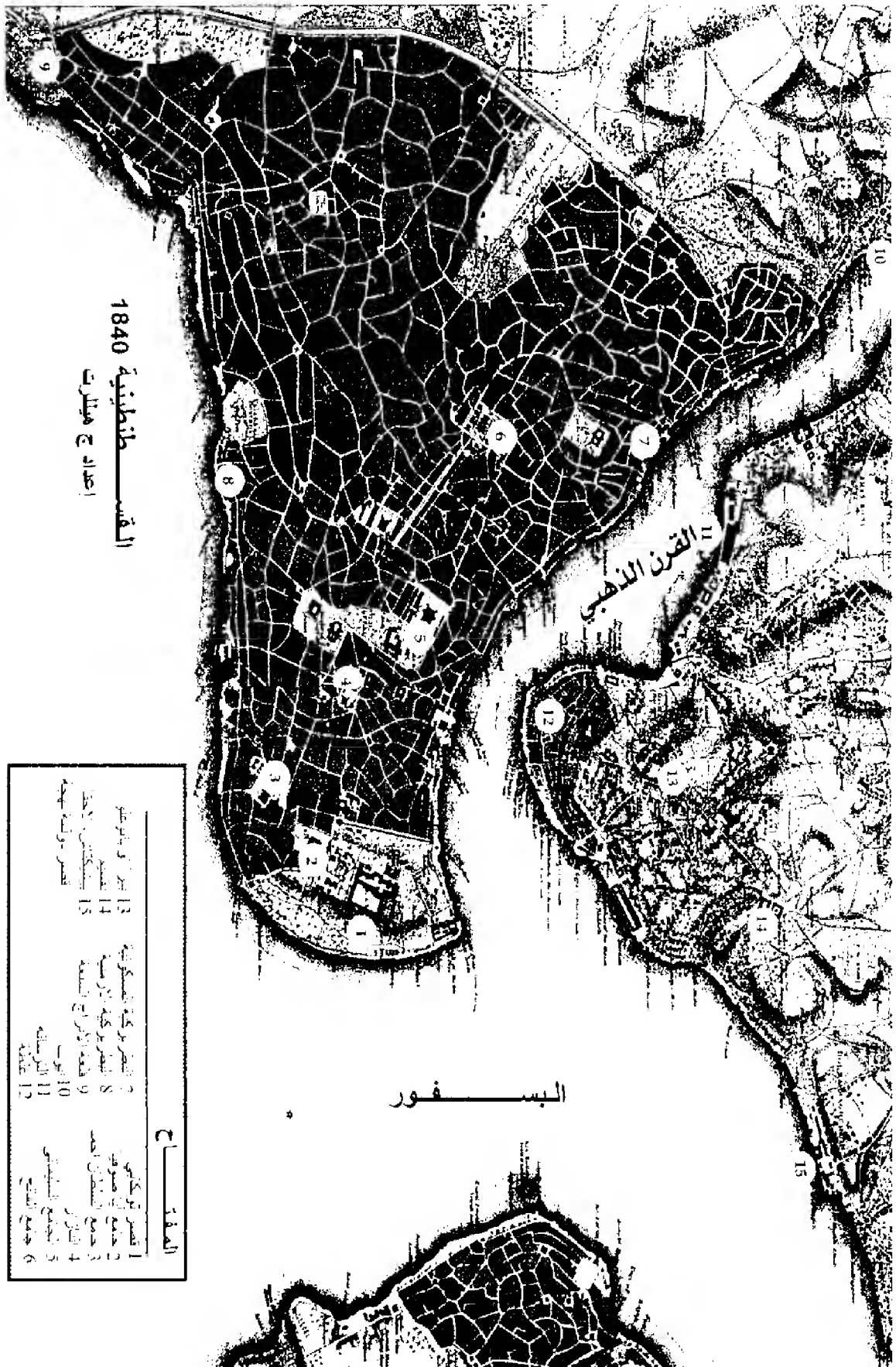
هذا الكتاب قصة لمدينة وعائلة حاكمة، كتبته إيماناً مني بأن العائلات الحاكمة لم تكن أقل أهمية من القومية والمناخ والجغرافيا في تشكيل المدن، وبين القرنين الخامس عشر والتاسع عشر، غطت العواصم العائلية، مثل باريس وفيينا وبرلين، على المدن التي استمدت أهميتها من الجغرافيا أو الاقتصاد، مثل ليون وفرانكفورت ونورمبرغ.

والكتاب قصة للمدينة التي ظلت فترة طويلة أعظم مدينة عائلية على الإطلاق. فقد أنتج تفاعل العائلة العثمانية مع القسطنطينية العاصمة الوحيدة في العالم التي كانت عاصمة على المستويات جميعها: السياسي والعسكري والبحري والديني (الإسلامي والمسيحي على حد سواء) والاقتصادي والثقافي والفني gastronomic.

القسطنطينية هو اسم المدينة المستخدم في هذا الكتاب، والاسم الذي استخدم كثيراً في الوثائق والعملات المعدنية العثمانية، وكان أيضاً الاسم الأكثر استخداماً في اللغات الأخرى. (حين تظهر أسماء أخرى في الاقتباسات، سأتركها كما هي). إذ استخدمت الجماعات المختلفة أسماء مختلفة للمدينة منها: إسطنبول وإسلامبول وكوشتا Kushta وكونس/بول Cons/ple وغوسدانتنوبوليس Gosdantnubolis وتسايريغراد Tsarigrad ورومية الكبرى وروما الجديدة وأورشليم الجديدة ومدينة الحج ومدينة القديسين ودار الخلافة وعرش السلطنة ومقر الدولة وباب السعادة وعين العالم وماوى الكون والبوليس(*) والمدينة.

(*) كلمة بوليس polis في اللغة اليونانية تعني «مدينة»، وكان القسطنطينية هي المدينة الوحيدة في العالم، وما عداها أرياف وبوادر وقفار. [المترجم].

«الكتاب قصة للمدينة التي ظلت فترة طويلة أعظم مدينة عائلية على الإطلاق»



القسطنطينية: المدينة التي اشتهاها العالم 1453 – 1924

القسطنطينية! القسطنطينية! ... إنها إمبراطورية العالم!
نابليون الأول، 1807

الفتاح

القسطنطينية كرسى الإمبراطورية
الرومانية... ما يجعلك الإمبراطور الشرعي
للرومان... وَمَنْ يَكُنْ إمبراطورَ الرومان،
يَكُنْ أيضا إمبراطور الأرض قاطبة.
جورج تراپزونتيوس
George Trapezuntios
لمحمد الفاتح، 1466م

في ظهيرة التاسع والعشرين من مايو
1453م، دخل السلطان المدينة التي حلم بها
طويلا. تقدم السلطان على حصان أبيض وسط
طريق من الموت، إذ أحل الجيش العثماني
المنتصر وسط القسطنطينية للسلب والنهب.
وفي ذلك يذكر مراقب من البندقية أن الدم
تدفق خلال الشوارع مثل مياه المطر بعد
عاصفة مفاجئة، وطففت الجثث فوق هذه
الأنهار متجهة ناحية البحر مثل بطيخ فوق مياه
قناة⁽¹⁾. وكتب مسؤول عثماني، هو طورسون بك

«تمتعت القسطنطينية بذاكرة
تاريخية استثنائية»

Tursun Beg، أن الجند «أخذوا آنية فضية وذهبية وأحجارا كريمة وكل أنواع السلع والأقمشة الثمينة من القصر الإمبراطوري وبيوت الأغنياء. ومن خلال ذلك، انتقل أناس كثيرون من الفقر إلى الغنى، وامتلأت خيام الجند جميعها بالغلمان المليحين والفتيات الجميلات». ظل السلطان على ظهر جواده حتى وصل إلى الكنيسة الأم للمسيحية الشرقية وكرسي البطريركية المسكونية، كاتدرائية الحكمة المقدسة التي كان بناها الإمبراطور جوستينيان بأكبر قبة في أوروبا قبل تسعمائة عام، وهناك ترجل السلطان وانحنى إلى الأرض وأخذ قبضة من التراب، ثم نثرها فوق عمامته، تعبيرا عن التواضع لله.

وداخل الكاتدرائية التي اعتبرها اليونانيون «الجنة الدنيوية وعرش مجد الرب وبيت الملائكة»، نادى أحد الأتراك أن «لا إله إلا الله، محمد رسول الله». وتحولت كاتدرائية هاغيا صوفيا Haghia Sophia إلى جامع آيا صوفيا. وبينما كان السلطان يدخل الكاتدرائية، كان الجنود الأتراك يجمعون مئات اليونانيين الذين لجأوا إليها انتظارا لمعجزة إلهية لإنقاذهم، ويسوقونهم أسرى خارج الكنيسة. أوقف السلطان واحدا من جنوده كان يقطع رخام الأرضية وقال له بزهو الفاتح: «اشبعوا بالغنائم والأسرى، أما بنايات المدينة فهي لي». وصلى السلطان تحت الفسيفساء الذهبية للسيد المسيح ومريم العذراء والقديسين الأرثوذكس والأباطرة البيزنطيين. وبعد أن تلقى التهاني من حاشيته، قال: «حفظ الله آل عثمان! وأدام عزهم إلى الأبد!»⁽²⁾.

كان محمد الثاني، سلطان الإمبراطورية العثمانية المعروف في اللغة التركية باسم الفاتح، في العشرين من عمره فقط يوم فتح القسطنطينية، في العام 1453. ومحمد، المولود في إدنة العاصمة العثمانية السابقة الواقعة على مسافة مائتي ميل شمال غرب القسطنطينية، كما جاء في تاريخ كلف هو نفسه بكتابته، سيطرت عليه منذ طفولته فكرة فتح القسطنطينية، وكان يلح دائما على ضرورة الاستيلاء على المدينة من دون إرجاء. وسنحت له الفرصة لتحقيق حلمه بعد أن ورث العرش في العام 1451، بعد موت أبيه مراد الثاني.

كانت القسطنطينية بطبيعتها مطمعا للجميع، كأن الجغرافيا والتاريخ قد أعدها لتكون عاصمة لإمبراطورية عظيمة. فالمدينة الواقعة على طرف شبه جزيرة مثلثة، تحيطها المياه من ثلاث جهات. فإلى الشمال منها، يمتد مرفأ بعرض كيلومتر

واحد وطول ستة كيلومترات يسمى القرن الذهبي Golden Horn، ربما لأن مياهه تتلألأ بلون الذهب تحت أشعة الشمس، وإلى الشرق منها يوجد البسفور، ذلك الممر المائي الضيق الذي يفصل أوروبا عن آسيا، وإلى الجنوب منها يوجد بحر مرمرة، ذلك البحر الداخلي الصغير الذي يربط بين بحر إيجه والبحر الأسود. لذلك كانت المدينة حصناً طبيعياً وميناءً عميقاً منقطع النظير، تمتع بالوصول السهل بحراً إلى أفريقيا والبحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود، كما أنها كانت تقع أيضاً على تقاطع الطرق البرية الرئيسية بين أوروبا وآسيا، وحوضي الدانوب والفرات. كأن موقعها قد خلق لكى يكون مصب الثروة من أربعة أركان الكرة الأرضية.

تأسست بيزنطة كمستعمرة يونانية إبان القرن السابع قبل الميلاد على ما يقال، ثم أعاد قسطنطين الأكبر تأسيسها في العام 324 باسم روما الجديدة، لتكون عاصمة جديدة في موقع إستراتيجي أفضل من روما القديمة الواقعة على نهر التير. وعلى مدار أكثر من ألف عام تالية، كانت المدينة عاصمة الإمبراطورية الرومانية في الشرق. وإبان القرن السادس، حكم الإمبراطور جوستينيان باني هاغيا صوفيا، من القسطنطينية، إمبراطورية امتدت من الفرات إلى مضيق جبل طارق. أضافت المدينة إلى عظمة روما عقب الزمن، إذ تعاقب اثنان وتسعون إمبراطوراً على «ملكة المدن»، وهو تاريخ إمبراطوري متواصل لم تشهده مدينة أخرى في العالم. وعلى مدار ألفيتها كإمبراطورية، كانت القسطنطينية المدينة الأكبر والأكثر تقدماً في أوروبا، ومستودع تماثيل ومخطوطات الماضي الكلاسيكي، والمركز العصبي للمسيحية الشرقية. وقد دفع ثراؤها أحد رحالة القرون الوسطى، هو بنيامين التطيلي Benjamin of Tudela (*)، إلى أن يكتب: «السكان اليونانيون أغنياء جداً بالذهب والأحجار الكريمة، ويلبسون الحرير المطرز بالذهب، ويركبون الخيول ويبدون كالأمرءاء في أبهتهم... وثراء القسطنطينية على هذا النحو لا نظير له في العالم أجمع». وكتب فارس صليبي، هو سير دي فيلاردو Sieur de Villehardouin، أن القسطنطينية أذهلت رفاقه الصليبيين في العام 1203م، حين رأوا هذه الأسوار العالية وتلك الأبراج الشاهقة التي تحيطها كاملة، وتلك القصور الفخمة والكنائس الشامخة التي ضمت المدينة منها عددا لا يصدق المرء ما لم يره بأعينه».

(*) نسبة إلى مدينة تطيلة بمقاطعة نفارا الإسبانية. [المترجم].

كانت القُسطنطينية محاطة بأسوار هي الأعظم والأفخم في أوروبا، بُنيت بين العامين 412 و422 بعد الميلاد. امتدت أسوار المدينة، بالخندق المائي بجوارها، وفتحات إطلاق النار فيها، والأبراج المائة والاثنتين والتسعين التي تتخللها، وسمكها الضخم، امتدت بطول 6.67 كيلومتر من القرن الذهبي إلى بحر مرمرة، وكانت ترتفع وتتحدر وقفا لتفاوت ارتفاع سطح الأرض. وامتدت أيضا على طول بحر مرمرة والقرن الذهبي لتطوق المدينة كاملة. وبحلول القرن التاسع عشر، كان الخندق المائي قد غطته البساتين والجبانات. وبعد أن تهدم السور وكساه اللبلاب، غدت الدوريات فوق ظهره تقوم بها الماعز والأغنام بدلا من الحرس الإمبراطوري. ومع ذلك، فقد كتب بيرون Byron: «لقد شاهدتُ حطام أثينا وإفسوس (*) ودلفي (**)، وعينت الجزء الأكبر من تركيا وأجزاء أخرى كثيرة من أوروبا، وكذلك آسيا، لكنني لم أر عملا طبيعيا أو فنيا يعطي الانطباع الباهر الذي يعطيه المنظر على جانبي السور من الأبراج السبعة حتى نهاية القرن الذهبي»⁽³⁾.

بُنيت الأسوار لأن القُسطنطينية - كما كتب أحد البيزنطيين - كانت «المدينة التي يشتهيها العالم». فلم تتعرض مدينة لعدد الهجمات ونوبات الحصار التي تعرضت لها القُسطنطينية: من القوط (في العامين 378م و476م) والهون (***)⁽⁴⁴¹⁾ والسلاف ****^(540 و559 و581) والأفار^(†) (617) والفرس والأفار (626) والعرب (669-79 و717-18) والبلغار (813 و913 و924) والروس (أربع مرات بين العامين

(*) إفسوس أو Ephesus مدينة يونانية قديمة، ولاحقا مدينة رومانية رئيسة على ساحل أيونيا، كانت إحدى المدن الاثنتي عشرة بالحلف الأيوبي إبان العصر اليوناني الكلاسيكي، توجد حاليا ضمن غرب الأناضول التركية، ارتبط اسمها في العصر المسيحي بمجمع إفسوس المسكونية في الأعوام 431 و449 و575. [المترجم].

(**) دلفي Delphi موقع أثري ومدينة حديثة في اليونان على الرُعن الجنوبي الغربي لجبل بارناسوس في وادي فوكيس Phocis، تقول الأساطير إنها كانت موقع بيتيا Pythia وسيط الوحي الأهم في العالم اليوناني القديم والموقع الرئيس لعبادة الإله أبولو بعد أن ذبح التنين Python الذي كان يعيش هناك ويحمي صرة الأرض، ويعتقد أن اسم المدينة مشتق من اسم التنين الذي هزمه أبولو. [المترجم].

(**) الهون Huns مجموعة من القبائل البدوية ظهرت في أوروبا من شرق نهر الفولغا بمنطقة السكوثيين الأوائل بالقرب من بحر قزوين. [المترجم].

(***) السلاف Slavs (يسمون الصقالبة في التاريخ العربي الإسلامي) شعوب تتحدث اللغات السلافية، قطنت أوروبا الوسطى والشرقية ومنطقة البلقان وغزت شمال آسيا في قرون متأخرة [المترجم].

(†) الأفار Avars قبائل بدوية فروسية سيطرت على آسيا الوسطى إبان القرنين الرابع والخامس، وحين أُجِّلَتْهم قبائل أقوى منهم، اندفعوا غربا وأقاموا إمبراطورية شملت أجزاء كبيرة من أوروبا الوسطى والشرقية من أواخر القرن السادس حتى القرن التاسع. [المترجم].

860 و1043) والبجناك^(*) (1087). و«لم تتعاف المدينة مطلقاً من نهبها على أيدي حملة صليبية غربية في العام 1204، نظمتها منافستها التجارية: البندقية^(**). وبعد أن عادت المدينة إلى البيزنطيين في العام 1261، أدت الهزائم المتكررة للإمبراطورية البيزنطية أمام أعداء مسلمين والحروب الأهلية بين الأباطرة المتنافسين إلى تقليص عدد سكان المدينة من ذروته التي بلغت أربعمئة ألف إلى نحو خمسين ألف يوناني أو «روماني» كما كانوا يطلقون على أنفسهم بفخر^(***). وبحلول العام 1400، كانت المدينة قد تقلصت إلى مجموعة من البلدات الصغيرة تفصلها المزارع والبساتين.

وفي العام 1453، كان سلطان الإمبراطور الأخير قسطنطين الحادي عشر لا يتجاوز المدينة ويضع جزر ومناطق ساحلية وشبه جزيرة بيلوبونيز. كانت التجارة قد انتقلت إلى أيدي البنادقة والجنوئين، والتماثيل الكلاسيكية قد بيعت أو سُرقت، والرصاص المستخدم في سقف القصر الإمبراطوري قد نُزع لسك العملة. عاين السلطان محمد الفاتح القصر الخرب من فوق سطح آيا صوفيا، وتفكر في الإمبراطوريات والأباطرة الآخرين البائدين وقال البيتين التاليين:

يحرص العنكبوت قصور الأكاسرة.
وتنادي البومة الحراس في قصر الأفراسياب^(****)(4).

وإذا كان التاريخ والجغرافيا قد جعلاً من القسطنطينية عاصمة إمبراطورية لا تضاهي، فقد رأى العثمانيون أنهم مقدر لهم أن يحكموا إمبراطورية عظيمة. حتى حين كان الأتراك لا يزالون بدواً في وسط آسيا، كان كثيرون منهم يعتبرون

(*) البجناك Pechenegs شعب تركي شبه بدوي ظهر في سهول آسيا الوسطى بين الفولغا الدنيا ونهر الدون وجبال الأورال يتحدث اللغة البجناكية التي تنتمي إلى عائلة اللغات التركية، حكموا إبان القرنين التاسع والعاشر معظم السهول الواقعة إلى جنوب غرب أوراسيا وشبه جزيرة القرم. [المترجم].
(**) كان الهدف المعلن لهذه الحملة - مثل كل الحملات الصليبية الأخرى - هو غزو بيت المقدس من خلال مصر، لكن يأساً من تحقيق مطلبهم بسبب قوة الدولة الأيوبية، اتجهت الحملة إلى القسطنطينية واحتلتها وبنتها وأسست ما عُرف باسم الإمبراطورية اللاتينية التابعة للبندقية، بينما واصل البيزنطيون المقاومة من نيقية وطرابزون حتى استعادوا عاصمتهم في العام 1261. كان هذا الاحتلال والحروب التي رافقته أحد العوامل الرئيسة في تكريس الانقسام بين الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية والكنيسة الكاثوليكية الرومانية، وأحد الأسباب الأساسية لتراجع الإمبراطورية والمسيحية في الشرق الأدنى. [المترجم].

(***) لاتزال الدولة التركية حتى اليوم تطلق اسم «الروم» على مواطنيها الأرثوذكس. [المؤلف].
(****) الأكاسرة هم حكام بلاد فارس القديمة، وأفراسياب أحد أبرز شخصيات الشاهنامه، تقول الأسطورة إنه ملك مانين أو أربعمئة سنة، وآل أفراسياب أيضاً هم حكام إمبراطورية الفرخطاي أو الخيتان السود في آسيا الوسطى. [المترجم].

أنفسهم «شعب الله المختار». فالأتراك، الشياطين في الحرب والملائكة في السلم، البطوليون والعطوفون بالقدر نفسه، كان مقدرا عليهم أن يحكموا العالم. تنتمي العائلة العثمانية إلى قبيلة قايي Kayi من فرع الأوغوز Oghuz التركي الذين جاءوا إلى الأناضول من وسط آسيا مع آلاف من الأتراك الآخرين إبان القرن الثاني عشر. كانوا بدوا رعاة جذبهم المناخ وفراغ السلطة الناتج عن تدهور الإمبراطورية البيزنطية والسلطنة السلجوقية، والأخيرة كانت هي الأخرى في السابق دولة تركية قوية مركزها قونية في غرب الأناضول. وفي أوائل القرن الرابع عشر، تمكن السلطان العثماني الأول - عثمان - من اقتطاع إمارة مستقلة في شمال غرب الأناضول على حافة الإمبراطورية البيزنطية حول بورصة: العاصمة العثمانية الأولى.

وبفضل تعاقب سلسلة من السلاطين الأفذاذ وتكوين قوة خاصة منيعة عرفت باسم الانكشارية (من الاسم التركي yeni ceri الذي يعني «القوات الجديدة»)، وأيضا بفضل ضعف الدول المجاورة والشقاق بينها، حقق العثمانيون صعودا خاطفا إلى القوة العالمية. فاستغلوا حماس المسلمين للغزو والجهاد ضد المسيحيين، وهي حروب كانت تضمن فرصا للنهب. واستفاد الصعود العثماني أيضا من الانقسامات بين المسلمين والمسيحيين. فقد حارب الأتراك من أجل اليونانيين وضدهم، حتى إن الأتراك العثمانيين انتقلوا إلى أوروبا لأول مرة في العام 1352 للعمل مرتزقة للإمبراطور يوحنا كانتاكوزينوس John Cantacuzenus في حرب أهلية بيزنطية. وفي خمس مناسبات منفصلة، تزوج أمراء عثمانيون أميرات يونانيات أو سلافيات (والفاتح مع أن أمه كانت جارية من أصل مسيحي أو يهودي، لم يكن يجري في عروقه دم بيزنطي إمبراطوري). كان العثمانيون في بادئ الأمر مرتزقة يعملون لحساب الإمبراطور البيزنطي، وسرعان ما تحولوا إلى منافسين له، ساعدهم في ذلك تحالفهم مع جمهورية جنوى التجارية الغنية. وبحلول العام 1366، كانت العاصمة العثمانية قد انتقلت من بورصة في آسيا إلى إدرنة في أوروبا. وفي السنوات الثلاثين التالية، هزم العثمانيون المملكتين الأرثوذكسيتين الكبيرتين بلغاريا وصربيا اللتين تطلعتا إلى الاستيلاء على القسطنطينية.

توقف التوسع العثماني فترة قصيرة بسبب صعود الغازي التركي المنافس تيمورلنك في وسط آسيا. وفي العام 1402، هزم تيمور السلطان العثماني بايزيد

الأول وأسرته، فالأخير - على ما يبدو - لم يكن يستحق اسم يلدريم Yildirim أو «الصاعقة» الذي أطلقه على نفسه. وبعد موت تيمورلنك، استؤنف الصعود العثماني إلى القوة العالمية. ففتحوا معظم الأناضول والبلقان، وأصبحت القسطنطينية جزيرة يونانية في بحر عثماني، وحاصرها بايزيد الأول ثم مراد الثاني أبو محمد الفاتح. وكان صمودها أمامهما ضرباً من المعجزات.

بعد سقوط المدينة، وبموجب القانون الإسلامي الذي يحكم معاملة المدينة التي ترفض الاستسلام، أُعطي جنود السلطان الحق في استعباد نحو ثلاثين ألف ساكن مسيحي وإبعادهم. وأُعمل السيف في آلاف غيرهم. ومات الإمبراطور الأخير قسطنطين الحادي عشر في أثناء القتال، وكانت الإمبراطورية الرومانية كفته. وأعدم كبير وزرائه لوкас نوتاراس Lucas Notaras، إما خوفاً من أن يعمل لحساب عدوتي السلطان الغريتين: البندقية والبابوية، وإما لأنه رفض أن يقدم ابنه لمتعة السلطان. وهو المصير الذي شاركه فيه معظم النبلاء اليونانيين والبنادقة الذين بقوا في المدينة.

لقد أخذت القسطنطينية بالسيف، وحتى نهاية الإمبراطورية العثمانية بعد أربعمائة وتسعة وستين عاماً، ظلت القوة الوسيطة الأساسية للسيطرة في أيدي العثمانيين، تماماً كما كانت بالنسبة إلى العائلات الحاكمة الأخرى. ففي العام 1452، ومن باب الإعداد للحصار، صمم السلطان قلعة روملي حصاري Rumeli Hisari العظيمة وشيّدتها على البسفور. و«في عجالة» بين العامين 1453 و1455، شيّد حصنٌ يدي كول Yedi Kule (أي «الأبراج السبعة» في اللغة التركية) الضخم ذو الأبراج السبعة في غرب المدينة، حيث تلتقي الأسوار البرية ببحر مرمره. بيد أن إهمال ذلك الحصن حالياً لا يشي بأن الرعب الذي كان يثبته في القلوب لم يكن يقل بحال من الأحوال عن ذلك الذي ارتبط بسجن الباستيل (*)

(*) الباستيل Bastille قلعة في فرنسا أنشئت بين العامين 1370 و1383 كحصن للدفاع عن باريس، ثم تحولت إلى سجن للمخالفين السياسيين والدينيين، وعلى مر السنين أصبحت رمزاً للطغيان، لذلك انطلقت منها الشرارة الأولى للثورة الفرنسية في الرابع عشر من يوليو 1798. [المترجم].

أو برج لندن^(*). ففي هذا الحصن، كانت الثروة تُكَنَز، وسفراء الأعداء يُسَجَنون، وأعداء السلطان - وفي بعض الأحيان السلطان نفسه - يُعَدَمون. تلقى الحصن معمودية الدم في الأول من نوفمبر 1463، حين أُعِدِمَ ديفيد كومينوس David Comnenus آخر إمبراطور يوناني لطرابزون^(**) الواقعة على البحر الأسود، أمام زوجته الإمبراطورة هيلينا، بسبب الشك في تعاونه مع أعداء السلطان، وقتل معه ستة أبناء وأخ وابن أخ. وألقيت جثثهم جميعاً خارج الحصن، حيث أكلتها الكلاب. وغُرِّمَت الإمبراطورة على محاولة دفنهم⁽⁵⁾.

لم يهتم شاعر أو رحالة بالقسطنطينية كما هام بها الفاتح. استخدم السلاطين العثمانيون اللقب التركي «خان» الذي يعني «إمبراطور»، وكذلك اللقبين الفارسيين «باديشاه» Padishah (الملك العظيم) و«شاهنشاه» Shahinshah (ملك الملوك) واللقب العربي «سلطان». وبداية من العام 1453، أخذ محمد الثاني، وكذلك فعل خلفاؤه من بعده، ينظرون إلى أنفسهم أيضاً على أنهم ورثة الإمبراطورية الرومانية والأباطرة الحقيقيون الوحيدون في أوروبا. وفي ذلك كتب جنوي كان يقيم في المدينة، بعد بضعة أيام من الفتح: «بإيجاز، لقد زادت غطرسته كثيراً بعد الاستيلاء على القسطنطينية، لدرجة أنه يعتقد أنه سيصبح قريباً سيد العالم أجمع، ويقسم علناً بأنه قبل أن يمر عامان سيكون قد وصل إلى روما». فقد كانت أوروبا وروما موضع اهتمام العثمانيين كمجال للتوسع، أكثر من المناطق الناطقة بالتركية في وسط آسيا أو القوقاز. وكانت الاستعارة التركية للسيادة العالمية هي «التفاحة الحمراء». قبل العام 1453، تمثلت التفاحة الحمراء في الكرة الأرضية التي حملها في يده اليمنى تمثال عملاق للإمبراطور جوستينيان، كان منتصباً أمام هاغيا صوفيا. وبعد تحطيم التمثال في العام 1453، انتقلت التفاحة غرباً، وأصبحت تشير إلى الهدف التالي للعثمانيين، وهو مدينة روما. فكانت «إلى

(*) برج لندن Tower of London أو القصر والقلعة الملكيين لصاحبة الجلالة، قلعة تاريخية على الضفة الشمالية لنهر التايمز بوسط لندن، بني في العام 1066 كجزء من الغزو النورمندي لإنجلترا، وفي العام 1078 أمر وليام الفاتح ببناء البرج الأبيض الذي أصبح رمزاً للقمع الذي أنزلته النخبة الحاكمة بلندن، وبداية من العام 1100 استخدمت القلعة كسجن من حين إلى آخر، وجاءت ذروة استخدامها كسجن إبان القرن السادس عشر، حين أصبحت العبارة «أُرْسِلَ إلى البرج» كناية عن أن المبتلى في طريقه إلى التعذيب والإعدام. [المترجم].

(**) إمبراطورية طرابزون Trebizond إحدى ثلاث إمبراطوريات يونانية بيزنطية خلفت الإمبراطورية البيزنطية، تأسست في العام 1204 في المدينة التي لاتزال تحمل الاسم نفسه في شمال شرق تركيا على ساحل البحر الأسود. [المترجم].

روما! إلى روما!« الصيحة الدائمة لابن حفيد محمد الثاني الشهير باسم سليمان القانوني. وبالنسبة إلى السلاطين اللاحقين، تمثلت التفاحة الحمراء في فيينا عاصمة الأباطرة الرومان المقدسين من آل هابسبرغ⁽⁶⁾ (*). فالطموح العثماني لم يكن له نظير. وفي المقابل، ظل شاه فارس مكبلا، وملك فرنسا متواضعا، والإمبراطور الروماني المقدس محليا. دفعت العثمانيين أيضا الرغبة في مضاهاة المجد الذي بلغه الإسكندر الأكبر. فقد توحيد محمد الثاني مع الإسكندر بقوة لدرجة أنه كلف موظفا يونانيا صغيرا يدعى ميخائيل كريتوفولوس Michael Kritovoulos بكتابة سيرته باللغة اليونانية على الورق نفسه - وبالصيغة نفسها - الذي كتبت عليه نسخة أريان Arrian من سيرة حياة الإسكندر الموجودة في مكتبة السلطان، التي كانت تُقرأ عليه «يوميا». وكتب مبعوث بندقية أن محمد الثاني «يعلن أنه سيتقدم من الشرق إلى الغرب، كما تقدم الغربيون في مرات سابقة من الغرب إلى الشرق. ويقول إنه يجب أن تكون هناك إمبراطورية واحدة ودين واحد وسلطة واحدة في العالم. ولم يكن ثمة مكان أهم لخلق هذه الوحدة العالمية من القسطنطينية»⁽⁷⁾.

كانت الإمبراطورية التي حكمها محمد الثاني وخلفاؤه من القسطنطينية دولة عائلية. ومع أن الأوروبيين حبسوا العقلية القومية كانوا غالبا يطلقون على السلطان اسم «عظيم الترك» Grand Turk وعلى الإمبراطورية العثمانية اسم «تركيا»، كأنها دولة قومية، فإن اسمها الرسمي ينقل جوهرها العائلي، إذ كانت تسمى دولة آل عثمان «المحروسة» أو «العلية»، أو «الدولة العلية». وكانت النخبة الحاكمة من الجنود والمسؤولين والقضاة، وبداية من منتصف القرن التاسع عشر كل المواطنين، يُسمون عثمانيين على اسم العائلة الحاكمة. وحتى نهاية القرن التاسع عشر، كانت كلمة «تركي» لفظة ازدرائية تستخدم للفلاحين الأناضوليين.

(*) آل هابسبرغ Habsburg أو آل النمسا، واحدة من أعرق العائلات الحاكمة في أوروبا العصور الوسطى والعصر الحديث المبكر، كان منهم الأباطرة الرومان المقدسون من العام 1538 إلى العام 1740 وحكام الإمبراطورية النمساوية والإسبانية وبلاد أخرى كثيرة، أخذت الأسرة اسمها من قلعة هابسبرغ التي بناها بين العامين 1020 و1030 في سويسرا الحالية الكونت رادبوت الكيتاغوي Radbot of Kettgua وكان ابنه أوتو الثاني أول من أضاف اسم القلعة «الهابسبرغي» إلى لقبه، وحكمت العائلة مناطق واسعة من أوروبا والعالم الجديد في أوجها، وكانت أقوى ممالكها في إسبانيا وانتهت بموت آخر ذكورها في العام 1700، الذي أطلقت وفاته حرب الخلافة الإسبانية، وفي النمسا التي استمرت فيها بعد حرب الخلافة النمساوية (1740 - 1748) في شخص ماريا تريزا أرشيدوقة النمسا وملكة المجر. [المترجم].

وكما أوجد آل هابسبرغ فيينا، كذلك كانت القسطنطينية من خلق آل عثمان. فقد كانوا في حاجة إلى مدينة عالمية في مستوى إمبراطوريتهم. أطلق محمد الثاني وخلفاؤه على أنفسهم لقب «فاتح العالم» أو «ملك العالم». وكان من الألقاب المفضلة التي انتشرت سريعا لكل من السلاطين ومدينتهم «عالم بيناب» *alem penab* التي تعني «مأوى العالم». وقد بدا من الملائم خلق عاصمة متعددة القوميات لإمبراطورية قُدِّر لاحقا أن ضمت اثنتين وسبعين قومية ونصف قومية (*). غدت التعددية القومية جوهر القسطنطينية. وكان من الأدوات الأدبية الشائعة بين الكتاب العثمانيين أن يقارنوا مزايا ومحاسن القوميات الكثيرة التي تعيش في الإمبراطورية وعاصمتها. وإبان القرن الخامس عشر، غدت الاختلافات القومية المستندة إلى التاريخ والجغرافيا أكثر منها إلى العرق، محسوسة جدا للناس، ومن ذلك وصف البطريك المسكوني الأول في عهد العثمانيين جناديوس Gennadios لليونانيين بأنهم «عرق لا يوجد أرقى منه على وجه الأرض». ويقول مثل بولندي من القرون الوسطى: «مادام العالم بقي كما هو، فلن يصير البولندي أخا للجرماني». وأثنى مؤرخ القرن السادس عشر البارز مصطفى علي Mustafa Ali على تعدد القوميات في الإمبراطورية باعتباره مصدرا للقوة. كان من بين هذه القوميات الأتراك واليونانيون والفرنجة والأكراد والصرب والعرب وغيرهم (**). وإبان القرن التاسع عشر، وصف أحد وزراء السلطان، هو جودت باشا Cevdet Pasha، الإمبراطورية العثمانية بأنها مجتمع عظيم «لأن شعبها يتحدث لغات كثيرة، ولأنها انتقت أفضل المواهب والعادات والأخلاق من بين أقوامها المتنوعين⁽⁸⁾. وكانت القوميات المختلفة في القسطنطينية تعلن عن نفسها بفخر عبر الرسوم والصور الفوتوغرافية وتكوين حرس السلطان، وإبان القرن العشرين في المواكب السياسية والوفود المرسلة لخلع السلطان.

كانت السياسة الواقعية *Realpolitik* السبب الرئيس لتنوع القوميات وتعددتها في القسطنطينية. فقد احتاج الفاتح في عاصمته الجديدة إلى سكان

(*) كان الغجر يعتبرون نصف قومية. [المؤلف].

(**) تشير كلمة الفرنجة إلى الفرنسيين تحديدا، أي الفرانك Franks، كما تُعمَّم كثيرا إلى الأوروبيين الغربيين جميعا. [المترجم].

كثيرين ومزدهرين لخدمة القصر وماكينة الدولة. ولم يكن هناك ما يكفي من الأتراك المسلمين لجعل القسطنطينية مدينة تركية تماما. فقد كانت غالبية سكان الإمبراطورية مسيحية في هذه المرحلة. وكان الأتراك مطلوبين في مختلف أرجاء الإمبراطورية، لتأهيل مدن البلقان والريف الأناضولي بالسكان. ونتيجة لذلك كتب المؤرخ كريتوفولوس أنه بعد العام 1453 جمع السلطان في القسطنطينية أناسا «من كل أرجاء آسيا وأوروبا، ونقلهم بكل عناية وسرعة، وهم أناس من كل الأمم، خاصة المسيحيين. فقد كان ولعه بالمدينة شديدا، وكذلك بتأهيلها بالسكان وإعادة ازدهارها السابق». وفي العاصمة الجديدة، كانت كل محلة أو رَبع (وحدة المعيشة الأساسية بالمدينة التي تضم دور عبادة لقاطنيها ودكاكين وأسبله وحراسا ليليين) تحتفظ باسم المدينة الأصلية التي جاء منها سكانها، وكذلك عاداتهم الخاصة ولغاتهم وأساليب عمارتهم⁽⁹⁾.

كان الأتراك الجماعة الأولى والأكبر عددا التي جلبها السلطان إلى القسطنطينية. فعلى مدى السنوات التالية للاستيلاء على المدينة في العام 1453 ظلت المدينة خرابا، كأن الطاعون قد ضربها. وكان على السلطان أن يستخدم الأسلوب العثماني المعروف باسم السورغون *surgun*، أي التهجير القسري للسكان، لنقل الأتراك إلى عاصمته الجديدة. وفي ذلك كتب المؤرخ عاشق باشا زادا *Ashikpashazade* أن السلطان:

أرسل مسؤولين إلى كل ربوع دولته يعلنون أن القسطنطينية تفتح أبوابها لكل رعايا الدولة، وتعددهم بامتلاك البيوت والبساتين والحدائق بلا مقابل... لكن على رغم هذا الإجراء، ظلت المدينة قليلة السكان، لذلك أمر السلطان بأن يؤتي بالقوة من كل ناحية بالأسر الفقيرة والغنية على حد سواء. وأُرسل المسؤولون بالفرمانات إلى القضاة وحكام كل ولاية... وبعد ذلك بدأ سكان المدينة يزدادون كثيرا.

ذهب محمد الثاني شخصا إلى بورصة لإجبار صناع هذه المدينة التجارية الغنية وتجارها على الانتقال إلى العاصمة. ولايزال الرثاء موجودا لمصير الفنانين والحرفيين الذين نقلوا بقسوة من العاصمة السلجوقية القديمة قونية بالأناضول إلى المدينة المملوطة بالدماء على شاطئ البسفور. وفي بعض اللحظات، انتابت الفاتح نفسه شكوك حول جائزته الجديدة، وفكر في العودة إلى العاصمة السابقة إدرنة التي كانت تتمتع

بعوامل الجذب الثلاثة: السكينة والقرب من أراضي الصيد والجغرافيا، والأخيرة جعلتها مركز التعبئة الطبيعي للحملات العثمانية على أوروبا⁽¹⁰⁾. لكن شكوك السلطان لم تدم. فكما فعل قسطنطين الأكبر قبل ألف ومائة عام حين استدعى أعضاء مجلس الشيوخ من روما إلى القسطنطينية، وكما فعل بيتر الأكبر بعد مائتين وخمسين عاما في سانت بطرسبرغ، أمر السلطان «دعائم الإمبراطورية» بالانتقال إلى عاصمته الجديدة. وطلب منهم «أن يشيّدوا بيوتا ضخمة في المدينة في الأماكن التي يختارها كل منهم. وأمرهم أيضا ببناء حمامات عامة وخانات وأسواق، والكثير من الورش الجميلة جدا لتشيد دور العبادة». وكان محمود باشا، رجل الدولة المقتدر في زمانه، من أوائل الأعيان الذين شيّدوا مساجد، يوجد مسجده حاليا في منطقة الخانات والأزقة المزدحمة بجانب البازار الكبير⁽¹¹⁾ Grand Bazaar.

كما استورد الفاتح يونانيين أيضا. لم تكن بعض مناطق المدينة قد فقدت سكانها اليونانيين. فعلى خلاف الفتح بالسيف الذي حدث مع المدينة، استسلمت بساماتيا Psamatya التي تُعرف حاليا باسم كوجا مصطفى باشا Koca Mustafa Pasha في جنوب غرب المدينة بالقرب من السور، وأفلتت بذلك من السلب والنهب، الأمر الذي يفسر وجود عدد كبير من الكنائس فيها اليوم. وفي قلب المدينة، وبرغبة صريحة من السلطان، بقيت ثانية أكبر كنيسة في المدينة، كنيسة الرسل المقدسين ومقبرة الأباطرة البيزنطيين والنموذج الأصلي لكنيسة سانت مارك في البندقية. كان محمد الثاني في حالة حرب مع الحكام المجاورين، المسيحيين والمسلمين، في الأناضول والبلقان على مدار معظم عهده. وفتح طرابزون والقرم^(*) وصربيا ووايية^(**) ودولة قرمان^(***) التركية المنافسة في الأناضول. ومع اتساع إمبراطوريته، نقل الفاتح يونانيين أكثر وأكثر بالقوة إلى القسطنطينية. ووطن مزارعين عبيدا يونانيين (تحرروا إبان القرن التالي) في القرى خارج المدينة لضمان تزويدها بالموّن الغذائية⁽¹²⁾.

لم تكن هناك حواجز دينية بين اليونانيين والأتراك الذين عاشوا معا. فالمسيحيون «أهل كتاب»، ومع أن الإسلام، باعتباره وحي السماء الأخير، قد نسخ دينهم، فقد ظل

(*) القرم Crimea شبه جزيرة على الساحل الشمالي للبحر الأسود، تتمتع بحكم ذاتي ضمن جمهورية أوكرانيا، استولت عليها روسيا منذ بضعة أشهر. [المترجم].

(**) وايية Euboea أكبر الجزر اليونانية بعد كريت. [المترجم].

(***) قرمان Karaman تشكل حاليا مدينة ومحافظة في جنوب وسط تركيا. [المترجم].

هذا الدين قريبا من الإسلام. ويجل المسلمون إبراهيم ومريم، ويعد «المسيح الذي ينزل عليه الخلاص»، كما جاء في مرسوم عثماني، أحد أعظم الأنبياء في الإسلام. وتقر الشريعة الإسلامية، كما جاءت نصا في القرآن، أن ينال المسيحيون في مقابل دفع الجزية والضرائب الأخرى وضعية أهل الذمة أو الرعايا المحميين، وكذلك الحق في حرية العبادة وإنفاذ شرائعهم الدينية.

ذهب محمد الثاني أبعد من ذلك. فنتيجة للنزاع بين مؤيدي المصالحة مع البابا ومعارضيه، لم يكن هناك بطريرك في القسطنطينية في العام 1453، وكان بوسع السلطان أن يترك الكرسي شاغرا حتى يختفي، كما حدث مع الكثير من الأسقفيات الأرثوذكسية في الأناضول العثمانية. لكن الفاتح كان الحاكم الأكثر استنارة في زمانه. وكان من علامات أصالته الفكرية أن أعاد البطريركية المسكونية التي كانت تتأصل الكنيسة الأرثوذكسية من القسطنطينية منذ القرن الرابع.

كان الراهب جورج جناديوس اسكولاريوس George-Gennadios Scholarius ابن القسطنطينية من أكثر الكهنة الأرثوذكس تعليما ومكانة في المدينة في زمانه. وفي الخمسين من عمره تقريبا، أصبح زعيم جماعة المؤمنين الأرثوذكس المعارضة للاتحاد مع روما. وحين أسره الأتراك في أثناء نهب القسطنطينية، أكرمه أسروه ووقروه في قرية قريبة من إدرنة. وهناك، كما ذكر كريتوفولوس، وكما أكدت الدراسات الحديثة، أرسل الفاتح في طلبه ومنحه الحرية والهدايا: «وفي النهاية عينه بطريركا وكاهنا أعلى للمسيحيين، وأعطاه - من بين حقوق وامتيازات أخرى كثيرة - حكم الكنيسة وسلطة لا تقل عما كانت لأسلافه في عهد الأباطرة». وقد كرسه الفاتح وتوجه في الخامس من يناير 1454 في كنيسة الرسل المقدسين.

لم تبق وثيقة تعيين جناديوس. بيد أنه من المؤكد أن اليونانيين اللاحقين بالغوا في الامتيازات التي منحت لجناديوس، إذ تُعلق اليوم في حجرة الانتظار بالبطريركية في اسطنبول صورة غير واقعية تظهر محمد الثاني وجناديوس متعادلين كُندين. بيد أن الحقيقة هي أن البطريرك أصبح منذ ذلك الحين خادما للإمبراطورية العثمانية. وحصل البطريرك الجديد على راتب كبير، ومعه تأكيد شخصي من السلطان الذي خاطبه بالصيغة: «أتمنى أن تكون بطريركا سعيد الحظ. اطمئن إلى صداقتنا، واحتفظ بكل الامتيازات التي تمتع بها أسلافك من البطارقة».



محمد الثاني فاتح القسطنطينية يمنح الامتيازات الإكليروسية للبطريرك المسكوني
جناديوس في العام 1453. طبعة من رسم زيتي أصلي يقال إنه من عمل جيرالمو غالازي
دا سانفانكروز (1500-1550). يظهر البطريرك
والسلطان شبه ندين. طُبِع هذا التصوير للعلاقات بين الحكومة العثمانية والجماعة اليونانية
في القرن التاسع عشر وعليه تعليقات باللغات العثمانية والفرنسية واليونانية والأرمنية
تعزيز التعايش الديني.

انطوى تعيين البطريرك على صفقة، حمى السلطان بمقتضاها البطريرك من الكنائس الأرثوذكسية السلافية المنافسة ومن المتعصبين من المسلمين. وفي المقابل، ساعد البطريرك في جمع الضرائب للسلطان، ونظريا ضمن ولاء اليونانيين ومنعهم من مساعدة عدوتي الإمبراطورية الكاثوليكتين: البندقية والبابوية اللتين ساعدتا في الدفاع عن المدينة في العام 1453، وحاولتا أن تسترداها. والبطريرك، باعتباره رئيس الجماعة الأرثوذكسية، أدار نظاما قانونيا أرثوذكسيا منفصلا، يقوم على قوانين جوستينيان، وامتلك سلطة التغريم والسجن والنفي على شعبه. وعلى رغم أن البطريركية في القسطنطينية كانت أضعف وأفقر من مكافئها الغربي في القاتيكان، فقد كانت أهم لشعبها. وكانت الرمز والمؤسسة التي حافظت على الدين والأمل حين في القلوب، وبعد فتح القسطنطينية تراجعت معدلات الدخول في الإسلام في المناطق العثمانية⁽¹³⁾.

كان محمد الثاني الذي أخذ المبادرة في هذه الإجراءات جميعها، يقدر الثقافة اليونانية، وكذلك الازدهار الذي يمكن أن يجلبه اليونانيون إلى عاصمته. فكانت القسطنطينية، في بعض الأحيان، بابا في الحائط الفاصل بين الإسلام والمسيحية. ففي

الفاتح

العام 1455 أو العام 1456، ذهب السلطان مع وجهاء بلاطه إلى مقر البطريرك وطلب من جناديوس أن يكتب شرحاً للمسيحية، تُرجم من اليونانية إلى التركية على نفقة السلطان. جاءت هذه الوثيقة المعنونة «خلاصة موجزة للدين المسيحي» طويلة ومعقدة جداً، إذ كان من الصعب حتى على المسيحي أن يفهم عبارات مثل «إننا نؤمن بأن كلمة الله، والإنسان الذي نُزلت عليه كلمة الله، هو السيد المسيح، وحين تكون حياة المسيح في لحمه حياة إنسان مقدس تماماً، تكون قوة حكمته وأعماله من قوة الله»^(*). واحتفظ السلطان باهتمامه بالمسيحية، وكان من بين مقتنياته من الآثار المسيحية المهد «الذي وُلد فيه المسيح»، الذي قال عنه لمبعوث بندقى إنه لا يبيعه بخمسمائة ألف دوقية^(**)، وعظمة ذراع القديس يوحنا المعمدان وجمجمته⁽¹⁴⁾.

كان بعض أتباع البطريرك أقل انفتاحاً واستنارة. فبعد بضعة أشهر من تكريس جناديوس، وُجد تركي مقتولاً في فناء كنيسة الرسل المقدسين. حتى السلطان نفسه لم يكن في مقدوره حماية البطريرك من حشد غاضب من المسلمين كانوا مستعدين لتقبل أسوأ الأفكار حول المسيحيين. نقل جناديوس البطريركية وآثارها المقدسة وكنوزها إلى كنيسة «أم الرب البهيجة» التي بُنيت بالطابوق إبان القرن الثاني عشر في منطقة الفناء بقرب شاطئ القرن الذهبي. ونتيجة لأن السلطان كان قد وُطن الكثير من الأسرى اليونانيين هناك، فقد كانت منطقة يونانية إلى درجة كبيرة.

كان الأرمن عنصرًا مسيحيًا آخر جلبه السلطان إلى القسطنطينية. وكانوا قومية متميزة عاشت في شرق الأناضول والقوقاز منذ القرن السادس قبل الميلاد على الأقل. منذ انعقاد المجمع الديني في خلقيدونية (قاضيكوي Kadikoy حالياً) المواجهة للقسطنطينية في العام 451، تبنى الأرثوذكس والكاثوليك كلاهما الاعتقاد بأن المسيح ذو طبيعتين متميزتين: بشرية وإلهية. بينما كان الأرمن من القائلين بالطبيعة الواحدة للمسيح: طبيعة واحدة بشرية وإلهية في الوقت نفسه. وقد أدى استخدامهم للغة والأبجدية الأرمنيّتين إلى الحفاظ على هويتهم المميزة، على الرغم من اختفاء آخر مملكة أرمنية في جنوب الأناضول إبان القرن الرابع عشر. وكان وجودهم بارزاً في

(*) ربما كان الغموض في أمثال هذه الوثائق مقصوداً لعجب الأفكار التي تتعارض مع الإسلام، مثل ألوهية المسيح أو بنوته لله، وما شابه ذلك. [المترجم].

(**) الدوقية أو الدوكاتية لعدد كان اسم العملة في كثير من البلاد الكاثوليكية مثل إسبانيا والإمارات الإيطالية في ذلك العصر. [المترجم].

شرق البحر الأبيض المتوسط كصاغة وحرفيين (خاصة كبنائين) وتجار، وهي مهارات كانت مهمة للفتح. وفي ذلك كتب كريتوفولوس أن «محمد الثاني نقل إلى المدينة رعاياه الأرمن الذين كانوا مميّزين في مجال الملكية والثروة والمعرفة التقنية وغيرها من الكفاءات الأخرى، فضلا عن الطبقة التجارية». وتلك هي نسخة السلطان الرسمية اللطيفة للحدث، بينما ألقى تاجر أرمني يدعى نيرسيس Nerses، كتب في العام 1480، باللائمة على السلطان في حشد «عاصفة هائلة على المسيحيين وعلى شعبه، من خلال نقلهم من مكان إلى آخر... فقد كتبتُ هذه الوثيقة في أوقات المارارة، حيث جلبونا من أماسيا (*) إلى كونستاندنوبوليس (***) بالقوة وعلى غير رغبتنا، وقد كتبتُ ذلك بمداد من دموعي أسي على حالنا».

تؤكد التقاليد الأرمنية التي تكشف عن نفسها في النقش الموجود على واجهة البطريركية الأرمنية الحالية الكائنة في منطقة كومكابي Kumkapi باسطنبول، أن محمد الثاني عين بطريركا أرمنيا في القسطنطينية في العام 1461. والحقيقة هي أن البطريرك الأرمني ظل في سيس (***) في قيليقية Cilicia أو إيتشيمادزين (****) في القوقاز، ولا يزال هناك إلى اليوم. وهذا النوع من الأساطير التاريخية نتج عن رغبة الأرمن في رفع مكانتهم في الإمبراطورية العثمانية، وعن اشتها محمد الثاني كبطل لكل القوميات، من نوع الإسكندر الأكبر، تستدعيه قوميات مختلفة حاميا لها. لكن مع صعود الأرمن في الثراء والنفوذ، ارتفعت منزلة أسقفهم. وإبان القرن السابع عشر، كان معترفا به بطريركا شرفيا أو «أسقفا يدعى بطريركا»، يدير المحاكم العدلية والسجن، تماما مثل البطريرك المسكوني⁽¹⁵⁾.

إلى الشمال من القرن الذهبي، وعلى النقيض تماما من القسطنطينية نفسها، توجد منطقة غَلَطَة Galata الغنية. سيطر الجنويون على هذه المنطقة منذ القرن الثالث، حين استقروا فيها. فكانت بمنزلة شنغهاي المشرق، أي مستعمرة شبه

(*) أماسيا Amasya حاليا مدينة ومحافظة في شمال تركيا. [المترجم].

(**) كونستاندنوبوليس Konstandnupolis أحد أسماء القسطنطينية. [المترجم].

(***) كانت مدينة سيس Sis قديما عاصمة مملكة قيليقية Cilicia الأرمنية، تقع حاليا في مقاطعة أرارات الأرمنية. [المترجم].

(****) إيتشيمادزين Echmiadzin أو فاغارشاباد Vagharshabat مدينة أرمنية في مقاطعة أرمافيز تشتهر بأنها مقر كنيسة الأرمن الأرثوذكس المعروفة باسم «الكرسي الأم لإيتشيمادزين المقدس». [المترجم].

مستقلة تستأثر بالتجارة الإقليمية من الإمبراطورية البيزنطية الآفلة، على نحو ما فعلت شنغهاي مع الإمبراطورية الصينية الآفلة بعد أربعة قرون. ففي مقابل القسطنطينية جنوب القرن الذهبي، كانت غَلَطَة (تعرف كذلك باسم بيرا Pera من كلمة يونانية تعني «ما وراء») أقرب إلى مدينة إيطالية صغيرة، حيث الكنائس الكاثوليكية والشوارع المستقيمة والمنازل المتينة المبنية بالحجارة والساحة العامة. وكانت أعلى بناية فيها، التي لاتزال تهيم على الأفق اليوم، هي برج غَلَطَة المدبب، ذلك النصب القوطي الذي ضل طريقه إلى ضفاف البسفور. وفي العام 1453، كانت غَلَطَة أكثر ازدهارا وسكانا من المدينة البيزنطية جنوب القرن الذهبي.

كانت جنوى والإمبراطورية العثمانية حليفين منذ فترة طويلة. ومع ذلك، فقد قاتل الكثير من الجنوبيين الغَلَطِيِّين ضد العثمانيين، وقال السلطان إنهم هم الذين منعوا سقوط المدينة من أول يوم للحصار. ومع ذلك، فقد كان السلطان أكثر اهتماما بازدهار المدينة منه بالانتقام. فمنح امتيازاً في الأول من يونيو 1455 باللغة اليونانية (*) إلى «أهالي غَلَطَة ونبلاتها»، لايزال موجوداً في المكتبة البريطانية. ففي مقابل الاستسلام ودفع الجزية، أصبحوا رعايا يحظون بحماية الإمبراطورية. وسمح لهم بالاحتفاظ بممتلكاتهم و«إنفاذ عاداتهم وشعائهم»، ما عدا «دق أجراس كنائسهم» التي كانت أصواتها تمثل خوفاً مريضاً لدى العثمانيين الذين لم يطيقوا أي منافسة لصوت الأذان الصادر من المآذن. وصودرت أسلحة المواطنين، وهُدم جزء من سور المدينة (كل ما يبقى منه اليوم هو جزء قريب من القرن الذهبي كانت تعتليه أسلحة أسرة دوريا Doria الجنوبية العظيمة). وما عدا ذلك، لم تتعرض غَلَطَة لأي عقوبات. وكما جاء في رسالة كتبها العمدة السابق بعد أيام قليلة لأخيه في جنوى، فـ «قد أمر [السلطان] أيضاً بوضع قوائم بكل ممتلكات التجار والمواطنين الذين فروا من هنا، وقال إن عادوا، فسوف تعاد إليهم، وإن لم يعودوا، فسوف تكون لي»⁽¹⁶⁾. وقد عاد معظمهم واستردوا ممتلكاتهم.

كان السلطان يُحِبُّ وجود الفرنجة Franks (أي الأوروبيين الغربيين) في بلاطه. فعلى مدى سنوات كثيرة، استعمل السلطان تاجر شَبُّ غنياً من أصل جنوي، يدعى فرانسيسكو درايريو Francesco Draperio، كدبلوماسي غير رسمي (تحتفظ كنيسة القديسة ماريا

(*) حتى أوائل القرن السادس عشر، كان السلاطين العثمانيون يستعملون بعض السكرتيرين اليونانيين ويصدرون الوثائق باللغة اليونانية، إلى جانب اللغة التركية. [المؤلف].

درابريس في شارع الاستقلال بذكرى أسرته إلى اليوم). فقد كان السلطان مولعا جدا بجو غَلَطَة اللاتيني، حتى إنه ذات مرة دخل كنيسة فرانسيسكانية وشاهد قداسا.

ومع اتساع فتوحات السلطان، جلب مزيدا من الإيطاليين إلى المدينة، في العام 1460 من المستعمرات الجنوبية على شواطئ بحر إيجه، وفي العام 1475 من القرم. وقد كان الإيطاليون مفيدون للسلطان، تماما مثل اليونانيين. وفي البحر الأدرياتيكي وبحر إيجه، واجه السلطان البندقية، إحدى القوى العظمى في ذلك الزمان، التي كانت تمتلك أسطولا أقوى من أسطول العثمانيين. وكانت فلورنسا المنافس الإيطالي الرئيس للبندقية. لذلك شجع السلطان الفلورنسيين على الانتقال إلى غَلَطَة ومنحهم بيوت البنادقة المطرودين، حتى إنه استشار القنصل الفلورنسي في قراره إعلان الحرب على البندقية في العام 1463. وفي ذلك العام، زَيْن الفلورنسيون في غَلَطَة بيوتهم احتفالا بالفتح العثماني لمملكة البوسنة المستقلة (التي تحولت سريعا إلى حصن عثماني، وأصبحت تعرف باسم «الأسد الذي يحرس أبواب القسطنطينية»). وفي العام 1465، حلَّ السلطان ضيفا على الفلورنسيين، إذ تناول معهم العشاء في مستودعهم التجاري الرئيس الذي استقبل فيه بكل أبهة وفخامة. وبحلول العام 1469، كانت خمسون شركة فلورنسية تعمل في الإمبراطورية العثمانية، كانت تستورد الحرير والمخمل والزجاج وفراء الثعلب والورق، حيث كانت معظم الوثائق العثمانية تكتب على ورق إيطالي. وكانت المشكلات الأساسية التي تواجههم في «الحفاظ على استمرار حركة السوق» - وفقا للعبارة الشائعة آنذاك - تأتي من الطاعون ومن البنادقة، وليس من العثمانيين⁽¹⁷⁾.

يكشف مثال غَلَطَة أن الشرق والغرب كان بإمكانهما أن يتعايشا معا في القسطنطينية. فلم تكن الإمبراطورية العثمانية مطلقا على نحو ما يزعم بروديل Braudel «نقيض أوروبا ومضاد المسيحية». فالأسر التجارية بغَلَطَة، مثل تيسستا Testa ودرابريس Draperis وفورنيتي Fornetti، كانت الأعرق في المدينة. وأطلق عليهم الأتراك «الفرنجة العذبيين» Sweet Water Franks، في مقابل «الفرنجة المالحين» Salt Water Franks من أوروبا. وكانت هيئة مكوّنة من اثني عشر مستشارا، تسمى جمعية بيرا المبهلة، تدير كنائس الجماعة الكاثوليكية. وكان التجار يجتمعون مرتين في اليوم لمناقشة التجارة في نظير لبورصة لندن، هو رواق القصر البلدي Plazzo del Commune، تلك البناية القوطية التي شُيّدت على غرار قصر

سان جورجو Plazzo San Giorgio في جنوى^(*). وفي وقت السلم بين الإمبراطورية والبندقية، كان البايلو Bailo أي ممثل البندقية يدير محكمة عدلية للقضايا المدنية الخاصة بالرعايا البنادقة (والأوروبيين الآخرين)، كانت السلطات العثمانية تنفذ أحكامها^(**). ونظم هذا الممثل أيضا خدمة بريدية كانت تغادر مرتين في الشهر، برا خلال البلقان إلى كاتارو^(***) على ساحل دالمسيا، وبعد ذلك بحرا إلى البندقية. وكانت الرسائل بين المدينتين تستغرق عموما زهاء شهر للوصول إلى مقصدها.

كانت غَلَطَة مركزا للمتعة فضلا عن التجارة. فكل فترة صوم فيها كانت كرنفالا، لدرجة أن «المراء قد يعتقد أنه في بلدة إيطالية»، كما كتب مارك أنطونيو بينافيتا Marcantonio Pignafetta. وكان ألفيس غريتي Alvise Gritti واحدا من أوروبيين غربيين كثيرين كَوَّنوا ثرواتهم على ضفاف البسفور. ولد غريتي في القسطنطينية التي عمل أبوه سفيرا بندقيا فيها، وحرّمته الولادة غير الشرعية من العمل في البندقية، وعاش في أبهة في غَلَطَة (يقال إن اسمه التركي بايوغلو Beyoglu الذي يعني «ابن البيه» son of the Bey^(****) جاء من كَوْنه ابن دوج البندقية^(١). كان غريتي ممثلا دبلوماسيا للصدر الأعظم^(٢) وتاجر جواهر، ويقال إنه كان يعيش حياة المسلمين بين الأتراك وحياة المسيحيين بين الأوروبيين الغربيين. وفي العام 1524، وبعد أن أصبح أبوه دوج البندقية مباشرة، أقام مأدبة في القسطنطينية لثلاثمائة ضيف، من بينهم أتراك، تعشوا لحم أيل وحجل وطاووس. ثم رقصت لهم نساء غَلَطَة «بحركات خليعة

(*) مجردا من شعار النبالة الجنوي والنوافذ القوطية، يشكل القصر حاليا ورشة تسمى بركة هاني Bereket Hani في زاوية برج غَلَطَة Galatakulcsi وشارع البنوك Bankalar Caddesi. ربما يعد أقدم بناية مدنية في المدينة. انظر Studia Turcologica memoriae Alexii Bombaccii Dicata, Naples, 1982, 166-79. [المؤلف].

(**) على امتداد الكتاب، سيستعاض عن كلمة «بايلو» بكلمة «سفير»، لأن حاملها كان سفير البندقية. [المترجم].

(***) كاتارو Cattaro أو كوتور Kotor: مدينة ساحلية في مونتنيغرو على خليج كوتور. [المترجم].

(****) البيه Bey هو اللقب أو الرتبة العثمانية التي تلي رتبة الباشا. وقد استقر المترجم على هذا التعريب لها، لأنه أقرب في النطق إلى الأصل التركي «بي» من الشكل الآخر لتعريبها وهو «بيك» الذي ربما يكون تعريبا لأحد تنويعات الكلمة التركية نفسها، وهو beg أو baig [بيك] الذي ربما يرجع استخدامه في المنطقة العربية إلى ما قبل الحكم العثماني إلى المماليك الذي كانوا في أغلبيتهم يشتركون في الأصل العرقي والنشأة الجغرافية مع الأتراك العثمانيين. [المترجم].

(١) الدوج Doge هو لقب القاضي الأول وحاكم جمهوريتي البندقية وجنوا، تترجم الكلمة أحيانا إلى «دوق». [المترجم].

(٢) الصدر الأعظم أو الوزير الأول هو أعلى منصب في الحكومة العثمانية، دون السلطان، كان يحمل ختم السلطنة ويرأس جلسات الوزراء في الباب العالي ويدير شؤون العاصمة. [المترجم].

تذيب المرمر»، وتلا ذلك المسرحية الكوميدية «الروح وكيوبيد» Psyche and Cupid، ومبارزة وتمثيل للاحتلال البرتغالي لسيلان. قال كاتب تركي إبان القرن السابع عشر عن غَلَطَة: «من يذكر غَلَطَة يذكر الحانات، عافانا الله! حيث تجمد البيرة في عز الصيف بالثلج القادم من جبال بورصة. أما نساء غَلَطَة بثيابهن الرائعة، اللاتي كن يرتدين كل ثرواتهم في شكل جواهر، فقد احتفظن حتى القرن العشرين باشتهارهن بالقدرة على تحويل الملاك إلى شيطان^{(18)*}.

هكذا، كانت القسطنطينية بداية من العام 1455 عاصمة للإمبراطورية العثمانية، وكذلك للكنيسة الأرثوذكسية، وكانت أيضا موطنًا للثقافة التجارية المميزة لموانئ شرق البحر الأبيض المتوسط المعروفة باسم المشرق^(**). وحتى أوائل القرن التاسع عشر، كانت اللغة الإيطالية - لغة التجارة والبحر - اللغة الثانية في القسطنطينية، إذ كان يتحدثها كل الفرنجة ومعظم اليونانيين والأرمن وبعض الأتراك. وقد دخلت مصطلحات ملاحية إيطالية كثيرة إلى اللغة التركية، مثل caravel [الكارفيل] و bombardas [البومباردا] اللتين تشيران إلى نوعين من السفن، أو كلمة iskele (من كلمة scala الإيطالية) التي تشير إلى مكان إبرار السفن. (في تجل آخر للهيمنة الإيطالية، كان التجار الإنجليز قبل العام 1830 يشيرون إلى موانئ شرق البحر الأبيض المتوسط باسم «لوفانت سكيلز» Levant scales [موانئ المشرق]). وانتشر في موانئ البحر الأبيض المتوسط أيضا شكل من اللغة المبسطة الإيطالية، ضمت كلمات فرنسية ويونانية وإسبانية وعربية وتركية عُرفت باسم اللغة المشتركة lingua Franca. وحتى أوائل القرن العشرين، كانت نداءات أو صرخات مثل Guarda! Guarda! [انتبه] لتفادي الاصطدام أو Monsu, arriver! [ها قد وصل] لإعلان الوصول، لاتزال تُسمع في المدينة⁽¹⁹⁾. وفي عهد محمد الثاني كانت غَلَطَة ضاحية تابعة، لكنها في السنوات التالية مارست نفوذا قويا ومهيمنًا على التجارة والثقافة والديبلوماسية في القسطنطينية.

(*) يقول مثل لاحق: إذا أردت أن تدمر حياتك، فتزوج من امرأة مشرقية. [المؤلف].

(**) كما اشتقت كلمة «الشرق» Orient من الكلمة اللاتينية oriens التي تعني الشروق، كذلك اشتقت كلمة المشرق Levant من المقابل الفرنسي الذي يعني الشروق أيضا. وبالنسبة إلى الأوروبي الغربي، أصبحت كل تنويعات كلمة المشرق في اللغات الأوروبية تشير إلى الأراضي التي تشرق منها الشمس، وبالتالي الأراضي الواقعة على الشواطئ الشرقية للبحر الأبيض المتوسط، وهي تحديدًا الدول الحديثة: اليونان وتركيا وسورية ولبنان وفلسطين ومصر، التي كانت من القرن السادس عشر إلى القرن العشرين، جزءًا من الإمبراطورية العثمانية. [المترجم].

وكما حدث في المدن العالمية الأخرى، مثل أمستردام إبان القرن السابع عشر، وفيينا إبان القرن التاسع عشر، ونيويورك إبان القرن العشرين، جذبت القسطنطينية اليهود. عانى يهود القسطنطينية من فتحها، كما عانى سكانها الآخرون. وقد وصلتنا قصائد عبرية تراثي استعبادهم وإبعادهم ووحشية العثمانيين معهم. فقد جلب معظم اليهود من الإمبراطورية العثمانية إلى القسطنطينية رغما عنهم من خلال السورغون أو التهجير القسري. وحيث إن اليهود كانوا ممنوعين من مغادرة أماكنهم من دون إذن رسمي، فقد اعتبروا أنفسهم «مكبلين بأغلال الأسر». وحتى القرن التاسع عشر، ظل المهجرون قسريا surgunlu متميزين في الطقوس ودفع الضرائب عن اليهود الذين جاءوا إلى المدينة بإرادتهم kendi gelen⁽²⁰⁾.

وبعد العام 1453، شجعت الإمبراطورية اليهود على الهجرة إليها من أوروبا. والرسالة التالية من حبر يهودي إلى إخوته المضطهدين في أوروبا، تفيض بحماسة من النوع الذي ميّز نشرات الهجرة الصهيونية لحث اليهود على الاستيطان في الأرض الموعودة:

هنا في أرض الأتراك، ليس ثمة ما نشكو منه. فنحن نمتلك ثروات عظيمة، وتحت أيدينا فيض من الذهب والفضة. ولا نخضع لضرائب ثقيلة، وتجارنا حرة ولا يعوقها شيء. وهذه الأرض وفيرة الثمار. وكل شيء فيها رخيص، وكل واحد منا يعيش في أمن وحرية. واليهود هنا لا يُرغمون على ارتداء نجمة صفراء علامة على الذل، كما هي الحال في ألمانيا التي لا يغني فيها الثراء العظيم عن اليهودي لعنة الذل^(*)، لأن الثروة نفسها تثير الغيرة بين المسيحيين، ولذلك تجدهم يدبرون له كل أنواع الافتراءات لتجريدته من ذهبه. قوموا يا إخوتي وشدوا أحزمتكم واحشدوا كل قواكم وتعالوا إلينا.

فعلى خلاف الحال في أوروبا الغربية، لا يوجد في «مأوى العالم» قيود على حرية التجارة، ولا يحد بناء المعابد إلا قيود قليلة للغاية. وسرعان ما ازدهر اليهود كعطارين وحدادين ونجارين، وفي حالات استثنائية كملتزمي ضرائب وممولين وأطباء^(**). واعتمادا على ثروتهم الجديدة، تمكّنوا من التغلب على اتحادات تجارية مسيحية وإسلامية بالحصول

(*) كان إجبار اليهود على ارتداء شارات صفراء كعلامة على مكانتهم المتدنية تقليدا متبعا أيضا في إسبانيا بعد «استرداد» المسيحيين لها، وربما في أماكن أخرى كثيرة عبر أوروبا، لكن يبدو أن رسالة الحبر اليهودي كانت موجهة إلى يهود ألمانيا، ولذلك خصهم بذل الشارات الصفراء. [المترجم].

(**) لم تكن هناك بنوك في هذه الأزمان، لكن وظيفة الممول banker موجودة منذ فجر التاريخ، وهو شخص كان يقرض المال للأشخاص أو الحكام بفائدة كبيرة. [المترجم].

على إيجار جمارك القسطنطينية. وبعد العقود الأولى، كان تاريخهم في القسطنطينية استثناء في التاريخ اليهودي، فكان قصة سعيدة في وسط بحر من المآسي. ففي القسطنطينية، لم يكن للكلمات «مذبحة» و«غيتو» و«محكمة تفتيش» معنى أو وجود.

منذ أواخر القرن الخامس عشر حتى وقت قريب، تركزت تجمعات اليهود في القسطنطينية في منطقتي بالات Balat وهاسكوي Haskoy على جانبي القرن الذهبي، اللتين آوتا السكان اليهود من قبل الفتح. وكان يقال إن «فتيان بالات شبان أقوياء جدا، وفتيان هاسكوي مجرد زبيب مجفف». سيطرت المعابد على الحياة اليهودية، وحافظت على عادات المنطقة التي أتى منها المصلون وطقوسهم، وأدارت المدارس المحلية والجمعيات الخيرية، ونظمت دفع الضرائب للدولة. وكان الأحرار قضاة المحاكم اليهودية التي تمتعت باستقلال غير معهود، فضلا عن سلطة التشريع لليهود⁽²¹⁾.

كان من أنجح اليهود في القسطنطينية طبيب يدعى جياكومو دي غايتا Giacomo di Gaeta، كان قد ترك تعصب إيطاليا عصر النهضة إلى ملاذ الإمبراطورية العثمانية. ونال طبيب السلطان يعقوب باشا Yakup Pasha، كما سُمي بعد اعتناقه الإسلام، امتياز الإعفاء الضريبي له ولأحفاده، سواء اليهود أو المسلمين. كانت القسطنطينية مدينة مزدوجة الهوية. وكما كانت الحال مع جناديوس وألفيس غريتي والسلطان نفسه، كان يعقوب باشا ينتقل بسهولة بين العوالم المختلفة. فكان يتردد على قصر السلطان، وكذلك بيت سفير البندقية في غَلَطَة. وربما بأمر من السلطان، نقل معلومات كاذبة لتشويش صناع السياسة البنادقة، مثل الادعاء في العام 1465 بأن السلطان اعتنق المسيحية⁽²²⁾.

جلبت الإمبراطورية اليونانيين والأرمن والإيطاليين واليهود إلى المدينة، في المقام الأول لأسباب اقتصادية. واستوردت الدولة العائلية بنفسها عنصرا عرقيا خامسا. فقد كانت الحكومة العثمانية تسمى «الباب»، وهو اسم مستمد من الجزء من قصر الحاكم الأكثر ارتباطا بالسلطة، إذ كان الجميع ينظرون إلى الحكومة العثمانية باعتبارها إدارة الدولة والعدالة، التي تجري أمام باب السلطان عن طريق أسرته الممتدة ومديره. وكان الجزء الأساسي من مسؤولي السلطان وجنوده عبيدا يعرفون باسم القبة قولي kapi kulu أو «عبيد الباب»، عكس تركيبهم الإيمان العثماني بالتنوع العرقي. كان هؤلاء العبيد فتيانا بين الثامنة والسادسة عشرة يُجنّدون وفقا للحاجة من بين السكان المسيحيين الريفيين في البلقان، وبدرجة أقل من الأناضول، عبر عملية عرفت باسم الدفشرة devshirme

الفتاح

أو «الجمع». لم يكن مسموحا بأن يكون هؤلاء الفتیان من الأتراك. فبعد غزو البوسنة في العام 1463، وعلى الرغم من أن القرآن يحرم استعباد المسلمين، شرعت الإمبراطورية في «جمع» السلاف المسلمين، دون المسلمين من أصل تركي.

كان تاريخ ميلاد الفتیان يسجل، وكذلك تفاصيل نسبهم. وبعد ذلك، كانوا يؤخذون إلى القسطنطينية ويُختَنون ويُدخلون في الإسلام^(*). وكان أفضل هؤلاء الفتیان شكلا ونسبا يعلمون في مدرسة القصر أو بيت الباشا، وفي النهاية يدخلون الخدمة العامة. وكان الآخرون «يعطون للأتراك» ويرسلون إلى المزارع في الأناضول لتعلم اللغة التركية. وبعد ذلك كانوا يعملون بستانين في القصر الإمبراطوري أو بحارة في الأسطول الإمبراطوري أو عمالا في أماكن البناء في المدينة، وفي النهاية كانوا ينضمون إلى الانكشارية التي تكوّنت من زهاء خمسة عشر ألفا أو عشرين ألف جندي وشكلت رأس حربة الجيش العثماني والقوة العسكرية والشرطية الأساسية في القسطنطينية نفسها. وكانت تقوم بدوريات على الأسوار وترابط في الأبراج السبعة وتفرض القانون والنظام وتحرس البطريرك والسلطان نفسه.



رسم مجهول، دورية الانكشارية ليلا، في نحو العام 1590. كانت أمثال هذه الدوريات تقبض على اللصوص وتضمن أن الأهالي داخل بيوتهم. يركب أغا الانكشارية حصانه، ويحمل جنوده الفوانيس أمام أسوار المدينة.

(*) كان الختان في هذه الأزمان لصيقا بالإسلام، حتى أنهم في إسبانيا كانوا يكشفون عورة من يشكون في أمره من المورسكيين، وهم المسلمون الذين بقوا بعد سقوط ممالكهم ونُصروا قسرا، للتأكد من ممارسته للإسلام سرا. فإن وجدوه مُختَنًا، فإن ذلك كان يُتخذ قرينة على ممارسته للإسلام سرا. وكذلك في حظائر العبيد في الجزائر في العصر الحديث المبكر، كان لزاما على من يعلن إسلامه من العبيد الأسرى أن يُقَتَّل ولو كان طاعنا في السن. [المترجم].

كانت قلوب بعض الأسر المسيحية تنفطر حزنا حين يؤخذ أطفالهم «للمجمع». وكان من بين الأغاني الشائعة واحدة تقول:

لعنة الله عليك أيها الإمبراطور، لعنك الله ثلاثا
على الشر الذي فعلته، والشر الذي تفعله.
فأنت تقبض على العجائز وكبار الكهنة وتكبلهم
لكي تأخذ الأطفال انكشارية لك.
فتبكي أمهاتهم وآبائهم، وكذلك أخواتهم وإخوتهم
وأنا أبكي حتى يضيئني البكاء
وساظل أبكيهم ما دمت حيا
ففي السنة الماضية أخذوا ابني، وهذه السنة أخذوا أخي.

لكن في مقابل فجيرة أمثال صاحب هذا الرثاء، كانت الأسر الأكثر دراية بالأمور تسعد برؤية أطفالها يضمنون موطن قدم لهم في السلم الإداري العثماني. علاوة على أن العبودية كانت أقل إذلالا في العالم الإسلامي منها في العالم المسيحي. فقد كان فتیان الدفشرمة الذين يتعلمون في قصر السلطان أو الوزراء تنهياً لهم الفرص لشغل أعلى المناصب في الإمبراطورية، والعناية بأقاربهم. وكان «عبيد الباب» معفيين من كثير من القيود القانونية المفروضة على العبيد الآخرين في أمور الزواج والملكية. لذلك كان السلاف البوسنيون يطلبون بأنفسهم استمرار إجراءات «المجمع» في أوساطهم، على الرغم من تحويلهم من المسيحية إلى الإسلام. وفي ذلك كتب سفير البندقية أن جنود الانكشارية «يجدون فخرا في القول بأنهم عبيد السيد الكبير»، لأنهم يعرفون أنها دولة عبيد، يمتلك العبيد الأمر والنهي فيها». ألم يكن الشبان الكاثوليك الأيرلنديون - قبل مائة عام - يشعرون بفخر مماثل حين يُحوّلون إلى البروتستانتية ويُرسَلون إلى كلية إتون Eton، ثم يُطلب منهم أن يحكموا الإمبراطورية البريطانية كخدم للإمبراطورة الملكة؟^{(23)(*)}

كانت الدفشرمة كممارسة عثمانية خاصة تحظى برعاية محمد الثاني. وفي ذلك كتب أحد الإيطاليين: «إنه في ذلك يُظهر إصرارا رائعا على غايته، كأنه يبتغي بجهوده إنتاج شعب جديد». أسهمت هذه العملية في استبعاد ثوار محتملين وتحويلهم إلى عثمانيين موالين. علاوة على أن «مرايا الأمراء»^(**) الإسلامية التقليدية التي كان

(*) الإمبراطور الملك أو الإمبراطورة الملكة: لقب للحاكم الذي يتحد تحت عرشه إمبراطورية ومملكة. [المترجم].

(**) مرايا الأمراء أو الملوك أو الآداب السلطانية هي نوع الأدب العربي والإسلامي الذي يتناول أصول الحكم والحكمة السياسية ويقدم النصائح والإرشادات للحكام. [المترجم].

البيروقراطيون العثمانيون يقرأونها، أكدت مزايا التنوع العرقي. وقد جاء في كتاب الحكم أو نظام الملك أن السلطان إذا استعمل أعراقا مختلفة، فإن «الأعراق جميعا ستسعى إلى أن تتفوق إحداها على الأخرى... وحين يكون الجند من عرق واحد، تنشأ مخاطر، إذ يفتقرون إلى الحماس وتعم الفوضى».

كان الشك في الأتراك السبب الرئيس لتقليد «الجمع» أو الدفشمة. وفي ذلك كتب أحد نزلاء القصر: «لا يوجد غير القليل من الأتراك الناطقين باللغة المحلية في القصر لأن السلطان يجد لنفسه خدما أكثر إخلاصا بين المسيحيين معتنقي الإسلام الذين لا موقد لهم ولا بيت ولا أهل ولا أصدقاء. وهؤلاء يكونون للسلطان مودة ويظهرون حرصا على خدمته، حتى إنهم لا يترددون طوعا عن تقديم ألف روح لحماية حياته وتوسيع إمبراطوريته». وفي المقابل، كان كثير من أعضاء النخبة الإسلامية التركية سابقين في الوجود على نشأة دولة آل عثمان وينظرون إليهم بعين الحسد، إذ كانت هناك دول تركية أسبق في الأناضول مثل الروم (*) والدانشيمينديين (**)، وكان العثمانيون مجرد «قادمين جدد». وقد تعلم محمد الثاني نفسه أخطار وجود نخبة إسلامية قوية، فبعد أن حكم عامين، خُلع في العام 1446، ربما بتحريض من الصدر الأعظم جندرلي خليل Candarli Halil، سليل أسرة قدمت ثلاثة صدور عظماء، ورجع أبوه مراد الثاني إلى العرش لعامين. وخوفا من رد الفعل الغربي، ظل الصدر الأعظم يعارض قرار محمد الثاني بمهاجمة القسطنطينية، ووصف القرار بأنه «حماقة شاب ثمل». وبعد الحصار مباشرة، أعدمه محمد الثاني. ولذلك كان معظم الصدور العظماء والباشوات من «عبيد الباب»، فمن بين أول ثمانية وأربعين صدرا أعظم بعد العام 1453، كان ثمانية عشر منهم فقط أتراكا محليين. ونقمة على ذلك الوضع، أطلق بعض الأتراك على مجلس السلطان أو الديوان اسم «سوق العبيد»⁽²⁴⁾.

كان وجود الانكشارية يعني أن كثيرا من الجنود - وبنائي المساجد والوزراء العظماء - في القسطنطينية من السلاف. وفي ذلك يذكر رحالة فرنسي في العام

(*) سلطنة الروم أو سلاجقة الروم Rum: دولة تركية - فارسية سنية حكمت الأناضول بين العامين 1077 و1307. [المترجم].

(**) الدانشيمينديون Danishmend: عائلة تركية حكمت في المناطق الشرقية والشمالية من الأناضول إبان القرنين الحادي عشر والثاني عشر، تُنسب إلى مؤسسها دانشيمند غازي، كان مركزها في سيفاس وتوكات ونيكسار. [المترجم].

1542 أن اللغة السلافونية Slavonian (الصربية - الكرواتية) كانت اللغة «الأكثر استخداما وتداولاً في القصر... بسبب انتشارها بين الانكشارية». وعلى خلاف ما اعتقد المؤرخون في السابق، كان عبيد الباب أيضاً قادرين على الوجود في عالمين، إذ كانوا من العاصمة يحافظون على التواصل مع أسرهم في الولايات. على سبيل المثال، أجرى الصدر الأعظم محمود باشا مفاوضات مع صربيا في العام 1457. وإذا كانت هذه المفاوضات قد أدت إلى سلام مواتٍ وجزية أعلى للإمبراطورية العثمانية، فإن ذلك رجع بلا شك إلى أن المسؤول الأعلى في البلاط الصربي القائد العسكري الأعلى ميخائيل أنغلوفيتش Michael Angelovic كان أخاه⁽²⁵⁾.

شكل بعض عبيد الباب جماعة ضغط صربية في العاصمة، كانت في نزاع دائم مع البطريركية التي هيمن عليها اليونانيون. كان من أبرز صرب القسطنطينية وإحدى أبرز الشخصيات في التاريخ العثماني ذلك الرجل الذي ولد بعد خمسين عاما من الفتح، في العام 1505، باسم باجيكا صوكولوفيتش Bajica Sokolovic، في بلدة فيشغراد Visegrad الصغيرة على الحدود الصربية - البوسنية. ترقى هذا الرجل ذو الطلعة المهيبة واللحية السوداء والأنف المعقوف، سريعا خلال رتب الدفشمة، وتولى - على التوالي - مناصب مربى الصقور وأمير البحر الأعلى ووزير ونائب الإمبراطور في أوروبا. وأخيرا، من العام 1564 إلى العام 1579، شغل محمد باشا صوكولو، كما عُرف بعد إسلامه، منصب الصدر الأعظم. كان محمد باشا صوكولو رجلا دمثا وحصيفا وحريصا على المال، ما جعله رجل دولة يتمتع برؤية عالمية. فمن قصوره في القسطنطينية، خطط الباشا قنوات بين نهر الدون والبولغا وبين البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط لمساعدة الدول الإسلامية ضد روسيا والبرتغال على التوالي، وأرسل الذخائر إلى سومطرة، وشارك في اختيار ملك جديد لبولندا، وطلب صورا وساعات من البندقية، ورتب سلاما ناجحا مع إسبانيا والبندقية والبابوية، على الرغم من الهزيمة البحرية العثمانية في ليبانتو في العام 1571.

لكنه مع ذلك، احتفظ بروابط مع جذوره الصربية. ووضع أقاربه في الحكومة المركزية العثمانية، وفي العام 1557 ونتيجة لإصراره، أعيدت الأسقفية الصربية في بيتش^(*)، على غير رغبة البطريركية، وكان أخوه أول رئيس أساقفة لها. كان صوكولو

(*) بيتش Pec (بالصربية) أو بيجا Peja (بالألبانية): مدينة في غرب كوسوفو الحالية. [المترجم].

نفسه متجها إلى الكهانة حين «جُمع» للسلطان، ويقال إنه في بعض المناسبات رافق أبناء إخوته إلى الكنيسة وهم في زياراتهم إلى القسطنطينية.

خلدت العمارة الصلات بين العالمين اللذين عايشهما محمد باشا صوكولو. ففي القسطنطينية، شيدت له زوجته أسمهان سلطان ابنة السلطان سليم الثاني، إحدى تحف العصر الذهبي في العمارة العثمانية، وهو جامع محمد باشا صوكولو بجوار ساحة الألعاب الرومانية القديمة. وبالقرب من مسقط رأسه في البوسنة، كلف الصدر الأعظم نفسه ببناء جسر من إحدى عشرة قنطرة على نهر درينا River Drina، يعد «من أفخم القناطر التي يمكن أن تراها»⁽²⁶⁾ (*).

بعد أربعة وعشرين عاما من الفتح، في العام 1477، جمع قاضي مدينة القسطنطينية إحصاء للسكان بغرض تزويد السلطان بالمعلومات عن المدينة وسكانها. كانت القسطنطينية وغلطة تضمآن تسعة آلاف وأربعمئة وستة وثمانين بيتا للمسلمين، وثلاثة آلاف وسبعمئة وثلاثة وأربعين بيتا لليونانيين، وألفا وستمئة وسبعة وأربعين بيتا لليهود، وأربعمئة وأربعة وثلاثين بيتا للأرمن، وثلاثمئة وأربعة وثمانين بيتا للقرمانيين ذوي الطلعة الأرمنية^(**)، وثلاثمئة واثنين وثلاثين بيتا للفرنجة (جميعها في غلطة)، ومائتين وسبعة وستين بيتا للمسيحيين من القرم، وواحدا وثلاثين بيتا للغجر. وإجمالا ضمت المدينة زهاء ثمانين ألف ساكن (فيما عدا عبيد الباب). فقد كانت القسطنطينية مدينة تتحدى القومية، وكانت تُستخدم في شوارعها اللغات اليونانية والأرمنية والإيطالية واللغة المشتركة والألبانية والبلغارية^(***) والصربية بانتظام، فضلا على العربية والفارسية والتركية.

ونتيجة لكون القسطنطينية العاصمة الوحيدة متعددة القوميات في أوروبا، فقد كانت لها أسماء في لغات متعددة أكثر من أي مدينة أخرى. فقد أحب الصرب

(*) «جسر درينا»: عنوان لواحدة من أشهر الروايات السلافية على الإطلاق للروائي إيفو أندريش، كما كان الجسر الذي بُني كحلقة وصل بين القوميات والأديان مسرحا لعمليات إبادة بحق البوسنيين على أيدي القوات الصربية إبان العقد الأخير من القرن العشرين، حيث كان الضحايا يُلقون في النهر من فوقه. [المترجم].

(**) قرمان Karamania إيالة (ولاية عثمانية يرأسها أمير أمراء) عثمانية في الأناضول، عاصمتها قونية، ضمها محمد الثاني في العام 1468. وكان الاسم قرمان يشير حتى القرن التاسع عشر إلى الساحل الجنوبي للأناضول على البحر الأبيض المتوسط. [المترجم].

(***) ثمة جماعة سلافية أخرى في القسطنطينية، حتى أوائل القرن العشرين، هي الوينوك voynuks أو السياس ومربو الصقور البلغاريون الذين كانوا يعملون في الإسطبلات الإمبراطورية. وكانوا يكملون دخلهم بالرقص في الشوارع على صوت مزمار القربة. انظر:

Nicolas de Nicolay, Dans l'Emptn de Soliman le Magnifique, 1989, 185.

والبغار والروس تساريفراد Tsarigrad التي تعني مدينة القيصرية، وعاش الأرمن في غوسدانتوبوليس Gosdantubolis التي تعني مدينة قسطنطين. وفي اللغة اليونانية اليومية يسمونها البوليس polis، أي المدينة، كأنه لا مدينة سواها. وكان اسمها اليوناني الرسمي هو كونستانتينبوليس نيا روما Constantinopolis Nea Roma [القسطنطينية روما الجديدة] والذي أخذ منه العثمانيون اسمها الذي سجلوه على العملات المعدنية ومعظم الوثائق الرسمية، وهو القسطنطينية Kostantiniyye (وهو أيضا اسمها في اللغة العربية). وفي الكتابات الأدبية العثمانية، تسمى دار السعادة، أو دار الحظ السعيد، إذ من حسن حظها أن اختارها السلطان مقرا له، أو الأستاذة Asithane التي تعني باللغة الفارسية «مقر الدولة». ومع ذلك، فإن اسمها في اللغة التركية الدارجة، حتى من قبل الفتح، كان تحريفا للعبارة اليونانية «إلى المدينة»، eis teen polin، أي إسطنبول.

كانت الرؤوس والأقدام، فضلا على الأسماء، تشي بالطبيعة متعددة القوميات للمدينة. فسكان القسطنطينية، أيا كان دينهم، كانوا عموما يرتدون عباءات بسيطة، تشبه ما يرتديه عرب الخليج اليوم، لكن بألوان داكنة. وفوق العباءة، كانوا يلبسون دلماناً^(*) من الحرير أو الكتان، يبطن بالقطن في الشتاء، وبنار. وكانوا يسخرون من الأوروبيين الغربيين الذين كانوا يفسدون ملابسهم بالزركشة والطيّات والفتحات. حتى القرن التاسع عشر، وبغرض إظهار السيادة الإسلامية وتشجيع التنافس بين القوميات، فرضت الحكومة العثمانية اختلافات في اللباس بين الجماعات المختلفة. فكان المسلمون وحدهم مسموحا لهم بارتداء العمام البيضاء أو الخضراء والنعال الصفراء. وكان اليونانيون والأرمن واليهود يُتميّزون، على التوالي، بالقبعات الزرقاء السماوية والزرقاء القائمة (أو الحمراء لاحقا) والصفراء، والنعال السوداء والبنفسجية والزرقاء. وكانت القواعد الحاكمة للباس الأقليات الدينية يعاد التأكيد عليها بانتظام. ففي العام 1580، على سبيل المثال، و«على اعتبار أن حال اليهود والمسيحيين من منظور الشريعة والمنطق يجب أن تكون حال الضعة والذل»، فقد حرموا رسميا من «اللبس مثل المسلمين» أو لبس الحرير أو الفراء أو الأحذية الحمراء، وأجبروا بدلا من ذلك على ارتداء الألوان القائمة أو الزرقاء. وحرموا أيضا في مرسوم بعد آخر من العيش بالقرب من المساجد أو بناء بيوت عالية أو شراء العبيد⁽²⁷⁾.

(*) الدلمان Dolman: معطف واسع الردين عند الإبط ضيقهما عند الرسغ. (المترجم).

الفاتح

يكشف تكرار صدور هذه المراسيم أن قواعد اللباس كانت تتعرض كثيرا للخرق، إذ كانت مكانة المسلمين جذابة لدرجة يصعب معها كبت رغبة الأقليات في التشبه بهم، وكان بمقدور الأفراد أيضا أن يشتروا إعفاء من قوانين اللباس. لكن بالنسبة إلى معظم الناس وفي أغلب الأوقات، كان اللباس يعزز الإحساس بالانتماء إلى جماعة معينة. وكانت الاختلافات في الشكل والملامح تعزز الاختلافات في اللباس.

لا يزال معظم سكان القسطنطينية يدعون قدرتهم على تمييز ما إذا كان جارهم تركيا أو يونانيا أو يهوديا أو أرمنيا بالنظر فقط. وإبان القرن التاسع عشر، وبعد إبطال قوانين اللباس، كتب كاتب رحالة يدعى إدموندو دي أميتشيس Edmondo de Amicis، أن التركي واليوناني الجالس أحدهما بجانب الآخر، حتى إن كان لباسهما واحدا، يمكن التمييز بينهما بسهولة بجمود الأول وصمته، وتعبيرات الحياة الكثيرة المختلفة في جسم الأخير وعينييه «وهو يهز رأسه» مع حركة حصان مفعم بالحيوية». وإبان القرن الأول للإمبراطورية، كانت الوجوه والإيماءات تكشف التعددية القومية في القسطنطينية بسهولة وجلاء⁽²⁸⁾.

في العام 1477، وهي سنة التعداد، كان مؤسس هذا العالم المصغر متعدد القوميات، محمد الثاني في عامه الخامس والأربعين من العمر. وقد ذكر غلام في بلاطه، يدعى جيان ماريا أنجيوليلو Gian Maria Angiolello أن السلطان كان «متوسط الطول وبدين، ذا جبهة عريضة وعينين كبيرتين وحاجبين سميكين وأنف معقوف، وفم صغير ولحية غزيرة مستديرة محمرة، ورقبة ممثلة قصيرة، وبشرة شاحبة، وكتفين مرتفعين وصوت عال»⁽²⁹⁾. وبعد عهد من الفتوح، كان الفاتح في ذلك العمر يرتاح في عاصمته.



الرسام جينيلي بليبي Gentile Bellini، معمد الفاتح، 1481. عاش بليبي في القسطنطينية بطلب من السلطان من العام 1479 إلى العام 1481. ورسم إلى جانب هذه اللوحة، لوحات جصية شهوانية لجناح السلطان الخاص. وعلى الرغم من أن هذه الصورة أعيد رسمها كثيرا، فإنها تظل الأقرب في الشبه إلى فاتح المدينة. ترمز التيجان الثلاثة إلى فتوحاته في إمبراطورية طرابزون والأناضول ورومليا.

وعلى نحو ما كانت المدينة نفسها، كان محمد الفاتح مُركبا من التناقضات: وحشي ووديع، وقاس ومتسامح، وتقي ولوطي. بنى مدارس وأسواقا بالحماسة نفسها التي أمر بها بالتعذيب وارتكاب المذابح. ونظرا إلى أنه اعتبر نفسه الغازي الأكبر أو مجاهد الإسلام، وكذلك الإسكندر الجديد، فقد كان يقرأ القرآن أو يستمع له، وكذلك شروحات للإنجيل والشعراء الفرس وتواريخ الأباطرة والباباوات وملوك فرنسا وحياة الإسكندر لأريان وهوميروس Homer وهيرودوت Herodotus وليفي Livy وزينوفون⁽³⁰⁾ Xenophon. وتعامل مع اللغة باعتبارها وسيلة للتواصل، وليس وسيلة للهيمنة. فعلى الرغم من أن محمد الثاني لا يقارن بالعدو اللدود للإمبراطورية العثمانية الإمبراطور كارلوس الخامس الذي قيل إنه كان يتحدث الإسبانية مع الرب والفرنسية مع النبلاء والإيطالية مع السيدات والألمانية مع حصانه، فإن محمدا كان يتحدث التركية والفارسية والعربية، وكان بالتأكيد يمتلك بعض المعرفة باللغة اليونانية والصربية - الكرواتية. وفي قصائده يسمي نفسه عوني Avni أي المُعين، وليس الفاتح. وقد ألف البيتين التاليين اللذين طبعا الشعر العثماني من بعده:

صُب لي بعض الخمر يا ساقى، لأن حديقة الزنبق ستبديد يوما ما
إذ سرعان ما سيأتي الخريف ويتوارى فصل الربيع!

وعلى الرغم من أنه كان يكتب ويحكم باللغة التركية، فقد كان يقدر الثقافة الفارسية التي تمتعت في العالم الإسلامي بشيء من المكانة التي كانت للثقافة الفرنسية في أوروبا إبان القرن الثامن عشر. وثمة لغة أخرى أضيفت إلى التنوع اللغوي للمدينة. كان من بين العلماء الفرس الذين جذبهم السلطان إلى القسطنطينية آخر علماء الفلك الإسلامي العظماء إبان القرون الوسطى علي القوشجي السمرقندي^(*) الذي درّس في المدرسة الملحقة بآيا صوفيا. وحين اكتشف محمد الثاني شاعرا آخر من أصل تركي، على الرغم من تعليمه الفارسي هو الآخر، سحب الكنيسة اليونانية الخبرة التي سبق أن منحها للسمرقندي كعلامة على الحظوة⁽³¹⁾.

كانت الثقافة الفارسية عميقة التأثير لدرجة أن لغة القصر والنخبة الحاكمة، المعروفة باسم العثمانية، على الرغم من أنها تركية في تركيبها، كانت جزئيا فارسية -

(*) هو علاء الدين علي بن محمد القوشجي السمرقندي: عالم فلك ورياضيات وفقيه حنفي، كان أبوه من خدام ألغ بك ملك بلاد ما وراء النهر، أسهم في بناء مرصد ألغ بك وجامعة صحن السلطان. [المترجم].

وعربية - في مفرداتها، ومن ذلك أنه في العقد الثالث من القرن العشرين، كان 57 في المائة فقط من الكلمات في المعجم من أصل تركي. تسببت تعقيدات المفردات وبناء الجملة في جعل اللغة العثمانية أحد العوائق الأساسية أمام انتشار معرفة القراءة والكتابة والتواصل مع العالم الخارجي. ففي تعارض مع التركية البسيطة المتداولة في الشارع، انتشرت تعبيرات مزخرفة. فحين مات خطاط مشهور، على سبيل المثال، قيل إن «نقاط مخطوطاته تحولت إلى شامات على خدود حوريات الجنة». لكن ظهر بضعة متمردين، منهم شاعر القرن السادس عشر يحيى بيه Yahya Bey الذي رفض أن يكون «ترجمان الفرس» أو أن «يترجم على أموات الفرس»، وأخذ يكتب بلغة تركية قوية، مع أنه لم يكن تركيا، وإنما انكشاري فخور بأصله الألباني⁽³²⁾.

رعى محمد الثاني الدارسين وعلماء الدين المسلمين، وقام بزيارات مفاجئة كثيرة إلى الكلية التي أنشأها بجانب جامعته لسماع المحاضرات واختبار المعلمين والتلاميذ. لكنه مع ذلك كان تلميذا للفلسفة الإغريقية، والراعي الأكبر الوحيد لوسام عصر النهضة الإيطالي، وأول حاكم مسلم يقدر الفنانين الإيطاليين. كان من بين الفنانين الذين استضافهم في القسطنطينية واستعملهم ماتيو دي باستي Matteo de' Pasti من ريميني Rimini والموسيقار باولي Paoli من دوبروفنيك Dubrovnik وصانع الأوسمة كوستانزو دا فيرارا Constanzo da Ferrara⁽³³⁾.

وفي السنوات الأخيرة من عهده، كانت القسطنطينية ديبلوماسية وتجاريا وثقافيا جزءا من أوروبا. وفي العام 1479، وبعد ستة عشر عاما من الحرب، توصل محمد الثاني إلى سلام مع البندقية. وفي شهر سبتمبر، وردا على طلب السلطان «رسام جيد»، جاء الفنان الرسمي للدوج المدعو جينتيالي بليني إلى القسطنطينية وقدمه سفير البندقية إلى السلطان. والرسام الذي أمضى خمسة أعوام سابقة في إعادة رسم قاعة المجلس الكبير بقصر الدوج، أمضى السنة وربع السنة التالية في رسم صور لمحمد الثاني وبلاطه واللوحات الجصية الشهوانية «للغرف الداخلية» بالقصر الذي كان السلطان يبنيه في أقصى شرق القسطنطينية.

وبحلول العام 1481، كان السلطان قد وهنت قواه وخارت، مع أنه كان لا يزال في الثامنة والأربعين من عمره فقط. في تلك السنة، لم يكن وزراؤه أنفسهم يعرفون البلد الذي كان السلطان ينوي غزوه، حين مات بسبب انسداد الأمعاء، وهو يقود جيشه

شرق القسطنطينية إلى آسيا. ثمة ظروف صاحبت احتضاره تعزز الشكوك في أنه مات بالسم، ربما بمساعدة طبيبه الفارسي اللاري al - Lari لمصلحة ابنه بايزيد الثاني⁽³⁴⁾. ترك موت محمد الثاني عاصمته على مفترق طرق، كأن المدينة كانت في تجربة كيميائية تحتوي عناصر متباينة يمكن أن تنتج اتحادا أو احتراقا. فنظريا، كانت المدينة عاصمة عائلية متعددة القوميات، وعمليا استحثت نزاعات بين القومية والإمبراطورية، والطموح والواقعية، وحب المدينة والرغبة في تغييرها أو هجرها. كانت القسطنطينية، بسكانها اليونانيين وماضيها البيزنطي، اختيارا خلافا كعاصمة عثمانية. ومع أن كريتوفولوس تغنى ثناء بالفتح، فقد سخط بعض الأتراك، خاصة المرتبطين بالعاصمة السابقة إدرة على سياسات التهجير التي اتبعها الفاتح معهم. وعلى الرغم من وعود السلطان الأولى بتمليك العقارات للمهاجرين من دون مقابل، فقد أجبر الأتراك في بعض الأحيان على دفع إيجار للسلطان أو حتى للمالكين اليونانيين الأصليين. وقد أغضبهم ذلك: «لقد أجبرتنا على ترك بيوتنا القديمة التي كنا نملكها. هل أتيت بنا إلى هنا لكي ندفع إيجارا لبيوت الكفار؟»، وهجر البعض أسرهم وهربوا من المدينة. ووجهت انتقادات كثيرة إلى السلطان صدره الأعظم يوناني الأصل محمد باشا:

إذا كان السلطان متقلبا في قراراته،
فإن بلاده ستتكد العناء دوما.
وإذا كان صدره الأعظم كافرا،
فإنه سيسعى دوما للإضرار بدين الله الحق.

وفي النهاية، اشتد الاحتجاج حتى اضطر محمد الثاني لإصدار شهادات ممهورة بعلامة الطغراء (رمز السلطان)^(*) تعفي الأتراك من دفع الإيجار. كانت كوزموبوليتانية بلاط الفاتح مصدرا آخر للسخط. وفي ذلك كتب أحد الشعراء:

إذا أردت أن تكون صاحب حظوة على عتبة السلطان،
فلا بد أن تكون يهوديا أو فارسيا أو فرنجيا.

(*) الطغراء tughra: ختم باسم السلطان على هيئة توقيع بخط اليد، مزيج من الخط الديواني والإجازة، استعمله السلاطين العثمانيون في توقيع فرمانات والرسائل السلطانية، كان السلطان أروخان غازي أول من استعمله. [المترجم].

وبالنسبة إلى المؤرخين المجهولين الذين كتبوا باللغة التركية اليومية البسيطة، كانت القسطنطينية «جزيرة العذاب والضيق، واجتماع النكبات، ومصدر الفشل والبطلان». ويجب ترك المدينة الملعونة خربة إلى يوم الدين. ويجب أن تعود العاصمة إلى إدرة⁽³⁵⁾. وإلى جانب المتذمرين الأتراك، فرضت الدولة العثمانية نفسها تهديدا على مستقبل العاصمة. ففي ظل عدم وجود جمعيات تمثيلية أو طبقة نبلاء وراثية قوية، تركزت القوة في أيدي عبيد الباب. وكما قال جوفينال حول حرس إمبراطوري آخر، هو الحرس البريتوري للإمبراطورية الرومانية، فمن ذا الذي يحمي من الحرس أنفسهم؟^(*) فقد ينادي السلطان انكشاريته في وجوههم بالقول «يا حملاني الوديعة»، وهو يعرف أفضل من غيره أنهم ذئاب مفترسة. وفي العام 1451، غرثهم قوتهم حتى صاحوا في السلطان: هذه أول حملة لسلطاننا، ويجب أن يكافئنا بالعلاوة المعتادة⁽³⁶⁾. وكانوا يتذمرون كثيرا من سياساته. لكن ما الذي منع هذه الماكينة العسكرية الفريدة من الإطاحة بالسلطان كلما أرادت، أو حتى الاستيلاء على السلطة من العائلة كما فعل الحراس العبيد الآخرون في البلدان الإسلامية الأخرى، مثل بغداد والقاهرة؟

لم يكن الأتراك الشعب الوحيد الذي استاء من القسطنطينية العثمانية. فسياسة السلطان الموالية لليونانيين استندت إلى مقامرة، ذلك أن قوة الإمبراطورية العثمانية والأرباح الناتجة عن منطقتها التجارية المستقرة والشاسعة كان من شأنها أن تجعل المسيحيين راضين بوضعية «الرعايا» التي يجزها الراعي العثماني.

لقد بالغ المؤرخون الملوثون بلوثة القومية التي تفشت منذ العام 1830، في تصوير مداها وقوتها. والحقيقة في الإمبراطورية هي أنه كما جمعت العائلة العثمانية سمات إسلامية وتركية وأوروبية، جمع كثير من رعاياها أيضا عدة هويات. فقد كان من الممكن أن يشعر الفرد بأنه يوناني (أو عربي أو يهودي أو صربي) وعثماني في الوقت نفسه. وظل بعض اليونانيين أشد عدا للغرب منهم للعثمانيين، على أساس أن «عمامة السلطان أفضل من قبعة الكاردينال». كان من هؤلاء مانويل باليولوجو ابن أخي الإمبراطور الأخير الذي عاد إلى القسطنطينية من إيطاليا في العام 1477 ومُنح ضيعة، واعتنق

(*) عبارة أو سؤال «من ذا الذي يحمي من الحرس أنفسهم؟» quis custodiet ipsos custodies: عبارة لاتينية تنسب عادة إلى الشاعر الروماني جوفينال Juvenal من عمله «الهجاء»، وتشير إلى معضلة ضمان ولاء الحرس المسؤولين عن تأمين الولاء للحاكم. [المترجم].

أحد أبنائه الإسلام، وظل الآخر يونانيا^(*). وبعد قرن قال زائر ألماني إن اليونانيين «لا يريدون أحدا يحكمهم غير الأتراك، ولا حتى من المسيحيين»⁽³⁷⁾. ومع ذلك، فقد نظر يونانيون آخرون إلى الإمبراطورية العثمانية على أنها دولة أجنبية وقمعية. من هؤلاء البطريرك جناديوس نفسه الذي أعلن امتنانه للفتح واعترف بأن بعض العثمانيين كانوا أكثر دعماً لسياساته من رجال الدين التابعين له، لكنه في جلساته الخاصة كان يصف الأتراك بأنهم «كلاب هاجر الدمويون»^(**) و«الدخلاء». فعلاقته بالسلطان كانت تنبع من الضرورة، وليس الولاء.

وإذا كان الشخص الذي عيّنه السلطان شخصياً يكنّ للعثمانيين هذا الحقد كله، فليس من الصعب تخيل مشاعر اليونانيين الأقل حظوة. ففي صلوات الكنيسة في القسطنطينية، كانوا يلعنون الأتراك دائماً بأنهم «كفار» و«ملعونون». ومن النعوت الألف التي منحها المؤرخ دوكاس الكورفي^(***) Ducas of Corfu لمحمد الثاني أنه «البهيم الوحشي... نذير المسيح الدجال». فقد كانت صدمة سقوط القسطنطينية مدوّخة، لدرجة أن اليونانيين كانوا حتى وقت قريب يعتبرون يوم الثلاثاء - الذي سقطت فيه المدينة - يوم نحس. وأمن كثير من اليونانيين ببعث الإمبراطورية البيزنطية، تماماً كما آمنوا ببعث السيد المسيح.

ومنذ اليوم الذي فتح فيه العثمانيون المدينة، ظهرت نبوءات طردهم. فقد قوطع كاهن كان يقيم القداس في هاغيا صوفيا بسبب وصول «الكلاب التركية»، فتخفى في شكل عمود مرمرى بالكنيسة انتظاراً لعودة اليونانيين، وحينها سيخرج من مخبأه بوجه متألق وفي يده كأس ويصعد خطوات المذبح الأساسي، ويستأنف القداس الذي قوطع يوم الغزو. والإمبراطور الأخير نفسه لم يمت، بل تحول إلى مرمر وأخذ ينام في كهف في باطن الأرض تحت الباب الذهبي Golden Gate للمدينة الذي كان النقطة التقليدية لدخول الأباطرة المنتصرين منذ أن بناه ثيودوسيوس الأكبر في نحو العام 390، والذي

(*) لاحظ الخلط الحادث في ذلك الزمن بين دين المرء وقوميته، فحين يعتنق اليوناني الإسلام يصير تركيا، وحين يظل على مسيحيته يظل يونانياً. [المترجم].

(**) دأبت الكتابات الغربية المعادية للإسلام في العصور الوسطى والعصر الحديث المبكر على نعت العرب والمسلمين بالهاجرين Hagrites أو Hagarite أحفاد «الجارية» هاجر التي حُرِم نسلها من النبوة التي قُصرت في أبناء سارة، مع أن إسماعيل ابن هاجر نبي في الإسلام. [المترجم].

(***) نسبة إلى جزيرة كورفو اليونانية الواقعة في البحر الأيوني في شمال غرب اليونان بالقرب من سواحل ألبانيا. [المترجم].

دخل منه ميخائيل باليولوجو في العام 1261^(*). فيوما ما، سيسمع الإمبراطور نداء من السماء، «ويعطيه أحد الملائكة سيفاً ويعيده إلى الحياة ويمكّنه من طرد الأتراك بعيداً، حتى التفاحة الحمراء على التخوم الفارسية»، بالتحالف مع شعب أشقر الشعر من الشمال⁽³⁸⁾. بالنسبة إلى الأتراك، كانت التفاحة الحمراء ترمز إلى القوة التركية، فيما كانت ترمز بالنسبة إلى اليونانيين إلى قرب الهزيمة التركية.

تمتعت القسطنطينية بذاكرة تاريخية استثنائية جداً. وحتى القرن الحالي، ساعدت أمثال هذه الأساطير المألوفة لكل اليونانيين في إلهاب أحلام اليونانيين بالإمبراطورية. ففي حضور الأتراك، وفي جامع آيا صوفيا نفسه، كان المرشدون اليونانيون يحكون لزوار أجانب متعاطفين أسطورة القديس الذي قوطع. ومن جانبهم، رد العثمانيون، مدفوعين بخرافات كثيرة مماثلة حول غزو مسيحي وشيك لهم أو ثورة مسيحية عليهم، ببناء حائط حول الباب الذهبي للمدينة⁽³⁹⁾.

كان للقسطنطينية العثمانية أعداء خارجيون وداخليون. ففي فلورنسا والبندقية وروما (التي عين البابا فيها اليوناني المؤيد للغرب الكاردينال بساريون Bessarion بطريركا للقسطنطينية في العام 1463)، ظل المنفيون اليونانيون من «المدينة» يحتنون القوى الغربية على شن حملة صليبية على العثمانيين، وظلوا يؤمنون الدعم اليوناني لها. كان من هؤلاء يانوس لاسكاريس Janus Lascaris الذي ولد في القسطنطينية في نحو العام 1445، وقضى معظم حياته المهنية معلماً للغة اليونانية في فلورنسا والبندقية، يحث الملوك المسيحيين والبابا والإمبراطور الروماني المقدس وملك فرنسا على توجيه حملة صليبية على الإمبراطورية العثمانية⁽⁴⁰⁾. وقد تمنى كثير من البنادقة والجنوبيين استرداد المدينة التي كانت لهم في أثناء الحملة الصليبية الرابعة في العام 1204. فما أسماه رجال الدولة إبان القرن التاسع عشر «المسألة الشرقية» التي تشير إلى مخطط القوى الأوروبية لغزو الأراضي العثمانية، بدأت في العام 1453.

كان السلطان يتحسب من الأعداء الأقوياء وعاقدي العزم - المجر والنمسا والبندقية - الذين كانوا يحيطون بإمبراطوريته. وقد تذكر جندي صربي في خدمة السلطان أنه حين كان يثار كلام حول قيادة البابا لحملة صليبية أوروبية، «كان

(*) استرد ميخائيل باليولوجو القسطنطينية من اللاتين الذين استولوا عليها في الحملة الصليبية الرابعة في العام 1261، وأسس عائلة باليولوجو وأعاد الإمبراطورية البيزنطية وضم إليها إمبراطورية نيقية. [المترجم].

الإمبراطور [محمد الثاني] يخشى من أن تثور عليه كل الأراضي المسيحية التي فتحها». ومع أن محاولات البابا لم تثمر شيئا، فإن التهديد من ملك المجر أقلق السلطان، ما اضطره في العام 1473، حين كان ينفذ حملة في الشرق، إلى أن يستخدم عشرة آلاف عامل لتقوية أسوار العاصمة⁽⁴¹⁾.

كانت أوروبا الغربية تمتلك طابورا خامسا ممكنا في القسطنطينية ممثلا في المستعمرة الأوروبية في غَلَطَة والديبلوماسيين الأوروبيين. كان هؤلاء مصدرا للمعلومات والربح للدولة العلية، وكذلك مصدرا للدسائس. ففي غضون أيام من دخول السلطان إلى القسطنطينية، كتب الممثل الجنوي السابق من غَلَطَة إلى جنوى أنه يتمنى أن «تكون القسطنطينية بداية انهياره». كما نفذت البندقية أربع عشرة محاولة لتسميم السلطان⁽⁴²⁾.

وهكذا، فمنذ اللحظة التي أصبحت القسطنطينية فيها عاصمة الإمبراطورية العثمانية، كانت مدينة متنافسا عليها. فهذا العالم المصغر للإمبراطورية لم يكن ولاء سكانه الأتراك واليونانيين والأرمن واليهود والإيطاليين خالصا له. فقد كانت عاصمة الفاتح إما مكانا للالتقاء بين هؤلاء أو ساحة للحرب بينهم.

مدينة الله

«يخلق الفن الحقيقي مدينة
مجيدة، ويملأ قلوب الناس بالهناء».
محمد الثاني، استهلال أعمال
تأسيس جامع الفاتح

فرض الإسلام نفسه تحدياً على العاصمة
العثمانية. فالإسلام ديانة ذات مضامين
ثورية. والحكام فيه لا يحوزون الشرعية إلا
إذا فرضوا الشريعة، وهي القانون الإلهي
للإسلام المستند إلى نصوص القرآن. وكان
الناس يعتبرون الشريعة أعلى من الدولة،
وليس أحد منتجاتها. وفي ذلك يمكن القول
إن الحكمة الفرنسية «من أراد الملك، فعليه
بالقانون» (Si veut le roi, si veut la loi)
كانت غير واردة في الإمبراطورية العثمانية.
وقد تميّز تاريخ المدينة كله بالنزاع بين الحكم
الأسري والإسلام.

«كانت المساجد العثمانية تأكيداً
للسلطة، إذ كانت بمنزلة إعلان عن
حق السلطان في الحكم بصفته
ظل الله على الأرض».

كان جيش السلطان الذي حاصر المدينة يضم بين جنوده صربا ومجريين مسيحيين. ومع ذلك فقد كان الكثيرون من جنود السلطان يعتبرون أنفسهم غزاة، أي محاربين مقدسين تواقين إلى النصر أو «رحيق الشهادة». وحين ننظر إلى سقوط القسطنطينية الآن بعد اكتمال الحدث، نجد أنه صُور كمعجزة إسلامية. فقد قاتل في جيوش السلطان علماء الدين بعباءاتهم البيضاء بقيادة أعلى عالم مسلم وهو الخضر أو «الرجل الأخضر»^(*) أو إلياس المسلمين^(**). حتى الكهنة اليونانيون الذين انسحقوا أمام حجة الإسلام، تقاطروا خارجين من المدينة لينضموا إلى صفوف المسلمين^(١).

لاحقا، اعترض بعض الدراويش المسلمين^(***) على محمد الثاني أن فتح المدينة كان انتصارهم، وليس انتصاره. وكما هي الحال في الجزائر أو مصر الحديثتين، كان السخط الاجتماعي والسياسي في القسطنطينية يعبر عن نفسه من خلال الإسلام. من دلائل ذلك أن الفيلسوف والكاتب السياسي العثماني إبان القرن السادس عشر مصطفى علي شجب الوعاظ الذين «جمعوا حولهم حشودا من الرعاع البلهاء... وأخذت ألسنتهم تطول بوقاحة وبكلام فارغ سلوك خليفة الله وكلامه، ونظام الملك، وكذلك سلوك رجال الدولة الإمبراطورين وأفعالهم».

كما أرجع العثمانيون غلبتهم إلى النجاح العسكري. فعلى خلاف الأسر الإسلامية الأخرى، مثل الأشراف وهم أحفاد النبي الذين كان لهم حكم مكة والمدينة المنورة منذ القرن العاشر، لم يكن بمقدور العثمانيين أن يدعوا حقا ثابتا أو نسبا إلى قبيلة قريش التي ينتمي إليها النبي محمد. وقد تسبب هذا «النقص في الشرعية» في نشوب نزاعات حتى داخل عقل الصدر الأعظم إبان

(*) ربما بسبب إجلال الإسلام التركي العثماني أو الطرق الصوفية للرجل الصالح «الخضر» الذي اتخذوه «وليا» ومصدرا للإلهام، أو لأن شيخ الإسلام، وهو أكبر علماء الدين المسلمين، الذي سمي أولا قاضي عسكر ثم قاضي القضاة ثم شيخ الإسلام، كان يرتدي عباءة خضراء، ربما أيضا تشبها بالخضر «الذي أوتي الحكمة». [المترجم].

(**) إلياس أو إيليا أحد أنبياء اليهود ذكر في التناخ وفي القرآن، كان في الكتاب المقدس كثير المعجزات، وتشببه شيخ الإسلام به ربما ناتج عن تجوال الأول عبر البراري لدعوة الناس إلى الدين الحق. سيأتي في حاشية لاحقة أن من المسلمين من يعتقدون أن الخضر وإلياس شخص واحد وأنهما لا يزالان حيين إلى الآن. [المترجم].

(***) الدرويش هو السائر على «طريقة» الزهد والتقشف في الإسلام، الذي يعيش على إحسان الناس زهدا منه في امتلاك عرض الدنيا، وأمثال هذه الطرق الصوفية كانت - ولا تزال - تطبع الإسلام التركي، وربما منه انتقلت إلى المسلمين غير الأتراك، ومنهم العرب. [المترجم].

القرن السادس عشر لطفي باشا^{(2)(*)}. هل كان من حق السلطان العثماني أن يكون «ظل الله» كما كان يلقب نفسه؟

وتمثل الحل العثماني في توثيق الروابط بين الإسلام والأسرة الحاكمة، فكان السلاطين العثمانيون مسلمين أتقياء يحاولون إنفاذ شريعة الله. وكانوا أيضا أمراء وحكاما، شأنهم في ذلك شأن الأباطرة الهابسبرغيين وقيصرة روسيا، استخدموا الدين أداة للسيطرة على رعاياهم. حتى خطبة محمد الثاني ذات اللغة الإسلامية الحماسية لجيشه قبل الفتح، كانت خطابا عائليا بلا موارد: «إن الغزو هو واجبنا الأساسي، كما كان بالنسبة إلى آبائنا. والقسطنطينية التي تقع في منتصف ممتلكاتنا، تؤوي أعداء دولتنا (كان منهم مسلم هو عمه أورخان Orhan) وتحرضهم علينا. لذلك يعد فتح هذه المدينة ضرورة لمستقبل الدولة العثمانية وسلامتها».

كشفت العمارة عن توقيير الأسرة الحاكمة للإسلام. فكان من أشهر البنايات التي شيدها محمد الثاني مسجدا بُدئ فيه في نحو العام 1459، على قمة القرن الذهبي، في المكان الذي ادعى المرشد الروحي المبجل للسلطان آق شمس الدين^(**) أنه عثر فيه على قبر الصحابي أبي أيوب الأنصاري الذي مات في أثناء حصار الجيش العربي للقسطنطينية في العام 669^(***). وقد وفر هذا الاكتشاف المواق رابطا عاطفيا بين العاصمة الجديدة والنبي محمد.

(*) لطفي باشا (Lutfi Pasha) ابن عبدالمعين الألباني (توفي نحو العام 1562) من وزراء الدولة العثمانية، تعلم العلم الديني في عهد بايزيد الثاني، وكتب شرحا لأربعين حديثا جمعها بعنوان «الكنوز في حل الرموز» وكتاب «خلاص الأمة في معرفة الأئمة»، تزوج من شاه سلطان أخت السلطان سليمان القانوني، وشغل منصب الصدر الأعظم من 13 يوليو 1539 إلى أبريل 1541. [المترجم].

(**) آق شمس الدين (Akshemseddin) عالم دين تركماني من أبناء سورية، كان أحد معلمي الأمير محمد الفاتح، وشاركه فتح القسطنطينية، كان من مبلغ تأثيره في شخصية محمد الفاتح وطموحه أن لقبه بعضهم باسم «الفاتح المعنوي» في مقابل «الفاتح بالسيف». [المترجم].

(***) سُمي المسجد «أيوب سلطان» على اسم الصحابي أبي أيوب الذي تقول رواية إنه كان في جيش يزيد بن معاوية القاصد فتح القسطنطينية في زمن خلافة معاوية، وأنه حين دخل في مرض الموت، جاءه يزيد يعوده وسأله: «ما حاجتك؟»، فأجاب: «حاجتي إذا أنا مت، فأركب، ثم سخ في أرض العدو ما وجدت مساعا، فإذا لم تجد، فادفني ثم ارجع». ولما توفي فعل به الجيش ما أراد، ودفنوه بالقرب من القسطنطينية، وأمر يزيد بالخيل، فأخذت تقبل وتدبر على قبره، حتى عفا أثر القبر. ويقال إن الروم حين علموا بدفن أبي أيوب في أرضهم، قال لهم المسلمون: «هذا رجل من أكابر صحابة نبينا وأقدمهم إسلاما، وقد دفناه حيث رأيتم، ووالله لئن نبش، لا ضرب لكم بناقوس في أرض العرب ما كانت لنا مملكة». ويقال إن الروم يستسقون بقبره إذا عز المطر. [المترجم].

توافد الحجاج لزيارة القبر في الفناء الذي أحيط بحاجز من الفضة وشمعدانات مطلية بالذهب ومصاحف مفتوحة. كتب سفير مغربي بعد زيارة له إلى القسطنطينية في العام 1591:

تدافع حشود من الزوار بلا انقطاع حول القبر. ويتنافس نبلاء الإمبراطورية على أماكن الدفن المتاحة بالقرب منه، ويشترون هناك قطع أرض صغيرة بأعلى الأثمان. ولا يدخر أخيار الناس، حتى أفقرهم، وسعا للحصول على مكان لهم بجانب هذا القبر. وقد زرنا هذا الصحابي الجليل، ونالنا من رحيقه. ومن خلال وساطته - نسأل الله أن يتقبلها! - وجهنا دعاءنا وصلاتنا إلى الله⁽³⁾.

أصبح أبو أيوب راعي القسطنطينية العثمانية^(*). ولم يكن مسموحا لغير المسلمين بأن يفتحوا دكاكين في هذه المنطقة المقدسة. واليوم، تعد المنطقة المحيطة بقبره والتي تحمل اسمه - «أيوب» - من أقدس المواقع الإسلامية في تركيا. وفي شهر رمضان تحديدا، يتجلى اختلاف هذه المنطقة عن بقية المدينة. ومسجد أيوب المحاط بالجدران وصفوف الأضرحة المرمرية، يظل مفتوحا أمام حشود المؤمنين حتى وقت متأخر من الليل.

ومن خلال تقديس الصحابي أبي أيوب، غدت القسطنطينية مدينة إسلامية مقدسة. وسُكَّ اسم إسلامي للمدينة، ربما سَكَّه محمد الثاني نفسه، هو «إسلامبول» (Islambol) الذي يعني «حيث يسود الإسلام»⁽⁴⁾. وشيّد الفاتح مسجدا آخر بين العامين 1463 و1470 في وسط القسطنطينية في مكان كنيسة الرسل المقدسين، وباتخاذ أنقاضها مواد للبناء. وهذا المسجد الذي سُمي «الفاتح» على اسم السلطان نفسه، يكشف عن رؤية السلطان لعاصمته، وهو في هذه المهمة لا يقل في شيء عن قلعة الأبراج السبعة. كانت المساجد التي بناها العثمانيون في بورصة وإدرنة متواضعة نسبيا، وتكشف زخرفتها عن تأثير سلجوقي وفارسي قوي. أما العاصمة الجديدة، فقد كانت في حاجة إلى أسلوب أكثر جرأة وبروزا، وفي ذلك كان جامع الفاتح المشروع المعماري الأكثر طموحا على الإطلاق بين أعمال العثمانيين

(*) الراعي أو النصير أو الحامي على عادة الفكر الديني المسيحي، مثل القديس جيمس الكبير، أو يعقوب بن زبدي كما يسمى في المصادر العربية، الذي اتخذ ضريحه في سانتياغو دي كومبوستيلا (Santiago de Compostela) أو شنت ياقوب كما أسماها العرب، بمنطقة جليقية بشمال غرب إسبانيا مقصدا للحجيج المسيحيين، وبالمثل اتخذته الإمبراطورية الإسبانية الهابسبرغية راعيا وحاميا لها. [المترجم].

ومعماريهم الشهير «عتيق سنان» (الذي أعدم لاحقاً بأوامر سيده^(*)) الذي ربما كان من أصول مسيحية. وعلى غرار جامع آيا صوفيا الذي أريد بجامع الفاتح أن ينافس، تُوج الأخير بسلسلة من القباب المطلية بالرخام إلى أضخم قبة بينها جميعاً، وهي أكبر ما شيده العثمانيون على الإطلاق. وبعد أن أعيد بناء الجامع وفقاً لتصميمه الأصلي، بعد زلزال العام 1766، غدا مكاناً يفيض بشعور التواضع المادي والديني على المتعبدين بداخله. فشبه مؤرخ الفاتح ومعاصره طورسون بك الجامع من الداخل بـ «معجزة العليقة المشتعلة»^(**). كما شبهه كاتب القرن السابع عشر العظيم أوليا جلبي Evliya Celebi، الذي غدت أوصافه للقسطنطينية والإمبراطورية من الكلاسيكيات، بـ «قبة السماء».

يصطف في الفناء المربع ذي الأبواب الثمانية وفي سعة المسجد نفسه، صف من الأعمدة في وسطها نافورة. وعلى لوح أبيض من المرمر بداخل المدخل الأساسي للمسجد نُقش حديث نبوي بحروف من ذهب، سبق أن اقتبسه الفاتح وهو يخاطب جنوده قبل الهجوم النهائي على المدينة، يكشف أن شهرة القسطنطينية وصلت إلى النبي نفسه: «لنفتح القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش»!

وعلى الجانب الآخر من المسجد، يوجد ضريح مقبب ثماني الأضلاع يحوي القبر الحجري البسيط للفاتح، مغطى بقماش أخضر، وعلى أحد طرفيه عمامة بيضاء. وقد تحول هذا القبر الذي يحرسه الشيوخ الدينيون ليلاً ونهاراً إلى مقصد للحج. وصار أهل القسطنطينية يؤمنون بأن شفاعته الفاتح تضيف قوة إلى الأدعية التي يقولونها وهم يمسون على نوافذ الضريح. وظل السلاطين اللاحقون يتمنون أن ينالوا حظاً من شجاعته وحماسته من خلال زيارة قبره⁽⁵⁾.

(*) المعماري عتيق سنان Old Sinan (بالتركية Atik Sinan) أو سنان الأكبر تميزاً له عن رائد العمارة العثمانية سنان باشا أو معمار باشا أو خوجة باشا. يُروى أن السلطان محمد الفاتح بعد أن أكمل عتيق سنان بناء الجامع، لم يعجبه بناء الجامع، وبالأخص قبته التي أراد لها أن تكون أكبر من قبة آيا صوفيا، وأمر بقطع يد سنان، لكن رواية إعدامه غير متواترة. [المترجم].

(**) في سفر الخروج بالتوراة، تجلى الله لموسى في هيئة نار: «وظهر له ملاك الرب بلهب نار من وسط عليقة، فنظر وإذا العليقة تتوقد بالنار والعليقة لم تكن تحترق» (تكوين، 2-3)، وكلفه بالخروج بالإسرائيليين من مصر إلى أرض كنعان. والتشبيه من جانب المؤرخ العثماني ربما يؤكد البهاء والإشراق الإلهيين اللذين ينبعثان من الجامع. [المترجم].

كان جامع الفاتح بؤرة حياة المدينة. وكما هي الحال في كل المساجد الأخرى، تمثلت الوظيفة الأساسية لمسجد الفاتح في كونه مكانا طاهرا وبسيطا للعبادة. وفي أوقات صلاة الجماعة المعلومة، كان الرجال بعد أن يتوضأوا على النافورة الكائنة خارج المسجد، يخلعون نعالهم ويصطفون في المسجد بأعداد غفيرة يركعون ويسجدون وينهضون ذاكرين اسم الله بصوت مسموع، أو يستمعون إلى الخطب. وفي غير أوقات الصلاة، كان المسجد يكتظ بأفراد يصلون أو يقرأون القرآن⁽⁶⁾. في الغرب، جمعت الكنائس أدوار المسرح والنادي والسوق، وكان من الوارد أن تجدها غير نظيفة. فكانت كاتدرائية القديس بول في لندن، على سبيل المثال، تعج بالمواسم والتجار والعمال الذين ينتظرون من يستأجرهم. أما في القسطنطينية، كما كتب مسيحي مذهول، ف«لم يكن أحدهم يتسكع أو يتمشى في أي كنيسة (مسجد)، ولا أحد يثرثر مع غيره، ولا يسمع فيها شيء غير صلاة متلهفة»⁽⁷⁾.

وكانت المساجد تستخدم للتعليم فضلا على الصلاة. وعلى جانبي جامع الفاتح، كانت توجد مجموعتان من ثماني مدارس أو كليات كثيرة القباب، بارتفاع طابق واحد أو اثنين، تسميان - أي المجموعتين - باسمي البحر الأسود والبحر الأبيض المتوسط على التوالي، كانت توفر الطعام والسكن والتدريس لنحو ألف طالب. واليوم تعد المؤسسة الأكاديمية الإسلامية العليا في الإمبراطورية التي كانت الروضة لأجيال من القضاة وعلماء الدين (الرجال المتعلمين الذين كانوا يقومون على أمر المساجد والنظام القانوني) المعروفة باسم مدرسة الفاتح، سلف جامعة إسطنبول، حتى إن بعض أبنية المدرسة كانت تستخدم لإسكان طلاب هذه الجامعة. عملت المدرسة التي أهديت إليها مكتبة مكونة من ألف وسبعمئة وسبعين كتابا، منها ثمانمائة وتسعة وثلاثون كتابا تبرع بها الفاتح نفسه، على تقديم تعليم إسلامي تقليدي، يقوم على العلوم العشرة: النحو والصرف والمنطق والفلسفة المدرسية والعلوم الإنسانية والتعبير والشرح والبيان والهندسة والفلك. وكان الطلاب الناجحون يصبحون أئمة أو معلمين في المساجد، أما إذا تابعوا دراسات أعلى في الفقه أو البلاغة أو الحديث الشريف أو العقيدة أو التفسير، فقد كان يفتح أمامهم الطريق لكي يصبحوا قضاة، إما في القسطنطينية وإما في المدن الأخرى في الإمبراطورية.

وحول جامع الفاتح، بنى السلطان أيضا مزيدا من المُجمَّعات المقببة المنظمة كما لو كانت جيشا في حالة استعراض. ضمت هذه المُجمَّعات تكية للدراويش، وخانا أو نزلا للمسافرين، ومستشفى يقدم للمرضى وجبتين يوما (كان طائرا الحجل والدراج موجودين دائما ضمن قائمة الطعام) وموسيقى لتهدئة المرضى والمجانين، وعمارة^(*) أي مطعم الفقراء الذي كان يوزع الطعام على الفقراء، وحماما. كان أكثر من ألف شخص يحصلون يوميا على وجبتين من عمارة الفاتح. وقد نُسخ مُجمَّع الفاتح في القسطنطينية وخارجها، ذلك أن الإمبراطورية العثمانية إلى جانب كونها دولة أسرية، كانت نظاما من نوع دولة الرفاه الاجتماعي. وبتعبير يوناني من المدينة، يدعى تيودور كانتاكوزينوس Theodore Cantacuzenos عاصر محمد الثاني وابنه بايزيد الثاني: «لم يكن الأمراء الأتراك من كل المقامات يفكرون في شيء غير بناء الكنائس (بالنص)^(**) والمستشفيات، ووقف الممتلكات عليها، وإقامة الخانات للمسافرين، وشق الطرق، وبناء الجسور وبواليع الصرف وغيرها من الأعمال الخيرية الكثيرة التي كانوا يقيمونها، لذلك فإنني أعلن احترامي لكل الأمراء الأتراك الأكثر سخاء بكثير من أمرائنا المسيحيين».

كانت مساجد القسطنطينية كذلك جزءا من النسيج الاقتصادي للمدينة. وكانت تُموَّل من عائدات المؤسسات أو الأوقاف التي كانت تملك بيوتا أو الأنظمة المائية أو البازارات في المدينة. وقد اشتمل الوقف الذي أوقفه محمد الثاني على جامع الفاتح على ممتلكات مثل سوق قريب للجلد أو السروج ضم مائة وعشرة دكاكين. ومن بين عائدات الوقف التي بلغت مليونا ونصف المليون أقة^(***) أي ما يعادل ثلاثين ألف دوقية ذهبية بندقية، كان ثمانمائة وتسع وستون ألفا ومائتان وثمانون أقة تنفق على الموظفين، وأربعمائة وإحدى وستون ألفا وأربعمائة وسبع عشرة أقة

(*) العمارة (imaret) مطعم مجاني للفقراء انتشر كثيرا في عواصم الولايات العثمانية حتى قبل انتقال العاصمة إلى القسطنطينية، كشكل من أشكال كفالة الفقراء مثل التكايا، من أمثلتها «العمارة السليمية» التي أنشأها السلطان سليم الأول في دمشق و«العمارة العامرة» التي أقامتها زوجته السلطانة خاصكي سلطان في دمشق أيضا في العام 1522، كانت تقدم رغيف خبز وطبقا من الشوربة مع قطعة لحم، وربما لذلك سميت في اللغات الأوروبية «مطاعم الشوربة» (soup kitchens). [المترجم].

(**) نقل المؤلف اقتباس الشخص اليوناني بالنص، كما ذكر بين قوسين، لكن الإشارة إلى الكنائس تنصرف يقينا إلى المساجد. [المترجم].

(***) الأقة (akce) هو اسم العملة العثمانية التي بدأ سكها في العام 1327، كانت تحمل على أحد وجهيها شهادة الإسلام وعلى الوجه الآخر اسم الأمير كنوع من الدعاء له بدوام الملك. [المترجم].

تنفق على طعام التكية، واثنان وسبعون ألف أجرة تنفق على المستشفى نفسه، وثمانية عشر ألفا وخمسمائة واثنان وعشرون أجرة على الترميمات. وبلغ إجمالي الموظفين في المجمع كله ثلاثمائة وثلاثة وثمانين موظفا⁽⁸⁾.

كان كل مسجد يضم هيئة موظفين واسعة من العلماء. وكان هؤلاء على خلاف خدم السلطان وانكشاريته، مسلمين بالمولد. كانت هذه المهنة تمتص معظم طاقة أتراك القسطنطينية وطموحهم. وكان الشيوخ يلقون الخطب، والأئمة يؤمون الصلاة، والمؤذنون يرفعون الأذان أو يتلون آيات القرآن، كما كتب رحالة إيطالي «بصوت نديّ مملوء بالحماسة والوضوح والعدوبة. فلو سمعته من دون أن تراهم لظننتهم أطفالا صغاراً». وكان يعمل في المساجد أيضا بوابون وقراء للدروس ومشرفون على الوضوء، كلهم محدودون بالاسم والأجر في مؤسسة الوقف، إعمالا للهوس العثماني بالقوائم والنظم. تفسر النسبة الكبيرة من عائدات الوقف المخصصة لرواتبهم، السبب الذي دفع الكثير من الأتراك إلى إنشاء المساجد أو العمل فيها. حتى القرن الحالي، كان أحفاد المؤسسين يرثون الحق في إدارة الأوقاف والحصول منها على رواتب. وكما هي الحال مع الممتلكات المخصصة للائتمانات الأسرية المعفاة من الضرائب في بريطانيا ما بعد الحرب، كان الوقف يوفر بيتا ودخلا آمنين من مصادرة الدولة.

كانت حياة مشاهير الكتاب، ومنهم مثلا «سلطان الشعراء» باقي (Baqi) (1520 - 1599) الشاعر المفضل لدى سليمان القانوني، تبدأ وتنتهي في جامع الفاتح^(*). تحول باقي ابن أحد مؤذني المساجد، بعد فترة من العمل صبيا لصانع سروج، إلى دراسة الفقه، وترقى إلى معلم في مسجد آخر بالمدينة. في قصيدة مبكرة له، احتفى بأحد الأعمال التي دأب عليها العثمانيون، وهي تحويل أبراج الكنائس و«أجراسها الرنانة» إلى مآذن وأصوات المؤذنين الداعية إلى الصلاة. كان التحرك الصحيح في العاصمة يمكن أن يعطي صاحبه وظيفة عالية وممتلكات في مدينة إقليمية بعيدة. من ذلك أن باقي أصبح قاضيا أولا في مكة، ثم في القسطنطينية نفسها، وارتقى بعد ذلك إلى المسؤول القضائي الأعلى (قاضي عسكر) للولايات الأوروبية بالإمبراطورية. شهد مفتي القسطنطينية بنفسه مراسم جنازة باقي أمام حشد هائل في جامع الفاتح⁽⁹⁾.

(*) هو محمود عبد الباقي أحد أبرز المؤثرين في الأدب التركي العثماني، ألحقه أبوه صبيا بمحل صنع سروج، لكنه كان يهرب من العمل ليحضر الدروس في مدرسة جامع الفاتح القريبة. [المترجم].

ازداد الطابع الإسلامي للقسطنطينية بعد موت محمد الثاني. فابنه بايزيد الثاني كان حاكما ورعا ومسالما عُرف باسم «الولي». رأى بايزيد أن أباه بسبب مشورة مستشاري السوء والمنافقين «خالف شريعة النبي»، فباع معظم الصور والمنحوتات الإيطالية للفتح قرفا منها. ووضع طلاء فوق اللوحات الجصية الشهوانية في القصر. وعدّل بايزيد عن استخدام محمد الثاني المتكرر للعرف والسلطة التنفيذية للسلطان والقانون أي قانون الدولة^(*) كأساس للنظم الحكومية، وشجّبها بوصفها مخالفة لشريعة الإسلام^(**).

على رأس العلماء، استقر مفتي القسطنطينية، وهي الوظيفة التي استنها محمد الثاني. ومع نهاية القرن الخامس عشر كان المفتي يُعرف أيضا باسم شيخ الإسلام، وكان الرجل الثالث في الدولة بعد السلطان والصدر الأعظم. وفي بعض الأحيان كان بايزيد الثاني يقف عند استقباله ويجلسه في مقعد أعلى من مقعده. كان المفتي يصدر فتاوى تقرر أن أفعال السلطان موافقة للشريعة. ورغم كل القوة العسكرية للسلطان، كان هذا الدور المتعلق بإضفاء الشرعية مهما جدا، حتى إن أحد المفتين كتب: «كان السلطان محمد يظل يلح عليّ إلى أن أصدر فتوى في النهاية». ومع نهاية القرن السابع عشر، غدا من الممكن وصف المفتي بأنه «يمتلك سلطة مطلقة في أمور الدين. وأمور الدولة مشتقة من الدين، وبذلك يكون الدين الأصل، والدولة الفرع. وكان الرئيس الوحيد للدين هو شيخ الإسلام، والرئيس الوحيد للدولة هو الصدر الأعظم، لكن فوقهما معا كان السلطان».

في ذلك الوقت، كان العلماء قد أصبحوا طبقة من نبلاء الثوب (Noblesse de robe) شبه الوراثية^(***)، متميزة عن نخبة السلطة ممثلة في الباب العالي، بيد أنها تمارس تأثيرا كبيرا في تصرفات المدينة نفسها وعاداتها. فإبان القرن الثامن عشر، كان

(*) في مقابل الشريعة. [المترجم].

(**) ومع ذلك، ظل قانون الدولة مهما. وفي إشارة إلى العرف، طلب أحد أبناء بايزيد، هو قورقود (Korkud)، في العام 1508 أن يُعفى من السلطنة، لأنه في أرض مثل أرض الروم (الإمبراطورية العثمانية) كان من المستحيل أن تكون حاكما جيدا ومسلما جيدا في الوقت عينه. [المؤلف].

(***) في النظام القديم السابق على الثورة الفرنسية، يشير مصطلح «نبالة الثوب» أو «نبلاء الثوب» إلى الأرستقراطيين الذين نالوا مكانتهم بفضل المناصب القانونية أو الإدارية التي شغلوها في الدولة، تمييزا لهم عن «نبالة السيف» (noblesse d'eepee) المستمدة من الانتماء التقليدي للأسرة إلى الطبقة العسكرية. [المترجم].

أربعة وعشرون مفتيا من مفتي القسطنطينية أبناء مفتين سابقين للمدينة، كانوا يُسمّون «مهد العلماء». من ذلك مثلا أن أسرة دوري زاده Durizade قدمت ستة مفتين شغلوا المنصب عشر دورات بين العامين 1734 و1920. وكان العلماء يقابلون السلطان دوما في صلاة الجمعة، وكان يشار إليهم في البعثات الدبلوماسية باسم «طبقة النبلاء القديمة»⁽¹⁰⁾.

كان بايزيد الثاني سلطانا مسالما نوعا ما، وذلك جزئيا بسبب التهديد الذي كان معلقا فوق رأسه من أخيه جم Cem، الابن المفضل لمحمد الفاتح والأمير المحبوب الذي كان من الممكن أن يواصل سياسات أبيه المنفتحة. هرب جم إلى أوروبا التي أصبح فيها بيدا في اللعبة الكبرى بين الإمبراطورية العثمانية وأعدائها. كان جم العثماني الوحيد الذي حقق حلم الأسرة بالوصول إلى روما، وإن لم يكن كقائد فاتح. وفي مقابل إعانة مالية من بايزيد الثاني، جرى التفاوض عليها عبر تاجر جنوي من غَلَطَة، احتجز البابا جم في الفاتيكان كـ «ضيف مكرم»، أي سجين، وربما مات بالسم في نابولي في العام 1495. وفي العام 1512، خلف بايزيد الثاني ابنه سليم المعروف باسم ياوز أو سليم القاطع.

اعتبر سليم الأول نفسه، كما فعل جده الفاتح، اسكندر أكبر جديدا، مكلفا من الله بفتح العالم من أقصاه إلى أقصاه. وفي العام 1517، هزم غريمه المسلم الأساسي السلطان المملوكي المصري وشنقه على أحد أبواب القاهرة^(*). وعلى مدار القرون الأربعة التالية، ظلت مصر وسورية والجزء من بلاد العرب الذي يضم المدينتين

(*) الباب هو باب زويلة، والسلطان هو الأشرف أبو النصر طومان باي آخر سلاطين المماليك الشركس في مصر الذي قاد في القاهرة المحتلة حرب شوارع ضد جيش سليم بمعاونة الأهالي، وكان النصر فيها قريبا، وكاد حتى يظفر بسليم نفسه، لولا أن العثمانيين أمطروا المماليك والأهالي بالبنادق من فوق المآذن. قيل إن خمسين ألف نفس أزهقت في فتح القاهرة، كان من بينها نصف جيش سليم. وبعد أن انكسرت المقاومة، لجأ طومان باي إلى أحد شيوخ البدو يدعى حسن بن مرعي سبق أن أطلق طومان سراحه بعد أن ظل سجينا في عهد عمه السلطان قانصوه الغوري، لكن الشيخ غدر به وأسلمه إلى سليم. أعجب سليم بمهارة طومان العسكرية وشجاعته في الدفاع عن قضيته وموقفه بعد أن قبض عليه، حتى إنه قرر أن يبقي على حياته ويصطحبه إلى القسطنطينية، لولا أن أمراء المماليك الذين انضموا إلى سليم بعد سقوط دمشق، على رأسهم خير بيك (Khayr Baig) وجان بردي الغزالي (Janerdi Al-Ghazali)، ألحوا على سليم كثيرا أن يقتله حتى يستتب له حكم مصر. وفي 15 أبريل 1517، أخذ طومان مكبلا على حصان إلى باب زويلة يحرسه أربعمائة انكشاري، وحين رأى الحبل يتدلى من قبو الباب وتيقن من حتفه، ترجل عن الحصان وسار في ثبات إلى المشنقة، ثم نظر إلى الأهالي المحتشدين وطلب منهم أن يقرأوا له الفاتحة ثلاثا، وبقي جثثانه معلقا على الباب ثلاثة أيام، ثم دفن بعدها. [المترجم].

المقدستين مكة والمدينة، ولايات تابعة للإمبراطورية العثمانية^(*). حكم السلطان العثماني نصف الشرق الأوسط تقريبا وكل منطقة البلقان. وكان أقوى حاكم مسلم، والإمام الأكبر، وحامي طرق الحج إلى مكة والمدينة. واتخذ منذ ذلك الحين أحد أعز ألقابه إليه: «خادم الحرمين الشريفين». وبفضل قوة السلطان العثماني وورعه ومقامه، لم يكن له منافس على لقب «خليفة الله في الأرض»، إلا في المغرب والهند البعيدتين، بعد أن مات آخر خليفة عباسي اسمي من سلالة خلفاء بغداد العباسيين الذي كان قد أصبح موظفا براتب لدى السلطان المملوكي في القاهرة، وطواه النسيان في العام 1543⁽¹¹⁾. وبعد العام 1517، أصبحت القسطنطينية عاصمة الإسلام، على نحو لم تشهده من قبل. وفي القوائم الرسمية لمدينة الإمبراطورية العثمانية، كانت تليها العاصمتان السابقتان للأسرة الحاكمة: إدرنة وبورصة، اللتان سبقتا المدن المقدسة مكة والمدينة والقدس. أما العواصم الإسلامية السابقة دمشق «التي تزفر برحيق الجنة» وبغداد «دار الخلاص» والقاهرة «التي لا نظير لها»، فقد جاءت في المراتب السابعة والثامنة والتاسعة على التوالي^(**).

أرسل سليل النبي وأمير مكة وشريفها إلى سليم الأول مفاتيح الكعبة والحجر الأسود المقدس الموجود في منتصف المسجد الأكبر بمكة^(***). كانت القوة العثمانية، وليس التضامن الإسلامي، هي التي دفعت الأمير إلى الخضوع إلى السلطان من دون أن تطلق طلقة واحدة. وكان شريف مكة في حاجة إلى القمح المصري لإطعام أهل الحجاز، وكذلك الحماية العثمانية من الخطط البرتغالية للسيطرة على البحر الأحمر وغزو مكة من قاعدة الحكم البرتغالي في الهند. وفي المقابل، كان مقام الأشراف كبيرا

(*) كان من العوامل الأساسية لهزيمة المماليك أمام العثمانيين، إضافة إلى تنافس أمرائهم على السلطة والحروب الأهلية فيما بينهم وضعف اقتصاد دولتهم بعد تحول التجارة عنها إلى طريق رأس الرجاء الصالح أو رأس العواقب كما أسموه هم، أن المماليك في آخر عهدهم كانوا قد تخلفوا عسكريا بسبب رفضهم تبني الأسلحة الحديثة مثل مدافع الميدان والبنادق التي رأوا أنها تنتقص من فروسياتهم. لكن الفروسية التي كانت معركة المنصورة في العام 1250 التي هزموا فيها الحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع الفرنسي آخر تجلياتها، كان زمانها قد ولى وانقضى. وفي المقابل، تميز العثمانيون بالهفة إلى تبني الأسلحة الحديثة. [المترجم].

(**) يقدم هذا الترتيب للمدن العثمانية دليلا على ما جاء في تقديم المترجم من إهمال للحواضر العربية جعلها بعد قرون الحكم العثماني أكثر تخلفا من حيث العمران والنشاط الاقتصادي والثقافي وعدد السكان مما كانت عليها قبلها، أو على الأقل فوّت هذه القرون من عمرها وهي في حالة من الجمود والركود. [المترجم].

(***) أمير مكة حينئذ هو الشريف بركات بن محمد، لكن رواية إرسال الحجر الأسود لا أصل لها في المصادر العربية. [المترجم].

جدا لدى العثمانيين، حتى إنهم نالوا امتيازات ورواتب أكبر من تلك التي تمتعوا بها إبان عهد التبعية لسلطين مصر⁽¹²⁾.

ومع عودة ازدهار الإمبراطورية وتوسعها، نما سكان القسطنطينية سريعا. فمن نحو ثمانين ألف شخص في السنوات الأخيرة من عهد الفاتح، وصلت إلى زهاء أربعمئة ألف في العام 1530. وتوسعت حركة بناء المساجد مع نمو السكان. صُممت مساجد القسطنطينية، أيا كان تاريخ بنائها، بالأسلوب الإمبراطوري العثماني المتجهم نفسه، باستخدام حجارة رمادية مقتطعة من الشواطئ الجنوبية لبحر مرمرة. وكما يقول غودفري غودوين (Godfrey Goodwin)، فإن التقاليد كانت «المهندس العثماني الأبرز في كل العهود». كان المسؤولون والأميرات، وقبل الجميع السلاطين أنفسهم، ينفقون على المساجد. كان آيا صوفيا الجامع الإمبراطوري الأعلى مقاما في المدينة الذي تمتع بأكبر وقف من عائدات جمارك المدينة وسوقها الرئيس والبيوت المبنية خارج أسوار المدينة. بنى ابن الفاتح بايزيد مسجدا (1500 - 1506) عند مدخل البازار الكبير. وبغرض إظهار تدينهما، بنى حفيده سليم الأول وابن حفيده سليمان مساجد على تلال تطل على القرن الذهبي: السليمي (1518 - 1522) وشاه زاده (1542 - 1548) والسليماني (1548 - 1557).

كان الجامع السليماني محاطا بمجمع من الكليات والمكتبات العامة والدكاكين والمستشفيات أكبر من ذلك المحيط بجامع الفاتح، ولاتزال المكتبة والمستشفى، الذي اشتهر بعلاج المرضى «خلال ثلاثة أيام» يعملان إلى اليوم، كان جامعا شاه زاده والسليماني من أعمال سنان رئيس هيئة المعمارين الإمبراطوريين من العام 1538 حتى وفاته بعد خمسين عاما، في نحو التسعين من عمره. وسنان الذي ربما كان أرمينيا بالمولد من وسط الأناضول «جمع» في الدفشمة، عمل أولا جنديا انكشاريا ثم مهندسا. بنى سنان أو أعاد بناء أربعمئة وسبع وسبعين بناية (منها مائة وتسعة وخمسون مسجدا)، ثلاثمئة وتسع عشرة منها في القسطنطينية، وكان في العادة تُعد نماذج هندسية يعاينها السلطان قبل بدء البناء. يكشف سيل الطلبات التي أرسلها سنان حول فتح نوافذ جديدة في مساجد قديمة أو شق بواليع أو نقص النجارين المهرة، عن تمكنه من أدق التفاصيل. وتثبت بناياته الباقية أنه أغزر المعمارين إنتاجا في التاريخ العثماني⁽¹³⁾.

لم تكن المساجد الإمبراطورية أماكن للعبادة وحسب، وإنما كانت كذلك تأكيداً مادياً بالحجارة على تدين الأسرة الحاكمة وعدلها وإحسانها وكرمها. فقد كانت تقوم بالوظيفة التي تؤديها المعارض الفنية التي ينفق عليها المليونيرات في زمننا الحالي أو المساجد التي يشيدها شيوخ الخليج، حيث كانت مساجد السلاطين تعلن ثراءهم وتطهره في الوقت عينه. يذكر أحد التقديرات من القرن الثامن عشر أن هذه المساجد كانت تطعم ثلاثين ألف شخص يومياً في العاصمة، ما ساعد في ضمان عدم وصول الجوع إلى مستوى الخطر الذي وصل إليه في باريس في العام 1789. وقد اتفق الزوار الغربيون على أن عدد الشحاذين كان أقل في القسطنطينية منه في أي مدينة أخرى في أوروبا، باستثناء المقاطعات اليونانية⁽¹⁴⁾.

كانت المساجد العثمانية أيضاً تأكيداً للسلطة، إذ كانت بمنزلة إعلان عن حق السلطان في الحكم بصفته «ظل الله على الأرض» وكذلك عن دوام إمبراطوريته ومجدها. وكانت القبة رمزا للوحدة الإمبراطورية. وكانت مساجد السلاطين تحوي عدداً من القباب أكبر من المساجد الأخرى، فضلاً على مئذنتين أو أربع، بينما لم تكن المساجد الأخرى تضم غير مئذنة واحدة. وبغرض تحدي إنجازات الملك سليمان والإسكندر الأكبر وجوستينيان، أمر سليمان القانوني، في أعمال انطوت على تعقيد ونفقات هائلة، بنقل أعمدة الصوان من بعلبك^(*) والإسكندرية ومن القسطنطينية نفسها لاستخدامها في الداخل الفخم للجامع السلیماني. وقد بدأ العمل في بناء المسجد بعد أن وافق الإمبراطور كارلوس على دفع الجزية لسليمان في العام 1547، وربما جاء بناؤه احتفالاً بسيادته في أوروبا^{(15)(**)}.

(*) من معبد الشمس الذي أخذت منه أعمدة أيضاً قبل ألف عام لبناء كنيسة هاغيا صوفيا. [المؤلف].
 (***) كان سليمان القانوني من أقوى سلاطين بني عثمان وأكثرهم حزمًا، وقد اتسعت الإمبراطورية في عهده كثيراً، وأدخلت هزيمته للقوى الأوروبية في معركة موهاج (Mohacs) في العام 1526 الرعب في قلوب القوى الأوروبية، ولم يوقفه عن التوغل في أوروبا إلا فشله في الاستيلاء على فيينا في العام 1529. وكان كارلوس ملك إسبانيا والإمبراطور الروماني المقدس من ألد أعدائه على اليايسة الأوروبية وعلى صفحة البحر الأبيض المتوسط، إذ كان الأخير يحكمه لإسبانيا التي نجحت في القضاء على دولة الأندلس وشغله منصب الإمبراطور الروماني المقدس يسوق نفسه باعتباره «سيف النصرانية» وحاميها، وشن عدة «حملات صليبية» على شمال أفريقيا واحتل بعض موانئها، ودخل في مواجهات كثيرة مع العثمانيين في البر والبحر. ونتيجة للحروب المستمرة لكارلوس ضد العثمانيين وضد قوى أوروبية - من أهمها فرنسا التي كانت في حلف مع سليمان القانوني - ومن أجل هدنة لالتقاط الأنفاس، اضطر كارلوس في العام 1547 إلى توقيع معاهدة مذلة مع سليمان، اعترف فيها بأنه ملك إسبانيا وحسب، لأن العالم لا يمكن أن يتحمل إلا إمبراطوراً واحداً، هو سليمان القانوني، وقدم بموجبها جزية إلى الأخير. [المترجم].

وفي العام 1609 كانت الإمبراطورية قد استنزفت بسبب الحروب الطويلة والفاشلة مع النمسا وبلاد فارس. ودُمر الاقتصاد، حتى إن الصدر الأعظم والمفتي كانا يتوسلان إلى السلطان أحمد الأول كي لا يبني مساجد جديدة، لكنه أصر على بناء مسجده، بل ساعد في حفر أساساته بنفسه. كشف الشاعر جعفر Ca'fer عن الغرض من بناء المسجد الجديد، وهو الأكبر في المدينة والمرئي لكل السفن المبحرة من الجنوب، بالكلمات التالية:

حيث إن العالم يكشف عن نفسه عبر الصور الجميلة،
فإن مسجد حاكم العالم يعلن عن صفته تلك...
فلا أحد (غير السلطان أحمد) يستطيع أن يبني مسجدا كهذا
إذ لا يدانيه أحد في كونه الحاكم المبجل للشعب
إنه الشاه المنتصر والحاكم ذو السيادة أحمد خان
انظروا أعماله في تلك الكعبة المتقنة⁽¹⁶⁾ (*)

يعد جامع السلطان أحمد المسجد الوحيد خارج المدينة المنورة الذي يضم ست مآذن. وبحلول النصف الثاني من القرن السابع عشر، ضمت القسطنطينية بين جنباتها أربعمئة وخمسة وثمانين جامعا وأربعة آلاف وأربعمئة واثنين وتسعين مسجدا (لا تقام في الأخيرة صلاة الجمعة)^(**). لم تكن القسطنطينية أكبر مدينة إسلامية في العالم، لكن لم تضاهها مدينة أخرى في عدد المساجد. وعلى ذلك، فإن بناء المساجد يقدم إحدى الإجابات عن السؤال الذي يثار كثيرا: إلى أين كانت ثروة الإمبراطورية العثمانية تذهب؟⁽¹⁷⁾

تهيمن قباب المساجد الإمبراطورية ومآذنها على الأفق الذي لا نظير له لمدينة إسطنبول الحديثة. وفي الماضي، كانت فضاءاتها المستطيلة المسطحة وصفوفها المستقيمة النظيفة وأبنيتها الشاهقة من الحجارة الرمادية أو البيضاء، تبرز جلية على خلفية البيوت ذات الأسقف الحمراء. ونظرا إلى وجود وفرة في الفضاء داخل

(*) من غير الواضح من الترجمة الإنجليزية للأبيات، ما إذا كان ذكر الكعبة جاء من باب تشبيه جامع السلطان أحمد بالكعبة، أم للإشادة بأعمال الترميم التي نفذها السلطان أحمد في الكعبة، إذ أمر بترميمها بنطاقين من النحاس الأصفر المطلي بالذهب بعد أن تصدعت جدرانها. [المترجم].

(**) في المقابل، كان هناك نحو مائة كنيسة في مدينة لندن إبان القرن السادس عشر، ومائة واثنين وستين كنيسة ومصلى في باريس إبان القرن الثامن عشر. [المؤلف].

أسوار المدينة، فقد كان في مقدور معظم أهالي المدينة أن يتمتعوا بالخصوصية في بيوت صغيرة تضم من غرفتين إلى أربع غرف، بدلا من العيش في عمارات ضخمة مشتركة، كما كانت الحال في البندقية أو القاهرة. توضح لوحة الفنان ميلخيور لوركس (Melchior Lorichs) التي تعود إلى العام 1560 تقريبا، البيوت في صفوف متصلة على القرن الذهبي تمتد من القصر إلى أسوار المدينة. كان الرحالة الغربيون يزدرون هذه البنايات ويصفونها بأنها رديئة البناء و«أقل من متوسطة».

أعطت الجدران الخشبية للبيوت والطوابق العليا البارزة والمشربيات - لمنع الرجال المارين في الشارع من رؤية النساء بالداخل - شوارع القسطنطينية «سمة متفردة من الغموض والكآبة». فقد كانت هيئة المعمارين الإمبراطوريين ملزمة باحترام الخصوصية التي يفرضها الإسلام. وكانت البيوت الخاصة تبنى من دون تخطيط، مثلها مثل شواهد القبور الإسلامية المبعثرة في الجبانات. وفي بعض الأحيان، كانت الشوارع معوجة وضيقة جدا وتفتقر إلى الانتظام أو النظام، لدرجة أن البيوت كانت تتلاصق من الجانبين بعضها مع بعض. وبغرض زيادة الخصوصية، كان الكثير من الشوارع عبارة عن أزقة مسدودة النهاية. والشارع الأكبر في المدينة، وهو شارع الديوان (المؤدي إلى القصر) الذي كان يقطع وسط المدينة إلى الأسوار، كان نسخة من الطريق العام البيزنطي، فلم تمتلك القسطنطينية الشوارع المخططة رسميا التي ظهرت في روما أو فلورنسا أو البندقية والتي حُطت في باريس بعد العام 1600. ولم تعرف المدينة مكافئا لسلسلة المستطيلات المتحدة المركز، التي بُنيت العاصمة الإمبراطورية الصينية الجديدة بكين وفقا لها بعد العام 1421.

ازداد الارتباك بسبب وجود خمسة تلال منفصلة جنوب القرن الذهبي وتل غَلَطَة الكبير على الجانب الآخر. لذلك كانت الشوارع ترتفع مع التلال وتنخفض مع الوديان في كل اتجاه، ما جعل المدينة كتلة من الأزقة المعوجة والبيوت الخشبية والأسوار والحدائق والجبانات. ولا يزال جو المدينة العثمانية غير المنظمة قائما في بضعة أحياء سكنية، مثل منطقة الشوارع الملتوية والبيوت الخشبية الواقعة بين جامع السلطان أحمد والبحر. يتأكد ذلك من الصورة التي رسمها كاتب الرحلات الإيطالي الكبير إدموندو دي أميتشيس الذي زار القسطنطينية في العام 1874، وحينها لم يختلف وصفه لمعظم الأحياء عما كانت عليه منذ قرون سابقة:

الشوارع تنعطف بزوايا لا تحصى، وتلتف بين تلال صغيرة، وترتفع مع هضاب صاعدة، وتنخفض مع وديان هابطة، وتغر من تحت قنوات، وتتقاطع مع أزقة، وتهبط من مرتفعات وتغر خلال غابات وصخور وخرائب ورمال وتلال. تبدو المدينة العظيمة في بعض جنباتها وكأنها مقطوعة الصلة بالدولة، ثم سرعان ما تجدها مجددا حاضرة وناضة بالحياة وكثيرة الألوان...⁽¹⁸⁾.



شارع في حي بايكوز، 1860 يضم الحي التركي العادي، من النوع المصوّر في هذه الصورة، بيوتا خشبية وشوارع ملتوية ضيقة في هذه المدينة الخشبية اللغوضية، شكلت مُجمّعات المساجد العنصر الوحيد للنظام الحضري.

إن نسخة الإسلام التقليدية صارمة بعض الشيء، لا مكان فيها للاحتفال والموسيقى. لكن القسطنطينية جذبت شكلا مختلفا للإسلام، هو تكايا الدراويش. كان الدراويش يمارسون الصوفية، ذلك التوق إلى النشوة الباطنية والتحلل من الذات بالتوحد مع الله. وغالبا ما كان هذا البحث الشخصي عن الله يتخذ شكل حلقات الذكر^(*).

(*) حلقات الذكر طقوس يمارسها المتصوفة يذكرون فيها اسم الله وهم يتمايلون يمينا ويسارا وهم وقوف في صفوف، يقولون «الله» مع كل لفظة يمينا أو يسارا أو أحد أسماء الله مثل «حي» أو «مدد» طلبا للمدد من أولياء الله الصالحين، مع فواصل من الإنشاد الديني، يصل بعضهم خلالها إلى حد الإغماء والهلوسة من الإجهاد. [المترجم].

كان الدراويش منظمين في طرق يترأس كلا منها مرشد أو شيخ معين، مكرسة لذكر «أولياء الله»، الذين كانوا بالنسبة إلى بعض المسلمين في مقام القديسين بالنسبة إلى المسيحيين. كانت تكايا الدراويش تُبنى عادة بجوار قبور «أولياء الله»، ولها نوافذ مفتوحة على الشوارع يستطيع المارة من خلالها أن ينقلوا تحياتهم. كان الدراويش يؤمنون بأن «أولياء الله»، من أمثال أبي أيوب الأنصاري أو محمد الفاتح نفسه، يعيشون داخل قبورهم في «العالم اللامتناهي»، وأنهم هناك يمتلكون القدرة على حماية أتباعهم في «العالم المتناهي» ومنحهم المدد.

وكان المسلمون يقومون بزيارات متكررة إلى قبورهم طلبا للشفاء من الأمراض، وللدعاء بسلامة الولادة أو الختان أو نجاح الزواج، أو لمجرد تنسم «الرحيق الإلهي» لأولياء الله. وعلى غرار مثيلاتها في البلدان المسيحية، كانت الموسيقى تُعزف، والبخور يُحرق، وتُقدم النذور في شكل لحوم أو أموال أو شيلان. وكان مصباح يضاء بزيت الزيتون يوضع في كوة في الجدار. وكان الناس يربطون خرقا ملونة بقضبان النافذة أو القبر لتذكير ولي الله بالبركات المنتظرة منه. وبجانب قبر أحد «أولياء الله» في ميرديونكوي (Merdivenkoy) المقابلة للقسطنطينية في آسيا، توجد صخرة كان يُعتقد إبان القرن التاسع عشر أنها تحقق أمنية أي شخص يقف عليها، كما ذكرت مقيمة إنجليزية تدعى لوسي غارنيت (Lucy Garnett): «أرجعت سيدة تركية من معارفي هي الراحلة بسمة سلطان Besma Sultan صعودها إلى المكانة السامية والاستثنائية بكونها الزوجة القانونية للسلطان عبدالمجيد، إلى أمنية عبّرت عنها في ذهنها وهي واقفة على هذه الصخرة، بالطبع بعد أن قدمت نذورها ودعواتها عند الضريح المجاور».

كانت التكايا الكبيرة تضم أجنحة معيشة منفصلة للأسر والعزاب والشيخ، وقاعة للإنشاد تسمى «سماع خانة» (semahane) تقام فيها حلقات الذكر، ومكتبة، وقاعة طعام، ومطبخ كبير. كان الطعام مقدسا في أعين الدراويش، ولذلك كان الشيخ بعد الانتهاء من الإعداد الطقوسي لوجبة الطعام، ينشد:

نحن الصوفيين على الطريق، نحن مَنْ يتعشون على مائدة الملك.
يا إلهي آدم علينا هذه الطاسة وتلك المأدبة⁽¹⁹⁾.

كانت المولوية أكثر طرق الدراويش رواجاً في القسطنطينية. وكانت تكيتهما الأساسية تقع في نهاية ما يسمى حالياً شارع الاستقلال في غَلَطَة (بايوغلو). تشبه تكايا الدراويش، في بعض النواحي، الأديرة المسيحية، حتى إن السلطان محمد الثاني أقام التكية المولوية بَغَلَطَة على أنقاض دير بيزنطي، ربما لكي يؤكد تفوق الإسلام على المسيحية. كان هؤلاء المولويون، تحت عمائهم المميّزة وبتنوراتهم الصوفية الطويلة، يؤدون (ومازالوا في بعض الأحيان) رقصة طقوسية بطيئة. وكان الواحد منهم يلف حول نفسه وذراعيه مفرودين إلى أقصاهما وعينيّه مغلقتين ورأسه مائلة على كتفه الأيسر، وعباءته تتموّج حوله متطايرة في الهواء «على أنغام الناي والدف، مع أنشودة رتيبة عن وحدانية الله وبطلان الوجود الدنيوي». وكانت النشوة تبلغ بأحدهم أن يستمر في اللف لخمس عشرة دقيقة متواصلة في المرة الواحدة من دون أن تصيبه دوخة أو إرهاق⁽²⁰⁾.

ثمة طريقة أخرى، هي الدراويش الرفاعية أو الصارخون الذين كانوا يجدون متعة في الألم، في تكيتهما الواقعة في أوسكودار Uskudar بأسيا، كانوا يؤدون صرخاتهم أو تشنجاتهم «يا الله يا هو» مع صرخات كثيفة، تعلو وتنخفض مثل حقل قمح في مهب الريح. وحين كانوا يصلون مرحلة الهذيان، كانوا يسحبون آلاتهم المعدنية ذات الحواف عند نهاياتها المنتفخة من على الجدران. وكانت تُحمى في كانون (barrier) وتوضع متقدة على جلد الدراويش أو تُدخّل في فمه أو يضغط بها على مقلتي عينيه. بينما «يسحب آخرون الخناجر من أماكن تعليقها على الجدران ويقطعون بها جلودهم، أو يمسون جمرات متقدة من الكانون ويحرقون بها لحومهم. ويقع بعضهم من الاهتياج بين أذرع إخوتهم، وفي النهاية يسقطون جميعاً على الأرض خائرين منهكين وفاقدن الوعي (وملطخين بالدماء)». وكانوا يعتقدون أن نفْس شيخهم، أي الكلمات المقدسة التي يتلفظ بها تشفي كل الجروح.



الرسام فوستو زونارو Fausto Zonaro ممارسات الدراويش، في نحو العام 1900. تشاهد سيدات أوروبيات شيخ الطريقة الرفاعية وهو على وشك البدء في علاج رجال مستن منكشفين على الأرض من خلال المشي فوق ظهورهم. وتقف خلفهم بنات صغيرات ينتظرن دورهن في العلاج. وعلى اليسار، يحملق الدراويش الرفاعية، بينهم الرسام الذي كان هو نفسه درويشاً، يلفل الفامس بين الرجال على الجهة اليسرى. وعلى اليمين، رسم زونارو، على خلاف ما يحدث في الطريقة الرفاعية، درويشاً مولوياً يعرف الناي. تعد هذه اللوحة من أفضل تمثيلات توهج الدراويش، ويعد اليوم إنتاجها كثيراً في الكتب المتعلقة بالدراويش أو تعلق على جدران التكايا.

إبان القرن التاسع عشر، ذُكرت التكية الرفاعية بـ «الآلات الشنيعة» المعلقة على جدرانها، تيوفيل غوتيه (Theophile Gautier) بغرفة التعذيب في محكمة التفتيش. لكن غوتيه كان ينظر من خلال عيون باريسية ساخرة. أما بالنسبة إلى الدراويش، فقد كان ألهم يرمز إلى الزهد في الإرادة الفردية والعالم المادي. وكانت جروحهم «وروداً» تقرّبهم من معية الله «غصن الورد»⁽²¹⁾.

كانت طقوس الدراويش وتوهجهم «وصرخاتهم المروعة» تثير امتعاض علماء المساجد. وكانوا يتهمونهم بأنهم من متبعي البدع أو الممارسات المكروهة. وكان الكثير من عقائدهم يُربط ببدعة مذهب الشيعة الممقوت، وهي نسخة منافسة من الإسلام، تضاعفت كراهيتها بعد تبني بلاد فارس - العدو الأساسي للإمبراطورية - لها ديناً رسمياً للدولة في العام 1506. جذب درويش يدعى إسماعيل معشوكي (Ismail Mashuki)، كان يُعرّف باسم «الشيخ الصبي»، حشوداً بالآلاف في آيا

صوفيا. وانزعج المفتي من باطنيته الوجدية (Ecstic Mysticism)، فأمر بإعدامه في العام 1529 وهو في عمر الحادية والعشرين. لكن سرعان ما تحوّل المكانان اللذان دفنت فيهما رأسه وجثته إلى مقاصد للزيارة.

كان الدراويش، من جانبهم، مزهوين بقربهم الباطني من الله، وكانوا في أغلبهم يهزأون مما اعتبروه جهل العلماء ونفاقهم. كتب أحد الدراويش: «اعلم أيها المعلم التقليدي أن المسجد والحانة عندي سيان، وصوت التقي وصرخة السكير عندي سيان». كانت الصوفية، أكثر من المسجد، تشبع توق الكثير من المسلمين إلى الاتحاد مع الله. وكان بايزيد الثاني نفسه صوفيا أدخل الطريقة الخلوتية إلى القسطنطينية وأقام لها موزعا في دير أرثوذكسي سابق. ومريدو الطريقة الخلوتية يتميزون بالاعتزال الصامت الانفرادي في زنازين بلا نوافذ، ويتناولون أقل قدر ممكن من الطعام والنوم، ولا يخرجون إلا للذهاب إلى المسجد عبر مجاز يفصلهم عن الاتصال بالبشر.

بحلول القرن التاسع عشر، ضمت القسطنطينية ثلاثمائة تكية وسبعا وثلاثين طريقة نشطة، كان أغلبية المسلمين ينتسبون إلى إحداها. وكانت بعض التكايا تضم بعض مباهج دور الأوبرا والكوميونات وفصول الأيروبيكس الحديثة. امتدح أحد الدراويش مهارات «مرشده» في أبيات تنقل قوة الصوفية:

معلمي وسيدي هو ذاكري Zakiri.

يَضْعُب أن تجد ندا له في كل الفنون.

اسمه حسن وهو في طباع الحسين.

جمله الله بالبصرة الروحية،

وشهرة ذكره تبلغ الآفاق.

ولحن صوته زاد لأرواح المحبين.

ويؤم الصلوات الخمس بالناس.

إنه بهجة من يعرفون الإيقاع.

يقضي الشهور والسنوات في الصلاة.

إنه الحقيقة لمن يعرفون الاتحاد⁽²²⁾.

تتمثل الفروض الدينية الأساسية على المسلمين في الحج إلى مكة والزكاة وصوم رمضان والشهادة، وقبل ذلك جميعا أداء الصلوات الخمس. والملتزمون منهم كانوا

يجيبون نداء المؤذن للصلاة، الذي كان يتجول في الشرفات المفتوحة للمآذن التي بُنيت خصيصا لضمان أن يُسمَعَ نداؤه في كل الاتجاهات:

الله أكبر. أشهد أن لا إله إلا الله. وأشهد أن محمدا رسول الله. حي على الصلاة. حي على الفلاح. الله أكبر. لا إله إلا الله.

في الشوارع الهادئة القريبة من المساجد، كان صوت المؤذنين يصم الآذان. قبل القرن التاسع عشر، لم يكن هناك غير بضع مركبات وخيول، وكانت الشوارع «هادئة تماما لدرجة أن أصوات الناس في الشارع كانت تُسمَع وكأنهم معك في الغرفة»، على حد تعبير رحالة بريطاني يدعى الدكتور ميريون Meryon في العام 1810، وكان نداء المؤذنين للصلاة من أعلى الأصوات في المدينة.

كان الزمن نفسه إسلاميا. فبالنسبة إلى المسلمين واليهود، تقاس ساعات اليوم بداية من غروب الشمس، وليس من منتصف الليل. وبالنسبة إليهم كانت الساعة الثانية عشرة صباحا وقتا متغيرا في المساء، وليس وقتا ثابتا من الليل. وكان المؤذنون بمنزلة ساعات بشرية، إذ كان صوت نداءهم للصلاة الوسيلة المعيارية لتدقيق الوقت. وعلى الرغم من وجود مستعمرة لساعات الحائط وصناع الساعات الأجانب في غَلَطَة (شملت في أوائل القرن الثامن عشر والد جان جاك روسو) وواردات متواترة من الخارج، فلم تكن الساعات الميكانيكية متوافرة إلا لأثرياء المسلمين، وكانت كثيرة الأعطال.

حتى سقوط الإمبراطورية، كان الإسلام هو مقياس الساعات، فضلا عن وسيلة شغلها. وعلى الرغم من أن القرآن نزل باللسان العربي، وهو لسان لا يفهم متحدثو التركية في أغلبيتهم إلا بضع كلمات منه، فإن الكثير من المسلمين كانوا يحفظونه عن ظهر قلب. وكان أوليا جلبي، على سبيل المثال، يستطيع أن يتلوه سريعا في سبع ساعات، وبتؤدة في ثماني ساعات، ومكافأة له على ذلك، عُيِّنَ مصاحبا(*) في القصر السلطاني. كانت تلاوة القرآن التسلية الأساسية في المدينة الإسلامية. وكان ظهور قارئ جديد للقرآن يثير في القسطنطينية البهجة والثناء اللذين كان ظهور مغني أوبرا جديد يثيرهما في ميلانو. وكان المسلمون يتوقفون عن أي شيء يفعلونه

(*) المصاحب (musahib) في الدولة العثمانية شخص يختار من بين أرباب العلم والفن لتسلية السلطان بحسن الحديث. [المترجم].

بمجرد أن يسمعون الأذان للصلاة. وفي ذلك كتب موراجيا دوسون (Mouradgea d'Ohsson) الأرمني المولود في القسطنطينية وأحد أعظم مؤرخي المدينة:

إذا لم تر هذه الأمة على أرضها، فلن تتمكن من تكوين فكرة كاملة عن حرصهم الدائم والمدقق، رجالا ونساء، وجهاء ووضعاء، فقراء وأغنياء، علماء وعامة، على إشباع ذلك التوق إلى أداء الصلوات الخمس. حتى إن الواحد ليقول إن هذه الكتلة السكانية الهائلة ليست سوى طائفة دينية واحدة.

وفي ليالي رمضان التي كانت المساجد فيها تكتظ بالمصلين وتضاء قبابها ومآذنها بالشموع، كانت المدينة تتوهج بالإسلام. (كان تأثير ذلك أكبر كثيرا من أنوار الزينة في رمضان في الأزمان الحديثة التي تتنافس فيها تلك الأنوار مع أضواء الإعلانات وعلامات الشوارع). وفي ليلة السابع والعشرين من رمضان، وهي «ليلة القدر» الأفضل من ألف شهر، كان جامع آيا صوفيا يضيق بالمصلين، وكان نوره يسطع في الليل كالنيزك. في هذه المدينة المؤمنة، لم يكن ثمة مكان للمتشككين. كان لطفي طوقادي Lutfi Tokadi من أوائل أمناء مكتبة الفاتح ومن محاسيب الفاتح وعالم رياضيات بارزا، لكنه سخر من الخرافات، فأعدم في العام 1494 بأوامر بايزيد الثاني أمام حشود ضخمة في ساحة الألعاب الرومانية على «إهماله»⁽²³⁾.

وكذلك أضفى الإسلام على الأسرة العثمانية هالة من القداسة. فداخل المساجد، كانت الخطب تلقى باسم السلطان. ومن أوائل القرن السابع عشر حتى نهاية الإمبراطورية، كان جزء من طقوس تنصيب السلطان يتمثل في أن يقلده أحد أكبر الشيوخ، عادة شيخ الطريقة المولوية، سيف عثمان مؤسس الأسرة، الذي يتخذ مقبضه هيئة تنين، وهي الطقوس التي كانت تجرى على منصة في الفناء الأساسي لأقدس مسجد في المدينة، وهو جامع أيوب.

كانت أفخم المراسم السنوية في القسطنطينية، وهي مغادرة قافلة الحج إلى مكة في الثاني عشر من رجب^(*)، ترتبط بالأسرة العثمانية. كان يترأس القافلة مسؤول خاص يسمى أمين الصرة. وفي كل عام حتى الحرب العالمية الأولى، كان السلطان يرسل ثوبا من القماش الأسود مغطى بتطريز من الذهب، يسمى المحمل لكسوة الكعبة المشرفة في مكة، ويرسل إلى أمير مكة ذهبا ورسالة موضوعة في أربعة أكياس من الحرير وعباءة

(*) المقابل الميلادي لتاريخ هذا الاحتفال يتغير لأن التقويم الإسلامي قمري. [المؤلف].

من القماش المخطط بالذهب وفرو القاقم. كان رئيس الخصيان السود يسلم هدايا السلطان إلى أمين الصرة في القصر. وكان جمل مزين ببهارج نفيسة، يقال إنه متحدر من الجمال التي استخدمها النبي، يحمل المحمل من القصر، يليه جمل آخر يحمل أثر سرج النبي، وسبعة بغال محملة بمزيد من الهدايا. وكان موكب يسير فيه المسؤولون والحرس والراقصون العرب وال دراويش ورشاشو العطر وضاربو الدفوف ونصف سكان المدينة المسلمين، يرافق المحمل من القصر خلال الشوارع حتى بيشيكناش بالقرب من المكان الذي بُني فيه أول جسر للسيارات عبر البسفور. وكان الحجاج ينضمون إلى القافلة على طول طريقها. وفي حين كان الجمل المقدس يعاد إلى القصر حتى السنة التالية، كان الحجاج يعبرون إلى أوسكودار في آسيا، وهناك كانت علامات التأثير بسبب الفراق بين الأقارب تتكشف قبل أن يبدأ الحجاج طريقهم الطويل الشاق إلى مكة⁽²⁴⁾.

تمثل أحد المصادر الأساسية لتقدير الذات لدى الأسرة العثمانية والتقدير الشعبي لها بعد العام 1517 في حمايتها لطريق الحج إلى الحجاز من خلال نظام مكلف من الخانات والحماية المسلحة للقوافل ورشوة القبائل البدوية. وأنشئ صندوق خاص في القسطنطينية تُجمع فيه عائدات من مصادر متنوعة، من بينها أوقاف، وترسل سنويا إلى المساجد والفقراء في الحجاز. وبحلول القرن الثامن عشر، كان الحج يكلف أكثر من صيانة القصر الإمبراطوري، إذ كان يمتص ما بين 10 و 17 في المائة من الإيرادات الحكومية⁽²⁵⁾.

اكتسب السلطان وقصره مزيدا من القدسية مع وصول أثر النبي من القاهرة ومكة بعد العام 1517، الذي شمل بردة النبي وختمه وسيوفه وإحدى أسنانه وشعرات من لحيته. كما جاءت راية الرسول المصنوعة من الصوف الأسود من دمشق في العام 1595. لم تعرض هذه الآثار في أحد المساجد حتى يراها العامة، على غرار ما حدث مع كفن تورينو المقدس^(*)، بل بقيت معزولة في قصر الحاكم، ككنز خاص بالأسرة الحاكمة، على الرغم من أن الأتراك، كما سترى لاحقا، كانوا يسيلون مواكب خلال شوارع القسطنطينية براية النبي في لحظات اشتداد التوتر. وقد بُني في القصر الثالث بالبلاط الإمبراطوري بالقرب من غرفة نوم السلطان، مقصورة خاصة للبردة الشريفة، كانت قبالتها ألواح من المرمر أخذت من القاهرة. وكان القرآن يتلى في هذه المقصورة ليل نهار بلا انقطاع

(*) كفن تورينو المقدس Holy Shroud of Turin قطعة من قماش الكتان تحمل صورة رجل يبدو أنه تعرض لرضوض بدنية تشبه ما ينتج عن الصلب، موجودة في كنيسة تورينو في شمال إيطاليا، يعتقد أنه كفن المسيح عيسى الناصري، على الرغم من أن اختبار التاريخ بالكربون المشع أرجع تاريخ نشأة الكفن إلى العصور الوسطى. [المترجم].

من خلال تبديل القراء. وفي مرة واحدة في كل عام، في الخامس عشر من رمضان، كان غلمان الغرفة الخاصة يغسلون البردة المقدسة بماء الورد. وكان أفراد الأسرة الإمبراطورية (الرجال والنساء) وأعضاء الحكومة يسمح لهم بالدخول بترتيب الأسبقية لتقبيلها. وكان كل فرد من هؤلاء يُعطى قنينة تحتوي ماء من ذلك الذي غُسلت فيه البردة وورقة مطبوعا عليها ختم النبي، كان الواحد منهم ينقع الورقة في هذا الماء ويشربه⁽²⁶⁾.

كانت صلاة السلطان للجمعة، وهي المراسم التي عُرفت لاحقاً باسم السلامك، تكشف للمدينة عن ورعه وقوته. وفي المقابل، كان الملوك الغربيون، إلا في الاحتفالات المقدسة، يصلون في مصليات خاصة في قصورهم، لا يراهم فيها إلا حاشيتهم وعدد محدود من الجمهور. لكن في القسطنطينية، كان معظم السلاطين يذهبون في موكب رسمي لصلاة الجمعة في أحد المساجد العامة، عادة جامع الفاتح أو الجامع السلیماني. وصف لويجي باسانو Luigi Bassano الوصيف السابق موكب سليمان القانوني وهو ذاهب إلى المسجد على النحو التالي:

يسير موكبه بالترتيب التالي: أولاً يتقدم ثلاثون من حملة الصولجانات ينادون «أفسحوا الطريق لمولانا السلطان»، ويبعدون الناس بضربات عنيفة. يلي هؤلاء نحو ألفين من جنود الانكشارية مترجلين، وسيوفهم وبلاطهم في أغمدها المشدودة إلى قصورهم، وينادقهم المعلقة على ظهورهم تعلو فوق رؤوسهم بمواسيرها التي يبلغ طول الواحدة منها خمسة أشبار، يليهم عدد مماثل تقريبا من السباهية [سلاح الفرسان] والصولاك [حرس السلطان] على ظهور الجياد، وسيوفهم وأقواسهم وأسهمهم وصولجاناتهم معلقة في أقواس سروجهم. يتقدم الموكب في حالة من الصمت، ولا يُسمع غير وقع أقدام السائرين والخيول. يأتي بعد ذلك زهاء خمسة عشر أو عشرين حصانا مزينة ببهارج نفيسة على رؤوسها، منها العقيق الأحمر والماس والياقوت والفيروز واللائي العظيمة، لا تُرى سروجها من المخمل القرمزي الذي يغطيها، يقودها جنود مترجلون. بالقرب من عظيم الترك^(*) نفسه لا يركب أحد حصانا، بل يترجل أربعة سيّاس عن يمينه وشماله على بعد رمح منه لإبعاد الناس عنه، إلا إذا دعا صاحب الموكب أحد الباشوات أو الضباط الآخرين ليتحدث معه. ويسبقه دائماً ثلاثة غلمان، أحدهم يحمل قوس السلطان وأسهمه، وآخر يحمل سيفه، وثالث يحمل قنينة ذهبية بماء معطر ليتوضأ به السلطان عند

(*) عظيم الترك Grand Turk أحد ألقاب السلطان العثماني المستخدمة في الدوائر الغربية حينذاك. [المترجم].

باب الجامع الكبير. وفي المسجد، بعد أن يدخل السلطان، يذهب إلى موضع أعلى عما عداه بنحو أربع أذرع محاطا بستائر تسمى الغمامة، مخصص لاستخدامه هو فقط. يصلي السلطان وحده في هذا المكان، إلا إذا اصطحب أحد أبنائه. ويجلس مرافقوه الذين يربو عددهم على أربعة آلاف شخص في صحن المسجد بأسفل. يفعل السلطان ذلك كل يوم جمعة لإرضاء شعبه، أو كما يقول البعض، وهو ما أميل إلى تصديقه، لأن ذلك فرض عليه. يبقى السلطان في الجامع نحو ساعتين، يعود بعدها دائما من الطريق نفسه الذي جاء منه [عادة شارع الديوان]، وهو يلقي على العامة نظرات العطف ويرد على تحيات الجميع، سواء كانوا من المسيحيين أو الأتراك أو اليهود، الرجال أو النساء، ويدير رأسه قليلا إلى اليمين، ثم إلى اليسار، تقديرا للناس الذين اصطفوا على جانبي الطريق. على أن هؤلاء الناس لا يرفعون أغطية رؤوسهم لتحية السلطان [كما يفعل الناس في الغرب]، إذ يعد ذلك تصرفا غير لائق، بل يحنون رؤوسهم. وعلى ذلك، فإن عظيم الترك يظهر على الناس في كل يوم جمعة، وليس كما يدعي الكاذبون أنه لا يظهر للناس مطلقا.

استمرت مراسم السلامك بأشكال مختلفة حتى السابع والعشرين من فبراير 1924. وفي العام 1573 أبدى ديبلوماسي فرنسي يدعى فيليب دو فرنس كاناي Philippe du Fresne Canaye إعجابه بالصمت المحيط بالسلطان سليم الثاني، إذ بدا أن السلطان يمتلك القدرة على تحويل الرجال إلى حجارة. كان حصان السلطان يُحرّم من الطعام والنوم طيلة الليلة السابقة للسلامك لضمان أن يمشي بـ«الخطوة البطيئة والثقيلة الملائمة لفخامة هذا الملك العظيم». ووفق تعبير توماس واتكينز Thomas Watkins، بعد مائتي عام من كاناي، كان السلامك:

أفخم وأروع [موكب] شاهدته على الإطلاق، حيث الملابس الفاخرة والمتنوعة، وجمال الخيول العربية وزينتها، والمظهر الجميل لجنود الانكشارية والبستانجية وهم الحرس الإمبراطوري (*) (ذوو القبعات القرمزية فريدة الشكل ورائعة المنظر)، باختصار أعتقد أن فخامة هذا المشهد وجدته وصمته وجلاله تترك أقوى انطباع في أي مشاهد أجنبي⁽²⁷⁾.

(*) على خلاف الاسم «بوستانجي» الذي يعني البستاني أو الجنائي (بستان زائد لاحقة اسم الفاعل في اللغة التركية «جي»، كما في الكلمات العربية العامة الكثيرة المشتقة بالطريقة التركية)، كان البستانجية من قوات الحرس الإمبراطوري، مسؤولين تحديدا عن تأمين قصر السلطان والبنائيات التابعة له، وكان كبيرهم يدعى «البستانجي باشي» ويحمل رتبة باشا، وربما جاء الاسم من انتشارهم في حدائق القصر الإمبراطوري، أو لأنهم كانوا يبدأون حياتهم المهنية بستانين في القصر. [المترجم].



الرّسام باولو فيرونا Paolo Verona، عبدالمجيد الأول في طريقه إلى الصلاة في جامع أيوب، في نحو العام 1640. يرتدي السلطان راعي الإصلاح ملابس أوروبية الطراز وعباءة. ربما تصوّر هذه اللوحة مراسم تنصيبه في العام 1639.

قُتل أحد السلاطين في مراسم السلامك. وفي الثالث عشر من ديسمبر 1754، صمم السلطان محمود الأول على الذهاب إلى صلاة الجمعة، على الرغم من أنه كان يحتضر، وفي طريق عودته من المسجد، مات في الفناء الأول للقصر، ولذلك يمكن القول حرفياً إنه مات «في سرجه»⁽²⁸⁾.

ترقبت على أسلمة القسطنطينية نتيجتان أساسيتان. فبعد موت محمد الثاني، كانت هناك بضع إشارات إلى وجود سلطان «أثيم» و«مدينة ملعونة». ولم تكن هناك خلفية إسلامية لهذه المدينة ذات المساجد والأولياء. لكن سرعان ما اكتسب السلطان العثماني الذي كان في بادئ الأمر شخصية علمانية نسبياً مثل الخليفة العباسي أو الإمبراطور البيزنطي، بهالة من القداسة. وأخذ رعاياه يصلون ويدعون له بطول العمر والفلاح في المساجد والأسواق وبعد وجبات الطعام. وأخذ الناس يزورون قبور السلاطين المتفرقة عبر المدينة من جامع أيوب إلى آيا صوفيا، في رمضان وفي الليالي السبع المقدسة^(*)، كان قبورهم كانت أضرحة. كان الناس ينظرون إلى العثمانيين على أنهم أسرة مباركة قُدر

(*) ربما تكون السبع الأواخر من رمضان. [المترجم].

لها الخلود. وفي ذلك كتب كاتب أواخر القرن السادس عشر مصطفى علي الذي لم تخلُ كتاباته - على الرغم من ذلك - من الروح النقدية: «إن معتقداتهم الدينية لا تشوبها شائبة، وطبيعتهم تشبه المرأة الساطعة، ولم يحدث إطلاقاً أن فرداً من هذه الأسرة النبيلة انحرف عن الطريق القويم»⁽²⁹⁾.

كما أسهمت أسلمة المدينة أيضاً في إغلاق العقل العثماني. فقد أصيب هذا العقل بتخمة دينية، تماماً كما يصاب العقل الحديث بتخمة التلفزيون. وافتقرت القسطنطينية الإسلامية إلى الأصالة الفكرية والروح الاستقصائية التي ميّزت بغداد أو قرطبة. ولم تنتج غير بضع روائع أدبية. وبسبب ولعه بالثقافة الفارسية، أتى محمد الثاني بالفيلسوف الشهير نصير الدين الطوسي^(*) من إيران ليناقش المسألة الجدلية الإسلامية القديمة حول إمكانية التوفيق بين الدين والفلسفة وضرورة المنطق الإنساني من أجل إدراك وجود الله. وخلص العلماء العثمانيون، ربما بسبب رفضهم وجهة النظر الفارسية، إلى أن أعمال العقل في الدين يمكن أن يوقع المرء في الزلل، وركزوا عوضاً عن ذلك على مقاربة مدرسية ظلت تزداد ضيقاً مع مر الزمن^(**).

وبعد العام 1454، غيّرت الطباعة وجه أوروبا. وبحلول العام 1500، كانت المطابع قد انتشرت في كل المدن الكبرى، من أكسفورد إلى نابولي، وأصبح النشر من أكبر الصناعات في أوروبا الغربية. وأخذت الكتب المطبوعة تنشر القراءة والكتابة والمعرفة، ومن خلال إحلال النسخ المطبوعي محل النسخ اليدوي نشرت روح الدقة أيضاً. وفي المقابل، صدر في العام 1515 فرمان من سليم الأول توعد بالموت أي شخص يحترف علم الطباعة. ربما كانت الحكومة تريد أن تقصر استخدام الكتب على النخبة. وربما عارض العلماء الطباعة تأسيساً على خطرهما على النظام العام وتفسيرهم للإسلام. وفي المقابل، ما كان للانتشار الخاطف للبروتستانتية في أوروبا الكاثوليكية، على سبيل المثال، أن يحدث، لولا الثلاثمائة ألف نسخة من أعمال مارتن لوثر التي طبعت بين العامين 1517 و1520⁽³⁰⁾.

(*) لم يتزامن نصير الدين الطوسي (1201 - 1274 م) مع محمد الثاني (1432 - 1481 م). والمثير للاستغراب ورود هذه القصة في كتاب تاريخ الإمبراطورية العثمانية الصادر عن كيمبرج. والمرجح في شأن الصلة بين الرجلين أن اهتمام محمد الثاني بالعلوم والآداب دفعه إلى التوفر على جمع الكتب، ومن بينها، كما يقول مؤرخ العلوم التركي إحسان فازيغلو، مجموعة المتوسّطات للطوسي الجامعة لرسائل في الفلك والميكانيكا والموسيقى. وقد أعدت بأمر من محمد الثاني نسخة منها. [المحرر].

(**) بمعنى توظيف العلم للدفاع عن الدين كما فعل أتباع المدرسة scholasticism في أوروبا إبان العصور الوسطى، ما أضر بالدين والعلم معاً. [المترجم].

ثمة سبب آخر لمعارضة الطباعة، تمثل في الرابطة الباطنية بين الإسلام وفن الخط اليدوي الرفيع. ونظرا إلى أن القرآن كلام الله الحرفي، ونظرا إلى كونه أزليا ومقدسا، فإنه يستحق الكتابة اليدوية، علاوة على أن نسخه بالماكنة قد يبدو تجديفا. وثمة من يعتقدون أن النبي نفسه قال إن «الخط الجيد يبرز الحقيقة». ولم تُظهر عائلة حاكمة إسلامية التقدير للخط اليدوي الذي أظهره له العثمانيون، حتى إن كثيرا من السلاطين كانوا أنفسهم خطاطين. بل إن أعظم الخطاطين العثمانيين، حمدالله الأماسي Hamdullah al-Amasi (1429-1520) الذي نسخ القرآن سبعا وأربعين مرة، كان يعمل في القسطنطينية في الوقت الذي كانت أوروبا الغربية فيه تتبنى المطبعة. كانت لحمدالله ورشة في القصر السلطاني، وكان تلميذه بايزيد الثاني مزهوا بشرف اقتناء محبرة معلمه. والخط الذي ابتدعه المعروف باسم «خط الشيخ حمدالله» Seyh Hamdullah style، ازدهر خلال القرون الثلاثة التالية.

ثمة مقولة تقول إن «القرآن نزل في مكة، وقرئ في مصر، وخط في إسطنبول». ولذلك كان القلم والحبر (المعطر أو الملون أو المذهب في أغلب الأحيان) ينالان في القسطنطينية التوقير الذي كانت السيوف أو الأقواس تحظى به في الثقافات الأخرى. وكان «جيش مظفر» من النقوش اليدوية يغطي جدران المساجد وقصور المدينة. وكان الخطاطون إحدى الطوائف الحرفية الأساسية بالمدينة، وكانوا قادرين على توفير النسخ بسرعة وبأسعار رخيصة. وكانت الأساليب التي يتبعونها (أنواع الخطوط) يمكن أن تكون مختلفة تماما، كالفرق بين دورر وكلوت (*). وثمة حرفيون آخرون كانوا يؤطرون الأوراق المنسوخة يدويا، أو يحيطونها بورق مجزّع، أو يذهبونها، أو يزينونها بالزهور. كانت هذه المخطوطات تعلق بعد ذلك على الجدران، في المساجد أو في البيوت، بالطريقة نفسها التي كانت الصور واللوحات تستخدم بها في الغرب. لكل هذه الأسباب، الأيديولوجية والتجارية والجمالية، وقبل ذلك الأسباب المتعلقة بالأسرة الحاكمة، لم تشهد القسطنطينية ثورة الطباعة التي شهدتها أوروبا. وفي ذلك كتب أحد سفراء الإمبراطورية الرومانية المقدسة إبان القرن السادس عشر، هو بارون دي بوسبيك Baron de Busbecq المراقب حاد الملاحظة للمدينة، أنه:

(*) ألبريخت دورر Albrecht Dürer (12 مايو 1471 إلى 6 أبريل 1528) رسام ونحات ألماني من نورمبرغ، وجان كلوت Jean Clout (1480 - 1541) رسام ونحات فرنسي عاش في عصر النهضة. [المترجم].

لم تُظهر أمة أخرى قدر الإقدام على تبني الاختراعات المفيدة التي يبتكرها الآخرون كما يفعل العثمانيون، ومن ذلك على سبيل المثال أنهم تبنوا المدافع الكبيرة والصغيرة والكثير من اكتشافاتنا الأخرى وطوروها لاستخداماتهم. لكنهم مع ذلك لم يتمكنوا قط من تقبل طباعة الكتب وإنشاء ساعات في الميادين العامة. فثمة اعتقاد لديهم بأن كتابهم المقدس لن يظل مقدسا إذا طبع، وأنهم إذا أقاموا ساعات في الميادين العامة، فإن ذلك سيلحق الضرر بوظيفة مؤذنيهم وطقوسهم القديمة⁽³¹⁾.

على أن كراهية الطباعة لم تكن شائعة كذلك بين غير المسلمين. وفي العام 1493، طبع ديفيد وصمويل ناحمياس David and Samuel Nahmias كتابا في الشريعة اليهودية باللغة العبرية بعنوان «الأعمدة الأربعة»، صدّراه بهذه الكلمات: «هنا في القسطنطينية العظيمة في ظل الحكم الإسلامي للملك العظيم السلطان بايزيد، أمد الله في عمره، وكان في عونه، وأعلى شأنه!» كان هذا الكتاب أول كتاب يطبع في الإمبراطورية العثمانية، وتلته أعمال أخرى في الشريعة اليهودية والشروح الدينية. وفي العام 1567، أنشأ أرمني تعلم في البندقية، أول مطبعة أرمنية في كنيسة القديس نيقولاس بالقرب من ينيكابي Yenikapi. استمرت المطبعة الأرمنية ثلاث سنوات فقط، وبعد انطلاقة فاشلة أخرى في الأعوام 1677-1679، كانت بالقسطنطينية دوما مطبعة أرمنية تعمل، مع أن المدينة لم تجار في ذلك مدنا عالمية أخرى مثل البندقية وأمستردام، كمراكز للطباعة الأرمنية حتى القرن التاسع عشر. وفي العام 1627، وهو وقت متأخر فعلا، بدأت مطبعة يونانية، بمساعدة السفير الإنجليزي، بجوار سفارته في غلطة، كانت أغلب مطبوعاتها الأولى كتيبات معادية للكاتوليكية واليهودية. لم تدم هذه المطبعة إلا أقل من سنة، إذ قام جنود الانكشارية بتحطيمها بعد اعتراضات من السفير الفرنسي، حامى الكنيسة الكاثوليكية في الإمبراطورية العثمانية. لكن لم تكن هناك أي قيود على استيراد الكتب^(*). ومن خلال الكتب المطبوعة في الخارج، في أغلبها في البندقية، كانت الأقليات في القسطنطينية أسرع في الوصول إلى المعلومات المطبوعة وأحدث الاكتشافات من الطبقة الحاكمة العثمانية. وبذلك تقوّض تفوق النخبة العثمانية.

(*) في مقابل تحريم الطباعة، لم تحظر الإمبراطورية استيراد الكتب كما فعلت دول غربية كثيرة في ذلك العصر مثل إسبانيا بدعوى الخوف من الهرطقة والانشقاق الديني والأفكار المستوردة الهدامة، في المقام الأول بتحريض محكمة التفتيش وتحت رقابتها. [المترجم].

بيد أن كراهية الطباعة لم تكن المثال الوحيد لمقاومة انتشار المعرفة من جانب العلماء. ففي العام 1580، حرض المفتي الغوغاء على تحطيم مرصد ضخّم حديث جدا كان السلطان مراد الثالث قد أكمله قبل ثلاث سنوات في غِلْطَة، إذ اعتبره المفتي نذير شؤم ومصدر وبال على الإمبراطورية. ولم يُفتتح المرصد العثماني التالي إلا في العام 1868. وفي العام 1605، حُطِم أرغن ميكانيكي، كانت الملكة إليزابيث الأولى قد أرسلته إلى محمد الثالث، لأن وضعه على التراب المقدس لقصر توبكاي اعتبر أمرا مدنسا. وفي العام 1716، منع المفتي التبرع بكتب في التاريخ والفلك والفلسفة من مكتبة أحد الصدور العظماء السابقين لإنشاء مكتبة عامة. يبدو أن العائلة العثمانية، بعد أن أنشأت المدينة الإسلامية، تحوّلت دون أن تدرك ذلك كليا، إلى سجناء داخل هذه المدينة⁽³²⁾.

كانت القسطنطينية، ولاتزال، مدينة التناقضات. فقد أصبحت مدينة مقدسة للمسلمين، وفي الوقت عينه ظلت مدينة مقدسة للمسيحيين الأرثوذكس. ألم يصفها الإمبراطور البيزنطي الأخير في خطابه إلى جنوده بالقول: «هذه هي المدينة التي باركها قسطنطين الأكبر [يعد قديسا في التقويم الأرثوذكسي] ثلاثا وأسسها وكرّسها لأم الرب البتول المقدسة، السيدة مريم العذراء الخالدة؟» كما بوركت المدينة بفعل وفرة الآثار المقدسة على أرضها، إذ احتوت عباءة أم الرب و«العباءة الأرجوانية والرمح والإسفينج والسهم [التي عُرضت على السيد المسيح أثناء الصلب] التي كانت تمكّننا حين نقبلها من الاعتقاد بأننا رأيناه مرفوعا على الصليب». وثمة آثار دينية أخرى أقل شأنًا، شملت طاولة العشاء الأخير، وأبواب سفينة نوح، ورفات الحواربي أندراوس. ومع أن معظم الآثار اختفت خلال أعمال النهب التي تعرضت لها المدينة في العام 1204 و1453^(*)، فقد بقيت هالة القداسة⁽³³⁾.

بعد العام 1453، كان معظم الأوروبيين يؤمنون بأن الدولة لا يمكن أن تزدهر إلا إذا فرضت الوحدة الدينية على رعاياها^(**). وإبان القرن السادس عشر، كان «الزنادقة يُحرَقون أحياء في لندن وبرلين، ويذبحون في باريس، ويطرّدون من

(*) يشير التاريخ الأول 1204 إلى نهب المدينة على أيدي الحملة الصليبية الرابعة بقيادة البندقية. ويشير التاريخ الثاني 1453 إلى سقوط المدينة أمام جيش محمد الفاتح. [المترجم].

(**) يهاجم الوحدة الدينية التي كانت أساسية لأمن الدولة وقوتها، طرد ملوك إسبانيا اليهود ثم المسلمين، وأطلقوا محاكم التفتيش لمطاردة المخالفين والخارجين على هذه الوحدة. [المترجم].

فينا. وفي العام 1685، طرد لويس الرابع عشر الفرنسي الهوغونوت جميعا من فرنسا^(*)، وحتى العام 1700 كانت حشود فرحة على رأسهم ملوك إسبانيا وملكاتهما، يشاهدون الزنادقة وهم يُحرقون أحياء في الساحة الكبرى بمديرد. لكن في المقابل، منحت الإمبراطورية العثمانية الحرية الدينية للمسيحيين واليهود. وفي ذلك كتب جورج المجرى George of Hungary إبان القرن الخامس عشر أن «الأتراك لا يُكرهون أحدا على ترك دينه، ولا يحاولون إقناع أحد بذلك، وليست لديهم مواقف متشددة من المرتدين». وإبان القرن السابع عشر، ومن منظور الرحالة والكاظم مسيو دي لاموتراي Monsieur de La Motraye، «لم يكن ثمة بلد على وجه الأرض تُمارس فيه كل الأديان بالحرية والرحابة التي تُمارس بها في تركيا». كان المسيو يعي ما يكتبه جيدا نظرا إلى كونه هو نفسه من الهوغونوت الذين طردوا من فرنسا بعد العام 1685⁽³⁴⁾.

حدثت نقطة حاسمة إبان القرن السادس عشر. ففي العام 1521، ومجددا في العام 1537، في وقت الحروب مع القوى المسيحية، فكر سليمان القانوني ابن ياوز سليم في تحويل كل الكنائس إلى مساجد، بل فكر في العام 1521 في قتل كل المسيحيين الذين لا يقبلون الإسلام. لم يكن سليمان الذي عُرف باسم «القانوني» بعد ذلك في اللغة التركية^(***)، يتفهم لماذا أبقى على الكنائس، على خلاف الشريعة الإسلامية، مادامت القسطنطينية رفضت الاستسلام وأُخذت بالسيف. وفي المناسبتين، تدخلت كنيسة المدينة لحماية الوضع الراهن. ففي العام 1521، أسرع المفتي والصدر الأعظم إلى تحذير البطريرك قبل أن يتخذ سليمان القرار. وأتى محام للبطريرك بثلاثة انكشاريين مسنين أقسموا أمام سليمان إنهم رأوا وجهاء اليونانيين يسلمون مفاتيح أحيائهم ومناطقهم إلى الفاتح على صينية ذهبية.

(*) الهوغونوت أو البروتستانت الكالفيونيون هم أعضاء كنيسة فرنسا الإصلاحية البروتستانتية خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الذين تأثروا بأراء المصلح جون كالفن، تعرضوا للاضطهاد في فرنسا، وفر كثيرون منهم إلى الدول البروتستانتية. [المترجم].

(**) يُعرف السلطان سليمان في الكتابات الغربية باسم Suleyman the Magnificent، بمعنى سليمان المهيب أو الجليل، ولقبه المتداول عربيا وتركيا - «القانوني» - غير متداول تماما في الكتابات الغربية. وثمة اختلافات أخرى في ألقاب الحاكم الواحد ترجع إلى اختلاف النظرة إلى الحاكم بين الحب والكراهية من جانب الثقافات والأمم المختلفة، مثل ياوز سليم والد سليمان الذي يسمى في الكتابات الغربية باسم «سليم العبوس» ويسمى في الكتابات التركية والعربية «سليم القاطع». [المترجم].

وفي المناسبة الثانية، اكتظت المنطقة الواقعة بين القصر وجامع آيا صوفيا بالمسلمين والمسيحيين واليهود في انتظار قرار السلطان. وغرق البطريرك في عرقه مثل المسيح على الصليب. لكن الصدر الأعظم كان يدعمه، وكذلك أعلن المفتي باعتباره السلطة القانونية الإسلامية الأعلى في الإمبراطورية أن «القسطنطينية على حد علمنا أخذت بالقوة، لكن عدم المساس بالكنائس يعني أن المدينة استسلمت بمعاهدة». وقد قبل السلطان هذا القرار (35) (*).

وعلى مدار معظم التاريخ العثماني، ظل سكان القسطنطينية نحو 58% مسلمين و42% مسيحيين ويهودا، ربما بسبب سياسة متعمدة من الحكومة (كانت النسب نفسها معتادة في المدن العثمانية الأخرى). فلم تبذل الحكومة محاولات لإكراه غير المسلمين على دخول الإسلام، حيث كان المسيحيون يدفعون ضرائب أعلى من المسلمين، وكانت الحكومة العثمانية أحرص على زيادة عائداتها منها على إنقاذ الأرواح. وفي العام 1547، كانت هناك سبع وستون كنيسة عاملة في القسطنطينية، وعشر (أغلبها كاثوليكية) في غَلَطَة. وبحلول العام 1640، كان لكل من الفرنسيين والدومنيكان واليسوعيين والكبوشيين، وهم أعمدة الحركة المضادة للإصلاح، كنيسة في غَلَطَة. وكانت المواكب الكاثوليكية، ومنها مواكب جلد الذات العامة، تجوب الشوارع في عيد الميلاد وعيد القربان.

مارست الكنيسة الأرثوذكسية دورا أكثر بروزا في حياة المدينة. ففي عيد الظهور (في السادس من يناير)، وأمام حشد متحمس في أرناؤوطكي Arnavutkoy وطرابيا Tarabya وغيرها من القرى ذات الأغلبية الأرثوذكسية، كان أحد الأساقفة يبارك مياه البسفور. وبعد ذلك كان الأسقف يقذف صليبا إغريقيا في البحر بكل قوته، ثم يندفع الرجال خلف الصليب شبه عراة مصحوبين بالهتافات والصيحات، وتشاهددهم حشود من اليونانيين فوق القوارب. وكان السباح الذي يتمكن من الإتيان بالصليب وحمايته من منافسيه، يكسب مبلغا ماليا كبيرا، ويحمل الصليب من بيت إلى بيت، ويعد من المحظوظين بقية السنة. وعلى مدار ثلاثة أيام في كل عيد فصيح، وكما يحدث مع تلاميذ

(*) على خلاف ذلك، ومع أن غرناطة سُلمت للملكين الكاثوليكين بمعاهدة كفلت للمسلمين حقوقهم الدينية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية كافة، فإن الملوك الإسبان، وأولهم الملكان الكاثوليكيان أنفسهم فرناند الأراغوني وإيزابيلا القشتالية اللذان وقعا المعاهدة، خرقا هذه التعهدات وشرعا في تنصير المسلمين قسرا. وفي النهاية طردهم من إسبانيا في أكبر سابقة من نوعها في التاريخ في الأعوام 1606-1614. [المترجم].

مدينة الله

المدارس الذين يُعطون إجازة، كان اليونانيون مسموحا لهم بالرقص في شوارع المنطقتين ذات الأغلبية اليونانية: الفنار وبيرا. وكما يذكر المؤرخ دابونتيز Dapontes، فإن الصدر الأعظم نفسه كان يأتي أحيانا لمشاهدة الرقص، «وكانت القسطنطينية تشهد بهجة واحدة واحتفالا واحدا طوال تلك الأيام الثلاثة».



الرسام لويجي ماير Luigi Mayer، منظر للألعاب النارية التي أطلقها اليونانيون في عشية عيد القديس يوحنا في طرابيا، في نحو العام 1790. بعد العام 1780، كانت طرابيا أحد منتجعات المتعة الأساسية في المدينة ومقرا صيفيا للسفراء. تحتوي البيوت فيها على إفريز تركي عريض وطوابق علوية بارزة. تبين أمثال هذه المشاهد الحرة التي تمتع بها اليونانيون في الاحتفال بأعيادهم ومهرجاناتهم. كان ماير رساما محترفا، عمل بمبلغ خمسين جنيا في السنة لمصلحة سير روبرت اينزلي Sir Robert Ainslie.

كان انتخاب البطريرك الجديد من جانب المطارنة والوجهاء حدثا نظاميا، وإن كان مكلفا (ذلك أن السلطات العثمانية كانت تطالب برسوم أعلى باطراد). وكان هناك دائما مرشعون كثر متلهفون للسلطة، حتى إنه بين العامين 1595 و1695، حدث واحد وستون تغييرا للبطريرك، على الرغم من أن الفترة نفسها لم تشهد غير واحد وثلاثين بطريركا فقط⁽³⁶⁾.

كانت الهوية المتعددة جوهر القسطنطينية، وكانت المدينة تكتسي تعبيرا بصريا لدى عودة البطريرك الجديد من قصر السلطان بعد أن يسلمه الأخير براءة berat تعيينه. كان البطريرك، مصحوبا بالكهنة الأرثوذكس على ظهور الخيول وجنود الانكشارية العثمانيين، يرتدي قفطانا عثمانيا زاهيا فوق أرديته الأرثوذكسية السوداء. وأمام الكنيسة البطريركية، كان أحد سكرتيري الصدر الأعظم يقرأ فرمان التعيين، ثم يأخذ بيد البطريرك المُعَيَّن عبر صحن الكنيسة إلى العرش البطريركي (المصنوع من الخشب المطعم بعرق اللؤلؤ والعاج، فكان بذلك عثمانيا مثل القفطان). وبعد أداء القداس، كان البطارقة السابقون والمطارنة يقولون كلمات فيها ثناء على البطريرك الجديد، ثم يتتابع المؤمنون الذين تكتظ بهم الكنيسة لتقبيل يد البطريرك ويتلقون بركته ويضيئون الشموع احتفالا بالمناسبة.

كانت تقوم على خدمة البطريرك، بصفته وريثا لشيء من غموض الأباطرة البيزنطيين، حاشية مرافقة وإدارة. فكان أمين المالية Grand Ecomus يشرف على أموال الكنيسة الكبرى وضياعها الممتدة، وأمين الأختام Grand Logothete يمسك بالأختام، وأمين الاتصال Grand Referendius يتولى اتصالات البطريرك - باللغة اليونانية - مع السلطات العثمانية. ومع أن هؤلاء المسؤولين الكبار كانوا عموما من العلمانيين الأثرياء، فإن بيت البطريرك البسيط كان يقوم رهبان على خدمته، حيث كان نحو خمسة عشر كاهنا وراهبا يجلسون على الطاولة مع «قداسته» الذي كان يرتدي عادة عباءة رهبانية وقبعة من اللباد، ويخاطبه مرؤوسوه بلا خجل⁽³⁷⁾. وكان الإنفاق على بيت البطريرك يأتي من الرسوم التي تحصل على الزواج والتعميد وترسيم الكهنة، ورسم صغير على البيوت المسيحية وبيع الكراسي الأسقفية.

كان نفوذ البطريرك المسكوني يمتد أبعد من نفوذ السلطان إلى دولتي جورجيا وموسكوفيا الأرثوذكسيتين المستقلتين. فإذا كان طريق الحج يأخذ المسلمين من القسطنطينية إلى مكة والمدينة، فثمة طريق آخر كان يأتي بالمسيحيين إلى القسطنطينية من «روسيا المقدسة». لم يكن هؤلاء يأتون إلى القسطنطينية لوجودها في الطريق إلى القدس فقط، بل أيضا لزيارة الأضرحة والآثار الأرثوذكسية الباقية. وكانت المدينة كذلك مشهدا لمجالس منتظمة للكنيسة الأرثوذكسية، كان يحضرها دائما البطارقة التابعون في الإسكندرية وأنطاكية والقدس الذين كانوا في الأغلب

يقيمون في القسطنطينية. وفي عيد الفصح للعام 1704، على سبيل المثال، أقام البطارقة الأربعة جميعهم القداس في المدينة.

كانت الصلات الأسرية مع روسيا تعيد تأكيد قدر القسطنطينية الأرثوذكسي. فابنة شقيق الإمبراطور البيزنطي الأخير زوي باليولوجينا Zoe Palaeologina التي تعلمت على يد البابا، كانت قد تزوجت من إيفان الثالث أمير موسكو الأكبر في العام 1472^(*)، ما قوى ادعاء روسيا بوصفها القوة العظمى الأرثوذكسية الأخيرة بأنها «روما الثالثة»^(**) وورثة الإمبراطورية البيزنطية. وفي العام 1498، توج الأمير الأكبر لأول مرة قيصرًا، مستخدماً نسخة من مراسم التتويج البيزنطية. وعاد النسر ذو الرأسين شعار الإمبراطورية البيزنطية ليفرد جناحيه على سترة القيصر وذراعيه. وفي العام 1516، ملّح البطريك المسكوني ثيوليبتوس الأول Theoleptus I إلى القيصر بإمكانية خلق إمبراطورية روسية - بيزنطية⁽³⁸⁾.

وقد سُمح لأحد البطارقة المسكونيين، هو أرميا الثاني Jeremiah II «الأكبر» بأن يجوب البلاد طلباً للمال. وفي موسكو قال أرميا للقيصر في العام 1588: «حيث إن روما الأولى سقطت بسبب البدعة الأبوليناريوسية^(***)، وإن روما الثانية، وهي القسطنطينية، أخذها الأتراك الكفرة، فإن القيصرية الروسية العظيمة الأكثر إيماناً من المملكتين السابقتين، يا أيها القيصر الورع، هي روما الثالثة .. وأنت الوحيد تحت قبة السماء الذي يسمى الآن الإمبراطور المسيحي لكل المسيحيين في العالم أجمع». من الواضح أن البطريك لم يكن لديه اعتراض على أن يقوم الإمبراطور المسيحي لكل المسيحيين «بطرِد» «الأتراك الكفار». على أنه إبان القرنين

(*) بعد روما الأولى الإيطالية وروما الثانية الشرقية ممثلة في القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية. [المترجم].

(**) بسبب زيجة مماثلة دخلت أمة الروس في المسيحية في العقد الثالث من القرن الحادي عشر. كانت الوثنية هي الديانة الرسمية لأمرأ نوفغورود (روسيا)، واحتر حاكمها فلاديمير في الاختيار بين الأديان السماوية الثلاث، إلى أن حُسمت المسألة عندما طلب منه الإمبراطور البيزنطي الجديد باسيل الثاني Basil II (967 - 1025) المساعدة العسكرية لقمع ثورة داخلية، في مقابل تزويجه أخته أنا Anna واعتناقه المسيحية. [المترجم].

(***) ينسب هذا المذهب إلى أبوليناريوس اللاذقي Apollinaris of Laodica الذي قال إن عقل المسيح لا يمكن أن يكون بشرياً، وإن جسد المسيح وروحه (مستقر المشاعر) بشريان، لكن عقله إلهي. واعترف مجمع نيقية للعام 325 بمذهب الثالوث الأقدس رداً على المذهب الآريوسي الذي يقول إن المسيح بشر، فيما استمر الجدل حول معنى الثالوث الأقدس. أثارت آراء أبوليناريوس جدلاً ورفضها سنودس الإسكندرية في العام 362. وأعلنها المجمع الأول بالقسطنطينية هرطقة لكونها تنزع عن المسيح كونه إلهاً وبشراً معاً، معلناً أنه بشري كلياً وإلهي كلياً. [المترجم].

السادس عشر والسابع عشر، كانت الإمبراطورية العثمانية أقوى من أن يتمكن القياصرة من التوسع في أراضيها، علاوة على أن تركيز القياصرة كان منصبا على استعادة الأراضي التي انتزعتها منهم مملكة بولندا - ليتوانيا في الغرب. لكن المشهد تهيأ لواحدة من سلاسل الأحداث الدرامية في التاريخ الأوروبي إبان القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وهي اندفاع الروس جنوبا إلى البحر الأسود ومنطقة البلقان والجائزة النهائية: تساريغراد أي مدينة القياصرة، «ينبوع التعميد بالنسبة إلى روسيا»^(*). وقد كان بطريك القسطنطينية أحد مؤلفي هذه السلسلة الدرامية.

عمل أرميا الثاني أيضا على إحياء التعليم اليوناني، فقرر في العام 1593 إنشاء مدارس «للكتب المقدسة الإلهية والباطنية لأولئك الذين يريدون التعليم والتعلم». وكانت الأكاديمية البطريركية أفضل مدرسة تُفتح لليونانيين، وحظيت برعاية الكثير من قادتهم الدينيين والفكرين، وكانت استمرارا مباشرا لجامعة القسطنطينية السابقة على العام 1453⁽³⁹⁾.

أدت الصلات بين القسطنطينية وروسيا إلى واحدة من حالات الإعدام الأربع للبطاركة المسكونيين خلال عمر الإمبراطورية العثمانية. كان القيصر أليكسيس Alexis والد بيتر الأكبر، أحد أقوى القياصرة الروس منذ إيفان الرهيب، وقد تزامن حكمه مع إحياء للآمال الأرثوذكسية باستعادة القسطنطينية، أو ربما كان هو مبعثها. فأخذت الكنيسة البطريركية بالمدينة إبان العقد السادس من القرن السابع عشر تقدم صلواتها له ولزوجته، ووعد القيصر بأنه سيعمل «لآخر قطرة» من دمه على إنقاذ اليونانيين. وفي الحادي والعشرين من مارس 1657، شُنق البطريرك بارثينيوس الثالث، بأوامر الصدر الأعظم، على أحد أبواب المدينة، لأنه كتب إلى أمير ولاشيا قائلا إن عصر الإسلام يقترب من نهايته، وقريبا «سيكون أمراء الصليب والأجراس سادة الإمبراطورية». وفيما بعد، ونتيجة لذلك، وفي علامة على الخزي، أخذ الصدر الأعظم، وليس السلطان، يسلم البطريرك كسوته وقرار تعيينه⁽⁴⁰⁾.

كان التوتر والتسامح الديني معا يسمان الحياة الدينية في القسطنطينية. فكان المسلمون يعبرون دائما عن احتقار المسيحيين والارتباب فيهم. وتفاخر

(*) تساريغراد Tsarigrad هو الاسم المحبب للقسطنطينية لدى الصرب والبلغار والروس. [المترجم].

خوجة سعد الدين Hoca Sa'deddin معلم مراد الثالث ومحمد الثالث، بأن «كنائس المدينة أفرغت من أصنامها الحقيرة وطُهرت من الشوائب القذرة والوثنية، ومن خلال طمس صورهم ونصب محاريب الصلاة والمنابر الإسلامية، أصبح كثير من الأديرة والمصليات لآلئ في حدائق الجنة». كان التحويل المتكرر للكنائس (إجمالاً اثنتان وأربعون كنيسة) إلى مساجد، تأكيداً على سيادة الإسلام. صاحب ذلك التجصيص فوق الفسيفساءات والرسوم الجصية المسيحية، والتخلص من الأيقونات، وإدخال محاريب الصلاة البيضاوية الممتجهة ناحية الجنوب الشرقي إلى مكة إلى يمين المذبح الأساسي السابق الممتجه ناحية الجنوب إلى القدس. وفي العقد الأخير من القرن الخامس عشر، جرى تحويل كنيسة سانت سيفيور St Saviour البيزنطية المتأخرة الواقعة في خورا بالفسيفساء الفريدة لحياة السيد المسيح فيها^(*)، إلى جامع كاري Kariye Cami. وفي غَلَطَة في العام 1545، طُمست معالم كاتدرائية القديس ميخائيل، وحل محلها خان رستم باشا. وفي العام 1586، أخذ مقر البطريرك نفسه - كنيسة باماكاريستوس Pammacaristos المتألقة - بحجة أن محمد الثاني صلى فيها حين زار البطريرك جناديوس⁽⁴¹⁾، وسُميت جامع الفتح، احتفالاً بفتح الإمبراطورية لأذربيجان^(**).

وبعد عملية نقل ثانية في العام 1601، أقيمت البطريركية بجوار كنيسة القديس جورج في الفنار، وهو المكان الذي توجد فيه اليوم. ثمة رواية تقول إن السلطان أرسل المعمارين الذين استخدمهم في جامع السلطان أحمد لإعادة بناء الكنيسة. وكان سكن البطريرك عبارة عن بناية خشبية من ثلاثة طوابق تختفي تماماً وراء حائط الفناء الخارجي. وبذلك غدت الكنيسة الأم للمسيحية الأرثوذكسية بانخفاض بنائها وافتقارها إلى قبة مرئية، أصغر من معظم الكنائس الأبرشية الإنجليزية. وتتمثل زخرفتها الأساسية في الفاصل الأيقوني الخشبي

(*) تُعرف أيضاً باسم كنيسة خورا Chora التي تعني «خارج الأسوار» في إشارة إلى وقوع الكنيسة خارج أسوار المدينة [المترجم].

(**) ثمة كنائس أخرى حُوّلت إلى مساجد في الأعوام 1627 و1640 و1695. من الكنائس التي ظلت كنائس بلا انقطاع منذ العام 1453، الكنيسة الصغيرة القديسة مريم للمغول St Mary of the Mongols الواقعة في الفنار، التي لا تزال تعرض فرمان الحماية الإمبراطوري على جدارها. [المؤلف].

المنحوت في الداخل، ونسر بيزنطة ذي الرأسين في الخارج. تتضح هذه البساطة بالمقارنة مع بهاء جوامع السلاطين في القسطنطينية ومقابلها الكاثوليكي، وهو كنيسة القديس بيتر في روما.

نظريا، وكما تقضي الشريعة الإسلامية، لا يمكن بناء كنائس جديدة في مدينة إسلامية، ولا يمكن إعادة بناء كنيسة، إلا إذا شهد شيوخ المسلمين المحليين بأن كنيسة كانت توجد فعلا في هذا المكان، على أن يقوم أحد المعمارين الحكوميين بالتحقق من أن الكنيسة لم يعد بناؤها على مساحة أكبر. لكن على أرض الواقع، كانت الغلبة دائما للمال والتصميم اليونانيين على القوانين العثمانية. ومع فقدان كنائس قديمة، كانت أخرى جديدة تُبنى، وإن اشترط أن تكون بلا أبراج أو قباب مرئية وبلا بهارج، وحتى اليوم لاتزال الكنائس التي بُنيت قبل العام 1800 تختفي وراء أسوار عالية وغير مرئية للناظر من الشارع. وكانت أجراس الكنائس محظورة، فكانوا ينادون للصلاة بمخشخشات من أعواد الخشب أو قضبان الحديد أو منادين يجوبون الشوارع. وبحلول القرن الثامن عشر، كانت هناك أربعون كنيسة أرثوذكسية، ثلاث منها فقط بُنيت قبل الفتح (*). ومنذ فتح المدينة في العام 1453 حتى اليوم الحالي، بُنيت خمس وخمسون كنيسة أرمنية جديدة في القسطنطينية، بعضها إبان القرن السادس عشر، وهو وقت مبكر فعلا⁽⁴²⁾.

كان التوتر بين المسلمين والمسيحيين يؤدي أحيانا إلى شهداء فردين من المسيحيين، لأسباب لا تتعلق بالدين الأصلي للمقتول، بل لاتهامات من الجيران بأنه اعتنق الإسلام ثم ارتد إلى المسيحية. والردة عن الإسلام، بموجب الشريعة تُعاقب بالقتل. غير أن السلطات العثمانية كانت تحجم غالبا عن تنفيذ هذا الحد، وكانت تشجع المسيحيين المتهمين على التظاهر بالإسلام، لكن قلة من المسيحيين كانوا يقبلون ذلك. تكشف الحادثة التالية التي سجلها دبلوماسي هابسبرغي يدعى بارون راتيسلاو Baron Wratisslaw في العام 1599 مثالا لثبات المسيحيين أمام الضغط الإسلامي.

(*) على مدار تاريخ المدينة البيزنطية كاملا، بُني نحو أربعمئة وخمسين كنيسة. [المؤلف].

جمع الحب بين شاب وفتاة من اليونانيين. فغادر الشاب القسطنطينية ليشتري أفضل خمر حلو من جزيرة كريت لحفل الزفاف. وفي أحد الأيام، بينما كانت الفتاة في طريقها إلى الحمام بلا حجاب (في الشوارع، كانت النساء المسلمات «يغطين أنفسهن تماما»)، رآها شيخ تركي، فقال «يالها من فتاة جميلة فاتنة!» ووقع في حبها. ولأنه رسول ثري في بلاط السلطان، فقد تمكن من سجن أسرتها والزواج منها. وبذلك أصبحت الفتاة مسلمة^(*)، على الرغم من أنها ظلت مسيحية من داخلها.

وحين عاد حبيبها من كريت، بدأ الحبيبان يلتقيان سرا في خيمة في حديقة زوجها. وكانت تعطي لحبيبها المال. واكتشف الزوج الأمر في النهاية، «إذ إن كل شيء هناك كان يمكن أن يشتري بالمال» (وهو الرأي الذي كان سائدا بين معظم المراقبين الأجانب إزاء القسطنطينية العثمانية). واستطاع الزوج الغاضب أن يدينهما بجريمة الزنا. مضى الشاب في طريقه إلى الإعدام في ثبات إلى درجة أن كبير الرسل الإمبراطوريين أعجب به وعرض عليه أن ينقذ حياته إذا أسلم. «لكن الشاب لم يتزحزح عن ثباته، وأجاب بأنه وُلِد لأبوين مسيحيين وعُمِد ونشأ مسيحيا وسيموت مسيحيا أيضا». وحيث إن رفض الشاب كان يقرر مصير الفتاة أيضا، فقد أخذت الفتاة تحته على إعلان اعتناق الإسلام «بكل التوسلات الممكنة وأشدها». لكن ثبات الشاب دفعها إلى سبّه: «كلب! خائن! وثني! يهودي! مت لأنك تستحق الموت». وفي النهاية لعنت الفتاة اليوم الذي قابلت فيه الشاب. وتعاطفت الحشود المسلمة مع العاشقين الشابين، فأخذت تحته هي الأخرى على اعتناق الإسلام. لكنه قاوم. وقاسى الشاب ثلاثة أيام «معلقا على الخطاف»، إلى أن أشفق عليه أحدهم وأطلق عليه النار. وأُخذت الفتاة إلى البحر وأُلقيت من المركب وأمسكت تحت الماء حتى ماتت غرقا، لكنها لم تكن على أي حال المرأة الوحيدة في القسطنطينية التي كان البسفور قبرا مائيا لها^{(43)(**)}.

(*) زواج غير المسلمة بالمسلم لا يوجب اعتناقها للإسلام. [المترجم].

(**) لا شك في أن قصص الثبات على الدين من هذا النوع وقعت كثيرا على الجانبين كليهما، المسيحيين الخاضعين للحكم الإسلامي كما في حالة الإمبراطورية العثمانية، والمسلمين الخاضعين للحكم المسيحي كما في حالة إسبانيا بعد سقوط ممالك المسلمين فيها. لكن من المؤكد أيضا أن قصصا كثيرة من هذا النوع اختلقها البعض في الجانبين لتثبيت الخاضعين والمضطهدين على دينهم، حتى إن بعضها تحول إلى أساطير، ومنها مثلا - في جانب المسلمين المضطهدين - حكاية «كركاينة Carcayona العذراء مقطوعة اليدين» التي هدتها للإسلام ←

حدث كثير من أمثال هذه المآسي. ففي أواخر القرن السابع عشر، سُمع صبي يوناني يقلد أذان المؤذن. وحيث إنه بذلك اعتنق الإسلام دون قصد، فقد طلب منه أحد المارة الأتراك أن يعتنق الإسلام، وحين رفض، وُضع في السجن وأعدم في النهاية، وعُدَّه اليونانيون شهيدا آخر.

كانت مناظر المساجد وأصوات المؤذنين تجعل الإسلام مرثيا ومسموعا في أنحاء القسطنطينية كافة. لكن تحت سطح الإسلام المنتصر، كان هناك عالم مسيحي مائي. ينشأ مفهوم الماء المقدس أو الينابيع المقدسة من الاقتران البدائي بين الماء والحياة والتطهر. ولا يقتصر الأمر على المذهب الأرثوذكسي، فثمة ينابيع مقدسة كاثوليكية في أيرلندا وفرنسا، وكذلك زوار ضريح أبي أيوب كانوا يعتقدون أن المرء يبرأ من الأسقام إذا شرب من الصهريج المجاور للضريح. لكن لا توجد مدينة تحتوي على عدد الينابيع المقدسة الذي تحتوي عليه القسطنطينية. كانت هذه العيون ينشئها عادة أناس من العلمانيين، ما كان يعد شهادة على الحماس المسيحي، وكذلك على حقيقة أن قوانين البناء العثمانية لم تمتد إلى ما دون سطح الأرض.

كان المسيحيون يعتقدون أن الماء المقدس يجلب الحظ ويبرئ من الأمراض، تماما مثل اعتقاد المسلمين في العبير الذي يفوح من أضرحة «أولياء الله» المسلمين. وفي يوم عيد القديس الذي تسمى العين (التي تعني أيازما ayazma باللغة اليونانية) على اسمه، كان الزوار يأتون ويصلون، ثم يشربون من الماء المقدس ويغسلون وجوههم وشعرهم ويصبونه على ملابسهم، ولاحقا أضافوا الأكل والرقص والمصارعة. وحتى القرن العشرين، كان كثير من هذه العيون يكتشف في أنحاء المدينة كافة، تحت البيوت الخاصة، وبالقرب من المساجد، وحتى بجانب قصر السلطان. وقد أحصى مؤرخ يوناني من المدينة،

→ حمامة ذهبية، فقطع أبوها الوثني يديها لإسلامها. طردت كركايونة من بيتها بسبب دينها، وعاشت في كهف في رعاية الحيوانات البرية إلى أن وقع ملك أنطاكية في حبها وتزوجها. وحين دفعها زمرة غيرة في بلاط الملك إلى البرية مرة أخرى، أنقذها أصدقاؤها الحيوانات وأعيدت يداها في معجزة مكافأة لها على إيمانها وورعها قبل أن ينقذها زوجها أخيرا ويعيدها إلى العرش. انتشرت هذه الأسطورة بين الأندلسيين الذين أكرهوا على التنصر بعد سقوط ممالك المسلمين في إسبانيا، ما يكشف أن كثيرا من هذه القصص اختلقت عمدا لتثبيت المضطهدين على دينهم (ماثيو كار، الدين والدم - إبادة شعب الأندلس، ترجمة مصطفى قاسم، أبوظبي: مشروع كلمة - هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، 2013). [المترجم].

هو نيقولاوس أديموغلو Nikolaos Adjemoglou رئيس جمعية القسطنطينية بأثينا، خمسمائة وأربع عشرة بئرا في المدينة⁽⁴⁴⁾.

كانت أشهر بئر تقع خارج أسوار المدينة، في فناء الكنيسة الأرثوذكسية المبهجة سيدتنا للسّمك Our Lady of the Fish بحي باليكلي Balikli، التي أنشئت إبان القرن الخامس. في العام 1453، كان أحد الرهبان يقلي سمكا في الكنيسة، حين قالوا له إن المدينة قد سقطت أمام العثمانيين. لكن الراهب رفض أن يصدق الخبر إلا إذا عاد السمك نصف المقلي إلى الحياة وقفز من المقلاة إلى البئر، وهو ما فعله السمك الذي ظل محفوظا نصف مسود بفعل القلي، وكان يُعرض على الزوار في بئر عميقة حتى القرن الحالي. وآمن كثير من المسيحيين بأنه حين يكتمل قلي السمك، سترجع المدينة مسيحية مرة أخرى^(*).

كانت الأسر تأتي إلى كنيسة سيدتنا للسّمك تطلب منها الإنجاب. وكانوا حين يصلون يدفعون للدير نذرا سنويا صغيرا عن سبع سنوات. وطلبا للشفاء، كان الزوار المرضى يأتون حفاة مرة كل أسبوع. وكانت تباع في الفناء أعين وأسنان وأذرع من الفضة حتى تُركب في العضو الملائم. وإذا رأى الحجاج سمكة في البئر، فإنهم كانوا يصيحون فرحا. وكان الكهنة يصبون عليهم أباريق من الماء في مقابل أجر. وكانت أيقونة سيدتنا للسّمك تنتقل بانتظام في أرجاء المدينة، لتجلب السكينة إلى أسرة المرضى والبركة إلى بيوت المتزوجين حديثا.

لم تكن القسطنطينية مدينة التناقضات antitheses فقط، بل كان القصر نفسه، خاصة في الفترة الكوزموبوليتانية إبان عهد محمد الثاني، مصدرا للتوليف بين الشرق والغرب. وكذلك كان الدين الشعبي مصدرا آخر لهذا التوليف. كانت القسطنطينية واحدة من المدن القليلة التي عاش فيها المسلمون والمسيحيون جنبا إلى جنب لعدة قرون، بنسب متساوية تقريبا. ليس مفاجئا إذن أن يؤثر الدينان أحدهما في الآخر. من ذلك على سبيل المثال، أن المسلمين كانوا يوقرون كنيسة باليكلي مثل المسيحيين. وفي العام 1638، قيل إن السلطان مراد الرابع طلب من الرهبان أن يصلوا ويدعوا له بالنصر على الفرس، وفي اليوم الذي صلوا فيه، استولى السلطان على بغداد.

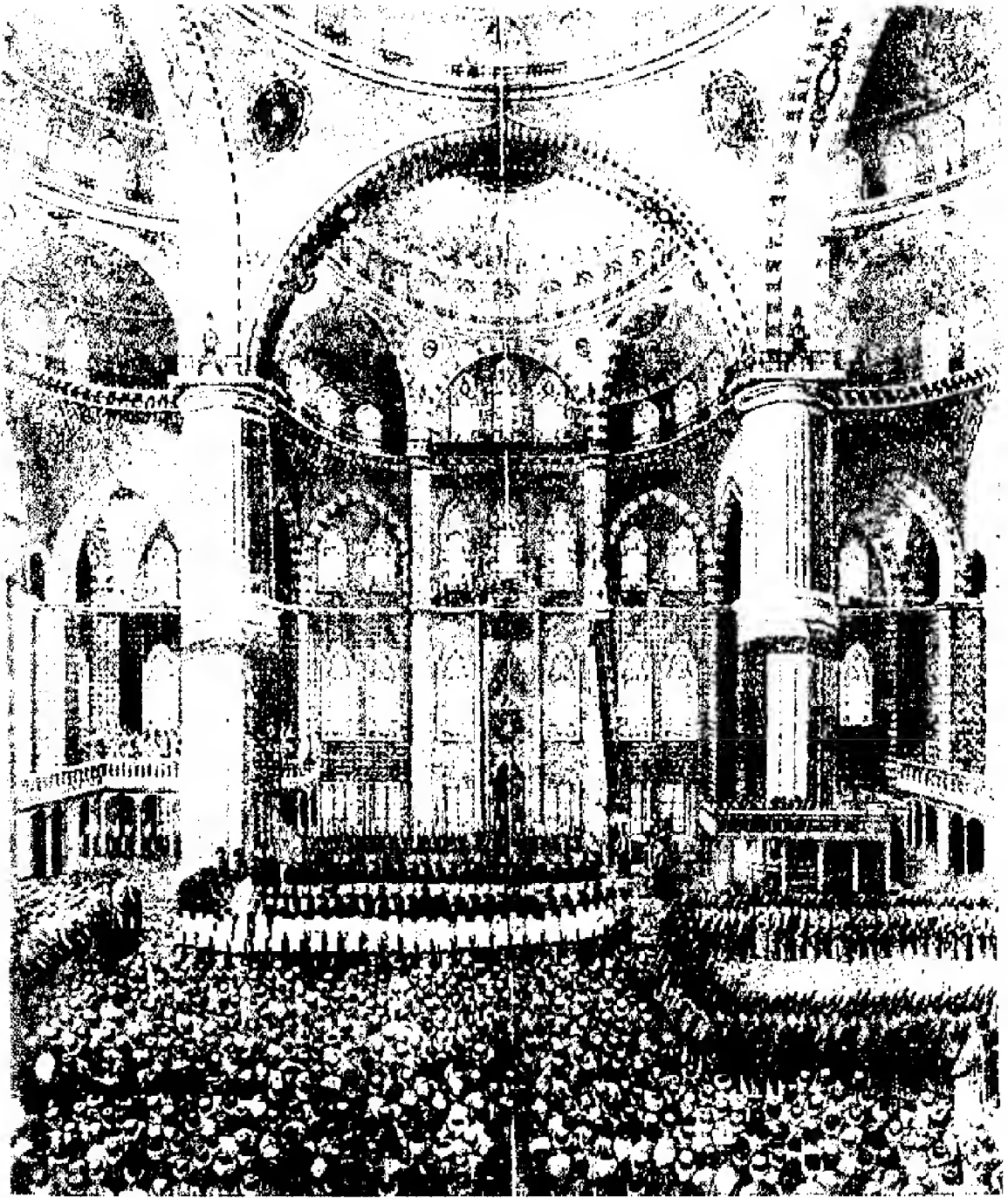
(*) في زيارة في يوم أحد من شهر أبريل 1992 إلى الضريح الحالي من المصلين، لم أر في البئر سمكا. تراه مات أخيرا؟ [المؤلف].

يقام عيد سيدتنا للسّمك في الجمعة التالية لعيد الفصح، وفيه كان المحتفلون بعد الطواف حول الدّير، وفقاً لرواية من القرن التاسع عشر لا تخلو من مبالغة لطيفة، «يجلسون في الهواء الطلق ويطلقون العنان للمتعة البريئة التي يحبها الناس»، كالطعام والشراب والرقص. وكان الحشد الذي يجمع الفقراء والأغنياء، والمسلمين والمسيحيين، والبلغار والأرمن والكاثوليك، يتضخم أحياناً حتى يبدو كأن المدينة كلها قد حضرت⁽⁴⁵⁾.

ثمّة أضرحة أخرى جذبت أناساً من أتباع الأديان المختلفة، خاصة النساء. فمن بئر تحت كشك الآلئ^(*) داخل القصر، كانت المياه تجري إلى عين المسيح المنقذ بين جدران القصر والبحر. وفي عيد التجلي في السادس من أغسطس، كان المسيحيون يأتون بالمراكب ليغمروا أنفسهم في العين، وكانوا بعد ذلك يرقصون على أنغام القرون والطبول ويسبحون في البحر. ومن من وراء مشربيات الكشك، كان السلطان المستمتع بالجو الكرنفالي، يلقي عملات معدنية على رعاياه المسيحيين. ثمّة عيون مقدسة أخرى، مثل عين القديس يوحنا المعمدان بجوار آيا صوفيا، كانت تخضع لسيطرة مسؤولين مسلمين كانوا يعيشون على عوائد بيع الماء المقدس للمسيحيين.

وعلى الرغم من أنه لا توجد براهين مكتوبة على ذلك، فإن هناك طقوساً إسلامية ربما نشأت نتيجة للتأثير المسيحي. والاعتماد الرسمي لطقوس المولد النبوي في العام 1588 الذي كان يقام دائماً في جامع السلطان أحمد، ربما نتج عن الرغبة في مجارة الاحتفالات المسيحية بعيد الميلاد. وكذلك تبجيل الدراويش للأولياء الذي كان كثير من المسلمين التقليديين يرفضونه، يكشف عن آثار واضحة من الممارسات المسيحية وما قبل المسيحية. حتى إن الطريقة البكتاشية التي كان معظم جنود الانكشارية ينتسبون إليها، كانت تجمع بين الله ومحمد وزوج ابنته علي في ثلاث مقدس. كان أتباع هذه الطريقة الذين كانوا يسمون أنفسهم «عُث في النار الإلهية» يشربون الخمر. وعلى النقيض تماماً من الطقوس التي تمارس في المساجد، كانت طقوس البكتاشية تشمل النساء، بل إنها في بعض الحالات كانت تقتصر على أزواج من الذكور والإناث⁽⁴⁶⁾.

(*) كشك الآلئ Kiosk of Pearls قصر يقع على البسفور مباشرة. أنشأه الصدر الأعظم خوجة سنان باشا في العام 1590 كقصر ترفيهي للسلطان. [المترجم].



الرسام إل. إن. كوتشين منظر لـ J. N. Cochlin الاحتفال بالمولد النبوي في جامع السلطان أحمد، في العام 1787. ترتفع على اليسار منصة السلطان المعلقة التي يجلي فيها محتجبا عن المصلين. وفي المنتصف تحت المحراب الذي يشير إلى اتجاه مكة، يجلس الصدر الأعظم والانكشارية. كان المولد النبوي واحدا من أعظم الاحتفالات في التقويم الإسلامي، وأصبح احتفالا رسميا في القسطنطينية في العام 1588 إحياء لذكرى مولد النبي وتلاوة المدائح باللغة العربية، ونادرا باللغة التركية. كان هذا الاحتفال يقام في جامع السلطان أحمد لأنه فسيح بما يكفي لأهل بيت السلطان.

ومع أنه كان من الممكن للزوار الغربيين عموماً أن يزوروا المساجد، فنادراً ما كان مسيحيو القسطنطينية يدخلون المساجد، ربما باختيارهم. ومع ذلك، فعلى الرغم من أن الحمامات والعمارات كانت تُبنى بجانب المساجد لأغراض خيرية إسلامية، فقد كان مسموحاً للمسيحيين واليهود باستخدامها.

كانت نساء المسيحيين واليهود والمسلمين يذهبن إلى ضريح الحلوجي بابا Helvacı Baba بجامع شاه زاده القريب من جامع الفاتح، يصطحبن معهن الأطفال المشلولين طلباً للشفاء، والبنات أو الأرامل الشابات الراغبات في الأزواج، والأصدقاء الذين ليست لديهم أماكن للسكنى. وبناء على طلبات كل منهن، كن يعطين المؤذن طربوش طفل أو منديلاً أبيض أو مفتاح بيت. وكان المؤذن وهو ممسك بالهدايا التي أعطيت له، يرفع أذان الصلاة من فوق المئذنة. وحتى اليوم، لاتزال النساء المسيحيات يضحن بديك إلى «ولي الله» المسلم سنبل سنان Sunbul Sinan الذي يقع ضريحه في جامع خوجة مصطفى باشا. ويذهب المسلمون إلى الكنائس الأرمنية، مثل كنيسة القديس هيرشداغابيت Surp Hırsdagabet أو القديس كورك Surp Kevork في بالات، ويقضون الليل هناك أحياناً، طلباً لشفاء الأطفال الصرعى أو لاستشارة أحد الوسطاء⁽⁴⁷⁾.

وكان أتباع الديانات المختلفة يستخدمون المحاكم العدلية للديانات الأخرى تماماً مثل قديسيها وأوليائها. فكان المسيحيون يلجأون كثيراً إلى محاكم المسلمين، بدلاً من محاكمهم، في قضايا الزواج والميراث. وفي أوائل القرن التاسع عشر، كان المسيحيون يستخدمون المحاكم اليهودية أحياناً كذلك، وكان بعض المسلمين يستخدمون المحاكم البطريركية. وكان اليهود يلجأون كثيراً إلى المحاكم الإسلامية هرباً من شدة المحاكم الربانية، على الرغم من احتجاجات الأحرار بأن مثل هذه الأفعال تدحض صدق الشريعة اليهودية⁽⁴⁸⁾. فقد كانت الحياة اليومية واحتياجات الناس العاديين تضعف الحواجز بين الأديان في القسطنطينية، ما أكسب الذاكرة والعقل الجمعيين للمدينة تسامحاً طبيعياً إزاء الأديان الأخرى أو تقبلاً لها. وقد ثبت صدق تقدير الفاتح بإمكان إدارة عاصمة متعددة الأديان، مع أن الكراهية كانت تتبدى في الكلام، لكنها نادراً ما كانت تنفجر في شكل أفعال.

القصر

كان السيد الكبير... يجلس في قصر
عظيم، غير أن منظره لم يكن شيئا يذكر
مقارنة بالحاشية التي تقف خلفه، التي
كان منظرها يشعرني بأنني في عالم آخر.
توماس دالام

Thomas Dallam, 1599

كانت القسطنطينية مرادفا للعظمة
الإمبراطورية التي كانت تنبع من القصر الذي
بُني على الطرف الشرقي لشبه الجزيرة، في
المكان الذي يلتقي فيه البسفور والقرن الذهبي
وبحر مرمرة. كان هذا القصر الواقع على حافة
أوروبا يعطي نظرة السيطرة على آسيا. وكان
هذا الموقع مناسباً لـ «فاتح العالم».

كان القصر محاطاً من ناحية البر والبحر
بسور عال مزود بشرفات لجنود الحراسة. ومع
أن معظم السور المطل على البحر تحطم حالياً،
فإن السور البري لا يزال صامداً من بحر مرمرة

«كانت أبهة السلطان وأسرته
تُستخدم لإبهار المدينة»

عبر أحد التلال التي تقع عليها القسطنطينية هبوطاً إلى القرن الذهبي. وفي منتصف السور يقود باب شاهق من المرمر الرمادي، يسمى الباب الإمبراطوري، الزائر بعيداً عن ضجيج المدينة إلى سكينه فناء محفوف بالأشجار. إنه البلاط الأول بين البلاطات الثلاث التي بُني حولها القصر.

مثل الكثير من بنايات القسطنطينية، يرجع قصر توبكاي، كما يسمى حالياً (نسبة إلى أحد أبوابه وهو باب المدفع top kapi)، إلى محمد الفاتح. بُدئ في بناء القصر في العام 1459، وأنجز في العام 1478، واتخذ الاسم الرسمي «القصر الإمبراطوري الجديد»، نظراً إلى أن الفاتح سبق أن بنى قصراً في منتصف المدينة.

حتى مغادرة السلطان وأسرته إبان القرن التاسع عشر، كان الفناء الأول يضم مكاتب خارجية للأسرة، ومستودع أسلحة في مكان كنيسة القديس إيرين البيزنطية القديمة لضمان الأمن، وإسطبلات تؤوي أربعة آلاف حصان، وداراً لسك العملة، ومستشفى، وكشكا للكتاب al - Kuttab الذين يتسلمون العرائض ويوزعون فرمانات السلطان. وكما هي الحال في دوائر القصور الملكية في العواصم الغربية، كان الفناء الأول مفتوحاً للجميع، حتى الأجانب. عبر القرن الذهبي، كان القصر أشبه بجزيرة من المقصورات، تحيط بها أشجار وحدائق ينخفض مستواها في اتجاه البحر، وكانت النوافذ أشبه بعيون إمبراطورية ترقب العالم في الخارج. لكن داخل هذا الفناء، كان القصر خليطاً متنافراً من البنايات، رأى معظم الزوار أنها لا تليق بالسلطان. تمثلت العناصر المرئية الوحيدة للعظمة في حجم الفناء ووجود أعداد كبيرة من الجنود ملبس أنيقة، فضلاً على حيوانات غريبة، كان من بينها من حين إلى آخر غر أو فيل⁽¹⁾.

كان السلطان وحده مسموحاً له بركوب الخيل عبر الباب التالي المعروف باسم باب التحية الذي يقود إلى الفناء الثاني. يمتلئ هذا الفناء بالنافورات وأشجار السرو، إذ كان بمنزلة فناء وحديقة، وكان واسعاً لدرجة أن الناس على أحد طرفيه كانوا لا يسمعون من يتحدث على الطرف الآخر. وهنا يجد الزائر نفسه محاطاً بسلسلة من البنايات المقنطرة المنخفضة ذات الأفاريز العريضة. وبما يعكس الهوس العثماني بالقواعد والحدود، تبدو كل بناية كأنها منفصلة لوظيفة محددة، كأن المكان كله سلسلة من الخيام. ضمت هذه البنايات مساكن لمجموعات مختلفة من الخدم

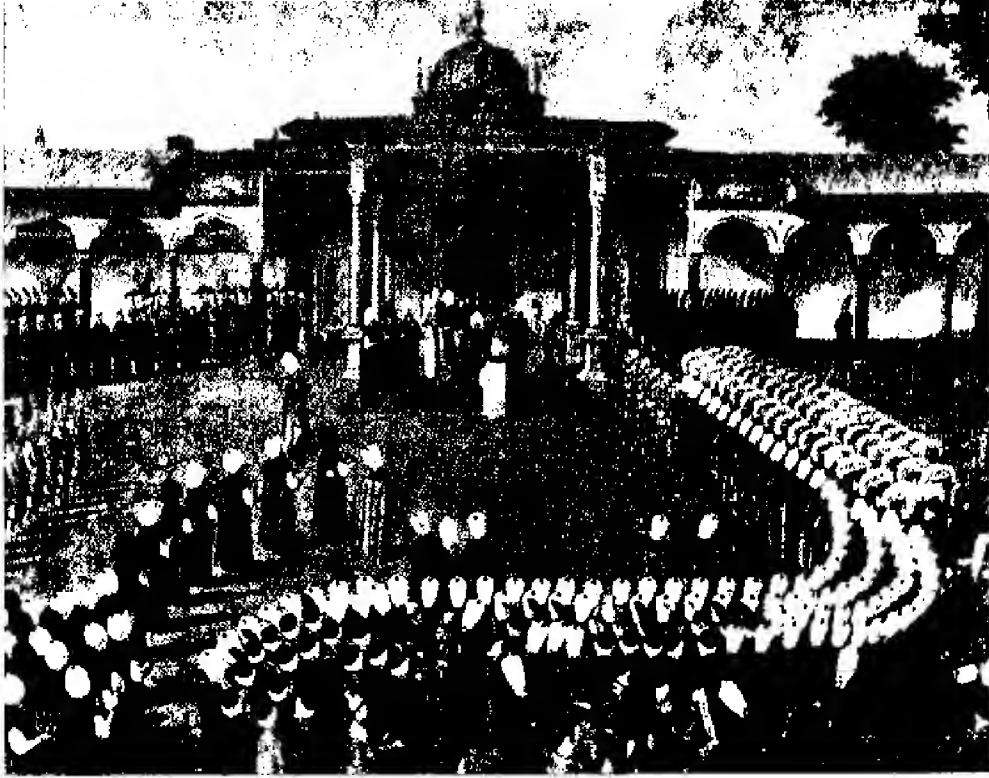
المنزليين، مثل «حملة المطارد ذوي الصفائر» الذين كانوا يربطون جدائل طويلة في شعرهم لمنعهم من رؤية النساء حين يوصلون الحطب إلى الحريم. والبنائات هنا في المستوى الإنساني والمنزلي العادي، أكثر منها في مستوى البلاطات الفخمة، مقارنة بالوحدات المعمارية التي بُنيت بغرض الإبهار مثل اللوفر في باريس أو القصر الملكي في البندقية أو الجوامع الإمبراطورية.

وكما هي الحال في معظم قصور الملوك حتى القرن الثامن عشر، كان المُجمّع السكني نفسه يؤوي كلا من المكاتب الحكومية وأسرّة الحاكم. على يسار الفناء الثاني، كان يوجد أحد مراكز القوة في أوروبا، وهو الديوان الإمبراطوري، أي الغرفة التي كان الصدر الأعظم والوزراء الآخرون يناقشون فيها أمور السياسة ويحكمون في الدعاوى القضائية، من بعد صلاة الفجر، أربع مرات في الأسبوع. نظريا، كان كل الرعايا العثمانيين، أيا كان جنسهم أو عرقهم أو رتبهم أو دينهم، يحق لهم الوصول إلى الديوان لتقديم المظالم. وإلى هذا المكان، جاء البطريرك في العامين 1521 و1537، على سبيل المثال، لإنقاذ كنائس المدينة. واتباعا لعادة البساطة الشديدة في كثير من أمور الحكومة العثمانية، كان المدعي يعمل في الوقت عينه محاميا عن نفسه، وكانت الأحكام تصدر في الحال. فعلى الرغم من أن البيروقراطية العثمانية كانت بطيئة، غير أن نظامها القانوني لم يكن كذلك. وعلى الجانب الآخر من الفناء، كانت توجد المداخل العالية لمطابخ القصر التي كانت من السعة والكفاءة ما مكنها من إطعام اثني عشر ألف شخص في المرة الواحدة.

وفي نهاية البلاط الثاني، كان يوجد الباب المسمى «الباب العالي» Bab - i Aali الذي يُعرّف لدى الأوروبيين الغربيين باسم «الباب السامي» Sublime Porte^(*)، وهو عبارة عن بنية تقوم على أعمدة ولها سقف عريض بارز من النوع الذي يميّز العمارة التركية، كان عرش السلطان ينصب تحته في الاستقبالات التي تسبق العيد الإسلامي الذي يأتي في نهاية شهر رمضان^(**). وفيما وراء الباب، كانت توجد غرفة عرش السلطان.

(*) يُدّل اسمه لاحقا إلى «باب السعادة»، ونُقِل اسم «الباب العالي» إلى مقر الصدر الأعظم خارج القصر. ولذلك غدا اسم «الباب العالي» مرادفا للحكومة العثمانية. [المؤلف].

(**) في اللغة التركية، تشير الكلمة المستخدمة هنا، وهي Bayram، إلى أي عيد على المستوى الوطني، سواء كان ذا طابع ديني أو غير ديني، لكنها تشير في هذا الموضع إلى عيد الفطر تحديدا. [المترجم].



الرسام قسطنطين كابيداجي Konstantin Kapidagi، حفل استقبال العيد في الفناء الثاني للقصر، في نحو العام 1800. يجلس السلطان سليم الثالث على عرشه في باب السعادة، محاطاً بالصدر الأعظم ورئيس الخيـصان السود وحملة السيوف ووجهاء آخرين. وعلى اليسار، يقف حرس القصر المعروفون باسم البيق بغوذاتهم المُنْذَبة. وعلى اليمين، حرس القصر الآخرون المعروفون باسم الصولاقي بغوذاتهم المُرْنِشة. تُبَيِّن هذه اللوحة، التي رسمها أحد يونانيين القسطنطينية، التأثير المتزايد للفن الغربي في عهد سليم الثالث.

وهنا، في مركز القصر، يلزم أن نحدد الروح التي كانت تدفع ساكني القصر، من السلطان إلى أصغر خدمه، حتى يكرسوا أنفسهم من أجل قوة الأسرة العثمانية وعظمتها. قبل العام 1453، كانت البلاطات العثمانية في بورصة وإدرنة عادية نسبياً. وفي ذلك كتب أسير مسيحي، يدعى الأخ جورج من مولينباخ Brother George of Muhlenbach أنه «لا توجد علامات الزهو أو الثراء... يكشف كبار الحكام والأمراء عن هذه البساطة في كل شيء، حتى إن الواحد لا يستطيع أن يميزهم من بين الحشد». وكان السلطان يرتاد المسجد ومعه غلامان، ويصلي على سجادة على الأرض، جنباً إلى جنب مع المسلمين الآخرين، لكن يبدو أن القسطنطينية فرضت معايير مختلفة. ربما تأثر محمد الثاني بكتابه وباشواته من أصول يونانية وذكرياتهم

عن الطقوس المهيبة المحيطة بشخصية الإمبراطور شبه المقدسة: «الحواري الثالث عشر»^(*) (اعتنق الإسلام اثنان من باشوات محمد الثاني من أقارب الإمبراطور البيزنطي الأخير). ومن المؤكد أن الأمراء اللاحقين تحدثوا إلى السلطان عن أبهة البلاطات الفارسية. وقبل كل شيء، كان محمد الثاني يريد أن يعبر من خلال قصره عن رؤيته لنفسه كباديشاه وقيصر وخان⁽²⁾.

كان القانون الأسري، أو قانون نامة Kanunname، الذي سنّه محمد الثاني (ربما كُتب في الأعوام 1477 - 1488)، قد ألغى عادات مثل ظهور السلطان لخمس عشرة دقيقة كل فجر ليأكل وجبة طقوسية مع قواده: «تقضي أوامري ألا يتسحر أحد مع الذات العلوية غير أهل بيتي. يقال إن أسلافي العظماء كانوا يتسحرون مع وزرائهم، وها أنا أبطل هذه العادة».

في البداية، كان السلطان يجلس في الديوان مع وزرائه. وحدث ذات مرة في عهد محمد الثاني أن دخل طالب حاجة وسأل: «أيكم هو الملك السعيد؟»، ما أغضب السلطان، وجعله فيما بعد يحضر الديوان «من وراء ستار»، إذ كان يجلس في كوة تشرف على غرفة المجلس، تسترها ستارة حريرية خضراء، حتى لا يعرف الوزراء إن كان السلطان يسمعهم أم لا⁽³⁾.

وإلى جانب عزلة السلطان، زادت مهابة الموت من سلطة الأسرة وقوتها. ثمة مقولة عثمانية تقول إن «رقبة خادم السلطان أرفع من شعرة»، ذلك أن السلطان كان كثيرا ما يستخدم سلطة العفو والقتل على عبيده وأسرته. وكان فتح السلطان لمشربية في برج العدالة أعلى غرفة الديوان في الفناء الثاني أو وطاه بقدمه على الأرض في أثناء المقابلات في غرفة العرش، إشارات إلى الإعدام، إما بالخنق وإما الفأس وإما الخنجر⁽⁴⁾. وقتل شاغلو الصدارة العظمى أحيانا على يدي السلطان نفسه، حتى صار من بين اللعنات العثمانية والدعوات التي يدعو بها الناس على بعضهم أن يقول أحدهم للآخر «جعلك الله وزيرا لسليم»، في إشارة إلى عدد الوزراء الذين أعدمهم سليم الأول. وفي العام 1606، خنق البستانجية الإمبراطوريون الصدر الأعظم درويش باشا، و«حين لوحظ أن قدمه لا تزال تتحرك»، كما كتب مؤرخ القرن السابع عشر العظيم مصطفى نعيمة Mustafa Naima، «سحب الإمبراطور خنجره وقطع

(*) بمعنى أنه التالي في القدسية للسيد المسيح وحوارييه الاثني عشر. [المترجم].

حنجرته». ومن بين سبعة عشر صدرا أعظم بين العامين 1644 و1656، مات اثنان فقط ميتة طبيعية^(*). بيد أن أغلبية العثمانيين كانوا يتخذون إعدام المسؤولين دليلا على يقظة السلطان وعدله، وكذلك وسيلة لضمان الطاعة. وكان إقرار المفتي للقتل مطلوبا عموما، وإن لم يكن دائما. كتب حسين حصارفين Huseyin Hezarfenn في العام 1669: «ليتهم لا يلغون العقاب البدني التقديري تماما، ذلك أن العقاب أحد شروط الملك»⁽⁵⁾.

كان إحساس الضحايا بواجب طاعة السلطان قويا لدرجة أن أغلبهم لم يدفعوا الموت عن أنفسهم، فإذا كان العثمانيون يذهبون إلى الحرب كذهابهم إلى العرس، فإنهم أيضا كانوا يذهبون إلى الإعدام كذهابهم إلى صلاة الجمعة. كان أمر الباديشاه مطاعا، لأن سلطته مستمدة من الله. سأل أحد الصدور العظماء درويشا: من هو الأحق الأكبر؟ فجاءته الإجابة: «أنت أيها الوزير العظيم. لأنك فعلت كل ما تستطيع لكي تصل إلى منصبك، على الرغم من أنك مررت بحصانك فوق الرؤوس النازفة لأسلافك، ورأسك ستسقط في البقعة نفسها التي طارت إليها رؤوس سابقيك»⁽⁶⁾.

وفي حين كانت رؤوس المتمردين في لندن تُعرض عموما على جسر أو على باب المدينة، كانت رؤوس الوزراء والباشوات تُعرض على أعمدة مرمرية بيضاء في الفناء الأول للقصر، مع كتابة التهمة المنسوبة لكل قتيل، وفي بعض الحالات موقعة من الضحايا أنفسهم. وكانت رؤوس المذنبين الأقل شأنًا تُعرض في كُوات على الجانبين الأيمن والأيسر للواجهة الخارجية للباب الإمبراطوري، وفي حال كثرة القتلى، كانت أكوام من الأعضاء البشرية صغيرة الحجم (كالأنوف والأذان والألسنة) توضع على الأرض أمام الباب. كانت المادة التي تُحشى بها الرأس تعكس رتبة القتيل: القطن للوزراء والقش للموظفين الأقل شأنًا. وكان جمهور القسطنطينية يحب عرض الرؤوس، لأنها كانت تؤكد اعتقادهم بأن المقتولين كانوا مصاصي دماء استنزفوا أموال الدولة، أما المذنبات من النساء، فكن يعدمن بطريقة أكثر تكتما، إذ كن يؤخذن في أجولة ممتلئة بالحجارة ويرمون في البسفور، حيث كان من المزايا الجغرافية الأخرى للقسطنطينية ذلك التيار المتدفق عبر البسفور الذي كان يجرف الجثث سريعا.

(*) إجمالا، وحتى العام 1839، مات اثنان وثلاثون صدرا أعظم من مائة وثمانية وسبعين (بنسبة 18 في المائة) ميتة عنيفة. [المؤلف].

وإبان القرن السادس عشر، حين مزق جنود الانكشارية جثة تاجرة يهودية مقربة من القصر تدعى سبرانزا مالخي Esperanza Malchi في شوارع المدينة لاتهامهم لها بأنها غشت العملة التي كانوا يقبضون بها رواتبهم، عَنَّت والدَة السلطان محمد الثالث ابنها قائلة: «في حال الحكم على المرأة اليهودية بالموْت، فهل كان لزاما أن ينفذ الحكم بهذه الطريقة القذرة؟ لماذا لم تُلق في البحر؟»^{(7)(*)}.

بلغت أبهة القصر، وكذلك قوة الإمبراطورية، أوجها في عهد أقوى السلاطين جميعا: سليمان القانوني ابن حفيد الفاتح، الذي أكمل عهده تحويل القسطنطينية إلى مرادف للعظمة، كما أكمل عهد أبيه سليم الأول تحويلها إلى مدينة مقدسة للإسلام. بعد أقل من شهر من تنصيب سليمان في العام 1520، كتب أحد البنادقة:

إنه في الخامسة والعشرين من العمر، طويل لكن نحيل، ورقيق المظهر، ورقبته طويلة جدا، ووجهه نحيف، وأنفه معقوف، لديه ظل شارب ولحية صغيرة، لكنه مع ذلك يتمتع بطلعة لطيفة، وإن كانت بشرته أميل إلى الشحوب. يقال إنه ملك حكيم، مولع بالدراسة، وينتظر الناس جميعا الخير من حكمه⁽⁸⁾.

بحلول العام 1523، كان سليمان قد فتح معقلين مسيحيين استعصيا على الفاتح نفسه: مدينة بلغراد وجزيرة رودس. وفي معركة موهاج في العام 1526 أباد طبقة النبلاء المجرية، وقُتِل آخر ملك مستقل للمجر في أثناء فراره من ساحة المعركة. وبحلول العام 1540 كانت بودا^(**) قد أصبحت مدينة عثمانية، وأصبحت الحدود العثمانية على بعد مائة ميل من فيينا. ومن الجزائر إلى الهند، كانت الأساطيل العثمانية تحكم البحار. وعلى البر، كان سليمان يفتخر قائلا: «حصاننا مُسَرَّج وسيفنا في خصرنا ليل نهار». وكما فعل مع المجرين في الغرب، تمكّن كذلك من توجيه الضربات المدوّخة نفسها لـ«ذوي الرؤوس الحمراء الملاعين» (الاسم العثماني للفرس

(*) نتيجة لعزلة «الحريم» في هذا المجتمع، فإنهن كن يتخذن وكلاء اقتصاديين من النساء تسمى الواحدة منهن كراء kira (معنى أجرة، ربما من الأصل العربي «أكري» و«إكراء» بمعنى أجر وتأجير) كانت تقوم بكل الأعمال التجارية نيابة عن سيدتها. شغلت سبرانزا مالخي (توفيت في العام 1600) هذه الوظيفة للسلطانة صفية والدَة السلطان محمد الثالث، وقد أثّرت كثيرا من هذا العمل، لذلك فحين ثار الفرسان الإمبراطوريون في العام 1600 بسبب انخفاض قيمة العملة، نفسوا عن غضبهم بقتل سبرانزا وابنها. [المترجم].

(**) بودا Buda: هو الاسم السابق لعاصمة مملكة المجر، تشكل حاليا الجزء الشرقي من العاصمة المجرية بودابست الواقع على الضفة الغربية لنهر الدانوب. [المترجم].

المأخوذ من الغطاء الأحمر الذي كانوا يضعونه فوق رؤوسهم) في الشرق. وفي عهده غدا اللقب «ملاذ الكون» حقيقة واقعة، فمن القرم والمجر، والمغرب وبلاد فارس، كان الأمراء يلوذون ببلاطه. والتمس ملك فرنسا مساعدته، فاضطر الهابسبرغيون إلى أن يدفعوا له جزية.

انعكس الاتساع في إمبراطورية السلطان على لقبه. ففي النقش الذهبي المكتوب باللغة العربية فوق الباب الإمبراطوري على السور الخارجي للقصر، وصف محمد الثاني نفسه بأنه:

سلطان القارتين وإمبراطور البحرين، ظل الله في هذا العالم والعالم الآخر، مَنْ فَضَّلَهُ اللهُ عَلَى الْأَفْقَيْنِ (الشرق والغرب)، ملك البر والبحر، فاتح قلعة القسطنطينية، سلطان الفتح محمد خان ابن السلطان مراد خان ابن السلطان محمد خان، أدام الله ملكه ورفع مقامه أعلى من نجوم السماء الساطعة!

أما سليمان الأول، فكانت رسائله تبدأ بالقول: «من مقر السلطنة العلية، القسطنطينية المحروسة والمحمية» ثم صيغة العظمة الكونية التالية:

إنه مني أنا سلطان السلاطين وملك الملوك وموزع التيجان على ملوك الأرض، ظل الله على الأرض، سلطان وباديشاه البحر الأبيض والبحر الأسود والروملي (*) والأناضول وقرمان (**) والروم وذو القادر (***) وديار بكر وكردستان وأذربيجان وبلاد فارس ودمشق وحلب والقاهرة ومكة والمدينة المنورة والقدس وكل بلاد العرب واليمن والبلدان الأخرى التي فتحها أسلافي العظماء - أنار الله قبورهم - وكل البلاد التي فتحتها أنا صاحب الفخامة الجليلة بسيوفي المضطرم السلطان سليمان خان ابن السلطان سليم ابن السلطان بايزيد.

وفقا لرؤية العالم العثمانية، لم يكن الملوك الآخرون يدينون بتيجانهم إلى سيوفهم أو أسلافهم، وإنما إلى سيدهم الأعلى السلطان. وهذا الأخير وحده كان الإمبراطور. أما الإمبراطور الروماني المقدس الهابسبرغي كارلوس الخامس في الغرب، غريم سليمان

(*) الروملي: كلمة تركية تعني أرض الروم (روم لي) كانت تشير إلى الولايات الأوروبية في الإمبراطورية العثمانية. [المترجم].

(**) راجع هامشا سابقا للمترجم حول إيالة قرمان. [المترجم].

(***) ذو القادر Dulkadir إيالة هي ولاية عثمانية يرأسها أمير أمراء في الأناضول عاصمتها ماراش Maras. [المترجم].

الذي حاول الأخير أن يتفوق عليه في العظمة الطقوسية وفي القوة العسكرية، فقد كان «ملك أرض إسبانيا والأماكن التابعة لها». وأطلق سليمان على ورثة كارلوس في منصب الإمبراطور الروماني المقدس اسم «ملك فيينا». وفي العام 1531 ذكر سفير البندقية أن «السلطان سليمان... ينكر على الإمبراطور أن يلقب نفسه بالقيصر، لأنه يعتبر نفسه قيصرًا». وكان الشعراء العثمانيون قد بدأوا في وصف السلطان بأنه «إمبراطور العالم ومسيح آخر الزمان»، وربما صدقهم السلطان⁽⁹⁾.

عبر السلطان عن إحساسه بالنصر داخل القصر، إذ أعيدت زخرفة جدار الديوان بالذهب والجواهر. وفي العام 1527، وبعد غياب ستة أعوام، كتب سفير للبندقية: «وجدت الباب العالي ممتازا في تنظيمه، إذ اختلف عن آخر مرة جئت إلى هنا سفيرا... فثمة فرق كبير بين هذه المرة والمرة السابقة». كان سليمان أول سلطان يجلس بفخامة على عرش على الطريقة الأوروبية، بدلا من جلسة القرفصاء على سجادة، وبنى غرفة عرش جديدة في العام 1533. ووجد سفير من كارلوس الخامس السلطان:

جالسا على عرش مرتفع قليلا مغطى كاملا بقمماش مُذهَّب ومطرز بالكثير من الأحجار الكريمة، ويوجد في كل الجوانب الكثير من المساند النفيسة، أما جدران الغرفة فقد غُطيت بأعمال فسيفسائية تتلألأ باللازورد والذهب. وكانت مدفأة الغرفة من الخارج مصنوعة من الفضة الصلبة ومغطاة بالذهب، وفي أحد جوانب الغرفة توجد نافورة تتدفق مياهها من الحائط.

في حالة السلام أو الحرب، النصر أو الهزيمة، ظلت غرفة العرش تتلألأ مثل صندوق جواهر. أظهر جرد لموجودات القصر إبان القرن السابع عشر أن العرش نفسه كان مزخرفا بخمس وسائد، وست «تنورات» وخمسة عشر مسندا، مرصعا بزمرد وياقوت ولآلئ، وكانت مثلها مثل حصران الأرضية مطعمة بخيط من الذهب⁽¹⁰⁾. وفي العام 1799، حين تسلمت زوجة لورد إلجين Lord Elgin السفير البريطاني إلى غرفة العرش متنكرة كواحد من حاشية زوجها، كتبت:

كانت غرفة صغيرة ومظلمة، لكن بين أفخم وأروع الأماكن في العالم، أعتقد أنها الأولى. كان عرشه يشبه سريرا إنجليزيا بسيطا جيدا، وكانت الوسادة التي يجلس عليها الوحش (هكذا كانت تطلق على السلطان سليم

الثالث) مطرزة كلها بلألئ كبيرة هائلة. وإلى جانبه كانت توجد محبرة من كتلة واحدة من الألماس الكبير، وعلى جانبه الآخر يستقر سيفه مرصعا من كل جانب بألماسات ضخمة متألفة.

كان يضع في عمامته الرأسية الشهيرة^(*)، وكانت عباءته من الأطلس الأصفر وبها فرو سمور أسود، وفي إحدى النوافذ كانت هناك عمامتان مغطتان بالألماس. لا تتخيل أن شيئا في «ألف ليلة وليلة» يضاهي تلك الغرفة.

وإلى جانب قدرة السلطان على العفو والقتل وانعزال غرفة عرشه وعظمتها، ثمة ثلاث قواعد أضفت على السلطان هالة من الفخامة لم تعرفها القصور الأخرى: العادات والصمت والزي. ففي شرق القسطنطينية وغربها، كانت البلاطات الأخرى في هذه المرحلة بعيدة نسبيا عن الطابع الرسمي (بالاستثناء الجزئي لفينا ومدريد). ولم يكن شاه فارس ولا الإمبراطور المغولي يفرضان قدر الاحترام الذي كان السلطان العثماني يستحقه. وقد أبدى سير توماس راو Sir Thomas Roe الذي عمل أولا سفيرا إنجليزيا لدى الإمبراطور المغولي ثم لدى السلطان العثماني في العقد الثالث من القرن السابع عشر، تفضيله الطابع غير الرسمي لدلهي التي «تعامل فيها بطريقة حميمة مع أمير دمث ولطيف»، على صلابة القسطنطينية حيث كان يمسك بمرفقيه مرافقان كبيران، والتي كان يتحدث فيها «مع صورة بكماء».

أوجد وقار العادات العثمانية وجاذبيتها سلسلة من الإذعان تربط السلطان في غرفة عرشه بأصغر جندي انكشاري في الفناء المجاور. في بلاطات آل تيودور^(**) وآل فالوا^(***)، لم يكن أفراد الحاشية يفعلون شيئا غير الانحناء للملك وتقبيله. لكن في المقابل، كان الوزراء والسفراء الذين ينالهم شرف الدخول إلى غرفة العرش الإمبراطوري يسجدون ثلاث مرات على الأرض، مع أن هذه الذلة كانت تُحذف عادة من رسائل الديبلوماسيين. وبناء على رتبهم أو قربهم من السلطان،

(*) الرأسية: حلية للرأس تصنع من الريش والجواهر. [المترجم].

(**) آل تيودور Tudor: أسرة حاكمة من أصول ويلزية حكمت مملكة إنجلترا وتوابعها من العام 1485 إلى العام 1603. أخذت العرش بعد حرب الوردتين، أول ملوكها هنري السابع. [المترجم].

(***) آل فالوا Valois: أسرة حكمت فرنسا بعد الأسرة الكابيتية من العام 1328 إلى العام 1589، كان أول ملوكها فيليب السادس وآخرهم هنري الثالث. [المترجم].

كان يسمح لهم بتقبيل إما يده المثبتة بتصلب على ركبته أو حاشية قفطانة أو طرف كمة المتدلي. وعند مغادرة غرفة العرش، كان الجميع يسرون بظهورهم. كتب سفير مغربي عن الوزراء:

لا يمكن لأي منهم أن يتصرف كند مع من يعلوه، سواء بالسير إلى جانبه قدما بقدم، أو ارتداء عمامة أو غيرها من الملابس الأخرى من النوعية نفسها التي يرتديها الأعلى، أو بالجلوس على مقعد مماثل لمقعده. لم أر أناسا يدققون في مراعاة الأسبقية مثل الأتراك. وفي حضرة السلطان، لا يمكن لأحدهم أن يجلس، سواء أمام السلطان أو في مدى بصره، بل يقف الجميع في وقار وأيديهم مشبكة على بطونهم بالطريقة التي يفعلونها في الصلاة⁽¹¹⁾.

في عصر كانت العادات فيه تُعلم، مثل ركوب الخيل أو اللغة اليونانية، وكانت معيارا للحكم على الأشخاص لا يقل أهمية عن الرتبة أو الثروة أو اللباس، كانت عادات النخبة العثمانية وسيلة لإبهار الأتباع والأجانب والسيطرة عليهم. في العام 1749، كتب لورد تشارلمونت Lord Charlemont عن الوزراء:

كانت تصرفاتهم مبهجة لأقصى ما يصل إليه الخيال، لكنها كانت في الوقت عينه مبهجة لأقصى ما يصل إليه الخيال. فهم يمتلكون - من دون أن يعرفوا هم أنفسهم ذلك - سيماء من السمو لا يدعونها بأي حال من الأحوال، وهي نفسها تفرض احترامهم من دون أن يطلبوا هم ذلك. إلى هذا الحد يختلفون عن وقاحة فرنسا التي ينتحل كل مغرور فيها سيماء السمو، ما يحيل كل لطفه إلى وقاحة وإهانة! لكن ما أذهلني أكثر من أي شيء آخر وبدا لي أنه تجاوز أي شيء رأيته هو طريقتهم في الحديث وطريقتهم في تحريك الرأس والذراعين، فكل إيماءة هي مزيج من السلاسة والوقار والجلال... وكان منظر حديثهم ذاته، إذا جاز لي التعبير، ممتعا جدا بالنسبة إلي.

كان الاحترام يعبر عن نفسه في أقوى صورته من خلال الصمت. وفي الفناءين الثاني والثالث كان الصمت عميقا جدا، كأن مسرحية ستبدأ. بعد عهد سليمان القانوني، كان السلطان نفسه يستقبل السفراء في صمت، ونادرا ما يتعطف بقول كلمة غير «حسنا». وإذا حاول أن يتحدث، كان الوزراء - المملكيون أكثر من الملك - يذكرونه بأن ذلك غير لائق. وفي الفناء الثالث، في حضرته، لم يكن أي وزير يتحدث سوى في

العمل الرسمي، ويلزم غلمان الغرفة الخاصة ومرافقوه الشخصيون «الصمت المطبق في حضرته مهما طالت»، ويمشون على أطراف أصابعهم. وكانوا يتواصلون بلغة إشارة أدخلها سليمان القانوني لزيادة الاحترام المحيط بالسلطان. وبحلول القرن السابع عشر كان خبراء بكم «يعرفون معنى كل شيء بالإشارة» يعلمون هذه اللغة التي حلت محل اللغة الصربية - الكرواتية باعتبارها اللغة الثانية للقصر⁽¹²⁾.

كان السلطان العثماني يفرض الصمت في قصره، وكذلك في طريقه إلى صلاة الجمعة. وبغرض إبهار السفراء الأجانب، تحدد موعد مقابلتهم للسلطان في يوم دفع رواتب جنود الانكشارية. وفي الفناء الثاني تجمع من ألفين إلى ستة آلاف جندي انكشاري، وظلوا واقفين لساعات بلا حراك كالتماثيل، لا يجروا أحدهم على أن يبصق أو يسعل. وعلى نحو ما ذكر بارون راتيسلاو في العام 1591:

على الرغم من وجود بضعة آلاف من الناس هناك، فإنك لا تسمع صياحا أو حديثا، ولا ترى حركة صغيرة إلى هنا أو هناك، وإنما يقف الجميع في هدوء شديد، ما أثار تعجبنا، حتى جنود الانكشارية الصاخبون والفجرة في المعارك يُظهرون هنا طاعة لقائدهم أشد من طاعة الأولاد لمعلمهم، ويقفون جامدين كما لو كانوا منحوتين من المرمر.

وفي العام 1657، دعا الصدر الأعظم السفير السويدي إلى وليمة في الديوان: «ساد الصمت في أثناء العشاء لدرجة أن كلمة واحدة لم تُنطق، ولم تُسمع أي ضوضاء»، إذ كان معروفا أن السلطان يراقب من كوته⁽¹³⁾.

على أنه في لحظات معينة من النهار، كان هذا الصمت يتبدد بموسيقى الفرقة الإمبراطورية التي كانت تضم الناي والأبواق والطبول والصنج النحاسية. كانت الموسيقى الصاخبة جدا تحيي السلطان قبل ساعة من الفجر وبعد ساعة ونصف الساعة من الغروب. وكانت ترافقه كذلك في الاستعراضات، وكان مما يزعجهم أن يطلب منهم أن يعزفوا للسفراء الأجانب في سفاراتهم بعد مقابلتهم للسلطان⁽¹⁴⁾.

كانت الأزياء نظاما آخر ينقل عظمة السلطنة العثمانية. للنبي حديث شريف يقول: «لا تشربوا في إناء الذهب والفضة، ولا تلبسوا الديباج والحرير، فإنه لهم في الدنيا، وهو لكم في الآخرة يوم القيامة»^(*). لكن في القصر، كان سحر القفاطين أشد

(*) حديث مرفوع من كتاب اللباس والزينة بصحيح مسلم. [المترجم].

تأثيراً من حديث النبي. كانت القفاطين عبارة عن عباءات من جزء واحد، مفتوحة من الأمام من الرقبة إلى القدمين، وفي أغلب الأحيان تتسع عند الخصر، تصنع من المخمل أو الأطلس أو الحرير المقصب. كانت الملابس إحدى الصناعات الأساسية بالقسطنطينية. وبحلول العام 1577 ضمت المدينة مائتين وثمانية وستين نولا، كان ثمانية وثمانون منها «ملحقة بالقصر»، كانت هي وحدها المصرح لها بصنع «القماش الذهبي». وفي بعض الأحيان، كانت دار سك العملة مهددة بنفاد الذهب والفضة بسبب كثرة ما يستخدم منها في عمل الخيوط الذهبية والفضية. ومن دون جدوى، أصدر السلطان مراسيم تحظر استخدامها في الملابس، ذلك أن أوامره لم تكن تطاع إلا قليلاً⁽¹⁵⁾.

بقيت إلى أيامنا مجموعة مكوّنة من ألف قفطان في قصر توبكاي، بفضل العادة العثمانية المتمثلة في وضع مقتنيات السلطان الراحل في أغلفة وختمها باسمه وتخزينها إما في ضريحه وإما في خزانة القصر. وأغلب القفاطين أحادية اللون وغير مزخرفة (مثل القفطان الحريري الأسود الذي كان سليمان القانوني يلبسه كثيراً). بيد أن بعض القفاطين مزخرف بزهور وأشجار بألوان ساطعة، وزنابق في جداول ماء قرمزية متموجة، وأوراق نباتات ذهبية تدفعها رياح غير مرئية. وثمة قفاطين أخرى كانت أكثر أصالة. يكشف قفطان منقط أو مقلّم بالذهب على أطلس قرمزي صُنع لأحد سلاطين القرن السابع عشر وقفطان آخر مزخرف بزخرفة من مثلثات بيضاء على أطلس قرمزي داكن يبدو أنه صُنع إبان القرن الثامن عشر، يكشفان بوضوح عن قفزات في صناعة القفاطين. وكما هي الحال مع المنسوجات القبطية أو فضيات بيدرمير^(*)، تبدو هذه القفاطين كأنها صُممت لباريس إبان العقد الثالث من القرن العشرين. وكما هي الحال في عدد المآذن المسموح بها للمسجد الواحد، كانت الملابس محكومة بالأسبقيات الأسرية. ومع أن أسلاف سليمان كانوا يلبسون نسيج الكاميلوت أو الموهر، فإنه أخذ يرتدي أقمشة من الذهب. وعلى الرغم من أن هذا القماش كان من الناحية النظرية مقصوراً على السلطان وحده، فقد تفضل على صدره الأعظم المقرب إبراهيم باشا بالسماح له بارتداء «قماش مطرز بالذهب، وفي إحدى الحملات سمح له بارتداء عباءة من قماش ذهبي». كان السلطان ووزراؤه

(*) فضيات بيدرمير Biedermeier silver: أسلوب ألماني في تشكيل الفضيات يعرف بالمبسّط. [المترجم].

يلبسون أحيانا ثلاثة قفاطين، حتى يعطي التضارب بين الأنسجة والألوان التي تظهر من تحت الأكمام مزيدا من الأناقة. وقبل ثلاثة قرون من ظهور الأزياء الرسمية الموحدة في البلاطات الغربية، كانت ألوان عمام المسؤولين وعباءاتهم في المناسبات الطقوسية منظمة بالقانون. فكان العلماء يلبسون اللون الأرجواني، والوزراء اللون الأخضر، والغلمان اللون القرمزي. وبسبب هذه الملابس، كتب الكتاب العثمانيون بزهو أن خدم السلطان يشبهون روضة من الزنبق⁽¹⁶⁾.

في نظام التشريفات العثماني، كانت القفاطين التي كان العثمانيون يلبسونها بالدرجة الأولى في المناسبات الطقوسية، في أهمية أوسمة الفروسية عند البريطانيين. فكان السفراء يحكمون على مقاماتهم في القسطنطينية بعدد ونوعية القفاطين التي يحصلون عليها عندما يدخلون القصر الإمبراطوري لتقديم احتراماتهم. وإبان القرن السابع عشر، حصل السفير الفرنسي عموما على أربعة وعشرين قفطانا، والبريطاني على ستة عشر، والبندقي والهولندي على اثني عشر لكل منهما. لكن بحلول العام 1775 كانت الإمبراطورية العثمانية قد ضعفت تماما لدرجة أن السفير الروسي تلقى مائة قفطان. وكان السفراء يرفضون الانتقال من ديوان الصدر الأعظم إلى غرفة عرش السلطان إلا بعد أن يرسلوا خدما إلى دهليز مجاور للتأكد من وجود عدد مناسب من القفاطين في انتظارهم. وكانوا بعد ذلك يرتدون القفاطين فوق الملابس الأوروبية كعلامة على احترام السلطان⁽¹⁷⁾.

كان الفراء بمنزلة لغة ثانية للأبهة في القصر. كانت الرياح القادمة من الشمال تجعل المدينة شديدة البرودة. وفضلا على الفائدة العملية للفراء، كان أيضا من علامات الفخامة، لذلك غدا شراؤه في روسيا من جانب الخزانة العثمانية شأنا من شؤون الدولة. كان السلاطين وحدهم يلبسون فراء الثعلب الأسود. وثمة أنواع أخرى من الفراء كان السلطان ومسؤولوه يرتدونها في تتابع خاص موقوف: فراء حيوان القاقم في الخريف، يليه فاصل لفراء السنجاب، ثم فراء السمور في الشتاء. وفي اليوم الذي كان السلطان يغيّر فيه الفراء، كان الصدر الأعظم والباشوات يتبعونه على الفور⁽¹⁸⁾.

جمع القصر بين اللون والاحترام والصمت والفخامة. وفي ذلك سجل المؤرخون العثمانيون أن السفراء أو الأمراء الأجانب كانوا «يذهلون ويتعجبون ويصعقون وينتشون إلى أقصى حد» بمنظر السلطان وبطانته. وقد كتب سفير الإمبراطورية الرومانية المقدسة

بارون دي بوسبيك: «يتلأ الذهب والفضة والأرجوان والحرير والأطلس في كل مكان... لا توجد كلمات تستطيع أن تعبّر عن طرافة هذا المنظر. أستطيع أن أقول إن عيني لم ترَ منظرا أجمل من ذلك قط». وبعد قرنين مما كتبه السفير الإمبراطوري كتب الدارس الفلورنسي دومينيكو سيسيني Domenico Sestini بعد أن شاهد الوزراء وضباط الانكشارية في الفناء الثاني، وكل منهم يرتدي عمامته الرسمية وترافقه حاشية من الخدم: «في هذه الحالة عينها، تتجلى للمرء كل فخامة العثمانيين وأبهتهم وزهوهم». وبداية من القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر، كان الأوروبيون الغربيون يطلقون على السلطان العثماني اسم «السيد الكبير» The Grand Signore، مُعرِّفة هكذا، كما لو كان هو الوحيد الذي يستحق هذا الوصف⁽¹⁹⁾.

كان الفن وسيلة أخرى أوصل القصر من خلالها رسالة العظمة الإمبراطورية. على مدار القرون الخمسة التي شكلت عمر الإمبراطورية العثمانية، أهدى السلاطين الكثير من القطع الفنية إلى أخواتهم وبناتهم، أو إلى المساجد في القسطنطينية ومكة والمدينة المنورة، أو إلى الملوك الأجانب. وثمة قطع فنية أخرى صُهرت في أوقات الأزمات لدفع رواتب الجند. وعلى أي حال، يوجد نحو ستمائة قطعة في متحف قصر توبكاي يبدو أنها لم تغادر القصر، فقد كان القصر هو المكان الذي صنعها من أجله حرفيو السلطان، وفي الأغلب من مواد ثمينة (الذهب واليشب والعنبر والعاج وشن القرش)، وكانت تخزن في خزانة السلطان. هناك أربع غرف مقببة ومقنطرة بناها محمد الثاني في الفناء الثالث، ظلت لثلاثة قرون ونصف القرن تؤوي الخزانة الخاصة للسلاطين (غير خزانة الدولة المجاورة للديوان في الفناء الثاني)، وإلى اليوم لاتزال الغرف نفسها تُتخذ خزانة لمتحف قصر توبكاي. تجعل هذه الاستمرارية من توبكاي أحد أعظم القصور والخزائن الأسرية في العالم، لا يدانيه إلا الكرملين^(*) أو هوفبيرغ^(**). ونظرا إلى أنه لا توجد عاصمة إسلامية

(*) تشير كلمة كرملين إلى مُجمّع مركزي ضخم ومحصن من البنايات كان شائعا في المدن الروسية التاريخية (تعني بالروسية «قلعة محصنة داخل المدينة»، وكان مُجمّع الكرملين في موسكو مقر الحكام المتعاقبين لروسيا على اختلاف أسرههم وألقابهم منذ القرن الرابع عشر، وربما من قبله. [المترجم].

(**) قصر هوفبيرغ Hofburg Palace: قصر في فيينا بالنمسا أوى أقوى الحكام في التاريخ الأوروبي والنمساوي، بداية من العام 1279، ومنهم آل هابسبرغ، يتخذ حاليا مقرا رسميا لرئيس النمسا، ويضم متحفا لمقتنيات ملوك النمسا المتعاقبين. [المترجم].

أخرى آوت أسرة واحدة ومقتنيات لها هذه المدة الطويلة، تعد مقتنيات توبكاي أيضا المجموعة الوحيدة في العالم الإسلامي التي ظلت تنمو بلا انقطاع منذ القرن الخامس عشر. وإلى أن فُتح القصر للجمهور إبان القرن العشرين، كانت خزانة القصر أحد المفاتن الخفية للعسطنطينية، يتخيلها الناس ويضخمونها، لكن أحدا منهم لم يرها قط.

ضمت الخزانة أيضا من «أشياء القصر» لا يمكن تخيلها في أي سياق آخر، من بينها مصحف مُجلد بالذهب واليشب، وحلية ذهبية للعمامة توضع مع ياقوتات وزمردات ولآلئ وماسات وتُتَوَّج بريش الطاووس. ومنها أيضا قارورة ذهبية مرصعة بالجواهر كان يوضع فيها ماء الشرب لسليمان القانوني. وتضم الخزانة أغطية لسروج الخيول مطعمة بالألماس والياقوت والزمرد. أما العرش الذي كان يستخدم لحفلات استقبال الأعياد، فواجهته مغطاة بألواح من الذهب. كانت هذه الكنوز مخزنة في صناديق تحت سلطة مفتش مخصصات السلطان وموظفين تابعين له مثل حرس حلي العمامة وعباءات الاحتفال. وفي الغرفة الثالثة، يوجد صندوق لا يحوي شيئا سوى الجواهر، وفيه كان الألماس يخزن في درج، والياقوت في درج آخر، والزمرد في درج ثالث. وبالقرب من هذه البناية، كانت توجد خزانة السلطان السرية التي كانت تحوي أكياسا من العملات الذهبية مختومة بالشمع الأحمر المطبوع عليه بخاتم السلطان الشخصي من ختامته الذهبية⁽²⁰⁾.

يرجع الكثير من المقتنيات الموجودة في خزانة القصر إلى غنائم من فتوحات السلاطين، خصوصا من عواصم سابقة مثل تبريز والقاهرة وبودا. كانت هذه المقتنيات مخزنة بعناية شديدة، لدرجة أن الكتب التي أخذت بعد العام 1526 من مكتبة الملك ماتياس كورفينوس Matthias Corvinus أهل المجر، أمكن إرجاعها إلى بودا في العام 1877، حين كانت الإمبراطورية العثمانية في حاجة إلى دعم المجر في أثناء الحرب مع روسيا. ثمة أشياء أخرى كانت تخص باشوات وأخذها السلطان بعد موتهم. على أن معظم المقتنيات صنعتها طائفة من الحرفيين الخاصين بالسلطان كانوا يسمون «أهل الحرف» ehI - I hiref، ضموا بين صفوفهم رسامين ومجلدي كتب وحائكي فراء وصاغة وصناع الكرات الزخرفية التي كانت تعلق فوق عرش السلطان. كان من هؤلاء الحرفيين إبراهيم اليهودي الذي كان متخصصا في

تبطّن الجواهر بلبقات من الذهب أو الفضة لإعطائها مزيداً من البريق^(21*). وكان السلاطين يزورون الحرفيين كثيراً، حتى إن بعضهم تعلم الحرفة، ومنهم سليمان الذي كان صائغاً، كما مارس سلاطين لاحقون أعمال التطريز أو النجارة أو الرسم على مناديل الموصلين.

بلغ عدد الحرفيين ثلاثمائة وستين في عهد بايزيد الثاني في نحو العام 1500، ثم ارتفع إلى خمسمائة وثمانية وتسعين في 1526، ثم إلى ستمائة وستة وثلاثين في العام 1566، وأخذ عددهم ينخفض فيما بعد. بيد أن تنظيم الحرفيين كان عشوائياً ويفتقر إلى الكفاءة، فكان أغلب الحرفيين يعملون لمصلحة زبائن خاصين، إلى جانب السلطان، في بنايات قريبة من القصر، وكانت بعض الورش توجد في الفناء الأول للقصر، «أمام القصر مباشرة كما كانت الحال في براغ»، على حد تعبير بارون راتيسلاو. وكان للصاغة محال وسط البازار في المكان الذي لا تزال توجد فيه محال الصاغة إلى اليوم. وكان مصنع النسيج الإمبراطوري يقع بالقرب من جامع بايزيد⁽²²⁾. جُمع الحرفيون من أماكن بعيدة مثل تبريز والقاهرة والبوسنة^(***). كان هؤلاء الحرفيون يعملون في منسوجات قادمة من البندقية وينسخون تصاميم من الصين. لكن في القسطنطينية سرعان ما أصبح أسلوبهم عثمانياً مثل مساجد السلاطين. ومن خلال وسائل فنية مختلفة، كرر الحرفيون أنماطاً متماثلة، باستخدام الأرابيسك والخط اليدوي، وقبل كل شيء الزهور. ربما نتج هذا التكرار عن الاستخدام الفطري للرموز التقليدية، ففي تقاليد الشرق الأوسط ترمز الورود إلى الحب المقدس، وأشجار السرو إلى صعود الروح إلى السماء. لكن بعد عهد محمد الثاني، حين غدت المدينة مفتوحة أمام الكثير من الأساليب المختلفة، ربما بذلت جهود مقصودة لخلق أسلوب إمبراطوري عثماني باستخدام الألوان المتضاربة النابضة بالحياة ذات التأثير البصري الفوري.

وأياً كانت الأسباب، فإن القسطنطينية امتلكت إمبراطورية فنية لا تقل اتساعاً عن باريس أو البندقية. بنى التجار بيوتا في بلوفديف^(***) أو دمشق، وشيّد

(*) اللبقة: رقاقة معنية توضع تحت الأحجار الكريمة في الخواتم لتقوية لونها ولمعانها. [المترجم].

(**) تذكر المصادر التاريخية أن سليم الأول بعد أن غزا مصر أخذ معه إلى بلاده قافلة جمع فيها شيوخ المهنيين والحرفيين والصناع المهرة لإعمار عاصمته، ما أسهم في تجفيف القاهرة من قوتها العاملة وطلبتها طبقتها الصناعية وأسهم في الأخير في ركودها وتخلّفها. [المترجم].

(***) بلوفديف Plovdiv: ثاني أكبر مدن بلغاريا بعد العاصمة صوفيا. [المترجم].

الباشوات مساجد في سالونيك أو القاهرة، وكلف الكهنة ببناء كنائس في القدس وجبل أثوس^(*)، شكلت جميعها روابط بصرية واضحة مع العاصمة العثمانية. وفي أماكن في بُعد السويد وبولندا والبندقية، جزئيا من خلال هدايا السلطان الديبلوماسية المتمثلة في الخيام والقفاطين، انتشرت موزات المنسوجات والأزياء والجواهر والزخرفة الداخلية العثمانية. حتى إن الأزياء الوطنية للملوك والأمراء المجريين والبولنديين بعد العام 1550، ولوحدات عسكرية مثل الخيالة في الدولتين، كانت مستوحاة من الأسلوب العثماني، فقد كانت الأبهة والبراعة العثمانيتان تفتنان الناس في كل مكان، حتى إن النبيل كلما ازداد غنى زاد حرصه على أن يلبس على طريقة السلطان⁽²³⁾.

يشكل الخزف العثماني الذي لا نظير له في صلابته ومدى ألوانه، إحدى الذرى العالية في التاريخ التقني للفن العثماني. كان البلاط والطاسات والدوارق تصنع في بلدة إزنيك Iznik القريبة، لكن تستخدم بالدرجة الأولى في مساجد القسطنطينية وقصورها. وعلى غرار ما حدث مع أشكال كثيرة من الأبهة العثمانية، بلغت هذه الفنون أوجها في عهد سليمان، خصوصا بعد إدخال الأحمر الضارب إلى السمرة، الذي يسمى عادة الأحمر الأرمني، في نحو العام 1550. حتى القرن السابع عشر، كان بلاط إزنيك يستخدم في أنحاء القصر كافة، فتجده يبطن «الممشى الذهبي» من جناح السلطان إلى الحريم الذي سمي بذلك الاسم لأن السلطان كان يلقي عملات ذهبية على سيدات الحريم وهو يمشي فيه في الأعياد، وكذلك مقصورة بغداد في الفناء الرابع، بل إن جدران الجوامع الكبرى، مثل الجامع السلیماني وجامع السلطان أحمد، عبارة عن حدائق خزفية تذكر المصلين بحدائق الجنة التي وُعد بها المتقون في القرآن. وتشكل أوراق النباتات والزهور والأشجار والأجسام صورا على البلاط باللون الأحمر والأبيض والأزرق، وتعد «معجزة في الدقة ونعومة الملمس والبراعة الفنية لا يمكن لأي نسخ أن يعدلها»⁽²⁴⁾. يتعزز تأثير هذه الرسوم بفضل تضارب ألوانها الكثيفة والقوية مع الحوائط الرمادية للمساجد.

(*) جبل أثوس Mount Athos: جبل في شبه جزيرة اليونان يعرف باسم الجبل المقدس، يضم عشرين ديراً أرثوذكسيا شرقيا تتبع البطريركية في القسطنطينية مباشرة. [المترجم].

تعد صحنون إزنيق حالياً تحفا فنية، لكنها مع ذلك لم تكن رائعة بما يليق بعظمة السلطان. كانت هذه الأطباق التي تسمى «فخاريات» تستخدم في مطابخ القصر، وهناك كانت تتحطم عادة في النيران والزلازل. وكانت الأسرة الإمبراطورية وكبار المسؤولين يستخدمون قطعاً قادمة من الصين، جاء الكثير منها غنيمة في أثناء الحروب في سورية وإيران. كانت هذه الآنية التي تسمى «الصيني»، تُحفظ بعناية في أقبية القصر، لذلك تعد مجموعة العشرة آلاف وستمئة قطعة صيني التي لا تزال موجودة في متحف قصر توبكابي، ثالث أكبر مجموعة في العالم بعد مجموعة بكن ودرسدن (*). وكان السلطان نفسه يأكل في آنية من الفضة أو الذهب أو السيلادون الأخضر (**). التي كان يعتقد أنها تكشف السم وتبطل مفعوله.

كان الأستديو الكائن خارج الأسوار المسمى النقاشين nakkashane أحد أهم الورش التابعة للقصر، وكانت تستخدمه مجموعة من الرسامين ومجلدي الكتب والكتاب الرسميين ممن يتقاضون رواتب جيدة، كان بعضهم يصاحب السلطان في الحملات لتسجيل انتصاراته. وفي عهد بايزيد الثاني وسليم الأول، أعد هؤلاء الكتاب مخطوطات مزخرفة تقليدية لشعراء فرس مثل سعدي وحافظ للمكتبة الإمبراطورية، وكذلك لأشعار سليم الأول نفسه الذي كان شاعراً بارعاً باللغة الفارسية، وهنا أيضاً نجد أنه في عهد سليمان الأول، ابتعد الفنانون عن الموضوعات الفارسية، وانبثق أسلوب عثماني مميز.

تميّز الواقعية ودقة التفاصيل والاهتمام بالأحداث التاريخية والناس، رسامي المنمنمات في القسطنطينية عن الرسامين المسلمين الآخرين. وعلى الرغم من الرفض الشعبي لتمثيل الهيئة البشرية، لم يكن هناك نهى قرآني صريح. وتمثيل الوجوه والأجسام في الرسم العثماني على الرغم من تصلبه، كان أقل جموداً وتكراراً منه في ممالك إسلامية أخرى، باستثناء الرسم في الإمبراطورية المغولية. يهيمن على هذا الفن تركيز مفرط على إنجازات الأسرة الحاكمة. ففي هذه الرسوم، تجد السلطان يذهب إلى المسجد، ويستقبل السفراء، ويحقق الانتصارات. وقد أدى الاستخدام المسرف للون الذهبي والفضي والقرمزي والأرجواني والأخضر المصفر المميز، إلى إنتاج جرأة في اللون أكثر من تلك التي ميّزت خزف إزنيق.

(*) درسدن Dresden: عاصمة ولاية سكسونيا شرق ألمانيا. [المترجم].

(**) السيلادون celadon: اسم لخزف صيني يتميز بنوع اللعة واللون الأخضر المصفر المميز، [المترجم].

كما أنتج رسامو المنمنمات التابعون للقصر مناظر جغرافية، مثل تصوير القسطنطينية لمطراقي نصوح Matrakci Nasuh في العام 1537. وقد صُورت معالم مثل برج غَلَطَة والأبراج السبعة وآيا صوفيا وجامع الفاتح من الواجهة ومن الهواء، بقوة الفن الفطري. وانخفضت أعداد الحرفيين العاملين في أستديو النقاشين من مائة وأربعة وعشرين في العام 1596 إلى نحو ستين في منتصف القرن السابع عشر، وفيما بعد إلى نحو عشرة. ويلاحظ حدوث تراجع في النوعية في الفترة عينها في المنسوجات العثمانية مع التراجع في الكم، فقد كانت العاصمة العثمانية في ذلك الوقت مشغولة بالبقاء أكثر منها بالمجد⁽²⁵⁾.

في الفناء الثاني، أنتجت مجموعة من الكتاب وثائق بخطوط متنوعة مثل خط السياقات Siyakat، للسجلات المالية (خط خاص بحروف يصعب تمييزها لإضعاف إمكانية تزيفها) والخط الديواني الذي كان نوع الخط الرسمي المستخدم في رسائل السلطان ومراسيمه (التي تسمى فرمانات من كلمة فارسية بمعنى «أمر»). كانت فرمانات تتعامل مع كل شيء، من مؤن الجيش إلى نظم السوق. وقد وُجد أن عهد سليمان وحده أنتج مائة وخمسين ألفا من هذه الوثائق^(*).

كانت ترويسة فرمان عبارة عن شكل فني ميّز القسطنطينية، هو طغراء السلطان. ظهرت الطغراء أيضا على العملات المعدنية وبعض البنايات، ما يجعلها مكافئا أسريا عثمانيا للوحات الملوك أو تماثيلهم التي كانت منتشرة في الممالك الغربية. تتكوّن الطغراء من حلقات من الخطوط بألوان ذهبية وزرقاء وسوداء، تحيطها الغيوم ولوالب من الزهور وأشكال الأرابيسك في بعض الأحيان. ومن أجل ضمان قانونية الوثيقة التي تُصدّر بها الطغراء، فإن صيغتها لم تختلف كثيرا على مدى ستة قرون. وفي عهد سليمان القانوني على سبيل المثال، كان نص الطغراء هو: «الإمبراطور سليمان، ابن الإمبراطور سليم، الخان المظفر للأبد». كان ارتفاع الطغراء يمكن أن يزيد على مائة سنتيمتر أو حتى مائتين، وفي بعض الأحيان كان أطول من الإنسان. يقدم التوكيد المطلق على العظمة الإمبراطورية عبر الخط اليدوي والمخطوطات تفسيرا لإحجام السلاطين العثمانيين عن إدخال المطبعة⁽²⁶⁾.

(*) ومن ذلك استمد لقبه: «القانوني». [المترجم].

بيد أن القصر لم يكن ماكينة للأبهة والفخامة وحسب، بل كان أيضا مقر إقامة السلطان وأسرته. كان عدد موظفي القصر سبعمائة وستة وعشرين موظفا قبل العام 1481، ازدادوا في ذروة العظمة في عهد سليمان إلى نحو خمسة آلاف. شمل الموظفون الخدم المكرسين للرفاه الشخصي للسلطان، مثل لفافي العمائم وصانعي القهوة والرسل والحُجَّاب، وكوكبة خارجية من الموظفين يديرون مدارس وورشًا ومخابز ومستشفيات ومساجد (كان هناك ثلاثة عشر مسجدا على الأقل داخل أسوار القصر).

كانت مدرسة القصر أهم هذه الإدارات، وكان محمد الثاني قد أعاد تنظيمها لتشمل بين ثلاثمائة وأربعمائة شاب يمثلون زبدة الدفشمة، كانوا يسكنون البنايات الواقعة على يمين الفناء الثالث. كانت هذه البنايات، التي تحطمت حاليا بفعل الحريق، تضم غرفا للمعيشة وفصولا للدراسة ومكاتب للمعلمين ومعهدا للموسيقى، ومسجدا وحماما تابعين للمدرسة. ووفقا لجيوفانتونيو مينافينو Giovantonio Menavino الذي كان هو نفسه غلاما في «بلاط ملاذ العالم» من العام 1505 إلى العام 1514، كان كل نزلاء المدرسة يتعلمون على أيدي معلمين وخصيان لمدة أربعة عشر عاما لكي يصير الواحد منهم «رجل دولة محارب ومسلما صادقا، وفي الوقت عينه يجب أن يكون أدبيا وخطيبا مفوها يتمتع بكياسة شديدة وأخلاق حميدة». أما منهج هذه المدرسة، الذي كان أكثر علمانية من مدارس المساجد، فقد شمل آداب القصر، والألعاب الرياضية، والثلاثي اللغوي العثماني الكلاسيكي المتمثل في اللغات التركية والفارسية والعربية التي كانت لغات الحكومة والأدب والدين. وكان الغلمان يدرّبون أجسامهم بحمل الأثقال الخشبية، وعقولهم بالقرآن وألف ليلة وليلة⁽²⁷⁾.

كان علي بيه Ali Bey - وهو الاسم الذي عُرف به - أحد الوسطاء الكثرين بين القسطنطينية والعالم الغربي الذين أسهموا في تحديث القسطنطينية من جانب، ومعرفة الغرب بالإمبراطورية العثمانية من جانب آخر. كان علي في طفولته صبيا بولنديا اسمه ألبرت بوبويسكي Albert Bobowski سباه تتر القرم وباعوه في القسطنطينية، وتعلم في القصر في أوائل القرن السابع عشر. أصبح علي أحد مترجمي السلطان، وكان أيضا أول من دوّن كلمات الأغاني والموسيقى التركية

ونغماتها. دَوْنُ الفروق بين الموسيقى العسكرية العثمانية، وموسيقى القصر الناعمة والحزينة والمعقدة التي تعتمد على الكمان الصغير والعود ثلاثي الأوتار والناي والمزمار الفارسي، والأغاني الشعبية «التي كانت ألحانها مطبوعة في آذان الجميع. تسمى هذه الأغاني «التركو» Turku، وتتعامل موضوعاتها في أغليبيتها مع حروب الدولة وانتصاراتها والحب والمعاناة والفراق وما شابهها، وهي أغان لا يثمنها المتعلمون والمتمدنون».

بعد أن فصل بوبويسكي وطُرد بسبب سكره في نحو العام 1657، كتب بحثاً عن القصر، ربما لمصلحة السفارات في بيرا. وعلى الرغم من أن الأتراك المحليين كانوا يتسللون إلى صفوف الانكشارية منذ فترة طويلة، فقد سجل بوبويسكي «إنك على الرغم من ذلك تقابل كل الأمم داخل القصر، وإن ظلت النسبة الكبرى من الغلمان من الرعايا المسيحيين للإمبراطورية العثمانية». وكما كانت الحال مع مؤسستين أسريتين آخرين - كلية إتون (*) والمدرسة الثانوية الإمبراطورية في تسارسكوي سيلو (***) - كانت مدرسة قصر توبكاي تعد أفضل مدرسة في الإمبراطورية ومصنع كبار الوزراء. من بين إجمالي ستين صدرا أعظم، تعلم ثمانية وأربعون فيها، منهم محمد باشا صوكولو ومحمد كوبرولو مؤسس أسرة من كبار الصدور العظماء إبان القرن السابع عشر وبعض المصلحين إبان القرن التاسع عشر (28).

كان القصر عالماً قائماً بذاته، وكان دخول غلام جديد يحدث عبر مراسم تطهر purification صارمة، فكان الغلام الجديد يترك ثلاثة أيام وحده من دون أن يكون هناك أحد يتحدث معه إلى أن يخبره رئيس الخصيان بأنه قد انضم منذ ذلك الحين إلى صفوف عبيد السلطان. كان شعر الغلمان يقسم إلى صفائر بالقرب من آذانهم، «كتذكير لهم بأنهم يجب أن يظلوا عبيداً للسلطان إلى الأبد، مثلما كان يوسف غلاماً لفرعون مصر وكان يلبس صفائر مماثلة». وكانوا يعاملون معاملة الكلاب المربوطة بمقود من رقبتها، فكانوا إذا خالفوا قاعدة، يضربون ضرباً مبرحاً لدرجة

(*) أنشأ الملك هنري السادس كلية إتون Eton College في العام 1440 لتقديم التعليم اللازم لإلحاق الشباب بكلية الملك ممثلة في كامبريدج. [المترجم].

(**) تسارسكوي سيلو (بمعنى «قرية القيصر» Tsarskoye Selo: مدينة قديمة كانت تضم مقر إقامة الأسرة الحاكمة الروسية، تسمى حالياً بوشكين Pushkin، ضمت لاحقاً مدارس تابعة مباشرة للأسرة الحاكمة. [المترجم].

أن السلطان نفسه الذي كان يسمع صرخاتهم، كان يطلب الرحمة لهم أحيانا. وفي أثناء وجودهم في الصلاة، كان الخصي يفتش صناديقهم بحثا عن المأكولات والرسائل الغرامية المخبأة.

إيمانا بأن العقل الجيد لا يسكن جسدا ضعيفا أو بغیضا، كان أقدر وأوسم أربعين غلاما يختارون للخدمة في غرفة السلطان الخاصة. كان لكل غلام عمل منفصل، فأحدهم كان يعتني بسيف السلطان، وآخر ببغاواته، وثالث يحلق للسلطان، ورابع يقلم أصابع يديه وقدميه. وحتى انسحاب السلطان إلى الحريم في العقد الثامن من القرن السادس عشر، كان الغلمان يعدون مائدته ويعتنون بخزائنه وينظفون غرفة نومه الملكية التي كانت جدرانها تتلألأ «بفيض من الذهب والفضة» ويحرسونها. وفي الليل، كانت أسرة الغلمان توزع على زوايا الغرفة الأربعة. وفي وسط الغرفة، كان يوجد سرير السلطان العريض، مغطى بدثر حريرية فارسية وألحفة من بورصة وجلد ثمر، تحيط به شمعدانات فضية⁽²⁹⁾. كان غلامان يرافقان السلطان في نزهته إلى العالم الأبعد من الفناء الثالث. يظهر الغلمان في المنمنمات العثمانية صغار السن وأبرياء إلى حد مبالغ فيه، يرتدون عباءات حمراء وذهبية، إلى جانب السلطان ووزرائه ذوي الوجوه المتجهمة.

يعد اختيار الوزراء والغلمان من بين صفوف العبيد دليلا على إحدى السمات المميزة للقصر العثماني والقسطنطينية نفسها، وهي التحرر من الطبقة، فلم تكن هناك تراتبية الازدراء ولا الهوس بالعائلة اللذين غشيا في الغرب (وبين بعض القبائل العربية) على الكثير من العقول وكان لهما القول الفصل في الكثير من التعيينات. وحتى أواخر القرن التاسع عشر، كان من الممكن أن يتولى أشخاص ممن يعتبرون في الغرب «وضعاء وحقراء»، مناصب قيادية في القصر. من ذلك أن السلطان محمود الثاني في العام 1830 دقق في وجه رجل في البازار المصري^(*) وسأله: «ما اسمك؟»، فأجاب الرجل: «رضا»، فقال له السلطان: «حسنا، اتبعني يا رضا بيه». في ملح البصر، أصبح عامل في دكان «بيه». وبعد ذلك ارتقى إلى

(*) البازار المصري Egyptian Bazaar (أو Misri Carsisi) ثاني أكبر الأسواق التقليدية في إسطنبول بعد السوق الكبير، كان متخصصا في العطارة، سُمي بهذا الاسم، كما يذكر المؤلف في الفصل الخامس، لأن التوابل كانت تأتيه من مصر، لكن ثمة رأيا آخر يرد هذه التسمية إلى أن البازار بُني بالخراج القادم من إيالة مصر. [المترجم].

غلام، ثم سائس، ثم شماسرجي، ثم المشير الأكبر للقصر، ثم وزير الحربية، ثم المستشار المقرب إلى السلطانة الوالدة. وفي العام 1843، وُصف بأنه «الرجل الأقوى والأكثر تأثيراً في الإمبراطورية». وحين مات في العام 1877 قيل إنه كان أغنى باشا في القسطنطينية⁽³⁰⁾.

ثمة اختلاف آخر بين البلاط العثماني والبلاطات الغربية، هو غياب مجتمع البلاط، ذلك أن الرفاق الاجتماعيين للسلطان وأسرته وكبار الوزراء كانوا يختارون عموماً من داخل أسرهم. كانت الأسر الغنية البارزة في الولايات، التي كان بعضها سابقاً في الوجود على العثمانيين، نادراً ما يستقرون في القسطنطينية. ولم تكن تقام حفلات في البلاط لجذب هذه الأسر وترويضها، كما كانت الحال في فيرساي وفيينا. ولم يكن القصر أداة لممارسة السيطرة وتوزيع الرعاية. وكانت علاقات الوجهاء المحليين مع الحكومة المركزية تجري من خلال الحاكم الإقليمي، وليس الإمبراطور.

تمثل أحد الاستثناءات لهذه القاعدة في عائلتين أتى بهما السلطان إلى العاصمة كرهائن وضيوف مكرمين في آن معاً لضمان ولائهما. فبعد العام 1532، كان يقيم فرد أو اثنان من أفراد الأسرة الحاكمة للقرم - آل كراي خان Giray Khans - في القسطنطينية وبالقرب من ممتلكاتهم في تشالجا^(*) التي كانت جيدة للصيد. ونظراً إلى تمتع هذه الأسرة بمكانة التحدر من جنكيز خان، فقد كانت أول من يقدم الاحترامات للسلطان في الأعياد، وكان يقال إنها الأحق بالعرش إذا انقرضت الأسرة العثمانية. ومع أن روسيا انتزعت القرمة من العثمانيين في العام 1783، فقد ظل أفراد الأسرة يعيشون في القسطنطينية، ولا يزال بعضهم يعيشون فيها إلى اليوم.

قام أفراد الأسرة الهاشمية، حكام مكة الذين قبلوا السيادة العثمانية في العام 1517، بزيارة العاصمة لأول مرة لإعلان البيعة لسليمان القانوني في العام 1539، وزاروها ثانية في العام 1589 والعام 1677، وأجبر بعضهم على الإقامة هناك، مع أنهم في هذه المرحلة ربما كانوا يفضلون الإقامة في مدينة القاهرة الناطقة بالعربية. وظلت العلاقات بين الأسرتين الهاشمية والعثمانية تجمع بين الخوف والاحترام

(*) تشالجا Catalca: منطقة ريفية في إسطنبول في تراقيا الشرقية بين بحر مرمرة والبحر الأسود. [المترجم].

والولاء والرشوة والتنافس والاحتياج المتبادل. وقع عداء بين الهاشميين والحاكم العثماني للحجاز على السيطرة على عوائد الحج والجمارك. واستاء بعض الهاشميين من الخضوع «لابن العبيد»، أي السلطان، لذلك أراد السلطان أن يبقّي أفراد هذه الأسرة الخطرة تحت عينيه في القسطنطينية. وكان ذلك بداية التحول في العلاقة بين القسطنطينية ومكة الذي قُدِّر له أن يسيطر على نمط حياة الهاشميين حتى نهاية الإمبراطورية⁽³¹⁾.

كانت أبهة السلطان وأسرته تستخدم لإبهار المدينة، فكان السلطان يذهب إلى المسجد في موكبه الرسمي في معظم أيام الجمع. وكانت نزعات السلطان على البسفور، لزيارة قصوره في بيشيكتاش وبليرباي Beulerbey التي بُنيت في أوائل القرن السابع عشر، أو عبر آسيا للصيد، توفر مزيداً من الفرص لاستعراض الأبهة. وفي القسطنطينية، كان الرجال والمراكب، وليس الخيول والمركبات، هي وسائل النقل الأساسية. وكان قارب الكياك kayik الضيق الأنيق ذو المقدمة المدببة الطويلة رمزا للمدينة، تماماً كما كان الجندول رمزا للبندقية. كان أفراد من البستانجية الإمبراطوريين يجذفون بمراكب الكياك الخاصة بالسلطان، فلم يكن البستانجية مجرد بستانيين إمبراطوريين وحسب، بل كانوا أيضاً وحدة بحرية وعسكرية مميزة مكونة من سبعة أو ثمانية آلاف جندي، منفصلة عن الانكشارية، وظيفتها حراسة السلطان والسيطرة على البسفور والقرن الذهبي وشواطئهما. وفي الليل، كانوا يسيرون بدوريات في ميناء القسطنطينية في زوارق لاعتقال المخالفين، وفي النهار تكون دورياتهم في ضواحي المدينة لمنع التجار الذين يتهربون من الجمارك.

كان ستة وعشرون من البستانجية، يرتدون طرابيش حمراء ذات شُرابات زرقاء وسراويل وقمصان بيضاء فضفاضة من الموصلين تكشف عن صدورهم وأذرعهم، يجذفون على مركب الكياك الإمبراطوري الذي كان طوله بين ثلاثين وأربعين متراً. يجلس السلطان في نهاية القارب محمياً من الشمس والرياح ومستنداً إلى وسائد في كشك من الخشب المذهب المطعم بالعاج والأصداف والجواهر. وكان البستانجية يجذفون بقوة لدرجة أن القارب كان يخترق الماء كَسَهِمٍ أطلق من قوس، حتى إن قاربه إبان القرن التاسع عشر كان يستطيع

أن يسبق مركبا بخاريا. وكان قارب السلطان تسبقه عادة ستة قوارب كياك تحمل مرافقيه.

وعلى صفحة الماء، كما على سطح الأرض، كان هناك حاجز صوت يحجب السلطان، وكان صعوده إلى القارب ونزوله منه ومرور قاربه يُحيى بوابل من طلقات المدافع المتمركزة على الشاطئ ومن البوارج الراسية في البسفور. ومع تبدد سحب الدخان الناتجة عن طلقات المدافع، كان البستانجية يبدأون في «النباح كالكلاب» حتى لا يسمعوها حديث السلطان مع قائدهم البستانجي باشا الذي كان يتشرف بتوجيه الدفة⁽³²⁾.

كانت الأبهة الإمبراطورية تفيض على شوارع القسطنطينية في أثناء الاحتفالات بختان أبناء السلطان أو زواج بناته. وكما هي الحال في السلاسل، كانت احتفالات السلطان في القسطنطينية أبعد في طابعها الجماهيري منها في الممالك الغربية. في الثلاثين من يونيو 1530، بدأ سليمان القانوني في أوج قوته ومجده، الاحتفالات بختان أبنائه مصطفى ومحمد وسليم. نُصبت الخيام في أوسع فضاء مفتوح بالمدينة، وهو ساحة الألعاب الرومانية القديمة. كانت خيام السلطان المحمية من المطر بغطاء أخضر والمخاطة من الداخل بالزنبق والورد والقرنفل المطرز بالفضة والذهب وترفعها سوار مطلية بالذهب، بمنزلة قصور من الحرير والقنب. وكان عرشه يوضع تحت مظلة من القماش الذهبي، حيث يجلس السلطان الذي كان حينئذ في الثانية والثلاثين من عمره، محاطا بوجهاء الإمبراطورية برئاسة الصدر الأعظم إبراهيم باشا، وحضور الأمراء الأسرى.

ففي المكان الذي كانت الإمبراطورة المستقبلية تيودورا تكشف فيه عن عورتها أمام حشود بيزنطية مهللة^(*)، أخذ المشعوذون والمهرجون يُضحكون رعايا السلطان العثماني الأكثر احتشاما. وفي المكان الذي كانت فيه فرق من الزرق

(*) تشير الصفة «المستقبلية» إلى أن تيودورا (من نحو العام 500 إلى 28 يونيو العام 548) في ذلك الوقت لم تكن قد أصبحت بعد إمبراطورة، ذلك أن الإمبراطورة الأقوى والأكثر تأثيرا في تاريخ بيزنطة كانت قبل أن تتزوج جوستينيان الأول، ابنة مروؤذ دبة في سيرك، أكله دب، ما اضطرها هي وأخواتها إلى احتراف الدعارة، كما أنها عملت راقصة وممثلة في المسارح الشعبية حول البسفور، وكانت تمثل مسرحيات خليعة تتحرى فيها أمام الجمهور، ربما لذلك سنت تيودورا بعد أن أصبحت إمبراطورة قوانين توسع حقوق النساء وتمنع الدعارة القسرية، كما أغلقت المواخير، وأنشأت ديرا على الجانب الآسيوي من الدردنيل - «دير التوبة» - تستضيف فيه المومسات السابقات. [المترجم].

والخضر تتنافس في سباقات المركبات ذات العجلتين^(*)، قاتل جنود السلطان بحارة في معركة تمثيلية. ومشى البهلوانات على حبال مشدودة من ناحية إلى مسلة تحتمس الثالث (1549 - 1503 قبل الميلاد) التي جلبت من مصر ونصبت هناك في عهد ثيوديسيوس الأول في العام 590، ومن ناحية أخرى إلى عمود حجري يعود إلى الفترة نفسها. وعُرضت على الجمهور الهدايا التي قدمها الوزراء والبهوات الأكراد والسفراء الأجانب إلى السلطان، مثل البلور والخزف الصيني والدُمقس السوري والموصلين الهندي والعبيد من الحبشة والمجر، وألقى الشعراء قصائد دُبجت خصيصا للمناسبة.

على أن مظاهر الإسلام لم تُنس كليا. وفي إحدى المسابقات العلمية القرآنية بين العلماء، مات أحدهم كمدا لأنه لم يستطع أن يأتي بالكلمات الصحيحة. وفي اليوم الثامن عشر، أُتي بأبناء السلطان من القصر القديم في قلب المدينة، وجرى ختانهم في القصر الذي بناه الصدر الأعظم إبراهيم باشا المطل على ساحة الألعاب (حاليا متحف الفن التركي والإسلامي). وفي الاحتفال، أعطى السلطان قفاطين للوزراء والعلماء. وأكل الجمهور ثيران مشوية، وأطلقت ثعالب وأبناء آوى وذئاب حية بين الحشود كشكل من الإثارة⁽³³⁾.

وفي العام 1582، كان ختان الأمير محمد بن مراد الثالث شأنا رسميا، خُطط قبل سنة من إقامته. وحُدّدت للمسؤولين الكبار مهام احتفالية خاصة، فعُيّن القائد العام للأناضول على سبيل المثال مشرفا على الشربات^(**). وأعد زهاء ألف وخمسمائة طبق وصينية نحاسية للمآدب. وأعدت القصور المحيطة بساحة الألعاب لتكون مكانا للجلوس والمشاهدة للسفراء من سمرقند وفارس وجورجيا والمغرب والبندقية وبولندا والإمبراطورية الرومانية المقدسة، وكذلك سيدات القصر من وراء ستار.

(*) أثبتت تيودورا قوتها وتأثيرها في هذا السباق الذي شهد أعمال شغب بين الحزبين السياسيين المتنافسين - «الزرق» و«الخضر» - في يناير العام 532 وانتشرت الحرائق وعمت الفوضى المدينة وطالب الثوار بإمبراطور جديد، وبالفعل قرر الإمبراطور وحكومته الفرار، قبل أن تدخل تيودورا على مجلسهم وتحثهم على رفض الهروب والتصدي للثوار قائلة إن «الأرجوان الإمبراطوري هو أنبل كفن»، فعدل الإمبراطور والحضور عن قرار الفرار، وقاد جوستينيان حربا على الثوار انتصر فيها وقتل ثلاثين ألف تائر في ساحة الألعاب واستتب له الحكم ثانية. [المترجم].

(**) كان الشربات حتى عهد قريب إحدى المتع الأساسية في الريف المصري، وكان الناس يقدمونه في الأعياد والحفلات والأفراح، وكان جزءا من جهاز العروس، ويباع في الأعياد والمولد، حتى إنه اتخذ اسما للبنات. ربما نتج ذلك عن قرون الحكم العثماني، أيا كان اتجاه التأثير من تركيا إلى مصر أو العكس. [المترجم].

وفي الأول من يونيو انطلقت الاحتفالات بوصول السلطان. ثمة تجديدان يكشفان عن انبثاق روح حضرية. مرت كل الطوائف الحرفية بالقسطنطينية في موكب من أمام عرش السلطان الذهبي، بمعدل طائفتين أو ثلاث في اليوم، إذ مرت من أمامه عربات يجر الواحدة حصان واحد، تعرض مهارات كل طائفة في حرفة معينة. عرضت إحدى العربات حمّاما من القرميد وفيه رجال بتنورات سوداء يؤدون الوضوء والتدليك. ومر طبّاخون يعرضون رؤوس خراف وثيران وأقدامها وهم ينادون «تعال فخذ يا عزيزي، كل ما عندنا، فطعامنا كله مدهن، كله ساخن، كله بالخل، كله بالثوم». ومر صناع القطران وهم يلقون الزيت والقطران على الحشود ويشخصون حكاية «ألف خدعة مرحلة من ذلك النوع». ومر مراقبو مستشفيات المجانين وهم يقتادون مجانين ضاحكين وباكين مقيدون في سلاسل ذهبية وفضية. ومرت فرقة من مائة وخمسين صبيا وقد تغطوا بكسرات من الزجاج عكست أشعة شمس الصيف على المشاهدين لعرض مهارة صناع المرايا. كما أعدت ألعاب نارية ترمز إلى المدن والكنائس والحيوانات الخرافية، بمساعدة مهندس إنجليزي أسير يدعى إدوارد ويب Edward Webb. وقدم السلطان سلسلة من المآدب في المساء، إحداها للباشوات، والتالية للعلماء، والثالثة لقواته. وفي كل مساء، كان يجري تحضير ألف طبق من البيلاو(*) وعشرين ثورا مشويا لأهل القسطنطينية.

شارك اليهود والمسيحيون في الاحتفالات على نحو مهين. فكان البطارقة اليونانيون والأرمن، فضلا عن المفتي وال دراويش، ينحنون للسلطان ويباركونه بالكلمات: «أدام الله السعادة على السلطان!» وأجريت معركة تمثيلية في ساحة الألعاب بين المسلمين والمسيحيين، وبالطبع انتصر المسلمون وانتزعوا قلعة المسيحيين التي خرج منها أربعة خنازير، في إشارة ازدرائية إلى أكل المسيحيين للحم الخنزير(**). وأُمّتِ العامة

(*) البيلاو pilav: طبق تركي يطبخ فيه الأرز في مرق متبل، وفي بعض الحالات يضاف إليه بصل مطبوخ مبشور وتشكيلة كبيرة من التوابل، وبناء على البيئة يضاف إليه اللحم أو السمك أو الخضراوات أو الفواكه المجففة. [المترجم].

(**) على الجانب الآخر من البحر الأبيض المتوسط ومن طرفي الحرب الدينية المتواصلة، كانت تقام في إسبانيا عروض تمثيلية طقوسية تصوّر انتصار المسيحيين على المسلمين. من ذلك أنه قدم في سرقسطة على شرف الملك فيليب الثاني وحاشيته في العام 1585 عرضا مسرحيا خاصا من «الأندلسيين والمسيحيين»، أدى فيه صيادون مورسكيون دور أندلسيين يدافعون عن حصن بُني خصيصا لهذا العرض، فيما يقتحمه المسيحيون ويدمرونه، قبل أن يأسروا المدافعين ويسوقوهم في موكب مظفر إلى قصر الدوق المحلي. وفي العصور الوسطى المتأخرة، كانت المدن والقرى الإسبانية تنظم مواكب ورقصات مهرجانية تعرف باسم «الأندلسيين والمسيحيين»، كان المسيحيون المحليون فيها يلبسون زي أندلسيين يهزمهم المسيحيون في معارك تمثيلية. وفي بعض الحالات، كان المسيحيون يحتفلون بانتصارهم بتحطيم دمي للنبي محمد أو إغراق مقلد أو ممثل له في البئر المحلية. [المترجم].

بمسرحيات كوميدية ورقصات يهودية. وأدى مائة يوناني من غَلَطَة بسترات حمراء وقبعات فريجية^(*) رابططين أجراسا في سيقانهم، رقصات خليعة من الإسكندرية. انسحق بعض المسيحيين (وليس اليهود) أمام المناسبة، أو وفقا لمصدر مسيحي، أمام عروض المال، لدرجة أنهم كانوا يرفعون إبهامهم، في إشارة إلى استعدادهم إلى اعتناق الإسلام. وكان هؤلاء يُحمَلون فورا إلى القصر ليجري ختانهم.

أما الأمير محمد، الذي أصبح لاحقا السلطان محمد الثالث، المدثر بالأطلس القرمزي والقماش الأبيض المطرز، وريش البلشون في عمامته، وياقوتة حمراء في أذنه اليمنى، فقد جرى ختانه في السابع من يوليو. وأُرسلت القلفة^(**) على طبق من ذهب إلى أم الأمير، وأُرسلت إلى جدته السكين التي قطعت بها. وكوفئ الشخص الذي أجرى ختان الأمير بثلاثة آلاف قطعة ذهبية، وطاسة وإبريق ذهبيين، وثلاثين ثوب قماش وعباءات تشريفية، وزُوج بعد ذلك من إحدى بنات السلطان. ثم عاد السلطان أخيرا إلى القصر في الثاني والعشرين من يوليو. دامت الاحتفالات طويلا جدا - خمسة وخمسين يوما - لدرجة أنها تسببت في تأخير بداية موسم الحملات العسكرية⁽³⁴⁾. ربما كانت القسطنطينية «كابوا» أخرى^(***)، وهي المدينة التي ألهمت مباحجها جيش هانيبال عن الهجوم على روما.

كان من بين الزينات الغربية التي تعرض في مهرجانات المدينة، النخيل التركي التقليدي الاصطناعي المصنوع من حبال وشموع. كان هذا النخيل المزين بالأحجار الكريمة والفاكهة والزهور والمرايا، يعد رمزا للرجولة والخصوبة، وكان طول النخلة الواحدة يصل أحيانا إلى اثنين وعشرين مترا. وعلى مدار أسبوع قبل الختان في العام 1582 حُمِلت خمس نخلات كبيرة وثلاثمائة وستين نخلة صغيرة ومتوسطة الحجم

(*) فريغيا Phrygia: إقليم قديم في الوسط الغربي للأناضول، استوطنه شعب أطلق عليهم اليونانيون اسم «الفريغيين»، حكموا آسيا الصغرى بعد انهيار الإمبراطورية الحثية إبان القرن الثالث عشر قبل الميلاد حتى انهيارهم وصعود ليديا إبان القرن السابع قبل الميلاد. [المترجم].

(**) القُلفَة: هي جلدة الذكر التي تقطع في الختان. [المترجم].

(***) كابوا Capua: مدينة في كامبانيا بجنوب إيطاليا، استولى عليها وغيرها جيش قرطاج بقيادة هانيبال بعد هزيمة جيش الجمهورية الرومانية في معركة كاناي Cannae في العام 216 قبل الميلاد، يقال إن حياتها المترفة ضيّعت بأس هانيبال وجيشه وأوهنت روحهم المعنوية، حتى إنهم لم يحققوا بعدها انتصارا، وانتزعها الرومان منهم ثانية، لذلك اعتبر بعض المؤرخين سكنى هانيبال وجيشه لكابوا بمنزلة «كاناي» أخرى، لكن المهزوم فيها كان هانيبال وجيشه. [المترجم].

من هذا النوع في مواكب بالمدينة. وفي الشوارع الضيقة جدا، كان الأمر يستلزم هدم بعض البيوت لمروور الموكب بالنخيل، ذلك أن العظمة الإمبراطورية كانت لها الأسبقية على أبنية المدينة⁽³⁵⁾.

كان استعراض العظمة في زفاف بنات السلطان أهم من الزفاف نفسه. في زفاف الأميرة فاطمة ابنة السنوات الخمس^(*)، في العام 1709، حُملت هدايا العريس التي كانت عبارة عن صناديق من الجواهر ومصاحف وأحذية مرصعة باللؤلؤ ونخلتين من الفضة وخمسة عشر كيسا من الذهب ومائة وعشرين صينية من الحلويات، في موكب رسمي في المدينة إلى القصر. وداخل القصر، عُرض جهاز العروس على الوزراء الذين قاموا بدورهم بإضافة هدايا أخرى. ثم حُمِلَ جهاز العروس على خمسة وخمسين بغلا، برفقة أغلب الأسرة الإمبراطورية بملابسهم الرسمية، إلى قصر الأميرة الجديد في أيوب، وسط حشود مهللة. أما العروس نفسها، فقد نقلت إلى قصرها في موكب مكون من 31 مركبة.

وعلى مدار الأيام التالية، شهدت المدينة ألعابا نارية ومشعوذين ومسابقات مصارعة ومعارك تمثيلية جر الجنود فيها بارجة حربية خلال شوارع المدينة. بيد أن مجد السلطان الذي عُرض في شوارع القسطنطينية لم يتجل في ساحات المعارك الأوروبية (كانت جيوشه قد تكبدت هزائم متكررة من الجيوش النمساوية منذ فشل حصار فيينا في العام 1683)^(**). وعلى أي حال، فإن هذا الزواج لم يكتمل، إذ قبل أن تصل العروس سن البلوغ كان العريس قد قُتل في هزيمة عثمانية أخرى⁽³⁶⁾.

(*) سيتضح في نهاية الفقرة التالية أن الزواج لم يكن يتم قبل أن تصل العروس سن البلوغ، إذ يبدو أن هذه الاحتفالات كانت شكلا من الخطبة المبكرة. [المترجم].

(**) بعد حصار لشهرين لمدينة فيينا، وقعت «معركة فيينا» في 11 و12 سبتمبر 1683 بالقرب من فيينا بين الجيش التركي وجيش الحلف المقدس الأوروبي المكون من الإمبراطورية الرومانية المقدسة ومملكة بولندا - ليتوانيا والنمسا الهابسبرغية. قاد الجيش التركي فيها الصدر الأعظم قرة مصطفى باشا الذي أقتع السلطان محمد الرابع بضرورة التحرك لإيقاف خروقات القوات الهابسبرغية على الحدود، وانتصر فيها الحلف المقدس، وكانت تأكيدا لصعود آل هابسبرغ على الإمبراطورية الرومانية المقدسة وأوروبا الوسطى من جانب، وتراجع الإمبراطورية العثمانية من جانب آخر، وأطلقت «الحرب التركية» الكبرى التي استمرت خمسة عشر عاما. استعصت فيينا من قبل على سليمان القانوني نفسه الذي حاصرها في العام 1526. [المترجم].

وفي العام 1720، جرى ختان أربعة من أبناء السلطان وتزويج اثنتين من بنات أخواته. صُنعت أربع نخلات بطول تسعة أمتار، وأربعون نخلة صغيرة لكل أمير. تواصلت الاحتفالات في ساحة أوكميدان Okmeydan خارج أسوار المدينة بالقرب من غَلَطَة، خمسة عشر يوما وليلة، وُخِئت خمسة آلاف صبي آخر في أثناء الاحتفالات. وكانت مواكب من الطوائف تمر أمام السلطان الجالس في كشك الألاي Alay Kiosk (الخاص بالتشريفات) الذي بُني له فوق سور القصر لتمكينه من مشاهدة ما يحدث خارج القصر. وُجِرت عربات على حبال مشدودة بين سوارى السفن الراسية في البسفور⁽³⁷⁾.

ثمة احتفالات فخمة أيضا كانت تعلن عن ولادة طفل للسلطان، فكانت المدافع المثبتة في السور البحري للقصر تطلق دفعات من سبع طلقات للولد وثلاثا للبنات، لخمس مرات على مدار أربع وعشرين ساعة، وتُنشر فرمانات تعلن الخبر على بقية الإمبراطورية، وتُسَير مواكب ترافق مهذا وغطاء مهد مزينين خلال شوارع المدينة إلى القصر الإمبراطوري. وفي القصر، كانت غرفة نوم الأم تكتظ بزوجات كبار المسؤولين في الإمبراطورية اللاتي كن يقفن احتراما للمهد حين يصل إلى القصر.

كانت السماء ليلا هي الأخرى تعكس عظمة السلطان. فمن أجل الإعلان عن حفلات الزفاف والختان للأسرة الحاكمة والأعياد الدينية مثل مولد النبي كانت السفن والمساجد والقصور تنار بمصابيح صغيرة. وكانت رسائل مضيئة تعلق بين المآذن مكتوبا عليها: «عاش ملكنا ألف سنة!» وكانت مراكب معلقة عليها فوانيس ورقية حمراء وزرقاء وخضراء تجوب البسفور والقرن الذهبي مثل يراعات في بحر من النار^(*). حين شاهد هانز كريستيان أندرسن Hans Christian Andersen أنوار الزينة في مولد النبي في العام 1841، شعر بأنه دخل في إحدى حكاياته^(**): «فكل شيء يبدو كأنه محاط باللهب... كل شيء مغلف بضوء سحري»⁽³⁸⁾.

(*) البراعة أو الحُباحب: خنفساء مضيئة. [المترجم].

(**) هانز كريستيان أندرسن Hans Christian Andersen: شاعر وكاتب مسرحي وروائي وكاتب أدب رحلات ديماري. [المترجم].

كانت السفارات وسيلة مكنت السلطان والملوك الأجانب من استعراض قوتهم واثرائهم أمام أهالي القسطنطينية. كانت المدينة إحدى العواصم الدبلوماسية العالمية، وكان السفير الموفد إلى القسطنطينية ملزماً بأن يجلب معه أسرة أميرية. وفي ذلك كتب سفير البندقية في 1583: «من المؤكد أنه لو كانت الأبهة ضرورية في بلاطات الأمراء الآخرين، فإنها في القسطنطينية كانت ضرورية جداً». كانت هذه الأبهة يشاهدها الناس والسلطان وتدخل البهجة على قلوبهم. من ذلك أنه في العام 1575، كتب فيليب دو فرنس كاناي وهو في طريقه إلى قصر توبكاي بين حاشيته كسفير لفرنسا: «كانت ضفة البسفور تغص بالناس، وكذلك الأسوار وأسقف البيوت كان يعلوها الكثير من المتفرجين، في احتشاد للناس في وقت واحد لم أر حجمه في حياتي قط». ووصل هير فون كوفشتاين Herr von Kuefstein من فيينا سفيرا إمبراطوريا في العام 1628، وكتب عن وصوله «أرسلت الحكومة حرسا رافقني بفخامة خلال المدينة التي غصت كل نوافذها وشوارعها بمتفرجين لا تحصى أعدادهم». وكانت الحشود حادة الملاحظة تلاحظ أي تجديد في عدد المسؤولين المرافقين أو ملابسهم⁽³⁹⁾. كان خروج السلطان إلى إدرة أو في حملة عسكرية أو عودته منها يوفر فرصا أخرى للاستعراض. من ذلك أن أوليا جلبي شاهد حشودا هاذية خرجت للترحيب بمراد الرابع في العام 1638 حين عاد من إعادة فتح بغداد، إذ احتشد الناس فوق الأسقف وفي النوافذ وهم يهتفون: «بوركت يا فاتح! عود أحمد يا مراد! نصرا مؤزرا!» وأخذت سفن كثيرة تطلق النار تحية للسلطان حتى بدا البحر كأنه يحترق. تقدم السلطان إلى القصر في خيلاء المنتصر، واضعا على رأسه عمامة فارسية في إشارة إلى انتصاره على الجيوش الفارسية، يليه قادتهم مكبلين في الأغلال، «كأسد أمسك فريسته». وفي القصر، تلقى مراد الرابع تهاني بلاطه وهو جالس على عرش من الذهب كُتبت عليه أبيات الشعر التالية:

أنت القطب الذي يتجه إليه العالم.

يرتعش العالم أمامك مثل الإبرة في البوصلة.

إنه لا يرتعد خوفا من الإبادة،

وإنما رغبة في أن يقدم نفسه أضحية أمام عرش قوتك.

وانتهت الأيام السبعة للاحتفال حين ذهب السلطان للصلاة في أيوب.

وفي العام 1671 كتب السفير الفرنسي مركيز دي نونتيل Marquis de Nointel وصفا لخروج السلطان محمد الرابع من القسطنطينية إلى إدرة يرافقه الحرس والوزراء، متلألئين بالجواهر والمخمل والشيلا المطرزة. يذكر نونتيل نفسه وهو في وسط بعثته أنه سفير لويس الرابع عشر وأن ملك الشمس لا يعبأ بالمنافسين (*)، يستخدم دفاعات الحاشية الفرنسية: «إذا كانت هذه المراسم تنطوي على شيء من العظمة، فلا بد أن يحترس المرء من أن ينسحق أمامها... ويتمثل العلاج الحقيقي لتجنب الانسحاق في التفكير في عظمة أسرة الملك... فلو أراد جلالته أن يجاريه في ذلك، لأمكنه بمنتهى السهولة إنتاج أبدع المشاهد والعروض في هذه المناطق وفي بقية المشرق». ترى هل السفير يفرط في توكيد الذات؟

ونتيجة لهذه الطقوس الروتينية، ممثلة في حفلات الزفاف والختان الإمبراطورية وأنوار الزينة والسفارات والسلامك، كانت القسطنطينية تشهد عروضاً عامة أكثر مما كانت تشهده العواصم الأخرى. وإلى جانب الفخامة الخفية للحريم والجمال الواضح للمكان وأفق المدينة، جعلت هذه المواكب العظمة الإمبراطورية جزءاً من صورة القسطنطينية في العالم الخارجي.

كما أنتجت هذه المواكب عشق المدينة للأبهة والعظمة الذي غدا أحد معالمها حتى القرن العشرين. وكما كانت الحال مع سكان فيينا قبل العام 1918 وسكان لندن قبل العام 1960، كان سكان القسطنطينية إمبراليين بالفطرة (**). إذ شكّل الوعي بالإمبراطورية عقولهم، تماماً كما شكّلت حقائق الإمبراطورية حياتهم المادية. ألم يقل الرحالة الذين زاروا كل مدن العالم إنهم لم يروا مدينة مثلها؟ ألم يصفها الكتاب بأنها «موضع حسد ملوك العالم»؟ ألم يكن مقدراً لها أن تزدهر «حتى آخر الزمان»؟ في أوائل القرن الثامن عشر، كتب الشاعر العثماني نديم Nedim في مديح المدينة:

(*) ملك الشمس أو الملك الشمس: أحد ألقاب لويس الرابع عشر. [المترجم].

(**) الإمبريالية Imperialism، بمعنى التوسع الإقليمي وبناء الإمبراطوريات، تعني إقامة علاقة اقتصادية وثقافية وإقليمية غير متكافئة بين الدول، وفي الأغلب من خلال التوسع العسكري والهيمنة والإخضاع، وتقوم على استغلال الشعوب التابعة لإثراء المراكز الاستعمارية، بدأت في شكلها الحديث في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، مع تكوين الإمبراطوريات الأوروبية فيما وراء البحار، وانتهت في شكلها السافر مع تصفية الاستعمار في الربع الثالث من القرن العشرين، وإن كانت العلاقات الإمبريالية الاستغلالية لاتزال قائمة بين المراكز الاستعمارية السابقة وتوابعها. [المترجم].

أنت يا مدينة إسطنبول لا نظير لك ولا مُن!
أضحى بكل بلاد فارس فداءً لِحَجَرٍ واحدٍ من حجارتك!

وحتى إبان القرن التاسع عشر بعد أن تكبدت الإمبراطورية العثمانية هزائم متكررة، ونظرا إلى أن الصين لم «تأتِ إلى القسطنطينية»، بمعنى أنها لم ترسل سفارة إليها، لم يكن العثمانيون يصدقون أن الصين كانت إمبراطورية حقا⁽⁴⁰⁾. فرمما ظن أهل فيينا أن مدينتهم هي المدينة الإمبراطورية الحقيقية الوحيدة التي تستحق أن تكون عاصمة أوروبا، وربما ادعى أهل أصفهان - عاصمة بلاد فارس حينذاك - أن مدينتهم «نصف العالم». لكن أهل القسطنطينية - في المقابل - كانوا على يقين من أن مدينتهم هي مركز الكون.

الحريم والحمّامات

والله ثم والله إن فراقك يؤجج في نارا لا ينطفئ لهيبها.

خُرّم سلطان إلى زوجها سليمان القانوني،

في نحو العام 1535 (*)

صدقني يا باشا! ليست العبرة بشيب اللحية أو سوادها،

فالسياسة الجيدة لا تنشأ عن عمر الرجل، بل عن ذكائه.

تورهان والدة محمد الرابع إلى باشا كان

يزهو بعمره وحكمته، في نحو العام 1655.

على مدى قرون، ظلت الأمهات في القوقاز

يغنين لبناتهن الرضيعات أغنية تبدأ بالكلمات

«متعك الله بالعيش بين الماس والأبهة زوجة

للسلطان». وكانت بعض البنات بسبب توقهن

إلى تحقيق هذه الأمنية يعرضن أنفسهن بلا

ثمن على تجار الرقيق الزائرين⁽¹⁾. كانت أعينهن

على الحريم الإمبراطوري في القسطنطينية.

تعني كلمة حريم «الحرم المقدس»، وتعني

(*) خُرّم سلطان Hurrem Sultan أو خُرّم خاصكي سلطان (اسمها بالمولد

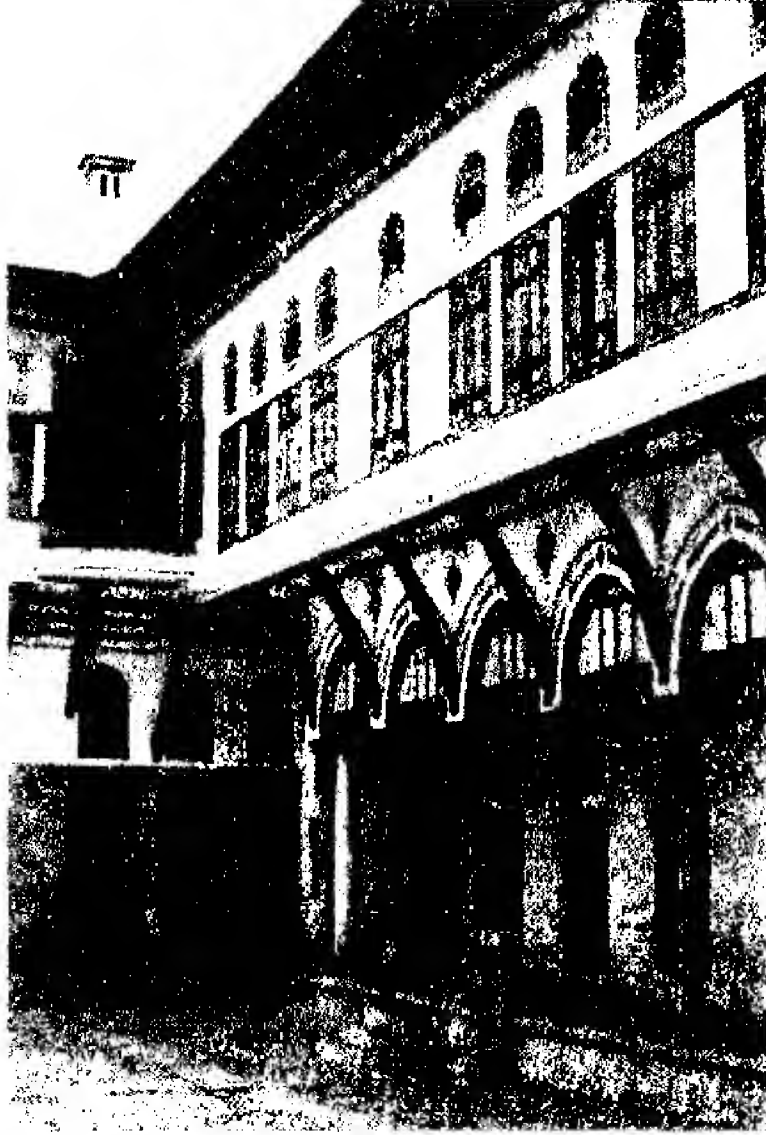
روكسلانا) (1506 إلى 15 أبريل 1558) زوجة السلطان سليمان القانوني

وأم ابنه وخليفته سليم الثاني، في اللغة التركية يعني اسمها خُرّم ←

«كان الحريم ماكينة لإعادة إنتاج العائلة، حتى ضد إرادة السلطان»

القسطنطينية: المدينة التي استهأها العالم 1453 - 1924

بالاشتقاق أجنحة النساء. وكان الحریم الإمبراطوري يشير إلى الأجنحة المحرمة للنساء والخصيان eunuchs، التي أثرت في الحياة العامة في القسطنطينية، فضلا على الحياة الخاصة للسلطان.



فناء المحظيات بالحریم الإمبراطوري. يعد الحریم الإمبراطوري واحدا من الأماكن القليلة التي بقيت فيها عمارة عثمانية من القرن السابع عشر من الخشب والقضبان والنوافذ البارزة. يطل على هذا الفناء الجناح الذي كان الأمراء الإمبراطوريون يوضعون فيه قيد الإقامة الجبرية، و«الممشى الذهبي» بين مقصورة البردة الشريفة وفناء السلطنة الوالدة.

«الضاحكة» أو «الباسمة»، ويعني الاسم خاصكي سلطان «والدة ولي العهد»، وتُعرف في المصادر العربية باسم حُرْم أو حُرْم أو كُرْم أو أم محمد، وسميت «هيام» في المسلسل التركي «القرن العظيم» أو «حریم السلطان». كانت جارية من أصل أوكراني بيعت للقصر وتزوجها السلطان سليمان القانوني ووقع في غرامها وخضع لتأثيرها. ارتبط اسمها بأحداث أو مؤامرات شهيرة من أهمها قتل السلطان سليمان لابنه الأكبر من زوجته الأولى ماه دوران الأمير مصطفى وإعدام السلطان لصدرة الأعظم ورفيق صباه إبراهيم باخا. (المترجم).

الحريم والحفامات

كان القصد من وجود الحريم هو إشباع رغبات السلطان ولأغراض التناسل من أجل مصلحة العائلة. تبين حرب الخلافة الإسبانية (*) وحرب الخلافة النمساوية (***) النتائج الكارثية التي تتكبدتها العائلة الحاكمة التي تفتقر إلى وريث ذكر. كيف عملت العائلة على ضمان بقائها البيولوجي عبر سلسلة الذكور؟ في بعض الأحيان، اتبع السلاطين الأوائل التقاليد الأسرية الشائعة بالزواج من أميرات من العائلات الحاكمة المسيحية أو المسلمة المجاورة، لكن هذه الزيجات كانت تحدث لأسباب سياسية، وليست بيولوجية، أي بغرض تقوية التحالف مع دولة ما، وليس بغرض إنجاب وريث. وربما لم يكن السلطان ينام مع هؤلاء الزوجات مطلقا لتجنب الإنجاب منهن. وبعد العام 1500، أصبح السلطان قويا لدرجة تغنيه عن الحاجة إلى التحالفات العائلية التي يحتاج إليها الملوك الأقل شأنا (على رغم توافر مرشحات ملائمت من عائلة كراي حكام القرم السابقين وعائلة أشراف مكة). وكان بايزيد الثاني (1481-1512) آخر السلاطين الذين أمموا زيجة عائلية مع أميرة من عائلة ذو القادر التركية الأناضولية.

آثرت العائلة العثمانية أكثر من أي عائلة أن تتناسل باتخاذ المحظيات مع الجواري Concubinage. كان السبب الأساسي وراء ذلك الاختيار هو الرغبة نفسها في السيطرة التي دفعت هذه العائلة إلى اتخاذ عبيد الانكشارية حرسا لها. فلم يكن لدى المجموعتين - الجواري وعبيد الانكشارية - أقارب طموحون أو طماعون

(*) حرب الخلافة الإسبانية (1701-1714): حرب بدأت مع موت كارلوس الثاني ملك إسبانيا وآخر ملوك الفرع الإسباني لسلالة هابسبرغ الذي لم ينجب أبناء، فأورث كامل مملكته إلى فيليب دوق أنجو حفيد أخته غير الشقيقة ماريا تريزا - إليزابيث ملكة فرنسا - من الملك الفرنسي لويس الرابع عشر، الذي أصبح ملك إسبانيا باسم فيليب الخامس. أصبحت أسرة البوربون بذلك تحكم إسبانيا وفرنسا، فضلا على أن فيليب كان الوريث الشرعي لعرش فرنسا نفسها. طالب الإمبراطور الروماني المقدس ليوبولد الأول بالعرش الإسباني، وخافت القوى الأوروبية الأخرى، على رأسها بريطانيا والجمهورية الهولندية والبرتغال ودوقية سافوي، من توسع النفوذ الفرنسي، فاتفقت في حربها ضد مملكتي البوربون، وامتدت الحرب من التراب الأوروبي إلى العالم الجديد، وانتهت بتوقيع معاهدة أوترخت في العام 1713 ومعاهدة راستات في العام 1714 التي أقرت فيليب الخامس ملكا على إسبانيا، لكن مع استبعاده من خلافة العرش الفرنسي، للحيلولة دون الاتحاد المستقبلي بين مملكتي إسبانيا وفرنسا، وبسببها انتقلت معظم ممتلكات إسبانيا في إيطاليا وهولندا إلى النمسا، وتضعفت الهيمنة الفرنسية على القارة الأوروبية. [المترجم].

(***) حرب الخلافة النمساوية (1740-1748): حرب بدأت بموت شارلز الخامس الهابسبرغي ملك النمسا وجولوس ابنته ماريا تريزا على عرش ممتلكاته، إذ تذرعت بروسيا وفرنسا بالقانون الصلي Salic Law الذي لا يهيز وراثة العرش في النساء للانقضاض على ممتلكات النمسا، وانضمت إنجلترا والجمهورية الهولندية، العدوان التقليديان لفرنسا، إلى صف النمسا، وامتدت الحرب من أوروبا إلى أمريكا الشمالية والهند، وانتهت بتوقيع معاهدة إكس لا شابيل Aix la Chapelle التي ثبتت ماريا أرشدوقة للنمسا وملكة للمجر ولعطت صقلية لروسيا. [المترجم].

في العاصمة. وكان أفرادها- نظريا- معتمدين كليا على السلطان. وكانت السيطرة على المحظيات من جواري القصر من أجل مصلحة العائلة أسهل من السيطرة على الحرائر المسلمات اللاتي يتمتعن بحقوق قانونية حددتها الشريعة. وكانت محظية التناسل بعد أن تنجب ابنا واحدا، لا يمسه السلطان، ما وفر لكل ابن دعم أم مكرسة له وحده (*).

كانت الرغبة سببا آخر من أسباب اتساع حجم الحريم، ذلك أن معظم السلاطين كانوا يرغبون في تنوع شريكات الجنس. وتعد العشيقات الملكيات في فرنسا سابقا وفي إنجلترا إلى اليوم، أمثلة للارتباك الناتجة عن الغراميات العائلية داخل النخب الحاكمة. وكانت المحظيات من الجواري اللاتي كن يخترن بناءً على عافيتهن وجمالهن وليس نسبهن، تشبعن رغبات السلطان بلا عواقب مدمرة.

كانت البيولوجيا السبب الثالث لنظام الحريم، ذلك أن أبناء المحظيات - على خلاف أبناء العشيقات المتزوجات (**)، كانوا يزيدون الاحتياطي العائلي. فعدد المحظيات كان يضمن دائما وجود وريث ذكر، ما جعل السلطان يحرص على النوم مع مزيد ومزيد من الجواري لكي يزداد نسله. لم تقع حرب خلافة عثمانية، كما كان يمكن أن يحدث لو أن العائلة كانت تتزوج بغرض النسب وليس التناسل. لكل هذه الأسباب، كان السلطان بالوعي وباتباع التقليد الأسري، يقتصر على الجواري ضمن جدران الحريم (2).

غير أن أعظم السلاطين - سليمان القانوني - أظهر تحديا لقواعد القصر، ففي بداية عهده كان سليمان «الشهواني جدا» يتردد كثيرا على «قصر الحريم»، وهو أول قصر بناه محمد الثاني في وسط القسطنطينية، وهناك كان «يختلي بالحريم»، بيد أنه بحلول العام 1524، شذَّ عن أسلافه بأن أثر الزواج الأحادي من امرأة تدعى خُرْم. كان السلطان يغيب كثيرا عن المدينة في حروبه، وفي أثنائها تبادل رسائل

(*) ثمة سبب آخر لتفضيل الجواري على الزوجات، إذ يقال إن السلطان بايزيد الأول عندما هزمه تيمورلنك وأسر مع حريمه ومنهم زوجته الصربية ماريا دسبينا في العام 1402، أجبر تيمور ماريا على أن تخدم الحضور في حفل انتصاره وهي عارية تماما على مرأى من زوجها المكبل، ويقال إن السلطان الأسير مات بسببها كمداء، لذلك كان قرار الأسرة العثمانية ألا يتخذ السلاطين من جواريهم زوجات، وظل هذا التقليد إلى أن كسره سليمان القانوني بزواجه من جاريته خُرْم. [المترجم].

(**) العشيقة في البلاطات الغربية التي يذكرها المؤلف كان يمكن أن تكون غير متزوجة أو متزوجة، طبعا من غير الملك. [المترجم].

شعرية معها. تكشف هذه الرسائل أن السلطان الذي كان مثالا للقوة الإمبراطورية ورعبا لجيرانه، كان تقيا ووديعا ومخلصا لزوجته.

كان الحريم مدينة محرمة، فمن الصعب التحقق من الحقائق حول حياة نزيلاته قبل التحاقهن به. فكما كان يحدث مع الخدم في البيوت الريفية الإنجليزية الكبيرة، كانت النساء لدى التحاقهن بالقصر يعطين أسماء جديدة، في إشارة إلى القطيعة مع هوياتهن السابقة. كانت الأسماء في معظمها فارسية، مثل مهرماه Mihrimah وماهبيكير Mahpeyker وشويكار Shevkiyar، وحتى لا تنسى أسماءهن، كانت تعلق على صدور النزيلات الجديديات. ربما كان اسم خُرَّم بالمولد أليكساندرا ليسوفسكا Alexandra Lisowska، وكانت ابنة كاهن أرثوذكسي من أصل أوكراني عاش بالقرب من ليفيف ببولندا^(*). وقد سُبِّيت في إحدى غارات السبي على أيدي خانية تتر القرم المجاورة. وخُرَّم، التي تعني «الضحكة»، تمكنت سريعا من التخلص من منافستها الأساسية.

فبعد أن انجذب سليمان إلى خُرَّم مباشرة، دخلت الشركسية ماه دوران أم ابن السلطان الأكبر مصطفى في مشاجرة مع خُرَّم وخمشت وجهها ووصفتها بـ«الخائنة» و«ذات اللحم الوسخ». وحين استدعى سليمان خُرَّم بعد هذه المشاجرة، رفضت المجيء قائلة إنها «لحم وسخ» وغير جديرة بعطف السلطان. وأخيرا، سأل السلطان ماه دوران عن صحة قصة عراكهما. ووفقا لتقرير بندقي، «أجابت بأن القصة حقيقية، وأنها فعلت فيها [خُرَّم] أقل مما تستحق. إنها تظن أن كل النساء يجب أن يذعن لها ويعترفن بها سيدة للقصر منذ أن كانت في خدمة صاحب الجلالة لأول مرة». طُرِدَت ماه دوران وماتت منسية في بورصة في العام 1581⁽³⁾.

أما خُرَّم فقد أصبحت مركز قوة في القصر. بعد سنوات كتب سفير البندقية: «لم يسبق في تاريخ البيت العثماني أن امرأة تمتعت بكل هذه السلطة. يقال إنها مقبولة ومتواضعة وإنها تعرف رغبات السلطان جيدا». وفي نحو العام 1534، ربما من خلال التهديد بحجب وصالها عنه، أقنعت السلطان بمنحها شرف الزواج الذي لم تكن إحداهن تطمح إليه في خيالها.

(*) ليفيف Lviv أو Lvov (أو لويو أو لفوف): مدينة تقع حاليا في أوكرانيا وتشكل أحد أهم المراكز الثقافية والاقتصادية في أوروبا الشرقية. [المترجم].

وكما كانت الحال في بلاط هنري الثامن أو لويس الرابع عشر، كان امتلاك مكان الإقامة الصحيح إحدى الوسائل الأساسية للاحتفاظ بحظوة السلطان وإظهار تلك الحظوة. وبعد أن شبَّ حريق في القصر القديم، انتقلت حُرْم إلى القصر الإمبراطوري الجديد عينه بالقرب من زوجها. وصفت وصيفة سابقة بالقصر جناح حُرْم على النحو التالي:

تقع سراي Seraglio السلطنة في نفس [مُجمّع] عظيم الترك، وفيه يستطيع أن ينتقل عبر غرف سرية من سراي إلى أخرى. لا أحد يدخل قصر السلطنة غير عظيم الترك والخصيان وشخص آخر يدعى كتحدا وهو وكيل السلطنة الذي يدخل القصر ويخرج منه حينما يريد ... وغرف السلطنة سواء في الأبهة، فضلا على قاعات الصلاة والحمامات والحدائق وغيرها من وسائل الراحة⁽⁴⁾.

كان قصر حُرْم نسوة لما أصبح لاحقا إحدى أقوى المؤسسات في المدينة، وهي الحريم الإمبراطوري.

يعد العشق بين سليمان وحُرْم إحدى العلاقات النادرة بين زوج وزوجة في القسطنطينية، إذ سُجلت بكلماتهما. كان للعائلة العثمانية إرث من الشعر. من ذلك أن بايزيد وجم Cem بينما كانا يتنافسان على العرش، كانا يتراسلان بالشعر. وقد مارس سليمان القانوني الكتابة باسم «محببي» Muhibbi. يقول المؤرخ الأجنبي الأول للشعر العثماني إدوارد غب Edward Gibb: «لا تتمثل السمة الأساسية لقصائده، كما هي الحال مع الكثير من معاصريه، في أناقة ألفاظه فقط، بل في صدق مشاعره الواضح الذي يذهلنا بأقوى ما يكون عندما نقرأ تلك الأشعار بمسحة التواضع الرصين الساكنة فيها». يكتب سليمان عن غرور القوة الدنيوية وعن ملذات الفقر وعن الخمر (ربما يكون مجازا لحب الله). لقد أذل السلطان اعتلال صحته الدائم الذي جعل وجهه «في لون سيئ جدا» (لدرجة أنه أحيانا كان يضع أحمر على وجهه لخداع السفراء الأجانب). يقول في أشهر أشعاره:

ليس على وجه الأرض إلا طالبا للثراء وللهناء

ولا هناء إلا في برهة من عافية

فما يدعوه الناس ملكا ليس إلا صراعا دنيويا وحربا مستمرة

وعباداة الله هي التاج الأسمى والمنزلة الأسعد

كثير من قصائد سليمان موجهة إلى حُرْم. فلا رغبة له في ثراء ولا عروش، مادام أنه يرفل في السعادة اللانهائية بكونه عبداً في قصرها. «تعامليني برفق أحياناً، وتعذّبيني في أحيان أخرى. حبيبتي، أيا كانت معاملتك، فسوف أقبّلها دائماً». إنه سلطان العشق، بالتعبير المفضل له، الذي كانت الدموع المنهمرة على وجنتيه هي جنوده وفيالقه. ومن أجل التعبير عن عشقه جاب السلطان الطبيعة وإمبراطوريته بحثاً عن المجازات metaphors. فهي حُرْم التي قال فيها:

يا حديقتي، يا سكري الحلو، يا كنزي، يا حبي الذي
ما اهتممت بأحد في هذه الدنيا سواه.

يا عزيز مصري ويوسفي(*)، يا كل شيء لي، يا مليكة قلبي.

يا اسطنبولي وقرماني وأرض أناضولي

يا بدخشاني وقبجاي وبغدادى وخراساني

يا حبي ذات الشعر الأسود، والحاجبين المعقوصين، والعينين الطافحتين بالغواية

أنا إن مت فأنت قاتلتني، أيتها المرأة القاسية الجاحدة⁽⁵⁾

لا تقلّ رسائل حُرْم شوقاً عن كتابات حبيبها، وإن كانت قد أملتّها على موظف الحريم(**)، وفيها تصفه بأنه «البهاء الذي سرق قلبها» و«أفق البهجة» و«أُملي في العالمين»: «آه لو كان اليوم في قربك ألف [يوم]!» والشعرة الواحدة في شاربهِ تساوي أكثر من خمسة آلاف أو مليون فلورين. وتطلب منه «الشفقة على وحدتها وفراقها عن سيد العوالم ... لو كانت البحار مداداً وهذه الأشجار أقلاماً، لما استطاعت أن تصف حرقه هذا القراق؟» وتعذر عن نوبة شجار بينهما بالقول: «أدعو الله أن يمحو الكلمات التي أبعدتك عني». وتبدأ إحدى رسائلها بالقول: «بعد أن أمرّغ وجهي القبيح في التراب الشريف تحت قدميك المباركتين» وتنتهيها بالقول: أتمنى لك الهناء في العالمين. خادمتك المتواضعة حُرْم.

وتنقل له أخبار المدينة: «حالياً يوجد مرض، لكنه أخف من ذي قبل. فهل يأتي سلطاني، لينعم الله علينا ويزيح المرض. يقول الأطباء إن الخريف عندما يسقط أوراقه، سيزول المرض». وأصبحت ابنة الكاهن الأرثوذكسي الأوكراني عثمانية متحمسة:

(*) أي عزيز مصر والنبي يوسف، في إشارة - ربما - إلى استبداد حبيبته به كما كان عزيز مصر يستبد بها. [المترجم].

(**) لأنها لم تكن تجيد اللغة العثمانية، المكتوبة على الأقل. [المترجم].

وصلتنا أخبار انتصارك. يعلم الله يا باديشاهي وسلطاني أن الموت كان قد نال مني وما ردني إلى الحياة إلا هذه الأخبار. ألف ألف شكر لله. لقد انبثق العالم كله من الظلام، وغمر نور رحمة الله الجميع. أتمنى أن تخوض الحروب وتسوي الأعداء بالأرض وأن تأخذ الممالك وتفتح الأقاليم السبعة.

ومن خلال أطفالهما، منحت خرم السلطان مستوى من الحياة الأسرية غير معهود في تاريخ العائلة العثمانية. وتحرص دائماً على إطلاعها عن مدى اشتياقهم إليه:

إن رسائلك الشريفة عندما تُقرأ، ينفجر خادمك وابنتك مير محمد وخادمتك وابنتك مهرماه في البكاء والنحيب شوقاً إليك. لقد أخافني بكاؤهما الذي لا ينقطع كما لو كنا في جنازة. يا سلطاني، إن ابنك مير محمد وابنتك مهرماه وسليم خان وعبدالله يرسلون إليك السلام ويمرغون وجوههم في التراب بين قدميك⁽⁶⁾.

لم يكن الحب الرابطة الوحيدة بين خرم والسلطان، فما كان لزوجة أقوى ملك في أوروبا أن تعتزل السياسة. على خلاف معاصرتها آن بولين^(*)، لم تحظ خرم سلطان بحفل تتويج عام تحتفل فيه العاصمة كلها بتنصيبها، كما أنها لم تحصل على مرتبة عامة في البلاط وفي البيت الذي ضم مئات الرجال والنساء في مكانتها. لكنها من وراء جدران الحريم، مارست تأثيراً أكبر من تأثير ملكة إنجلترا. وعلى الرغم من أن سليمان وهنري الثامن كليهما استخدما لغة مماثلة تعبيرا عن عشق كل منهما «لخليلته» والخضوع لها، فإن السلطان كان أكثر إخلاصاً من هنري. وعلى كل حال، فإن خرم امتلكت الكنز الذي افتقرت إليه آن بولين، وهو الأبناء الذكور.

كان السلطان يستشيرها في السياسة، على الأقل بقدر ما كان هنري الثامن يستشير آن بولين. على أن خرم لم تفقد التواصل مع هويتها السابقة كلياً. ومن أجل نشر السلام، تراسلت مع ملك بولندا وأرسلت إليه منديلاً طرزته بيديها.

(*) آن بولين Anne Boleyn (من نحو 1501 إلى 19 مايو 1536) ملكة إنجلترا بين العامين 1533 و1536 لكونها الزوجة الثانية للملك هنري الثامن وأم الملكة إليزابيث، تزوجها الملك بعد أن رفضت أن تكون عشيقة مثل أختها ماري. أعدمت في برج لندن بعد إدانتها بالخيانة والزنا، ربما لأنها فشلت في إنجاب طفل ذكر للملك أو لأنه أراد أن يتزوج من جين سيمو Jane Seymour بعدها. [المترجم].

وأعلن السلطان دورها، ربما تعبيرا عن اهتمامه برعاياه النساء، بأن شيدَ باسمها مُجمّع مساجد ضخما باسم خاصكي (سلطاني) في غرب المدينة. كان ملحقا بهذا المُجمّع مطعم للفقراء ومستشفى ومدرسة. ويعد هذا المُجمّع الوحيد من نوعه الذي بُني لزوجة سلطان أو محظيته في حياته، فضلا على مؤسسات أخرى كثيرة بُنيت بأوامر خُرّم في إدرنة والقدس والمدينة ومكة، يفوق عددها ما بُني بتكليف من زوجة ملك إنجلترا.

كان السلطان سليمان القانوني بوفائه لخُرّم يثير سخط القصر والمدينة. وكما حدث مع آن بولين، اتهمت خُرّم بأنها «سحرت» زوجها، «لكن نظرا إلى أنه يحبها، فلا أحد يجرؤ على الاحتجاج»⁽⁷⁾. كانت خُرّم أيضا داهية في السياسة تعمل لحساب نفسها. كان دافعها الأساسي هو إنقاذ أرواح أبنائها. قبل العام 1607، لم تكن الإمبراطورية العثمانية تتبع قاعدة ثابتة للخلافة على العرش. وكان العرش يؤول إلى الأمير الذي يصل إلى القسطنطينية والخزانة الإمبراطورية قبل غيره. فكان نجاحه يعني مباركة الله ويغدو لذلك السلطان الشرعي. وكان من الوارد أن يثير الأمراء الآخرون حروبا أهلية، على النحو الذي ابتليت به العائلة العثمانية في أوائل القرن الخامس عشر، أو أن يكونوا أدوات في أيدي مراكز القوة في القصر أو الانكشارية، لذلك كان السلطان الجديد يأمر عادة بقتلهم، فقد كان الأمراء عرضة للقتل كالوزراء تماما. بهذه الواقعة الفجة التي ميّزت الأسلوب الرسمي العثماني تماما مثل التفخيم الإمبراطوري، كتب محمد الثاني: «يتعين على ابني الذي يرث عرش السلطان- أيا كان هو- أن يقتل إخوته من أجل مصلحة النظام العالمي [الإمبراطورية العثمانية]. وقد أقره معظم الفقهاء على هذا الإجراء. لتسير الأمور على هذا النحو». وكما في حالة الفصل المادي لشبان الدفشمة عن عائلاتهم، كانت هذه السياسة تتجاهل الروابط العائلية التي وصى بها القرآن. وعلى أي حال، فإن القصر الإمبراطوري كانت تحكمه متطلبات العائلة الحاكمة، وليس شريعة الإسلام. فمحمد الثاني أعدم أخوين له، وأعدم سليم الأول أخوين وثلاثة أبناء وأربعة من أبناء إخوته. وربما أمر الأخير أيضا بوضع السم لأبيه. وعلى امتداد تاريخ هذه العائلة قُتل نحو ثمانين أميراً، عادة بالشنق بخيط قوس، وذلك لتجنب إراقة دم العثمانيين المقدس⁽⁸⁾.

بيد أن القتل كوسيلة للسيطرة العائلية لم يكن اختراعا عثمانيا، فثلاثون من الأباطرة البيزنطيين الثمانية والثمانين، ماتوا بالخنق أو السم أو التعذيب في القسطنطينية نفسها. وإدوارد الخامس وأخوه قُتلا في برج لندن بأوامر من عمهما ريتشارد الثالث، كما قُتل مارشال دانكر Marechal d'Ancre في قصر اللوفر بأوامر من لويس الثالث عشر في العام 1616. وسجلات الأباطرة المغول في دلهي ملطخة بالدماء. غير أنه في حين كانت إراقة الدماء في العائلات الأخرى استثناء - ولو نظريا على الأقل - جعلت العائلة العثمانية وحدها قتل الإخوة (وإعدام الوزراء) قاعدة.

في الغابة المتألقة للقصر العثماني كان الهجوم خير وسيلة للدفاع، حيث تمثل نجاح خُرْم الأول في تدمير صديق زوجها الأقرب: الصدر الأعظم إبراهيم باشا. كان إبراهيم يونانيا من برغة Parga الواقعة على البحر الأيوني، ولد في نحو العام 1493، وأسرته القراصنة وبيع إلى أرملة تعيش في العاصمة الإقليمية مانيسا Manisa، والتحق بعدها بمدرسة القصر. كان إبراهيم القصير والأسمر والذي وواسع الاطلاع يعرف اللغات الفارسية واليونانية والصربية - الكرواتية والإيطالية، وكان يعزف العود. وعندما دخل إبراهيم بيت الأمير سليمان افتتن به الأمير الشاب.

وكما كانت الحال في البلاطات الأخرى، كانت الخدمة الشخصية للملك يمكن أن ترفع صاحبها إلى أعلى المناصب في الدولة. وبعد اعتلاء سليمان العرش، ترقى إبراهيم سريعا خلال مناصب البلاط الخصوصية إلى مدرب الصقور ورئيس الغرفة الخاصة، إلى أن أصبح الصدر الأعظم في العام 1523، على الرغم من مطالبات الوزراء الأكبر سنا بهذا المنصب. وعلى خلاف قواعد السلوك الإمبراطوري، كان سليمان وإبراهيم يتعشيان معا، وكانا ينامان على سريرين متجاورين. يتفرد إبراهيم في التاريخ العثماني بشرف أنه كانت تنصب إلى جانب خيمته ستة من ذبول الخيل - أقل بذيل واحد فقط من السلطان نفسه - وهو الرمز التركي القديم للمكانة⁽⁹⁾، وأصبحت الحكومة العثمانية شراكة بينهما.

كان إبراهيم باشا جنرالا ووزيرا مقتدرا، شَبَّهه أحد العثمانيين المعاصرين بـ«الشمس التي ترسل أشعتها إلى الكون». وفي العام 1535، كانت معاملته لمدينة

تبريز التي استولى عليها أكثر رحمة من معاملة كارلوس الخامس لتونس في السنة عينها^(*). تعبر محادثاته المسجلة في بعثات السفراء الأجانب، عن الغطرسة البسماركية التي هيمنت على العاصمة العثمانية:

يا لهم من حمقى أولئك الذين يظنون أن الملوك يصيرون ملوكا بفضل تيجانهم. فلا الذهب يعطي السلطة، ولا الجواهر، وإنما الحديد - السيف - هو الذي يؤمن الطاعة.

ومع أنني عبد السلطان، فإن ما أريده يكون. فأستطيع بكلمة أن أجعل من سائس خيل باشا. وأستطيع أن أمنح ممالك وولايات إلى من أشاء، ولن يعارضني سيدي. وحتى إن أمر هو بشيء، وكنت أنا لا أريده، فإن هذا الشيء لا يكون. وإذا أمرت أنا بشيء وأمر هو بعكسه، فإن ما أريده هو ما يكون⁽¹⁰⁾.

كان إبراهيم باشا رجلا مزدوج الهوية وفقا للإرث الكوزموبوليتاني لمحمد الثاني. فقد استدعى فنانيين من بروكسل والبندقية إلى القسطنطينية، وقيل إنه كان يقوم «بالكثير من أعمال الخير مع المسيحيين». وكان مما أثار اشمئزاز بعض المسلمين، أنه وضع تماثيل لهرقل وأبولو وديانا مأخوذة من القصر الملكي ببودا أمام القصر الذي بناه السلطان له بالحجارة مطلا على ساحة الألعاب الرومانية. فنتيجة للرفض الإسلامي لتمثيلات البشر، كانت هذه التماثيل الوحيدة من نوعها التي تنصب علنا في القسطنطينية بين العامين 1453 و1924. وقد سخر أحد الشعراء من أنه بينما حطم أبونا إبراهيم الأصنام نصبها إبراهيم، وهو الشاعر الذي اقتيد عبر المدينة في موكب على حمار وشنق.

وفي حياته الشخصية، اتخذ إبراهيم محظيا من الرجال هو الديبلوماسي التجاري المؤثر ألفيس غريتي. وكان يحب زوجته خديجة أخت السلطان التي كتب لها: «لا أتوقف عن الدعاء لك ليلا ونهارا. يعلم الله أنني مازلت أحبك بكل مهجتي». وفي سنوات مجده، لم ينس أسرته، إذ أتى بأمه وأخويه وأسكنهم في قصره، بينما كان أبوه «رجلا عديم الجدوى والقيمة، سكيراً يتردد على الحانات وينام في الشوارع كالبهائم»⁽¹¹⁾.

(*) بعد أن ضم أمير الجزائر العثماني خير الدين بربروس تونس وطرد حاكمها مولاي حسن الموالي لإسبانيا في العام 1534، قاد كارلوس الخامس أسطولا مكونا من خمسة وعشرين ألف جندي لاسترداد المدينة في السنة التالية. وتلا الهجوم النصراني الناجح أعمال عريضة، هُدمت فيها المكتبات العامة والمساجد إلى الأرض، وذبح عشرات الآلاف من المسلمين الذين استسلموا في الشوارع أو أخذوا عبيدا. [المترجم].

ظل إبراهيم خلال معظم حياته المهنية يلقي دعم أم السلطان، وهي حماته حفصة، تلك المرأة القوية التي كانت لا تفارق ابنها إلا قليلا. وبعد موت حفصة في العام 1534 كشفت خُرْمُ عداوتها الضارية للصدر الأعظم، مدفوعة بغطرسته وتبذيره. نشر وزير المالية إسكندر جلبي افتراءات من قبيل طموح إبراهيم المفترض إلى تقاسم السلطنة. في إحدى الرسائل، سأل سليمان خُرْمُ عن سر سخطها على «الباشا». ردت خُرْمُ، الأذكي من أن تتهم إبراهيم وهي بعيدة عن السلطان، بلغة البلاط الإيجازية: «والآن تستفسر حول سخطي على إبراهيم باشا. سأخبرك إن شاء الله حين أنال شرف لقائك. لكن حاليا بلغ تحياتي للباشا، وأتمنى أن يقبلها»⁽¹²⁾.

وفي الخامس عشر من مارس 1536، تعشى إبراهيم مع السلطان كعادتهما، وقضى الليل في غرفة مجاورة. وفي الصباح التالي، وُجد جثمانه مخنوقا خارج القصر^(*). وأظهرت الندبات في وجهه ورقبته أنه قاوم بشدة. وظلت بقع دم إبراهيم المزعومة تعرض كتحذير على مدار السنوات المائة التالية. وبعد سنوات، اقترحت خُرْمُ وابنتها مهرماه أن يُسمح لزوج مهرماه الصدر الأعظم رستم بأن يدخل إلى الفناء الثالث ويتعشى مع السلطان، وأجاب السلطان بأن خطأ واحدا من النوع نفسه يكفي⁽¹³⁾. وبعد موت إبراهيم تراجع تذوق الترف والكوزموبوليتانية في القصر.

لم يكن التخلص من إبراهيم انتصار خُرْمُ الوحيد، ففي العقد الخامس من القرن السادس عشر، شكَّلت ثالوثا مع ابنتها مهرماه وزوج ابنتها رستم باشا ضد الأمير المحبوب مصطفى ابن غريمته السابقة ماه دوران. كتبت ابنة السلطان مهرماه إلى أبيها تصف مصطفى بـ«ذلك الكلب النابح». واقتنع السلطان بأن مصطفى كان يخطط للإطاحة به. في رسائل تالية استخدمت هذه الأميرة القوية التي تراسلت مع ملك بولندا أيضا، صيغة الأمر مع أبيها: «سلطاني اكتب ببعض الرقة أيضا، لكن في النهاية اكتب شيئا بقوة». وفي العام 1553، خنق ثلاثة من البُكم *mutes* مصطفى في خيمة أبيه⁽¹⁴⁾ ومات أخو مصطفى غير الشقيق الأحذب جيهانكير كمدا أو خوفا بعد شهرين.

(*) كانت لإبراهيم ألقاب كثيرة في حياته، منها إبراهيم باشا المقبول *Makbul Ibrahim Pasha* (بمعنى المقرب من السلطان) الذي تحول بعد موته إلى إبراهيم باشا المقتول *Makrul Ibrahim Pasha*. [المترجم].

قلب جنود الانكشارية قدور طعامهم غضبا لدى وصول أخبار مقتل مصطفى وطالبوا بجلد رستم باشا. كتب سفير الإمبراطورية الرومانية المقدسة بوسبيك: «في البداية لعنوا سليمان العجوز الخرف، ثم نددوا بخيانة زوجة الأب ووحشيتها وشر رستم، اللذين أطفأ النجم الألمع لبيت عثمان». وعبرت كذلك مرثية للشاعر الألباني يحيى بيه عن السخط الذي ساد العاصمة. وعندما لام رستم باشا على الشاعر أجابه الأخير: «إننا حقا أدناه مع الباديشاه لكننا بكيناه مع الناس» (*).

ومن أجل استرضاء الناس فصل سليمان رستم باشا. كتبت خُرْم إلى سليمان احتجاجا: «رستم باشا عبدك. فلا تحجب عنه وجهك الشريف يا ولي نعمتي. ولا تسمع إلى ما يقولونه. هذه المرة فقط، أعده من أجل خادمك مهرماه يا ولي نعمتي وإمبراطوري ومن أجل صالحك ومن أجلي أيضا يا سُلطاني المظفر»⁽¹⁵⁾. تعبر عبارة «هذه المرة فقط» عن الإلحاح وتكرار الطلب. وماتت خُرْم في العام 1558. وألقيت عليها اللائمة في سياسات زوجها، غير أنه حتى بعد موتها واصل سليمان مثل ساتورن التهام أبنائه (**). ففي العام 1561، قتل ابنا آخر هو بايزيد الذي حارب الأمير سليم على الخلافة، إذ خُنق مع أربعة من أبنائه بأوامر السلطان (***) . ومات سليمان في العام 1566، وعلى الرغم من اعتلال صحته، فرما عجل بنهايته قراره بالقيام بحملة عسكرية أخرى على المجر، وخلفه ابنه سليم (****).

وقع السلطان الجديد في عشق امرأة تدعى نوربانو Nurbanu (الأميرة نور)، وربما تزوجها، وهي امرأة طويلة سوداء الشعر والعينين دقيقة الملامح، أنجبت له ابنه (*). أي الأمير مصطفى. [المترجم].

(**) في الميثولوجيا اليونانية، كان كرونوس Cronous آخر سلالة العمالقة، خوفا من أن يطيح به أي من أبنائه من السلطة، يأكلهم لدى مولدهم، وهي الأسطورة التي صوّرها الرسام الإسباني فرانسيسكو غويا Francisco Goya في لوحة شهيرة باسم «ساتورن يلتهم ابنه». وعلى خلاف سليمان وأسلافه ونسله، نقل معاصر سليمان وغريمه كارولس الخامس السلطة إلى ابنه فيليب وهو لا يزال على قيد الحياة، ولم يشهد انتقال السلطة كل هذا الدم في إسبانيا، ربما بسبب وجود وريث واحد دائما. [المترجم].

(***) بعد قتل الأمير مصطفى وموت أخيه جهانكير حزنا عليه أو خوفا على نفسه، لم يبقَ من أبناء سليمان إلا سليم وبايزيد، اللذان عينا حاكمين لجزأين مختلفين من الإمبراطورية، واندلعت الحرب بين الشقيقين على الخلافة التي أعطاهما سليمان في حياته لسليم، واستطاع سليم بمساعدة جيش أبيه أن يهزم بايزيد الذي لجأ هو وأبنائه الأربعة إلى الصفويين الذين باعهم لسليمان في مقابل كمية كبيرة من الذهب، فأسلموهم إلى جلال عثماني خنق خمستهم على الطريقة العثمانية. [المترجم].

(****) مات سليمان في أثناء حصار مدينة سيكتوار المجرية في السابع من سبتمبر. [المترجم].

السلطان المستقبلي مراد الثالث. ظل حجاب السرية المضروب على الحريم قويا حتى وقت متأخر، وهو السبب في الغموض المحيط بأصل هذه المرأة التي يعتقد بأنها من البندقية تدعى سيسيليا فينير بافو Cecilia Venier Baffo، أسرها العثمانيون من جزيرة باروس Paros في بحر إيجه في العام 1527 في أثناء حربهم مع البندقية. غير أنها على الأرجح كانت نبيلة يونانية ثرية تدعى كالي كاستانوس Kale Kastanos أسرها العثمانيون من جزيرة كورفو Corfu خلال الحرب نفسها. وربما رؤجت هي نفسها الشائعات عن أصلها البندقي لانتزاع هدايا أعلى قيمة من الحكومة البندقية.

مات سليم الثاني من وقعة على الأرض في العام 1574، ربما كان مخمورا حينها، وهو يعاين بنايات جديدة في حمام الحريم. تكتمت نوريانو على خبر موت سليم واحتفظت بجثته في صندوق من الثلج إلى أن وصل ابنها مراد الثالث العاصمة من مانيسا بالأناضول التي كان يحكمها. وبعد أن أعلن مراد سلطانا، أعدم خمسة من إخوته غير الأشقاء، ودفنوا مع أبيهم بموجب قانون قتل الإخوة العثماني⁽¹⁶⁾.

كان مراد الثالث رجلا صغير الجثة وبدينا ومتغظرسا، له «عينان كبيرتان باهتان وأنف معقوف وبشرة حسنة اللون ولحية كبيرة شقراء». ومع اعتلائه العرش في العام 1574، وفي خطوة ذات أهمية رمزية، نقل مراد غرفة نومه وجناحه الخاص من عالم الذكور بالفناء الثالث إلى عالم النساء بالحريم على يسار الفناءين الثالث والرابع. كانت حاجته إلى غرفة نوم جديدة ماسة حتى إنه لم يكن مسموحا بصناعة قريضة أخرى في إزنيق إلى أن تنتهي صناعة جناح النوم الجديد للسلطان. وجاءت غرفة السلطان عبارة عن قاعة مقببة فخمة، جدرانها مبطنه بقرميد إزنيق الأحمر والأزرق والأخضر. توجد نقوش قرآنية على حزام من القرميد الأزرق والأبيض يطوق الغرفة، ومصاريع النوافذ مطعمة بعرق اللؤلؤ. كانت عادة السلطان مراد الثالث أن ينام في الحريم، وبعد أن يتناول إفطاره في وقت متأخر من الصباح كان يعود إلى عالم الذكور بالفناءين الثاني والثالث. وهناك كان يقابل الصدر الأعظم وأغا الانكشارية والباشوات وكبار الجنرالات الذين كانوا يحملون لقب بليرباي^(*)، ويستقبل السفراء. وكان يتعشى دائما في الحريم، لأن الوصال هناك كان يمتعه «إلى أقصى حد»، بتعبير دبلوماسي بندقي⁽¹⁷⁾.

(*) بليرباي Beylerbey: لقب عثماني بمعنى «باي البايات» أو «أمير الأمراء» كان يحمله كبار قادة الجيش وولاة الولايات الكبيرة الذين يرأسون في ولاياتهم أمراء لمقاطعات أصغر. [المترجم].



رسم مجهول، مراد الثالث، في نحو العام 1590 كان مراد الثالث واحدا من أوائل السلاطين الذين قضوا معظم وقتهم في العاصمة، بدلا من غرض الحروب على الجبهة. يلبس السلطان أحد القباطين اللغمة الباقية حاليا في متحف قصر توبكاي.

كان مراد الثالث أول من استن عادة السلطان الذي لا يبرح قصره. فمراد النهم إلى إشباع حاجاته وليس إلى الانتصارات العسكرية، لم يغادر القسطنطينية إلا قليلا. وبدأت القسطنطينية، والقصر نفسه ضمن المدينة، يغطي ضياؤها على بقية الإمبراطورية ويحجبها. ومع أن السلطان وقع في حب محظيته صفية Safiye، بيد أنه استسلم أخيرا إلى الإغراءات التي وضعتها في طريقه أخته أسمهان زوجة الصدر الأعظم محمد باشا صوكولو وأمه نوربانو. فمن خلال توفير الحسنات للسلطان، كانت السلطانة الوالدة والأميرات يؤدين واجبهن العائلي بزيادة عدد الأمراء. كتب موظف القصر إبان القرن السابع عشر بوبويسكي عن سلطنة أم لائحة: «كانت تبحث دوما عن البنات الجميلات لتقديمهن إليه». كانت الوجوه الجديدة من الحسنات يصبين القهوة للسلطان عندما يأتي لزيارة

أمه. وإذا وقعت عينه على إحداهن، فإنها كانت تسمى غوزده gozde التي تعني «في العين» (*). وإذا أراد إحداهن في مخدعه فإنه كان يخبر رئيس الخصيان الأسود (قصة اختيار السلطان للمحظية بإيقاع المنديل أمامها أسطورة لا أساس لها). وكانت بقية النساء يهنئن المحظية المفضلة الجديدة، وكن يرافقنها إلى الحمام ويلبسنها ويعطرنها ويزيّننها، ويسرن بها في النهاية على أصوات الموسيقى والأغاني إلى غرفة نوم السلطان. وبعد أن ينام السلطان معها، كانت تدعى «إقبال» Ikbal التي تعني مفضلة أو أثيرة. مع نهاية عهده، كان مراد الثالث قد فقد كل أشكال ضبط النفس وقيل إنه كان «ينام» مع امرأتين أو ثلاث في الليلة الواحدة، وإنه أنجب مائة طفل واثنين. وفي النهاية، بدأ السلطان يصاب بنوبات صرع⁽¹⁸⁾.

في عهد مراد الثالث إبان العقد الثامن من القرن السادس عشر، شهد الحريم زيادة في حجمه المادي وأهميته السياسية وأعداد نزيلاته. كان الحريم يتألف من شبكة من الغرف والممرات والأفنية: أفنية النساء والخصيان والسلطانة الوالدة والأثيرات والمستشفى. حظيت السلطانة الوالدة بجناح ملوكي يضم حماما وغرفة صلاة وغرفة طعام وقاعة عرش وغرفة نوم. وكان جناح السلطانة الوالدة الواقع في مركز الحريم يتمتع بوصول سهل إلى كل أجنحة الحريم، وكذلك إلى سجن الحريم الواقع تحت الحريم مباشرة.

كانت الغرف الثلاثمائة الأخرى صغيرة جدا، ربما لتسهيل عملية تدفئتها. وكانت مزينة بأبواب من المرمر وأسقف من الأرابيسك المذهّب وبلاط إزنيق. وكانت بعض تجاويف النوافذ مزودة بناפורات للتغطية على المحادثات الخاصة بصوت الماء المتدفق. وكانت النقوش المنحوتة على البلاط تعلن رسالة العظمة الإمبراطورية التي تستحوذ على المدينة. ففوق المدخل الأساسي إلى الحريم إلى جانب الديوان، يعلن نقش من عهد مراد الثالث أنه المدخل إلى حوريات الجنة اللاتي تسحر مفاتنهن الجنة أنفسها. ونقشت على البلاط بالداخل جمل مثل: «حفظ الله سلطان عثمان ... وجعل هذا الباب دوما الباب إلى انتصار الإمبراطور!»، «أجلس في صفاء أدامك الله إمبراطورا للعالم!»، «بنى القصر سعادة

(*) من معاني gozde في اللغة التركية «قرة العين» و«محبوبة». [المترجم].

السلطان أحمد- الإسكندر الثاني- بعد أن صممه بنفسه. يعطر هذا القصر الدماغ، وكل نفس ونسمة فيه هي أصفى مسك الحب وكهرمانه»⁽¹⁹⁾.

ومن العام 1574 حتى موتها في العام 1583، كانت أم مراد الثالث نوربانو الأولى بين السلطانات الوالدات العظيمات. ومع أن نوربانو كانت تعيش في قصر منفصل خارج أسوار المدينة، فقد كانت تسيطر على الحريم والسلطان، وفي ذلك قيل إن «كل الخير وكل الشر يأتي من الملكة الأم». ومن خلال كرائها kira اليهودية إستر Esther، احتفظت السلطانة الوالدة بالتواصل مع العالم الخارجي، وكتبت كثيرا إلى سفير البندقية في بيرا تطلب هدايا من الحرير والقماش المطرز والوئار. ومنذ أن ساعدت في الحفاظ على السلام بين البندقية والإمبراطورية العثمانية ورتبت فديات لأسرى الحرب، أخذ سفير البندقية يسارع إلى إرضائها. وتراسلت نوربانو أيضا بصفتها «الملكة السلطانة الوالدة للسيد الكبير» مع «الملكة الأم» كاثرين دي ميديشي حول المعاهدة بين فرنسا والإمبراطورية العثمانية^(*). تكشف الملحوظة التالية لها من العام 1583 النبوة المتجبرة للحریم والأهمية التي أضفتها نزلاته على الأشياء المادية أو الحيوانات: «أحيط علم سفير البندقية أنك أرسلت اثنين من كلاب الحجر^(**). ونحن الآن لا نريدهما، فقد كبر حجمهما وطال شعرهما، لذلك أحيط علما بأننا نريدهما بيضا وصغار الحجم!».

وفي العام 1582، كلّفت نوربانو التي نشأت مسيحية أرثوذكسية، كبير المهندسين المعماريين الإمبراطوريين سنان ببناء مسجد يشع ببهجة الدين، وهو جامع السلطانة الوالدة العتيق Atik Valide Cami الذي بُني فوق تل على أوسكودار. كان ملحقا بالجامع مستشفى وحمّام وخان وعمارة «للفقراء والبؤساء». ويمكن تحديد الدافع الأساسي لنوربانو من وراء هذا العمل إن كان التقوى أو الخيلاء من نص صك تأسيس وقف الجامع:

(*) كاثرين دي ميديشي Catherine de Medici (من 13 أبريل 1519 إلى 5 يناير 1589): سليلة أسرة نبيلة فلورنسية تزوجت من هنري الثاني ولي عهد فرنسا الذي اعتلى العرش في العام 1547، وبعد أن مات هنري الذي أهملها لحساب عشيقاته، هيمنت على الحكم في عهد ابنها الضعيف فرانسوا الثاني الذي تولى الحكم في العام 1559 وهو في عمر الخامسة عشرة، ومع وفاة الأخير في العام 1560 عُيِّنَت وصية على نجلها شارل التاسع بسلطات واسعة، وظلت مؤثرة بعد موته وتتويج ابنها هنري الثالث حتى آخر أيامها. [المترجم].

(**) كلب الحجر lap-dogs: كلب صغير يوضع على الحجر. [المترجم].

تنفيذا لرغبتها في نيل نعمة نظرة الله، خصصت السلطانة الوالدة من حر ممتلكاتها ومقتنياتها الأجزاء التالي ذكرها بالتفصيل في هذا الصك. وأمرت بنية خالصة صادقة خالية من الرياء والنفاق وبأنقى المقاصد، بتشديد الكثير من المصروح العظيمة والرائعة لفعل الخير.

كما بُني بجانب المسجد ثلاث مدارس لتعليم القرآن وتلاوته ودراسة الحديث «لأنها تولى اهتماما وتضفي قيمة كبيرتين على التعليم بغرض رفع شأن العلم وتعظيمه بين الشعب»⁽²⁰⁾.

تقبل أهل القسطنطينية والحكومة العثمانية سلطة السلطانة الوالدة التي كانت أحيانا لا تقل عن سلطة الملكة الأم كاثرين دي ميديشي وماري دي ميديشي^(*) وأن النمساوية^(**) في باريس. في مواقفهم المختلفة، كانت النساء الأربع يأمرن الرجال وساعدن في الحفاظ على سلطة أبنائهن. بصفتها أما، كانت السلطانة الوالدة رمزا للاستقرار والتراتبية. وبعد العام 1574، وبفعل مصادفة البيولوجيا العائلية، غدا السلاطين أحدث سنا وأقل اقتدارا من أسلافهم. وغدت السلطانة الوالدة، بدرجة لا تقل عن السلطان نفسه، تمثل هبة العائلة وسخائها، وفي بعض الأحيان آخر بقايا الفطرة السليمة. ويمكن وصف السلطانة الوالدة العثمانية بأنها «ملكة تاج البسطاء المحتجب» أو «أم كل المؤمنين».

بحلول القرن السابع عشر، كانت عائدات بعض أراضي التاج تخصص لوالدة السلطان، وكانت تتقاضى أعلى راتب في الإمبراطورية - أعلى من الصدر الأعظم - وهو ثلاثة آلاف أقة akces في اليوم، تزداد عليها الهدايا الكثيرة من السفراء والباشوات وابنها السلطان. وكانت قوتها تتجلى كثيرا في المدينة، فعندما عادت إحدى السلطانات الوالدات من زيارة إلى إدرة في العام 1668، دخلت القسطنطينية محاطة بما لا يقل عن خمسة آلاف من الجنود والخدم وبستانجية البلاط ورؤساء التشريفات والخصيان والعلماء وحاشية السلطان مدثرين بالعباءات المطرزة

(*) ماري دي ميديشي Marie de Medici (من 26 أبريل 1573 إلى 3 يوليو 1642): ملكة فرنسا زوجة هنري الخامس البوربوني. بعد اغتيال زوجها في العام 1610 الذي وقع في اليوم التالي لتتويجها، عُيِّنت وصية على عرش ابنها لويس الثالث عشر حتى بلوغه سن الرشد، عرف عنها المكائد السياسية في البلاط الفرنسي ورعايتها للفن. [المترجم].
(**) آن النمساوية Anne of Austria (من 22 سبتمبر 1601 إلى 20 يناير 1666): أميرة إسبانية وبرتغالية المولد، زوجة ملكة فرنسا ونافار ووصية على عرش ابنها لويس الرابع عشر، عرف عنها تدخلها في السياسة في أثناء وصايتها على العرش. [المترجم].

الحمراء. استغرق الموكب ثلاث ساعات حتى وصل إلى القصر. وعندما كان السلطان الجديد يعتلي العرش كانت أمه تؤخذ في موكب عام من القصر القديم الكائن في وسط المدينة إلى سراي النساء بالقصر الجديد. كانت السلطانة الوالدة تسير في مركبة تجرها ست جياد، يحيطها الخدم والحشم وحملة المطارد والانكشارية، ورمز مرئي للأمم، وتتبعها مركبة أصغر تُبعثر منها عملات معدنية على الحشود المبتهجة. وكانت تعطى هدايا لكل بيوت حراس الانكشارية على طول الطريق. وفي الفناء الخارجي للقصر كان ابنها السلطان ينتظرها لأداء التمنية^(*) ويقبل يدها من خلال نافذة المركبة⁽²¹⁾.

ثمة ثقب في الجدار يرمز إلى قوة الحريم، ففي تاريخ غير معلوم في أواخر القرن السادس عشر حفر ثقب مستدير في الممشى الذهبي في الحريم يطل على قاعة المجلس. ومنه كانت آخر المعلومات السياسية تصل الحريم حرفيا من خلال النافذة، قبل أن تصل إلى أي أحد، وبالطبع باستثناء كبار المسؤولين الحكوميين⁽²²⁾. من الصعب التثبت من الشكل المحدد لتأثير الحريم والغرض منه. وعلى أي حال، فقد اعتبر المراقبون العثمانيون والأجانب المعاصرون عهد مراد الثالث نقطة تحول في حظوظ الإمبراطورية العثمانية والحريم. وفي ذلك كتب المؤرخ مصطفى السيلانيكي Mustafa Selniki في نهاية القرن السادس عشر: «لقد تجاوز تفاخر الدولة الحد وزادت الأبهة الإمبراطورية، وبلغ الهدر والإنفاق المفرط مداه حتى إن الخزانة العامة لم تعد تكفي ... لم يعد أحد يهتم بشن حملة لوجه الله. ولم يعد الناس يرغبون في نعمة الاستشهاد». كانت بقايا الطعام والشراب في القصر، كما يذكر كاتب عثماني آخر هو مصطفى علي، «لا توصف ... وكان الجيل الفاسد من الطباخين والخبازين وخدم خزانة الطعام يلقون الحماية من أغوات فخامة الحريم ... كان بحر هادر يجتاح الباب العالي سرا أو علنا. وهناك يبدأ فيضان غزير من المشروبات الغالية في الانتقال جرة بعد أخرى من خزانة الطعام الإمبراطورية إلى غرف حراس القصر». كان القصر يستهلك يوميا نحو مائة وثمانية وستين كيلوجراما من اللوز ومائتين وأربعة وعشرين كيلوجراما من ماء الورد المعطر بالمسك. وإذا

(*) التمنية temenna: هي إيماءة التعبير عن الاحترام بوضع أصابع اليد اليمنى على الشفتين ثم الجبهة، وهي عادة لاتزال تلاحظ في بعض المجتمعات العربية. [المترجم].

حاول أحد الوزراء أن يكبح الهدر، كان الخدم يسرعون إلى السلطان باكين «لقد قطعوا الطعام المخصص لنا!»، فيبطل السلطان أمر الوزير⁽²³⁾.

كان سفير البندقية أكثر تحديدا، إذ قال إن «الحريم والخصيان يوجدون دائما حوله [مراد الثالث] وعادة ما تكون لهم الكلمة الأخيرة ... وليس له شخص ذو شأن يتحدث معه ... ولا يثق بأحد، وذلك لحكمة فيه، لأنه يعرف أن كل من يخدمونه يمكن رشوتهم بسهولة». فقد اشتهر باشوات أوائل القرن السادس عشر بأن توقعهم إلى المال كان أكثر من توق «الشياطين إلى قبض الأرواح». وفي عهد مراد الثالث بدأت الرشوة تلتهم صرح الإمبراطورية. كان شمسي باشا Semsî Pasha الشاعر المقرب من ثلاثة سلاطين ومن الصدر الأعظم محمد صوكولو، الأخير في عائلة كانت لها إمارة مستقلة بالقرب من البحر الأسود قبل صعود العثمانيين. كان شمسي يساعد مراد الثالث في الرد على العرائض التي تقدم إليه وهو في الطريق إلى صلاة الجمعة. في أحد الأيام شوهد يبتسم وهو خارج من القصر. وعندما سئل عن السبب أكدت إجابته أن الرعايا المسلمين أنفسهم كانوا من أشد أعداء العثمانيين: «أخيرا انتقمتم لعائلة كيزيل أحمد أوغلو Kizil Ahmedoglu من آل عثمان، فإن كانوا قد تسببوا في دمارنا، فإنني اليوم أعددت لدمارهم». وعندما سئل عما فعل من أجل هذه النتيجة، أجاب: «بالمشورة على السلطان بأن يبيع حظوته ... من اليوم سيكون السلطان نفسه مثالا للفساد، وسوف يقضي الفساد على الإمبراطورية»⁽²⁴⁾. لكن الباشا استخف بقدرة الإمبراطورية على التعافي.

في القصرين القديم والجديد، ارتفعت أعداد النساء سريعا من مائة وسبع وستين في العام 1552 إلى مائتين وثلثين في العام 1574، ثم إلى ثلاثمائة وثلث وسبعين في العام 1600، ثم إلى ستمائة واثنين وستين في العام 1622، ثم إلى تسعمائة وسبع وستين في العام 1652. وإلى جانب الزيادة بواقع ستة أضعاف في العدد، حدثت زيادة بواقع أربعة عشر ضعفا في الإنفاق. وإبان القرن الثامن عشر، تفاوت عدد النساء في الحريم بين أربعمائة وثمانمائة، لكنه ارتفع ثانية إلى ثمانمائة وتسع في العام 1870.

كان وجود الخصيان في الحريم لا يقل أهمية عن النساء أنفسهن. وفي العام 1605، ضم القصر مائة وأحد عشر خصيا⁽²⁵⁾. كان الصبية السود المشترون أو

المختطفون من السودان يؤخذون إلى أسبوط على النيل، وفيها، ومن أجل زيادة السعر السوقي لهؤلاء الصبية، كانوا يخصون على أيدي نفر من الأقباط، وذلك لأن الإخصاء Castration محرم في القرآن، ولأن المسلمين كانوا يخلون من أداء هذا العمل^(*). وكانوا يُشحنون بعد ذلك إلى القسطنطينية ويشترى للحريم من سوق العبيد الذي كان يقع بجانب البازار في وسط المدينة. وكانوا يُعطون أسماء رقيقة، ربما في تعارض مقصود مع مظهرهم، مثل زنبق أو زعفران أو حسون أو زمرّد. في منمنمات جنازات السلطانات الوالدات أو ختان الأمراء، تشكل وجوه الخصيان السود تضاربا جليا مع العمام البيضاء التي تعلو رؤوسهم والوجوه العثمانية البيضاء من حولهم. وعلى مدار ثلاثمائة وثلاثين عاما - من العام 1574 إلى العام 1908 - تمثل أحد أقوى الرجال في الإمبراطورية، وهو رئيس الخصيان السود، في شخص أفريقي. كان هذا الخصي الأفريقي، الذي لم يكن أقل تأثيرا من الصدر الأعظم أو المفتي، يسيطر على مالية الحريم، وبحلول القرن السابع عشر على مالية المساجد الإمبراطورية في القسطنطينية أيضا.

كان رئيس الخصيان يسيطر أيضا على الدخول إلى الحريم وعلى الانضباط بداخله، والدخول على السلطان نفسه. كتب بوبويسكي: «هذا المسؤول ... كان يتمتع أكثر من غيره بالوصول إلى الأمير والقرب منه في أي ساعة، حتى بعد أن يختلي الأمير بخليلاته»، و«يملك ألف حيلة لجعل السلطان ينفذ ما يريد». وكما كانت الحال مع كثير من موظفي القصر، كانت سلطة رئيس الخصيان تمتد أبعد كثيرا من المدينة. فكان يسيطر على أموال الأضرحة في مكة والمدينة، ومن العام 1645 إلى العام 1760 في مدينة أثينا. وبلغ الثراء بأحد رؤساء الخصيان السود حد أنه بنى ميناء جديدا على فم نهر الدانوب⁽²⁶⁾.

يذكر أحد أفراد الحاشية الناقمين أن الخصيان كانوا قادرين على نكاح النساء،

كتب مؤرخ القرن الثامن عشر علي سيدي بيه Ali Seydi Bey:

(*) كانت هذه العملية البشعة تجري بقطع ذكر الصبي المسكين ثم دهن الجرح بالقار ودفن الصبي في الأرض حتى رقبته، وكان من ينجون منها قلة، ولذلك كانت أسعارهم مرتفعة، وكذلك لأنهم كانوا يباعون لعلية القوم. [المترجم].

أنا شاهد عيان على أن هؤلاء الكفار السود خونة إلى درجة أن الواحد فيهم كان يمكن أن يقع في حب واحدة أو اثنتين من الجواري وينفق كل ما يكسبه عليهما، وأنهم كانوا يستغلون كل فرصة للاجتماع بهن سرا وممارسة الجنس معهن ... قد تتساءل: وهل الجواري اللواتي يقمن علاقات مع هؤلاء الخصيان السود يجدن متعة معهم؟ والإجابة هي أنه من المعروف في إسطنبول أن الجواري يجدن فيهم هذه المتعة. من ذلك أن اثنين من حملة المطارد Halberdiers في وحدتنا تزوجا من جارتين من القصر الإمبراطوري وطلقاهما خلال أسبوع عندما قالت كل جارية لزوجها: «إنني لا أستمتع بعلاقتي بك كما كنت أستمتع مع الخصيان السود»⁽²⁷⁾.

كان من الواجبات الأساسية للخصيان الإشراف على الأمراء الإمبراطوريين. استمر قانون قتل الإخوة الذي استنته محمد الثاني طوال القرن السادس عشر. وعندما جلس محمد الثالث على العرش في العام 1595، أتى بتسعة عشر من إخوة السلطان الجديد من الحریم، وقبلوا يد السلطان وخُتِنُوا، ثم خنقوا بمنديل حريري. قال أمير صغير كانت بيده جوزة يأكلها: «دعني أكل جوزتي واخنقني بعدها». وكما يذكر مؤرخ القرن السابع عشر العظيم أوليا جلبي، فقد انتزع طفل آخر من ثدي أمه وقتل، فخرج ابن أمه من أنفه في الوقت الذي خرجت فيه روحه من فمه. في ذلك اليوم خرج من القصر تسعة عشر تابوتا صغيرا خلف تابوت أبيهم السلطان الراحل. وكانت زوجات السلطان الراحل وبناته يؤخذن بعد ذلك إلى القصر القديم في وسط المدينة الذي كان يعرف لذلك باسم «قصر الدموع». وكان الموكبان يسيران على مرأى من أهل المدينة. كتب أوليا: «كانت الملائكة في السماء تسمع نحيب أهل إسطنبول وعويلهم»^(*). وعلى خلاف ذلك، كانت الروابط العائلية بين عامة الناس، وفقا لوصف لاحق لأحد سكان المدينة، قوية في مشاعرها وتقوم على الحب والإخلاص⁽²⁸⁾.

وبعد العام 1607، أدى الخوف من انقراض العائلة إلى تغيير في السياسة (على الرغم من أن أسباب ذلك لم تسجل كما هي الحال مع كثير من قرارات الحكومة

(*) من هنا جاء في خطاب العرش الذي ألقاه هنري الخامس على إخوته:

إخوتي أراكم همزجون الحزن بشيء من الخوف.

إنه البلاط الإنجليزي، وليس التركي

وعلى أي حال، فإن الحروب على الخلافة على العرش التي وصفها شكسبير في مسرحياته التاريخية هو تحديدا ما أريد بقانون قتل الإخوة أن يعول دونه. علاوة على أن عائلات لانكستر ويورك وتيودور - كما تبين المسرحيات - بلغت لاحقا معدلات الإعدام العثمانية تقريبا. [المؤلف].

الحريم والحمامان

العثمانية). فأفسح قتل الإخوة المجال إلى سياسة سجن الأمراء في أجنحة داخل الحريم الإمبراطوري، وهي سجون مترفة. وتحت حراسة الخصيان الذين كانوا يعلمون هؤلاء الأمراء تعليما عثمانيا رسميا فضلا عن حرف مثل صنع الخواتم العاجية أو التطريز. وفي عزلتهم ليس عن العرش فقط، بل أيضا عن العالم الخارجي، كانت تسلي الأمراء جوارٍ معقمات^(*). وبعد ذلك أصبح من يخلف السلطان ليس أول من يستولي على القسطنطينية من أبنائه، بل أكبر الذكور سنا في العائلة.

وإلى جانب الخصيان، كان يسكن الحريم أيضا البُكم والأقزام الذين كانت إعاقتهم الجسدية تجعل منهم - في نظر السلطان - خدما أو مهرجين ممتازين. وفي إحدى المرات إبان القرن السابع عشر، قُدمت للسلطان ظاهرة فريدة: خصي قزم أبكم. ومنذ دخول هذا الخصي، أصبح الحريم الإمبراطوري جنته. فنظرا إلى حظوته عند كل من السلطان والسلطانة الوالدة، كان بمقدوره أن يذهب إلى حيث يشاء، «مرتديا أثوابا ثمينة»، و«لا ينقصه أي شيء»⁽²⁹⁾.



رسم مجهول، حفلة أقيمت للسلطانة الوالدة في القصر بحضور مدام جيراردين Madame de Glardin (زوجة سفير فرنسا التي كُلِّفت برسمها في المكان وأخذتها إلى باريس، في نحو العام 1689. على اليسار، يوجد خصي أسود، ونساء وأقزام يرقصون ويعزفون الموسيقى ويقدمون المربطات. كان ميسو جيراردين سفيراً لفرنسا من العام 1686 إلى العام 1689، وهي فترة اتحد فيها البلدان على عداء النمسا.

(*) بمعنى أن هؤلاء الجوارى كان يتم تعقيمهم لمنع الإنجاب من الأمراء السجناء، ليكون بذلك - من بعض النواحي - المقابل النسائي لوظيفة الخصيان، فالآخرين يعرضون الحريم بلا خوف منهم عليهن، والأوليات يمتنع الأمراء السجناء بلا خوف من أن ينجن لهم أطفالا. [المترجم].

كان الحريم ماكنة لإعادة إنتاج العائلة، حتى ضد إرادة السلطان. وكانت أيضا مدرسة يشبه نموذجها مدرسة الغلمان، في أنها تنشئ نخبة تتوافر فيها الموهبة والولاء. كانت التلميذات فيها يتعلمن آداب السلوك والخياطة والموسيقى وفن التسلية والإمتاع والقراءة والكتابة، وإن لم يكن تعليم الأخيرتين جيدا دائما كما يتضح من أدلة الخطابات الباقية. وإذا فشلت الواحدة منهن في لفت انتباه السلطان، فإنهن كن يساعدن في إدارة الحريم. كانت المسؤولات الكبيرات يسمين «الأسطى» أو «القلفة»^(*)، وهما الكلمتان عينهما اللتان كانتا تستخدمان في الطوائف لأرباب الحرف. كانت القلفة بردائها المبطن بالفراء وذيلها وغطاء رأسها الكبير المزين وقبقابها العالي الرنان، وعصا طقوسية في يدها تشير إلى منصبها، كانت تبدو مسؤولة قوية جدا، وكانت كذلك حقا. وتحت القلفة كانت توجد المساعدات وهن الجواري اللاتي كن يقمن بالعمل في الغرف والأجنحة وحجرة غسل الملابس وغرف الخزين وغرف الغلي والمستشفى، فضلا على الإشراف على ولادة أطفال السلطان وتربيتهم⁽³⁰⁾.

بفضل ميكانيكي إنجليزي يدعى توماس دالام Thomas Dallam، نستطيع أن ننظر من خلال ثقب المفتاح ونرى سيدات الحريم. وصل دالام إلى القسطنطينية في العام 1599 مُرسلا من قبل الملكة إليزابيث الأولى بأرغن هدية للسلطان. طُلب منه أن يركب الأرغن Organ في الفناء الرابع للقصر. وهناك أراه جندي الانكشارية المرافق فتحة مُشبَّكة في الحائط يستطيع من خلالها أن يرى سيدات الحريم. كن يلعبن بكرة:

للوهلة الأولى، اعتقدت أنهن شبانا، لكنني عندما رأيت شعر رؤوسهن
يتدلى على ظهورهن مضفرا برباط من اللآلئ الصغيرة معلقا في نهايته وغير
ذلك من الحلي البسيطة، عرفت أنهن نساء، بل حسناوات بالفعل. لم يكن
يلبسن على رؤوسهن شيئا سوى قبعة صغيرة من القماش الذهبي، لم تكن
تغطي غير قمة رؤوسهن، ولا طوق حول رقابهن ولا أي شيء غير سلاسل

(*) ربما تكون الكلمة التركية kalfa التي تعني حرفيا العريف أو شيخ الصنعة، الأصل للكلمة التي كانت تستخدم حتى وقت قريب في العامية المصرية، وربما لاتزال، «قلفة» مع نطق القاف ألفا، على طريقة المصريين، كما في قولهم «ألفة الفصل» بمعنى الطالب رئيس الفصل. وكذلك كلمة «أسطى» usta لاتزال شائعة الاستخدام في مصر وبعض الدول العربية التي كانت جزءا من الإمبراطورية العثمانية. [المترجم].

جميلة من اللؤلؤ وجوهرة تتدلى على صدورهن وجواهر في آذانهن، وكانت ستراتهن تشبه سترات الجنود، بعضها من الحرير الأحمر، وبعضها من الأزرق، وبعض الألوان الأخرى مربوطة بنطاق من لون متضارب، وكن يلبسن سراويل من قماش ناعم من الوبر القطني بيضاء مثل الثلج ورقيقة مثل الشاش، حتى إنني استطعت أن أثبت بشرة أفخاذهن من خلالها.

وأخيرا جره الجندي بعيدا، «وعلى الرغم من أن ما فعلته سلوك منفر، فإن المنظر أسعدني وأذهلني تماما».

بعد تسع سنوات في الخدمة، كانت النساء اللاتي لم «يلاحظهن» السلطان يستطعن أن يتركن القصر ويتزوجن، إن طلبن ذلك رسميا. وكان تعليمهن وعلاقاتهن يجعلان منهن عرائس مرغوبات. في نهاية الإمبراطورية كتب أحد المعلمين: «عندما رأيت سلوكهن ولطفهن الرائع، أدركت السبب الذي يجعل الباشوات يفضلون دائما أن يتزوجوا نساء خدمن في القصر»⁽³¹⁾.

لم تكن خُرْم ولا نوربانو أقوى امرأة حكمت الحريم، بل السلطانة الوالدة كوسِم Kosem الثفانة والطموحة (اسمها يعني إما «صلعاء» أو «قائدة»، لأنها ذات صباح كانت البنت الأولى في طابور في استقبال السلطان). ولدت كوسِم في نحو العام 1589، ربما لكاهن يوناني على جزيرة تينوس Tinos، وكانت زوجة السلطان أحمد الأول الذي بنى الجامع الشهير الذي يحمل اسمه. وبرغم الإغراءات المتوافرة، والضغوط من أمهاتهم، نجح عدة سلاطين في التمتع بعلاقات حب أصيلة. في حياة أحمد، كان يقال «إنها [كوسِم] تستطيع أن تفعل أي شيء تريده مع السلطان، وإنها تمتلك قلبه تماما، وإنه لا يرفض لها طلبا». وبعد أن أبعدت إلى القصر القديم عند موت السلطان أحمد في العام 1617، عادت إلى القصر الجديد بصفتها السلطانة الوالدة عندما اعتلى ابنها الشاب مراد الرابع العرش في العام 1623.

من قاعدة سلطتها في الحريم، ساعدت كوسِم المسؤولة عن ابنها السلطان^(*)، في تثبيت أركان الحكم من خلال صهر معظم الذهب والفضة الموجودين في القصر لدفع رواتب الجند. كانت مصالح السلطان تهدد أحيانا مصالح عائلته. من ذلك

(*) بعد موت زوجها، مارست السلطانة كوسِم (من نحو 1590 إلى 3 سبتمبر 1651) السياسة من خلال ابنها مراد الرابع ثم ابنها إبراهيم الأول «الملجنون» وأخيرا من خلال حفيدها محمد الرابع، وكانت من أقوى النساء في التاريخ العثماني. [المترجم].

أن مراد الرابع عندما أصبح رجلاً، عاد إلى إرث قتل الإخوة، وأمر بقتل شقيقين له للتخلص من المنافسين. ومنعته أمه من قتل أخيه المتبقي إبراهيم من خلال إقناعه بأن إبراهيم مجنون ولا يمكن أن يشكل تهديداً. بيد أن كثيراً ما كانت السلطنة الوالدة تجد صعوبة في السيطرة على كل من السلطان والإمبراطورية. من ذلك أنها كتبت إلى الصدر الأعظم: «لا بد أن نفعل أي شيء في اليمن، فهي الباب إلى مكة. يجب أن تفعل كل ما تستطيع ... فولدي يخرج في الصباح ويرجع في الليل، ولا أراه قط. أريده أن يبتعد عن البرد، لأنه سيمرضه ثانية. لا أخفيك أن حزني على ابني يدمرني. تكلم معه عندما تأتيك الفرصة». وعندما أصر ابنها على الذهاب إلى ساحة الألعاب لمزاولة الرياضة العثمانية المفضلة «الجريدة» أو رمي الرمح من فوق ظهر الفرس^(*)، قالت: «ماذا بوسعي أن أفعل؟ لقد أصبح كلامي مُراً عليه. ليبقى على قيد الحياة فقط، لأن بقاءه حيوي بالنسبة إلينا جميعاً. وأنا عندي مشكلات لا تحصى لا أستطيع أن أشرع في كتابتها جميعاً». وبعد عهد وحشي لكنه ناجح، مات مراد الرابع في العام 1640^{(32)(**)}.

في بادئ الأمر، كان وريثه إبراهيم مرعوباً من مغادرة غرفته في الحريم. وإلى أن أمرت كوسم بأن تعرض عليه جثة أخيه، ظل مقتنعاً بأنه مأخوذ إلى الخنق، وليس التنصيب. وفي عهده بلغ الحريم ذرى جديدة من الترف في العطور والمنسوجات والجواهر. دفع إبراهيم ولعهُ بالنساء والفراء إلى تخصيص غرفة مبطنة كليا بفراء الوشق والسمور حتى «يختلي» فيها. وساعدت كوسم في تزويده بالعذارى والنساء السمينات. وعندما فترت قوته، اقتصر على امرأة جديدة كل يوم جمعة. وفي خرق لتقاليد العائلة، تزوج إبراهيم محظية في مراسم عامة، حيث عمل رئيس الخصيان السود وكيلا لها والصدر الأعظم وكيلا عن السلطان. كان إبراهيم غريب الأطوار حتى إنه هدد صدره الأعظم بحشوه بالتبن إن لم يستعد هدايا قدمها السلاطين السابقون إلى قبر النبي في المدينة المنورة، وكان يشرب قهوة بطعم الكهرمان لتهديئة أعصابه⁽³³⁾. وانزلت الحكومة في عهده إلى حالة من الفوضى. وقطع جنود

(*) اسم الرياضة jirid مأخوذ من جريدة التخل. [المترجم].

(**) كان مراد الرابع آخر السلاطين المحاربين، فقد جيوشه في الحرب ضد الصفويين وغزا أذربيجان وريفان وتبريز وهمدان، واستعاد بغداد من الصفويين بعد حصارها وبعد أن أمن أهلها الذين أعمل فيهم القتل برغم ذلك، حتى قيل إن ألفاً من جلادي مراد كانوا يقطعون ألف رأس من الأسرى بالتزامن أمام مراد الذي سُرَّه المشهد. [المترجم].

الانكشارية الغاضبون من تأخر رواتبهم الذين تجرأوا بسبب ضعف الحكومة، جسد صدر أعظم سابق وبيعه في الشارع (*).

كان على السلطنة الوالدة أن تتصرف، فاجتمعت كوسم بكبار الوزراء في مدخل الحريم، وهي ملفوفة من رأسها إلى قدميها بالحرير الأسود، بينما يقوم خصي أسود كبير بالتهوية عليها بمروحة كبيرة. خاطبها أغا الانكشارية قائلا: «سيدي الكريمة، لقد أصبحت الإمبراطورية في خطر بسبب حماقة الباديشاه وجنونه، فأخذ الكفار أربعين قلعة على حدود البوسنة ويحاصرون الدردنيل بثمانين سفينة، بينما لا يفكر الباديشاه إلا في المتع والملذات وبيع المناصب. وأصوات الزمر والأبواق والفلوت الخارجية من القصر تغطي على الأذان للصلاة الصادر من مآذن آيا صوفيا»، وهذا الأخير كان الهاجس الدائم في القسطنطينية العثمانية⁽³⁴⁾.

وأخيرا، وافقت كوسم على عزل ابنها. ولم يكن لديها وازع من أسف لأن ابنها حاول أن ينفيها إلى رودس (التي كانت - إلى جانب قبرص ومصر - منفى معتادا من العاصمة العثمانية)، وأجبر بناتها الأميرات على خدمة محظيته المفضلة بحمل الصابون والماء لها. وفقا لإحدى الروايات، قدمت كوسم ابن السلطان الأمير محمد ابن السابعة من العمر إلى المجلس قائلة: «ها هو ذا! فانظروا ما يمكن أن تفعلوه معه!» وبفتوى مساندة من مفتي القسطنطينية، عزل إبراهيم وخنق لاحقا. وحين اقترب الجلاد من إبراهيم كانت كلماته الأخيرة: «أليس بين أولئك الذين أكلوا خبزي مَنْ يشفق بي ويدود عني؟ لقد جاء هؤلاء الرجال القساة لقتلي. الرحمة! الرحمة!». كان من أمارات قوة الشخصية التي تمتعت بها كوسم أنها ظلت السلطنة الوالدة بدلا من تورهان Turhan أم السلطان الجديد محمد الرابع. وفي العام 1651، في أوج مجدها، أمرت كوسم التي باتت تعرف باسم السلطنة الجدة، وبما يتفق مع طبيعتها العملية، ليس ببناء جامع، بل ببناء أكبر خان في المدينة، هو خان السلطنة الجدة كثير القباب القريب من البازار الكبير. كان هذا الخان، المبني حول ثلاثة أفنية والمكوّن من ثلاثة طوابق، كبيرا إلى درجة أنه كان يسع ثلاثة آلاف مسافر.

(*) هذا الصدر الأعظم هو حافظ أحمد باشا الذي قتل في 8 أغسطس 1648 وقطعت جثته أشلاء حتى سمي بعد ذلك أحمد باشا «الألف قطعة». [المترجم].

نالت كوسم حب أهل المدينة بسبب أعمالها الخيرية الكثيرة. فكانت تعتق الجواري بعد سنتين أو ثلاث في الخدمة، وتعطيهم مهورا وسكنا مؤثنا لتمكينهن من الزواج. وفي شهر رجب، كانت تخرج من القصر متنكرة وترتب بنفسها إطلاق سراح المسجونين الغارمين وسداد ديونهم⁽³⁵⁾. وفي حال ضرورة حضور السلطان اجتماعات المجلس، كانت كوسم تجلس بجانبه تحجبها ستارة. وكانت صراحتها تفوق تعقلها. فكانت تنتقد الوزراء في وجوههم بنبرة تاتشيرية صريحة. ومن ذلك قولها لأحد الوزراء: «هل عينتك وزيرا لكي تقضي وقتك في الحدائق ومزارع الكرم؟ كرس كل جهدك لشؤون الإمبراطورية، ولا أريد أن أسمع المزيد حول تصرفاتك!»⁽³⁶⁾.

وفي النهاية، وكما في حالة ويست مينستر في العام 1990، تحول ولاء الناس إلى جلادهم^(*). كان لأعداء كوسم حليف وحيد داخل الحريم، هو والدة السلطان تورهان، المرأة التي اكتشفتها كوسم وقدمتها بنفسها إلى إبراهيم^(**). ربما كانت كوسم تخطط لتعزيز سلطتها بعزل ابن تورهان محمد وتتويج أخيه الأصغر سليمان الذي اعتبرت أمه أكثر انقيادا لها من تورهان. هكذا قال أحد عبيد كوسم لتورهان. وسرت شائعة، ربما أطلقها رئيس الخصيان السود، تقول إن كوسم تريد أن تخنق الباديشاه. وفي الثاني من سبتمبر 1651، طاردها الخصيان والغلمان الغاضبون في الحريم. وحاولت جارية مخلص أن تنقذ سيدتها بالقول «أنا السلطانة الأم!» لكنهم لم ينجحوا. ويقال إن كوسم اختفت في دولا ب في حائط تحت سلم في جناح السلطانة الوالدة. لكن فضحتها قطعة من ثوبها كانت بائنة من تحت الباب، فرآها أحد حملة المطارد، الذي خنقها بستارة. صارعت كوسم حتى تفجر الدم من أذنيها وأنفها ولوّث ملابس القاتل. تركت «الوالدة المذبوحة»، كما باتت تعرف، ألفين

(*) على الرغم من كل نجاحات تاتشر التي تعد أحد أبرز السياسيين الإنجليز والعالميين في القرن العشرين، فقد أثرت سياساتها الضريبية وموقفها من الاتحاد الأوروبي على شعبيتها، ما دفع نائبها جيفري هاو Jeffery Howe إلى الاستقالة والترشح أمامها في انتخابات الحزب والفوز عليها في الجولة الأولى، بعدها قدمت تاتشر استقالتها من دون أن تدخل جولة الانتخابات الثانية. [المترجم].

(**) بسبب قانون قتل الإخوة، ولأن مراد الرابع قتل إخوته الأربعة، ولم ينج إبراهيم من يده إلا توسل أمهما بأنه مجنون ولا خوف منه على العرش، فقد كان إبراهيم الذكر الوحيد المتبقي من آل عثمان، لذلك شجعت أمه كوسم على التردد على الحريم وكانت تزوده بالجميلات. منهن تورهان خديجة Turhan Hatice التي أنجبت له (السلطان) محمد الرابع، وصالحة ديل العشب Saliha Dil-Asub التي أنجبت له (السلطان) سليمان الثاني وخديجة معزز Hatice Muazzez التي أنجبت له (السلطان) أحمد الأول. [المترجم].

وسبعمائة شال وعشرين صندوقاً من الذهب وسمعة باقية في المدينة بتقواها وكرمها. وعندما علم أهل القسطنطينية بموتها، دخلوا من تلقاء أنفسهم في حداد لثلاثة أيام⁽³⁷⁾.

لم يأت بعدهما سلطنة والدة في قوة كوسم أو نوربانو. وعلى أي حال، فإن أحد الرموز الباقية لهذه الفترة المعروفة باسم «سلطنة النساء» التي كانت سلطة السلطانات الوالدات فيها لا تقل عن سلطة السلطان، يتمثل في جامع السلطنة والدة الكبير والرائع على القرن الذهبي. لا يقع هذا الجامع على حافة المدينة مثل المساجد السابقة التي كُلفت ببنائها نساء العائلة، بل يقع في قلبها التجاري بين الميناء والبازار. أنشأت هذا الجامع السلطنة صفية التي كانت السلطنة والدة من العام 1595 إلى العام 1603 وقيل إنها كانت تبيع منصب الصدر الأعظم كما تريد. بدأ العمل في الجامع في العام 1597، ثم توقف في العام 1603 مع موت صفية، ولم يكمله غير تورهان في العام 1660. لا أحد ينتقل بين غَلَطَة وإسطنبول تفوته رؤية هذا الصرح.

نادرة هي الخطابات أو القصائد أو المذكرات التي نشرت لنساء إسطنبول اللاتي كن يعشن خارج الحريم الإمبراطوري، ما يفرض صعوبة جمة على تصوير حياتهن. وإبان القرن التاسع عشر فقط، بدأ الكثير من الأصوات الفردية يتردد. كان الزواج الهدف الأهم للنساء. وكان الزواج يبدأ، وفي بعض الحالات ينتهي، في الحمام. فوفقاً لتعاليم القرآن، كان التطهر جزءاً لا يتجزأ من التقوى. وكان كل حي بالمدينة يضم حماماً عاماً يتألف من سلسلة من الغرف المرمرية المقببة تحوي مغاطس وفسقيات ساخنة وباردة، تخصص للنساء في أيام معلومة من الأسبوع، ولعله من اللافت للانتباه في هذا الصدد أن خُرُم بنت حماماً مزدوجاً رائعاً بين آيا صوفيا وجامع السلطان أحمد، كان يستقبل الرجال والنساء في الوقت عينه في قسمين منفصلين ومتناظرين تماماً. وإجمالاً، ضمت المدينة نحو مائة وخمسين حماماً.

أنتجت هذه الصروح المرمرية حياة اجتماعية قائمة على الاستحمام والتدليك والمحادثة تشبه ثقافة الشاطئ بكاليفورنيا. وكما هي الحال في حمامات المياه المعدنية الغربية المعروفة باسم سبا spa، كانت الصحبة دافعا لا يقل أهمية عن

دافع الإصحاح بالنسبة لمرتا دي الحمامات. كانت المرأة الغنية تذهب إلى الحمام العام مرة واحدة في الأسبوع على الأقل، حتى لو كان عندها حمام في بيتها. وكانت المرأة لدى دخول الحمام، تتولى الخادومات العناية بها بالمناشف والفرش والحناء والكحل وقطعة من الصابون الكريتي وقبقاب حمام مطعم بعرق اللؤلؤ. أصبحت زيارات الحمام حفلات يأتون فيها بالطعام والحيوانات الأليفة، ويمكن أن تدعى إليها الصديقات والموسيقيات. وبعد الحمام والتدليك، كانت النساء بقمصان داخلية فقط ينتفن حواجبهن، ويحنن شعرهن، وأحيانا أقدامهن وأيديهن. يوجب المذهب الحنفي الذي يتبناه الأتراك إزالة الشعر من كل أجزاء الجسم: الأذنين والخياشيم والسيقان والآباط. وكانت النساء يستخدمن عجينة خاصة لإزالة الشعر مصنوعة من شراب السكر أو من الليمون والزرنيخ⁽³⁸⁾.
ثمّة وصف نابض بالحياة لعالم الحمام الذي يختلف كلياً عن عالم المدينة خارجه، قدمته ليدي ماري ورتلي مونتغو Mary Wortley Montagu زوجة السفير البريطاني في العامين 1717 و1718، وهو وقت كانت تتحول فيه الإمبراطورية من الحرب إلى المتعة.

كانت الصوفات الأولى مغطاة بوسائد وسجاد فخم تجلس عليها السيدات^(*)، وعلى الصوفات الثانية كانت تتبعهن جواريهن بلا تمييز للمكانة عن طريق الملابس، لأنهن جميعاً يكن في حالة الطبيعة، أي عاريات تماماً من دون حجب أي من مفاتهن أو عيوبهن. ومع ذلك فلم تظهر أي ضحكة خليعة أو إيماءة بذئنة بينهن ... والكثير من النساء الجميلات عاريات تماماً، في أوضاع مختلفة، بعضهن يتجاذبن أطراف الحديث، وبعضهن يعملن [خياطة]، وبعضهن يشربن القهوة أو الشرابات، بينما تنهمك جواريهن (بنات جميلات معظمهن في عمر السابعة عشرة والثامنة عشرة) في تضيف شعرهن بعدة طرق جميلة. إنه بإيجاز مقهى النساء الذي تُتبادل فيه كل أخبار العالم وتختزع الفضائح وما إلى ذلك. وهن عموماً يأخذن هذه التسلية مرة في الأسبوع ويبقين في المرة الواحدة أربع ساعات أو خمسا على الأقل⁽³⁹⁾.

(*) الصوفا sofa العثمانية - كما سيرد لاحقاً - لا يشترط أن تكون أريكة أو قطعة أثاث، بل قد تكون جزءاً من الأرضية مرتفعاً بقدماً أو اثنتين عن بقية الغرفة، كما كان ديوان الباب العالي نفسه قبل أن تنتشر التأثيرات الأوروبية. [المترجم].

في أثناء الاسترخاء في الحمام، كانت الأم تستطيع أن تسأل صديقاتها عن عروس مناسبة لابنها أو أن تختارها بنفسها (على الرغم من أن بعض الأمهات كن يعتمدن على خاطبات محترفات يتنقلن من بيت إلى بيت). وبعد ذلك، كانت تحدث زيارات طقوسية إلى عائلة البنت، للتعرف على جمالها واختبار مهارتها في التطريز وعمل المربي وغيرها من ضرورات الحياة. وإذا أعجبت الأم بالعروس، فإنها في هذه الحالة تخبر ابنها عنها. وإذا حدث وفاق، فإن الشاب يرسل هدية إلى العروس: شال أو رداء مطرز أو ألماس. وكان قبول الهدية يعني الارتباط والخطبة.

وقبل يومين أو ثلاثة من الزواج، كانت عائلة العروس تستأجر الحمام ليوم كامل. وتأتي الصديقات إلى بيت العروس ويشاهدن الراقصات ويستمعن إلى الموسيقى والقصص البذيئة ribald. وفي اليوم السابق على الزفاف، الذي عادة ما يكون يوم الأربعاء، وفي إشارة إلى انتقالها من حياة العزوبة إلى الحياة الزوجية، تقام للعروس حفلة حناء في البيت، تدعى إليها ضيفات يرتدين أفضل ما لديهن من الفساتين الحريرية والمخملية. كانت العملات المعدنية تُنثر على رأس العروس في إشارة إلى الغنى والوفرة. وكانت صديقات العروس يحملن شموعاً مثبتة في صواني الحناء ويسرن جيئة وذهاباً بين البيت والحديقة ويغنين أغاني حول ليلة الزفاف التالية:

ألواح الغرفة الجديدة .. يا ليلي

تشعل الشموع بالذهب والفضة .. يا ليلي

لم أتمن ذلك منك .. يا ليلي

هل تتحقق الأمنية .. يا ليلي (*)

ثم تقوم حماة العروس بوضع الحناء في يدي العروس وتؤدي الغجريات رقصة وصفتها في العقد الثامن من القرن التاسع عشر سيدة تدعى ليدي بلنت Lady Plunt زوجة تاجر بريطاني في العاصمة العثمانية بأنها «منفلتة وفاحشة».

وفي صباح يوم الخميس، ترتدي العروس بهارجها وتغطي بالجواهر وتتسلم من أبيها زناراً يرمز إلى مكانتها الجديدة كأمراة متزوجة. وتقوم امرأة تدعى الباشليكجية bashlikci بإعداد غطاء رأس العروس من الجواهر والزهور قبل أيام من ليلة الزفاف. قُتلت امرأة باشليكجية عُرف من حجم بيتها أنها «نصف قسطنطينية»

(*) لاتزال كلمة «ليل» تتكرر في الأغاني والمواويل العربية. [المترجم].

سُرقة جواهرها. وفي يوم الزفاف يجتمع أصدقاء العريس وأقاربه في بيته. وبعد أن يطلقوا النار في الهواء، يسرون إلى بيت العروس يسوقون حمارا. وهناك توضع العروس المحجبة كليا فوق الحمار ويسرون بها في موكب إلى بيت العريس يضم مهرجين وأناسا آخرين يحملون جهاز العروس وسعفة الزفاف. وفي بعض الحالات كان أفراد من عائلة العروس يعملون في جهازها منذ يوم مولدها، وكان الجهاز يحتوي عادة على سجادة صلاة ومراة فضية وقبقاب حمام وصناديق من خشب الجوز. وفي البيت الجديد، كان جهاز العروس يوضع للعرض على الضيوف.

كانت العائلات الغنية تحاول أن تباري فخامة جهاز العروس الإمبراطوري. من ذلك أن أحد الباشوات صمم أن تخرج ابنته بجهاز لا يمكن لأحد أن يتكلم فيه بالنقص. صنع الباشا لابنته تاجا من الذهب المصمت. وتخفى في مكان قريب ليسمع إطراء الناس، لكنه سمع امرأة عجوزا تقول: «كله مظهر خادع! كله مظهر خادع!» وعندما اندفع الأب ليسألها عما تعنيه، قالت: «لقد نسيت الملقاط!».

كانت الموسيقى والراقصات والمربطات تقدم في كل من الحرملك (جناح النساء) والسلاملك (جناح الرجال) في بيت العريس. وفي نحو الساعة التاسعة مساء، ينتقل الإمام بين العريس والعروس ويعلنهما زوجا وزوجة. «بعد ذلك تقاد العروس وحدها إلى غرفة العرس وتترك وحدها. وفي النهاية، يأتيها العريس ويلتمس الإذن بأن يرفع حجابها ويمتدح ناظره بجمالها. وتتمنع العروس مرارا وتكرارا، لكنها تستسلم في النهاية. ويبدأ في تقبيلها». وتدخل العروس عالما جديدا⁽⁴⁰⁾.

هل كانت السعادة في انتظارها؟ يبدو أن معظم النساء كن يتقبلن فرحات العالم المغلق للعائلة الذي يلتزم فيه بطلبات التنظيف والطبخ وتربية الأطفال، وذلك جزئيا لأن مكانة المرأة ترتفع عندما تتزوج. وحتى فرص العمل خارج البيت، في الخدمة المنزلية على سبيل المثال، كانت تلقى منهن الرفض. كان الحریم في البيوت الخاصة أصغر كثيرا من الحریم الإمبراطوري، لأن الأفراد العاديين كانوا لا يتوافرون على ثروة السلطان وحاجة العائلة الحاكمة إلى ضبط البيولوجيا وضمان التناسل. لكن لا شك في أن البيوت الخاصة في القسطنطينية كانت تسع بين جدرانها كثيرا من النساء المعشوقات من أزواجهن مثل حُرْم سلطان، والمتسلطات مثل نوربانو وكوسم.

كانت القسطنطينية جنة للرجل الغني الذي يشتهي النساء ويحب التنوع فيهن. كان بعضهم يغير الزوجات كثيرا، أو يشترون أعدادا كبيرة من الجواري، على نحو ما كان السلطان يفعل. سأل السلطان شاعر القرن السابع عشر فيناني Fenani ذات مرة إن كانت هناك متعة لم يتمتع بها السلطان. فجاءته الإجابة: «نعم، إنها متعة أن تطلق أربع زوجات شرعيات دفعة واحدة، فذلك أمتع شيء في العالم. إنها متعة ملكية بكل معنى الكلمة». يحق للمسلم أن يجمع أربع زوجات، شريطة أن يعاملهن بالعدل، وأن يطلقهن متى يشاء، وحتى إن لم يطلق المسلم زوجاته، كان بوسعها أن يشتري ما يشاء من النساء لخدمة بيته. ولم تكن تجرؤ على التهديد بالعودة إلى بيت أبيها إلا الزوجة الغنية أو المحبوبة جدا من زوجها⁽⁴¹⁾.

كانت أكثر من زوجة واحدة يعيشن في انسجام في بيت واحد من خلال التوافق على إعطاء الأسبقية للزوجة الأولى بصفتها رئيسة الحريم. فيما كانت زوجات أخريات للرجل الواحد تعيش كل واحدة منهن في بيت منفصل في أحياء مختلفة. احتفظ رجل عجوز في العقد الخامس من القرن التاسع عشر بزوجة في القسطنطينية وأخرى في طوب خانة Tophane وثالثة في أوسكودار ورابعة على البسفور، حتى يجد حيثما حل في المدينة بيتا ينام فيه وزوجة تطبخ له طعامه. كان من الوارد أن يكتشف النساء الموسرات مصادفة أن زوجها له زوجة أخرى في بيت آخر منذ سنوات. وقد التقى مؤلف الكتاب الحالي بامرأة في إسطنبول ذكرت أن عمه أبيها زوجة طاهر باشا قائد حرس السلطان سألت عن هوية زائرة جديدة جميلة إلى حمامها المفضل، فجاءها الرد: «إنها زوجة طاهر باشا»⁽⁴²⁾.

وفي حين ظل الأمراء العثمانيون معزولين في قصر توبكابي، كانت أكبر البيوت على البسفور تخص أخوات السلطان وبناته اللاتي كن يتميزن عن النساء الأخريات بالاسم «سلطان» في أسمائهن الأولى (مثل عائشة سلطان وفاطمة سلطان وما إلى ذلك). كان أزواج هؤلاء النساء الملكيات، الذين كانوا من الباشوات وعلية القوم في زمانهم، ينفقون ثرواتهم للحفاظ على المستوى الملكي لزوجاتهم، على نحو ما أراد السلطان. وفي حين كان القنال الكبير في البندقية دليلا مرئيا على ثروة وقوة عائلات أرستقراطية مثل غريتي Gritti وكونتاريني Contarini وموشينيغو Mocenigo الذين كانت قصورهم تصطف حوله، كان البسفور يعكس الحضور الطاعي في المدينة لعائلة واحدة، هي العائلة العثمانية.

كان أزواج الأميرات يعتبرون عبيدا لزوجاتهم. وفي ليلة الزفاف، كان الزوج عندما يدخل غرفة نوم زوجته إذا سمح له بذلك، لا يجزؤ على الاقتراب منها إلا من تحت سريرها. وكان أزواجهن يُرسلون أحيانا من العاصمة لحكم الأقاليم. لكن نادرا ما كانت الأميرات توافق على الذهاب معهم^(*). كانت مساحات قصورهن تعكس مكانتهن، وليس عدد أطفالهن. وبغرض التخلص من المنافسين المحتملين للسلطان، اتبعت بعد العام 1607 عادة قتل أبناء الأميرات عموما عند مولدهم. وفي العام 1842، أراد السلطان أن يبطل هذا التقليد. لكن محظياته كن عثمانيات أكثر من سيدهن، وكسرن أوامره، ورتبن قتل رضيع كان قد ولد حديثا لعطية Atiye أخت السلطان. ويقال إنهن بررن فعلتهن بالقول: «ماذا تزن حياة رضيع واحد في مقابل أهوال خمسين حربا أهلية؟» وماتت الأميرة الأم بعد شهرين حزنا على ابنها^{(43)(**)}.

تمتعت بعض الأميرات بزيجات سعيدة. كان من بين هؤلاء إبان القرن السابع عشر كايا سلطان Kaya Sultan ابنة مراد الرابع التي أعطاها ذات مرة خراج مصر كاملا، وكانت مسلمة ورعة ومديرة ماهرة لبيتها. تحدث معها المؤرخ أوليا جلبي كثيرا من خلال مشربية Latticed Window (وهي إشارة إلى أن الفصل الجنسي كان أقل صرامة مع النساء المتقدمات في السن). كتب عنها أوليا: «إنها لا تجد متعة في رفقة النساء، وتفضل الاعتزال في خلوة في أحد الأركان وتخلص في العبادات. وكانت هي والباشا [زوجها ملك أحمد Melek Ahmed] يحرصان على أداء الصلوات اليومية الخمس معا ... وفي النهاية أحبت الباشا ونبت كل الرفيقات المفسدات وتفرغت لتبادل الحديث مع الباشا». كان الزوجان يستمتعان

(*) إبان القرن التاسع عشر أقسمت امرأة من حريم السلطان لجأت إلى السفارة البريطانية إنها تفضل أن تتزوج حَمَلا على أن تغادر القسطنطينية. [المؤلف].

(**) على الرغم من بشاعة إرث قتل الإخوة، فإن هذا الإرث اللعين ربما يمكن تفهمه بالنظر إلى الحروب الأهلية التي دامت أحد عشر عاما بين أبناء السلطان بايزيد بعد هزيمته وأسرته على أيدي تيمورلنك، وربما يرجع هذا التقليد إلى ما بعد فترة خلو العرش من العام 1402 إلى العام 1413 التي انتهت بانتصار محمد الأول وقتله إخوته سليمان وموسى وعيسى وفرار رابعهم - مصطفى - إلى سالونيك التي وعد حاكمها السلطان بأن يضعه قيد الإقامة الجبرية. فكان هذا الإرث من الحروب الأهلية والفتن والمكائد وتآليب أصحاب الغرض الإخوة بعضهم على بعضهم - ونجاحهم في كل حالات الإخوة الذين لم يقتلوا - قد علم أهل القسطنطينية، وتحديدًا قاطني توبكاي - أن قتل بضعة أفراد أرحم كثيرا من قتل الآلاف في حروب أهلية وضياع الدولة كليا. [المترجم].

بـ«مباريات مصارعة لطيفة» في الفراش ثماني وأربعين مرة في السنة. وساعدته في الحصول على منصب مرموق. وبعد موتها، تزوج زوجها من أميرة أخرى، هي فاطمة سلطان المسنة. ذكر الباشا لأوليا: «إن العذاب الذي نلتته من زوجتي هذه في ليلة زواجي لم يذقه أسرى مألطة [الأسرى المسلمون في أيدي فرسان القديس يوحنا بمألطة الذين كانت معاملتهم مثالا للبربرية]. ليرحمني الله، يالها من امرأة متهورة ووقحة وصفيقة!»⁽⁴⁴⁾.

ومع ذلك، فحتى هؤلاء النساء العثمانيات صاحبات النفوذ والامتيازات كان من الممكن تعذيبهن بالغيرة. تزوجت عادلة سلطان Adile sultan ابنة مصلح القرن التاسع عشر العظيم السلطان محمود الثاني، من ضابط بالجيش يدعى محمد علي باشا Mehmed Ali Pasha. جمع الحب بين الزوجين. وفي أحد الأيام، استرعت انتباهه في مكان عام على القرن الذهبي يدعى «المياه الحلوة لأوروبا» Sweet Waters of Europe. وحيث إن حجابها كان سميكاً، فإنه لم يتمكن من التعرف على شخصيتها، فأوقع منديلاً معطراً عند قدميها كنوع من الغزل. وفي تلك الليلة وجد الباشا المندبل على الوسادة بجانب زوجته النائمة.

وفي مناسبة أخرى، ذهبت عادلة إلى مسجد بعيد للصلاة. وعندما احتاجت إلى أن تستريح في الطريق، طرقت على باب قصر، رحب بها أصحابه، وقدموا لها القهوة والشربات، وحين سألت مضيفتها عن اسمها، أجابت السيدة بأنها زوجة محمد علي باشا. فشكرتها عادلة سلطان وانصرفت. وعاشت بعدها في خلوة تكتب قصائد تفوح منها رائحة الحزن. وعندما ماتت في العام 1898، دفنت بجانب زوجها. لم يأت في قصائدها إشارة إلى الخيانة التي ارتكبها زوجها بحقها⁽⁴⁵⁾.

كانت البيوت الأقل شأنًا تشهد عواصف من الغيرة. كان الرجال أحياناً يقضون حاجتهم مع جواريتهم. وكانوا أحياناً يطلبون من الإمام رخصة بعدم الاغتسال بعد الجماع لأن ذلك كان يثير غضب زوجاتهم على الجواري. كتبت ليدي بلنت: «كل خانوم [زوجة] عرفتها كانت تنزل إلى حجرة الغسيل بانتظام لتشطف يديها وملابس زوجها بعد الغسيل، خوفاً من أنها لو تركت هذا العمل للجواري فإن الواحدة منهن يمكن أن تتلو على الملابس تعاويذ أو أسحاراً لتحل محل الزوجة في قلب زوجها»⁽⁴⁶⁾.

كتبت واحدة من أعظم كُتاب تركيا الحديثة، هي قائدة الموجة الأولى للحركة النسوية بالقسطنطينية خالدة أديب Halide Edib، عن بيت أبيها في العصر الذهبي الأخير للمدينة قبل العام 1908: «كان [تعدد الزوجات] لعنة، سُم لم ينحُ منه بيتنا التعس ... كان التوتر الدائم في بيتنا يحيل حتى الطقوس البسيطة إلى أم مادي، ولم أنجُ أنا نفسي من نتائج ذلك. كانت غرف الزوجات متقابلة، وكان أبي يزورها واحدة بعد الأخرى ...»⁽⁴⁷⁾.

تمثل أحد مصادر التسلية في الحريم في استضافة الصديقات، من اليونانيات واليهوديات والأرمنيات فضلا على المسلمات. وكانت تحدث زيارات متبادلة دائمة بين الحريم: زيارات للسؤال وللتفتيش وللتحية وللتهنئة وللتعزية. وكانت الزائرات يقضين الليل غالبا عند مضيفاتهن. وكانت المرأة ذات العلاقات المتينة يمكن أن تقضي عاما كاملا في الزيارة الواحدة. وكانت الزائرات بمنزلة سعاة بريد وصحافيي شائعات يسردن أخبار المدينة. وكانت التاجرات المحترفات يتنقلن أيضا من بيت إلى بيت لبيع أو شراء الملابس والتطريز.

سعى بعض السلاطين إلى فرض العزل الصارم. كان من هؤلاء السلطان عثمان الثالث (1754-1757) الذي حظر على النساء الخروج من البيت في أكثر من أربعة أيام في الأسبوع، والسلطان مصطفى الرابع (1807-1808) الذي أصدر مرسوما يحظر عليهن الخروج من البيت مطلقا. تعلمت بعض النساء أن يخفن من الرجال الأغراب، حتى إن الواحدة منهن لو حاصرتها النيران كانت تفضل أن تحترق حتى الموت على أن تنقذها ذراعا أحد الجيران أو جنود الانكشارية. وكانت النساء يتعرضن للنقد أحيانا حتى على نشاطات تقليدية مثل الذهاب إلى الأسواق «بين الرجال» أو زيارة المقابر. وكان يصلين عادة في البيوت، أو في المساجد في أبهاء خاصة أو وراء حواجز، وليس في صحن الجامع الأساسي. وحتى امرأة في قوة خرم قيل إنها لم تكن تخرج إلى المدينة إلا ليلا، مع أنها كانت تقوم برحلات إلى الولايات لرؤية أبنائها. ولم يكن بمقدور النساء أن يزرن خان الجدة الكبير Buyuk Valide Han الذي بنته كوسم إلا بإذن من المشرف وبرفقته.

وفي الحريم الإمبراطوري، حتى مع الحرية النسبية إبان القرن التاسع عشر، ظلت السيدات يعشن حياة منعزلة تماما. وكان يقعن في حب رجال لم يروهن، بسبب سماع صوت يغني في ليلة مقمرة على البسفور، أو رجل يعزف على الكمان

على بعد. وفي الحالتين، كانت البنات تظل في حالة الحب من دون أن يعرفن شيئاً عن أحبائهن لسنوات. إن بيرون لم يبالغ حين كتب في «دون خوان»^(*) أن الزواج wedlock والقفل padlock عند الأتراك لا يختلفان⁽⁴⁸⁾.

لكن كانت هناك - على الرغم من ذلك - دروب للاستقلالية. ففي الغرب، كان الأزواج يسيطرون على ثروات زوجاتهم. وحتى شخصية شرسة مثل سارة دوقة مارلبورو^(**) كانت تستطيع أن تدير ممتلكاتها الشاسعة من خلال وصية من زوجها تستوجب تنفيذ رغباتها. ربما جزئياً من أجل الحيلولة دون أن ينفق الزوج ممتلكات زوجة على زوجة أخرى، ضمن الإسلام أن تحتفظ النساء بالسيطرة على ممتلكاتهن الخاصة. وفي القسطنطينية، كانت النساء يدرن ممتلكاتهن إما مباشرة وإما من خلال وكلاء. وكان بعض النساء يملكن دكاكين في السوق، وكان بعضهن يقرضن مبالغ كبيرة للمسؤولين الحكوميين أو السفراء الأجانب، على نحو ما كان يفعل أزواجهن. تبين السجلات القانونية أنه في العام 1548، كانت امرأة واحدة، هي نفيسة بنت كمال Nefise bint Kemal تمتلك طاحونة مائية، وفي العام 1804 كانت هوشيار هانم Hoshyar Hanim تمتلك مخبزاً. وكذلك كانت النساء، كما سيرد لاحقاً، تجار عبيد أكفاء جداً⁽⁴⁹⁾.

كانت العمارة أحد المجالات الأساسية التي شاركت فيها نساء القسطنطينية الموسرات. فمن بين التسعمائة والثلاثة والخمسين مسجداً التي كانت منتشرة في المدينة في العام 1962، كان ثمانية وستون منها أو سبعة في المائة قد كُلفت ببنائها نساء أو بُنيت لنساء. ومن بين الأسبلة العثمانية الأربعمائة وواحد وتسعين المتبقية في إسطنبول في العقد الرابع من القرن العشرين التي تميّز واجهاتها المرمرية الرمادية الهادئة مدينة إسطنبول كما تميّز النافورات الباروكية البيضاء الدوامة روما، كُلف نساء ببناء 28 في المائة منها⁽⁵⁰⁾. على السبيل القائل في بيشيكتاش الذي شيّده تورهان سلطان (التي كان اسمها الأول خديجة) يقرأ المارة:

(*) «دون خوان» Don Juan: قصيدة هجائية للورد بيرون تقوم على أسطورة دون خوان، يقبل فيها بيرون الأوضاع، فيحيل خوان من زير نساء يلعب بهن إلى رجل يسهل على أي امرأة الإيقاع به. [المترجم].

(**) سارة دوقة مارلبورو Sarah Duchess of Marlborough (من 5 يونيو 1660 إلى 18 أكتوبر 1744): زوجة جون تشرشل دوق مارلبورو الأول، كانت صديقة مقربة من الأميرة آن؛ ولذلك حين أصبحت الأخيرة الملكة آن، ازداد نفوذ سارة وقوتها، وغدت الشخصيات البارزة والعامّة تتودد إليها أملاً في التأثير في الملكة لمصلحتهم. [المترجم].

بنية خالصة من الرياء، أمرت خديجة سلطان تاج العفة الحصين، وأم محمد خان سلطان السلاطين، بأن يتدفق هذا السبيل السامي مجاناً، حتى يرتوي منه العطشى في الكون كله.

ونُقش على سبيل انتهى العمل به في العام 1741: «عندما روّت والدّة علي باشا الوزير في عهد السلطان محمود، عطش الناس بماء إحسانها الصافي الرائق، نطق الدرويش النقشبندي رضا البيشيكتاشي بالحكمة التالية: تعال واشرب ماء الحياة الأبدية من هذا السبيل»⁽⁵¹⁾. وعلى الرغم من وضوح الهيمنة الأمومية، فإن المرأة التي كلّفت ببناء السبيل قد عرّفت نفسها بابنها.

لم تستطع أن تتحدى التقاليد إلا قلة من نساء القسطنطينية. من هؤلاء الشاعرة حبي خاتون Hubbi Hatun التي بقيت في البلاط في عهد سليم الثاني بعد موت زوجها وسرت شائعات بأنها كاتمة أسرار السلطان وعشيقة العديد من أفراد حاشيته. وفي بداية القرن السابع عشر، كتبت امرأة من المدينة تدعى ليلى Leyla قصائد عشق:

عندما أكون بين ذراعيك، لا تزد ألمي
فألجنة بين ذراعيك، وليس الجحيم.

وإبان القرن الثامن عشر، لقيت فتنت هانم Fitnat Hanim أخت وابنة أخ وحفيدة علماء شغلوا منصب شيخ الإسلام، التشجيع من عائلتها على كتابة الشعر. وجهت فتنت قصيدة إلى الصدر الأعظم المهذب رجب باشا، وترددت في زيارات على صالونه الأدبي. وكانت النساء يعملن موسيقيات أو خطاطات. كتبت خطاطة انفصلت عن زوجها تسعة أوصاف للنبي اعتبرتها أعمالاً فنية تعوضها عن الأطفال⁽⁵²⁾.

عاشت النساء الفقيرات حياة أقرب إلى حياة ربّات البيوت في الغرب، وإن ظل الفصل في البيت بين مسكن الذكور والإناث متبعاً، ولو حتى بستارة تعلق في منتصف غرفة. وكمن يظهرن كثيراً سافرات مع أزواجهن في السوق أو جالسين معا في المساء على عتبات بيوتهم، أو وهن يجرن أزواجهن من الحانات. وكان بعض النساء يبعن ما يصنعنه في البيت، مثل السجق والمناشف المطرزة الكتانية، في أسواق أسبوعية كانت تقام للنساء في أحياء مختلفة من المدينة⁽⁵³⁾.

بعيدا عن المهام المنزلية، كان العمل الأساسي لنساء القسطنطينية هو التطريز، في مقابل صنع السجاد في الأناضول الريفية. لم تخصص إمبراطورية أخرى كل هذه الطاقة لأعمال الإبرة والخيط. في منتصف القرن السابع عشر، قالت زائرة فرنسية تدعى جين ثيفنوت Jean Thevenot: «عملهن الوحيد في البيت هو الكروشيه والتطريز، بينما تقوم جاريات بكل أعمال المنزل». وبعد مائة عام، كتب واحد من أعظم المؤرخين العثمانيين، هو موراجيا دوسون: «تحتفظ كل النساء بكميات كبيرة من التطريز لتزين ملابسهن وكذلك كل الكتان المستخدم في الأعمال المنزلية العادية: منديل اليدين والمناشف [كانت المناشف المطرزة تستخدم جوائز في مسابقات الرماية] ومناديل المائدة والقماش. لقد كن يطرزن كل شيء حتى السراويل والزنانير». وفي أوائل القرن العشرين، كتبت دارسة الأعراق لوسي غارنيت Lucy Garnett التي عاشت سنوات طويلة في البلقان: «يحظى التطريز بمكانة خاصة، وقبل عدة سنوات من الزواج تجد البنات عملا في ساعات فراغهن في تطريز الملاءات والمناشف والألحفة ومناديل المائدة وغيرها من الأشياء التي تظهر لاحقا في جهاز عرسها وتزين غرفة عرسها».

باستخدام بعض أنماط الزخرفة الموجودة على بلاط إزنيق والقفاطين المخملية، كان التطريز يمارس في كل شيء متاح، من المهد إلى اللحد: أغطية الفراش وأغطية الوسائد وأغطية العمام والمحافظ وبهارج الخيول وسجادات الصلاة، وكانت أعمال التطريز الأقيم على الإطلاق تتمثل في الكسوة التي كانت ترسل سنويا إلى الكعبة بمكة. كان التطريز يغطي كذلك قطع القماش التي كانت تُرسل فيها الخطابات والأشياء من شخص إلى آخر، لأن الأظرف الورقية لم تستخدم حتى القرن التاسع عشر. وكلما كان التطريز أنفس، كان التقدير أعلى من المتلقي. وفي البيوت الموسرة، كان شرب القهوة نفسه يمكن أن يؤدي أيضا إلى استعراض للتطريز، حيث كان الخادم الأول يرتدي وشاحا مستديرا معلقا على كتف واحدة، كان يصنع من الحرير أو المخمل ويطرز بكثافة بخيوط الذهب، وأحيانا بالجواهر، وكانت الشرابات تخاط باللآلئ. كان الغرض الوحيد من ذلك هو إظهار الجمال والثراء.

كان التطريز أيضا يغطي الملابس، كما يتجلى في الأثواب الفخمة المعروضة في متحف صديرك هانم Sadberk Hanim Museum في حي بيوكدير Buyukdere، التي تجعلها الخيوط الذهبية متصلة مثل سترات السفراء. لم يتغير أسلوب أعمال

التطريز كثيرا من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر. وقد أبدت ليدي ماري ورتلي مونتغو إعجابها بالتنورة الداخلية والقفطان الدمقسين المطرزين والزوار المغطى بالجواهر التي كانت ترتديها سيدة عثمانية، لكن ما «أحزن عينيها» كثيرا كانت مفارش ومناديل المائدة المطرزة. في الشتاء، كانت النساء الموسرات يرتدين أثوابا من الحرير المبطن بفرو القاقم أو السمور، وغطاء رأس من المخمل مطرزا عادة باللآلئ أو الألماس. وعلى أحد جانبي الشعر، كن يعلقن باقة من الجواهر مرتبة على هيئة الزهور، تمثل اللآلئ فيها البراعم، والياقوت الورد، والألماس الياسمين. وعندما تخرج النساء من البيوت، كن يلبسن أوشحة للرأس من الشاش الأبيض الرقيق بها فتحتان للعينين وفراجي (*) أو عباءات واسعة تغطي كل شيء من الرقبة إلى أصابع القدمين⁽⁵⁴⁾.

كان الافتتان بالتطريز- مثله مثل الدين الشعبي والمواكب الإمبراطورية - يوحد الجماعات المختلفة بالمدينة. من ذلك أنه في العام 1673، عرض سنيور تيريسا Signor Tersia ترجمان البندقية والكاثوليكي المقيم في بيرا، مهر ابنته على أصدقائه، فكان يتألف في الأساس من فساتين ومناديل وقفاطين وأغطية فراش، جميعها مطرزة بسخاء «على طريقة أهل البلد» بخيوط من الذهب أو الفضة أو اللآلئ أو البلور، من كل الأسعار. وكانت أغطية التوراة وشيلان الصلاة اليهودية تطرز بالأسلوب نفسه وعليها موضوعات الزهور عينا التي كانت تظهر على المنسوجات الإسلامية. وكانت المعابد تستخدم أبسطة أشبه بسجادات الصلاة الإسلامية عليها «شكل الفتحة التي يصلي عليها الإسماعيليون (المسلمون)»⁽⁵⁵⁾.

وصلت شهرة التطريز التركي إلى معقل آخر من معاقل الترف، هو البلاط الفرنسي. ففي العقد الثامن من القرن السادس عشر، استدعت كاثرين دي ميديشي، وبعد خمسين عاما ماري دي ميديشي، بنات من القسطنطينية للقيام بأعمال التطريز لبيتها. ومع أن المدينة كانت تتبنى الأساليب الغربية في كل المجالات تقريبا، ظل التطريز الهدية المفضلة للزوار البارزين إلى العاصمة. من ذلك أن أولى الهدايا التي قدمتها السلطانة الوالدة إلى الإمبراطورة أوجيني زوجة نابليون الثالث لدى زيارتها إلى القسطنطينية في العام 1869، كانت منديلا مطرزا بالطريقة التقليدية⁽⁵⁶⁾.

(*) الفراجي: جمع فراجة ferace، وهي عباءة تلبسها النساء عادة فوق الملابس عند الخروج من البيت. [المترجم].

مدينة الذهب

يعتقد اليهود والأتراك والمسيحيون عقائد عدة.
لكن الجميع يعترفون بإله واحد.. إنه الذهب
من مجموعة «خطابات تاريخية ومهمة
من جنغلان في القسطنطينية إلى صديق
له في لندن»، 1730.

لا توجد مدينة أكثر تشجيعا للتجارة من
القسطنطينية.

Ogier Ghislain de بوسبك 1555
Busbecq

في حر الصيف، كان السلطان ينتقل كثيرا
من القصر إلى الأكشاك المطلّة على البحر.
وهناك مع برد النسيم، كان السلطان يستطيع
أن يستمتع بمشهد مذهل لدرجة أن كثيرين
ممن يرونه لأول مرة يشكون أنه حقيقي،
وهو الجريان السريع للماء الناتج عن التقاء
القرن الذهبي بالبسفور، الذي تغطي صفحته
دائما مواكب متحركة من المراكب. كانت

«كانت الإمبراطورية العثمانية عالما
اقتصاديا مصغرا، وكان المسلمون
هم التجار الأنشط فيه»

أعداد المراكب تتكاثر أحيانا، على نحو ما رسمها ميلخيور لورك في العام 1560، حتى إن الصواري والأشرعة كانت تحجب الماء تقريبا. وبين السفن الأكبر حجما، كان عدد كبير من المراكب الصغيرة (نحو خمسة عشر ألف مركب يعملون في الميناء إجمالا) يندفع سريعا فوق سطح الماء مثل الذباب⁽¹⁾. كانت هذه المراكب، التي تربط ضواحي المدينة بمركزها عبر شبكة من الرحلات البشرية اليومية، تتحرك في سرعة النوارس التي تنقض من أعلى أو الدلافين التي تقفز من الماء. كانت صيحات المجدفين وصفيهم يجعل الميناء أكثر صغبا من ميناء نابولي. فقد كانت القسطنطينية تجمع بين كونها عاصمة وميناء، بدرجة أكبر من لندن أو لشبونة. ولم يكن البحر يمر على المدينة فقط، بل كان شريانها.

كان النظر عبر الماء إلى يمين السراي يكشف أوسكودار، ذلك الخليج من القرى والمساجد والقصور، حيث تنتصب القباب والمآذن البيضاء على خلفية خضرة الحدائق وبساتين السرو وأول تلال آسيا. وعلى اليسار، عبر القرن الذهبي من السراي مباشرة، كانت توجد مدينة غلطة، ذلك المدرج من البيوت ذات الأسقف الحمراء المكلفة بالنباتات الخضراء والمتوجة ببرج رمادي.



الرسام جان فان دير ستن Jan van der Steen، منظر للقسطنطينية من يبر، في نحو العام 1770. من اليسار إلى اليمين: أوسكودار، والتقاء البسفور بالقرن الذهبي، والقصر، وجامعي آيا صوفيا والسلطان أحمد، وعلى البعد جبال الأناضول المغطاة بالثلوج. يعد هذا المنظر الصورة الكلاسيكية للمدينة، الذي دفع شاعرا عثمانيا لأن يكتب أن الجنة نفسها تنظر إليها بعين العبد، والذي اعتبره الزوار الأوروبيون أجمل منظر في العالم.

مدينة الذهب

لمسافة ميل ونصف الميل على يسار غَلَطَة، كان يمتد مركز القوة البحرية للسلطان، وهو أحد أكبر المُجمَّعات البحرية في العالم، الذي كان يضم الترسانة وأحواض بناء السفن الإمبراطورية. والترسانة التي كانت مدينة أخرى داخل المدينة يطوقها سور عال، كانت تضم سقيفات تَسع لبناء حتى مائتي قادم في وقت واحد^(*). تظهر الترسانة في لوحة من العام 1650 أشبه بصف من مرائب الحافلات ذات الأسقف الحمراء. وبجانب الترسانة، كانت توجد مصانع البارود والذخيرة وقصر القبطان باشا Kaptan Pasha أو أمير أمراء البحر - بعد نقل مقر الأسطول العثماني من غاليبولي في العام 1516. وسرعان ما أصبح القبطان باشا أحد المسؤولين الكبار في القسطنطينية ويحق له حضور الديوان، فضلا على السلطة على جزر بحر إيجه وغَلَطَة نفسها. كان أفراد الأسطول من الأتراك واليونانيين والدلماسيين، وكانوا يسمون «مشرقيين» levents من الكلمة الإيطالية levantino (المشرق)، وكانت المراكب التي كان يجري بناؤها عادة وفق نماذج بندقية، تحمل أسماء نصف إيطالية مثل باترونا Patrona وريالا Riyala (Reale) وقبطان Kaptan⁽²⁾.

وبجانب الترسانة، كان يوجد الصرح المشؤوم المعروف باسم البانيو محاطا بسور عال^(**)، كان نزلاؤه الأساسيون نحو ألفين أو ثلاثة آلاف عبد أسروا في أثناء الحروب وعمليات القرصنة التي ابتلي بها البحر الأبيض المتوسط بين فرسان القديس يوحنا والقراصنة الجزائريين^(***). كان الرعب الساكن في حياة العبيد الذين كانوا يشيّدون قوادم السلطان ويجدفون عليها^(****)، يخففه وجود الكنائس

(*) القادس، والجمع: قوادم، سفينة شراعية كبيرة ذات مجاديف. [المترجم].

(**) البانيو bango كلمة إيطالية تشير إلى المكان الذي كان يحتجز فيه العبيد الأسرى في الجزائر والقسطنطينية. [المترجم].

(***) كانت القرصنة في العصر الحديث المبكر شكلا من الحرب غير النظامية، مارستها كل الدول تقريبا، فمارستها إنجلترا عبر سفن الأسطول الملكي ضد سفن الذهب والفضة الإسبانية القادمة من العالم الجديد، ومارستها الجمهورية الهولندية ضد السفن الإنجليزية والإسبانية، غير أن القرصنة الأشهر في التاريخ كانت تلك التي وقعت في البحر الأبيض المتوسط بين شماله وغربه المسيحي وجنوبه وشرقه الإسلامي، التي تجاوزت الاستيلاء على السفن في عرض البحر إلى الإغارة على المدن والبلدات الساحلية طلبا للغنائم والعبيد، خاصة في عهد الأخوين أميري البحر العثمانيين عروج وخير الدين بربروس في إمارتهما على الجزائر التي وصفها النيبيل الفرنسي دوغرامي في العام 1619 بأنها «السوط المسلط على العالم النصراني. فهي رعب أوروبا ولجام إيطاليا وإسبانيا وصاحبة الأمر في الجزر». [المترجم].

(****) كانت السفن الصربية تعمل في معظمها بمجدفين من العبيد، يعرفون باسم عبيد القوادم galley slaves، كانوا يؤدون عملهم وهم مكبلون في أماكنهم، غالبيتهم أسرهم الجيوش أو اختطفهم القراصنة لهذا الغرض من الأمم المعادية. كانت بعض الدول تقضي على المدانين بقضاء بعض السنوات على القوادم كعقوبة، وهي عقوبة كانت أقرب إلى حكم الإعدام، وكانت تدخر في إسبانيا القرن السادس عشر للمسلمين الأندلسيين الذين أطلق عليهم اسم المورسكيين. ويقال إن أسطول التحالف الأوروبي بقيادة إسبانيا حين هزم الأسطول العثماني في معركة ليبانتو البحرية في العام 1571 حرر ثلاثين ألف مجدف نصراني كالوا عبيدا على السفن العثمانية. [المترجم].

الكاثوليكية والأرثوذكسية التي كانت تقدم الخلاص في «العالم الآخر» وجهود السفراء المسيحيين والأخويات الدينية لإطلاق سراحهم. أضاف عبيد القوادس لغة هجينة أخرى إلى توليفة الأصوات التي كانت تُسمع في القسطنطينية. كان معظم العبيد الأسرى يأتون من إسبانيا أو إيطاليا أو فرنسا، ويتحدثون مزيجاً من هذه اللغات يدعى الفرانكو Franco⁽³⁾.

في السادس من مايو من كل عام، في عيد ولي الله العظيم الخضر، تحتفل القسطنطينية بدورها كعاصمة بحرية في يوم للمسرح الطقوسي. على مرأى من بقية المدينة ومن مراكب الكياك والسفن المبحرة، كان القبطان باشا وكبار الضباط بالأسطول يبحرون ببطء من الترسانة عبر القرن الذهبي إلى كشك اليالي Yali Kiosk الواقع على الجبهة المائية للقصر. وهناك، كان السلطان يستقبلهم رسمياً محاطاً بعائلته. وكان يُلبسهم القفاطين ويدعوا لهم برحلة آمنة وناجحة. كان قادة البحر بعد ذلك يأخذون الأسطول، وسط تحية بطلقات من المدفعية تصم الأذان من حصون الشاطئ وأصوات الموسيقى العسكرية التي تعزفها فرق فوق كل سفينة، في جولة للتفتيش وجمع الضرائب في جزر بحر إيجه. في العام 1583، شاهد أول سفير إنجليزي، هو وليام هاربورن William Harborne، مغادرة القبطان باشا «متجهاً إلى البحر بستة وثلاثين قادساً مزينة بطلاء ذهبي ورسوم وممثلة بالأعلام المربعة والمثلثة»⁽⁴⁾. لم تكن هذه المراسم تقل فخامة عن مراسم «زفاف البحر» التي كانت تقام في البندقية في الثامن من مايو والتي كانوا يجدفون فيها بسفينة الدوج المذهبة بوسنتارو Bucentauro تتبعها مئات السفن الأصغر لإلقاء خاتم زواج في البحر الأدرياتيكي. يكشف تشابه التاريخ والهدف والأبهة عن تأثير البندقية الذي تخلل معظم جوانب الحياة البحرية في القسطنطينية.

كانت السفن التجارية ترسو إلى اليمين من مقر الأسطول على طول الأرصفة وحواجز الماء في غَلَطَة وإمينونو Eminonu قبالة القصر وتحتة. يسمح عمق الميناء الشديد لأكبر السفن بأن تفرغ حمولتها على الشاطئ مباشرة باستخدام ألواح خشبية، وقد كانت جودة الميناء أحد الأسباب التي دفعت الاستيطان اليوناني الأول للموقع. بعد أن ترسو السفينة، كان قائدها يقدم بياناً بحمولته إلى موظفي الجمارك العثمانيين الذين كانوا بعد ذلك يتحققون من السلع بأنفسهم. كان جنود

الانكشارية يظلون على ظهر السفينة حتى تدفع رسماً جمركياً من ثلاثة إلى خمسة بالمائة. وبعد أن يقدم قائد السفينة إيصالاً بالسداد، كان يمكن إفراغ السلع. كانت خانات غَلَطَة وإمينونو وأسواقهما مركز الحياة للميناء، حيث كان التجار والحمالون والبحارة يأتون إليهما يومياً بحثاً عن الشراب والعمل. وفي الشتاء، حين كانت سفن الأسطول العثماني المائة وعشرين أو نحوها ترسو في الحوض الجاف في الترسانة، كان سلوك المشرقيين في خانات غَلَطَة يغدو مثلاً للفسوق.

كانت القسطنطينية أكبر مدينة على البحر الأبيض المتوسط وأحد أكبر موانئه. كانت كل طرق السفر ومعظم طرق التجارة في الإمبراطورية العثمانية تؤدي إلى العاصمة: من بولندا عبر ولاشيا، ومن أوروبا الوسطى خلال بلغراد وإدرنة، ومن البندقية عبر البحر الأدرياتيكي إلى دوبروفنيك، وعبر طرق البلقان الجبلية. كانت قافلة تحوي نحو ألفي بغل وبعير تأتي إلى أوسكودار مرة واحدة في الشهر على الأقل، من بلاد فارس ومن ميناء البصرة الكبير على رأس الخليج العربي ومن سورية. وبحراً، كانت القسطنطينية مقصداً لطرق التجارة من مرسيليا والبندقية والإسكندرية والقرم. كان البحر الأسود للإمبراطورية العثمانية مثل أمريكا الجنوبية للإسبان. فبين العامين 1592 و1774، كانت تجارته مقصورة على الرعايا العثمانيين⁽⁵⁾.

كانت الأيديولوجيا الإمبريالية وكذلك المصلحة الشخصية تؤيدان التجارة. من ذلك النصيحة التالية التي قدمها أحد باشوات القرن الخامس عشر إلى السلطان:

انظر بعين العطف إلى التجار على الأرض، واهتم بهم دائماً، ولا تدع أحداً يضايقهم أو يتحكم فيهم، فمن خلال تجارتهم تزدهر الأرض، وعن طريق سلعهم تنخفض الأسعار في العالم، ومن خلالهم تنتقل سيرة السلطان الطيبة إلى الأراضي المحيطة، وعن طريقهم تنمو الثروة على الأرض.

وإبان القرن السادس عشر، دخلت الإمبراطورية في حروب مع بلاد فارس على السيطرة على تجارة الحرير، ومع البرتغال على السيطرة على طرق التوابل من جزر الهند الشرقية إلى أوروبا، وأدارت أسطولا تجارياً حكومياً⁽⁶⁾.

ومن أجل تقوية الإمبراطورية، أراد العثمانيون أن تتوافر كل المنتجات وكل الأعراق في القسطنطينية. كتب أحد تجار القماش والحرير الفلورنسيين من غَلَطَة في العام 1502 عن بايزيد الثاني يقول: «يمنحنا السلطان كل العطف ويريد منا

أن مارس أعمالنا في بلاده». كذلك كان القصر أفضل زبون للتجار على سلع الترف الأجنبية. كما ساعد وجود التجار الأجانب القسطنطينية في الاحتفاظ بطابعها كمدينة عالمية. ومكنت معاهدات التجارة الحرة المعروفة باسم «الامتيازات» التجار الأجانب من العيش في القسطنطينية والمدن العثمانية الأخرى تحت سلطان سفرائهم وحمايتهم. منح السلطان امتيازات للبندقية في العام 1454، ثم لفرنسا في العام 1569، ثم لإنجلترا في العام 1581، ثم لهولندا في العام 1612. وحصلت عليها فلورنسا وجمهورية دوبروفنيك قبل سقوط المدينة^(*)، وحصلت عليها الإمبراطورية الرومانية المقدسة وروسيا والسويد إبان القرن السابع عشر، والدنمارك إبان القرن الثامن عشر.

كانت التجارة أحد الأسباب الرئيسة لإرسال السفارات الكثيرة إلى القسطنطينية. فبالنسبة إلى البنادقة كان «الواجب الأساسي لسفير القسطنطينية هو الدفاع عن تجارة الأمة». وعلى الرغم من أن الحكومتين الإنجليزية والعثمانية كانتا تکرهان إسبانيا، فقد اجتمع ثلاثتهم على حب التجارة، ما أدى إلى إقامة علاقات دبلوماسية بينهم. وفي ذلك كتب مراد الثالث إلى إليزابيث الأولى في السابع من مارس 1579 ما يلي:

كما يأتي الناس من بلاد فرنسا والبندقية وبولندا - المخلصة حقاً لبابنا العالي - ويمارسون التجارة، كذلك يمكن أن يأتي أيضاً التجار من مقاطعة إنجلترا ويذهبون (و) لن يعترضهم أحد في أثناء قدومهم أو رحيلهم أو تنقلهم بغرض التجارة في ممتلكاتنا المحروسة.

كان أول سفير إنجليزي إلى القسطنطينية - وليام هاربورن - تاجراً أيضاً، يستورد الرصاص والقصدير والقماش إلى القسطنطينية ويصدر منها خمر الممزي والكشمش. حتى القرن التاسع عشر، ظلت شركة المشرق التي ساعد في إنشائها، تدفع راتب السفير، وليس الحكومة البريطانية. وبحلول العام 1640 كانت هناك خمس وعشرون شركة إنجليزية في القسطنطينية تعمل بالدرجة الأولى في القماش⁽⁷⁾.

(*) جمهورية دوبروفنيك أو راغوزا جمهورية بحرية مستقلة في دالمسيا شهدت أوجها تحت الحماية العثمانية إلى أن احتلها نابليون في العام 1808. [المترجم].

وعلى أي حال، فإن فرنسا التي كانت في حلف سياسي مع الإمبراطورية العثمانية منذ العام 1535، كانت الشريك التجاري الغربي الأساسي للإمبراطورية، وليس إنجلترا. كان من المعتقد أن «تجارة المشرق» الفرنسية (أي التجارة مع الإمبراطورية العثمانية) التي كانت تخضع لسيطرة غرفة التجارة بمرسيليا، تشكل نصف كل التجارة البحرية الفرنسية في أوائل القرن السابع عشر. كانت التجارة الفرنسية إبان القرن الثامن عشر أحد العوامل التي أسهمت في نفوذ فرنسا في العاصمة العثمانية. وفي العام 1789 كانت الإمبراطورية العثمانية تأتي في المرتبة الثالثة بين أسواق فرنسا بعد إسبانيا وأمريكا، وكانت فرنسا تسيطر على نحو نصف كل التجارة الأوروبية مع الإمبراطورية. كانت القسطنطينية تستورد القماش والورق والجلد والزجاج من فرنسا، وتصدر إليها الصوف الخام والجلود والحريير و سلع الترف مثل الكافيار والشمع الأصفر الممتاز ووبر الماعز المعالج الذي كان يصبح بعد ذلك باروكات على رؤوس أوروبا. ثمة منتجان من المدينة كانت لهما مكانة خاصة: الشغرين (جلد القرش المدبوغ الذي كانت صلابته مطلوبة لمقابض السيوف وأغلفة الكتب) والورق المجزّع المسمى «ورق تركيا» الذي كان يلصق داخل ألواح الكتب⁽⁸⁾.

في العصر الذهبي للإمبراطورية إبان القرن السادس عشر، كان طريق التجارة يسير سلسا، كما يدلل الارتفاع المفاجئ لعدد سكان القسطنطينية من ثمانين ألفا إلى أربعمئة ألف بين العامين 1477 و1530. كتب سفير البندقية في العام 1523: «لا أعرف دولة أسعد من هذه، لقد وهبها الله كل نعمه. فهي تسيطر على الحرب والسلام مع الجميع، كما أنها غنية بالذهب والبشر والسفن وطاعة الرعايا للحكام، إنها باختصار لا تضاهيها دولة أخرى». لكن إبان القرن السابع عشر، ولأسباب كثيرة، ضعفت الإمبراطورية وتحولت شروط التبادل التجاري في غير مصلحتها. وبدأ التجار الأجانب في القسطنطينية يخضعون لجزية تسمى الأواني *avanies* (تعني حرفيا «إهانات») تجمعها الحكومة العثمانية في مقابل تجديد الامتيازات (التي يفترض نظريا أن كل سلطان جديد يجب أن يجددها)، أو لأغراض زيادة الدخل فقط. وكان الاستياء العثماني من الفساد المنظم الذي مارسه التجار والسفراء الأجانب، سببا آخر لهذه العقوبات.

كانت الحكومة العثمانية تسك بضع عملات معدنية ذهبية. وبعد العام 1584 أخذت الحكومة تخفض قيمة الأقجة الفضية والقرش النحاسي العثمانيين - من حيث الوزن والقيمة - اللذين كانا يُزَيَّنَان دائماً بطغراء السلطان الحاكم وختم قبيلة قايي Kayi التركية. ونتيجة لذلك، وعلى الرغم من التحريم الحكومي المتكرر، كان العثمانيون عادة يفضلون أن يستخدموا العملات المعدنية الأجنبية على عملاتهم في الصفقات التجارية. كانت القسطنطينية منفتحة تماماً أمام التجارة الخارجية حتى إن العملات المعدنية البندقية والهولندية والنمساوية والإسبانية والبولندية كانت تستخدم فيها. وبعد العام 1650، انتشرت دور سرية لسك العملة في أفينيون وأورانج (*) ومونتني كارلو وليفورنو، كانت متخصصة في تزيف العملات المعدنية الأوروبية بتقليل محتوى المعدن النفيس فيها بنسبة ثلاثين أو أربعين بالمائة، لاستخدامها في الإمبراطورية العثمانية. وبهذه الطريقة كان التجار الأجانب يستطيعون أن يحققوا أرباحاً تصل إلى ستمائة بالمائة. كان الفرنسيون والهولنديون من مزيفي العملة الدائمين. كتب تاجر فرنسي يدعى شيفالير شاردين the Chevalier Chardin عن الأتراك: «إنهم بطبيعتهم أناس بسطاء وبلهاء، يستطيع المرء أن يخدعهم بسهولة. لذلك يلعب المسيحيون عليهم عددا لا يحصى من الحيل الخبيثة ويغشونهم، لكن ما إن تخدعهم مرة واحدة، حتى يفتحوا أعينهم، ثم يضربون بقسوة وينتقمون لكل شيء في مرة واحدة». ونتيجة لئاسها، بدأت الحكومة العثمانية نفسها في نهاية القرن السابع عشر تزيف العملات المعدنية الأجنبية⁽⁹⁾.

كان النظام الذي حافظت عليه الحكومة العثمانية في المدينة يشجع التجارة فيها. فمعظم التجار الأجانب كانوا يعيشون في أمان في غَلَطَة أو في تل يغطيه الكرم فوقها مميّز بهوائه الجيد يسمى بيرا (كلمة يونانية تعني «ما وراء»، أي «ما وراء» القرن الذهبي). ومن أجل تجنب عداوة الأهالي، كان التجار الغربيون عادة يرتدون لباساً عثمانياً ويطلقون لحاهم، ويقال إن الهولنديين والإنجليز كانوا

(*) إمارة أورانج Orange إمارة في منطقة بروفنس الواقعة بجنوب فرنسا الحالية، كانت مقر آل أورانج الذين تزعموا حرب التحرير الهولندية ضد إسبانيا الهابسبرغية بقيادة وليام الأورانجي الذي حكم إنجلترا باسم وليام الثالث. [المترجم].

يمرون في هيئة الأتراك، لكن الفرنسيين كانوا دائما ما يكشفون عن أنفسهم. بيد أنه بحلول القرن السابع عشر، غدت الملابس الغربية مألوفة. ولم يواجه الرحالة الفرنسي جان ثيفنو الذي استأجر بيتا في بيرا في العام 1650، أي مشكلات في التجول خلال المدينة، وهو ما أثار ذهول سفير بلاده. لكن في القسطنطينية نفسها، كان بعض الأطفال يرمونه ببذر التفاح، فكان «بعض التجار يخرجون من دكاكينهم ويركضون وراءهم ويصرفونهم». يبدو أن التجارة وُحِّدت ما فرقة الأديان.

مقارنة مدينتي لندن وباريس المشاغبتين اللتين كانت السرقة وأعمال الشغب شائعة فيهما، كانت القسطنطينية مطيعة للقانون نسبيا. وثمة اعتقاد بأن النظام الجيد كان يرتبط مباشرة بالخوف الذي كان السلطان يبثه في نفوس الناس. يتفق مع ذلك بعد قرن رحالة إيرلندي يدعى لورد تشارلمونت:

أعتقد أنه لا توجد في أوروبا مدينة الشرطة فيها منظمة جيدا كما هي الحال في القسطنطينية، فجرائم اقتحام البيوت والسرقة في الشوارع المنتشرة للأسف في مدننا الكبيرة وتجعل الإقامة فيها بغية وخطرة^(*)، لا تحدث مطلقا في العاصمة التركية (على خلاف الغابات الخارجية)، ويستطيع المرء أن يتمشى في شوارعها في كل ساعات الليل أو حتى ينام فيها وجيبه مملوء بالمال، من دون أدنى خوف أو خطر من المضايقات. ولا تقع هنا جرائم قتل ولا اعتداءات ولا اضطرابات، ولا يُسمع هنا عن أعمال العنف الوحشية التي يولع بها شبابنا المتهورون سيئو التربية لإبراز أنفسهم.

كانت هذه الحالة السعيدة في رأيه ناتجة عن «الصرامة المفيدة عبر عمليات الإعدام المتكررة»⁽¹⁰⁾. وكتب زائر إنجليزي أن الناس في الشوارع كانوا «معنا أكثر تهذبا ولطفا مما يمكن أن نعاملهم نحن الإنجليز به». كان الأجانب يتعرضون للتحديق فيهم، وأحيانا يرمون بالحجارة (وهو ما كان يحدث كثيرا في لندن مع الأجانب والرجال والنساء الإنجليز حسني المظهر)، لكنهم كانوا يستطيعون أن يرتادوا المطاعم الشعبية. وفي غرفة خاصة، كانوا يأكلون «الكابوبو cabbob وهو عبارة عن قطع صغيرة من اللحم في حجم الجوزة تعلق في أشياش حديدية طويلة». وإبان القرن السابع عشر

(*) باستثناء الفترة 1920 - 1980. (المؤلف).

كانت الشوارع قذرة وسيئة الصرف. وفي العام 1730، كانت «معبدة لكنها لم تكن نظيفة مثل لاهاي، ومع ذلك فإنها لم تكن في قذارة شوارع لندن»⁽¹¹⁾.

في العام 1662، أدرك المحترم دودلي نورث Hon. Dudley North الابن الأصغر للورد نورث، وهو بعد في عمر التاسعة عشرة، تضائل فرصه في وراثة ثروة، لذلك قرر الشاب الطموح والوسيم الانضمام إلى «شركة إقراض» في القسطنطينية، لأنه «لا يوجد سوق على وجه الأرض أكبر من القسطنطينية، عاصمة الإمبراطورية الشاسعة، التي لا يمكن أن يخطئ فيها تاجر يتمتع بالدافعية وحسن القرار الطريق إلى الثراء». أجر نورث بيتا في بيرما من ثري مسلم، وتعلم اللغة العثمانية والقانون العثماني وجمع ثروة طائلة من العمل ممولا وصائغا وتاجر «سلع عديمة القيمة». فكان يقرض المال للباشوات بفائدة عشرين أو ثلاثين بالمائة ويوفر الجواهر للقصر. لذلك يستند رأيه في الفساد العثماني إلى خبرة مباشرة وصداقة جمعته بقاض مسن. كان نورث يعتبر الهدايا الصغيرة أتعابا لولاها لشعر القاضي بأنه تعرض للاحتيال: «عموما لن يقترب القاضي مظلمة صريحة من أجل أي هدية، وإذا لم يتجاهله أحد الطرفين، مهما كانت الهدايا غير متساوية، فإنه سيحكم بالحق».

عاش الكثير من الأتراك في عزلة عن المسيحيين المحليين، فضلا على التجار الأجانب الذين كانت تحيط بهم حواجز من الازدراء. تسجل مذكرات درويش من القرن السابع عشر وجودا مسالما ومنظما: يميز الدرويش الأيام بعضها عن بعض بإعطاء الصدقات والدعوات الاجتماعية وحفلات القهوة وزيارات القبور ودكاكين الحلاقين، وكان يحب زوجته، ولم يرد ذكر أحد من غير المسلمين. مقارنة بمعاصره بيبس^(*)، كان هذا الدرويش قانعا وراضيا⁽¹²⁾.

على الجانب الآخر، وخارج العالم المغلق للأتقياء، جذبت المشروبات الكحولية والربح الأتراك إلى بيوت الأجانب وحاناتهم. فتح دودلي نورث بيته لأصدقائه الأتراك، ومن بينهم كبير موظفي الجمارك الذي كان بدوره يستضيف دودلي في بيته. وكان دودلي يرد على محاولات أصدقائه بأن يعتنق الإسلام بالقول إنه «تربى على شرب

(*) سامويل بيبس Samuel Pepys (من 23 فبراير 1633 إلى 26 مايو 1703) موظف إداري في الأسطول الإنجليزي وعضو برلمان، اشتهر ببيومياته التي كتبها على مدار عقد في شبابه والتي تكشف عن تفاصيل الحياة اليومية والأحداث الكبرى في أيامه، ترقى من خلال الرعاية وعمله الدؤوب إلى منصب السكرتير الأول لإمارة البحر في عهد تشارلز الثاني، رغم عدم خبرته في البحرية. [المترجم].

الخمر وأكل لحم الخنزير». وفي العام 1680 قرر أن يغادر القسطنطينية، لكن أغنى كثيرا مما جاءها. لم يصدق أصدقاؤه أنفسهم. «لماذا يا كافر هل أنت مجنون؟ هل ضاع عقلك تماما حتى تترك هذا المكان؟»، وفي لندن أصبح دودلي المدافع عن حرية التجارة والملكية القوية، مفوضا للخزانة وعضوا في البرلمان، ومات في العام 1691⁽¹³⁾. على الرغم من أن التجار الأجانب كانوا يحققون أرباحا كبيرة، فإن التجارة الخارجية لم تكن لها الغلبة على الاقتصاد العثماني. فحتى القرن التاسع عشر كانت الإمبراطورية العثمانية عالما اقتصاديا مصغرا، وكان المسلمون هم التجار الأنشط فيه. فثمانية ونصف بالمائة فقط من مجموع السفن التي غادرت القسطنطينية إبان القرن الثامن عشر ذهبت إلى أوروبا، وذهب البقية كلها إلى موانئ داخل الإمبراطورية العثمانية. ومن مجموع تراخيص السفن بالمدينة إبان القرن الثامن عشر، كان واحد وسبعون ونصف بالمائة منها لسفن إسلامية (سبعة أثمانهم سفن تركية والبقية سفن عربية) وأربعة وعشرون ونصف بالمائة مسيحية وثلاثة ونصف بالمائة يهودية⁽¹⁴⁾. وكان الأتراك يسيطرون على أهم تجارة في المدينة وهي الطعام. كانت مهمة إشباع جوع أهل القسطنطينية وإرواء ظمئهم تشغل السلاطين والصدور العظماء بدرجة أكبر من حماية طريق الحج إلى مكة. أوصل سليمان إمداد المياه للمدينة إلى قمة كفاءته، حين أمر مهندس المعماري سنان بأن يعيد بناء القنوات وأبراج الماء البيزنطية القديمة في العامين 1563 و1564. وفي الغابات والوديان الواقعة إلى الشمال من المدينة، فاق مُجمّع السدود وخزانات الماء والقنوات التي شيدها السلاطين المتعاقبون ما بناه أسلافهم البيزنطيون في الحجم والفائدة والأناقة. وكما فعل الأباطرة الرومان، زود السلاطين العثمانيون عاصمتهم أيضا بالطعام الرخيص، إذ تحتوي الوثائق كثيرا عبارات مثل «يعد توفير الحبوب أحد الاعتبارات الأساسية لحكومتي الإمبراطورية». تكشف كلمات قانون للأسعار من العام 1676 عن السبب وراء حرص الحكومة العثمانية على تنظيم الأسعار:

سيطبق موظفو الدولة بأنفسهم عمليات تثبيت الحد الأقصى للأسعار، وسيحرصون دائما على أن يتابعوا بأنفسهم ظروف حياة السكان، ذلك أن تطبيق الحد الأقصى للأسعار يشكل أحد العناصر في هدوء الناس، لذلك يلزم تنظيم شؤون الناس والأسواق.

لم يكن بمقدور الحكومة أن تطمئن إلى «هدوء الناس»، لذلك كان الصدر الأعظم يقوم بنفسه كل يوم أربعاء بالتفتيش على أسواق المدينة. وإبان القرن التاسع عشر شاهد ديبلوماسي إنجليزي شاب مسؤولاً حكومياً يقوم بمعايرة موازين التجار يرافقه رتلان من الانكشارية يحملون صولجاناً بيضاء. اكتشف المسؤول تاجراً موازينه خفيفة، فأخذه أحد جنود الانكشارية ليلقى عقابه. وثمة مذنبون آخرون كانوا يساقون خلال المدينة معلقة برقابهم ألواح خشبية تتدلى منها أجراس مصلصلة⁽¹⁵⁾. على طول شاطئ القرن الذهبي أقيمت مخازن للحوم والحبوب والأطعمة الأخرى المشحونة إلى العاصمة. كان السمك يباع على أرصفة الميناء بغطاة فيما أسماه الرحالة الفرنسي جان ثيفنو «أفضل سوق للسمك في العالم». كان الباعة جميعهم تقريباً من الأتراك وكانوا يقفون متراصين حول الميدان أمامهم أكوام من السمك على حصر على الأرض أو على طاوولات طويلة يلتف حولها المشترون ويساومون على الأسعار، بينما تعوي الكلاب حولهم. كان سمك البوري يصطاد من البسفور، وأحياناً من صناديق نصبت فوق ركائز خشبية. وكان المحار يأتي من بحر مرمرية، والإسقمري من البحر الأسود. وكان لسمك السيف والسردين وسمك التن المملح محبوبون أيضاً^(*).

وعلى الجانب الجنوبي للقرن الذهبي، وبجانب جامع السلطنة الوالدة الجديد Yeni Valide Cami، كان يوجد بازار التوابل، وهو عبارة عن بناية طويلة على شكل حرف تي T، كان يتميز برائحة الثوم والفلفل والزعفران واللبن، وكان يدفع إيجاراً للجامع الذي أقيم في جواره. كان هذا السوق يسمى أيضاً البازار المصري لأن معظم التوابل والعطور كانت تأتيه من مصر مع حمولة من الأرز والقهوة والعدس والبخور والحناء في «قافلة القاهرة السنوية» المكوّنة من عشر سفن أو يزيد^(**). كان تنظيم هذه القافلة إحدى المهام الأساسية لوالي مصر، وكان وصولها إلى القسطنطينية لا يقل أهمية عن الوصول السنوي «للأسطول الأطلسي» من أمريكا إلى إشبيلية^{(16)(***)}.

(*) كان صيادو السمك في البسفور يتمتعون بمهارة فائقة، حتى إن وزير البحرية الفرنسي كلف الرسام جان - باتيست فانمور Jean - Baptiste Vanmour في العام 1713 برسم اثنتي عشرة لوحة تصور طرقهم في الصيد، كجزء من برنامج لإنعاش الصيد الفرنسي. [المؤلف].

(**) راجع حاشية سابقة للمترجم حول البازار المصري والسبب وراء اسمه. [المترجم].

(***) أسطول الأطلسي الإسباني أو «الإبحار الهندي» هو الأسطول الذي كان يأتي من العالم الجديد إلى إشبيلية بحمولة المعادن النفيسة مرة واحدة في العام. [المترجم].

وفيما كانت مصر توفر التوابل، كانت اللحوم تأتي إلى المدينة من الأناضول والبلقان. وكانت الإمدادات يضمنها نظام معقد يقوم على تحديد حصص للمزارعين الريفيين المسجلين، وإرسال موظفين يعرفون باسم الجلابين celebs لشراؤها بأسعار منخفضة محددة رسمياً، وفحص الأعداد لدى وصولها إلى المدينة. وبين العامين 1544 و1829، كان أمراء ولاشيا ومولدافيا ملزمين بإرسال مائة ألف رأس من الخراف (وأكثر من ذلك في أغلب الأحيان) سنوياً إلى القسطنطينية. ولاحقاً، انسل النظام من يدي الدولة إلى أيدي «تجار القسطنطينية وأثريائها». كتب مؤرخ القرن السابع عشر مصطفى نعيمة أنهم «اعتادوا تقديم مبالغ مالية إلى كل أمير جديد من أمراء ولاشيا ومولدافيا شريطة أن يجمعوا من الفلاحين الأصناف المذكورة أعلاه»⁽¹⁷⁾.

كان الاستهلاك السنوي للخراف من جانب القصر (وهو ما قد يشمل الثمانيين أو المائة ألف موظف حكومي الذين كانوا يقيمون دائماً في العاصمة) ضخماً. بلغ هذا الاستهلاك في 1490/1489 إجمالي 16,379 من الضأن، وهو الرقم الذي ارتفع في 1574/1573 إلى 38,226 ضأن، وفي 1670/1669 إلى 99,120 ضأن، وفي 1762/1761 مشتملاً استهلاك الانكشارية إلى 211,116 ضأن، وفي 1804/1803 ارتفع إلى 336 ألف ضأن. كانت معدة مواطني القسطنطينية مميّزة عن غيرهم من البشر لدرجة أنه في إحدى المناسبات في العام 1577 منع ذبح الضأن والحملان تماماً في البلقان، إذ حُجزت للعاصمة، وتُرك للقرويين أكل لحم الماعز والأبقار.

كان عيد الخضر، وهو اليوم الذي يبحر فيه القبطان باشا، يوم عيد للجزائريين أيضاً، إذ كان يسمح لهم بالبدء في ذبح الحملان (كانت معظم مجازر الحيوانات توجد بالقرب من مجازر البشر الواقعة في قلعة الأبراج السبعة). ونتيجة للإصرار الذي ألمحنا إليه آنفاً على توفير لحوم رخيصة للمدينة، فقد كانت هوامش ربح الجزائريين منخفضة وكانوا يتعرضون كثيراً للإفلاس. ومع نهاية القرن السادس عشر، كان الوجهاء الأغنياء من الأناضول أو البلقان يُجبرون على العمل كجزائريين في القسطنطينية، وكانوا عادة يحصلون على وظائف حكومية لتجنب هذا المصير. كان الضحية من هؤلاء يؤخذ تحت حراسة مسلحة إلى العاصمة بعد أن يُرغم على بيع ممتلكاته لضمان أن يتوافر معه المال الكافي للاستثمار في الجزيرة. كان تردده ينتج جزئياً عن أخطار العناية بمهنتهم الجديدة. وفي العقد السادس من القرن السابع عشر، كان محمد الرابع يجوب الأسواق متخفياً يتبعه الجلادون على مسافة بعيدة. كتب ثيفنو: «كان أحياناً يذهب إلى المخابز

ويشتري خبزا، وأحيانا يذهب إلى الجزار ويشتري لحما، وفي أحد الأيام عرض عليه جزار سعرا للحم أعلى من السعر الذي حدده هو، فأومأ السلطان بإشارة إلى الجلاد الذي قطع رأس الجزار في الحال»⁽¹⁸⁾.

لم تكن اللحوم الجزية الوحيدة التي تُنتزع من ولاشيا ومولدافيا، إذ كانتا تمدان القسطنطينية بالعسل والجبن وجلود الثيران والشحم للشموع والقمح والشعير للإسطبلات الإمبراطورية. بينما كان الزبد والملح يأتيان من القرم، والسكر من قبرص، والصابون من سورية. وكانت الفواكه الطازجة والدواجن تُنتج في «بستان الإمبراطورية العثمانية»، وهو المنطقة التي تمتد شرقا على طول ساحل البحر الأسود. وكان الزبيب واللوز والتين وشمع النحل تأتي من منطقة غرب الأناضول حول ميناء إزمير الكبير. بحلول العام 1650، وبفضل موقعها الجغرافي وتحررها النسبي من التدخل الحكومي، بدأت إزمير التي كانت توصف بأنها «لؤلؤة المشرق» في منافسة القسطنطينية نفسها كعاصمة تجارية، وظلت على هذا النحو حتى العام 1922⁽¹⁹⁾. وبحلول العام 1700، كانت القسطنطينية تستهلك زهاء أربعة ملايين ضأن وثلاثة ملايين حَمَل ومائتي ألف بقرة في السنة، وخمسمائة طن من القمح في اليوم. وفي الشتاء، كانت الحكومة توفر لأفران المدينة مائة وثلاثة وثلاثين احتياطيا لثلاثة أشهر من إمدادات القمح لضمان رخص أسعار الخبز. وحظرت الحكومة كذلك تصدير القهوة والأرز من المدينة «حتى تسود الوفرة في القسطنطينية». وقد ساعدت السياسة الحكومية ونظام إطعام الفقراء من خلال المساجد في جعل القسطنطينية إحدى أفضل المدن في أوروبا من حيث وفرة الغذاء للناس. كتب لورد بالتيمور Lord Baltimore في العام 1763 أن: «الإمدادات دائما وفيرة جدا ورخيصة جدا وجيدة جدا»⁽²⁰⁾. فالندرة والمجاعات التي شهدتها فرنسا وإيرلندا وبوهيميا وأعمال الشغب من أجل الطعام التي غيرت مسار التاريخ في باريس في العام 1789^(*) وفي بيتروغراد في 1917^(**)، لم تعرفها العاصمة العثمانية تقريبا.

وكما كانت الحال مع أنواع التجارة الأخرى، كانت تجارة الطعام تدار عن طريق نظام الطوائف الحرفية، الذي ربما ترجع جذوره إلى النقابات البيزنطية. وبحلول

(*) يقصد المؤلف الثورة الفرنسية التي كان على رأس الأسباب المباشرة لاندلاعها انهيار الاقتصاد بسبب الحروب وسوء الحصاد وارتفاع أسعار الغذاء وسوء نظام النقل الذي أدى إلى زيادة الغلاء. [المترجم].

(**) بيتروغراد Petrograd كان اسم مدينة سانت بطرسبرغ التي كانت عاصمة روسيا حين انطلقت الثورة الشيوعية منها باقتحام البلشفيين بقيادة فلاديمير لينين القمر الشتوي للقيصر في حادثة عرفت باسم ثورة أكتوبر. [المترجم].

منتصف القرن السابع عشر، كما يذكر أوليا جلبي، كانت هناك ألف ومائة طائفة حرفية منظمة ضمن سبع وخمسين مجموعة. لم يقتصر تكوين الطوائف الحرفية على الجزارين والخبازين وصناع القفاطين فقط، بل كانت للصوص والمومسات طوائف خاصة بهم أيضا. كانت هذه الطوائف الشكل الأساسي للهوية الجماعية في المدينة خارج الوظائف الحكومية. نظمت الطوائف دخول الأعضاء الجدد إلى الحرفة، وكانت لها ماليتها الخاصة ووفرت شكلا من الضمان الاجتماعي للمرضى ومصدرا للقروض للأعضاء الراغبين في توسيع أعمالهم. وكانت الطوائف الحرفية تشرف على تنظيم اجتماعات الصلاة في أيوب وعلى توزيع الطعام على الفقراء وعلى المهرجانات خارج أسوار المدينة التي كانت تقام أيضا كشكل من المعارض التجارية⁽²¹⁾. وكانت العائلة الحاكمة تضمن السيطرة على الحياة الاقتصادية للمدينة من خلال تعيين مسؤول من العائلة الإمبراطورية على رأس كل حرفة في المدينة، فوضع الصاغة تحت رئاسة القيومجي باشي kuyumcubasi أو رئيس الصياغ الإمبراطوري، ووضع الأطباء تحت رئاسة الحكيم باشي hekimbasi أو رئيس الأطباء الإمبراطوري، ووضع الخياطون تحت رئاسة الترزي باشي terzibasi أو رئيس الخياطين الإمبراطوري.

كان اليونانيون يلون المسلمين مباشرة في العمل بالتجارة، وكانوا التجار الأساسيين في القسطنطينية. وقد أعطتهم منطقة التجارة الحرة الشاسعة للإمبراطورية العثمانية وحروبها المتكررة مع المنافس الاقتصادي القديم لليونانيين - البندقية - مكانة تجارية أقوى من تلك التي تمتعوا بها في القرون الأخيرة للإمبراطورية البيزنطية. وفي العام 1476 منحت عقود إيجار لأرصفة ميناء غاليبولي وغلطة لائتلاف يوناني شمل اثنين من أفراد عائلة باليولوجوس من أقارب الإمبراطور البيزنطي الأخير. قدم هذا الائتلاف عطاء أكبر من منافسيهم المسلمين، إذ عرضوا المبلغ الهائل أربعمائة وخمسين ألف دوقية. وفي العام 1477، اشترى يونانيان الحق في إدارة الرسوم الجمركية على استيراد القمح للمدينة بمليون أقة⁽²²⁾. فكان النجاح في التجارة بديلا لهؤلاء عن حكم إمبراطورية.

تصوّر حياة ميخائيل كانتاكوزينوس Michael Cantacuzenos المكافآت والأخطار التي كانت تنتظر التاجر اليوناني في القسطنطينية. ولد ميخائيل في نحو

العام 1515، وكان حلقة الاتصال البشرية بين العاصمتين البيزنطية والعثمانية. تحدر ميخائيل من الإمبراطور جون كانتاكوزينوس الذي دعا العثمانيين إبان القرن الرابع عشر إلى أوروبا وزوج ابنته ثيودورا من أورخان Orhan ثاني السلاطين العثمانيين. مات أحد أفراد عائلة كانتاكوزينوس، كان يحمل لقب رئيس العائلة. في أثناء حصار العام 1453 وصفه ميخائيل كانتاكوزينوس بأنه «شرف اليونانيين في كلامه وأفعاله»، ومن المؤكد أن ابنه مات بسبب الطاعون في الخامس والعشرين من يونيو 1522 ودُفن في كنيسة القديسة باراشيفا في هاسكوي. كانت هذه العائلة أبرز عائلة يونانية في المدينة. نشر أحد أقاربه، هو ثيودور كانتاكوزينوس سباندوغينو Theodore Cantacuzenos Spandugino، في العام 1515 واحدة من الروايات المبكرة للإمبراطورية العثمانية التي يعتمد عليها الكتاب الحالي.

جمع ابن ميخائيل كانتاكوزينوس الذي يسمى ميخائيل هو الآخر، بين العمل تاجر فراء للسلطان وملتزم جمارك، وبين كونه القوة الحامية للعرش البطريركي والصدیق الحميم للصدر الأعظم صوكولو. أقام في القسطنطينية وفي قصر على البحر الأسود، وكانت تخدمه بطانة من الخدم والعبيد والغلمان خدمة الملوك. وفي القسطنطينية، ووفقا للسجين الألماني جيرلاتش Gerlach، كان ميخائيل «يتنقل في المدينة كرجل عجوز بشوش على ظهر حصان مدثر بالمخمل الأسود، يتقدمه ستة رجال، ويسير وراءه رجل آخر متواضع الثياب». وكما كانت الحال مع اليونانيين الفناريين الذين سنناقشهم في الفصل التالي^(*)، جمع ميخائيل بين الفخر بالإمبراطورية البيزنطية وبخدمة العثمانيين، فكان يختم رسائله بالنسر ذي الرأسين الذي كان شعار الإمبراطورية البيزنطية، لكنه أيضا بنى عشرين قادسا على نفقته الخاصة للأسطول العثماني بعد هزيمته أمام أسطول الحلف المقدس المكوّن من البندقية وإسبانيا والبابوية في ليبانتو في العام 1571.

أكسبه جشعه اسم «ابن الشيطان» Seytanoglu بين الأتراك، بينما عده اليونانيون تطفليا ولصا. وقد فرح الجميع عندما أمر السلطان في الثالث من مارس 1578 بشنقه على مدخل قصره الريفي دون إمهاله لكي يتوب بين يدي كاهن أو

(*) الفناريون Phanariot نسبة إلى حي الفنار وهو الحي اليوناني الرئيس في القسطنطينية الذي توجد فيه البطريركية المسكونية. [المترجم].

مدينة الذهب

يكتب وصية. ورط ميخائيل نفسه في اثنتين من شبكات المكائد: النزاع بين الإمارات التابعة للعثمانيين مولدافيا وولاشيا والقرم التي تورط فيها شخصيا؛ لأن أخاه كان قد تزوج ابنة أمير ولاشيا، وفي القسطنطينية نفسها في صراع سري على السلطة بين السلطان مراد الثالث والصدر الأعظم صوكولو. صُنع صوكولو بموته، لكنه تمكن من حماية ابنه وأرملته.

عند بيع ممتلكات كانتاكوزينوس خارج جدران القصر، كان المشترون يختارون من «عدد لا يحصى من الملابس الحريرية والمخملية والأقمشة المطرزة، بعضها يحتوي على أزرار ذهبية تؤطر أحجارا من الياقوت والفيروز، وفراء السمور الرائع، وخيول فخمة، احتفظ السلطان بعشرين منها لنفسه. ودخلت العبارة «اشتريته من مزاد كانتاكوزينوس» المفردات المتداولة للمدينة. وتسابقت جامعة توبنغن والأديرة الأرثوذكسية الغنية بجبل أثوس على اقتناء مخطوطاته اليونانية. غادرت عائلة كونتاكوزينوس القسطنطينية إلى ولاشيا في أوائل القرن السابع عشر، وصارت حلقة الاتصال الأولى بين اليونانيين العثمانيين وإمارات حوض الدانوب التي بلغت أوجها إبان القرن الثامن عشر⁽²³⁾.

تحت أمراء التجارة من نوع كونتاكوزينوس، كان يوجد آلاف التجار اليونانيين وأصحاب الدكاكين والحانات والنوتية. كان اليونانيون متلهفين إلى التجارة لدرجة أنهم واصلوا العمل في القسطنطينية حتى بعد أن طرد الطاعون التجار الآخرين إلى الريف. وكانت الطوائف الخاضعة لهيمنة اليونانيين تشارك - مع مجمع الاثني عشر أسقفا ووجهاء المدينة - في انتخاب البطريرك حتى منتصف القرن التاسع عشر. كانت تجارة الفراء، التي كانت مهمة لأبهة القصر وصعود ابن الشيطان، تنظمها طائفة قوية، كانت تدفع نفقات صيانة المدارس والمستشفيات في العاصمة وكنيسة المهدي، فقد كانت القسطنطينية تقدم العون المالي إلى القدس ومكة⁽²⁴⁾.

ثمة مزيج من التوتر والتسامح ميّز العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والمسيحيين واليهود في المدينة، تماما كما ميّز العلاقات الدينية بينهم. في فيلنيوس Vinla بليتوانيا قبل القرن العشرين، ونظرا إلى أن الأعراق المختلفة كانت تحتكر حرفا ومهنًا مختلفة، كانت اللغة الليديشية تستخدم لمخاطبة الحوذي، والبولندية

لمخاطبة معلم المدرسة، والألمانية لمخاطبة طبيب الأسنان، والليتوانية لمخاطبة الجارية. بيد أن مثل هذا التخصص لم يكن ضروريا في القسطنطينية، إذ لم تكن هناك حرفة واحدة، حتى حرفة بناء المساجد، حكرا على جماعة بعينها. فمن بين الثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسة وعشرين حرفيا الذين عملوا في الجامع السليمانى في العقد السادس من القرن السادس عشر، كان 51 بالمائة من المسيحيين. ومن بين الثلاثمائة وواحد وثلاثين جزارا بالقسطنطينية في العام 1681، كان هناك مائتان وخمسة عشر من المسلمين، وسبعون من المسيحيين، وستة وأربعون من اليهود. ومن بين ثمانية وعشرين جراحا كانوا يحملون رخصة مزاولة المهنة في العام 1700، كان هناك اثنا عشر من اليونانيين وثمانية من اليهود وأربعة من المسلمين واثنان من الإنجليز وواحد من الفرنسيين وواحد من الأرمن. ومع أن معظم الطوائف كانت لها رعاية رُوحيون مسلمون، مثل داود لصناع الأسلحة أو يونس لصيادي السمك، فإن الكثير منها كان يتألف من المسلمين وغير المسلمين على حد سواء⁽²⁵⁾.

كانت العلاقات بين المسيحيين واليهود في القسطنطينية أسوأ منها بين المسيحيين والمسلمين. ففي بعض الأحياء اليونانية، كان اليهودي إذا ظهر في الشارع في أثناء أسبوع الآلام، كان الصبية يدهنون لحيته بالقطران ويشعلون فيها النار. وكانت مواكب الجمعة الحزينة تتضمن مجسما ليهوذا مرتديا زي حبر محلي، كان الصبية يقذفونه بالأوساخ ويوجهون إليه - على نحو ما يتذكر أحد اليونانيين - «أقذع الشتائم». وكان الموكب يتوقف عند كل بيت مسيحي لكي يعطي أهل البيت الموكب مالا أو بيض الفصح، كانوا يشترون بالمال خشبا لحرق «يهوذا» ويأكلون البيض احتفالا بموته.

وفي المقابل، كان سكان المدينة المسلمون متسامحين مع اليهود أو غير مبالين بهم. وفي العام 1492، إثر سقوط غرناطة، طُرد اليهود من قشتالة، وتبعتها أراغون والبرتغال مباشرة بطردهم. ففتحت الإمبراطورية العثمانية أبوابها لليهود. وفي تعليق شهير مشكوك في صحته، قال بايزيد الثاني: لا يمكن أن يكون الملك فردناند ذكيا كما يشاع، إذا كان يطرد هذا العدد الكبير من الرعايا الماهرين لإثراء ملك منافس⁽²⁶⁾.

وبعد العام 1502، رحب العثمانيون أيضا بالعرب المطرودين من غرناطة. فبعد أن خيّرهم الملكان الكاثوليكيان^(*) بين اعتناق النصرانية والهجرة، أثر الكثيرون منهم الرحيل، ليس إلى المدن العربية القريبة، وإنما إلى القسطنطينية، وفيها استولوا على كنيسة القديس بول الكاثوليكية في غَلَطَة وحولوها إلى جامع العرب^(**)، وهو الاسم الذي لا يزال يحمله الجامع إلى اليوم. وبعد أن تلقت غَلَطَة مزيدا من «الغرناطين» مع اشتداد الاضطهاد للمسلمين الباقين في إسبانيا أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر، أصبحت المدينة مركزا للبحارة العرب الذين كانوا يلبسون اللباس العربي وأدخلوا الحلوى والمشروبات العربية⁽²⁷⁾. وبالنسبة إلى اليهود والعرب، ولسيل المسيحيين الذين ظلوا يغادرون أوروبا الغربية إلى الإمبراطورية العثمانية حتى القرن التاسع عشر، كانت القسطنطينية المدينة الملاذ، إذ وفرت لهم ثلاث مزايا: التسامح والازدهار والانتقام، وهذا الأخير لكونها عاصمة لإمبراطورية تدخل كثيرا في حروب مع الدول التي نبذتهم.

كان ميناء سالونيك الكبير المعروف باسم «القدس الجديدة» الذي سرعان ما أصبح اليهود الأغلبية فيه، معقل اليهودية العثمانية. ومع ذلك، فقد ضمت القسطنطينية ثمانية آلاف وسبعين بيتا يهوديا بحلول العام 1535، أي خمسة أضعاف الرقم المقابل في العام 1477. تكشف أسماء المعابد اليهودية بالمدينة مثل لشبونة وقرطبة وميسينا وأوخريد^(***)، وكذلك أسماء العائلات مثل

(*) بعد أن استرد فرناند الأراغوني وإيزابيلا القشتالية إسبانيا بالاستيلاء على مملكة غرناطة، كرمهما البابا بلقب «الملكين الكاثوليكيين»، ولاحقا استغل الملكان ثورة أندلسية في أوائل القرن السادس نتجت عن نقضهما اتفاقية تسليم المملكة لشحن حملة إبادة ضد الأندلسيين وتخييرهم بين البقاء في إسبانيا مع اعتناق المسيحية و النفي، فأثر بعضهم النفي، ودخل غالبيتهم المسيحية مكرهين تحت حد السيف، وبعد أن أصبحوا «مسيحيين جددًا» أخضعتهم محاكم التفتيش لمعاملة قاسية، فكانت حرب البشرات (1568 - 1570) التي أبادت منهم ما أبادت وشتت الباقين على التراب الإسباني، وأخيرا طرد الباقون (نحو خمسمائة ألف شخص) في نهاية العقد الأول وأوائل العقد الثاني من القرن التالي. [المترجم].

(**) جامع العرب Arap Cami هو الجامع الوحيد في المدينة الذي بني على طريقة العمارة القوطية الأندلسية، سُمي بهذا الاسم لأن السلطان بايزيد الثاني خصصه للاجئين العرب «الأندلسيين» المطرودين من إسبانيا خلال عملية التهجير الجماعي التي نفذتها إسبانيا بحق بقايا المسلمين هناك في العقدين الأول والثاني من القرن السابع عشر. ثمة أسطورة عثمانية تذهب إلى أن من بنى هذا الجامع هو الأمير والقائد الأموي مسلمة بن عبد الملك في أثناء الحصار العربي الأول للقسطنطينية في العامين 717 و 718. [المترجم].

(***) أوخريد Ohrid أو Ohrida مدينة على الشاطئ الشرقي لبحيرة أوخريد بمقدونيا وعاصمة محافظة بالاسم نفسه. [المترجم].

الإشبيلي والطليلي والليوني والتارانتى عن تنوع أصولهم. كانت القسطنطينية مدينة الهويات المزدوجة. ومع ذلك فقد حمل اليهود السفارديم ثلاث هويات، إذ كانوا يهودا وعثمانيين و«سفارديين» أي إسبان (*). وأضيفت لغة جديدة إلى اللغات التي كانت تُسمع في شوارع القسطنطينية، هي القشتالية (الإسبانية) المحنطة التي تسمى اللادينو (اللغة المكتوبة) أو الجوديزمو (اللغة المنطوقة).

لم يكن للغة اللادينو استخدام كبير في السياسة أو التجارة. وكان السبب الأساسي لبقائها دينياً، إذ كانت اللغة التي يقرأ بها الكتاب المقدس ويرتل في البيت وفي الكنيس. وفي القسطنطينية، وعلى الرغم من بقاء الطوائف «الرومانية» الناطقة باليونانية، كان اليهود واللغة الإسبانية مترادفين، حتى إن كثيراً من الأتراك كانوا يطلقون على اللغة الإسبانية اسم «اليهودية». وحتى العام 1869، وهو وقت متأخر فعلاً، وفي أثناء زيارة الإمبراطورة أوجيني، خاطبها الحبر الأكبر بالإمبراطورية العثمانية بلغتها الأصلية: الإسبانية. وفي العام 1873، عندما افتتح أول خط حديدي بالقرب من المدينة، لم يتمكن اليهود من العمل فيه، لأنهم لم يكونوا يعرفون لغة البلد الذي كانوا يعيشون فيه لأكثر من ثلاثمائة عام⁽²⁸⁾.

ففي البيوت الغنية في المناطق اليهودية في حي بالات وحي هاسكوي على جانبي القرن الذهبي، كان اليهود يسمعون التركيتو turkito («التركي» أي المؤذن) على الفرندا verandado (قاعة كبيرة في الطابق الأول). وفي الكونفيتات convitas (الحفلات)، كانوا يأكلون أطباق مثل البسكادو رينادو Piskado reynado (السّمك بالجوز)، ويغنون رومانسيروا romanceros (أغاني) تندب نفيهم من إسبانيا. أما العائلات الأفقر، فكانت تعيش في الكورتيجو cortijo، وهو عبارة عن بناية منخفضة تحتوي على مساكن ودكاكين، قد تشترك فيها عائلتان أو ثلاث في غرفة واحدة^{(29)(**)}.

(*) كلمة سفارديم Sephardim مشتقة من الاسم العبري لإسبانيا سفاراد Sefarad التي اعتبرها اليهود وطنهم نتيجة للتسامح الذي وجدوه فيها من جانب الممالك الإسلامية والمسيحية قبل أن تكتمل عملية «الاسترداد» ويسيطر هوس الوحدة الدينية على حكام إسبانيا. [المترجم].

(**) أثر المترجم أن يبقى على الكلمات الإسبانية مكتوبة بحروف عربية ولاتينية حتى لا يضيع المعنى، وهو تمسك اليهود بترائهم الإسباني. [المترجم].

وفي عالم التجارة والطب، كان تطور التكافل بين اليهود والمسلمين أشبه بذلك الذي تبلور بين اليونانيين والأرمن. ونجح يهودي إسباني بارز، هو موسى بن هامون Moses Hamon، الطبيب المفضل لسليمان القانوني، في استصدار فرمان أواخر العام 1553 أو أوائل العام 1554 يقضي بأن تحال كل اتهامات جرائم القتل الطقوسي للأطفال المسيحيين التي تنسب إلى اليهود إلى الديوان الإمبراطوري^(*). أثارت الاتهامات من هذا النوع من جانب المسيحيين في الإمبراطورية العثمانية التي ظلت تتواتر كثيرا حتى القرن العشرين، أعمال شغب من جانب اليونانيين ضد اليهود في القسطنطينية نفسها حتى العام 1874.

ثمة رمز مادي للتسامح الإسلامي - اليهودي يتمثل في القرب المكاني بين كنيس يهودي صغير ومسجد على الطابق الأول من خان قورباشي الكبير Buyuk Corapci Han، وهو خان صناع الجوارب الذي بُني في عهد سليمان القانوني في المنطقة التجارية يحي إمينونو بين البازار والقرن الذهبي. استغل يهود المدينة معرفتهم باللغات والطرق المحاسبية الغربية، فصعدوا إلى آفاق جديدة إبان القرن السادس عشر على حساب التجار الإيطاليين. وفي ذلك كتب الدبلوماسي الفرنسي الذي عاش في القسطنطينية في عهد سليمان القانوني نيكولاس دي نيكولاي Nicolas de Nicolay بلغة تنم عن الحسد:

تحت أيديهم الآن معظم نقل البضاعة ومال سائل يعمل بالفعل في المشرق كله. وأفضل الدكاكين والأكشاك تجهيزا بكل أنواع السلع في القسطنطينية يملكها يهود. وبينهم أيضا ممارسون ممتازون جدا في كل الفنون والصناعات، خاصة المارانو^(**) الذين لم يمض على طردهم من إسبانيا والبرتغال وقت

(*) القتل الطقوسي هو قتل البشر، خاصة الأطفال، في شعيرة دينية، وهي جريمة كان المسيحيون في إسبانيا ينسبون لها كثيرا إلى اليهود قبل طردهم، ثم إلى المسلمين بعد طرد اليهود، وكانت في الغالب تحيط بها ظروف وملايسات غامضة، وربما كانت تنتج فعسب عن حالة الهوس والعداء الدينيين، من أدلة ذلك الجريمة التي وقعت في بلدة لاغوارديا La Guardia بقشتالة التي اتهم فيها مجموعة من اليهود والمُنصرّين بقتل طقوسي لطفل مسيحي، فمع أنه لم يُعثر على طفل مقتول مطلقا، ولم يتضح أن أي عائلة في البلدة فقدت طفلا، فقد قضت محكمة التفتيش بانتزاع أحشاء يهوديين بكلاليب ساخنة وإحراق خمسة مُنصرّين في مكان عام. [المترجم].

(**) المارانو marranos اسم إسباني من أصل عربي بمعنى «المحرّم» أطلقه المسيحيون في أيبيريا على اليهود الذين اعتنقوا المسيحية أو نُصروا كرها، وبعضهم ظل يؤدي الطقوس اليهودية سرا. وقد ظهر هذا المصطلح في العام 1492 في مرسوم الحمراء الذي نقض اتفاقية غرناطة لعام 1491، واكتسب الاسم دلالات ازدراكية، إذ أصبح يعني الخنازير والأقذار والغادرين. [المترجم].

طويل، الذين يلحقون ضررا بالغاً بالمسيحية بتعليمهم الأتراك عدة اختراعات وحيل وماكينات للحرب مثل طرق صنع المدافع والقربينات والبارود وقذائف المدافع وأسلحة أخرى^{(30)*}.

وبفضل معرفتهم الطبية، عمل اليهود أطباء في القصر حتى القرن التاسع عشر. كانت عائلة ناسي Nasi أشهر عائلة بين يهود القسطنطينية. تضرب رحلتها الطويلة عبر الزمان والمكان المثل على غياب التسامح عن وجه أوروبا عصر النهضة، إلى أن وصلت العائلة إلى التخوم العثمانية. ففي العام 1492، غادرت العائلة قشتالة إلى البرتغال التي أجبرت فيها على اعتناق الكاثوليكية. وفي العام 1536، انتقلت إلى أنتويرب العاصمة المالية لأوروبا، ثم إلى البندقية في العام 1544، ثم إلى فيرارا في العام 1550^(**). وفي كل مدينة كان ينتظرهم الاضطهاد وتقييد الحركة (أنشئ الغيتو في البندقية في العام 1515). وفي العام 1553، جزئياً بسبب رسائل كتبها سليمان القانوني نفسه إلى دوج Doge البندقية (بتشجيع من موسى بن هامون)، سُمح لرأس العائلة الدونا غراسيا ناسي بأن تغادر إلى القسطنطينية. وبعد أشهر قليلة، دخلت السنيورة، كما كانت تسمى، المدينة دخول المنتصرين، يتبعها أربعون فارساً وأربع مركبات من الخدم. وباستخدام ثروتها الشخصية وودائع من المسلمين، عملت السنيورة سيدة أعمال مستقلة وملتزمة ضرائب. ودفعت - مع ابن أخيها جوزيف - مقدماً ثمن امتياز لإمداد المدينة بالخشب والخمر نقداً. كما أدارت شركة للتصدير والاستيراد، حيث كانت تصدر الفلفل والقمح والصوف الخام وتستورد القماش الأوروبي⁽³¹⁾.

كان جوزيف ناسي Joseph Nasi من أفراد الحاشية وممولاً ورجل أعمال دولياً. وجوزيف الذي كان معروفاً للبرتغاليين باسم جواو ميكس Joao Miques وللإسبان باسم خوان ميغيث Juan Miguez وللفرنسيين باسم جيهان ميكيث Jehan Miquez ولأعدائه باسم «اليهودي العظيم»، ولد في لشبونة في العام 1526.

(*) يتجنى هذا الرجل على العثمانيين - وليس اليهود - لأن العثمانيين كانوا في وقت من الأوقات أكثر الدول تقدماً في العالم في صنع المدفعية واستخدامها، وكانت انتصاراتهم في أوروبا وفي مصر وغيرها بفضل استخدام المدفعية، حتى في مجال البحرية ربما لم يكن يفوقهم في بعض الفترات غير البحرية الملكية البريطانية، حتى إن القوى الغربية لم تستطع أن تهزم الأتراك في معركة ليبانتو في العام 1571 إلا باتحادها ضمن الحلف المقدس. [المترجم].

(**) فيرارا Ferrara مدينة ومقاطعة إيطالية تقع على نهر دي فولانو من روافد نهر البو على بعد 50 كيلومتراً شمال شرق بولونيا. [المترجم].

وبعد انتقال العائلة إلى أنتويرب، تلقى تعليمه في جامعة لوفان Louvain التي زامله فيها تلميذا الإمبراطور الروماني المقدس المستقبلي ماكسيمليان الثاني. شاهد ساكن ألماني دخول ناسي إلى القسطنطينية في العام 1554 بـ «أكثر من عشرين خادما إسبانيا حسني الثياب، كانوا يلزمونه كما لو كان أميراً، وكان هو نفسه يرتدي ملابس حريرية مبطنة بفراء السمور، ويتقدمه انكشاريان راكبان بهراوات وزي رسمي، على عادة الأتراك، حتى لا يحدث له مكروه ... أما هو فكان شخصا ضخمة الجثة بلحية سوداء مهذبة». وفي القسطنطينية، سرعان ما أصبح، بتعبير طبيب إسباني، «أحد أتباع الشيطان»، إذ ارتد إلى اليهودية^(*).

حضر ثلاثة آلاف ضيف زفاف ناسي على ابنة عمه الغنية رينا Reyna. وعاشا على طريقة النبلاء الإسبان في قصر يدعى بيلفيدير Belvedere يطل على البسفور فوق أورتاكوي Ortakoy. وفي مكتبته المفروشة بالسجاد، كان يناقش السياسة مع السفير الفرنسي، وعلم الأحلام مع الحبر ألبوسنينو Almosnino، والتنجيم مع البطريك المسكوني. وكان ملحقا بقصره مطبعة وأكاديمية وكنيس وميدان مبارزة⁽³²⁾.

سرعان ما أصبح ناسي صديقا لولي العرش الأمير سليم وصائغا وممولا له، فضلا على إمداده بكل من الخمر والمال. وقد ذكر دبلوماسي بنديقي: «يشرب صاحب السمو الخمر بكثرة، ويرسل إليه المدعو دون جوزيف الكثير من القناني من حين إلى آخر، وغيرها من أطعمة الترف». وعند اعتلاء سليم العرش، عُيِّن جوزيف ناسي دوقا برتبة سنجق باي sancakbey لدوقية ناكسوس Naxos في بحر إيجه التي كانت تخضع سابقا للبندقية. وعلى ذلك، فإن نجاح يهودي في العاصمة العثمانية، مكنه من إعطاء الأوامر للنبلاء الكاثوليك (الذين كانت لاتزال لهم ممتلكات كثيرة في بحر إيجه). يالها من لذة لهذا المنبوذ من أوروبا الكاثوليكية أن يصدر الأوامر تحت الصيغة:

جوزيف الذي يشغل بفضل الله دوق الأرخبيل وسيد أندروز وغيرها

... صدر في قصر بلفيدير الدوقي بالقرب من بيرافيا في القسطنطينية، في اليوم

الحادي عشر من يوليو 1577

بأمر الدوق

جوزيف كوهين، سكرتير وكاتب⁽³³⁾

(*) كانت العائلة قد أدخلت في الكاثوليكية قسرا في البرتغال، ثم عادت إلى دينها في القسطنطينية. [المترجم].

واصلت أعمال ناسي التجارية التوسع. وبدأ في تصدير الخمر الكريتي إلى بولندا، واشترى احتكاراً لتجارة الشمع. وساعدت الحكومة العثمانية في جمع ديونه في نزاع طويل مع الحكومة الفرنسية على مال كان قد أقرضه إلى السفراء الفرنسيين، إذ كتب سليمان القانوني ما لا يقل عن ثلاث رسائل إلى ملك فرنسا نيابة عن «مثال وجهاء الأمة الفيسيفسائية ورفيق ابني سليم». وكانت حظوته لدى سليم معروفة. وأرسل إليه ماكسيمليان الثاني ثلاث قوارير شرب ذهبية، بينما وصفه ملك بولندا الذي كان مديناً له، بأنه «السيد الممتاز والصديق المحبوب!».

مكنت جوزيف علاقته في أوروبا الغربية من الاحتفاظ بشبكة استخبارات دولية ساعدته في الانتقام من إسبانيا وفرنسا. ومن الوارد أنه من على ضفاف البسفور شجع ثورة هولندا ضد فيليب الثاني ملك إسبانيا. وجاء مبعوث من زعيم الثوار أمير أورانج لمقابلته في العام 1569. وكتب المؤرخ فاميانوس استرادا Famianus Strada: «بالنسبة إلى الفلمنكيين، مارست رسائل ميشيز (أي ناسي Nasi) وإقناعه تأثيراً كبيراً عليهم»، لكن لم تظهر للباحثين أي من رسائله⁽³⁴⁾.

كان ناسي لاعباً مهماً في صراع مراكز القوى في البلاط، وكان معادياً للبندقية بسبب معاملتها لليهود البنادقة. حاول محمد باشا صوكولو الذي كان له وكيل دبلوماسي يهودي (طبيبه رابي سالومون أشكنازي Rabbi Salomon Ashkenazi) ويفضل السلام مع البندقية، أن يدمره. لكن ناسي، كما كتب سفير البندقية، «نجح دوماً في إنقاذ نفسه، حتى إن السيد الكبير نفسه عفا عنه ودافع عنه في عدة مناسبات». شجع ناسي حرب الإمبراطورية على البابوية وإسبانيا والبندقية في العام 1570، ربما على أمل أن يصبح ملك قبرص، أو لمساعدة الثوار الهولنديين. وبعد معاهدة السلام في العام 1573، وموت سليم الثاني في العام 1574، تراجع نفوذ ناسي. وعلى أي حال، فإن ناسي هو الذي ضحك أخيراً، إذ سُق كانتاكوزينوس، وربما بتحريض من السلطان طعن أحد الدراويش صوكولو حتى الموت في غرفة الديوان بالقصر. ومات ناسي بسلام في قصره⁽³⁵⁾.

كان ناسي وأقاربه يناصرون القضايا اليهودية تحديداً. وفي العام 1556 حاولوا إنقاذ أربعة وعشرين يهودياً من أنكونا^(*) كان البابا قد أمر بحرقهم حتى الموت. وكتب السلطان رسالة شخصية إلى البابا، من دون جدوى. كان نفوذ عائلة ناسي

(*) أنكونا Ancona مدينة في شمال إيطاليا، عاصمة إقليم ماري. [المترجم].

وغيرها من العائلات اليهودية بالمدينة كبرا لدرجة أن الديبلوماسيون البنادقة كانوا على قناعة بأن نتيجة محادثات السلام كانت تتوقف على معاملة البندقية لرعاياها اليهود. أنشأت عائلة ناسي أكاديمية حبرية شهيرة في طبرية بالجليل، وأعادت بناء أسوار المدينة وشجعت الاستيطان اليهودي هناك⁽³⁶⁾. لكنهم كمعظم يهود القسطنطينية كانوا قانعين بكونهم رعايا «سلاطين الرحمة» كما أطلقوا على سادتهم الأتراك، ولم يخططوا للحصول على دولة يهودية.

وبعد العصر الذهبي لليهود إبان القرن السادس عشر، ظل لهم نفوذ كبير. فجددت فرمانات التي تسمح ببناء المعابد في الأعوام 1604 و1693 و1744 و1755. وعمل الكثير من اليهود في مكتب الجمارك بالمدينة لدرجة أن التجارة كانت تتوقف في أثناء العطلات اليهودية. كتب رحالة فرنسي يدعى ميشيل فيفر Michel Febvre في أواخر القرن السابع عشر: «لا توجد عائلة ذات اعتبار بين التجار الأتراك والأجانب (لا يرد ذكر المسيحيين المحليين كثيرا) لا يعمل عندها يهودي، إما لتقدير قيمة البضاعة ونوعيتها، أو للعمل مترجما، أو لتقديم المشورة في كل شيء يحدث»⁽³⁷⁾.

لكن بداية من العام 1700، بدأت مكانة اليهود تتراجع، مع تراجع الإمبراطورية التي كانوا يخدمونها. فوقعت بعض المعابد بالمدينة في الدين، وأخذ عدد الكتب اليهودية التي تطبع في القسطنطينية يتراجع عقدا بعد آخر، وأخذ التجار الأوروبيون الأغنياء والمظلون بحماية جيدة يسيطرون على تجارة المدينة⁽³⁸⁾.

تسارع تراجع اليهود بفعل صعود جالية تجارية منافسة، هي الأرمن. فبداية من أوائل القرن السابع عشر، بدأ الأرمن في التوافد على القسطنطينية بأعداد كبيرة هربا من الثورات والحروب في شرق الأناضول. في بادئ الأمر عملوا بوظائف متواضعة مثل الحمالين وصناع الملقشات وباعة الخبز واللحم المجفف المسمى بسطرمة، لكن سرعان ما انتقلوا إلى حرف أخرى. ساعدتهم في ذلك الحماية التي نالوها من القصر، ذلك لأن كلا من مراد الرابع و«إبراهيم المجنون» كانت لهما محظيات أثريات من أصل أرمني. وشهد القرن الثامن عشر ثقة و طاقة متزايدتين لدى الأرمن. وفي العام 1727، كان جد عائلة من المعمارين قُدِّر لها أن تغيّر وجه المدينة، هو القلفة سركيس باليان Sarkis Kalfa Balian، قد أصبح معماري القصر. وفي العام 1757،

عُيِّن أحد أفراد عائلة دوزيان Duzian الكاثوليكية الأرمنية مديرا لدار سك العملة الإمبراطورية، بدلا من اليهودي ياغو بونفيل Yago Bonfil، وهو المنصب الذي ظل في عائلته، بفجوة ثلاثة عشر عاما، حتى العام 1880. وسرعان ما أصبح أغلب الموظفين من الأرمن، وغدت السجلات تحفظ باللغة العثمانية مكتوبة بالأبجدية الأرمنية التي كان قليلون من الأرمن فقط هم من يستطيعون قراءتها. وأصبحت عائلة دوزيان أيضا حراسا لجواهر السلطان.

حل الأرمن الذين اعتُبروا أكثر أمانة وموثوقية من غيرهم، محل اليهود كموّلين أساسيين للمدينة. وكان آخر ممول يهودي لصدر أعظم هو يوسف سونسينو Jesova Soncino في العامين 1746 و1747، وآخر ممول يوناني هو سكانافي كابسالوني Scanavi Capsaloni في العامين 1770 - 1771. وفيما بعد، صارت الهيمنة للأرمن. ولعبوا بين العامين 1770 و1840 دورا محوريا في تمويل حكام الأقاليم وتنظيم جمع الضرائب. وتراوح سعر الفائدة التي كانوا يفرضونها من ثمانية عشر إلى أربعة وعشرين بالمائة⁽³⁹⁾.

نال الممولون الأرمن أو الأمراء amiras، كما كانوا يسمون، ألقابا وأوصافا منها «زعماء الأمة» و«الأمراء المتألقين» و«أمراء الشرف العظيم». ونظرا إلى كونهم جزءا بارزا من النخبة العثمانية، لهم الحق في ارتداء العمام المبطنة والسترات ذات الفراء وركوب الخيل في المدينة، زعموا أنهم من نسل ملوك أرمينيا القدماء. ولا شك أنهم في ذلك كانوا يريدون أن يجاروا دعاوى اليونانيين بتحدرهم من الأباطرة البيزنطيين⁽⁴⁰⁾. بحلول العام 1750 تمكنت عائلة سيربوس Serpos، التي وصلت من سيواس^(*) في نحو العام 1700، من امتلاك إمبراطورية تمويلية تمتد من البندقية إلى الهند، وتمتعوا بالحماية الديبلوماسية من بريطانيا والسويد. وكان أحد أفراد عائلة سيربوس الممول الأساسي لاثنين من صدور العظماء من العام 1732 إلى العام 1746. ورتب آخر نقل المعونة المالية العثمانية إلى السويد عن طريق هامبورغ في العام 1789، حين كان البلدان يحاربان روسيا⁽⁴¹⁾.

سيطر أمراء الأرمن على البطيركية الأرمنية، وشاركوا في اختيار البطيريك. وبحلول العام 1700 أصبح للبطيريك سلطات استبدادية على رعيته ومدارسه

(*) مدينة سيواس Sivas عاصمة محافظة بالاسم نفسه في وسط تركيا حاليا. [المترجم].

وكنائسه ومطابعه، حتى صارت الدعوة «الأب المقدس يود أن يراك» تبث الرعب في أفراد رعيته. وفي أيام الصيام، علما بأن جماعة لم تكن تلتزم بالصيام أكثر من الأرمن، كان خدم البطريك يجوبون الشوارع يتشممون كالكلاب بحثا عن رائحة اللحم. وكان المذنبون يُغرمون، وأحيانا يسجنون أو يرسلون إلى حرم المجاذيب. وفي أثناء إحدى الصلوات أخذ «المجاذيب» Lunatics المكبلون في قبو أسفل الكنيسة يخشخشون بسلاسل قيودهم ويصرخون صرخات قابضة للنفس، حتى إن أحد الأرمن الأثرياء عرض أن يبني لهم مستشفى خارج المدينة⁽⁴²⁾. وغدت مسألة ما إذا كانت ثروة أمراء الأرمن يجب أن تتحول إلى سلطة في مدينة القسطنطينية وداخل جماعتهم مسألة تواجه العاصمة في بداية القرن التاسع عشر.

كان كل تجار المدينة، المسلمين واليونانيين واليهود والأرمن، يلتقون في البازار الكائن على حافة التل الواقع بين القرن الذهبي وبحر مرمرة. على خلاف شوارع القسطنطينية التي كانت هادئة جدا، كان البازار يحيي زواره بدفقة من الحرارة والألوان والعطور والضيضاء: «اشترِ قماشي الفخم بألف قرش! اشترِ قماشي الفخم بألفي قرش!».

كان البازار صرحا فسيحا جدا من الحجارة، لدرجة أنه قيل إن أحدا من أهل القسطنطينية لم يره كاملا أبدا. كان البازار محاطا بأسوار رمادية عالية ويعلوه سقف من القباب فيها فتحات لإدخال الضوء، وضم متاهة من الممرات المقنطرة تتوجها قناطر من الجص بأشكال الأرابيسك الأزرق والأحمر العثماني المتقن. وعلى جانبي كل ممر كانت تصطف أكشاك تسمى دواليب dolaps بعرض نحو سبعة أو ثمانية أقدام وعمق ثلاثة أو أربعة أقدام، مزينة بزهور ورسائل دينية من القرآن. وكان البازار يضم زهاء أربعة آلاف من هذه الأكشاك، أي نحو عشر عددها في المدينة ككل. وكان كل دولايب يحوي طاولة في مدخله يعرض عليها البائع سلعه. وكان معظم حراس الأكشاك مسلمين، شيدوا لأنفسهم مختلى صغيرا للوضوء كانوا يأوون إليه قبل أداء صلواتهم على المقعد. كان البازار مدينة صغيرة تحوي مساجدها وأفنيتها وأسبلتها الخاصة. شيدت أحد الأسبلة أميرة إمبراطورية «تكرما لصانع أحذية كان يرسل عمله إلى بيتها في مواعده».



الرسم أميديو بريزيوسي Amedeo Preziosi، البازار، 1851. كان بريزيوسي ليلا مالطيا تزوج من امرأة يونانية، وعمل في القسطنطينية رساما معترفا من العام 1842 حتى وفاته في العام 1876. تبين اللوحة البضائع والملابس المتعددة في البازار. يرتدي بعض الناس العمائم، ويرتدي غيرهم اللبعات. وتظهر طغراء السلطان على الدرع المعلقة على اليسار.

كان البازار يفتح أبوابه كل صباح في نحو الساعة الثامنة والنصف بالدعاء للسلطان وجنده وأرواح كل العمال السابقين في البازار، والنصيحة: «لن يحدث غش! لن يحدث احتكار! لن يحدث بيع للسلع بلا ضمان!» وبعد ذلك يدخل التجار. وكانت الأكشاك تغلق في نحو الساعة السادسة مساء⁽⁴³⁾.

كانت نواة البازار تتمثل في البدستان Bedestan أي السوق المغطى الذي يسمى حاليا البازار القديم الذي بناه محمد الثاني في الأعوام 1456 - 1461. وبحلول العام 1473، كان هناك مائة واثنان وسبعون دكانا داخل البدستان واثنان وسبعون خارجه. كان أكثر من ثلثي الدكاكين يملكها مسلمون. وكان البدستان محاطا بأربعة أبواب: لباعة الطواقي، وباعة الأقمشة، والصاغة، وبائعي الكتب المستعملة. بلغ اشتهار الأخيرين بالوضاعة حد أن العبارة «أسوأ من بائع الكتب المستعملة» دخلت مفردات البازار المتداولة. وخارج البدستان، كان لكل منتج شارع المحدد. وفي شارع تجار الأسلحة، أذهلت الرحالة الفرنسي إبان القرن السادس عشر فيليب دو فرنس كاناي «ألجمه من الفضة المذهبة منحوتة بدقة بالغة، والكثير من الزهريات

مدينة الذهب

الذهبية، وريشات نادرة جدا بها أحجار من الياقوت والفيروز بكمية لا تصدق ... باختصار، يجد المرء فيه الكثير من الأشياء الجميلة التي يصعب معها أن يغادر من دون أن يضع يده في محفظته». كانت الإيجارات المحصلة من البدستان تذهب إلى الوقف الذي ينفق على جامع آيا صوفيا⁽⁴⁴⁾.

احتوى البازار أيضا على خزائن وزعتها الدولة، مبنية وراء الأكشاك، كان الأفراد يودعون فيها الجواهر والمال. كان البازار أكثر خلوا من الجرمية من الأسواق في الغرب. كان التجار يستطيعون أن يتركوا أكشاكهم من دون رقابة، وكان باعة الفطائر يأتمنون الناس فيتركون بضاعتهم على أساس أن الناس سيتركون ثمنها على صينية مستديرة صغيرة. وفي العام 1591، أحدثت سرقة الخزائن في البازار الكبير رعبا غير مسبوق. كان المذنب شابا يعمل لدى صائغ أرمني، أخفى المسروقات تحت القش الذي يغطي أرضية الدكان. سُنق هذا الشاب في حضور السلطان. وإبان القرن التاسع عشر فقط، ومع وصول السياحة الحديثة اشتهر البازار بأنه عش للعقبان⁽⁴⁵⁾. جمع البازار بين أدوار مركز التسوق وسوق الأوراق المالية والبنك، وكان أيضا ناديا يلتقي فيه التجار لتخطيط الصفقات والرحلات. شعر دودلي نورث بحنين إلى البازار أكثر من أي مكان آخر في القسطنطينية، ذلك لأنه يوجد هناك «أي شيء تقريبا يريده أي إنسان أو يستخدمه». وكان البازار فوق كل شيء ملتقى. أما في لندن، وعلى الرغم من وجود المقاهي والبورصة، فـ«لم يكن بمقدور من يريدونه (دودلي سميث) أن يجدوه، ولا بمقدوره هو أن يجد من يريدهم».

كان البازار محاطا بواحد وعشرين خاناء، من بينها خان السلطنة الوالدة الكبير، بُنيت لتشجيع التجارة. والخانات التي كانت تتألف من طابقين أو ثلاثة طوابق مقنطرة، حول فناء ممتلئ بالأشجار، كانت تسع السلع والحيوانات في الطابق الأرضي والحرفيين والتجار في الطابقين الأول والثاني. وعلى خلاف معظم البيوت في المدينة، كانت الخانات تبنى من الحجارة. وبحلول العام 1700 كان خان السلطنة الوالدة الكبير قد أصبح المركز التجاري والديني للفرس بالمدينة (جاء أغلبهم من أذربيجان)، إذ كان عدة آلاف منهم يعيشون هناك، وكان أشبه بدولة صغيرة مستقلة. تمتع الفرس أيضا بالامتيازات التي لم تكن مقصورة بحال من الأحوال على الجاليات الأوروبية. وإبان القرن التاسع عشر، لاحظ حاج فارسي كان عابرا من القسطنطينية

في طريقه إلى مكة: «أن الملاذ القانوني للإيرانيين هو السفارة أولا وأخيرا، فهم لا يخضعون لسلطان القسطنطينية».

كانت الاتجاهات نحو المذهب الشيعي قد ارتخت بعد القرن السادس عشر. كان المسجد الشيعي الأساسي في القسطنطينية يقع في منتصف الفناء الأول. وفي العاشر من شهر المحرم من كل عام كانت تقام طقوس إحياء ذكرى اثنين من شهداء الشيعة، هما حفيدا النبي الحسن والحسين، كانت تبرز تقوى فرس المدينة وهويتهم. أولا، كان يقيمون الصلوات في المسجد، وبعد ذلك، وعلى أضواء المصابيح ووسط دقات الطبول ونداءات يا حسن! يا حسين، كان يشاهدهم نحو عشرين ألف متفرج وهم يسرون في موكب طويل من رجال يرتدون ثيابا بيضاء ويجلدون أنفسهم في حركات موحدة بعصي وسيوف مسنونة حديثا. كان الدم يسيل على أجنادهم، وكانت رؤوسهم وصدورهم تبدو كاللحم النيئ. وكانوا يتوجهون بعد ذلك إلى الخانات الأخرى لأداء الطقوس عينها. وكانوا في اليوم التالي يعبرون إلى أوسكودار، إلى جدول ماء في الجبانة حيث كان ينتظرهم أطباء بالضمدات⁽⁴⁶⁾.

وفي حين كان خان السلطنة الوالدة الكبير مخصصا لتجارة منطقة معينة، كان يهيمن على الخانات الأخرى ذوو حرف معينة، كالنجارين والصاغة ومن إليهم. فكان خان سليمان باشا الواقع إلى جنوب البازار متخصصا في واحدة من أكثر السلع رواجاً في العاصمة العثمانية، وهي البشر. كانت القسطنطينية مركزا لتجارة عبيد كانت خطوط إمدادها تبدأ في بولندا والقوقاز والسودان. وكانت الحكومة تجبي ضريبة على كل عبد يدخل المدينة (أربع دوقيات ذهبية على الرأس إبان القرن السادس عشر)، وكانت أيضا تجبي ضرائب من كل من المشتري والبائع، كما هي الحال في مزادات لندن الحديثة. كان الذكور، الذين كانوا يُعرضون أحيانا عراة، يباعون أيضا في البازار القديم. وفي العام 1547، شاهد الرحالة الفرنسي جان شينو Jean Chesneau تجارا يسوقون أطفالا في عمر الثالثة خلال البازار وهم ينادون بأسعارهم. كان العبيد الشركس يأتون على رأس سلم التفضيل، يليهم البولنديون، ثم الأباطيون (من منطقة أخرى من القوقاز)^(*) ثم الروس. كان سوق

(*) الأباطيون أو الأباظة Abaza مجموعة عرقية في القوقاز قريبة عرقيا من الأبخاز والشركس، تعيش غالبيتها حاليا في تركيا ومصر وشمال القوقاز الروسي. [المترجم].

العبيد بالقسطنطينية يعتبر الرجال الآتين من أوروبا الغربية ناعمين أكثر مما ينبغي والنساء أشداء أكثر مما ينبغي. وكان للسود نصيب أيضا في سوق العبيد، من ذلك أن والد جدة بوشكين (*) كان إثيوبيا اشتراه السفير الروسي من القسطنطينية. قبل الشراء كانت هذه السلع البشرية تُختبر كما تُختبر الماشية، فكان المشترون يبصقون في وجوه العبيد حتى إذا كانت على وجوههم مستحضرات تجميل تسيل، وكانوا يتحسسون «أسنانهم وسيقانهم وأفخاذهم والمواضع الأكثر خصوصية من أجسامهم. وكان المساكين، رجالا ونساء، يسلمون أنفسهم لسوء المعاملة من أعين عابسة لا رحمة فيها». كان الافتقار إلى الأسنان أو الجمال أو العذرية يقلل السعر. وفي العام 1600، بيعت عذراء شابة بمائة دوقية، وبيعت امرأة في الستين من العمر بستة وثلاثين دوقية. وكان المشتري قبل أن يشتري أنثى، يمكن أن يأخذها إلى بيته ليلة ليرى إن كانت تشخر في أثناء النوم⁽⁴⁷⁾. حتى القرن العشرين كانت النساء حاضرات أكثر من الرجال في تجارة العبيد، حيث كانت البنات الشابات تُشتري بعد الفحص البدني والمساومة المالية المعتادين من تجار للجواري مستقلين يتنقلون من حريم خاص إلى آخر. وكانت البنات تُعلَّم حسن التصرف والخياطة والغناء، ويبعن بعد ذلك بربحية⁽⁴⁸⁾.

كان العبيد المنزليون في العائلات المسلمة (نظريا لم يكن مسموحا للمسيحيين أو اليهود بامتلاك العبيد) يلقون معاملة أفضل نسبيا من معاملة العبيد في الأمريكتين أو الكثير من الخدم الأحرار في أوروبا الغربية. كانت العبودية يمكن أن تتحول إلى شكل من أشكال القرابة، وبالتالي - كما خَبَر الانكشاريون جيدا - إلى وسيلة للصعود الاجتماعي. وإذا لم يكن العبد يطيق سيده، فقد كان بمقدوره - نظريا - أن يلتمس من القاضي أن يباع من عند هذا السيد. وقد كسب بعض العبيد المال لشراء حريتهم بالعمل على العبّارات العاملة بين أوسكودار وأوروبا. وثمة عبيد آخرون كانوا يشترون لغرض المتعة الجسدية. كتب عثماني من القرن السابع عشر يدعى لطيفي Latifi:

(*) ألكسندر بوشكين Alexander Pushkin (من نحو 6 يونيو 1799 إلى 10 فبراير 1837) أمير شعراء روسيا وكتابتها الروائي والمسرحي الفذ، نشأ في أسرة من النبلاء، ترجع أصوله الحبشية إلى والدته التي كانت حفيدة إبراهيم غانبيال العبد الذي صار ضابطا مقربا من القيصر بطرس الأول، أخذ من أصوله الأفريقية الشعر المجعد والشفتين الغليظتين. [المترجم].

كان من بينهم بنات وأولاد يتمتعون بجمال استثنائي يُطير عقول الناس
ويجعلهم يبذرون ثرواتهم كاملة، قائلين إن المال لا قيمة له مقارنة بالروح
والحب ... وكما يقول الشاعر:
فإن أمتع شيء في العالم هو الاتحاد مع الجمال، وإلا فما بغية الباحثين
عن الحب في هذا البازار؟!

لم يكن الرجال الذين أنفقوا كل مالهم على الجوّاري يستطيعون أن يمنعوا
أنفسهم عن العودة إلى سوق العبيد، رغم الألم الكامن في رؤية الجميلات معروضات
للبيع مع عدم القدرة على شرائهن. كان العبيد، بمن فيهم عبيد السلطان في الباب
العالى، يشكلون نسبة كبيرة من سكان القسطنطينية، نحو عشرين بالمائة وفقاً
لخليل إينالچك Halil Inalcik، مقارنة بنحو ثلاثة بالمائة من سكان البندقية في
العام 1600⁽⁴⁹⁾.

وإذا كان البشر قد شكلوا أحد الواردات الأساسية إلى العاصمة، فقد شكلوا
أيضاً أحد صادراتها الأساسية، إذ كان الجنود والمسؤولون والعلماء يغادرون
المدينة سنوياً بالآلاف لحراسة الإمبراطورية أو حكمها. بيد أن قليلين منهم
بلغوا ذرى من الشهرة أعلى من أفراد العائلتين العظيمتين كوبرولو Koprulu
ومافروكوداتو Mavrocordato.

الوزراء والترجمات

إذا كان الأمير كونتيز أمير الإمبراطورية
الرومانية المقدسة (*) ، فأنا أمير الإمبراطورية
العثمانية الأكثر قدسية... أنا السيد، أنا أمير
ولدت لعائلة تحكم منذ مائتي عام، عائلة
حاكمة ذات سيادة، سأقول ما أريد، فأنا
لا أخشى الإمبراطور ولا الأمير كونتيز.

ألكسندر مافروكورداتو أمير مولدافيا
للقنصل النمساوي استيفانو ريسيفيتش،
في 30 نوفمبر 1784

في العام 1622، تحدى السلطان عثمان
الثاني ابن السابعة عشرة تقاليد عائلته ومصالح
عاصمته. فبدلاً من أن يقصر نفسه على
الرفيقات من الجواري تزوج ثلاثاً من النساء
الحرائر، منهن ابنة مفتي القسطنطينية. وارتدى
عند الذهاب إلى صلاة الجمعة في أحد الأيام

(*) أمير الإمبراطورية الرومانية المقدسة Prince of the Holy
Roma Empire لقب كان يمنحه الإمبراطور الروماني المقدس وراثياً
للحكام أو النبلاء أو الأساقفة من الخاضعين له مباشرة. [المترجم].

«شكلت اللغة العثمانية، بتركيب
الجمل المعقد ومفرداتها
المركبة، حائطاً بين الإمبراطورية
والعالم الخارجي»

قفطانا من نسيج بندقى قرنفلى باهت، واستخدم جُلا «فاتحا جدا» للحصان (*). وكتب السفير الإنجليزي سير توماس راو أنه جعل نفسه «رخيصا ومبتذلا بالتجوال ليلا، والتردد متنكرا على الحانات والأماكن الخفية، وممارسة دور الشرطي فيها». وكان جنود الانكشارية الذين يُضبطون في الحانات يغرقون في البسفور. وقد شاع أن كامل الفيلق الذي كان أداؤه سيئا في الحملة الأخيرة على بولندا، كان «على وشك التمرد والتفكك» وأن رواتب جنده قد حُفُضت.

وعلى خلاف نصيحة الصدر الأعظم، خطط السلطان لارتكاب المحظور الأكبر، وهو مغادرة المدينة، وأداء فريضة الحج بمكة، وحشد جيش في ولاياته العربية ليكون قوة مضادة للانكشارية. وأصدر المفتي فتوى تقول إن الحج ليس واجبا على السلاطين، إذ يفضل أن يبقى في مكانه وينشر العدل، وإن ذلك غير شرعي لأنه قد تنشأ عنه فتنة». لكن ذلك لم يُجد نفعاً (**).

وفي السابع من مايو، بدأ في إخراج الخيام والكنوز الإمبراطورية من القصر وعبور البسفور بها إلى آسيا. ونظرا إلى أن ذلك شكّل تهديدا لهم في شرفهم وأرزاقهم، وبتحريض من باشوات كبار، اجتمعت الانكشارية في الأتميدان (***) في اليوم التالي وصاحوا: «باسم الشرع نريد السلطان مصطفى خان»، وهم عم السلطان الذي سجنه السلطان في سرداب مع امرأتين سوداوين عاريتين لأن مصطفى لم يكن يطبق الجنس الآخر. وأخيرا، في التاسع من مايو، اقتحمت الانكشارية القصر واعتقلوا عثمان الثاني وأخذوه إلى قلعة الأبراج السبعة لا يستره غير قميص تحتي أبيض. وانهاالت عليه حشود الناس بالشتائم على طول الطريق حتى انهاالت دموعه: «بالأمس كنت باديشاه، واليوم أصير عاريا». أمر الصدر الأعظم الجديد الذي ساعد في تخطيط التمرد بقتل عثمان الثاني من خلال توليفة من الخنق والضغط على الخصيتين. وحين تخوف البعض من أمره بقتل السلطان، قال: «لا يهم من هو السلطان مادام النظام

(*) الجُل هو الغطاء المزركش لسرج الحصان. [المترجم].

(**) وصل عثمان إلى السلطة في عمر الثالثة عشرة بانقلاب ساعدته فيه الانكشارية على عمه السلطان مصطفى الأول، وبعدها أعيد مصطفى إلى الحكم، عزله بعد عام ابن أخيه السلطان مراد الرابع، بمساعدة الانكشارية أيضا. [المترجم].

(***) الأتميدان Atmeydan هو الاسم الذي أطلقه الأتراك على ساحة الألعاب الرومانية القديمة المجاورة لجامع السلطان أحمد، كان متنزها ومُجمّع حدائق، وميدانا لتدريب الانكشارية، وفيه كانوا يعلنون عن تمردهم ورغبتهم في تغيير السلطان، وفيه أيضا أفناهم السلطان محمود الثاني في العام 1826. [المترجم].

العالمي لم يختل»^{(1)(*)}. ظاهرياً، كان السلطان السيد الوحيد للمدينة والإمبراطورية وكان الوزراء عبيده. لكن في الواقع كانت القيود المفروضة على سلطانه لا تقل قسوة عن تلك التي كانت تفرضها المحاكم وطبقات النبلاء والبرلمانات على الملوك الغربيين في الفترة عينها. وإذا كان السلاطين يستطيعون أن يأمرؤا بإعدام الصدور العظماء، فإن الأخيرين كانوا يردون بالمثل أحياناً.

كانت قوة هذه النخبة ومكانتها واضحة في شوارع المدينة. وقد ذكر مراقب من القرن السابع عشر، هو بول ريكوت Paul Rycout، أن «المرء يستطيع أن يلمح عظمة هذه الإمبراطورية من الحاشية والأبهة وعدد الخدم الذين يرافقون عليه القوم في رحلاتهم». لم يكن غرض هذه العائلات من مظاهر الأبهة يقتصر على إبهار العامة وحسب، بل شمل أيضاً السيطرة على الحكومة المركزية. وفي العام 1656، اعترف السلطان محمد الرابع بأنه يدين بجلوسه على العرش إلى مشيئة الله وقدرته وموافقة المسؤولين الحكوميين وعلماء الدين⁽²⁾.

ترجع على رأس هرم السلطة «النائب المستبد للسلطان»، صاحب السمو الصدر الأعظم الذي كان يقوم على خدمته بيت مكوّن من ألفي شخص، على غرار بيت السلطان، ويحميه خمسمائة حارس من الألبان. في أوروبا الغربية، لم يحظَ بمكانة مشابهة خارج الدائرة المقدسة للعائلة المالكة إلا ريشيليو^(**) ومازاران^(***) اللذان جمعاً بين سلطة الوزير الأول ودرجة الكاردينال (اللتين تساويان معاً الأمير بالدم^(****)). كان الصدر الأعظم فعلياً هو عمدة القسطنطينية أيضاً، بيد أن العاصمة لم تكن لها مؤسسات مستقلة خاصة بها، إذ لم تحو مقراً للبلدية ولا داراً للنقابة، فكانت تعتمد في كل شيء على الدولة. قبل أن ينزل الصدر الأعظم لمعاينة الأسواق كل يوم أربعاء، كان يعقد اجتماعاً في الديوان حول شؤون العاصمة. كان يساعد الصدر الأعظم في إدارة

(*) النظام العالمي كناية عن الإمبراطورية العثمانية. [المترجم].

(**) أرماند جان ريشيليو Armand Jean Richelieu (من 9 سبتمبر 1585 إلى 4 ديسمبر 1642) رجل دين ونبييل ورجل دولة فرنسي، شغل منصب الكاردينال والوزير الأول للويس الثالث عشر من العام 1624 حتى وفاته. سعى إلى توحيد السلطة وسحق كل مراكز القوة. [المترجم].

(***) جول مازاران Jules Mazarin (من 12 يوليو 1602 إلى 9 مارس 1661) كاردينال وديبلوماسي ورجل دولة إيطالي شغل منصب الوزير الأول لفرنسا من العام 1642 حتى وفاته، خلف معلمه ريشيليو وسار على نهجه. [المترجم].

(****) الأمير بالدم هو الأمير بالتحدر الشرعي من سلالة ملكية. [المترجم].

المدينة أربعة قضاة لإسطنبول وغلطة وأوسكودار وأيوب، كان السلطان يعينهم ويدخلون عليه مباشرة ويتمتعون باستقلالية فعلية في تطبيق الشريعة. كان هؤلاء يشرفون على السوق، ويسعون إلى ضمان أن يعيش مسلمو المدينة حياة إسلامية حقة. وتحت القضاة، كان يوجد جيش من الموظفين الأقل شأنًا، كانوا يفتشون على السلع والأسعار والتجار، ويعجبون الضرائب على الدكاكين والأسواق والمنتجات التي تدخل المدينة⁽³⁾.

وبسبب سلسلة من السلاطين الضعفاء وتعقيد الحكومة العثمانية، أخذ الباب العالي بداية من العام 1650 يحل محل القصر بوصفه مركز السلطة. لقي هذا التحول تأكيداً معمارياً في العام 1654، حين وجد الباب العالي مقراً دائماً في بيت أحد الباشوات الواقع أسفل القصر على التل في الموقع الحالي لمقر حاكم إسطنبول، ومعه جزء من الأرشيفات الرسمية العثمانية. في الباب العالي كان الدخول «مباحاً لكل العالم، وكان (الصدر الأعظم) يعطي مقابلات حتى لأفقر الناس». انبهر لورد شارلمونت الذي شاهد البناية في العام 1749 بروعة الأجنحة الخاصة للصدر الأعظم «الضخمة الفخمة المتناسقة» المؤتثة بساعات إنجليزية ومرابيا فرنسية وسجاد فارسي.

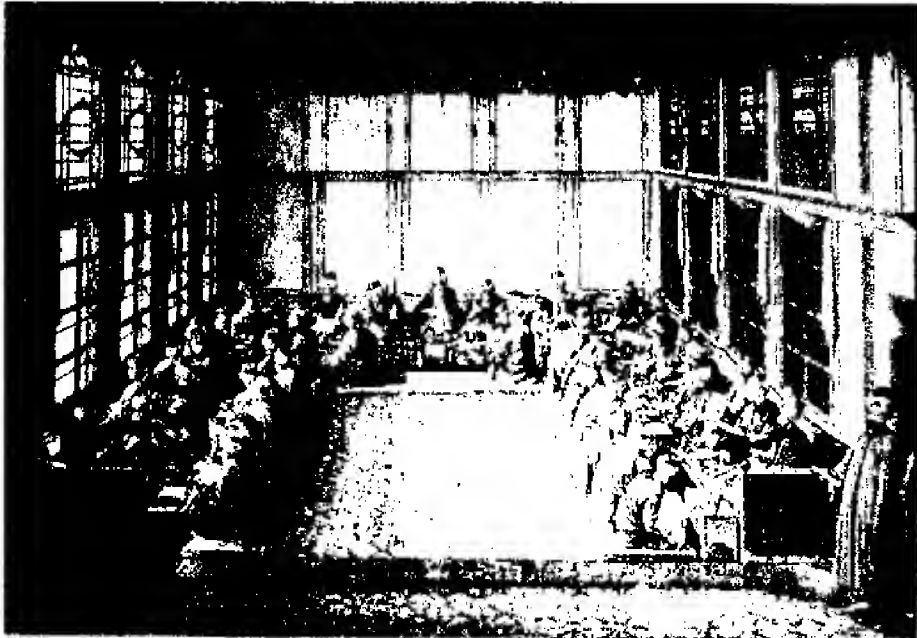


الرسم لوماس ألوم Thomas Allom، مدخل الديوان، في نحو العام 1840. البوابة هي الباب العالي أي للدخول إلى مكاتب الصدر الأعظم ووزارة الخارجية. على اليسار، رجل يغيب قطيعاً من الكلاب، وعلى اليمين جنود بزيهم الجديد وكشك الألاي الذي كان السلاطين يشاهدون منه المواكب.

كانت تعمل بالباب العالي بيروقراطية كفؤة من الكتاب والنساخ (قوامها ثمانمائة وتسعة وستون في أواخر القرن الثامن عشر) يخدمون الصدر الأعظم ونائبه الرئيس أفندي (وزير خارجية) والباشوات الآخرين. وقد أسهم هؤلاء في بقاء الإمبراطورية بقدر إسهام العائلة الحاكمة والجيش. كتب لورد شارلمونت:

لكل الوزراء الذين يمارسون وظائفهم في الباب العالي بجانب أجنحة سكنهم غرف مجاورة تضم مكاتب الوزير يعمل فيها الكتبة التابعون له. وقد دخلت خمسة أو ستة منها، وأذهلني عدد الكتبة والوضع الجسماني الفريد الذي يتخذونه للكتابة (على ركبهم بلا طاولات) والسرعة والنظام الكبيران اللذان يجري بهما العمل... وتُحفظ سجلات السابقين بأقصى حرص ممكن في العام، ومن مبلغ دفتهم ونظامهم أن أي مذكرة أو أي حقيقة أيا كانت لمائة عام سابقة توجد في فترة نصف ساعة في أيديهم.

في نهاية القرن التاسع عشر، تباهى مسؤول بالباب العالي بأن الباب على مدار أربعمائة عام لم يفقد وثيقة واحدة. في هذه الإمبراطورية شديدة المركزية كان كل حاكم إقليمي يوجه بانتظام تقارير مكتوبة غزيرة إلى القسطنطينية، لدرجة أن وفرة التوثيق باتت تشكل عائقاً أمام المؤرخين الذين يعملون على الأرشيفات العثمانية⁽⁴⁾.



جسي، إن. دي. ليسبناسي J. N. de Lespinae، مكتب حكومي في الباب العالي، 1787. كانت الإمبراطورية العثمانية إمبراطورية ورقية، تضم أجزاءها مع بيروقراطية مدققة وكفؤة، إلى جانب قوة الجيش. كانت خمسة وعشرون مكتبا بهذا الحجم تتعامل مع الشؤون المالية وحدها.

بلغ بعض الصدور العظماء من القوة ما مكنهم من نقل المكانة والثروة إلى نسلهم. من هؤلاء محمد باشا صوكولو الذي قيل إنه أنفق على بناء ثلاثمائة مسجد، ومات وهو يمتلك أربعة قصور في القسطنطينية، وقصر مكوّن من ثلاثمائة وستين غرفة في إدرنة، وثمانية عشر مليون قرش ذهبي. ورث ابنه من أسمهان سلطان ابنة سليم الثاني، إبراهيم خان زاده جزءا من ثروة أبيه. يصف إبراهيم في إحدى وثائقه أحد أقسام سراي أبيه في أوسكودار على النحو التالي:

القصر الخارجي تحيطه أسوار عالية ويضم قاعة استقبال كبيرة بجانبها قاعة التماسات تحيطها غرفتان، كما يضم غرفتين خاصتين وقاعة، ورواقين، وشرفة تمارين، وغرفة وضوء تواجه حديقة ونافورة، وغرفة فسيحة مسيجة بسلك معدني أنيق ونوافذ مطعمة بعرق اللؤلؤ... كان هذا هو مجموع القصر الذي ورثته عن أبي، بيت الراحل محمد باشا.

شغل إبراهيم خان زاده عدة مناصب في القصر والحكومة مثل كبير حراس الأبواب ومدير مطابخ السلطان. عاش أحفاد خان زاده في حي كاديرغا Kadirga بالقسطنطينية في قصر صممه سنان على دخل ممتلكاتهم في إدرنة وبلغراد وفيشغراد وحلب. وكانوا يكتبون على قبورهم حول ضريح صوكولو المهيب شبه الملكي في منطقة أيوب لقب باي فندي beyefendi أي اللورد. وكما كانت الحال مع الحاشية الملكية في الغرب، كانوا رفاقا اجتماعيين للسلطان، فكان السلطان يزورهم ويسمح لهم بالدخول عليه ويستخدمهم كمديرين وراثيين للصيد. وعلى غرار السلطان، كانوا يتناسلون من خلال اتخاذ المحظيات، أكثر منهم من خلال الزيجات. وصفهم سفير بريطاني بأنهم «يحظون باحترام لا يضاهى من الناس». وكانوا أثرياء جدا لدرجة أن أحد أفراد عائلته، هو إبراهيم علي بيه Ibrahim Ali Bey، كان مطالباً في العام 1696 بأن يقدم خمسمائة جندي للجيش الإمبراطوري، مثل كبار اللوردات في فرنسا أو إنجلترا القرن السادس عشر.

ثمة فرع آخر للعائلة، هو صوكولو زاده، تحدر من اتخاذ محمد باشا صوكولو محظية أخرى. شغل الكثيرون من نسله مناصب أمين الخزانة، ورئيس الكتاب reis - ul kuttab (رئيس المحفوظات الإمبراطورية) أو حكام أقاليم. وفي نهاية القرن الثامن عشر، كان أحد أفراد عائلة صوكولو زاده مسؤولاً عن بناء سد لإمداد

القسطنطينية بالمياه⁽⁵⁾. وإلى هذه العائلة تنتمي والدته دينتش بلجين Dinc Bilgin مالك واحدة من أنجح الصحف التركية خلال العقد الأخير من القرن العشرين، هي جريدة الصباح Sabah.

تجلت قوة الباب العالي والنخبة المهيمنة، وإن لم تكن رسمية، مع ظهور إحدى أكثر العائلات الوزارية تمكنا في تاريخ أوروبا، وهي العائلة الوحيدة التي قدمت خمسة صدور عظماء (واثنين آخرين من أقاربها)، وهي عائلة كوبرولو Koprulu التي ظهرت على الساحة في اللحظة المناسبة.

شهدت الإمبراطورية العثمانية أزمة ثقة منذ أواخر القرن السادس عشر. وفي العام 1622، كان السفير الإنجليزي السير توماس راو الذي وصف الإمبراطورية بأنها «مستنقع من الرجال والبغاء»، على اقتناع بأن انهيارها كان وشيكاً. ألقى الكتاب من النخبة باللائمة على النظام التعليمي وتطلعوا إلى الوراء إلى عصر ذهبي أسطوري رأوه في السلطان سليمان القانوني. وأخذ العامة ينتقدون الفساد الرسمي المنتشر. وفي العام 1624 أبحر القوزاق ذوو الأصول الأوكرانية خلال البحر الأسود إلى البسفور وأحرقوا قرية يينيكوي Yenikoy ونهبوها^(*).

وعلى الرغم من تعافي الإمبراطورية في عهد مراد الرابع في العقد الرابع من القرن السابع عشر، ففي العام 1656، بدأ الانهيار وشيكاً. فللمرة الثالثة في عشر سنوات، حاصر أسطول البندقية التي كانت تحاول الإمبراطورية أن تأخذ منها جزيرة كريت، الدردنيل. وهرب أربعة آلاف من عبيد القوادس المسيحيين وانضموا إلى البنادقة. وهجر الناس القسطنطينية بحثاً عن حياة أفضل في الأناضول. وارتفعت أسعار المواد الغذائية. وصاحت الانكشارية المتمردة في السلطان: «إننا نترنح في زوايا الخانات

(*) القوزاق Cossacks جماعة من السلاف الشرقيين، تعيش حالياً في أوكرانيا وجنوب روسيا، كانت تعيش في المناطق والجزر منخفضة السكان في أحواض أنهار الدنيبر Dniiper والدون Don والتيريك Terek والأورال Ural الدنيا في جماعات بدوية ديموقراطية شبه عسكرية، أدت دوراً تاريخياً كبيراً في المنطقة، اشتهرت بغاراتها على الإمبراطورية العثمانية ورعاياها بداية من النصف الثاني من القرن السادس عشر، وكانوا رأس حربة لروسيا في الحروب على الإمبراطورية العثمانية وانتزاع الأقاليم منها. رداً على إلزام الإمبراطورية العثمانية لقيصرية بولندا بكبحهم، وصلت غارات للقوزاق إلى ضواحي القسطنطينية في العامين 1615 و1625، فنهبوا وأجبروا السلطان على الفرار من قصره. في أثناء الحرب الأهلية الروسية (1917 - 1923) وقف القوزاق في صف الحركة البيضاء ضد البلاشفة الأحمر، وعندما انتصر الأخيرون، فر آلاف من القوزاق إلى خارج روسيا وتعرض الباقون إلى قمع شديد، وبعد الحرب العالمية الثانية سُمح الفارون إلى الاتحاد السوفييتي بعد أن شكلوا فرقا حاربت إلى جانب دول المحور. [المترجم].

من الجوع والفقر ورواتبنا لا تكفي حتى لتغطية ديوننا إلى أصحاب الخانات». وفي يأس تحولت السلطانة الوالدة تورهان التي كانت تعين الصدور العظماء منذ مقتل غريمته كوسم قبل خمسة أعوام، إلى رجل عجوز في الثمانين من العمر لا يحظى بشعبية يدعى محمد كوبرولو Koprulu Mehmed⁽⁶⁾.

ربما يرجع محمد كوبرولو الذي ولد في قرية روزنيك Ruznik الواقعة في ألبانيا الحالية، إلى أصول ألبانية. ومحمد، الذي يرجع أنه ضُم إلى خدمة السلطان من خلال نظام الدفشمرة، عمل في مطابخ القصر قبل أن يُفصل منها بسبب كبريائه وحِدته. أخذ محمد اسم كوبرولو عن زوجته التي جاءت من بلدة كوبرو Koprú الصغيرة بالأناضول. وبعد أن شغل مناصب متعددة، منها المشرف على الطوائف الحرفية ومفتش الترسانة وحاكم إقليمي، عاد إلى الخدمة في القصر.



الرسم جاي تورينفليت J. Toorenvliet، محمد كوبرولو باشا، 1660. أول صدر أعظم من عائلة كوبرولو، تولى الصدارة العظمى من العام 1656 إلى العام 1661، وأعاد النظام إلى الإمبراطورية ورد أسطول البندقية عن الدردنيل.

ومن خلال اتصالاته مع كبير المعمارين ومعلم القصر اللذين كانا ألبانيين أيضا، حصل محمد على مقابلة سرية مع السلطانة الوالدة تورهان في الثالث عشر من سبتمبر 1656. ونظرا إلى أن الحكومة كانت في حالة من الفوضى، فقد تمكن محمد

الكوبرولي من فرض أربعة شروط مذهلة، وطدت لسيطرة الباب العالي على القصر والحريم لعقود. اشترط الكوبرولي - أولا - أن يوافق السلطان على كل طلباته، وثانيا ألا يضغط عليه لمنح عطايا، فـ «تلك الطلبات غير المعقولة هي مصدر كل الاضطرابات»، وثالثا ألا يكون هناك وزراء عسكريون مستقلون، وأخيرا أن يكون الصدر الأعظم محصنا من الاتهامات «من كل شخص يريد نصيبا من شؤون الدولة». وقبلت تورهان بالشروط. كانت التشريعات المحيطة بالسلطان مجرد واجهة. حتى أم السلطان لم تكن مؤمنة بأنه يجب أن يمارس السلطة الحقيقية إلى جانب السلطة المظهرية. وفي الخامس عشر من سبتمبر 1656، عُيِّن محمد باشا الكوبرولي صدرا أعظم⁽⁷⁾.

قال الناس في الولايات: «عشنا وشهدنا ذلك اليوم المشؤوم الذي وصلت فيه الدولة العثمانية إلى أن يكون صدرها الأعظم تعيشا بانسا مثل الكوبرولي الذي لا يستطيع حتى أن يقدم القش إلى زوج من الثيران!»، بينما كان آخرون أكثر تبصرا: «هذا الكوبرولي لا يشبه الصدور العظماء الآخرين. لقد تقلبت عليه الأقدار، وتكبد الفاقة والعوز وتقلبات الدهر، واكتسب خبرة كبيرة من الحملات ويعرف دروب العالم»⁽⁸⁾.

وعلى أرض الواقع، أعاد الكوبرولي الحكومة المركزية إلى مستوى من الكفاءة لم تعرفه منذ زمن محمد باشا صوكولو. عيّن رجاله في وظائف المفتي وأمين الخزانة، وخفّض رواتب التقاعد الحكومية، وأسس شبكة من المخبّرين في أنحاء القسطنطينية قاطبة. وهُزِمَت البندقية، واستعيدت ليمنوس^(*)، وأُخْمِدَ تمرد في الأناضول الذي كان دائما أكثر ميلا إلى العصيان أكثر من منطقة البلقان. حكم الصدر الأعظم من خلال الإرهاب. وفي ذلك أحصى جلاد حكومي واحد أنه وحده ألقى بأربعة آلاف جثة في الماء. تكشف رسالة من الكوبرولي إلى حاكم إقليمي عن أسلوب الصدر الأعظم في الحكم:

صحيح أننا نشأنا معا في الحريم الإمبراطوري، ولأن كلينا من محاسيب السلطان مراد الرابع، لكن ليكن في علمكم أنه من هذه اللحظة فصاعدا إذا نهب القوزاق الملاعين أيا من القرى والبلدات الواقعة على ساحل إيالة أوزو^(**) أو أحرقوها، أقسم بالله العظيم أنني لن أرحمك ولن أعير انتباهها إلى شخصيتك المستقيمة، بل سأقطعك إربا لتكون عبرة للعالمين.

(*) ليمنوس Lemnos جزيرة يونانية تقع في الشمال الشرقي لبحر إيجه. [المترجم].

(**) إيالة أوزو Ozu Byalet عثمانية على طول ساحل البحر الأسود والضفة الجنوبية لنهر الدانوب، كانت تسمى في السابق إيالة سيلسترة Silistra. [المترجم].

وقد أمر بإعدام بطيركين مسكونين وبطيرك أرمني بناء على شكوك في إجرائهم اتصالات بقوى أجنبية تكشف عن خيانتهم⁽⁹⁾.

تمثل السلاح الأهم بيد الصدر الأعظم في استعداد السلطان الشاب محمد الرابع الذي كان يدعوه «أي» لأن يكون رمزا للحاكم وليس حاكما فعليا. وُصف محمد الرابع بأنه «رجل داكن البشرة، ذو وجه مشرق وعينين واسعتين جميلتين وسوداوين متلألئتين... كانت طلعتة تبعث الكثير من الفخامة، والرعب أيضا إذا أراد أن يظهره». كان السلطان المولع بالصيد قادرا على أن يبقى في السرج من قبل الفجر إلى ما بعد الغسق. وكان يضع في رقاب صقوره المفضلة أطواقا مرصعة بالجواهر، بينما كان الأتباع الذين يثيرون له الطرائد يتجمدون من البرد حتى الموت أحيانا. وكان أحد باشوات البستانجية يكفن جثثهم بسخط مكتوم. وكان السلطان يلعبه على تعيين أمثال هؤلاء الرجال النتنين. وقيل إن الصدر الأعظم حوّل ولع السلطان بالذبح إلى الحيوانات لكي يحمي رعاياه، وبما يسمح للصدر الأعظم بأن يحكم من دون أن يراجعه أحد. حتى إن الصدر الأعظم الذي كان أقوى كثيرا من أي وزير أول في الغرب، كان يخبر السلطان بما يجب أن يقوله للمسؤولين الذين يأتون لتقديم الولاء في حفلات الاستقبال في الأعياد. تذكر أهل القسطنطينية في أفعاله «إبراهيم المجنون»، فأخذوا يغنون:

كان الأب مجنونا بالمرأة

وجاء الابن مجنونا بالاصطياد⁽¹⁰⁾.

وعلى رغم الاختلافات الجلية عن العائلات الحاكمة الأوروبية الأخرى، كانت العائلة العثمانية عرضة لبعض المشكلات عينها التي واجهتها نظيراتها الأوروبية، مثل التطرف الديني والضعف البيولوجي اللذين كانا يجتمعان معا في الحاكم نفسه (*). ونتيجة لتزامن اعتلاء ملوك ضعفاء أو صغار السن العرش، مارست السلطانات الوالدات السلطة إبان القرن نفسه - من 1560 إلى 1660 - الذي مارست فيه الملكات الأمهات لفرنسا كاثرين دي ميديشي وماري دي ميديشي وآن النمساوية السلطة. وفي

(*) في آل هابسبرغ حكام إسبانيا، اجتمع التطرف الديني والضعف الجسدي في شخصيات مثل كارلوس الخامس الذي اعتبر نفسه سيف الكاثوليكية وحمي العالم المسيحي ضد المسلمين، وكان فكه السفلي مشوها، ما جعله يطلق لحيته لإخفاء هذه العاهة. [المترجم].

الإمبراطورية العثمانية كما في الملكيات الأخرى، تسبب الولع الملكي بالصيد في ترك البلاط للعاصمة لفترات طويلة. وفرت إدرنة للعثمانيين مباحج لا تقل عما وفرت لههم القسطنطينية، لكن من دون متاعب الأخيرة. فإحاطة غابات الصيد بها، جعلتها عاصمة مضادة. فجوامعها تضاهي جوامع العاصمة، إن لم تتفوق عليها، كما في حالة الجامع السليمي الذي بُني للسلطان سليم الثاني. وعلى حافة المدينة، على ضفاف نهر ماريتزا Maritza، كان قصر إدرنة توبكاي آخر من الأجنحة والأكشاك والأفنية، محاطا بمتنزه. وكانت إدرنة أيضا نقطة تجميع للجيش في الحملات على أوروبا أفضل من العاصمة لأنها كانت تلغي الحاجة إلى إيواء آلاف الجنود في العاصمة. وسليمان القانوني الذي أخذ واجباته كسلطان مأخذ الجد، كان يقضي الشتاء في إدرنة، كما يقول سفير الإمبراطورية الرومانية المقدسة بوسبيك، «لأن له فيها سراي تفتح على أرض صيد يخرج للصيد فيها كل يوم تقريبا». وكان لا يعود إلى القسطنطينية إلا حين يرجع نقيق الضفادع في الليل وفي النهر المجاور للقصر ويجعل النوم صعبا⁽¹¹⁾.

هجر محمد الرابع القسطنطينية في الوقت عينه الذي هجر فيه لويس الرابع عشر باريس وللأسباب عينها: حب الصيد والخوف من التمرد. وقال إنه بدلا من العودة إلى القسطنطينية التي قضى فيها أسلافه ضحايا للكثير من الثورات، ود لو أنه يحرقها بيديه ويتفرج، فرحا بالنيران وهي تأكل المدينة والقصر.

جاء التحدي لمحمد الكوبرولي من المساجد، وليس من القصر، فقد أخذت النزعة المحافظة أو التطرف الإسلامي في الاشتداد في القسطنطينية منذ تدمير مرصد السلطان في العام 1580^(*). فغطيت اللوحات الجصية المسيحية الأخيرة الباقية في آيا صوفيا في العام 1609. وأهملت المدارس العلمية والطبية، إذ اتجه الطلاب المسلمون إلى الدراسات الدينية. وفي منتصف القرن السابع عشر، ساءت العلاقات بين المسلمين والمسيحيين تماما حتى إنهم أنشأوا مقرات مختلفة ضمن الطائفة الحرفية الواحدة، واشتكى الأعضاء المسيحيون من أنهم باتوا يتحملون نفقات الاحتفالات الإسلامية.

(*) بأمر السلطان مراد الثالث، أشرف تقي الدين أفندي في الفترة من 1575 - 1577 على بناء مرصد في القسطنطينية، لكن علماء الدين اعتبروه تجديفا وزندقة ورأوا أنه سي جلب النحس على الدولة، فأمر السلطان نفسه بهدمه بعد عامين من عمله. [المترجم].

وبداية من العقد الرابع من القرن السابع عشر، انبرى خطباء المساجد المعروفون باسم «القاثيراذيين»^(*) في الترويج لما سمي «أفكارا متطرفة». شجبوا القهوة والتبغ والحرير والرقص، وكذلك ممارسات الدراويش مثل زيارة القبور. وأرادوا استئصال كل البدع الزائدة عن عصر النبي، حتى المآذن. ورأوا أن القسطنطينية يجب أن تصبح «المدينة المنورة الجديدة». وكما فعل معاصروهم البيوريتانيون الإنجليز، رأى المسلمون أنهم مطالبون «بالتفتيش» عن العصاة وإكراههم على العودة إلى «الطريق القويم». ووصلت العدوى إلى الانكشارية، ووقعت هجمات على مقرات الصوفية. وبلغ تهديد المتطرفين الذين اتخذوا من جامع الفاتح مقرا لهم مداه، حتى إن البطريرك المسكوني لجأ إلى السفارة الفرنسية معظم العام 1651، في مثال مبكر على استخدام السفارات ملاذا، وهو التشدد الذي بلغ أوجه في أواخر القرن التاسع عشر. وأخيرا، أمر محمد الكوبرولي في العام 1656 بنفي قاضي زاده إلى جزيرة المكروهين - قبرص - التي كانت بالنسبة إلى الإمبراطورية العثمانية مثل أستراليا بالنسبة إلى إنجلترا⁽¹²⁾.

وفي الحادي والثلاثين من أكتوبر 1661، بينما كان محمد الكوبرولي يرقد في فراش الموت في إدرنة، زاره السلطان بنفسه تقديرا له. كانت نصائح الوزير الأخيرة لسيده هي: ألا يسمع للنساء، وأن يملأ الخزانة حتى لو بظلم الناس، وأن يشغل الجيش دائما بالحرب، وأن يغير أصحاب المناصب الرفيعة باستمرار، وأن يعاقب على أصغر الأخطاء بالقتل، وأن يظهر الاستخدام الواعي للإسلام كسلاح سياسي، وأن يضفي على الحكومة العثمانية «مظهر الدين والعدل». وفي قطيعة مع العرف، قال للسلطان أيضا إن تعيين ابنه (ابن الكوبرولي) صدرا أعظم يعد أفضل طريقة للحفاظ على الإمبراطورية من الفوضى. ووافق السلطان. وبعد نجاح واعد كحاكم إقليمي، وجد فاضل أحمد الكوبرولي نفسه صدرا أعظم في عمر السابعة والعشرين. وبالفعل أثبت أنه أصغر صدر أعظم في السن في تاريخ الإمبراطورية العثمانية وواحد من أكثرهم اقتدارا وأطولهم بقاء في الصدارة العظمى.

وفقا للموظف السابق في القصر بوبويسكي، كان «الصدر الأعظم الحالي»، على خلاف أبيه القاسي، «يحكم بطريقة أكثر رفقاً ويعفو عن الناس بسهولة»، فقد

(*) «القاثيراذيون» نسب من الاسم «قاضي زاده» يعني أتباع قاضي زاده. [المترجم].

كان يقطع خيوط محافظ المال، وليس الحناجر. وفي مقابل الأب الذي لم يكن يعرف القراءة والكتابة، كان الابن شاعرا وراعيا للشعراء. وفي أثناء صدارته العظمى، أخذت المؤسسة العثمانية أولى خطواتها نحو إعادة تأسيس اتصالها بالمعرفة العلمية الحديثة. وفي الأعوام 1675 - 1685، ترجم أحد محاسيب فاضل أحمد الكوبرولي من دمشق، هو أبوبكر، إلى اللغة التركية أحدث عمل في الجغرافيا: الأطلس الكبير للجغرافي الهولندي يوهان بلايو Johan Blaeu. كتب القسيس الإنجليزي الدكتور جون كوفيل John Covel واصفا فاضل أحمد:

إنه مجرد رجل ضئيل الحجم، في مشيته (كما رأيته كثيرا بعد ذلك) شيء من العرج، وفيه أيضا شيء من الاحدوداب، يقولون إنه ناتج عن مشكلات في عرق النساء. وجهه صغير مستدير، ولحيته قصيرة سوداء مدببة، وعيناه ضيقتان، وفمه صغير، ولا توجد تجاعيد في شفثيه، وجبهته ملساء مستديرة، وحاجباه مرتفعان وشعرهما سميك لكنه قصير جدا. ولديه بثرات كثيرة في وجهه. إنه بإيجاز، يتمتع بطلعة حادة، لكنها أخلاقية وجادة، وإذا جاز لي أن أصدر حكما، فإنني أعتقد أنه رجل داهية.

إنه شخص لا سبيل إلى رشوته. وهو قائد حربي اشتهر بأنه يتم ما يبدأه، وقد فتح بودوليا Podolia في جنوب بولندا وجزيرة كريت. وغدت الإمبراطورية في عهده أوسع مما كانت قبله⁽¹³⁾.

اشتهر فاضل أحمد الكوبرولي أيضا بالعدل والرحمة، كما تجلّى في حالة المسيح المنتظر الغربية. فتحت تأثير صدمة مذابح اليهود في أوكرانيا في العام 1648 التي كانت الأسوأ من نوعها حتى هذا القرن، اعتقد بعض اليهود العثمانيين أن المسيح المنتظر تاجر يهودي وسيم وجذاب في عمر التاسعة والثلاثين من إزمير يدعى شبتاي تسفي Sabbatai Sevi. وفي الثلاثين من ديسمبر 1665 أبحر تسفي إلى القسطنطينية معلنا نيته خلع السلطان، فدخلت الجالية اليهودية في حالة من الهذيان. كتب كاهن كاثوليكي عن «حالة من النشوة والبهجة لا يستطيع أن يفهمها إلا من رآها». أعطى التجار تسفي كسوة ملكية فخمة، ودخلت النساء في نشوة من التكهّنات. واقتناعا بأن «الهلال وكل التيجان الملكية في العالم المسيحي» كانت على وشك الانهيار، أخذ بعض اليهود يستعدون لمغادرة

القسطنطينية إلى أرض الميعاد. كانت فرصة الانعتاق من استبداد الأخبار سببا آخر لانتشائهم. ففي الوقت الذي أصبح الإسلام فيه أكثر تشددا، كانت الحياة اليهودية هي الأخرى تتحول نحو مزيد من الصرامة والتكلف، فكانت التعليمات لنساء اليهود ألا يمشين بجانب البحر أو في الأماكن العامة، كما حُرِّمت الألعاب وأصناف الترفيه. وفي المقابل، كان شبتاي تسفي ينشر مذهباً يقترب من مشاعية الجنس، حتى داخل العائلة الواحدة. كانت العاصمة تضعف لأسباب تجارية وليست دينية، وأودع شبتاي تسفي السجن في فبراير 1666. وفي السادس عشر من سبتمبر، استقبله فاضل أحمد الكوبرولي في إدرة.

أعجب الصدر الأعظم بذكائه ووقاره ولغته العربية، فخيرَه بين القتل أو اعتناق الإسلام، فأسلم، وأصبح اسمه عزيز محمد أفندي، وخصص له راتباً ووظيفة، وتحول اسم زوجته سارة إلى فاطمة كادين، لكنهما عادا إلى دينهما بعد فترة قصيرة. وعاشا على القرن الذهبي في حي كاغيت خانة Kagithane، يترددان حيناً على المساجد وأحياناً على المعابد. وبعد أن صار قبلة للحج، نُفي «الكافر العنيد» كما وصفه الكوبرولي حينها، إلى ألبانيا في العام 1672، ومات هناك بعد أربع سنوات. بيد أن أتباعه المعروفين باسم الدوغة Donme باتوا يشكلون - ولايزالون - جماعة أخرى متميزة ضمن فسيفساء إسطنبول، يعيش معظمهم كمسلمين محافظين. ويحتفظ بعضهم سرا ببعض التقاليد اليهودية، مثل تلاوة الصلاة باللغة العبرية. ولا تزال مجموعة أصغر منهم تنتظر عودة شبتاي تسفي باعتباره المسيح المنتظر⁽¹⁴⁾.

أثارت حصافة أحمد فاضل وحزمه وحكمته وحسن إدراكه للأمور إعجاب سفير البندقية الذي قال إنه لو كان له ابن لما أرسله إلى مدرسة للسياسة غير البلاط العثماني. قضى الكوبرولي على أزمة الثقة العثمانية التي استبدت بالبلاط في النصف الأول من القرن. وبات بوسع نائب أحمد فاضل أن يكتب في العام 1667: «لا تزال إمبراطوريتنا كما كانت دائماً منذ نشأتها وإلى الآن، تزداد قوتها وسطوتها باستمرار، وبإذن الله ستظل كذلك، ولن تزول إمبراطوريتنا إلا يوم القيامة». كانت الإمبراطورية العثمانية قوية بما يكفي لأن تنصب نفسها حامية للأمم المستضعفة، حتى لو كانوا مسيحيين. كتب فاضل أحمد الكوبرولي إلى مستشار بولندا أن الباديشاه الأمجد والأقوى على الإطلاق سيدافع عن الأوكرانيين المضطهدين الذين

التمسوا العون من ملاذ الكون، لكنه مات من الإسراف في معاقرة الخمر في العام 1676 في عمر الحادية والأربعين⁽¹⁵⁾.

وعلى نحو ما سلكت نخبة العلماء، كانت عائلة الكوبرولي تشعر بأنها طبقة منغلقة. تزوجت أخوات فاضل أحمد الخمس من باشوات يحتلون مناصب حكومية سامية، مثل قائد الأسطول أو أمين الخزانة. وتزوج اثنان من رجال العائلة أميرات إمبراطوريات. أدارت عائلة الكوبرولي الإمبراطورية بمستوى التمكن نفسه الذي أظهرته العائلات السياسية الكبرى في القرن الثامن عشر مثل بت^(*) وغرينفيل^(**) اللتين أدارتا إنجلترا. وحيث إنه لم تكن هناك مؤسسات أرسنقراطية رسمية تحد من صعودهم، فقد كانت سلطتهم أعلى في بعض الأحيان من نظرائهم الغربيين. ولكونها عائلة عثمانية حتى النخاع، فقد عمل أفرادها حكاما للأقاليم، وامتلكوا الأتبان، وشيدوا البنايات في أنحاء الإمبراطورية كافة، من المجر إلى مصر. وبينما شيد النبلاء الأوروبيون البيوت والقصور لإسعاد عائلاتهم ورفع مقامهم، بنى الصدور العظماء من آل كوبرولو من أجل عامة الناس: مساجد ومدارس وأسواقا وأسبلة وحمامات وخانات وجسورا. وبالقرب من بازار القسطنطينية، بنى محمد الكوبرولي خان الوزير Vizir Han المكنظر المكوّن من ثلاثة طوابق. وهذا الخان القريب من حيث الحجم والوظيفة إلى رواق التسوق الحديث، لا يزال إلى اليوم يغص بالورش والمكاتب. وعلى نحو ما فعل معاصره رئيس الوزراء الإنجليزي لورد كليرندون Lord Clarendon، أنشأ ابنه فاضل أحمد مكتبة عامة. ومكتبة الكوبرولي المقببة الأصغر كثيرا من مكتبة كليرندون في أكسفورد، لا يزال يمكن زيارتها بجوار ضريح العائلة في شارع ديوان أوغلو Divanyolu بين جامعي السلطان أحمد والسلطان بايزيد. وبنى فاضل أحمد أيضا مجمعا تجاريا في ميناء إزمير التجاري المزدهر، كما بنى مساجد في الفتحين اللذين قادهما: كريت وجنوب بولندا. وبنى ابن عمه أمجد زاده حسين

(*) قدمت عائلة بت Pitt رجال دولة مقتدرين مثل وليام بت الأكبر (1708 - 1778) الذي قاد الحكومة البريطانية خلال حرب الأعوام السبعة مع فرنسا، وابنه وليام بت الأصغر (1759 - 1806) الذي شغل منصب رئيس وزراء إنجلترا في عمر الرابعة والعشرين ولأكثر من مرة. [المترجم].

(**) قدمت عائلة غرينفيل Greenville عددا من رجال الدولة والسياسيين الإنجليز من أشهرهم جورج غرينفيل (1712 - 1770) الذي شغل منصب رئيس الوزراء ومنصب أخرى عدة. [المترجم].

Amcazade Huscyn خمسة أسبله ومجزرا وجسرين في القسطنطينية وحدها. كان لهذه البنايات أربعة أغراض، إذ كانت تعلن عن نجاح بانيتها لمعاصريه، وتحفظ ذكره في مُقبل الأيام، وتضمن دخلا لخلفه، وتخدم الإمبراطورية. كانت بيوت الباشوات حضانات لرجال الدولة، كما كانت الحال في مدرسة القصر أو بيوت كبار النبلاء في فرنسا وإنجلترا قبل العام 1600. وفي أواخر القرن السابع عشر، كان أكثر من خمسين في المائة من كبار المسؤولين العثمانيين قد سبق لهم أن خدموا في بيوت الوزراء أو الباشوات، في مقابل تسعة وعشرين في المائة ممن سبقت لهم الخدمة في القصر أو الجيش، وهي علامة على استحواذ النخبة الحاكمة على ما كينة الدولة. يمثل أحد نتاجات تفريخ بيت الكوبرولي في قرة مصطفى باشا الذي خلف ابن عمه ونسيبه فاضل أحمد في الصدارة العظمى في العام 1676. تسبب عنف مصطفى باشا وجشعه في كراهية كل من الجيش ومواطني القسطنطينية له. وفي العام 1683، حاصر الجيش العثماني التفاحة الحمراء - فيينا - ولم ينقذها إلا تحالف أوروبي من الإمبراطورية الرومانية المقدسة والبابوية والبندقية وبولندا^(*). وبعد الهزيمة العثمانية في فيينا، أعدم الصدر الأعظم في بلغراد. وتواصل التقدم النمساوي، إذ سقطت بودا في العام 1686، وبلغراد في العام 1688. وفي القسطنطينية، تسبب الخوف من جيش مسيحي على وشك الظهور خارج الأسوار في انهيار أسعار البيوت. وعلى نحو ما حدث في العام 1656، فر الكثيرون بمتعلقاتهم إلى آسيا. وبدأ انتقاد السلطان على تذييره وإهماله شؤون الدولة⁽¹⁶⁾.

عُيِّن أخو فاضل أحمد الكوبرولي الأصغر فاضل مصطفى صدرا أعظم في العام 1680 في عمر الثالثة والأربعين. كتب ديميتريوس كانتمير Demetrius Cantemir المقيم السابق بالمدينة في تاريخه للإمبراطورية العثمانية الذي نشر في العام 1727 أن فاضل مصطفى الكوبرولي كان «رجلا يمتاز على كل الأتراك بطهر الحياة والنزاهة والحصافة والشجاعة». وكان أيضا يمتلك ثروة طائلة ورثها عن أخيه وأبيه، أفلتت بأعجوبة من المصادرة من جانب السلطان. وقاد صهر

(*) كانت «التفاحة الحمراء» - كما ورد سابقا في أكثر من موضع - مجازا عن السيادة العالمية، وكانت تشير دوما إلى الأهداف العثمانية المتعاقبة، مثل القسطنطينية - قبل فتحها - وروما وفيينا. [المترجم].

وعبد سابق لمحمد الكوبرولي، هو سياوش باشا، تمردا ضد السلطان محمد الرابع، أعطى عائلة الكوبرولي الفرصة للعودة إلى الوزارة^(*).

يقال كثيرا إن التاريخ الإسلامي يتميز بغياب الجمعيات التمثيلية التي وجدت على نحو متواصل في الغرب منذ القرن الحادي عشر أو ربما من قبله. بيد أن القسطنطينية كانت قانونا في ذاتها. ومنذ عهد سليمان القانوني، كان السلطان والصدر الأعظم يستدعيان عادة جمعية من الوزراء والأعيان وعلماء الدين كانت تعرف باسم «المجلس الاستشاري العالي» لإضفاء الشرعية على القرارات والتحلل من المسؤولية عنها^(**). ومع ذلك فإن النخب العثمانية كانت تفتقر إلى التذوق الموروث للحرية والامتياز الذي كان القوة الدافعة وراء الثورة الهولندية والثورات الإنجليزية واندلاع الثورة الفرنسية. لذلك كان الصمت أو طلب المزيد من الأوامر الإجابة المعتادة من هذا المجلس على طلب النصح من جانب الحكومة. وهذا الصمت الذي نشأ عن الخوف من سلطة قطع الرقاب التي بيد السلطان، كان إحدى العلامات المميزة للعاصمة العثمانية، بينما كانت الجمعيات في البلدان الغربية تتميز بالراдикаلية أو المحافظة أو الإقليمية أو الوطنية، ولم تكن صامتة إلا نادرا⁽¹⁷⁾.

في آيا صوفيا في الثامن من نوفمبر 1687، دعا فاضل مصطفى الكوبرولي جمعية من العلماء وقرأ عليهم عريضة تطلب عزل السلطان. كان الصمت هو الرد الذي جاءه، فقال فاضل مصطفى: «حيث إن الباديشاه، كما تقول العريضة، لا يفكر إلا في إمتاع نفسه بالصيد، وفي الوقت الذي تتعرض فيه الإمبراطورية للهجوم من كل الجهات، نراه لا يفعل شيئا إلا إقصاء الرجال القادرين على التعامل مع هذه المحن،

(*) شارك أباطة سياوش باشا Abaza Siyavus Pasha في حروب كثيرة، وفي الانتصار العثماني الوحيد في الحرب التركية العظمى نجح في الانقضاء على الجيش النمساوي ورفع الحصار عن بودا. ألقى الجيش والرعية باللائمة، في الهزائم العسكرية وضياع بلغراد، على السلطان محمد الرابع وصدره الأعظم ساري سليمان باشا، لذلك عندما عاد الجيش من الجبهة دبر انقلابا في العام 1687، وأجبر السلطان على التنازل عن العرش والصدر الأعظم على الاستقالة، وعُين سياوش صدرا أعظم في 18 سبتمبر ونُصّب سليمان الثاني سلطانا في 8 نوفمبر، لكن الأول حين فشل في توفير «بقشيش الجلوس» وهي علاوة اعتادت الانكشارية قبضها من السلطان الجديد، ثارت الانكشارية عليه، واقتحموا بيته وقتلوه في 23 فبراير 1688. [المترجم].

(**) لذلك، عندما وضع أول دستور عثماني مكتوب في العام 1876، وصفته جريدة «الوقت» Vakit بأنه عودة حكيمة إلى الماضي. [المؤلف].

هل مازال لديكم شك يا سادة في شرعية خلع الباديشاه الذي يدير شؤون الحكم بهذه الطريقة؟ لماذا إذن تظلون صامتين؟»، فظل الصمت ردهم (*). ثم قاد الباشا الجمعية إلى القصر. وخلعوا السلطان ونصبوا أخاه سليمان. كان الخوف يسيطر على القصر أيضا، فالسلطان الجديد بعد أن أمضى أربعين عاما في سجن الحريم، كان متوجسا من أن الجلادين بانتظاره بالخارج، ورفض الخروج في بادئ الأمر.

استجابة للضغط الشعبي، أي «الرأي العام المقتنع بنزاهته، وليس رغبة من السراي» - بتعبير السفير الإنجليزي - أصبح مصطفى الكوبرولي صدرا أعظم بعد سنة. على غرار أسلافه من الصدور العظماء الكوبروليين الآخرين، تميّز مصطفى بموقف نفعي من العائلة العثمانية. ولكي يحول دون عودة محمد الرابع أو أبنائه، وقع اختيار مصطفى الكوبرولي في العام 1691 على الأخ الثالث - أحمد الثاني - سلطانا. كان أحمد الثاني الذي «قيل إنه معتوه وإنه يسلي نفسه في الأساس بالدق على طبله»، حاكما ضعيفا طيعا آخر، اعتاد قضاء أيامه داخل القصر. حين طلب السفير الفرنسي من الإمبراطورية العثمانية ألا تعترف بعدو فرنسا وليام الثالث الذي خلف جيمس الثاني ملكا لإنجلترا (**)، أجاب صدر أعظم لاحق بأنه من السخف أن يعارض العثمانيون الذين اعتادوا خلع ملوكهم، على حق الأمم الأخرى في فعل الشيء نفسه (18).

اشتهر فاضل مصطفى الكوبرولي بأنه لم يرتكب جريمة أو يتلفظ بكلمة في غير محلها. ألغى الباشا العادة التي كان الباشوات بمقتضاها يقدمون هدايا للسلطان في الأعياد، وأنشأ مجالس للأعيان في المدن الإقليمية. ومن أجل الحيلولة دون دعم الرعايا المسيحيين لأي غزو للبلاد من جانب الجيوش البندقية والنمساوية، خفض مصطفى الكوبرولي الضرائب المفروضة عليهم ورفع مكانتهم. وقيل إنه بُنيت في

(*) عُرف السلطان محمد الرابع باسم «الصيد» من انقطاعه للصيد. [المترجم].

(**) وليام الأورانجي William of Orange أمير هولندي تزعم حرب استقلال بلاده عن إسبانيا وحروبها ضد إنجلترا وفرنسا، كانت أمه أخت تشارلز الثاني ملك إنجلترا، وتزوج هو أيضا من ماري ابنة دوق يورك شقيق تشارلز الذي خلف تشارلز ملكا لإنجلترا باسم جيمس الثاني. كان وجود ماري البروتستانتية يطمئن الشعب الإنجليزي البروتستانت على أن حكم جيمس الكاثوليكي لن يدوم طويلا، لكن بعد أن وُلد لجيمس ولد غير شرعي، عمّ اليأس الناس، ودعا الأنجليكانيون والمنشقون الأمير الهولندي وليام الأورانجي زوج ماري ابنة الملك جيمس إلى إنجلترا «ليتفاوض» مع جيمس، فاستغل وليام الموقف وغزا إنجلترا وخلع جيمس واعتلى العرش الإنجليزي باسم وليام الثالث شريكا لماري باسم ماري الثانية. [المترجم].

أثناء صدارته العظمى (1689 - 1691) كنائس أكثر مما بُني في عهد الإمبراطور جوستينيان الذي دام خمسين عاما. وفي العام 1691، بصفته سر عسكر seraskier أي القائد العام للجيش، قاد فاضل مصطفى الكوبرولي، مصحوبا بالراية المقدسة للنبي محمد، الجيش العثماني في الحرب ضد النمساويين. ولكي يضرب المثل لجنوده، زحف بالقوات سيرا على الأقدام. لكنه مات في سلانكامن Slankamen على السهل المجري، ربما مقتولا على أيدي جنوده^{(19)(*)}.

تكبدت الجيوش العثمانية هزائم أخرى. وأخيرا في العام 1697، عُيِّن فرد آخر من العائلة، هو حسين الكوبرولي ابن عم فاضل أحمد وحاكم إقليم وقبطان باشا سابق، صدرا أعظم في عمر الثالثة والخمسين. قال حسين للسلطان: «كان عمي وابن عمي صدرين أعظمين لأبيك السلطان محمد خان عشرين عاما، وقد أحسنا ورضي عنهما. ولو تجاهلت نصائح الآخرين، ولو أعطيتني الاستقلالية في الحكم، فإنني بمشيئة الله سأحسن العمل أفضل منهما بكثير».

فرد السلطان: «لو كنت مخلصا لي، فسوف أعطيك الاستقلالية». وأثبت الصدر الأعظم الجديد أنه عبقرية أخرى من عبقریات آل كوبرولو. خصص أحد المؤرخين العثمانيين الكبار - نعمة - تاريخه للإمبراطورية لـ «هذا الصدر الأعظم العلامة الذي يفيض صدره الهادئ بكنوز الحكمة والعلم والذي يفيض قلبه السامي بالحقيقة واليقين». أدرك الحاجة إلى السلام والإصلاح، فعقد من خلال وساطة السفيرين الهولندي والإنجليزي صلحا مع النمسا في كارلوفيتز بالقرب من بلغراد في العام 1699⁽²⁰⁾.

كان صلح كارلوفيتز نقطة فاصلة في التاريخ العثماني، إذ يؤشر إلى إغلاق الجبهة العثمانية في أوروبا وتحول الإمبراطورية من دولة هجومية إلى دولة دفاعية (على رغم أن بعض العثمانيين اعتبروه مجرد هدنة، ومنهم المفاوض العثماني الأساسي رامي محمد أفندي Rami Mehmed Efendi الذي قال إن سلاما مؤقتا يساوي «الجهاد» في معناه). كفاتحة لعصر جديد من السلام والبهجة، استضاف الصدر

(*) وضعت الهزيمة العثمانية في معركة سلانكامن حدا للحرب التركية العظمى التي دامت من العام 1683 إلى العام 1697 بمعاهدة كارلوفيتز Karlowitz للعام 1699 التي تنازلت الإمبراطورية بمقتضاها عن معظم ممتلكاتها الأوروبية. [المترجم].

الأعظم في قصره الساحلي على الجانب الآسيوي من البسفور سفراء إنجلترا وهولندا والإمبراطورية الرومانية المقدسة.

لا يزال هذا القصر الساحلي الذي بُني في العام 1698 وصُيغ من الخارج باللون الأحمر الصديء يشكل وقفا لعائلة كوبرولو، كان يستفيد منه في العام 1995 مائة وسبعة عشر من نسل حسين الكوبرولي. شهد القصر سنوات من الإهمال، وفي أواخر القرن التاسع عشر، سكنه لاجئون مسلمون من البلقان. وفي القرن الحالي، أُزيل معظم الحريم والبيوت الخارجية لتوسيع الطريق. وبنى أحفاد الصدر الأعظم - في مخالفة للقانون - بيوتاً من طابق واحد في الحديقة، إذ أخذت البيوت السكنية تغطي التلال القريبة.

بقيت غرفة استقبال واحدة مزينة ببناء دائري أوسط مقبب فوق نافورة مرمرية. ظلت القاعة تسعين عاماً في حالة من الانهيار الوشيك. تتلأأ مياه البسفور من خلال الثقوب المفتوحة في الأرضية. وقد غزت القاعة الأشواك واللبلاب الآتيتين من الحديقة. وبهتت الألواح الخشبية المثبتة على الجدران ووقعت. بيد أنه في العام 1700، كانت هذه الألواح مصبوعة بباقات ورد لامعة مرتبة في زهريات كوتاهية الزرقاء والبيضاء التي كانت رائجة في القسطنطينية. وفوق النافورة المرمرية، كان السقف تحفة من أعمال الأرابيسك. كانت الغرفة متقنة مثل مخادع السيدات في فيرساي، لكنها كانت أكثر صفاء. في هذا القصر الممتلئ بالزهور والمباهج، كان الصدر الأعظم يستقبل ضيوفه. بزهو المنتصر، اندفع سفير الإمبراطورية الرومانية المقدسة الأمير فون أويتنغن فالرشتاين Von Oettingen Wallerstein على صفحة البسفور بحاشية كبيرة وفرقة موسيقية خاصة في ثلاثة قوادم. كان صوت الموسيقى غارقاً في صليل السلاسل المكبل بها عبيد القوادم الذين يجدفون بالأسفل. وفي القصر، استمتع السفراء بعروض الرماية والمصارعة والبهلوانات والرقص، كما غنى لهم مطرب فارسي. وأخيراً، قُدم العشاء: حمام وتدرج ودجاج مشوي ومحشي ورق عنب والكثير من أنواع البيلو والفظائر^(*). لم يدم العشاء طويلاً، لأن الخدم رفعوا الأطباق سريعاً لكي يلتهموا البقايا. فإما أن الخدم كانوا منفلتين، وإما أن المضيف أراد أن ينهي هذه الضيافة المقيمة بأسرع ما يمكن⁽²¹⁾.

(*) التدرج طائر ذئال شبيه بطائر الحجل. [المترجم].

كان الصدر الأعظم يعرف باسم أمجد زاده amcazade التي تعني «ابن العم»، واسم مولوي Mevlevi لأنه كان عضواً في تلك الجماعة من الدراويش، واسم سرخوش sarhosh الذي يعني «السكران»، ذلك أن النزاهة لم تكن التقليد الكوبرولي الوحيد الذي حافظ عليه. كانت لديه رخصة بالتغيب عن الأعمال الرسمية في المساء لأنه كان يأخذ علاجاً لقدمه العرجاء، لكنه في حقيقة الأمر كان يشرب كحولا قويا تحرق النقطة الواحدة منه الحنجرة. وفي العام 1702، استقال الصدر الأعظم واعتزل في بيت ريفي بالقرب من إدرنة. ومات بعد سنة من جراء صدمة عضوية بسبب الإقلاع عن الكحول. ولا يزال يمكن زيارة قبره الكائن في مجمع مساجد رائع بناه بالقرب من جامع الفاتح بجانب قصره في المدينة.

ولد آخر صدر أعظم كوبرولي، هو محمد فاضل نعمان باشا Damad Fazil Numan Pasha ابن فاضل مصطفى باشا، في القسطنطينية في العام 1670. ولكونه رئيس مؤسسات العائلة، تمتع بدخل يزيد على المائة ألف إسكودو (*) في السنة. عمل وزيرا منذ العام 1700، وفي يونيو 1710 عُيِّن صدرا أعظم. وصفه السفير البريطاني بأنه:

رجل معروف عنه العدل والنزاهة، ويحظى باحترام الناس وحبهم إلى أقصى حد، حتى إن ترقيته إلى الصدارة العظمى أثارت حالة من البهجة العامة. درس القانون ويحترمه جدا، يحرص كثيرا على معرفة مواقف الدول الأجنبية ومصالحها، وهو بارع جدا في ذلك فضلا عن براعته في تحقيق مصالح هذه الإمبراطورية التي يتميز بحماس شديد لها.

توافد الآلاف على المدينة من كل من الأناضول والروملي بحثا عن العدل. ومع أن محمد فاضل نعمان باشا كان مخلصا جدا للسلطان الفاسد والقاسي أحمد الثالث الذي كان يحاول استعادة سلطة القصر على الباب العالي، فقد امتعض السلطان من ملاحظات من صدره الأعظم من نوع: «يجب أن تدفع رواتب الجند من عائدات الإمبراطورية وليس من دم الناس». وكانت سياسة الصدر الأعظم المؤيدة للسلام مع روسيا تلقى معارضة زمرة تؤيد ملك السويد

(*) الإسكودو escudo عملة إسبانية وبرتغالية. [المترجم].

شارلز الثاني عشر اللاجئ^(*). كما أنه كان رجلاً غريب الأطوار يشعر دائماً بأن ذبابة توجد في نهاية أنفه، وحين يخرجها تعود. عُزل محمد فاضل نعمان باشا بعد شهرين ومات وهو حاكم لجزيرة كريت في العام 1719⁽²²⁾.

فيما بعد، عاش نسل عائلة الكوبرولي في القسطنطينية في قصر عائلي كبير بالقرب من مكتبة الكوبرولي وحوله، وفي قصر آخر بالقرب من الجامع السليمانى، وفي قصرين ساحليين على البسفور، على ريع الأتليان والمؤسسات الكوبرولية المبعثرة في أنحاء الإمبراطورية كافة. ونتيجة لأن العائلة لم تعد تنجب رجالاً يتمتعون بالمهارة أو الحظ لنيل وظائف عالية، وبسبب تفتت الممتلكات الناتج عن غياب حق البكورة^(**)، تراجع ثراء عائلة الكوبرولي ومكانتها. وتولى أحمد الكوبرولي ابن محمد فاضل نعمان باشا الخطاط الموهوب الذي توجد أعماله الآن في مكتبة الكوبرولي، على التوالي حكم ولايات سيلانيك^(***) وجزيرة كريت وبلغراد وإزمير والبوسنة ووايية وحلب ومصر. كانت الحكومة تحرص على تدوير حكم الولايات الإقليمية بغرض الحيولة دون قيام الولاة بتأسيس قواعد للسلطة المحلية. وقيل عن مسؤول كوبرولي آخر في إزمير إنه كان «يعتبر نفسه ندا للسلطان». وبعد ذلك، تولوا وظائف صغيرة في البيروقراطية المركزية. لكن في دور مختلف جذرياً، عاد أحد أفراد عائلة الكوبرولي، هو محمد فؤاد، إلى البروز إبان القرن العشرين⁽²³⁾ ^(****).

تفسر خدمات بناء الإمبراطورية من أمثال عائلة الكوبرولي بقاء الإمبراطورية العثمانية، فضلاً على أن الجيش العثماني بقي قوة هائلة ظلت قادرة على هزيمة الجيوش الغربية. ففي العام 1711، هزمت الجيوش العثمانية بيتر الأكبر نفسه وأجبرته على توقيع معاهدة سلام في غير مصلحته. وبقوة السلاح، استعادت

(*) بعد هزمته أمام إمبراطورية الدنمارك - النرويج وسكسونيا - بولندا - ليتوانيا وروسيا في العام 1700، ثم هزمته وتمزق جيشه الذي حاول غزو روسيا، لجأ شارلز الثاني عشر ملك السويد إلى (ملاذ الكون) - القسطنطينية - حيث استضافه السلطان أحمد الثالث على نفقة الدولة مع نحو ألف من رجاله، لكن أهل القسطنطينية ضاقوا بمكاند الملك اللاجئ ورجاله واستدانهم من التجار، فثاروا واقتحموا المستعمرة السويدية في بيندر، فأخذته الانكشارية ووضع مكرماً قيد الإقامة الجبرية، حتى عاد إلى بلاده. نجح شارلز خلال سنوات مقامه في القسطنطينية في إثارة الحرب بين الإمبراطورية العثمانية والروس. [المترجم].

(**) أي حق الذكر البكر في الإرث كله كما كان في التقاليد الأوروبية. [المترجم].

(***) سلانيك Selnik هو الاسم التركي لمدينة سالونيك اليونانية التي تسمى حالياً ثيسالونيكي Thessaloniki. [المترجم].

(****) هو محمد فؤاد كوبرولو السياسي والمؤرخ التركي المعروف بإسهاماته في التاريخ العثماني. [المترجم].

الإمبراطورية شبه جزيرة بيلوبونيز من البندقية في العام 1718، وبلغراد من النمسا في العام 1739. كان نجاح عائلة الكوبرولي نفسه يشكل خطرا على الإمبراطورية. فبدلا من اتخاذ الإجراءات الجذرية التي نجحت في تغيير نظامي الحكم الفرنسي والإنجليزي إبان القرن السابع عشر، أعادت العائلة الكفاءة إلى الماكينة القديمة^(*). وفي العام 1689، ذكر السفير الإنجليزي أن فاضل مصطفى باشا الكوبرولي «أعلن نيته إقامة هذه الحكومة وفقا للطرق القديمة». ولم يضع حدا أعلى للأسعار لأن ذلك غير منصوص عليه في القرآن⁽²⁴⁾. وأخذت النخبة تؤمن بأن إرث الماضي يحمل الأجوبة عن تساؤلات العصر.

لم يكن تسامح عائلة الكوبرولي مع المسيحيين وفي معالجة الشؤون الخارجية ناتجا عن موقف شخصي من جانبهم وحسب، بل عن وجود رجل بجانبهم أيضا يجمع بين أدوار ترجمان الباب العالي وعضو مجلس الدولة ومستشار السفراء الأوروبيين، هو ألكسندر مافروكورداتو Alexander Mavrocordato^(**). تقدم عائلة مافروكورداتو مثالا جليا على أن اليونانيين كانوا كالعثمانيين تماما، يتخذون من القسطنطينية وسيلة للصعود، وبذلك كانوا يتحولون إلى خدم للإمبراطورية العثمانية. يتطابق تاريخ عائلة مافروكورداتو مع تاريخ جنوب شرق أوروبا.

كانت اللغة السبب وراء بروز عائلة مافروكورداتو. في العقد الثالث من القرن السادس عشر، كان إبراهيم باشا يتعامل مع بعض السفراء النمساويين باللغة الصربية - الكرواتية. لكن بعد العام 1580، ومع انغلاق العقل العثماني، لم يعد المسلمون يعرفون أي لغة غير العثمانية والفارسية والعربية. شكلت اللغة العثمانية بتركيب الجمل المعقدة فيها ومفرداتها المركبة، حائطا بين الإمبراطورية والعالم الخارجي. لذلك كان الصدور العظماء في حاجة إلى مترجمين للتعامل مع السفراء. وكان اليونانيون المتعلمون وحدهم يجمعون بين معرفة اللغة العثمانية واللغات الغربية. على أنه لم يكن غريبا أن يختار أفراد من أقلية لخدمة الدولة. فبالإشارة إلى استخدام الدولة الفرنسية للبروتستانت والإيطاليين،

(*) قامت الثورة الفرنسية للقضاء على النظام القديم القائم على النبلاء والإقطاع والحكم المطلق، وللقضاء على الحكم المطلق أيضا قامت الثورة المجيدة الإنجليزية. [المترجم].

(**) كان بنايوتيس نيكوسياس Panayotis Nicosias أول من شغل وظيفة الترجمان للباب العالي بعد توقف العثمانيين عن تعلم اللغات الأوروبية. [المترجم].

كتب جي إتش إليوت J. H. Elliott: «كان على رجل الدولة إبان القرن السابع عشر أن يتخذ رجاله وماله ومعرفته المهنية أينما وجدهم»⁽²⁵⁾. وبعد سنوات، عندما بلغت مكانة الإمارة المؤقتة^(*)، زعمت عائلة مافروكورداتو أن أصولهم ترجع إلى عهد جوستينيان. بيد أنهم في الحقيقة لم يظهروا لأول مرة في القسطنطينية إلا إبان القرن السابع عشر. ثمة تاجر يوناني يدعى اسكارلاتوس Scarlattos أو اسكرلوتوغلو Iskerlotoglu جمع ثروة طائلة في التزام الجمارك وإمداد المدينة بالطعام، وترك مليون قرش عندما قتله أحد جنود الانكشارية في العام 1631. وقعت ابنته الثرية روكسانا Roxana أرملة أمير ولاشيا، في حب جون مافروكورداتو John Mavrocordato تاجر الحرير الوسيم من خيوس، إحدى أغنى الجزر في بحر إيجه، وتزوجت منه. وولد ابنهما ألكسندر في العام 1641، ومات أبوه بعدها بثلاث سنوات.

ضمنت روكسانا مافروكورداتو أن يصير ألكسندر من صفوة مواطني القسطنطينية بأن أرسلته لكي يتلقى تعليمه في الغرب. درس أولا في الكلية اليونانية في روما التي أسسها منفيون من القسطنطينية في أوائل القرن السادس عشر، ثم في جامعتي بادوا Padua وبولونيا Bologna التي كتب فيها أطروحة عن دوران الدم وبذلك كان مواطنا عثمانيا بثقافة غربية. في عمر الثامنة والخمسين ناقش الطب وعلم النبات وأساليب النطق اليونانية مع عالم النبات الفرنسي بيتون دي تورنפור Piton de Tournefort الذي وجده «عالما بالشؤون الخارجية وملما باهتمامات أمراء أوروبا». لكنه أقر- على الرغم من ذلك- بأن عمره الكبير لا يسمح له بمحاكاة «جرأة الأطباء الأوروبيين» و«عقله لا يعمل إلا في السياسة حتى إنه تعجب من أنني قطعت هذه الرحلة الطويلة بحثا عن نباتات جديدة». ففي القسطنطينية، كانت السلطة والمال، وليس الاستكشاف العلمي، هما الدافع للترحال. كان الافتقار إلى الفضول العقلي لعنة المدينة. حتى إن بعض سكان غَلَطَة لم يجهدوا أنفسهم بعبور القرن الذهبي⁽²⁶⁾.

(*) الإمارة المؤقتة أي تعيين فرد من العائلة من حين إلى آخر أميراً على إمارات الدانوب مولدايا وولاشيا وكذلك جزر بحر إيجه. [المترجم].

بين العامين 1665 و1672 أدار ألكسندر مافروكورداتو الأكاديمية البطريركية. شجع ذلك الرجل الطويل والبليغ، صاحب المؤلفات في النحو والبلاغة والتاريخ، إحياء العلم بين يونانيي القسطنطينية الذي كان يكتسب زخماً بعد الحضيض الذي وصل إليه في أواخر القرن السادس عشر، عندما كادت الثقافة اليونانية الراقية تختفي من المدينة. ربما يشير شعار النبالة الخاص بالعائلة، وهو عبارة عن عنقاء تنبثق من تحت الرماد، إلى انبعاث العلم اليوناني، وليس الإمبراطورية البيزنطية. ومن العام 1668 حتى وفاته في العام 1709، ظل يشغل منصبا في البطريركية، إذ عمل على التوالي كبير الخطباء وكبير مسؤولي الوثائق وأمين المقتنيات وأمين الخزانة. وفي العام 1670، تزوج سلطانة كريسوكوليوس Sultana Chrysocoleos وهي امرأة تمتعت فوق الطبيعة الحلوة بثروة كبيرة. كانت سلطانة من خلال تحدرها من ستيفن الأكبر أمير مولدايفيا، قريبة للكثير من عائلات النبلاء بولاشيا ومولدايفيا. استفاد ألكسندر من ممارسة الطب في الترقى خلال التراتبية العثمانية. فنظرا إلى كونه طبيبا للكثير من الباشوات، أصبح في العام 1671 سكرتير الصدر الأعظم فاضل أحمد باشا وطبيبته وترجمانه. وعند وفاته في العام 1675 خلفه مافروكورداتو ترجمانا. ومنذ ذلك الحين، مُنح إسكريت زاده إسكندر Iskerletzade Iskander كما كان ساداته العثمانيون يسمونه، حقوقا لم تكن مباحة لليونانيين الآخرين، مثل ارتداء القلنسوة المصنوعة من فرو القاقم وركوب الحصان واستخدام حرس مسلحين، فكان في مظهره عثماني تاما، ولم يكن قد تجاوز عمر الثانية والثلاثين⁽²⁷⁾. فيما بعد، ارتبطت حظوظه بحظوظ الإمبراطورية. فبعد الهزيمة العثمانية في قيينا في العام 1683، أُخذ إلى السجن في سلاسل وغمُ ثلثمائة كيس، بزيادة عشرين كيسا عن كامل الجزية السنوية المفروضة على ولاشيا، وسُجنت زوجته وأمه وضربت، وماتت أمه بعد ستة أشهر من إطلاق سراحها. بيد أنه معرفته بأوروبا ولغاتها جعلت الحاجة إليه ماسة. وقد أثبت مرتد بندقي يدعى سيفراغا Seferaga كان السفير الفرنسي قد رشحه، أنه ترجمان غير كفء. وفي العام 1687 عاد مافروكورداتو إلى منصبه، وسجن مرة أخرى في هذه السنة ولجأ إلى السفارة الفرنسية لبضعة أسابيع في العام 1688. ومع ذلك، فقد ساعد مافروكورداتو، بأوامر حسين الكوبرولي، في ترتيب صلح كارلوفيتز بين الإمبراطوريتين العثمانية والهابسبرغية، حين أقنع كل

إمبراطورية أبية من الاثنتين على حدة بأن المبادرة جاءت من الإمبراطورية الأخرى. تكشف رسائله باللغة الإيطالية إلى السفير والوسيط الإنجليزي لورد باغيت Lord Paget عن تأدب شديد حتى على ذلك العصر الذي يتميز بالطابع الرسمي:

السيد والراعي الأشهر والأبرز

لا أستطيع أن أصف سعادتي باستلام رسالة سعادتكم باللغة اللطف والرقّة بتاريخ 20/10 من فبراير 1699 من بلغراد تحمل الأخبار المنشودة بصحتكم الجيدة التي تعني عافية صحتي أنا أيضا بسبب الصلات القوية التي تربطنا معا من خلال الالتزامات التي توجهنا ... لقد سعد صدرنا الأعظم السامي وسيدنا المكرم بالتحيات الودية والرغبات المخلصة من سعادتكم ...

المخلص لكم وخادمكم المطيع

من أدرينابول، في 23 فبراير 1699

أليساندرو مافروكورداتو

وكتب في رسالة لاحقة: «إن جاذبية سعادتكم عظيمة جدا لدرجة تجعل الحرمان الطويل من رفقتكم الحلوة وخصالكم اللطيفة أمرا لا يطاق بالمرة». وقد رحب الباب العالي بخدمات لورد باغيت، حتى إنه طلب بقاءه في القسطنطينية. ولم يستطع أن يخلع نفسه أخيرا إلا في العام 1703، أي بعد أربع سنوات مما كان مخططا⁽²⁸⁾.

مكافأة على مفاوضات السلام الناجحة في العام 1700، أصبح ألكسندر مافروكورداتو عضوا بمجلس الدولة. وأعطاه السلطان عباءة من فرو القاقم، فيما أعطاه الإمبراطور الروماني المقدس مخطوطات بيزنطية. وفي العام 1703، عندما دخلت العاصمة مجددا في حالة من الثورة، لجأ ثانية إلى السفارة الفرنسية، واضطر إلى دفع مائتي كيس للعودة إلى منصبه. ومات ألكسندر مافروكورداتو في يناير 1710، تاركا خمسمائة كيس نقدا وسمعة تصفه بأنه عدو لا يستهان به، لكنه في الوقت عينه صديق مفيد. وصفته مرثية بالقول:

أبو اليونانيين واللاتينيين

والمستشار الأكبر للعثمانيين

النجم القطبي بين الوزراء

يا مثال العالم الحقيقي⁽²⁹⁾

من الطبيعي أن نسأل عن وجهة الولاء الأخير للرجل الذي وصفه ديبلوماسي فرنسي بأنه «أحد أفضل اللاعبين في أوروبا»: هل إلى الإمبراطورية العثمانية التي سجنته وضربته؟ أم إلى الأحلام اليونانية والروسية بإمبراطورية بيزنطية جديدة؟ في العام 1672، قرأ ألكسندر مافروكورداتو دراسة حول جوانب القوة والضعف لدى الإمبراطورية لدارس فرنسي يدعى أنطوان غالاند Antoine Galland أول مترجم لألف ليلة وليلة. كانت قوة الإمبراطورية تكمن في الطاعة العمياء من جانب رعاياها ومرونة أبنيتها. بينما كانت نقطة ضعفها تكمن في عائلة السلطان والباشوات المترفة، والدمار السنوي للطاعون، والعملة المعيبة والنظام القانوني، والافتقار إلى الموظفين المتمكنين، وعادات السلب والنهب. مؤكداً أنه تمنى أن تنهار. وبعد خمسة وعشرين عاماً، في أثناء المفاوضات في كارلوفيتز، أخذ ألكسندر مافروكورداتو رشاوى كبيرة من النمسا، وهي القوة الأجنبية المفضلة لديه، وشجب «تقلب الأتراك وغدرهم ونقائصهم الهمجية الوحشية الأخرى». كما أرسل إلى فيينا سراً نسخاً من الأوامر التي أعطيت له من الباب العالي. وفي المقابل، اعتبره السفير الفرنسي متعاطفاً مع الطموحات الروسية «بإعادة بناء الإمبراطورية اليونانية السابقة» وأنه مستعد لخدمة اليونانيين «حتى مع إلحاق الضرر بمصالح الباب العالي». وفي مراسلات سرية، أسماه السفير الفرنسي «علياً» Ali واستخدمه كمصدر للمعلومات العسكرية، وفي المقابل كان «علي» يتقاضى راتباً سنوياً قدره ألفان وأربعمائة جنيه، زاد لاحقاً. وبذلك يمكن اعتبار مافروكورداتو عميلاً رابعياً، كان يعمل لحساب الإمبراطورية العثمانية وروسيا والنمسا وفرنسا. وعلى الجانب الآخر، ربما كان مافروكورداتو يتقاضى الأجور أو الرشاوى ويبيع المعلومات بمعرفة الصدر الأعظم. ففي العام 1699، احتفظت ديبلوماسيته للإمبراطورية بأراضٍ أكثر مما كان متوقعاً. وفي عصر مازاران ومارلبورو، وفي مدينة مثل القسطنطينية، لم يكن فسادُه وحماقاته استثناءً بحال من الأحوال⁽³⁰⁾.

ومع ذلك كله، فإن الإمبراطورية العثمانية وفرت لعائلة مافروكورداتو مزايا ضخمة جعلت ولاءهم الأخير للعثمانيين، مهما كانت المبالغ التي حصلوا عليها

من القوى الأجنبية. وكما كانت الحال مع «كاثوليك القلعة» الأيرلنديين(*) الذين خدموا الإمبراطورية البريطانية قبل العام 1922(**)، آمنت عائلة مافروكورداتو بأنه ما دامت بقيت الإمبراطورية العثمانية، فبإمكانهم هم ورفاقهم اليونانيين أن يستفيدوا منها. من ذلك أن ألكسندر مافروكورداتو ساعد بتأثيره في الباب العالي، البطريك والرهبان الأرثوذكس في التصدي لهيمنة أعدائهم الكاثوليك على الضريحين المسيحيين الأساسيين كنيسة القيامة في القدس وكنيسة المهد في بيت لحم. فمنذ العام 1675، وفي مقابل دفع ألف قرش سنويا لجامع السلطان أحمد بالقسطنطينية، أعطي البطريك الأرثوذكسي بالقدس السيطرة على الثالوث المهم: المفاتيح والشمعدانات والسجادة، ما أثار توترا شديدا قبل اندلاع حرب القرم. وإلى جانب حيازة مناصب مربحة، كانت عائلة مافروكورداتو تقرض المال بفائدة قدرها عشرون في المائة. وبلغ الثراء بألكسندر أن كتب إلى البطريك المسكوني: «إذا احتجت إلى المال، يمكنني بكل سرور أن أعطيك أي مبلغ تريده». وتمكن مافروكورداتو أيضا من تجديد امتيازات جزيرة خيوس - قاعدة عائلته - التي حظيت بفترة من السلام والازدهار فيما بعد حتى اندلاع حرب الاستقلال اليونانية(31).

كان صعود ابنه نيقولاس مافروكورداتو في العام 1709 إلى عرش ولاشيا أكثر إشباعا من أي شيء آخر. كان نيقولاس الذي ولد في العام 1680، موسوعيا يعرف اليونانية واللاتينية والعثمانية والعربية والفارسية والإيطالية والفرنسية، التي تعلمها جميعا في القسطنطينية، لأنه على خلاف أبيه لم يتعلم في جامعة غربية. وعمل بين العامين 1700 و1709 ترجمانا للباب العالي. ونظرا إلى أنه كان يستطيع دائما أن يذكر مصادر الاقتباسات من الذاكرة، فقد أسماه أبوه «مكتبته». كتب لاموتراي اللاجئ الهوغونوتي الذي ساعده في تعلم اللغة الفرنسية: «لم أر قط إنسانا في مثل ذاكرته اتساعا وتديبا».

(*) كانت قلعة دبلن مقر الحكم الاستعماري البريطاني لأيرلندا قبل أن نستقل الأخيرة في العام 1922، واستخدم الأيرلنديون المصطلح الازدراي «كاثوليك القلعة» للإشارة إلى أبناء جلدتهم الذين يتعاونون مع الاحتلال الإنجليزي «البروتستانتى». [المترجم].

(**) كان من بينهم سفير بريطاني إلى الإمبراطورية العثمانية، هو سير نيقولاس أوكونور Sir Nicholas O'Connor الذي مات في أثناء العمل في القسطنطينية في العام 1908. [المؤلف].

كانت هناك سوابق لتنصيب أبناء القسطنطينية على عرش ولاشيا أو مولدافيا. وكان الارتباط بين يونانيي القسطنطينية وإمارات حوض الدانوب يشتد أكثر فأكثر منذ منتصف القرن السادس عشر. وبدأ الأمراء يحاكون الطقوس البيزنطية في تنصيبهم ويسددون ديون البطريك المسكوني. وانتقل يونانيون، من أمثال عائلة كانتاكوزينوس، من القسطنطينية إلى مولدافيا أو ولاشيا، طلبا للثروة وطول العمر. وكما كانت الحال مع العائلات الدولية الأخرى، مثل آل هابسبرغ (الذين كان منهم في اللحظة عينها الأباطرة الرومان المقدسون وملوك المجر وملوك بوهيميا وممالك كثيرة أخرى) أو آل هانوفر (أمراء هانوفر وبعد العام 1714 ملوك بريطانيا العظمى وأيرلندا)، كانت عائلة مافروكورداتو قادرة على أداء أدوار مختلفة في الأوطان المختلفة في الوقت نفسه. يؤكد أنهم كانوا سينظرون إلى قناعة القرن العشرين التي عبر عنها راييموند آرون Raymond Aron الذي كتب «لا أحد يستطيع أن يكون له بلدان» بصفته مقولة فارغة. فقد كانت عائلات مثل مافروكورداتو وكانتاكوزينوس وغيرها أبعد من أن يجعلوا أنفسهم سجناء هوية واحدة، وكانوا يبرزون الهوية - سواء العثمانية أو اليونانية أو الولاشية - التي تبدو أكثر فائدة في أوقات محددة. ومثلهم مثل الأوروبيين المتعلمين الآخرين، اعتبروا القومية مهنة، وليست قضية.

يئس ألكسندر مافروكورداتو من صعود ابنه اجتماعيا، فضرب رأسه ومزق شعره، وقال إنه خراب العائلة. كان ألكسندر يمارس حكمة تاليران Talleyrand القائلة بأن الكلمات أعطيت لنا لكي نخفي بها المعاني. كان من الواضح أن ألكسندر الذي تزوج من سليلة ستيفن الأكبر، وزوج كل أبنائه، ومنهم نيقولاس نفسه إلى أبناء أمراء ولاشيا أو مولدافيا، كانت لديه «استراتيجية ملوكية» مثل الأمراء الطموحين في الإمبراطورية الرومانية المقدسة. وعلى الرغم من أن أمراء ولاشيا ومولدافيا كان يعينهم السلطان ويحكمون لفترات محدودة، فإنهم بلغوا تلك المكانة «بفضل الله»، وتمتعوا بسمات ملوكية مثل الحرس والبلاط وترشيح الأساقفة. واعترفت بلاطات أوروبا برتبة سموهم الأكثر صفاءً. وضمن التراتبية العثمانية، كانوا في مرتبة الصدر الأعظم. ومع ذلك فقد عاش أمراء ولاشيا ومولدافيا بين الموت والعرش بسبب وقوعهم في مركز الدسائس بين النبلاء المحليين المعروفين باسم البويار boyar والباب العالي والقصر وروسيا والنمسا وفرنسا والقرم وحاجتهم إلى إشباع نهم الباب العالي إلى المال. على أن المخاطرة كانت

مقبولة. وفي ذلك قال أحد الأمراء: «فليأتي الموت متى يشاء. فقد عشت فترة طويلة بما يكفي منذ أن أصبحت أميراً». وبعد إعدام أمير آخر، تساءلت أمه: «أليس من الأفضل لابني أن يموت بهذه الطريقة من أن ينتظر الموت في سكون في الفراش؟»⁽³²⁾.

وكما هي الحال مع الأمراء السابقين له، نُصّب نيقولاس مافروكورداتو أميراً لمولدافيا في القسطنطينية، ذلك أن أمراء ولاشيا ومولدافيا كانوا الحكام الوحيدين الذين يُنصبون في غير البلد التي كانوا يعيّنون لحكمه. كانت المراسم توكيدا مرثيا للهوية الثلاثية لطبقة النبلاء الفناريين الذين سُموا باسم حي الفنار الذي سكنوا فيه بيوت الطابوق والحجارة القديمة ذات الطوابق العلوية المظنفة والبارزة في الشارع^(*). أولاً، كان الأمير الجديد أو القويفود voivode (اسمه الرسمي، وهو مأخوذ من كلمة سلافية تعني السيد) يصل بقارب الكياك إلى الباب العالي. وهناك كان يتسلم شارات الشرف العثمانية: قفطان من قماش ذهبي، وقفاطين أقل فخامة لمرافقيه وكوكا cuka وهي عمامة مزينة بالجواهر وريش النعام. وبعد ذلك يتقدم الأمير على ظهر حصان ترافقه الانكشارية إلى كنيسة الفنار. وهناك يستقبله البطريرك ورجال الدين والوجهاء اليونانيون بالمدينة. وخارج الكنيسة، يعلن خادم الصدر الأعظم: «أطال الله عمر باديشاهنا والأمير أفندي أمد الله في عمره وسدد خطاه».



شارع في حي الفنار، في نحو العام 1900. في السابق، كانت هذه البيوت المبنية بالطوب والحجارة بالقرب من البطريركية المسكونية، مساكن النخبة الفنارية.

(*) الطنف جزء حجري أو خشبي ناتئ من جدار داعم لشيء فوقه. [المترجم].

وحين يدخل الأمير أفندي الكنيسة، كان ينتقل من عالم الإمبراطورية العثمانية إلى عالم الإمبراطورية البيزنطية. فتبدأ الجوقة ترتيلة لمريم العذراء، ويصعد للجلوس على العرش، وترتل الصلوات بأن «يكلل سيدنا نيقولا مافروكورداتو الأكثر ورعا وصفاء وسموا بالقوة والنصر والثبات والصحة والسلامة، وأن يكون الله عوناً له، ويهديه الرشاد في كل الأمور، ويضع كل خصومه تحت قدميه!» ثم يضع الأمير رأسه على المذبح لكي يدهنه البطريرك بالزيت المقدس و«يقرأ عليه الصلوات التي تتلى عند تنصيب الأباطرة الأرثوذكس».

وبعد بضعة أيام، وفي بيته الخاص، كانت المراسم العثمانية تعيد تأكيد سلطتها. إذ تعزف فرقة السلطان الموسيقى العثمانية، وتقدم إلى الأمير راية، يقبلها قائلاً: «أطال الرب المقدس العظيم عمر الإمبراطور الأقوى والأكرم والأعدل وأمد في أيامه». وتمر الأيام في زيارات طقوسية من البطارقة أو إليهم، وحتى إلى المفتي. وثمة مراسم أخرى للرسم كانت تشمل الاجتماعات مع الممولين ورجال الأعمال بالعاصمة الذين كانوا يعتبرون إمارات الدانوب «بيرو» أخرى^(*). وأخيراً كان الأمير يركب إلى قصر السلطان مصحوباً بنبلأ البويار والانكشارية. وهناك يتسلم عباءة مبطنّة بالفراء وعمامة أخرى، ويستضيفه الصدر الأعظم على وليمة رسمية. وفي غرفة العرش، كان الأمير مصحوباً بأربعة من نبلأ البويار، يسجد ثلاث مرات أمام السلطان. وباسم السلطان، يعلن الصدر الأعظم: «نظراً إلى أن إخلاصه ووفاءه وصل إلى مسامع فخامتني، فإنني أتفضل بمكافأته بإمارة ولاشيا. على ألا ينقطع وفاؤه وخدماته في المستقبل. فليقم على حماية الولايات والدفاع عنها خاضعاً وخائفاً من ارتكاب أي شيء على خلاف أمرنا أو أبعد منه».

وكان الأمير يجيب: «أقسم بحياتي ورأسي أن أبذل كل جهدي في خدمة إمبراطوري الأعدل والأكرم، مادام أنه لم يسحب وجه رحمته وفخامته عن خادمه». وبعد ذلك يغادر القصر على ظهر حصان، وهو يلقي التحية على الجماهير المصطفة في الشوارع وبيعثر المال عليهم. كانت توضع ثلاثة من ذيول الخيول معلقة على سوارى في شكل طقوسي في أحد أركان غرفة عرشه، وكان يوزع قفاطين

(*) كانت بيرو منجم المعادن النفيسة للتاج الإسباني، خصوصاً الفضة في مناجم بوتوسي، وقد اشترك رجال الأعمال الإسباني في استغلالها، إما بطريقة شرعية أو غير شرعية. [المترجم].

على المسؤولين العثمانيين. وكانت المراسم تؤكد قوته في التراتبية العثمانية والروابط بين الإمبراطورية ورعاياها الأرثوذكس.

وخلال الأسابيع التالية، كان موكب طويل من اليونانيين والأتراك ونبلاء البويار مصحوبين بفرقة موسيقية ورايات عثمانية وذيول خيول مركبة في سوارى، يتقدم من القسطنطينية خلال جبال البلقان إلى بوخارست أو ياش^(*). وكانت الأجراس في المدينة تدق فرحا، ويُتَوَجَّ الأمير الجديد ويُدهن بالزيت مرة أخرى في الكاندرائية، ثم ترافقه الجموع إلى قصره على أصوات الأبواق والطبول. وفي غرفة العرش، كان مرسوم السلطان يقرأ باللغة العثمانية ويترجم إلى الرومانية، ويقوم مسؤول عثماني بإلباس الأمير القفطان ويأخذ يده إلى العرش، وتطلق المدافع نيرانها، ويتهيج رسل السلطان، ويقبل النبلاء يد الأمير، وتختتم الاحتفالات بوليمة وحفلة فخمة⁽³³⁾.

من الواضح أن الحكومة العثمانية كانت ترفع من شأن اليونانيين الفناريين لكي تنجح في ضربة واحدة في تلطيف تهديدات كل من العدوان الدانوبي والسخط اليوناني. فلم يكن أبناء مولدافيا وولاشيا أهلا للثقة. ففي العام 1600، كان الأمير ميخائيل Michael أمير تراسلفانيا وولاشيا ومولدافيا يحلم بإقامة القداس في سانت صوفيا^(**). و«لكونه سليل العائلة الإمبراطورية»، فقد نال سيربان كانتاكوزينوس أمير ولاشيا من العام 1679 إلى العام 1688 وعدا من قيصر روسيا بأن يكون إمبراطور اليونانيين، وفي الوقت نفسه كان البطريرك يشجع الهجوم الروسي على العثمانيين. أقام ديميتريوس كانتمير صهر كانتاكوزينوس في القسطنطينية من العام 1688 إلى العام 1710 رهينة لضمان حسن سلوك أبيه أمير ولاشيا. كان ديميتريوس دارسا وملحنا عثمانيا، بنى لنفسه قصرا رائعا يطل على القرن الذهبي. ونظرا إلى أن بلاط السلطان «أعظم البلاطات في العالم»، فقد أهدى الأمير السلطان أحمد الثالث «كتاب علم الموسيقى مشروحا بالحروف» الذي دوّن فيه ثلاثمائة وواحد وخمسين لحنًا تركيا وفارسيا وعربيا وفقا لنظام تدوين خاص به. وعُيِّن أميرًا لمولدافيا في العام 1710. وعلى الرغم من المكافآت التي نالها من هويته العثمانية، هاجر إلى روسيا

(*) مدينة ياش Jassy واحدة من أكبر مدن رومانيا الحالية، كانت عاصمة إمارة مولدافيا زمن العثمانيين من العام 1564 إلى العام 1859. [المترجم].

(**) في إشارة إلى الحلم باستعادة القسطنطينية وإعادة جامع آيا صوفيا إلى كنيسة سانت صوفيا كما كانت قبل الفتح العثماني. [المترجم].

بعد سنة بناء على وعد بعرش مولدافيا له ولأحفاده تحت السيادة الروسية. ففي القسطنطينية، كما عرف بعض الوزراء، كان يختفي تحت السطح العثماني، مثل ينابيع المسيحيين المقدسة التي تجري تحت الأرض، عالم سري من المؤامرات وأحلام التحرر على يدي «الإمبراطور الحامي» أي القيصر. من ذلك أن الصدر الأعظم قال للسفير البريطاني في العام 1710 إن بيتر الأكبر «يمني نفسه بأن يكون في يوم من الأيام سيد القسطنطينية وأنه قال إنه يتمنى أن يدفن في كنيسة سانت صوفيا».

كانت الألقاب الأميرية تُدوّن سريعا لإرضاء العائلات اليونانية، وأيضا لإشباع الخزانة العثمانية التي كانت تتلقى مبالغ كبيرة من كل أمير جديد. وقد نُصبت القسطنطينية عددا من الأمراء لا يقل عما نُصّب في فيينا. وبين العامين 1710 و1821، نُصّب ستة من أبناء عائلة مافروكورداتو وخمسة من أبناء عائلة غيكا Ghika وأربعة من أبناء عائلة كاليماشي Callimachi وثلاثة من أبناء عائلة سوتزو Soutzo وثلاثة من أبناء عائلة راكوفيسا Racovitza واثنان من أبناء عائلة موروسي Mourousi واثنان من أبناء عائلة إبسيلانتي Ypsilanti وواحد من أبناء عائلة مافرويني Mavroyeni أمراء في بوخارست أو ياش (إضافة إلى أربعة من أبناء عائلة مافروكورداتو وأربعة من أبناء عائلة غيكا وأربعة من أبناء عائلة سوتزو وأربعة من أبناء عائلة كاليماشي واثنان من أبناء عائلة إبسيلانتي وخمسة من أبناء عائلة موروسي شغلوا وظيفة ترجمان الباب العالي، ومنصبا آخر هو ترجمان الأسطول، وهما منصبان أعطيا الفنارين مزيدا من السلطة والثروة). وصلت هذه العائلات إلى المدينة قبل العام 1650 من مناطق كثيرة مختلفة: ألبانيا (عائلة غيكا) وإيروس (*) (عائلة سوتزو) وطرابزون (عائلة إبسيلانتي وموروسي) ورومانيا (عائلة كاليماشي وراكوفيسا) وجزر بحر إيجه (مافرويني). استجابت هذه العائلات التي كانت تعمل أصلا في التجارة وملكية السفن إلى إغواء العظمة الذي كانت تبعثه المدينة فيمن يراها، وبدأوا بادعاء الأصول البيزنطية (كما ادعى الممولون الأرمن انتسابهم إلى الملك داوود). وربطتهم الإمارة المؤقتة في حوض الدانوب بالإمبراطورية العثمانية، وأشعبت توقعهم الشخصي إلى المال والسلطة، فضلا عن رغبتهم القومية في دعم القضايا اليونانية. كما وفرت لهم الوسائل لبناء الكنائس

(*) إيروس Epirus منطقة تاريخية في جنوب أوروبا تقع بين جبال بندوس Pindus والبحر الأيوني، تنقسمها حاليا اليونان وألبانيا. [المترجم].

والمدارس وإثراء البطريركية. وفي أوج قوة الفناريين، وبما يصب في مصلحة البطريركية المسكونية، لكنه جاء على حساب الأرثوذكس الناطقين باللغة العربية، نال رجال الدين الناطقين باليونانية السيطرة على البطريركيتين الواقعتين في أنطاكية والقدس ودير جبل سيناء^(*). وألغيت الأسقفيتان الصربية والبغارية المنفصلتان الواقعتان في بيتش وأوخريد في العامين 1766 و1767 على التوالي. ومنذ ذلك الحين، بدأت الأوامر الدينية تأتي إلى العرب والسلاف باللغة اليونانية⁽³⁴⁾. شبّه بعض الفناريين دورهم في الإمبراطورية العثمانية بالدور التمديني الذي مارسه اليونانيون في ظل حكم الرومان^(**).

في بوخارست أو ياش- المعقلان الوحيدان في البلقان للثروة والترف الموروثين- كان الأمير يدخل عالما جديدا يقع على تقاطع ثلاث ثقافات: الأرثوذكسية والكاثوليكية والإسلامية، وثلاث إمبراطوريات: الهابسبرغية والروسية والعثمانية. كان يقوم على خدمة الأمير مسؤولون ذوو مناصب فخمة شغلها جميعا في أوقات مختلفة أفراد من عائلة مافروكورداتو، وهي الجراندي بوسستولنيك Grand Postelnic (وزير الخارجية) والجراندي سباتار Grand Spatar (وزير الداخلية) والجراندي هيتمان Grand Hetman (وزير العدل). وكانت القصور تؤثث بطريقة نصف شرقية ونصف أوروبية، وكان نبلاء البويار يعيشون حياة البطالة التي تتخللها الحفلات الراقصة وتبادل الزيارات والعلاقات الغرامية. وبحلول القرن الثامن عشر، كان التأثير العثماني قد بلغ أوجه، فأخذ هؤلاء النبلاء يأكلون طعاما عثمانيا ويلبسون أزياء عثمانية.

في نهاية القرن، أبهر بلاط أمير مولدافيا، وهو ألكسندر مافروكورداتو لاحق، في ياش، الكاتب والنبيل تشارلز جوزيف أمير لاين الذي يمثل أوروبا المتحضرة^(***). كان بلاط الأمير في رأيه يحوي «ما يكفي من المقتنيات الشرقية ما يجعله في قلب آسيا، ومن الحضارة ما يفوق بعض البلاطات الأوروبية»^(****). كان الأمير يعطي أصدقاءه من الرجال «تفويضا مطلقا للمتعة» بالسماح لهم «بزيارة» النساء في بيت

(*) لا يزال اليونانيون يسيطرون على دير سانت كاترين بسينا إلى اليوم. [المترجم].

(**) على أساس المقولة التاريخية الرائجة بأن الرومان غزوا اليونانيين عسكريا، بينهما غزاهم الآخرون ثقافيا وفكريا. [المترجم].

(***) آل لاين Ligne واحدة من أقدم عائلات النبلاء البلجيكية، ترجع أصولها إلى القرن الحادي عشر إلى قرية بالاسم نفسه بمنطقة والونيا Wallonia بجنوب بلجيكا، ترقى في المراتب حتى منحها الإمبراطور رودولف الأول لقب أمير لاين وأمير الإمبراطورية الرومانية المقدسة. وتشارلز جوزيف (1735-1814) هو الأمير السابع بهذه العائلة. [المترجم].

(****) على أساس أن الحضارة سمة لأوروبا من دون غيرها. [المترجم].

زوجته، شريطة أن يجتازوا أولا فحصا طبييا. «كان مافروكورداتو لا يرى إلا وجوها سعيدة. فيأخذ الناس بعضهم، ويتركون بعضهم، بلا حسد ولا غيرة». انهر لاين بالأذرع المرمرية والفساتين الشفافة للسيدات المتكئآت على الديوان، والتعليقات الجانبية في محادثاتهم من نوع «هنا دُبح أبي بأمر من الباب العالي، وهنا دُبحت أختي بأمر من الأمير»⁽³⁵⁾.

تضرب حياة نيقولاس مافروكورداتو المثل على المكافآت والأخطار التي كانت تحيط بعرش ولاشيا ومولدافيا. فحين عُيِّن أمير آخر لمولدافيا خلفا له في السابع والعشرين من نوفمبر 1710، لجأ لدى عودته إلى القسطنطينية، كما فعل أبوه من قبله، إلى السفارة الفرنسية، إلى أن دفع تبرعا ضخما للخزانة العثمانية لإعفائه من تهمة بالفساد. وقبل أن يُعَيَّن أميرا لولاشيا في العام 1716، أثبت نيقولاس ولاءه للإمبراطورية العثمانية بتحمل السجن لسنتين في سجون النمساويين في أثناء حرب الأعوام 1716-1719. وحث الولاء للعثمانيين بين رعاياه من خلال تذكيرهم باضطهاد الهابسبرغيين الكاثوليك للرومان الأرثوذكس في ترانسلفانيا⁽³⁶⁾. وكوفئ على ذلك بتعيينه أميرا لولاشيا مرة ثانية من العام 1719 حتى وفاته في العام 1730.

كان أبوه متمسكا بالتقاليد يؤمن بأن موسى كان أعظم المؤرخين. أما نيقولاس مافروكورداتو، فكان مواطنا لما أسماه معاصروه «جمهورية الأدب»، وهي الجماعة الفكرية بأوروبا الغربية. فأنشأ في بوخارست مدارس ومكتبات عامة، ورعى مطابع يونانية وعربية. وإبان القرن الثامن عشر، صارت بوخارست وياش، بدرجة أكبر من القسطنطينية أو جبل أثوس، مراكز للثقافة اليونانية. جمع الأمير نفسه مكتبة رائعة، بإحضار بعض من كتب أبيه من القسطنطينية وشراء كتب جديدة من أمستردام ومخطوطات قديمة من جبل أثوس. يوجد الكثير من هذه الأعمال حاليا في المكتبات العامة برومانيا ومكتوب عليها (ليس عثمانيا وليس يونانيا، بل قسطنطيني). بعد العشاء الثقيل، كان نبلاء البويار ينامون ساعتين أو ثلاث على الأقل. أما نيقولاس مافروكورداتو الذي لم يكن يقضي أكثر من نصف ساعة في أي وجبة طعام، فكان يذهب إلى مكتبته لدراسة علم النبات أو تعلم العبرية أو قراءة أحدث الكتب الفرنسية أو مراسلة رئيس أساقفة كانتيري⁽³⁷⁾.

في سنوات الخلو من الإمارة، طبع نيقولاس أعمال أبيه التي تقدم - جنباً إلى جنب مع أعماله - نافذة إلى عقل الفناريين. كتب ألكسندر مافروكورداتو باللغة اليونانية الكلاسيكية، وليس بما أسماه «لهجة السوق»، التي قصد بها اليونانية التي يتحدثها الناس. يتجنب عمله «كتاب الواجبات» Book of Duties الذي أعجب معاصروه كثيراً، إغراء النزعة المثالية. يثني فيه على التظاهر بالفضيلة كوسيلة لتجنب الفضائح، ويعتبر الفقر أشد الأمراض فتكا، ولا حديث فيه عن الحرية:

لا تفعل ما تريد، ولا ما تستطيع، بل ما يخدم مصالحك.

لقد نجحت من خلال التركيز في الفوز بحظوة أحد الوزراء، لكنه الآن راح وحل غيره محله، ثم الأخير وجاء غيره. وفي كل مرة، كان علي أن أبدأ من جديد.

إذا زرت مكتبا حكوميا، فعليك أن تدخل أعمى وتخرج أعمى.

تكشف نصيحة نيقولاس مافروكورداتو إلى ابنه في العام 1727 عن النظرة العملية عينها:

لا تعد، وإن وعدت فلا تخلف.

الغضب انفعال قاتل، وللدماثة قوتها.

لا تكن كريما، بل كن مقتصدا. ولا تكن طماعا، بل أحسن تدبير ما في يدك.

مد ساقيك بقدر ما يسمح غطاؤك.

يؤدي الإحسان بلا تعقل إلى أمراض كبرى وإلى حياة من التبذير العام،

والإحسان إلى شخص سيئ النية يضر المجتمع كاملا⁽³⁸⁾.

وبين العامين 1717 و1720، كتب نيقولاس مافروكورداتو أول رواية حديثة باللغة اليونانية «نزهة فيلوثيوس» The Leisure of Philotheus التي تجري أحداثها في القسطنطينية، وفيها يعيش مجموعة من الأصدقاء في الأتيميدان، ويقابلون ثلاثة رجال يرتدون ملابس الفرس، ويزورون غلطة ويتحدثون بين الأكشاك والأسبله والعطور المبهجة لإحدى الحقائق العثمانية. يناقشون كل شيء: الإلحاد، وحب النساء المسلمات للرجال المسيحيين، وطبيعة الغيرة، وأبطال

العصور القديمة، وحكم لاروشفوكو^(*)، وحياة شارلز الثاني عشر ملك السويد. شجب مافروكورداتو الممارسات الخرافية للإسلام العثماني وافتقاره إلى «فلسفة أكثر صلابة تستند إلى الحواس». كانت معضلة الفناريين واضحة، كما يقول الراوي، وهي «أننا كنا يونانيين بقدر ما سمحت لنا الظروف». لكنه في الوقت نفسه يثني على التسامح الديني للقسطنطينية، وعودة العلم، و- ربما على نحو ساخر- شجاعة أحمد الثالث وشهامته وحكمته: «تسع روحه المتعقلة روح السلطنة كاملة التي تعمل وتتحرك بعقريته الملحوظة». ولا ذكر في الرواية للنهائيات الشنيعة التي تعرض لها في العام 1714 أربعة من أبناء قسطنطين برانكوفان Constantine Brancovan أمير ولاشيا وصهره، الذين أعدموا بتهمة الخيانة العظمى وعُرضت جثثهم أمام الباب الإمبراطوري للقصر ثم رُميت في البحر. ولا يشير نيقولاس مافروكورداتو أيضا إلى ما حدث بعد ذلك بسنتين من إعدام ما لا يقل عن عشرة من أفراد عائلة كانتاكوزينوس من كل الأعمار. ربما يرجع صمته إلى أنه أبلغ السلطات العثمانية بنفسه عن هؤلاء الأقارب والمنافسين⁽³⁹⁾.

كان دير فاكاريسي Vacaresti الذي بناه نيقولاس مافروكورداتو في الأعوام 1716-1722 في غابة خارج بوخارست، رمزا بالحجارة لطموحات عائلة مافروكورداتو. هذا الدير الذي يغطي مائة وثمانين ألف متر مربع، والأكبر في جنوب شرق أوروبا، والأكبر حتى من أي من مؤسسات عائلة كوبرولو، يتكون من كنيسة ودير وقصر ومكتبة. وفي حين كانت أجراس الكنائس غير مسموح بها في القسطنطينية، احتوى دير فاكاريسي على برج أجراس رائع. وفي الكنيسة، توجد مجموعتان من اللوحات الجصية تصوّر الأمير مع زوجته الثانية سمارغدا Smaragda محاطين بأطفالهما ونبلاء البويار. تنتمي وقفتهما وهما يحملان نماذج للكنيسة في أيديهما، إلى الميراث البيزنطي، وعباءتهما المبطنة بالفراء إلى التأثير العثماني، والتاجين اللذين على رأسيهما إلى ولاشيا.

(*) فرانسوا لاروشفوكو (1613-Francois La Rochefoucauld) مؤلف حكم وقواعد سلوكية ومذكرات فرنسي، منها كتابه «تأملات أو حكم أخلاقية». [المترجم].

كُتِبَ على تابوت مرمرى أبيض في الكنيسة متوجاً بشعاري ولاشيا ومولدافيا
مرثية للأمير نصها:

يملأني منظرُك أيها القبر بالعجب، لأنك تحوي نيقولاس، أمير مولدافيا أولاً
ثم ولاشيا. لقد هداه الله إلى تشييد كنيسة الشموس الثلاث هذه، شمس
حكيمته وشمس علمه وشمس مرآة من تعلموا من دراساته، إنها شمس
نسل اسكارلاتي Scarlati. كان أبوه ألكسندر عضو مجلس شوري الإمبراطورية
العثمانية. ومَنْ توجهته الموزيات (*) بغار المجد، متوج الآن بقبر من المرمر، إذ
استسلم للسطو القاسي للطاعون تاركاً أطفاله لحزن لا يحتمل، وكذلك زوجته
وحشد من أقربائه. لنثني عليه بفضائله، ولندعو الله أن يسكن روحه في
حدائق خضراء (40).

وفي العام 1986، أمر الرئيس نيكولاي تشاوشيسكو بهدم الدير الذي استخدم
سجناً لمدة طويلة (الذي ربما كان الرئيس نفسه أحد نزلائه في يوم من الأيام). واليوم
يغطي متنزه عام على اسكوريال عائلة مافروكورداتو (**).

يمكن إرجاع هذه الهمجية إلى الذكريات الباقية لدى الرومانيين حول الاستغلال
الذي تعرضوا له على أيدي الباب العالي والفناريين. فعلى مدار القرن الثامن عشر،
كانت القسطنطينية تتلقى كميات متزايدة من الذهب والطعام من الإمارات، إذ
كان نحو ثلثي الإيرادات الحكومية ينفق خارج الولايات. حتى المال الذي بُنيت به
مكتبة نيقولاس مافروكورداتو كان مغتصباً من الولاشيين. واشتكى المؤرخون المحليون
من أن اليونانيين من القسطنطينية تكاثروا في بوخارست وياش حتى خلا الفئار
منهم. حكم مافروكورداتو مولدافيا من خلال الأبهة والإرهاب، على طريقة الباب
العالي، «ليس كأمر حقيقي، بل كأسد بري ... إذ نشر الرعب، حتى كان مجرد ظهوره
يجعل المرء يرتعد» (41).

كان الفناريون والبطيركية - في المقابل - يشعرون بولاء متجدد إلى
الإمبراطورية العثمانية. تتجلى روح التعاون بين اليونانيين والعثمانيين في الرسائل

(*) الموزية - muse - في الميثولوجيا اليونانية - إحدى الإلهات التسع الشقيقات اللاتي تحمين الغناء والشعر والفنون
والعلوم. [المترجم].

(**) تشبيهاً للدير مُجمّع الإسكوريال Escorial في مدريد الذي سيزيد مزيد حوله في حاشية لاحقة
للمترجم. [المترجم].

التي أرسلها البطريرك إلى السلطان التي يطلب فيها الإذن بسجن كهنة متهمين بالهرطقة أو غيرها من الجرائم أو نفيهم. كان البطريرك يوجه رسائله مباشرة إلى «مقامك السامي، سلطاني الأقوى على الإطلاق، أدام الله على سموك الصحة والعافية»، ويوقعها بالعبارة «خادمك البطريرك اليوناني للقسطنطينية». ووصل الشعور بالحرية لدى اليونانيين أن جرأهم على التظاهر أمام الباب العالي في حال رفضهم البطريرك الجديد. تزوجت إليزابيث سانتى لوماتشا Elizabeth Santi Lomaca ابنة ترجمان يوناني كان يعمل في الباب العالي، من تاجر قماش فرنسي يدعى لويس شنير Louis Chenier، وأنجبا الشاعر أندريه شنير Andre Chenier. كانت إليزابيث، مثل معظم اليونانيين، تنظر إلى الحكم العثماني بعينين. فمن ناحية، أثنت على السلطان محمود الأول (1730-1754) بصفته الرحيم المهذب الذي يستحق الصفة «الأكبر». ففي طريقه إلى صلاة الجمعة، كان يمكن لأي من رعاياه، ذكرا أو أنثى، مسلما أو مسيحيا، أن يلتمس عدله. وكان قوله المفضل: «الأقوياء لا يكونون عظماء إلا إذا كانوا في عون الضعفاء». لكنها - في المقابل - تصف اليونانيين بأنهم «تعرضوا للاستعباد والذل على أيدي الشعب الهمجي»⁽⁴²⁾.

وبينما لف النسيان عائلة كوبرولو، احتفظ عرشا مولدافيا وولاشيا لعائلة مافروكورداتو بالثراء والسلطة. ففي العام 1731، انتخب نبلاء البويار قسطنطين ابن نيقولاس الذي ولد في العام 1711، أميرا لولاشيا، وهو في عمر العشرين. وحكم لمدة ستة وعشرين عاما، ست ولايات لولاشيا بين العامين 1731 و1763، وأربع ولايات لمولدافيا بين العامين 1740 و1769. كان قسطنطين الشخص الوحيد الذي كان في مقدوره أن يقول: «عندما بدأت ولايتي السابعة» أو «بالقرب من نهاية ولايتي التاسعة». أصدر قسطنطين الأقل وحشية من أبيه مراسيم في العامين 1746 و1749 تستهدف تخفيف عبء قناة الأرض شديد الوطأة عن كاهل الفلاحين، وتخفيف الضرائب والسخرة. كان بعض الفلاحين يعيشون في حفر في الأرض ويبيعهم ملاك الأراضي ويشترونهم كالعبيد في أسواق العاصمة. ولم يكن قسطنطين مافروكورداتو متعصبا للثقافة اليونانية. فتحدث اللغة الرومانية، وكلّف بوضع أول كتاب لقواعد اللغة الرومانية، وجعل الرومانية لغة الكنيسة،

وليس السلافية أو اليونانية. ومع نهاية القرن كانت كل بلدة تضم مدرسة رومانية وأخرى يونانية⁽⁴³⁾.

وعلى نحو ما حدث لأبيه وجده، عاش قسطنطين بين العرش والسجن واللجوء إلى السفارة الفرنسية. فنتيجة لعجزه عن دفع طلبات الباب العالي الأخيرة واتهامه بالخيانة، سُجن قسطنطين في أسفل بئر على جزيرة ليمنوس في العام 1749 وفي قلعة الأبراج السبعة في العام 1758 والعام 1763. وعلى الرغم من أنه كان يقضي جل وقته في مولدافيا أو ولاشيا، فقد احتفظ أيضا ببيت في غَلَطَة، ضم مكتبته التي كانت مصدر فخر ليونانيي القسطنطينية. وعندما عرض سفراء أجنب أن يشتروا البيت، «اتحدت الأمة اليونانية كلها في مطالبته بالاحتفاظ به». لكنه اضطر في العام 1757 إلى بيع بيته ومعظم مكتبته لدفع مبلغ ثلاثمائة كيس فرضها عليه الباب العالي. وفي العام 1769، تعرض قسطنطين مافروكورداتو للسجن لآخر مرة في ياش على أيدي جيش روسي غاز في بداية الحرب الروسية - التركية. وفي هذه الحادثة، قال للروس، إما من باب الولاء للأتراك وإما الخوف منهم، حيث كان اثنان من أبنائه محتجزين رهائن في القسطنطينية: «سيعود الأتراك غدا وسيطردونكم من هنا كالكلاب». ومات في هذه السنة ودفن في كاتدرائية ياش⁽⁴⁴⁾.

وظل ألكسندر ابن قسطنطين - أمير مولدافيا من العام 1782 إلى العام 1785 - المعروف باسم ديلي بيه Deli Bey أو «السيد المجنون»، وفيًا لميراث عائلته في خدمة العثمانيين. كانت الفقرة التي صُدِّر بها هذا الفصل، رده الغاضب على قنصل نمساوي رفض أن يخاطبه بلقب «صاحب السمو الأكثر صفاءً». ورد على ضابط روسي عرض عليه إمارة مستقلة، بالقول إن ولاء عائلته كان دائما لسلطان واحد، و«إنني أفضل الفقر مع الشرف على ثروات كروسيوس مع العار»^(*). ومن الأفضل لصاحبة الجلالة (كاترين الثانية) أن تتعامل معي كصديق تركي، وهو ما لا ينتقص من مسيحيتي، وعلى النقيض مما تطلبوه مني، يأمرني ديني المسيحي بأن أكون مخلصا لإمبراطوري». وبعد أن عُزل ألكسندر

(*) كروسيوس Croesus ملك ليديا Lydia من العام 560 قبل الميلاد حتى هزمته أمام الفرس، اشتهر بثرائه، وذكر هيرودوت وبوسانياس هداياه التي بقيت في معبد دلفي. [المترجم].

بضغط نمساوي وروسي، مات في القسطنطينية في العام 1812. ثمة يونانيون آخرون أرضاهم ازدهارهم المتنامي والزيادة في أعداد المدارس والسفن اليونانية. وفي ذلك كتب أحد اليونانيين: «الإله الغالب على كل سكان القسطنطينية هو المصلحة الخاصة المالية، وكل شيء ما عدا ذلك ثانوي. إلى هذا الحضيض أنزلت العبودية أمة الرومان».

كان الله والثروة Mammon يدعمان الإمبراطورية العثمانية. ففي العام 1798، عندما غزت جيوش الجمهورية الفرنسية مصر وهددت الإمبراطورية نفسها، نشر بطريرك القدس - أو البطريرك المسكوني غريغوري الخامس مستخدماً اسم الأول- في القسطنطينية اعتذاراً يونانيا للإمبراطورية العثمانية بعنوان «العظة البطريركية، قال فيه إن الله رفع إمبراطورية العثمانيين فوق كل الممالك الأخرى ... لكي تكون للغربيين لجاماً، وتكون لنا نحن الشرقيين مُخلصاً ومنقذاً. ولهذا السبب، يضع الله في قلوب سلاطين العثمانيين ميلاً إلى الحفاظ على حرية المعتقدات الدينية لديننا الأرثوذكسي، وزيادة على ذلك يحمون هذه العقائد إلى حد أنهم من حين إلى آخر يعاقبون المسيحيين الذين ينحرفون عن عقيدتهم.

أما القيود على بناء الكنائس الجديدة، فقد أعادت الفقر المقدس الذي ميّز الكنيسة المبكرة. وكذلك الحرية، كانت «سُماً مدمراً يلقي بالشعوب إلى المهالك والاضطرابات». لقد دمرت الحرية في السنة السابقة منافس القسطنطينية القديم: جمهورية البندقية (التي غزتها الجمهورية الفرنسية). واختتم البطريرك بصرخة من القلب: «إننا هنا لسنا في مدينة البقاء. فمدينتنا التي نبغي في الآخرة»⁽⁴⁵⁾.

وعلى أي حال، فقد بدأ بعض اليونانيين، حتى من الأمراء أصحاب الامتيازات من عائلة مافروكورداتو، ينظرون إلى الولاء لإمبراطورية العثمانيين على أنه خيانة. وجاءت قوة روسيا في عهد كاترين الثانية لترفع مستوى التوقعات. من ذلك أن أخا ديلى بيه الأصغر ديمتريوس مافروكورداتو، وزير العدل بمولدافيا في العقد قبل الأخير من القرن الثامن عشر، بدلاً من أن يعود إلى القسطنطينية، بقي في وطنه الجديد الذي أسس فيه الفرع الروماني لعائلة مافروكورداتو. ثمة ألكسندر مافروكورداتو آخر، كان ترجمانا سابقاً وأصبح أميراً لمولدافيا، وعرف

باسم «الفار» firari أي اللاجئ بسبب هروبه إلى روسيا من ياش في الخامس والعشرين من يناير 1787. وفي القسطنطينية، اضطرت زوجته زامفيرا Zamfira إلى أن تباع ملابسها حتى تجد الطعام، لكنها لحقت به لاحقا. استقر الزوجان في موسكو، وفيها بدأ «اللاجئ» يكتب قصائد تحض اليونانيين على نيل حريتهم بأيديهم وليس بأيدي القوى الأجنبية. وبعد تسعة عشر عاما، في العام 1806، فر أبناء عمومة عائلة مافروكورداتو من عائلة إبسيلانتي، الذين كانوا على اتصال سري بعملاء روس منذ عقود، هم أيضا إلى روسيا. وفي العام 1813، لاحظ جون كام هوبهاوس John Cam Hobhouse الذي طاف بالمنطقة مع لورد بيرون، عمق كراهية اليونانيين للأتراك: «تتجه كل آمالهم (اليونانيين) إلى إعادة المملكة البيزنطية في شخص أي مسيحي، ويا حبذا لو كان مسيحيا من كنيستهم»⁽⁴⁶⁾. كان الفناريون يغادرون العالم المألوف للطموح العائلي إلى العالم الجديد للنزعة القومية. ولم تعد المدينة ترضيهم، حتى إن أحد أفراد عائلة إبسيلانتي أسماها «بربربوليس» وليس «كونستانتينوبوليس»^{(47)(*)}.

(*) تذكر أن الاسم البيزنطي للمدينة هو «كونستانتينوبوليس» Constantinopolis الذي يعني «مدينة قسطنطين»، وقد استعاض هذا اليوناني عن «قسطنطين» بكلمة برايرة ليجعلها «مدينة البرابرة» Barbaropolis. في إشارة إلى الحكم العثماني. [المترجم].

وثائق المتعة

دعنا نزر سعادات أباد يا سَرَوِي
المتمايلة، هيا! (*)

نديم، نحو العام 1757

كان المنظر View هو المتعة العظمى في القسطنطينية. فكان اجتماع الماء والعمارة أخذاً حتى وصف الشعراء البسفور بأنه ألبسة بين زمردتين، والجوهرية في عقد الإمبراطورية العالمية. وأثر حب المنظر في تصميم بيوت المدينة. من ذلك أن المعماري الإنجليزي سي آر كوكريل C. Cockereil كتب: «تُخطط الغرف بحيث يكون لكل واحدة منها نوافذ على جهتين على الأقل، وأحياناً على ثلاث جهات، وعادة ما تكون النوافذ كبيرة جداً لدرجة تعطي تأثير البيت الزجاجي. يبدو أن الأتراك هم الشعب الوحيد الذي يقدر نور الشمس الساطع ومتعة (*) سعادات أباد أو السعادة الأبدية Sa'adabad: قصر بناه السلطان أحمد الثالث في منطقة كاغيت خانة على القرن الذهبي. [المترجم].

«كان هناك مثل محلي يقول إن أمر السلطان يدوم من منتصف النهار إلى الساعة الواحدة»

المنظر الجميل». وكانت المشربيات القوسية، البارزة إلى الخارج مثل مقدمة السفينة لكي تعطي منظرا أفضل، أساسية لدرجة أنها شكّلت السمة المحلية الأساسية التي أدمجت في البيوت التي بُنيت هناك على الأنماط الأوروبية إبان القرن التاسع عشر⁽¹⁾. في القسطنطينية، مدينة المناظر، كان النظر شكلا للتواصل لا يقل استخداما عن الكلام أو الكتابة. فمن شرفة قصر توبقاي، كان السلطان ينظر دائما إلى غَلَطَة من خلال منظار. وحتى سكان غَلَطَة، عندما كانت تتمكن منهم الجراة، كانوا يوجهون المناظير إلى القصر. وفي إحدى المناسبات، أدى وميض نور الشمس على منظار السفير الفرنسي إلى تعليق العلاقات الدبلوماسية تقريبا. وكانت أميرات العائلة الإمبراطورية إبان القرن التاسع عشر «بارعات في إخفاء النظارات [المناظير] وسط طيات نطاقهن وفي حرير ستائر النوافذ حتى يختلسن النظر إلى الجيران والزوار. ولم يكن شيء مما يجري تفوت معرفته أو رؤيته على سيدات الحريم» (لاتزال المناظير أداة منزلية أساسية على البسفور إلى اليوم).

تميّزت القسطنطينية عن المدن المائية الأخرى مثل لشبونة والبندقية بانتشار الحدائق. كانت هذه المساحات الخضراء تبرز جلية من خلال التضارب اللوني مع الأسقف ذات البلاط الأحمر والمساجد ذات الحجارة الرمادية. والمثل السلافي الذي يقول «حيث يطأ التركي، لا عشب ينمو» محض افتراء. فإذا كانت الصورة المادية للجنة بالنسبة إلى المسيحيين تتمثل في مدينة متألثة على تل، فإنها تتمثل عند المسلمين في حديقة مبهجة ذات عيون وأنهار دائمة الجريان. كان الاحتفال السنوي بالولي المسلم الخضر إلياس^(*) في أوائل مايو، احتفالا بالزهور والخضرة. وفيه كان الصدر الأعظم يرسل هدايا من الزهور والفاكهة إلى السلطان والحريم والسفراء الأجانب. وقد لاحظ دو فرنس كاناي أن العثمانيين يعاملون الزهور معاملة المسيحيين للآثار المقدسة. وكانوا دائما يحملون زهرة في أيديهم أو عمائمهم. وكانت البذور والأبصال والزهور تباع، ولاتزال كذلك، في الأفنية المجاورة لبازار التوابل.

(*) بعيدا عن اعتقاد بعض المسلمين بأن الخضر Hizir وإلياس Elyas شخص واحد وأنهما لايزالان حيين إلى الآن، يقام هذا الاحتفال في الشعوب التركية - وحتى الشعوب المسيحية التي حكمها الأتراك في البلقان - في ليلة الخامس من مايو ويستمر طوال اليوم التالي، احتفالا بمقدم الربيع. أما العلاقة بين هذين النبيين والربيع، فهي أن الأتراك يؤمنون بأن الخضر يجلب الخصب ويتجول في الأرض، وكذلك إلياس الذي يرتبط عندهم بالماء، وأن هذين النبيين يتجولان في الأرض لأداء بعض المهام ويلتقيان في الخامس من مايو. ويرمز التقاؤهما إلى انصهار الأرض والماء. [المترجم].

وكانت الزهور والحدائق الموضوع الأساسي في بلاط المدينة وتطريزها وشعرها. كتب أحد شعراء القرن السادس عشر يقول: «ولماذا ألزم نفسي بتأمل الحديقة؟ فقلبي حديقة لي». وبالنسبة إلى الشاعر العظيم باقي، ف «في حديقة السعادة العالمية، لا شيء غير الورد يستطيع أن يبقى إلى الأبد»⁽²⁾.

أنتج العثمانيون أساليب كثيرة مختلفة للحدائق في القسطنطينية: الجنة الداخلية التي تضم بيوتا للزهور، وحديقة البهجة خارج البيت، وحدائق الشرفات المظلمة بكرمات متشابكة، وحدائق الفاكهة والخضر المعروفة باسم بستان لار bostanlar، والحدائق المغمورة المحفورة في الأرض بغرض التبريد في الصيف. وفي العام 1690، انبهر الزائر الفرنسي المؤرخ جان دو مون Jean du Mont بحديقة قائم مقام (نائب) الصدر الأعظم: «إن الطرقات مفروشة بالرمال ومسيجة في بعض الأماكن بأشجار البرتقال وفي أماكن أخرى بأشجار فاكهة. أما الأحواض، فلا تفصل بينها رياض كما هي الحال عندنا، بل حافات ومملوءة بالزهور التي يحبها الأتراك كثيرا». وكذلك كانت الأشجار تنمو أيضا في شوارع القسطنطينية وعلى جدرانها. وقد كانت الكرمات والوستارية^(*)، ولاتزالان، تلف البيوت وتعتبر الشوارع على حبال، ما يجعل أفقر الأحياء أقل قذارة من الأحياء الفقيرة في المدن الأخرى⁽³⁾.

كان السلطان يمتلك إحدى وستين حديقة على طول بحر مرمرية والبسفور. تجنبت هذه الحدائق الأنماط الصارمة لكل من الحدائق الغربية والإيرانية، بعبثة الزهور وأشجار يهوذا «التي تداعب العين» وأشجار الحور والسرو^(**). وفي أثناء زيارات السلطان للحدائق بحريمه، كانت تحاط بأسوار شبكية لحماية السيدات من أعين الأجانب. كان البستانيون الإمبراطوريون المعروفون باسم البستانجية إحدى الوحدات الأساسية في البلاط: يسجل أحد دفاتر المحاسبة للعام 1580 النفقات التي تكلفها تجديدهم «تعريشات الياسمين القريبة من شرفة دار السعادة House of Felicity في حدائق القصر»⁽⁴⁾.

(*) الوستارية wisteria أو الخلوة: نبات معترش ذو زهر عنقودي أزرق أو أبيض أو أرجواني. [المترجم].

(**) شجرة يهوذا Judas tree أو الزمزيق الأثيني: شجرة متساقطة أو نفضية صغيرة من جنوب أوروبا وغرب آسيا، تمتاز بمظهرها المثمر وزهورها القرنفلية في الربيع. [المترجم].

ثمة شكل للحدائق ميّز القسطنطينية عما عداها، وهو الجبّانات graveyards المزهرة الممتدة عبر التلال والوديان خارج المدينة. كانت أشجار السرو والزهور والنباتات المعتشرة تنمو بين القبور العثمانية، أو من فتحات محفورة في منتصفها. وكانت شواهد القبور التي قيل إنها كانت تكفي لإعادة بناء المدينة كاملة، تُبعثر عشوائياً، بدلا من أن تُرتب في صفوف منظمة. وكانت بيوت الزهور بالجبّانات رائعة حتى إنها أصبحت متنزها مفضلا للعائلات في أيام الجمع. وكانت المقاهي تُبنى في الجبّانات أو مطلة عليها. وكان الفرنجة يجتمعون كل مساء للتسامر والتنزه في جبّانة في بيرا ذات منظر رائع عبر القرن الذهبي، كانوا يطلقون عليها «متنزه الجبّانة الصغيرة»⁽⁵⁾.

تتحول شواهد القبور المطلية بالأزرق والأحمر والذهبي الزاهي^(*)، بعد التعرض للرياح والمطر لسنوات، إلى اللون الأبيض أو الرمادي. كانت تنقش زهور أو شيلان على شواهد قبور النساء، وتميّز عمائم حجرية الرتبة الرسمية للرجال الموتى. وتؤكد النقوش مكانة الحديقة في المخيلة العثمانية:

الدوام لله!

ماتت صادقة

واحسرتاه!

تركنتي ابنتي الحبيبة.

واحسرتاه!

صادقة نور عيني

وردة حديقة آمالي

ذهبت إلى الجنة.

اقرأوا الفاتحة لصادقة

ابنة عثمان بيه

1256 هجري

البقاء لله!

لم أكد ألد وليدي وأراه

(*) في العام 1904، أعاد الروائي الفرنسي بيير لوري Pierre Lori بناء قبر محبوبته أزياده Azyade بطلّة روايته التي تحمل الاسم نفسه الواقع خارج أسوار المدينة وأعاد طلاؤه باللون الذهبي. [المؤلف].

حتى وافتنى المنية

غادرت حديقة هذا العالم إلى الجنة.

اقرأ الفاتحة لعائشة زوجة أورمان أفندي⁽⁶⁾

كان الياسمين والسوسن والورد والزنبق والقرنفل والياقوتية^(*) الزهور المفضلة في حدائق العاصمة. لكن لم تكن ثمة زهرة أكثر عثمانية من الزنبق، إذ كانوا يتعلقون بها أكثر من غيرها لأن حروف اسمها باللغة التركية -lale- هي نفسها حروف اسم الله. وكانت الإمبراطورية العثمانية تُجرّد من الزنبق من أجل حدائق القسطنطينية. ففي العام 1574، كتب سليم الثاني إلى مسؤول بالقرب من حلب: «أريد نحو خمسين ألف زنبقة لحدائق الملكية. وقد أرسلت لك أحد رؤساء خدمي لأخذها. وأمر بك ألا تتأخر في أي حال من الأحوال». وفي العام 1577، طلب مراد الثالث ثلاثمائة ألف بصلة زنبق من القرم. كان الأتراك يعطون زهور الزنبق أسماءً مثل «أرجوان القزم» و«تألق الازدهار» و«وجه المحبوب» و«السهم الوردي»، وكانت ألوانها وسيقانها وساداتها^(**) موضوعات للنقاش والمنافسة. كان الزنبق التركي يتميز بالتوجيهات المدببة. فكانت الزنبقة المثالية توصف بأنها «على هيئة لوزة، وتشبه الإبرة، ومزينة بأشعة لطيفة، وتوجيهاتها الداخلية مثل عين الماء، كما يجب أن تكون، وتوجيهاتها الخارجية مفتوحة قليلا، ورقيقة أيضا، كما يجب أن تكون». وفي الصيف، كانوا أحيانا يظللون بها بالكتان حتى لا تحرقها الشمس. ومن القسطنطينية، انتشر الزنبق إبان القرن السادس عشر إلى أوروبا الوسطى والغربية⁽⁷⁾.

بحلول القرن الثامن عشر، كان البسفور محاطا بمزارع الكرم والحدائق وبساتين الفاكهة. وكانت القرى المختلفة متخصصة في فاكهة مختلفة: قرية روملي كاواك Rumeli Kavak في الكرز، وقرية أورتاي في الكرز، وقرية بايكوز Beykoz في الجوز، وقرية ميجيديكوي Mecidiyekoy في التوت. وإبان القرن السابع عشر، أكل ملك أحمد باشا وضيوفه «الكرز ياقوتي اللون كثير العصير» حتى التخمة في يالياته yalis الخشبية الاثنتي عشرة الواقعة على طول البسفور والقرن الذهبي^{(8)(***)}.

(*) الياقوتية: زهرة جميلة من الزنبقيات. [المترجم].

(**) السداة هي العضو الذكري في الزهرة. [المترجم].

(***) تذكر أن اليالي yali بيت أو قصر أو مضيعة مبنية من الخشب على البحر مباشرة. [المترجم].

وسرعان ما أصبحت اليايات جزءاً أساسياً من الحياة في القسطنطينية. في باريس، مُنع بناء البيوت الخشبية تدريجياً بعد منتصف القرن السابع عشر لتجنب الحرائق. وفي المقابل، كانت معظم البيوت في العاصمة العثمانية بعد القرن السادس عشر تُبنى من الخشب. لا ترجع أسباب ذلك فقط إلى ميزة الوفرة (تغطي الغابات الأناضول) والرخص وسرعة البناء، إذ كان البيت الكبير يستغرق شهرين أو ثلاثة أشهر فقط لإتمام بنائه، بل أيضاً إلى الجغرافيا والإحساس الجمالي للمدينة. لقد بُنيت القسطنطينية على خط صدع أرضي، وكثيراً ما دمرتها الزلازل التي وقع أسوأها في الأعوام 1509 («القيامة الصغرى») و1648 و1719 و1766 و1894. ونظراً إلى أن الخشب ينثني، فإنه يقاوم الزلازل أفضل من الحجارة (وهو نفس ما توصل إليه المعماريون التقليديون في طوكيو). وكذلك كانت القسطنطينية أيضاً مدينة مائية، والخشب يمتص الرطوبة أفضل من الحجارة. علاوة على أن اختيار الخشب نتج أيضاً عن عشق المنظر، ذلك أن الجدران الخشبية تسمح بنوافذ أكثر عدداً وأكبر مساحة من الجدران الحجرية.

ومن الخارج، لم تكن اليايات والكوناكات konaks (البيوت الكبيرة المبنية بعيداً عن الماء) أقل جمالاً من الحدائق المحيطة. كانت هذه الأبنية تطلّ عموماً بالأحمر الصدئ وبعض الصور المميّزة. تبين البيوت القديمة المتبقية، مثل يالي عائلة الكوبرولي ويالي سعدالله باشا في شنغلوكوي Cengelkoy على الجانب الآسيوي للبسفور، الأبنية الخشبية الفخمة ذات الطوابق الأربعة التي بُنيت لأصحاب السفن المسيحيين، وبيت كوافيان إيوي Kavafyan Evi الكائن في منطقة بيبك Bebek، أن جمال هذه الأبنية من الخارج لم يكن يضاهي القصور الحجرية العظيمة التي اصطفّت حول القنال الكبير بالبندقية. ربما كانت قوة العائلة الحاكمة هي السبب وراء ذلك، بمعنى أن ملاك هذه البيوت كانوا يخافون من استهجان السلطان أو حسده إذا ما مر بسفينة فوق مياه البسفور أو القرن الذهبي. وفي بعض الحالات، خصوصاً إذا كان المالك مسيحياً، فإن أقسام البيت الواحد كانت تطلّ بألوان مختلفة، حتى تبدو للناظر كأنها بيوت منفصلة. نظرياً، كانت البيوت التي يبنها المسيحيون واليهود على الشاطئ يجب أن تكون أوطأ بقدمين من بيوت المسلمين، على الرغم من أنهم كثيراً ما كانوا يشترون بيوتاً تكسر هذه القاعدة.

كانت الغرفة الأساسية داخل اليالي تسمى صوفا sofa، وهي عبارة عن غرفة استقبال كبيرة في طابق علوي، أو يكون جزء من هذه الغرفة مرفوعاً بقدماً واحدة عن الأرضية، ومغطى بسجاد فاخر ويصطف حوله الديوان. وكانت الأسقف والنوافذ والإطارات والجدران تنقش وتزيّن بموضوعات زهرية زاهية الألوان ومُذهّبة، وورديات (*) وأشغال أرابيسك، وكانت المشكاة الغائرة في الجدران تحمل زهريات أو مباخر. وكانت الزهور تُعرض إما في باقات في زهريات زرقاء وبيضاء وإما كزهرات فردية في زجاجات بندقية طويلة الرقبة. وكان المسيحيون واليهود والمسلمون يستخدمون أسلوب الزخرفة الداخلي نفسه. وفقاً للمصمم الإنجليزي-الهولندي توماس هوب Thomas Hope، مؤلف الرواية الفنارية العظيمة أناستاسيوس (Anastasius, 1818)، كانت بيوت اليونانيين في الفناء تحوي «غرفاً مؤثثة بكل أبهة العظمة الشرقية. فكانت الأرضيات تغطي بالسجاد الفارسي، والجدران تكسى بالمخمل الجنوبي، وتحجب الأسقف العالية تعريشات مُذهّبة. وكانت تبعث من مباخر فضية سحباً من العطور النفيسة في كل الأرجاء». وكان كثير من بيوت اليونانيين الأغنياء تضم أجنحة منفصلة للرجال والنساء، مثل بيوت جيرانهم المسلمين⁽⁹⁾.

ربما بسبب الإرث البدوي للعثمانيين، كان الأثاث قليلاً، إذ اقتصر على مدفأة ومقاعد بلا ظهر (كانت توضع عليها صوانٍ دائرية كبيرة لتناول الطعام)، وحول الجدران ديوان مطرز. وكانت المراتب توضع في دواليب في الجدران، ثم تُفرد على الأرضية ليلاً لتعمل عمل الأسرة. وكانت الجواهر والمنسوجات - السجاد وستائر الحوائط وأغطية المساند - الملمح الرئيس للترف. بعد أن زار ديلوماسي روسي بيت الصدر الأعظم والقبطان باشا، كتب: «برغم ما يبدو على بيوتهم من الخارج من البساطة، فإن داخلها يغلب عليه الترف والعظمة. فالذهب والمنسوجات الفخمة واللآلئ والأحجار الكريمة توجد بها بوفرة لا توصف».

شاركته ليدي ماري ورتلي مونتغو الرأي. زارت الليدي في العام 1718، قصر فاطمة ابنة السلطان أحمد الثالث ذات الأربعة عشر عاماً وأرملة علي باشا التي كان حفل زواجها الأول مثلاً للأبهة في العام 1709، والتي تزوجت ثانية من الصدر الأعظم إبراهيم باشا. كان قصرها يقع في موقع قصر تشيرغان Corgan الحالي:

(*) الوردية rosette: حلية معمارية على شكل ورد. [المترجم].

يقع [القصر] على أحد أجمل أجزاء القنال [البسفور]، وتوجد غابة جميلة خلفه على جانب التل. إن حجمه هائل، فقد أكد لي الحرس أنه يضم ثمانمائة غرفة. لن أتحدث عن العدد لأنني لم أحصها بنفسي، لكن من المؤكد أنه عدد كبير جدا من الغرف، جميعها مزينة بسخاء بالمرمر والتذهيب ورسوم رائعة للفاكهة والزهور.

أما الغرفة التي كانوا يستقبلون فيها السلطان

فجدرانها مكسوة بخشب السنديان مثبت فيه عرق اللؤلؤ بزمردات كالمسامير، غير عرق اللؤلؤ والخشب الزيتوني المطعمة به الكثير من الخزفيات. أما الأبهاء وهي كثيرة وواسعة جدا، فإنها مزينة بزهرات ورد وصحون خزفية عليها رسوم فاكهة من كل الأنواع، مرسومة جيدا بالجص وملونة بألوان مفعمة بالحياة لها تأثير السحر. والحديقة مناسبة للبيت، حيث وزعت فيها الأشجار والنافورات والطرق معاً في فوضى مستساغة.

كانت الأكشاك المنتشرة في حدائق الياليات مبهجة أكثر من غيرها. يذكر سي آر كوكريل أن «الأكشاك من أكثر الأشياء سحراً ... إنها تصنع كلها من الخشب، وحتى أكثرها اتساعاً ينجز في شهرين». كانت الأكشاك المزينة بقباب صغيرة وأشغال كتابية مذهبة «تعطيك إحساساً بأنك تقرأ ألف ليلة وليلة». وكانت الشجيرات الخارجية تخلق لوحة خضراء من الكرم والياسمين وزهر العسل⁽¹⁰⁾.

كان القرب من الماء ميزة لياليات القسطنطينية. ونظراً إلى عدم حدوث مد بحري، فقد كان من الممكن بناء الغرف في مستوى البسفور نفسه، وليس أعلى منه. لذلك أعطى منظر الماء وصوته الداخلان بوفرة من خلال النوافذ، وانعكاسه على الأسقف، لبعض الياليات إحساس الطفو فوق سطح الماء. وبعض الغرف كانت تتخللها قنوات ماء محفورة في الأرضية. وعلى أرضيات غرف الصوفا المقببة، كانت النافورات المرمية تقذف زخات من الماء. وكانت النافورات الحائطية توفر التبريد، فضلاً عن صوت التلاطم الناتج عن سقوط الماء من كوب مرمرى إلى آخر. وكانت الحدائق تضم شلالات مرمرية وبركا وقنوات دائرية. وبعد أن قُلت في مدن إقليمية مثل قستورية^(*) وسفرانبولو^(**) ودمشق، وأعيد إنتاجها

(*) قستورية Kastoria: مدينة تقع حالياً في شمال اليونان في منطقة غرب مقدونيا. [المترجم].

(**) سفرانبولو Safranbolu: مدينة ومقاطعة في محافظة كارابوك التركية على البحر الأسود. [المترجم].

على لوحات جصية في أنحاء الإمبراطورية كافة، وكذلك في وثائق مثل عقود الزواج اليهودية، أصبحت ياليات القسطنطينية رموزا جلية «لأسلوب العثماني». كان من الطبيعي أن يأتي الطعام والشراب بين المتع الأساسية لسكان المدينة. سجل وليام هاربورن أول سفير إنجليزي المائدة التي قدمت له في القصر في العام 1582: «خروف مسلوق ومحمّر، أرز مزود بتوابل متنوعة، وفطائر من أجود الأصناف وأطباق بها مكسرات لذيدة، وأشياء أخرى لا تحصى لا أعرف كيف أعبّر عنها ... أما شرابنا فكان مصنوعا من ماء الورد والسكر والتوابل مخمرة معا. كان البيلاو الطبق الأساسي والاختبار الأول لكل طبّاخ جديد، وهو أرز مطبوخ في مرق لحم. كان هذا الطبق يقدم للغلمان في مدرسة القصر كشكل من الترفيه كل يوم خميس. كان الفقراء يعيشون على الخبز والماء والفاكهة والخضراوات واللبن والأرز، وإن كانوا من المحظوظين، فكانت مائدتهم تشمل الدجاج أو الضأن والبيلاو، التي كانت تؤكل بعد العمل في نحو الخامسة مساءً. وبينما كان الأغنياء يأكلون الكافيار الأسود، كان الفقراء يأكلون الكافيار الأحمر⁽¹¹⁾.

اعتمادا على موارث البحر الأبيض المتوسط والشرق الأوسط وآسيا الوسطى، أصبح المطبخ العثماني بمرور الوقت واحدا من أكثر المطابخ تطورا في العالم. وقد اشتاق الكثير من سكان إسطنبول السابقين إلى طعامها أكثر من أي سمة أخرى للمدينة. فبعد فترة طويلة من مغادرته المدينة شخصا، ظل المليونير كالوست غالينكيان Calouste Gulbenkian يعيش فيها من خلال مذاقها، إذ احتفظ بطباخ «شرقي» (تركي أو يوناني أو أرمني) لكي يعد له الأطباق التي استمتع بها في شبابه، التي كان من بينها الدجاج الشركسي المطبوخ بالجوز والفلفل الحلو، والإسقمري المحشو - دون قطع جلده - بالأرز والكشمش وحبّات الصنوبر والبصل، وحلوى بودينغ الدجاج chicken pudding المعد من صدور دجاج مضروبة في لباب ناعم ومنكهة بالحليب والسكر والقرفة، وأنواع خاصة من الحلوى halva المصنوعة من بذر السمسم) التي تعد لتصفية النفوس بين الأصدقاء المتشاجرين أو لإنعاش عودة أبطال الحرب. وفي البيوت الغنية، كان الطباخون يطبخون السيقان اليسرى للحيوانات فقط (لأنهم كانوا يعتبرون السيقان اليمنى عسيرة المضغ لأن الحيوانات تقف عليها أكثر من اليسرى).

كانت الخضراوات مفخرة المطبخ العثماني، إذ كانت تعد بدقة يندر وجودها في البلدان الأخرى. كان بعض الأطباق، خصوصا تلك التي تعتمد على «ملك الخضراوات» - الباذنجان - تحتاج أياما لتحضيرها. ثمة مجموعتان من الخضراوات كانت تقدم في الوجبات: الخضراوات الباردة مطبوخة بالزيت، والخضراوات الحارة مطبوخة في الزبد. وكانت عصائر الفاكهة تصنع من ثمرة الورد البري أو البنفسج أو التوت أو التمر الهندي، وتبرد بثلج مجلوب من جبال بورصة ومخزن في صهاريج. وكانت تنكه بإضافة البندق والتوابل والنعناع. وكانت الفاكهة والمرببات المحفوظة تخصصا آخر للمدينة. ثمة نوع من المربي كان يسمى بسبب لونه وثرائه «مستودع الياقوت»، لكننا غير ملزمين بأن نصدق ادعاء الدكتور جيمس دالوي Dr James Dallaway الذي قال في أواخر القرن الثامن عشر إنه كان يحوي ياقوتا مصحونا. وكان البكميز Pekmez أو دبس العنب يصنع كل سنة في بيوت القسطنطينية لتنكيه الأطباق الأخرى⁽¹²⁾.

اشترك اليونانيون والأرمن والأتراك في الطعام نفسه، تماما كما اشتركوا في المدينة عينها. وبالإستثناء الجزئي لمطبخ اليهود السفارديم، لم تكن هناك مطابخ منفصلة، مثل المطبخ الصيني والهندي في لندن أواخر القرن العشرين، أو المطبخ اليهودي والإيطالي في نيويورك أوائل القرن العشرين. وكانت الاختلافات في المواد وطريقة التحضير ترجع إلى مستوى الثراء أو المنطقة أكثر منها إلى العرق أو الدين (على الرغم من أن المسيحيين كانت لهم أطعمة خاصة للصيام مثل السمك المجفف)⁽¹³⁾. ومن هنا تأتى التشابهات بين كتب الطبخ «اليونانية» و«التركية» و«الأرمنية» في أواخر القرن العشرين، على الرغم من التنافر بين نزعاتهم القومية.

كانت تلي الوجبات مباشرة ملذات التبغ والقهوة. أدخل التجار الإنجليز التبغ إلى القسطنطينية من أمريكا في العام 1601. في بادئ الأمر، مُنع في المساجد باعتباره بدعة كريهة. اتهم المؤرخ المعاصر إبراهيم بجوي Ibrahim Pecevi المدخنين بأنهم يسممون الهواء، إذ إنهم من خلال «النفخ في وجوه بعضهم البعض، يجعلون الشوارع والأسواق منتنة». وفي العام 1633، حظر السلطان مراد الرابع التدخين وجعل عقوبته الموت. غير أنه كلما زاد التشدد في تحريمه - بتعبير مؤرخ آخر هو كاتب جلبي Katib Celebi - «كانت تزداد رغبة الناس في التدخين، إعمالا لمقولة الممنوع مرغوب، وأُرسلت

آلاف كثيرة من الرجال إلى مسكن العدم». وبدأ المدخنون- يأسا- في استنشاق رائحة أوراق التبغ المسحوقة. وأخيرا في العام 1647، أحل مفتي القسطنطينية التبغ. ومع نهاية القرن الثامن عشر، لم يكن التبغ أحد الصادرات الأساسية للإمبراطورية العثمانية فقط، بل كان أيضا إحدى الوسائل الأساسية - بعد القفاطين- لمنح المكائنة والاعتبار أو الحرمان منهما. كان طول الغليون وجماله وتعقيد صنعه وفمه تشي بربطة المدخن وثرائه. وكانت أفواه الغليونات تصنع من الكهرمان أو سن فرس النهر أو العاج، وكان الكهرمان الليموني الشاحب الأكثر رواجاً. وغدت وظيفة حامل الغليون مهمة حتى أصبح من أهل الثقة بين موظفي البيوت، وغدا الغليون «مكمن الإيتيكت الشريقي»، حتى إن لم يكن الزائر من المدخنين. وفي العام 1841، في لحظة من التوتر غير المعتاد في العلاقات الفرنسية - العثمانية، هدد السفير الفرنسي بمغادرة القسطنطينية إن لم يتلقَ اعتذارا رسميا لعدم حصوله على شرف الغليون في قصر السلطان⁽¹⁴⁾.

وصلت القهوة من اليمن في منتصف القرن السادس عشر. وأنشأ سوريان أول مقهى عام في العام 1554، قبل مائة عام من ظهور المقاهي في لندن أو باريس. وبعد ثلاثة أعوام، عاد الرجلان إلى سورية بثروة لا بأس بها. وسرعان ما أصبحت المقاهي المراكز الأساسية للحياة الاجتماعية للرجال في العاصمة. كان الرجال يقضون فيها ساعات، بل أياما، في لعب الورق أو الدومنة أو التدخين، ولا يزال بعضهم يفعل الشيء نفسه إلى اليوم^(*). كان المقهى يوفر لهم الغليون، لكنهم كانوا يحضرون الفم والتبغ معهم. تبين صور المقاهي الصغيرة أنها من الداخل كانت منقوشة ومُذهبة، وتحوي نافورات ومقاعد مغطاة بالسجاد ونوافذ كبيرة لتأمل المنظر من خلالها. كان الرجال يدخنون أو يكتبون خطابات أو يلعبون الداما. وفي الأحياء الأفقر وحول البازار، كان الرجال يتعاملون مع المقهى كدائرة عمل، أي مكان ينتظرون فيه عروض العمل. وكان المسلمون وغير المسلمين يترددون على المقاهي عينا، لكن كانت هناك أيضا مقاهٍ منفصلة لليونانيين والألبان والفرس والانكشارية⁽¹⁵⁾.

وكما كانت الحال في فيينا القرن التاسع عشر، كانت بعض المقاهي ملتقى للنهباء والكتاب. كتب إبراهيم بجوي:

(*) في ضاحية كوزغونشوك Kuzguncuk الصغيرة على الجانب الآسيوي للبسفور، التي كتب فيها معظم هذا الكتاب، تصطف على جانبي الشارع الرئيس عشرة مقاهٍ لا تخلو من الزبائن أبدا.

كان بعضهم يقرأ الكتب والكتابات الرفيعة، وبعضهم ينهمك في لعب الطاولة والشطرنج، وبعضهم يأتي بقصائد جديدة ويتحدثون في الأدب... وحتى الرجال العظماء لم يستطيعوا أن يمنعوا أنفسهم من ارتيادها. يقول الأئمة والمؤذنون ومدعو التقوى: «إن الناس أدمنوا المقهى، ولم يعد أحد يأتي إلى المساجد!» ويقول العلماء: «إنه بيت الشر، وإن المقهى أسوأ مكانا من حانة الخمر».

وبالفعل فرض حظر على المقاهي، لكنه سرعان ما رُفع. وحتى الوزراء بدلا من أن يقرضوا المال للحكومة بفوائد مرتفعة، أخذوا يستثمرون في المقاهي⁽¹⁶⁾. وبحلول أوائل القرن التاسع عشر، ذهب أحد التقديرات إلى وجود ألفين وخمسمائة مقهى في المدينة وحولها⁽¹⁷⁾.

أصبحت القهوة - كالزنبق - خاصية مميزة للقسطنطينية. كتب الرحالة الفرنسي ثيفنوت الذي أقام في المدينة في العام 1655 أن الأتراك يعتبرون أن للقهوة خصائص طبية، ف «لا يوجد فقير ولا غني إلا ويشرب كوبين أو ثلاثة منها على الأقل في اليوم». وحتى العقد السابع من القرن العشرين، كانت المقاهي الكبيرة ملتقى للموسيقيين المحترفين والحكاكين. وكان الموسيقيون يغنون فيها عن العشق:

بَصْفَرِ عَيْنِيكَ أَوْقَعْتَ طَائِرَ قَلْبِي فِي شِرَاكِكَ... إِنْ الْبَلْسَمُ الْحَلْوُ الَّذِي يَخْرُجُ
مِنْ شَفْطِيكَ حَبِيبَتِي يَغْرِينِي إِلَى أَخْذِ رَشْفَةٍ!

كان الحكاؤون يبدأون عادة بالقول: «في قديم الزمان، كان عباد الله كثيرا، وقديما جدا جدا كان الجمل بائعا والفأر حلاقا والحمار حامل ختم الملك والبغل صانع أسلحة». كانت الحكايات تغلب عليها محاولات الزواج وغرائب الأجانب والأقليات. أما الحكايات حول البطل التركي الأسطوري الأبله خوجة (معلم) نصر الدين^(*)، فكانت المكافئ التركي «لحكايات الكلب الأشعث»^(**).

(*) خوجة نصر الدين Hoca Nasreddin هو المقابل التركي لشخصية «جحا العربي» الحكيم الشعبي صاحب النوادر، وله مقابل بهذا الاسم التركي أو أسماء قريبة منه في ثقافات تمتد من جنوب وشرق أوروبا إلى وسط وشرق آسيا وروسيا، فضلا عن الشرق الأوسط. يرد البعض أصل هذه الشخصية إلى قرية بمقاطعة سيوري حصار sivrihisar بمحافظة أسكي شهر Eskisehir التركية الحالية إبان القرن الثالث عشر في عهد الدولة السلجوقية، ويرده آخرون إلى مدينة خوي Khoy بمحافظة أذربيجان الغربية بإيران الحالية في زمن الاجتياحات المغولية، فضلا عن أصول أخرى منافسة. [المترجم].

(**) حكايات الكلب الأشعث shaggy-dog stories حكاية بتنوعات كثيرة في ثقافات غربية كثيرة، بطلها كلب أشعث، يمكن أن تطول وتطول من خلال حوادث فرعية وانعطافات غير ذات صلة، وتعتمد على إثارة فضول المستمع وتوقعاته. [المترجم].

في عيد الخضر في السادس من مايو، وهو اليوم الذي يخرج فيه القبطان باشا بالأسطول إلى بحر إيجه ويبدأ الجزارون في ذبح الحملان، اعتاد الناس في القسطنطينية على الخروج إلى الريف للتمتع بزهور الربيع والتنزه بأكل الحملان ومحشي ورق العنب والبيلاو. وكانت وجهتهم المعتادة واحدا من الوادين الأخضرين الواسعين: «مياه أوروبا الحلوة» عند نهاية القرن الذهبي، أو «مياه آسيا الحلوة» عند منتصف البسفور على الجانب الآسيوي. في إحدى السنوات، أعطي خوجة سعد الدين حمل. فاستغل أصدقاؤه بساطته وطلبوا منه أن يشوي حمله لهم لأن اليوم التالي هو يوم القيامة. وذهبوا جميعا إلى مياه آسيا الحلوة، وأخذوا غفوة من النوم بينما اللحم يُشوى على النار. ولما كانت النار ضعيفة، فقد أخذ الخواجة عبااتهم وملابسهم وأذكاها بها. ولما صحوا وغضبوا من فعلته، قال لهم: «حيث إن بعد الغد سيكون يوم البعث، فإن أحدا منكم لن يكون في حاجة إلى أي ملابس»⁽¹⁸⁾.

كانت المرابي والعطور، إلى جانب التبغ والقهوة، تقدم إلى الزوار المكرمين في البيوت الكبيرة. وكانت المرابي تؤكل بملعقة مذهبية. ومن قنينة فضية ضيقة العنق، كانوا يرشون ماء الورد برائحة المسك على الأيدي. وكانت رائحة العطور المنبعثة من وعاء فضي يحوي عطورا محترقة تفوح في الغرفة، وتعطر الزائر كاملا إذا حملها تحت سترته أو قفطانته^(*). كان ذلك هو عطر السلطنة. ففي القسطنطينية، كما كانت الحال في فيرساي، كانت الرتبة تتكشف من الرائحة، إضافة إلى اللباس والعادات. عندما تعلم لورد تشارلمونت كيف يحمل الوعاء تحت قفطانته «ضحك الرئيس أفندي بمودة وأخبرني بحس الفكاهة أنه كان سعيدا وهو يراني أبدأ في التكيف مع عاداتهم التي تمنى ألا أظل غريبا عنها لمدة طويلة». لقد كانت عادات القسطنطينية، كشأن عظمة القصر وفخامة المساجد، جزءا من رسالة المدينة إلى العالم الخارجي⁽¹⁹⁾.

لكن ثمة متعا ومباهج أخرى كانت تمارس بعيدا عن الأعين الأجنبية. كانت «وثائق أريكة المتعة» الأربع - بتعبير إبراهيم بجوي- هي التبغ والقهوة والأفيون والخمر. والأفيون على الرغم من تحريم الإسلام له، كان يباع في شارع بجوار الجامع

(*) فوجئ المترجم بهذه العادة نفسها في المملكة العربية السعودية، حيث يحمل الشخص المبخرة تحت غترته حتى تعباً برائحة العود. [المترجم].

السليمانى. ومع كل غروب، كان المدمنون يخرجون من القبور كالغيلان، يرتعدون ويتأثنون وهم يحتشدون هناك لشراء حبوب الأفيون. كان بعضهم يتعاطى حتى أربع حبات، يبلعونها بالماء، ويستمتعون برؤية أكشاك من اللآلئ أو حوريات الجنة. وكانت حفلات المساء للموسيقى التركية السوداوية الرتيبة في بيوت عليّة القوم، تبلغ آفاقاً أعلى مع متع الأفيون والتبغ، حتى كان المشاهدون الصامتون يدخلون في حالة «من السكر بنشوى موهنة». وكان أفيون السلطان يخلط عادة بالعطور أو اللؤلؤ المصحون⁽²⁰⁾.

كان تحريم الكحول التقليد الإسلامى الأقل وضوحاً في القسطنطينية. كان اليهود يستوردون الخمر من ألمانيا وإسبانيا، لكن الأكثر شعبية كان الخمر الحلو القادم من جزر بحر إيجه مثل ساموس وكريت، المحبوب منذ العصور الكلاسيكية، وربما لذلك كانت هناك أسباب اقتصادية سليمة للحرب التي دامت ثلاثين عاماً بين البندقية والإمبراطورية العثمانية إبان القرن السابع عشر على جزيرة كريت. وبعد أن فتح جزيرة كريت، استعذب فاضل أحمد الكوبرولي، وهو مسترخ في جزيرة خيوس، مذاق الخمر الذي أدى إلى وفاته المبكرة. وكان العنب يُزرع، ويُنتج الخمر، على امتداد البسفور، حتى في أراضٍ تملكها أوقاف إسلامية.

من عهد بايزيد الثاني (1481-1512)، وهو وقت مبكر، كان الشعراء يترددون على حانات سيئة السمعة على طول القرن الذهبي. وبحلول القرن السابع عشر، كما يذكر المؤرخ أوليا جلبي، كانت هناك ألف وأربعمئة حانة في القسطنطينية. مقارنة بالمساجد الحجرية الشاهقة، كانت الحانات صغيرة وقذرة، لكنها بتعبير أحد الشعراء:

من الخارج، تبدو الحانة مكاناً قذراً

لكن بداخلها نسيم وسحر واتساع⁽²¹⁾.

في لحظات التطهر Puritanism أو القلاق، أو لضبط النغمة الملائمة في بداية عهد السلطان، كان الخمر يُحظر، وتُغلق الحانات، حتى حانات اليهود والمسيحيين^(*). لكن الباحثين عن المتعة كانوا يستعوضون عن بلور كأس الخمر بخزف كوب القهوة. وعلى أي حال، فقد كان هناك مَثَل محلي يقول إن أمر السلطان يدوم من منتصف

(*) أغلق بايزيد الثاني وسليمان القانوني الحانات، وكذلك أغلقت في الأعوام 1613 و1622 و1670 و1747 و1754. [المؤلف].

النهار إلى الساعة الواحدة. وقد كان أغا الانكشارية وباشا البستانجية يديرون الضرائب على الحانات ويستفيدون منها. ولذلك أعيد فتحها سريعا⁽²²⁾.

كان السلاطين والمفتون عادة يشربون في السر ما يحرّمونه على الناس في العلن. فلم تكن هناك عائلة حاكمة مسيحية، باستثناء عائلة ستيوارت، تُعَبّ الخمر بنهم السلاطين العثمانيين (الذين كانوا مع ذلك أقل تفوقا عن رفاقهم المسلمين من الأباطرة المغول). وسليمان القانوني نفسه شرب الخمر حتى العقود الأخيرة من عهده، وتستخدم إحدى قصائده الخمر مجازا عن العشق، ذلك أن الخمر كان جزءا من الشعر كما كان جزءا من واقع العاصمة:

لتحتفل الحانات حتى السُّكر بشفتيكِ الياقوتتين هاتين
ولا يدع أحد كأسه من يده ليلا ونهارا،
ليشربوا ويهيموا عشقا...

ومات ابنه سليم الثاني المعروف بالسكير من وقعة في الحمام، ربما وهو سكران. وشرب مراد الرابع الخمر أمام أوليا جلبي، وقال له حينها: «أوليا لقد اطلعت الآن على أسراري، فاحذر من أن تكشفها».

احتفى الشعراء بالخمر، وليس الشرابات. وصاحوا: «أيا ساقى أين مني طاسة تعطي الحياة؟»، وتمنوا لو أن خمرا بلون الزنبق يجري في عروقهم مكان الدم. وكتب أحد المفتين إبان القرن السابع عشر:

في المسجد دع المرائين ينغمسون في ريائهم
وتعال إلى الحانة، وفيها يسقط عنك الرياء ولا ترى المرائين
دعهم يسموا هذا المكان خمارة إن أرادوا
وأعطني هنا القدح والساقى ودعهم يسموني سكيّرا.
ودعهم يقولوا «إنه لا يفيق أبدا»⁽²³⁾.

ثمة قاضٍ ومفتٍ كانا معروفين - بتعبير المؤرخ النمساوي العظيم هامر بورغشال Hammer Purgstall - بأنهما «من أصحاب الفكر الحر، كانا مدمنين للخمر وللفسق المشين معا» كان كل منهما يدير حانة خاصة به. في الصباح، كان القاضي يسكر في حانة المفتي، وفي المساء يسكر المفتي في حانة القاضي. وإبان القرن الثامن عشر، اشتكى السفير العثماني في بلاد فارس: «إننا في تركيا نُعَبّ محيطات من الخمر، بينما نشرب في

بلاد فارس في أكواب الشاي». أما المواطنون الأقل شأنا، فكانوا يشربون نوعا من البيرة يسمى «بوظة» (*) كتب عنها أوليا جلبي أن «البوظة مسموح بشربها لأنها تعطي القوة لجنود العقيدة». وثمة نوع من الشنبص (**) يسمى «روح البطاطس» potato spirit. كان يصنعه اليهود في هاسكوي، كان يُشرب هناك في الحانات مع الخمر والمحار المقلي. ومع حلول القرن التاسع عشر، كانت «أمسيات المرح» شائعة. ونوع الطعام الذي لا يزال يقدم اليوم في مطاعم إسطنبول، كان يقدم حينها: البندق، والجبن والبطيخ، وبطارخ السمك واللحم المتبل، والخضراوات الباردة كالباذنجان أو السلطات، والسمك المشوي أو المقلي، وبلح البحر، والكبد مطبوخا على الطريقة الألبانية، والجبن أو اللحم مطبوخا في الفطائر المعروفة باسم البوريك borek. كان ضيوف الحانات من الرجال يشربون الكحول بنكهة الينسون ويتلون القصائد إلى أن يصلهم طبق الفاكهة الذي يشير إلى أن وقت مغادرة الحانة قد أوشك (24).

كان الخمر يفتح الشهية لممارسة الجنس. ونظرا إلى أن الزنا يورد فاعله المهالك في دنيا القسطنطينية، فإن الأدلة المكتوبة عن علاقات العشق غير الشرعية شحيحة. لكن على الرغم من كل الضغوط التي مارسها الدين والعادات والخوف، دخلت بعض النساء في علاقات غرامية مع رجال لم يكن زوجات لهم. وإذا لم يكن في مقدور النساء أن يخرجن من البيت، فإن أحياءهن كانوا يتواصلون معهن من خلال الدلالات اللاتي كن في الأغلب من اليونانيات أو اليهوديات أو الأرمنيات وكن يتنقلن من بيت إلى بيت (***) . وكما كتبت الشاعرة وكاتبة المذكرات ابنة القرن التاسع عشر ليلي هانم Leyla Hanim: «كانت هؤلاء الدلالات مخادعات لأقصى حد، وكن أحيانا يمارسن أشنع المهن». كانت الزهور التي تلقى في الشارع إلى الحبيب تعبر عن لغة الحب السرية. وكان حمل زهرة نرجس بري يعني: «هل يمكن أن تحبني؟» وقطع برعم وردة نصفين يرسل السؤال: «هل يمكن أن تموت من أجلي؟» وكان المعنى «أقدم رقبتني لحبل المشنقة بلا تردد» يُنقل بنزع رأس البنفسجة. كان للحب أيضا شفرة مقفاة، مثل «كلمة فستق التركية

(*) كانت البوظة تباع حتى وقت قريب - وربما لا تزال - في بعض الأسواق الأسبوعية في الريف المصري. [المترجم].

(**) الشنبص schnapps: مُسكر هولندي ثقيل. [المترجم].

(***) الدلالة تاجرة تحمل بضاعتها فوق رأسها في خرق أو ما شابه، وتنقل بها من بيت إلى بيت، اكتسب دورها أهميته بسبب منع النساء من الخروج من البيت في ذلك الزمان، كانت كثيرا ما تقيم علاقات متينة مع زبائنهن، وتطلب منها سلع بعينها تأتي بها في زيارات لاحقة. [المترجم].

fistic التي تشير إلى الكلمة المقفأة معها yastik وتلمح إلى المعنى ikimize bir yastik [لتجمعنا وسادة واحدة] ... أما خيط الحرير الذي يسمى إيبك ipek في اللغة التركية فيشير إلى العبارة المسجوعة seni seviyorum pek [أحبك بكل غبطة]⁽²⁵⁾.

كتب عزيزي Azizi الذي كان يعمل في قلعة الأبراج السبعة ومات في العام 1585، قصائد توحى بأن المحبين تمتعوا بحرية كبيرة. «إنك يا زمان، يا ذات الشعر الطويل، عذاب الأرض الذي لا ينتهي»، فلها محبون بعدد شعر رقبتها^(*). وكانت «جميلة ذات اليدين الصافيتين» و«عائشة ذات الكاحلين» تعرفان أين تجدان المتعة. كان الكثير من النساء تتاح لهن الفرصة للقيام بزيارات إلى الحريم في البيوت الأخرى وإلى الحمامات أو السوق. وفي الشارع، وتحت غطاء العباءة والحجاب، كانت الواحدة منهن في عالم خاص بها، يحوي فرصا لما أسمته نزيلة لاحقة بالحريم «للعلاقات الغرامية غير المشروعة والوصال السري». وكن يستطعن أن يتكلمن بعيونهن الوضاعة المحدقة، فضلا عن ألسنتهن.

كتب الشاعر باقي:

إن كانت السيدات خارج البيت يمشين دائما محجبات، فلا تعجب!
فقطاع الطرق يغطون وجوههم عندما يتجولون بحثا عن فريسة.

كانت بعض النساء، مرتديات حجابا أرجوانيا جريئا، يتنقلن من دكان إلى آخر في البازار بصوت صاخب ويختبرن أصحاب الدكاكين بأسئلة من نوع: «هل عندك شيء يناسبني؟ إن كان عندك بضاعة جيدة فأرنيها، لكن عليك أولا أن تأخذ مقاسي». وكان صاحب الدكان يجيش إثارةً بقدر ما يرى من أصابعهن المحناة. حُكِيت قصص عن نساء تركيات كن يستأجرن غرفا خاصة في حانات بيرا - أو مواخيرها - كن فيها «يشبعن رغباتهن الشهوانية ويكافئن عشاقهن بما يستحقونه». وكان الشباب أحيانا يتسللون إلى الحريم في زي النساء. ووفقا لبارون دي توت Baron de Tott الضابط الناطق بالتركية من أصل مجري الذي أقام في المدينة من العام 1755 إلى العام 1776، كانت النساء كثيرا ما يتعرضن للقتل على أيدي عشاقهن. وكانت جثثهن تشاهد أحيانا عارية ومشوهة «طافية في الميناء تحت نوافذ قتلتهن أنفسهن»⁽²⁶⁾.

(*) حبيبته اسمها زمان Zeman. [المترجم].

على أن بعض النساء قد وجدن الحب والصداقة في نساء أخريات. وقد عُرف عن المثليات أنهن مخلصات وقارئات جيدات. لقد كن «الرشيقات»، وكن عادة يكشفن عن حبهن بلبس ألوان أو وضع عطور ذات مغزى. والرسالة التالية من جارية تدعى فليكسو Feleksu كتبها إلى بهيجة سلطان ابنة السلطان عبدالمجيد في العام 1875 حين كانت فليكسو مريضة بالملاريا، تكشف قوة العاطفة بين النساء، سواء كانت جسدية أو غير جسدية:

لبوتي الصغيرة، ما أشد حبي لك، وأنت أيضا قلت إنكِ تحبينني قليلا.
إنكِ في هذا العالم بهجة قلبي. من عافيتكِ، أستمد عافيتي. صدقيني، ليس ذلك لأنكِ الأميرة بهيجة. هناك أميرات كثيرات، بارك الله في أعمارهن جميعا.
تعلمين أني أحبك، لقد عطفيت علي كثيرا. أحبك، أحبك، باختصار أحبك، بصدق أحبك، حقا أحبك. ها أنا قلت إني أحبك، وأنا فعلا أحبك، هذا كل ما في الأمر ...
ماتت بهيجة سلطان بعد سنة واحدة، بعد أن تزوجت لأسبوعين اثنين فقط⁽²⁷⁾.

على النقيض من السرية التي كانت مضروبة على النساء المسلمات، مارست النساء المسيحيات علنا العادات الفاسقة لغلطة. فكانت النساء اليونانيات يُوجَرْنَ بالشهر من خلال ترتيب يعرف باسم «زواج الكابينة» marriage a la cabine مأخوذ من الكلمة التركية لشكل الزواج المؤقت الذي يسمى الكابينة^(*). ذكر أحد السفراء البريطانيين إبان القرن الثامن عشر عن سابقه أنه قضى سنواته الاثنتي عشرة في القسطنطينية «على صوفا مع النساء». ووفقا للورد شارلمونت، فإن «النساء جميلات جدا، ومهندمات في لبسهن، وحلوات في طباعهن، وهو ما يعد أمارة على أنهن لسن أعداء للحب». وحيث إنه من واجبات الرحالة ألا يترك شيئا من دون أن يراه، فقد «زار مواخير كانت مرخصة من جانب أغا الانكشارية وباشا البستانجية. كانت نزيلات هذه البيوت إما مسيحيات أو يهوديات، «الكثير منهن جميلات جدا وبارعات في كل الفنون والإغراءات اللازمة لمهنتهن». في إحدى زيارته، أحاطته «رئيسة البيت»، وهي امرأة يونانية^(**)، بثماني عشرة «إلهة» متجردة ذكرته بهيرا وأثينا وأفروديت^(***). وفي نهاية القرن الثامن عشر،

(*) من معاني الكلمة التركية kabin «مقصورة» أو «مهر» أو «صداق» أو «أجر المرأة»، وربما تستخدم لشكل من أشكال زواج المتعة، وإن كانت كلمة «متعة» في مصطلح «زواج المتعة» التركي مأخوذة عن اللغة العربية muta evliligi. [المترجم].
(**) اليوم «مدام ماتيلدا» Madame Mathilde ملكة حي المواخير في إسطنبول الواقع بجانب برج غلطة وواحدة من أعلى دافعي الضرائب في تركيا، كاثوليكية أرمنية. [المؤلف].

(***) في الميثولوجيا اليونانية، هيرا Hera ملكة السماء وأخت زيوس وزوجته وإلهة النساء والزواج، وأثينا Athene إلهة الحكمة والفنون والصنائع النسوية والخصب والإنجاب، وأفروديت Aphrodite إلهة الحب والجمال. [المترجم].

كان أفضل المواخير موجودا بجانب السفارة البريطانية. وثمة مَنْ كن يمارسن العمل مستقلات، وكن يمتعن زبائنهن في الجبانات التي كانت النساء تذهبن إليها من دون مرافق على فرض أنهن ذاهبات لزيارة قبور الأقارب⁽²⁸⁾.

وفرت القسطنطينية شكلا من الحرية كان يصعب تحصيله في أوروبا الغربية، وهي حرية ممارسة المثلية الجنسية للرجال. كان الرجال المثليون في أوروبا الغربية يعاقبون بالسجن أو الموت. بيد أن الفاتح وعد جنوده بكل من «النساء الجميلات جدا الشابات والحسنات» و«الأولاد أيضا الكثيرين جدا والمليحين جدا ومن عائلات النبلاء». كان رادو Radu أخو فلاد المخوزق أمير فلاشيا (الأفلاق) الذي يعد الأصل لأسطورة دراكولا، المحظي الأشهر للسلطان^(*). وصل رادو رهينة إلى البلاط العثماني في عمر السابعة، «ليس أطول من باقة ورد». في البداية، تمنع على السلطان وجرحه بسيف وهرب فوق شجرة، قضى عليها ليلته. وبعد أن أصبح محبوب السلطان، كوفئ أخوه بعرش فلاشيا (الأفلاق)⁽²⁹⁾.

وبعد قرن، كتب زائر فرنسي أن الأتراك «أيضا ضعاف أمام رذيلة سدوم^(**)»، وهي منتشرة بين النبلاء وعلية القوم أكثر منها بين الناس العاديين، فقلما تجد قائدا ليس له برادشي bardace واحد أو أكثر». كانت المقاهي والحانات تضم «غلمانا مليحين يعملون عمل المومسات لجذب الزبائن»، بتعبير أحد الرحالة الإنجليز. وبعد 200 عام شجب تشارلز وايت Charles White «المنظر المقرف للغلمان الراقصين اليونانيين بغلطة... الذين يثيرون غثيان حتى أجلف العقول». وفي الحريم والحمامات، كانت النساء يستمتعن بفرق من البنات ترقصن بزى الرجال على أنغام موسيقى العود والقيثارة والصنوج. وفي حانات الانكشارية وحانات البحارة، وفي حفلات الحلوى halwa الشتائية التي يقيمها الوجهاء، كان غلمان يرتدون ملابس أنيقة وشعرهم طويل، ولهم أسماء مثل «الكرة الذهبية» و«مجعد الشعر» و«العالم الجديد»، يرقصون بطريقة لا تترك شيئا للخيال⁽³⁰⁾.

تفسر هذه الانحرافات السبب الذي جعل المقيمين الأجانب في القسطنطينية يكتبون كثيرا حول «الحرية والمتع» التركية أو «السهولة والحرية في الحياة الشرقية».

(*) فلاد الثالث أو فلاد المخوزق Vlad the Implae (من 1431 إلى 1477/76) أمير ولاشيا في حياة محمد الفاتح، اشتهر بوحشيته الشديدة، ومنها جاءت كنيته «المخوزق» لأنه كان يخوزق أعداءه حتى الموت، ومن هذه الوحشية أيضا نسج الروائي الإنجليزي برام ستوكر Bram Stoker شخصية كونت دراكولا مصاص الدم الشهير في روايته الصادرة عام 1897 «دراكولا»، ودراكولا هو اسم عائلة فلاد. قضى أخوه رادو الثالث «الوسيم» سنوات طويلة رهينة لدى الدولة العثمانية وظل تابعا لها إلى أن نصبه محمد الفاتح أميراً لولاشيا بلقب باي فلاشيا حتى موته في العام 1475. [المترجم].
(**) سدوم هي مدينة قوم لوط. [المترجم].

لم يكن هؤلاء يشيرون إلى عدم وجود بنية طبقية صارمة وحسب، بل إلى وفرة المتع المتاحة أيضاً، لذلك كانت البندقية تمنح الأولاد الأقل من ستة عشر عاماً من السفر إلى تركيا خوفاً من أن «يصبحوا أتراكاً». والكثير من الديبلوماسيين والطلاب البنادقة «الذين استهوتهم هذه الشهوة» قرروا أن يصبحوا أتراكاً ويبقوا في القسطنطينية. بينما لم يستقر مسلم عثماني واحد في البندقية⁽³¹⁾.

كتب شعراء المدينة قصائد عشق في «ظبيان إسطنبول»، وهم في الأغلب الخدم والغلمان الراقصون في الحمامات. كانت ساحة الألعاب الرومانية القديمة المجاورة لجامع السلطان أحمد المعروفة باسم الأتميدان «الملاذ المفضل للشبان المليحين». كان الشعراء يشبّهون أجسامهم بأشجار السرو، ووجوههم بالقمر، وشفاههم بالياقوت. وكانوا شموعاً، ومحبوهم فراشات تنجذب إلى اللهب. تمنى الشاعر لو أن وجهه كان حصيرة على أرضية حمام محبوبه.

في كل ليلة تترك الغرباء يضعونك في مكنون قلوبهم
أه يا مستبد، إن لي قلباً أنا أيضاً! كيف تكون قاسياً إلى هذا الحد؟
تأتي يا غلام الخمار، وردة في يد، وفي الأخرى خمر
أيهما أختار؟ من سيشبعني الوردة أم الخمر أم أنت؟⁽³²⁾.

كان من أسباب الاحتفاء بالغلمان أن ذلك كان مقبولا اجتماعياً، في حين كانت الإشارة الصريحة إلى النساء في الكتابة أو المحادثة صادمة ومريعة. ونظر بعض الشعراء إلى هذا الحب باعتباره نقياً. بيد أنه في حالات كثيرة، لم يكن هذا الحب نقياً ولا بديلاً. وفي القصر، كان مراد الرابع - كما ذكر أوليا الذي كان من أفراد حاشيته - يقرأ من حين إلى آخر:

ليس لي أن أقول شيئاً في المأبون النظيف^(*)،
لكن ألف لعنة في اليوم على المأبون القذر.

ونظر السلطان في وجه حامل السيف ضئيل الحجم مصطفى: «ما رأيك في هذه القصيدة يا مصطفى؟»، فاحمرت وجنتا حامل السيف، فأعطاه السلطان عباءة من فراء السمور تكريماً. وبعد مائة عام، كتب الشاعر نديم أن كل العلماء كانوا مغرمين بالأولاد، ولم يكن منهم من يجد متعة في حب النساء⁽³³⁾.

(*) المأبون غلام يتخذ لأغراض جنسية شاذة. [المترجم].

وجدت نزعة الميل إلى الجنسين في القسطنطينية أوضح تجسيد لها في كتابات فاضل بيه Fazil bey (1759 - 1810). ولد فاضل في صفد بفلسطين لأسرة عربية شاركت في ثورة ضد الأتراك، وأُحضر إلى القسطنطينية وتعلم في مدرسة القصر (*). وظل مقيماً في المدينة، إلا لفترة نفي فيها إلى رودس في الأعوام من 1799 - 1804، حتى مات بعدما في بيشيكتاش في العام 1810. في كتابه «زنانامه» Zenanname (كتاب النساء) الذي كتبه في العقد الأخير من القرن الثامن عشر، زعم أن الجمال تجسيد لله نفسه وأن الله هو الموضوع الأسمى لعاطفة المحب. توجد بين السطور في كتبه أنشودة للمتعة، فنساء القسطنطينية لديهن بشرة وردية ومشية رائعة يود العالم بأكمله أن يقلدها. كانت بعض النساء - في رأيه - تظل محتجيات تماماً لدرجة أن أحدا لا يراهن حتى في العالم الآخر، كالبيغاوات في القفص «لا الشمس سبق لها أن أشرقت على وجوههن، ولا الريح طير شعرهن». لكن ثمة أخريات كن أميل إلى المغامرة. وعلى طريقة العثمانيين، صنّف فاضل بيه النساء وفقاً لأعراقهن: الفارسيات واسعات الاطلاع ذوات عيون مسكرة، والسودانيات وجوههن كالليل، والحجازيات جميلات لكنهن فارغات العقل وشفاههن زرقاء وأنوفهن معقوفة، واليهوديات فيهن طبائع سيئة، والأرمنيات سيئات التصرف وسيئات الملبس لكنهن لسن قبيحات جميعهن، واليونانيات فاتنات ومغريات، و«لا بد أن نتخذ حبيبات من كل هؤلاء». أما الشركسيات، فإنهن أفضل من الجميع، «يجد المحب كل ما يتمنى في المرأة الشركية». كما وصف اليمنيات والإسبانيات والهولنديات والإنجليزيات:

من حمرة وجنتيها أخذ الورد لونه
أما فمها، فيعلم العندليب الغناء.

في كتابه «خوبانامه» Khubanname (كتاب الجمال في الرجال) احتفى - وإن كان بتفاصيل أقل - بالغلّمان من القوميات عينها، إذ هدده حبيبه حينذاك بأن يتحول إلى امرأة إن لم يكتب قائمة في الغلمان، كما كتب في النساء. فكتب أن قلبه يصير ساحة مطاعنة يدفع فيها ملك ملكا. ووصف الفرس بأنهم طوال ومليحون، ولهم (*). أُعِدّ جده طاهر عمر وأبوه علي طاهر في العامين 1775 و1776 لاشتراكهما في ثورة ضد الدولة العثمانية. اشتهر فاضل المثلية الجنسية فضلا على عشق النساء، وتداول قصائده كلها حول اشتها النساء والرجال: الديوان Divan وكتاب العشق Deftar-I Ask وكتاب الجمال في الرجال Hubanname وكتاب النساء Zenanname وكتاب الرقصات Cenginame. [المترجم].

حواجب مثل القوس وخدود حمراء ووجوه مستديرة وأنهم سادة الغنج. أما غلمان بغداد، فهم «كالعذاب» ولا يلتزمون بالمواعيد أبدا. والفرنسيون رغم جمالهم، فإنهم خرقاء في الفراش. والأرمن مفيدون ضد البرد، «احتفظ بسركيس للشتاء، فجسمه مثل غابة من الشعر»^(*). أما الألبان فإن أصواتهم منفرة وكذلك بطونهم كبيرة ورقابهم سمكة. تأسرنى صدور اليونانيين الفضية وبشرتهم البيضاء، و«أجسامهم متناسقة إلى حد أدهش العالم»، وقد يقذفون أنفسهم في أعماق بحر من أجل الحب حتى وهم في عمر الخمسين⁽³⁴⁾.

في ليالي رمضان، وبينما يفطر المسلمون بعد طول انتظار طوال النهار، كانت القسطنطينية تغرق في المتعة. كان يجري الإعلان عن الغروب والإفطار بطلقات من المدافع، فتدب الحياة في الشوارع التي عادة ما تكون هادئة في المساء، في حالة من سعار الطعام والشراب والموسيقى: «ففي خلال بضع دقائق تتحول المدينة التركية إلى وحش بمائة ألف فم يأكل ويشرب». كانت تعلق آيات من القرآن بخيوط بين المآذن بحروف مضيئة. وفي الشوارع أسفل هذه الزينات، كان العامة يستمتعون بالحواة والمشعوذين وقراء البخت ومسرح عرائس الظل المعروف باسم قره جوز^(**) الذي تمثل فيه شخصيات بطول نحو خمس عشرة بوصة (غالبا بذئبة جدا) حكايات العشق والمعارك. وكانت بيوت الباشوات تشهد حلقات لتلاوة القرآن في أفنيته. وكانت بيوت أخرى تقدم مسرحيات كوميدية بفرق من اليونانيين أو اليهود، «يقلدون المسؤولين المختلفين بالإمبراطورية وكانوا يتقنون أداءهم بالسخرية الصريحة من هذه الشخصيات»، طبعا من دون المساس بالسلطان والصدر الأعظم. وكان بمقدور الفقراء أن ينتقلوا من بيت إلى آخر ليشاهدوا هذه التسالي ويأكلوا بقدر ما يشاءون⁽³⁵⁾.

بلغت عقيدة المتعة أوجها في «عصر الزنبق» إبان أوائل القرن الثامن عشر الذي يعد - إلى جانب عهد سليمان القانوني ومنتصف القرن التاسع عشر - أحد العصور الذهبية الثلاثة للمدينة العثمانية. كان السلطان مصطفى الثاني (1695

(*) الاسم سركيس Sarkis وسرغيس Sargis منتشر بين الأرمن. [المترجم].

(**) يذهب بعض الباحثين إلى أن القره جوز Karagoz الذي يعني بالتركية «أسود العينين» في إشارة إلى سوداوية نظرتة إلى الأمور، يختلف عن الأراجوز المصري الذي يردونه إلى زمن الفراغة أو زمن قراقوش على أقل تقدير، وأن الأتراك ربما أخذوه عن المصريين، ومن أدلة ذلك أن أوليا جلبي ذكره في كتابه «سياحت نامه مصر» باعتباره من الفنون التي تميز المصريين. [المترجم].

- 1703) المولع بالصيد يقيم بالكامل تقريبا في إدرنة. فانتقل السفراء والتجار إلى إدرنة، وبنت الأميرات قصورا هناك، فثارت القسطنطينية. وفي العام 1705 أدت ثورة الانكشارية المدفوعة من العلماء وعائلة الكوبرولي إلى عزل مصطفى الثاني. ووعد السلطان الجديد أخوه أحمد الثالث ألا يقيم في إدرنة⁽³⁶⁾.

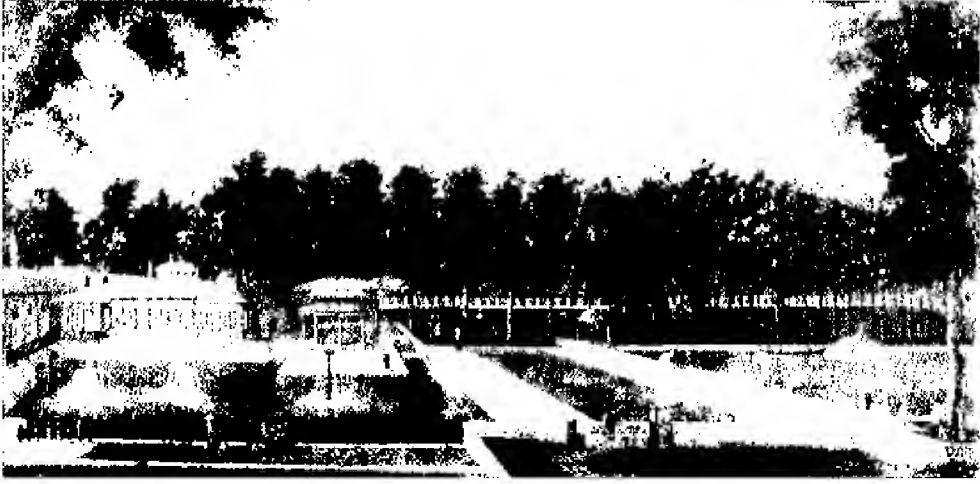
لم يكن أحمد الثالث طاغية جشعا أمر بإعدام عائلي كاناكوزينوس وبرانكوفان وحسب، بل كان أيضا مولعا بالكتب. وفي الوقت نفسه تقريبا الذي بدأ فيه الملوك الأوروبيون الآخرون في تفضيل مقر الإقامة الخاص على المقرات الحكومية، اشتكى أحمد الثالث إلى صدره الأعظم من الإتيكيت في قصر توبكاي: «إذا صعدت إلى إحدى الغرف أجد أربعين غرفة للوصفاء. وإذا أردت أن أخلع بنطلوني لا أشعر بالارتياح. يجب أن يصرفهم حملة السيف من خدمتي ولا يتركون إلا ثلاثة أو أربعة رجال حتى أشعر بالراحة في الغرفة الصغيرة». وفي مسعاه إلى نمط الحياة غير الرسمي، بدأ السلطان في بناء أكشاك وقصور أصغر حول العاصمة كان يفضل المقام فيها على قصر طوبقاي، منها دار البهجة الأبدية House of Eternal Gaiety في دفترداربورنو Defterdarburnu ودار الشرف الأبدى House of Eternal Honour في أوسكودار. كتب سفير البندقية: «ليس من السهل أن نجد مثالا سابقا للسلطان في ابتعاده عن القصور الملكية لفترات طويلة»⁽³⁷⁾. تتلخص روح العصر في نقش علقه السلطان على كشك في طوبقاي:

بارك الله في هذا الكشك وملأه بهجة

ليغص كشك السعادة في الهناء!

بنى السلطان قصره الأكثر شهرة المسمى سعادت أباد Sa'adabad أو قصر السعادة الأبدية في مكان تقليدي للاستجمام على جدول مائي يؤدي إلى القرن الذهبي في منطقة كاغيت خانة (التي يسميها الأوروبيون مياه أوروبا الحلوة). تأثر قصر السعادة بصور منقوشة لقصر فيرساي لاتزال موجودة في مكتبة توبكاي وبنصائح محمد سعيد Mehmed Said الذي رافق سفارة أبيه إلى فرنسا في العام 1721 لكي يتعلم حول القلاع والتجارة والعادات الفرنسية ولتقوية التحالف بين الإمبراطوريتين. جُمع المعماريون من أوروبا. وزُرعت الحديقة على طريقة فيرساي بصفوف مستقيمة من الأشجار ومربعات من بيوت الزهور. وتحت الإشراف الشخصي للصدر الأعظم وصهر السلطان

إبراهيم وعلى نفقته، استغرق بناء القصر من يونيو إلى أغسطس 1722. عُذِّل جزء من مجرى الجدول ليصير قناة مستقيمة بضفتين مرمريتين بطول ألف ومائة متر، تصطف حولها البرك والشلالات والمظلات المذهبة. وعلى الرغم من التأثير الفرنسي، فإن القصر والأكشاك في سعادت أباد جاءت تركية جدا كذلك، بالأفاريز الناتئة العريضة والقباب الذهبية والجدران المطلية بالأزرق والأحمر والأخضر الزاهية، إذ كان من بين الحريات التي تمتعت بها القسطنطينية حرية الألوان. كان الماء ينزل من نافورات برونزية ذات رؤوس تنانين إلى برك مرمرية. واحتفالا بإكمال القصر واسمه، أنشد الصدر الأعظم يقول: «بورك السلطان أحمد الذي جلب السعادة الأبدية (سعادت أباد) إلى الدولة». وطلب من مائتين من الوجهاء العثمانيين أن يبنوا بيوتا مختلفة الألوان بالقرب من القصر، زينت برموز لمناصبهم: المدافع لقائد المدفعية، والطيور لرئيس مربي الصقور. بيد أن تصميمي القصر والحديقة لم يكونا السمتين الوحيدتين للثقافة الفرنسية اللتين كانتا تدخلان البهجة على قلب السلطان، إذ طلب من فرنسا أيضا ألف قنينة شمبانيا وتسعمائة قنينة برغنديّة^{(38)*}.



رسام مجهول، منظر لقصر سعادت أباد، في نحو العام 1770. يظهر القصر والنافورات والطرق المشجرة واضحة جدا. كان قصر سعادت أباد الواقع على الجانب الأوروبي من المدينة، منتجعا معتادا للمتعة منذ بناله في العام 1721 حتى العام 1914. وهذه اللوحة إحدى اللوحات الثمانين التي رُسمت بتكليف من السفيرين السويديين أولريك وغوستاف سيلمنغ.

(*) البرغنديّة burgundy خمر يصنع في برغنديا بفرنسا. [المترجم].

اُخْتُفِلَ بقصر سعادتِ أباد من قبل أعظم الشعراء العثمانيين، وهو نديم «الرفيق المرح» الذي ولد في القسطنطينية نحو العام 1680 لعائلة من العلماء، وكان أمين مكتبة وصديقا للصدر الأعظم إبراهيم. تميّز نديم بتلذذ وثني بالحياة، فغنّى ملذات الخمر والحب واللحظة العابرة. خاطب نديم صاحبه في قصيدته الأشهر يقول:

دعنا نسلي القلب الذي تعب
دعنا نزور قصر سعادتِ أباد يا سروي المتمايلة، هيا! (*)
انظر، ها هو قارب الكياك يقف هناك متأهبا على الرصيف
دعنا نذهب إلى قصر سعادتِ أباد يا سروي المتمايلة، هيا!...
خذ إذنا من والدتك، أخبرها بأننا ذاهبون لصلاة الجمعة في مكان بعيد.
لا بد أن نختلس يوما على الأقل من القدر وهمومه!
ونذهب إلى الشوارع الخلفية المنعزلة حتى نصل إلى درجات الميناء.
دعنا نزر قصر سعادتِ أباد يا سروي المتمايلة، هيا!
هيا نضحك ونلعب ونسرق من العالم المتعة!
هيا نشرب الماء الطالع من عيون عدن!
هيا نرى ماء الحياة وهو يقفز من أفواه التنانين!
دعنا نزر قصر سعادتِ أباد يا سروي المؤثرة!
كتب نديم أيضا مديحا في العاصمة، امتدادا لإرث مديح المدينة القديم.
أنت يا مدينة اسطنبول لا نظير لك ولا ثمن!
أضحى بكل بلاد فارس فداء حجارة واحدة من حجارتك!
أنتِ جوهرة نُقِشت على بحرین.
أنتِ كالشمس تدفئ العالم بأكمله.

واسطنبول هي السماء السابعة، وجنة عدن، ومنجم السعادة. في بازاراتها، تباع حلة المعرفة. ومساجدها محيطات من النور، وسكانها لطفاء ومهذبون.

إنها إسطنبول المحظوظة المزدهرة
إن لدينا ما يجعلنا نفخر بك!
بوسعنا أن نقول إن قصورك وتلاكك وضافك
جميعها تنفث البهجة والمتعة واللذة.

(*) شجرة السرو - كما ورد قبل فقرات - كناية عن المحبوب الذكر. [المترجم].

هل بوسع أحد أن يصفك يا إسطنبول؟ لا
أريد فقط أن أمتدح الصدر الأعظم الممتاز...
لقد غرق خادمك نديم يا سيد العوالم
في هاوية تغص بالنعم والعطايا والإحسان!⁽³⁹⁾

في أثناء هذا الفاصل من المتعة تراجع استخدام الموت كسلاح بيد العائلة الحاكمة. كان للسلطان طبيب يهودي يدعى دانيال دي فونسيكا Daniel de Fonseca، وُلد في بروتو^(*) في العام 1668، وعاش في القسطنطينية من العام 1702 إلى العام 1730، وكان السفراء الأجانب كثيرا ما يستشيرونه بشأن السياسة العثمانية. كتب فونسيكا في العام 1724 أن الصدر الأعظم لم يكن من رجال القصر الجيدين ولا سياسيا بارعا وحسب، «بل كان أيضا رجلا مهذبا إلى ما بعد الوصف... منذ أن دخل الصدر الأعظم الوزارة، تخلصت هذه الأرض كليا تقريبا مما عُهد عنها سابقا من بربرية ووحشية. واليوم ينعم الجميع ويعيشون للمتعة، وكل شيء يفيض باللطف والانسجام». ووافقته ليدي ماري ورتلي مونتغو على رأيه: «أنا على يقين من أنهم يتبنون فكرة صحيحة عن الحياة، إذ يقضونها في الموسيقى والحداث والخمر وأطياب الطعام، بينما نحن نعذب أدمغتنا بخطط السياسة أو دراسة علوم لن ننال منها شيئا، وإن فعلنا، فلن نستطيع أن نقنع الناس بأن يقدّروها إلى الحد الذي نقدّرها به»⁽⁴⁰⁾.

تحولت عقيدة الزنبق إلى هوس من نوع «هوس الزنبق» الذي بلغ ذروته في هولندا في العام 1637. كان الهواة يدفعون حتى ألف قطعة ذهبية في بصلة الزنبق الواحدة، إلى أن أصدرت الحكومة قوائم أسعار رسمية. وكان مجلس من خبراء الزهور برئاسة رئيس زراع الزهور بقصر السلطان يعاين أنواع الزنبق الجديدة، وإذا وجدها بلا عيوب يعطيها اسما رسميا⁽⁴¹⁾. أنتج أمير البحر مصطفى باشا أربعة وأربعين نوعا جديدا، والصدر الأعظم ستة أنواع. وإجمالا، سجل ثمانمائة وتسعة وثلاثين نوعا في سجل خاص بالقصر. وفي حديقة الزنبق التي أنشأها السلطان في الفناء الرابع بالقصر، كان يقيم في كل ربيع احتفالا، كانت ألوان الزنبق فيه تنسجم مع ألوان ملابس الضيوف وزهريات الزينة المملوءة بالسوائل. وفي إحدى

(*) بروتو (Proto) (Oporto في الإنجليزية) حاليا ثاني أكبر مدينة في البرتغال بعد لشبونة. [المترجم].

الأمسيات، رتبت سيدات الحرير أكشاكاً لبيع الزهور في بازار تمثيلي، وكان السلطان الممتسوق الوحيد⁽⁴²⁾.

أصبح البسفور مركز حياة المدينة. ونشأ تقليد ينتقل فيه الناس إلى يالياتهم الواقعة على البسفور قبل عيد الخضر (السادس من مايو) ويعودون إلى المدينة في روز القاسم Ruz-i Kasim (السابع من أكتوبر) الذي كان أيضاً النهاية التقليدية لموسم الحملات العسكرية. كان لبطريك القدس ومفتي المدينة المنورة والعائلتين الأرمنيتين الثريتين كومورسيان Kumurcuyan ودوزوغلو Duzoglu وعائلة علماء الدين الكبار دوري زاده وعائلي مافروكورداتو والكوبرولي، بيوت على البسفور. وكان محمد أفندي دوري زاده يعيش في سعة من العيش، حتى إن السلطان محمود الأول (1730 - 1754) حين حل ضيفاً على بيته في أوسكودار في زيارة مفاجئة لتناول إفطار رمضان، استطاع أن يكرم السلطان ومائة وخمسين من حاشيته⁽⁴³⁾.

أصبحت القسطنطينية نمط حياة، إذ كانت المدينة الوحيدة التي كانت منتجعا وعاصمة، على خلاف لندن وباريس اللتين كانتا عاصمتين فقط. وحدثت ملذات الطعام والخمر والموسيقى والحانة والمقهى والبسفور المسلمين وغير المسلمين. في لوحات جان باتيست فانمور Jean-Baptiste Vanmour واللوحات التي رسمها جان إتيان ليوتار Jean-Etienne Liotard خلال السنوات الأربع التي قضاها في العاصمة من العام 1738 إلى العام 1742، نجد اليونانيين والأرمن والفرنجة بالمدينة لا يشبهون العثمانيين وحسب، بل يفعلون أشياء عثمانية كذلك. من ذلك أن نجد سيدة ترتدي قبقاباً خشبياً وعباءة مبطنة بفرو القاقم تدخل حماماً، وسيدات متكئات على وئاثر يلعبن المنكب mankab وهي أحد أنواع لعبة الطاولة، أو يعزفن الموسيقى، وأخريات تطرزن أو تشربن القهوة، فضلاً على الملابس والوئاثر وأباريق القهوة التي كانت عثمانية تماماً. ولا يتضح أنهن يونانيات أو فرنجيات إلا من الرجال الذين يُصوّرون بجانبهم. يتأكد دور القسطنطينية كمدينة للمتعة من الكلمات التي أعطتها للعالم الخارجي: sofa (صوفا) و kiosk (كشك) و coffee (قهوة) و kaftan (قفطان) و turban (عمامة).



الرسام جان إتيان ليوتار Jean-Etienne Liotard، هيلين غلافاني Helene Glavani والتاجر الإنجليزي السيد ليفيت Mr Levett، في نحو العام 1790. ترتدي هيلين غلافاني الجالسة إلى اليسار زي تتر القرم التي عمل فيها أبوها - ابن إحدى عائلات بيرا البارزة - قنصلا فرنسيا. ويرتدي ليفيت الذي كان صديقا لليوتار ملابس عثمانية مبطنة بالفراء في إشارة إلى ذواله ورغبته في تبني العادات العثمانية. كما رسم الفنان العظيم ليوتار، الذي عاش في القسطنطينية بين العامين 1738 و1742، أيضا مصنوعات ترمز إلى المتح العثمانية: العود على اليسار، وفواحة عطر ومبغرة موضوعتين فوق صندوق كتابة مطعم بأصداف السلاحف وعرق اللؤلؤ. تعزف الألسة غلافاني على الطنبورة أو القيثارة، وممسك السيد ليفيت غليوننا طويلا من خشب الياسمين.

كانت القسطنطينية عالما قائما بذاته، مقتنعا بسموه على المدن الإقليمية. من ذلك ما كتبه الشاعر يوسف نبي^(*): «لا شيء يكشف عن وضاعة الولايات غير مشاهدة القسطنطينية. تدور السماء مرغمة حول العالم كله، غير أنها لا ترى في أي مكان مدينة مثل القسطنطينية. انظر كيف تومض بالجمال إذ يعانقها البحر ضاحكا!». كانت

(*) يوسف نبي Yusuf Nahi (من 1642 إلى 10 أبريل 1712) شاعر عثماني في بلاط السلطان محمد الرابع، انتقل إلى القسطنطينية من ولاية أورفة في عمر الرابعة والعشرين. وعاش فترة في حلب، ثم عاد إلى القسطنطينية التي مات فيها، تميز شعره بكثرة الأقوال والانتقادات الشعبية لعصره. [المترجم].

إمبراطوريتها للذوق مطلقة كما كانت السلطة السياسية للسلطان. كتب أمير لاين بعين فرد الحاشية الحادة: «تحدد القسطنطينية الموضة لياش، كما تحددها باريس للمحافظات، بل إن موضة القسطنطينية كانت تصل أسرع. كان اللون الأصفر هو اللون المفضل للسلطانات. وفي ياش، أصبح اللون المفضل لكل النساء. وحلت الغليونات الطويلة المصنوعة من خشب الكرز في القسطنطينية محل الغليونات المصنوعة من خشب الياسمين. وها نحن نبلاء البويار لا نستخدم غير غليونات خشب الكرز حالياً»⁽⁴⁴⁾. أصبحت المدينة مقصد الرحلة الكبرى^(*) للزوار الباحثين عن المتعة، وكذلك للدارسين الطالبين المعرفة. زارها البريطانيون، ومنهم اليعقوبي لورد غارليز Lord Garlies في العام 1724، وإيرل رادنور Earl of Radnor في العام 1730، وجون مونتغو John Montagu الإيرل الرابع لسندويتش^(**) ووليام بنسونبي William Ponsonby في العام 1738، وريتشارد بوكوك Richard Pococke ومركز غرانبي Marquess of Granby (الذي رسمه ليوتان) في العام 1740. ورُسم الكثيرون منهم في لوحات وهم يرتدون الملابس التركية. ذكر لورد شارملونت:

إن نمط الحياة في القسطنطينية بالنسبة إلى الشباب لا يقل إمتاعاً بحال من الأحوال عن أي مدينة كبرى. وذلك الحي من المدينة المسمى بيرا الذي تشكل كمدينة كبيرة قائمة بذاتها، أغلبية قاطنيه من الفرنجة واليونانيين الذين اختلطوا معاً، وشكلوا مع الوزراء العامين (السفراء) مجتمعاً ممتعاً إلى أقصى حد، تكثر بينهم متع المائدة، ويندر أن يمر مساء من دون حفلات راقصة أو حفلات موسيقية أو تجمعات يكون الاختلاط فيها بين الجنسين متاحاً تماماً.

انزعج السفير الهولندي من أن التجار الهولنديين «غير راضين بالمرّة عن طريقة الحياة الشريفة... ويريدون أن يتنافسوا مع الدبلوماسيين الأجانب في المظهر والحاشية ونمط الحياة، وأن تنغمس زوجاتهم وبناتهم يومياً في الاحتفالات والحفلات الراقصة والنزهات الماتعة إلى كل المنتجعات الجميلة». زار كازانوفاً المدينة لثلاثة أشهر في العام

(*) الرحلة الكبرى Grand Tour رحلات تقليدية إلى البلاد البعيدة بصحبة دليل، كان نبلاء وأثرياء أوروبا يقومون بها، انتشرت بداية من العام 1660 حتى وصول القطار في العقد الخامس من القرن التاسع عشر. [المترجم].
(**) سندويتش Sandwich مدينة تاريخية على نهر ستور Stour بدوفر في كنت بجنوب شرق إنجلترا، ومنها جاء اسم الوجبة الخفيفة «سندوتش» الذي يرجع إلى أن جون مونتغو الإيرل الرابع لسندويتش كان لا يشبع من القمار حتى إنه كان لا يجد وقتاً للجلوس على مائدة الطعام، فكان يطلب من خدمه أن يضعوا له اللحم بين شطرتي خبز، ومنها بدأ الآخرون يطلبون «نفس ما طلبه ساندويتش». [المترجم].

1745، لكنه لم يغوِ أحدا، بل «أغوي» هو نفسه عندما أراه تركي يدعى إسماعيل سيدات يستحممن في كشك⁽⁴⁵⁾ (*).

هل أنقذ انغماس القسطنطينية في الملذات أجزاء من أوروبا والهند من أن تصبح ولايات عثمانية؟ من المؤكد أن هذه الملذات استنزفت الروح القتالية للإمبراطورية. وفي العام 1514 والعام 1517، أجبرت الانكشارية سليم الأول المهيب على العودة إلى المدينة^(**). وفي العام 1771، بينما كانت الإمبراطورية العثمانية في حرب مع روسيا، كانت القسطنطينية مشغولة بنزاع آخر: نزاع اندلع في حانة بغلطة بين جماعة من الانكشارية وبعض المشرقيين على غلام راقص في عمر الرابعة عشرة. فعُطلت الأعمال التجارية، ونُشرت المدافع، وقُتل خمسون شخصا. علق الصدر الأعظم على ذلك بالقول: «كل هذه الشجاعة في غلطة وكل ذلك الجبن في حوض الدانوب يكشف أن الأتراك يخافون من القبعات»^(***). واستغرق الأمر أربعة أيام لإعادة النظام، ووعد الصدر الأعظم ألا يكون الغلام من نصيب أي من الطرفين، بل شنى بدلا من ذلك.

بعد الموجات التطهيرية إبان القرن السابع عشر، عاد الانحراف الفردي الفني إلى المدينة بدرجة أوضح من ذي قبل إبان القرن الثامن عشر. وبذلك تعد لوحات ليفني Levni لعهد السلطان أحمد الثالث بوجوها المميّزة واستخدام المنظور والمرح، تطورا جديدا في الفن العثماني. ثمة تغير آخر تمثل في ولادة الطباعة، سواء على أيدي المسلمين أو الموجهة إليهم من الغير. كان هناك راعيان للطباعة، هما محمد أفندي مصمم قصر سعادت آباد، ورجل من تراسلفانيا يدعى إبراهيم متفرقة Ibrahim Muteferrika.

سُبي إبراهيم في الحروب في نحو العام 1693، وأعتق نفسه من العبودية باعتناق الإسلام. ثم أصبح متفرقا muteferrik، أي واحدا من جماعة من الحراس والرفاق المكرمين في القصر الذين يوصفون بأنهم «رجال من كل الأمم وكل الأديان». قيل إنه كان يعرف الفرنسية والإيطالية والألمانية واللاتينية والتركية والمجرية (استخدمه الباب

(*) جياكومو جيرالمو كازانوفيا Giacomo Giralmo Casanova (من 2 أبريل 1725 إلى 4 يونيو 1798) مغامر ومؤلف إيطالي من جمهورية البندقية، عاش بين الأمراء والنبل والباباوات والكرادلة، واشتهر بتعدد علاقاته النسائية، وهو الملحم الوحيد الباقي منه إلى جانب مذكراته «قصة حياتي» وكتابات أخرى. [المترجم].

(**) بعد فتح مصر في العام 1517، أراد سليم أن يبقى فيها ويتخذها عاصمة، غير أن الانكشارية رفضت وأجبرته على العودة إلى القسطنطينية. [المترجم].

(***) القبعات hats أحد الأسماء التي استخدمها العثمانيون للإشارة إلى المسيحيين بينما كان المسلمون يرتدون العمام، لأن حافات القبعات لا تصلح مع السجود في أثناء الصلاة.

العالي لاحقا مترجما للوثائق الديبلوماسية). في العام 1726، قدم أطروحة حول الطباعة إلى الصدر الأعظم والعلماء، مؤكدا أنها ستساعد في نشر معرفة القراءة والكتابة، وإيقاف الأوروبيين عن طباعة الكتب الإسلامية، وإعطاء العثمانيين الريادة وحدهم في العالم الإسلامي، وطلب أن «يعلن شيخ الإسلام أن عمل الطباعة محمود وأنه مفيد للمسلمين ويتفق مع الشريعة البهية». وأكد أيضا فوائدها العملية: الرخص والدقة ونشر العلم. وصدرت فتوى تسمح بطباعة الكتب في كل الموضوعات، ما عدا الإسلام، برغم معارضة مجموعة من العلماء ذهبت - وفقا لإبراهيم متفرقة - إلى «أن الاختراع المذكور سيكون خطرا على النظام العام وعلى ممارسة الدين، لأنه سيتيح نشر الكتب بعدد أكبر مما ينبغي». يكشف مفهوم العدد «الذي ينبغي» من الكتب عن البصيرة الفاترة لدى بعض العقول الرسمية العثمانية. وجاءت المعارضة أيضا من الخطاطين المحترفين الذين نظموا مظاهرة بالقرب من القصر⁽⁴⁶⁾.

كانت المطبعة التي عملت في بيت إبراهيم متفرقة مشروعا متعدد الجنسيات. عمل بها العلماء مصححي بروفات. وربما عمل فيها أيضا يونس بن يعقوب أشكنازي، اليهودي من مدينة ليف القريبة الذي أنشأ مطبعة عبرية في القسطنطينية في العام 1711. جاء الطباعون ونقاشو الحروف والمنضدون من فيينا. وتمثل أول كتاب طبع في الحادي والثلاثين من يناير 1729 في معجم عربي، تلتها طبعة للمؤرخ العثماني كاتب جلبي وكتاب في القواعد النحوية للغة التركية للمؤلف بير هولدرمان Pere Holdermann لكي يستخدمه الطلاب والتجار الفرنسيون. وفي العام 1731، قدم إبراهيم متفرقة إلى السلطان محمود الأول كتابه «القواعد الرشيدة لسياسة الأمم» Rational Bases for the Politics of Nations الذي طرح السؤال الذي سيطر على عقول المسلمين منذ ذلك الحين: لماذا بدأت الأمم المسيحية التي كانت ضعيفة جدا في الماضي مقارنة بالأمم الإسلامية، تسيطر على الكثير من الأراضي في الأزمنة الحديثة وتهزم الجيوش العثمانية التي كانت مظفرة في السابق؟ أشار في كتابه إلى النظام البرلماني في إنجلترا وهولندا، وإلى توسع المسيحيين في أمريكا والشرق الأقصى، وذكر أنه حتى في حين يُحكم العثمانيون بالشريعة، يتبع الأوروبيون «قوانين وقواعد استنبطها العقل»: «مازلنا في حالة من عدم الاستعداد الواضح... وباتت الحاجة ماسة وملحة حاليا إلى جمع المعلومات حول تفاصيل الشؤون الأوروبية حتى نرد كيدهم ونمنع حقدهم». وكان الإصلاح العسكري هو الحل الذي ارتآه لمشكلة التراجع العثماني:

يجب أن يقلع المسلمون عن الغفلة والجهل بالموقف ويصحوا من نعاسهم وغفلتهم... ويجب أن يعملوا ببصيرة ويتابعوا طرق الحرب الأوروبية الجديدة وتنظيمها وإستراتيجيتها وتكتيكاتها عن كثب... يتفق كل حكماء العالم على أن شعب تركيا يتفوق على كل الشعوب الأخرى بطبيعته المتقبلة للحكم والنظام. وإذا تعلموا العلوم العسكرية الجديدة وصاروا قادرين على تطبيقها، فإن عدوا لن يصمد أمام هذه الدولة أبداً (47).

انتهى عصر الزنابق بثورة شعبية. بحلول العام 1690، ومن خلال أرقام ضريبة الرؤوس المفروضة على المسيحيين وتقديرات المقيمين الأجانب، بلغ عدد سكان القسطنطينية ما بين ستمائة وسبعمائة ألف نسمة. فكانت أكبر مدينة في أوروبا والشرق الأوسط، أو باستخدام مجاز محبوب إلى العثمانيين أنفسهم، كانت محيطاً من الرجال والنساء. وبحلول العقد الثالث من القرن الثامن عشر واصل عدد السكان النمو مع تدفق المهاجرين الباحثين عن العمل من الأناضول. واضطر السلطان إلى أن يبني سبعة مخازن غلال جديدة بالقرب من الترسانة حتى يجاري توريد الخبز بالمدينة الزيادة في عدد سكانها.

وفي الوقت نفسه، بدأ المهاجرون بسبب رفض الطوائف الحرفية بالمدينة قبول الكثيرين منهم، يشكلون طبقة دنيا منبوذة. وفي الوقت عينه أدى إسرار السلاطين إلى خفض الرواتب ورفع الضرائب. وفي يوليو 1729 تسبب حريق وصفه سفير البندقية بأنه «أكبر من أي حريق آخر شوهد في ذاكرة الإنسان أو وُصف في السجلات» في تدمير أربعمئة بيت ومائة وثلاثين مسجداً ومقتل ألف شخص. كما أثار ضعف بعض الحواجز بين الجنسين الاستياء الشعبي. في حفلة في قصر سعادت أباد رمى الصدر الأعظم عملاً ذهبية أسفل فستان زوجة قاضي القسطنطينية. وفتحت حدائق المتعة في الأتيميدان وفي قصر سعادت أباد، وفيها كانت «النساء الحمقاوات» يقابلن الشباب، و«يزعمن أن ذلك من حقوق الإنسان، ويخرجن إلى متنزهات المتعة، ويجبرن أزواجهن على إعطائهن المال، وإن رفضوا يطلبن الطلاق، وقد تفشى هذا الأمر حتى لم يبق غير خمس نساء شريفات في أي حي». وباتت المدينة على حافة الانفجار.

كان مفتي القسطنطينية وبعض العلماء ساخطين على بدع البلاط، فشجعوا الثورة. وشُجبت معاهدة حديثة مع روسيا وحرب وشيكة مع بلاد فارس في الخطب في جامع آيا صوفيا: «إن الحرب بين من يولون وجوههم شطر مكة حرب ظالمة».

واندلعت الثورة في صبيحة الثامن والعشرين من سبتمبر 1730. قيل إن قائدها كان من أصل ألباني يدعى «باترونا» خليل لأنه خدم على السفينة باترونا Patrona. عمل خليل لفترة جنديا انكشاريا، ثم انتقل إلى بيع الملابس في الشوارع. وعلى نحو ما فعل «اللامتسرولون» في باريس الثورية، ارتدى خليل مزهوا ملابس ممزقة (*). قاد مع صديقيه موصلو Muslu بائع الفاكهة وعلي بائع القهوة نحو ثلاثين ثائرا إلى البازار وطلبوا من الناس أن ينضموا إليهم لـ «تطبيق شريعة محمد». حدث ذلك يوم الخميس، وهو يوم راحة، لذلك كان القائم مقام في بيته الصيفي يزرع الزنبق. كان السلطان والجيش قد انتقلا في موكب عظيم إلى أوسكودار على الجانب الآسيوي للبسفور استعدادا للحرب على بلاد فارس. وبعد أن استولى الثوار على أسلحة من الانكشارية، عمت الثورة سريعا كل مكان حتى أصبحت عن حق أول ثورة اجتماعية ودينية وسياسية واسعة النطاق في تاريخ القسطنطينية⁽⁴⁸⁾.

كان السلطان مترددا وغير مطلع بما يكفي على سير الأمور. وكان باترونا خليل، في المقابل، متحدثا مفوها. وفي يوم الجمعة، جند الثوار الكثير من الأتباع في المساجد، وانضم إليهم أيضا اليونانيون والأرمن والغجر. فإبان القرن الثامن عشر، لم يقتصر التعايش بين الأتراك واليونانيين على الأمراء الفناريين فقط، بل امتد أيضا إلى أسفل التراتبية الاجتماعية. من ذلك أن باترونا خليل اقترض في بداية الثورة مالا من رفيق له في الشرب، وهو جزار يوناني يدعى يانكي Yanaki. وسرعان ما مال العمال بترسانة السفن والموظفون الحكوميون وحتى القبطان باشا نفسه إلى الجانب الفائز. طالب باترونا خليل برأس الصدر الأعظم. وفي الثلاثين من سبتمبر، رميت جثة الصدر الأعظم من القصر وتركت لكلاب الشوارع. وكان مما خفف إحساس السلطان بالذنب أن الثوار وجدوا أربعة وخمسين صندوقا من العملات الذهبية بين كنوز الصدر الأعظم.

وفي الأول من أكتوبر استقبل أحمد الثالث مبعوثين من الثوار قالوا له إن «عهدك انتهى، وإن رعاياك لم يعودوا يقبلونك سيدا عليهم». قبل أحمد مصيره وقبّل يد السلطان التالي، ابن أخيه محمود. وكانت نصيحته الأخيرة للسلطان الجديد هي «ألا يول عظفا أو ثقة زائدة في صدوره العظماء... وأن يحكم وفقا لفكره المستنير، وأن يطلب المشورة،

(*) اللامتسرولون sansculottes هو الاسم الذي أطلقه الأرستقراطيون في فرنسا إبان الثورة على النشطاء من قواد الثورة الذين استبدلوا السروال الطويل الذي هو اللباس المعروف لعامة الشعب من الكادحين بالسروال القصير الذي كان من علامات الأرستقراطية. [المترجم].

على ألا يعتمد كلياً على أي شخص». ومات الشاعر نديم نتيجة الوقوع من فوق أسطح البيوت التي كان يجري فوقها هرباً من مجموعة من أتباع خليل أو (وفقاً لرواية أخرى) أهل أحد برادشيت الغاضبين. وانهارت الإدارة، وصار الحكم بأيدي الثوار وعلماء الدين. وتجلّى انتصارهم في وجود باترونا خليل وعلي بائع القهوة إلى جانب السلطان الجديد وهو في طريقه إلى أيوب لتنصيبه، حيث كانا يرميان عملات ذهبية على الحشود. وعُيّن ياناي هوسبودارا لمولدافيا لفترة قصيرة^(*). وبرغم معارضة السلطان محمود الأول، حطم الثوار بعض البيوت والحدائق الجديدة المكروحة في منطقة سعادت أباد. خطط السلطان للانتقام مع قادة انكشاريته وخان القرم الذي كان يزور القسطنطينية. وفي الرابع والعشرين من نوفمبر أُستدعي باترونا خليل وثمانية وعشرون من رجاله إلى القصر بدعوى منحهم تكريمات جديدة، وقتلهم الحراس في غرفة المجلس ورميت جثثهم خارج الباب الإمبراطوري، كما فعلوا بالصدر الأعظم قبل شهرين⁽⁴⁹⁾.

وبرغم ذلك، استغرق الأمر وقتاً طويلاً إلى أن أُستعيد النظام. وفي الخامس والعشرين من مارس 1731، وقعت ثورة أخرى بقيادة ألباني آخر يدعى علي الأسود، وفيها أعدم عدة آلاف من الثوار، وأبعد الألبان واللاز وهم الجورجيون المسلمون من منطقة البحر الأسود^(**)، عن المدينة، وتوابع بعضهم حتى أماكن بعيدة مثل ألبانيا. وأغلقت المقاهي، وفرضت سيطرة صارمة على دخول المدينة، حتى للأعمال المستعجلة. وردا على ذلك، اندلع مزيد من الحرائق، وطالب الناس بتغيير الصدر الأعظم ورئيس الخصيان. كتب السفير البريطاني لورد كينول Lord Kinnoul أن «الروح الشيطانية للشعب... جامحة ومنفلتة، حتى إنهم يلقون باستمرار أوراقاً في الشوارع تهدد بأنهم لن يكفوا عن العصيان حتى يحرقوا القسطنطينية كلها». وفي شهر سبتمبر، وبعد ثورة أخرى، وُضعت آلاف كثيرة من الثوار في أجولة وأغرقوا في البسفور⁽⁵⁰⁾. فـ «الماسة التي بين زمردتين» كانت مقبرة أيضاً^(***).

(*) الهوسبودار Hospodar اسم آخر لنبلاء البويار كان يستخدم في الكتابات السلافية، بينما كان مصطلح الدومن Domn يستخدم في الكتابة الرومانية. [المترجم].

(**) اللاز Laz شعب يسكن مناطق ساحل البحر الأسود التركية والجورجية، كانوا من أوائل من اعتنق المسيحية، ثم تحول غالبيتهم إلى الإسلام السني في عهد الحكم العثماني للقوقاز في القرن السادس عشر. [المترجم].

(***) تذكر أن الشعراء العثمانيين أطلقوا على البسفور وصف «الماسة بين زمردتين»، و«الجوهر في عقد الإمبراطورية العالمية». [المترجم].

السفراء والفنانون

إن قصرنا عالي النوافذ مفتوح دائماً
بلا حُجب أمام الصديق والعدو على حد سواء.
مراد الثالث لإليزابيث الأولى،

في 27 مارس 1579

لا توجد مكانة في البلاط ولا بين السفراء
أعلى من مكانة الباب العالي.
مركيز دي فيريول السفير الفرنسي،
في 26 فبراير 1700

لم تسع عاصمة أخرى كل هذا العدد من
السفارات. جاء سفراء إلى القسطنطينية من
لندن وباريس واستوكهولم وسمرقند وغوا
وفاس^(*). وفي العام 1628، وهو عام لا يختلف
عن غيره في أي شيء، جاء سفراء من فيينا

(*) كانت غوا Goa عاصمة مملكة بيجابور Bijapur التي
حكمتها عائلة عادل شاهي Adil Shahi بغرب الدكن في شبه
القارة الهندية، انتزعها منهم البرتغاليون في العام 1510 لإقامة دولة
الهند البرتغالية، وبقيت سلطنة بيجابور حتى ضمها الإمبراطورية
المغولية الهندية في العام 1686. [المترجم].

«وفرت السفارات الإطار للتخيل
الفني للقسطنطينية، فضلاً على
البحث العلمي لها»

ووارسو وموسكو وأصفهان ودلهي لتقديم الاحترامات إلى السلطان^(*). كانت القوة هي ما أتى بهؤلاء. كانت الإمبراطورية العثمانية في الوقت عينه قوة أوروبية وشرق أوسطية وأفريقية وبحر أسودية ومحيط هندية وبحر متوسطية، إذ امتدت من المغرب إلى بلاد ما بين النهرين، ومن بولندا إلى اليمن، وبالتالي كان لها جيران أكثر من أي دولة أخرى، وبالتالي أيضا أمور أكثر عرضة للنزاع أو التفاوض.

يكشف وجود السفارات الدائمة في القسطنطينية بداية من منتصف القرن السادس عشر، بعد تأسيس السفارات مباشرة في العواصم الغربية، أن الإمبراطورية العثمانية كانت من الناحية الدبلوماسية جزءا من أوروبا. ولم يكن السفراء فيها يعاملون معاملة الأجانب، كما كانت الحال في موسكو قبل عهد بيتر الأكبر وبعد العام 1918، بل أدى السفراء بدرجة أكبر منهم في أي مكان آخر، دورا في الحياة الداخلية للعاصمة وكذلك العلاقات الخارجية للإمبراطورية.

عمليا، وأيا كانت دعاوى المتطرفين على الجانبين، لم تكن هناك حرب مقدسة بين الإسلام والمسيحية. صحيح أنها كانت موجودة على مستوى النظرية، وأن كراهية «الكفار» عبّرت عن نفسها كثيرا في القسطنطينية وباريس، لكن هذه الكراهية نفّست عن نفسها ضد الزنادقة داخل المسيحية أو الإسلام - سواء أكانوا البروتستانت أم الفرس أتباع المذهب الشيعي - بعنف أشد مما مورس بين أتباع الدينين. فعلى الرغم من الولع العثماني بالثقافة الفارسية، جعلت النزاعات حول المذهب الديني والحدود الجغرافية ووصول الشيعة إلى مكة والمدينة المنورة (وهي القضايا عينها التي لاتزال تسمم العلاقات الخارجية لإيران إلى اليوم) من إيران العدو الأكثر ديمومة للإمبراطورية العثمانية. كان الفرس يعرفون باسم القزلباش أي ذوي الرؤوس الحمراء بسبب أغطية رؤوسهم الحمراء المميّزة^(*). وبعد أن تبنى الشاهات الصفويون المذهب الشيعي دينا رسميا لدولتهم في العام 1506، أخذوا يغرقون شرق الأناضول بإرساليات تبشيرية من القزلباش، وجدت استجابة متحمسة.

(*) القزلباش: اسم تركي معناه «ذوو الرؤوس الحمراء» بسبب التاج الأحمر المميز ذي الاثني عشر ثوبا الذي يعرف في الفارسية باسم تاج حيدر والذي يبين انتساب مرتديه إلى المذهب الاثني عشري وإلى حيدر الصفوي الزعيم الروحي للحركة الصفوية، يشير إلى جماعات شيعية مقاتلة ازدهرت في الأناضول وكردستان منذ نهاية القرن الثالث عشر، بعضهم أسهم في تأسيس الدولة الصفوية في إيران، واستخدمتهم الدولة الفارسية لاحقا كرأس حربة لها ضد الإمبراطورية العثمانية. [المترجم].

كان سفراء الفرس السفراء الوحيدين الذين أعدموا في القسطنطينية، مرة في العام 1524 وأخرى في العام 1729. وفي العام 1549، أعلن مفتي القسطنطينية الحرب على بلاد فارس: «نعم إنه أعظم الجهاد وأعلى درجات الشهادة»⁽²⁾. وظلت الحروب تندلع بين الطرفين بانتظام قاس حتى القرن التاسع عشر.

وبين العامين 1556 و1748، تبودلت السفارات من حين لآخر مع الإمبراطورية الإسلامية الكبرى الأخرى: الإمبراطورية المغولية التي كانت دلهي عاصمتها. لكن كان هناك صدام عظمة بينهما، إذ أطلق حاكما الإمبراطوريتين كلاهما على نفسيهما ألقاب «ال خليفة» و«ظل الله» و«ملاذ ملوك الكون». ولذلك كانت السلطات العثمانية تتصرف بغطرسة مع المبعوثين المغول إلى القسطنطينية. من جانبهم، لم ينسَ المغول أبدا أنهم من سلالة تيمورلنك العظيم الذي أسر السلطان العثماني في العام 1402^(*). زعم الأباطرة المغول في القرنين السادس عشر والسابع عشر أن عاصمتهم أكرا Agra كانت «مقر الخلافة»، وأن القسطنطينية كانت «مقر السلطنة العثمانية» فقط. ولذلك فعلى الرغم من اشتراك الإمبراطوريتين العثمانية والمغولية في الأعداء مثل البرتغال وبلاد فارس، وعلى الرغم من مصلحتهما المشتركة في تأمين الحج وحماية وسط آسيا من روسيا، فنادرا ما كانت العلاقات بينهما ودية، لكنها لم تُقطع أبدا. وقد دفعت الجغرافيا والطموح الإمبراطورية العثمانية إلى نظام الدول الأوروبي، بعيدا عن الاتصال مع الممالك الإسلامية الأخرى. فكانت الرحلة بين الإمبراطوريتين تستغرق ما بين ستة وثمانية أشهر، فيما كانت الرحلة بين القسطنطينية والبندقية تأخذ ما بين ثلاثة وستة أسابيع. ولم تحتفظ الإمبراطورية المغولية ولا بلاد فارس بسفارات دائمة في العاصمة العثمانية⁽³⁾.

في روايته للاكتشاف الإسلامي لأوروبا (1982)^(**)، يأخذ بيرنارد لويس على العثمانيين معرفتهم السطحية والخاطئة بأوروبا، لكنه أيضا يكتشف أن «فكرة

(*) وجه تيمورلنك أقصى هزيمة للدولة العثمانية في معركة أنقرة في العام 1402، هددت بقاء الدولة والعائلة الحاكمة، وكان صاحب الأسير الوحيد من بين سلاطينها: بابزید الأول. [المترجم].

(**) عنوان كتاب للمستشرق بيرنارد لويس يتناول فيه تصورات المسلمين لأوروبا منذ الفتوحات العربية حتى حملة نابليون على مصر، يدين فيه المسلمين لكونهم لم يفهموا الغرب ولم يهتموا بمعرفة عدوهم الألفي، وأرجع ذلك إلى المحذور الديني واحتقار الدين الناسخ للمنسوخ وتفوق المسلمين في العصور الوسطى، وغيرها من الأسباب. وعلى الرغم من أن كتابات لويس تتسم بشيء من العداء ضد المسلمين، فإنه محق في رأيه، كما يتجلى من حضور الغربيين البارز في القسطنطينية في هذا الكتاب وفي العواصم والمدن الإسلامية الأخرى كلها تقريبا، في مقابل ندرة المسلمين الذين زاروا دولا غربية، حتى صارت زياراتهم نادر تسطر في الكتب مثل «رحلة ابن فضلان» مثلا. [المترجم].

التحالف مع القوى المسيحية، حتى ضد قوى مسيحية أخرى، كانت فكرة غريبة، بل وكانت بالنسبة إلى البعض فكرة مقبولة. وبالفعل كانت التحالفات الأوروبية من بين أقدم تقاليد الحكم العثماني. وقد عبر الجنود العثمانيون إلى أوروبا لأول مرة حلفاء للإمبراطور البيزنطي ومدينة جنوى. لم تكن المراسم التي تحكم استقبال السفراء في القسطنطينية ترفع من شأن السلطان فقط، بل تشرف أيضا السفير الذي كان يركب إلى القصر على خيول السلطان، ويُسمح له بالدخول مع حاشية كبيرة إلى الفناء الثاني بالقصر، ويتعشى وحده مع الصدر الأعظم، ويحصل على عدد من القفاطين الرائعة، وأخيرا يتشرف بميزة الدخول إلى غرفة عرش السلطان. كان السفراء نظريا ضيوفا على السلطان. وكانوا يتقاضون تكاليف معيشية يومية من الحكومة العثمانية ويدعون إلى مراسم مثل ختان الأمراء الإمبراطوريين. كما رافق بعض السفراء السلطان في الحملات العسكرية.

لم تعد الإمبراطورية العثمانية الحلفاء الأوروبيين قط. فكان الفاتح صديقا لفلورنسا، ودعم سليمان فرنسا، إذ جمعت بين الطرفين في الحاليتين رابطة قوية تمثلت في الاشتراك في كراهية آل النمسا^(*). وفي العام 1526، كان رأس آل النمسا كارلوس الخامس الإمبراطور الروماني المقدس وملك قشتالة وأراغون^(**) وعاهل الأراضي الواطئة^(***)، وكان أخوه فرديناند Ferdinand ملك المجر وبوهيميا وأرشيدوق النمسا. حارب الهابسبرغيون الإسبان والنمساويون - كما فعل أحفادهم لاحقا - الإمبراطورية العثمانية للسيطرة على البحر الأبيض المتوسط ومنطقة البلقان والمجر. ولذلك فعندما تعرض ملك فرنسا فرانسوا الأول للهزيمة والأسر على يدي كارلوس الخامس في معركة بافيا في العام 1525، أرسل رسالة إلى سليمان القانوني يلتمس فيها العون.

(*) آل النمسا هم آل هابسبرغ الذين تزعموا قيادة العالم المسيحي في الحرب ضد الإسلام سواء كحكام للنمسا أي الإمبراطورية الرومانية المقدسة حينذاك التي تزعمت الحروب المسيحية ضد العثمانيين على الياقة الأوروبية وأفشلت حصارين عثمانيين لفينا، أو كحكام لإسبانيا التي تصدت للعثمانيين على صفحة البحر الأبيض المتوسط وضافه، ونجحنا مع البابوية في هزيمة الأسطول العثماني في ليبانتو في العام 1571. [المترجم].

(**) كان كارلوس الإمبراطور الروماني المقدس باسم كارلوس الخامس، وإمبراطور إسبانيا باسم كارلوس الأول. [المترجم].

(***) الأراضي الواطئة هي هولندا، مع العلم أنها لم تخضع كلها يوما للاحتلال الإسباني، بل كانت هناك دوما مقاطعات مستقلة. [المترجم].

وصل أول سفير فرنسي دائم إلى القسطنطينية في العام 1535. ومنذ ذلك الحين، كانت للسفير الفرنسي أسبقية على غيره من السفراء، وكان سيده في الوثائق العثمانية يدعى باديشاه مثله مثل السلطان. وعلى الرغم من الغطسة وسوء الفهم، دامت الصداقة بين الجانبين حتى العام 1798^(*). في إحدى المناسبات في العام 1659، هدد سفير البندقية الحكومة العثمانية بغضب العالم المسيحي، فرد عليه نائب الصدر الأعظم قائلا: «أنت تضحكني عندما تحاول أن تخيفني بالقوى المسيحية. إنها كالغول لا شيء فيها يخيف غير اسمها». ومع ذلك فإن ملك فرنسا الواعي بلقبه «الملك الأكثر مسيحية» و«الابن الأكبر للكنيسة»، وخوفا من نقد أوروبا الكاثوليكية له، تجنب التحالف المكتوب الذي ألح عليه الباب العالي مرارا وتكرارا.

وغدا «اتحاد الزنبق والهِلال»^(**) أحد الثوابت في السياسة الأوروبية. وجد المتطرفون المسلمون والمسيحيون إهانة في هذا التحالف. وجزئيا من أجل تخفيف النقد، أشيعت أسطورة في القسطنطينية في نحو القرن السادس عشر بأن السلالتين الحاكمتين أقارب من خلال أم محمد الثاني التي كانت ابنة ملك فرنسا. ومن جانبهم، زعم الوزراء والديبلوماسيون الفرنسيون لأنفسهم وللرأي العام الأوروبي، أن الدافع الأول لصداقتهم مع الإمبراطورية العثمانية كان حماية الكاثوليكية ونشرها ضمن تخوم الإمبراطورية. وكانت زيادة التجارة الفرنسية السبب الثاني. في حين تمثل الدافع الأساسي، كما ظهر في التعليمات المعطاة لأحد السفراء الفرنسيين في العام 1724، في ضمان «أن تبقى قوة الأتراك دائما شيئا مخيفا لآل النمسا»^{(4)(***)}. وفي ذروة العداء الفرنسي-الهابسبرغي، رتب السفير الفرنسي في القسطنطينية لإعادة تجهيز السفن الفرنسية في ميناء القسطنطينية في العام 1538، وأن يقضي الأسطول العثماني الشتاء في تولون في شتاء 1543 - 1544.

(*) عام الحملة الفرنسية على مصر. [المترجم].

(**) كان الهِلال شعار الدولة العثمانية، والزنبق رمز الدولة الفرنسية، إذ ظهر في أعلامها وتيجان الملوك وعروشهم وغيرها من رموز الدولة الفرنسية. [المترجم].

(***) إن العداء الطويل والحرب والهزيمة والأسر بين فرنسا وآل النمسا تذكرنا بالحالة عينها بين المغول والأتراك، وإن كان كارلوس لم يقتل فرانسوا بعد أسره في معركة بافيا 1525، كما فعل تيمورلنك مع بايزيد، وإنما أطلق سراحه بعد أن أخذ منه تنازلات كبيرة ومهينة. [المترجم].

وكان هذا السفير يدير المدفعية العثمانية شخصيا في أثناء الحرب ضد بلاد فارس في الأعوام 1548 - 1550، ونظم عمليات بحرية فرنسية - عثمانية ضد إسبانيا في البحر الأبيض المتوسط في الأعوام 1551 - 1555⁽⁵⁾.

على أن فرنسا لم تكن الحليف المسيحي الوحيد للإمبراطورية العثمانية. فمن قبل العام 1453، حظيت بولندا بروابط دبلوماسية مع الإمبراطورية العثمانية أوثق من روابطها مع فرنسا أو إنجلترا. وفي العام 1533 وقَّعت الحكومتان معاهدة «صداقة وتحالف دائمين». وعند وفاة ملك بولندا زغمونت الأول في العام 1548، قال سليمان: «كنت والملك الراحل كأخين، وإن شاء المولى الرحيم، سأكون مع هذا الملك مثل الأب والابن»⁽⁶⁾.

ولذلك، فعندما كان السفير يذهب لمقابلة الصدر الأعظم في الباب العالي أو كشكه الخاص، كان الاجتماع يحدث بين رجلين يرتديان ملابس مختلفة ويتحدثان لغتين مختلفتين ويتبعان دينين مختلفين، لكن يجمعهما الاهتمام نفسه بالدولة والقوة والتجارة. وأحيانا كانت المفاوضات تطول في الباب العالي أو القصر، حتى تنشأ صداقة بين الصدر الأعظم والديبلوماسيين الأوروبيين، تدمغها الهدايا والضيافات. وصف سفير الإمبراطورية الرومانية المقدسة بارون دي بوسبيك الوزير علي، المسيحي من دالمسيا الذي جُند في فرق الانكشارية، بأنه «تركي مهذب وذكي لأبعد الحدود. طلب مني أن أعتبره صديقا في أي مناسبة وألا أتردد في مفاتحته إن احتجت أي شيء. وجاءت أفعاله موافقة لوعوده تماما». قال علي لبوسبيك إن أرواح الأمراء مثل المرايا تعكس نصائح مستشاريهم. و«الوزراء الجيدون يجب أن يحاولوا أن يوفقوا بين كل المصالح، مثل الطباقين المهرة الذين يحاولون أن يعدوا أطباقا تروق للجميع، وليس لهذا الضيف أو ذاك فقط». وبدأ الأتراك يتذمرون من أن الصدر الأعظم بينما يستقبل السفراء المسيحيين في حجرته، كانوا هم يضطرون إلى المكوث في غرفة الانتظار. ومع ذلك، فبعد عشرين عاما، وصف سفير آخر للإمبراطورية الرومانية المقدسة السلطان بأنه «ذئب شيطاني». إذ كان كل شيء يعتمد على توازن الخوف والاحتياج بين الحكومات في لحظة معينة⁽⁷⁾.

وإذا كانت القسطنطينية أحد أهم المراكز الدبلوماسية، فقد كانت أخطرها أيضا. كان حضور السفراء يُتخذ دليلا على الخضوع إلى الباب العالي، الذي كان

«ملجأ الملوك... وملاذ العالم»، كما وصفه سليمان لفرانسوا الأول. كان السفراء رهائن مسؤولين أمام الباب العالي عن السلوك الجيد للملوك الذين أرسلوهم. فلم تكن هناك حصانة دبلوماسية في القسطنطينية.

فإذا غضب السلطان من إعلان إحدى الحكومات الأجنبية الحرب أو من دليل على أنها تساعد سرا عدوا للعثمانيين، فإن سفيرها كان يمكن أن يجد نفسه سجيناً في قلعة الأبراج السبعة، كما حدث مع سفراء الإمبراطورية الرومانية المقدسة في الأعوام 1541 و1596 و1716، والسفراء الفرنسيين في الأعوام 1616 و1658 و1659 و1660 و1798، والسفراء البنادقة في العامين 1649 و1714، والسفراء الروس في العامين 1768 و1787⁽⁸⁾. لم يكن السفير في هذه الحالات واثقاً من أنه سينجو بحياته، على الرغم من أنهم جميعاً نجوا بها. وكان السفراء في بعض الأحيان يهانون أيضاً. بلغت الغطرسة العثمانية أوجها إبان القرن السابع عشر. كان سليمان وسليم الثاني يتحدثان مع السفراء. لكن بعد العام 1600، نادراً ما كان السلطان ينظر إليهم. وحتى العلاقات مع بولندا تدهورت، وفي العام 1634، سحب مراد الرابع سيفه من غمده حتى منتصفه ونهض من على العرش كما لو كان سيضرب السفير البولندي في منتصف كلامه. وكانت الانكشارية التي تحرس السفراء يسمون أحياناً «قطعان الخنازير». كانت الانكشارية نفسها تظهر الاحترام للسفير الذي ترافقه في العلن، وإلا لعوقبوا إن لم يفعلوا ذلك. لكنهم عندما كانوا يرونه داخل مبنى السفارة، كانوا نادراً ما يتنازلون بالقيام له.

ونظراً إلى أن العثمانيين كانوا يعتبرون عاصمتهم مركز الكون، فقد كانوا يريدون أن يأتي الأجانب - الحرفيون والتجار والسفراء - إلى المدينة، وليس أن يذهبوا هم إلى البلاد الأجنبية. فلم يتبع العثمانيون الأمر القرآني بالسفر طلباً للعلم ولو إلى الصين. أرسل السلطان سفارات إلى الخارج، إلى باريس في العام 1582 لدعوة الملك هنري الثالث إلى حفل ختان ابنه محمد، وإلى إستكهولم في العام 1657 في وقت احتلال السويد لبولندا. وبين العامين 1384 و1600، أرسل مائة وخمسة وأربعين مبعوثاً مؤقتاً، عادة جاووش (رسول)^(*)، من بيت السلطان إلى البندقية⁽⁹⁾.

(*) يبدو أن كلمة جاووش cavus حين انتقلت من التركية إلى العربية قد انخفضت مكانة حاملها كثيراً من مبعوث السلطان إلى رتبة صغيرة جداً في الجيش والشرطة. [المترجم].

لقد اعتبر الباب العالي الاحتفاظ بسفارات دائمة في العواصم الأجنبية أمرا مكلفا ومربكا. وفي معظم الأحيان، كان الباب يعتمد على تجار المدينة المسيحيين أو اليهود في الحصول على أخبار أوروبا الغربية. من ذلك أنه في العام 1492 أخبر أندريس ميلاس Andreas Milas، وهو تاجر من غَلَطَة سافر إلى إيطاليا في عمل، بايزيد الثاني بمصير أخيه جم ومسلمي غرناطة. وكان العملاء الذين احتفظ بهم أمراء ولاشيا ومولدافيا في ألمانيا وبولندا وروسيا مصدرا آخر للمعلومات. وفي العام 1774، علم الصدر الأعظم بموت لويس الخامس عشر قبل خمسة أيام من علم السفير الفرنسي بالخبر. وكان السفراء الأجانب المقيمون في القسطنطينية يُستَجَوَّبون أيضا حول السياسة الأوروبية. وكان السفراء كثيرين، وسياساتهم متعارضة تماما، ما جعل الباب العالي يستطيع أن يعتمد دائما على الواحد منهم في تزويده بالمعلومات حول زملائه. وكان السفير الهولندي يعتبر الأكثر موضوعية بينهم، ولذلك كان الباب العالي يستشيرَه كثيرا⁽¹⁰⁾.

كانت غطرسة الحكومة العثمانية ووحشيتها من حين لآخر مع السفراء الأجانب تقابلها أحيانا غطرسة مساوية أو أكبر من السفراء أنفسهم. فقد كانت القسطنطينية (مثل معظم العواصم الأخرى) مشهدة لحروب المكانة التي استغرقت قرونا حتى تخمد. من ذلك أن ادعاء السفراء بأنهم كممثلين شخصيين لملوكهم مساوون في المكانة للصدر الأعظم جعلهم يظلون واقفين في غرفة استقباله حتى يتجنبوا القيام عندما يدخل. وكانوا بعد ذلك يجلسون من تلقاء أنفسهم. وكان من نذر النزاعات المستقبلية أن أول سفير روسي رفض في 1497 أن يذعن للمراسم العثمانية بارتداء القفطان وتناول العشاء مع الصدر الأعظم والتواصل معه، وأراد التواصل مع السلطان مباشرة⁽¹¹⁾.

في بادئ الأمر، كان الدبلوماسيون يقيمون في خان خاص داخل القسطنطينية نفسها. وبحلول العام 1600، كان معظمهم قد استقر في بيلا على التل في أعلى غَلَطَة، ما أعطاهم إطلالا مباشرا على قصر السلطان عبر القرن الذهبي. حتى منتصف القرن الثامن عشر، كانت السفارات تبني بالخشب على الطريقة التركية، وتضم صوفا أو قاعة استقبال عليا كبيرة تفتح فيها غرف أخرى. وكانت توجد تجسيدات لهوية بلادهم على أول خريطة حديثة للقسطنطينية طبعها عضو بالسفارة الفرنسية في

العام 1786، التي كانوا يضعون عليها علامات بسيطة مثل «إنجلترا» أو «فرنسا» أو «روسيا». كانت بيرلا في ذلك الوقت قد أخذت تشبه مدينة أوروبية غربية صغيرة بُنيت حول شارع رئيس يعرف باسم شارع بيرلا الكبير.

كانت السفارات تُسمى قصورا في الخطابات والرسائل، مثل قصر البندقية وقصر فرنسا والقصر البريطاني. فإذا كان السفراء في العواصم الأخرى قد عاشوا عيشة الأمراء، فإنهم في القسطنطينية عاشوا ملوكا. فكانت كل سفارة بمنزلة بلاط مصغر، يضم الغلمان والخدم والحاشية الذين يخدمون السفراء ووصيفات لخدمة زوجاتهم. ووفقا للسجلات العثمانية الرسمية، فإنه في العام 1750 ضمت السفارة الهولندية ثمانية وثلاثين موظفا، والبريطانية خمسة وخمسين موظفا، والفرنسية ثمانية وسبعين موظفا، والبندقية 118 موظفا (منهم 50 كاهنا)، إذ كان مسموحا لمصليات السفارة، دون كنائس القسطنطينية، بأن تقرر أجراسها. وكانت السفارة الفرنسية تضم غرفة عرش تصطف على جدرانها صور ملوك فرنسا وسفرائها، وطاقم موظفين دائمين أكبر من أي سفارة فرنسية أخرى⁽¹²⁾.

كان السفير يصدر مراسيم تحمل الختم «سكرتيرنا الأول، المستشار وخاتم الأسلحة، بقصر فرنسا، بيرلا، القسطنطينية»، وكان يوصف عادة بأنه يذهب إلى الكنيسة بكامل حاشيته. وعندما ذهب إلى القديس في عيد الفصح في العام 1673، كان يتقدمه الخدم والانكشارية والترجمانات وشباب اللغة (وهم شبان أرسلوا إلى القسطنطينية بعد العام 1669 لدراسة اللغات الشرقية). ونظرا إلى ضيق الشوارع والانحدار الشديد للتلال الذي بُنيت فوقه بيرلا، فإن السفير لم يكن يتنقل بمركبة، بل كان يركب حصانا، ويرافقه أربعة خدم لابسين على طريقة اليونانيين، ويتبعه أهل بيته والتجار الفرنسيون بالمدينة «بعددنا الكبير جدا». ضمت دوائر السفارة، إضافة إلى المرصد، مطبعة وكنيسة سانت لويس دي فرنسيس ومحكمة وسجنا. أعطى نظام الامتيازات الذي عاش الأجانب بمقتضاه وفق قوانين بلادهم، السفير سلطة الحياة والموت على الرعايا الفرنسيين. وكانت جثة المقتول تتأرجح أحيانا على مشنقة منصوبة خارج الباب الرئيس للسفارة⁽¹³⁾. وكان من سلطة السفير الفرنسي أيضا أن يجهز سفينة بعشرين مدفعا لحماية الشحن الفرنسي في بحر إيجه، وكان له الحق قبل كل شيء في جمع المال من سفن القرصنة المجازة من دولته، التي كانت السفن الإنجليزية ضحاياها المعتادين⁽¹⁴⁾.

كان السفراء يتزاورون في المساء في حالة شبه ملكية، يرافقهم الحرس والخدم الذين يركضون حاملين المشاعل «وحاشية كبيرة من المرافقين والخدم... وكانوا حريصين إلى درجة الوسوسة على مراعاة التقاليد التي استقرت للتمييز بين درجاتهم وأسبقياتهم المختلفة ووفقا لعدد مرات قرع الجرس للإعلان عن مقدم سفير أو مبعوث أو قائم بأعمال»⁽¹⁵⁾.

كان دخول السفراء القسطنطينية يرافقهم الخدم والحرس وفرق تعزف الموسيقى ورايات مرفرفة، شيئا في قمة التفاخر. وصلت المدينة سفارة بولندية مكونة من ثلاثمائة نبيل وكاهن وجندي مشاة وخيال ومشاة عسكريين بأزياء صارخة الألوان وريش البلشون في قبعاتهم، في أوج التوتر العثماني - البولندي في العام 1677، أي قبل ستة أعوام من حصار فيينا. كانت الخيول مركبة في حوافرها حدوات فضية سائبة بما يكفي لكي تنخلع أمام الحشود المرهوبة. علق الصدر الأعظم قرّة مصطفى باشا على هذا المنظر قائلا إن السفارة كانت أصغر من أن تحاصر القسطنطينية، لكنها أكبر من أن تقبل عتبة الباب العالي، إذ خشي الباشا من أن يلوث العتبة احتكاك هذا العدد الكبير من الشفاه المسيحية، وأضاف أن السلطان لن يجد صعوبة في إطعام ثلاثمائة بولندي، إذا كان يمتلك حاليا ثلاثة آلاف بولندي بين عبيد القوادس⁽¹⁶⁾.

كانت الصدامات بين الصدور العظماء والسفراء الفرنسيين تكشف عن تصميم كل دولة على الفوز في حرب المكانة. كانت العلاقات بين الحليفين الاسمين قد تدهورت منذ العقد الثالث من القرن السابع عشر، جزئيا بسبب ميل السفراء الفرنسيين إلى التعامل مع سفاراتهم كمشروعات تجارية خاصة. فاستدان أحدهم وهو يحاول من القسطنطينية أن يدير التزاما جمركيا في ولاية حلب. وعمل آخرون، بلا نجاح عموما، في تجارة القمح.

كان جنون العظمة أيضا يكبل السفراء الفرنسيين. من ذلك أن مسيو دي مارشفيل Monsieur de Marcheville، شاهرا سيفه في يده، هاجم مجموعة من الانكشارية غير المسلحين لم تفسح له الطريق بسرعة كافية. وأعلنت السلطات العثمانية أنه مجنون وقرأت حكم إعدام السفير في حضور زملائه البندقي والهولندي والبريطاني (على الرغم من أنها لم تنفذه). وقام سفير آخر، هو كونت دي

سيبي Comte de Cesy بإطلاق طلقات مدافع كثيرة احتفالا بولادة لويس الرابع عشر المستقبلي في العام 1638، لدرجة أن الذعر تملك سيدات الحريم الإمبراطوري اللاتي كن يزرن حديقة إمبراطورية بالقرب من الترسانة، إذ اعتقدن أن القوزاق نزلوا إلى البر، أو أن المسيحيين في حالة ثورة. وفي العقد السادس من القرن السابع عشر، شهدت العلاقات بين البلدين مزيدا من التدهور، لأن الحكومة الفرنسية على الرغم من ادعائها صداقة الإمبراطورية العثمانية، كانت تقدم الرجال والمال للبندقية والإمبراطور الروماني المقدس في حروبهم ضد الإمبراطورية. فقد كان لويس الرابع عشر أحرص من معظم أسلافه على انتحال صفة بطل الكنيسة الكاثوليكية. وفي ذلك قال فاضل أحمد الكوبرولي: «ربما كان الفرنسيون أصدقاء قدامى، لكننا نجدهم دائما في صف أعدائنا». ولأن الكوبرولي كان أحكم من أن يعلن الحرب على فرنسا، فقد انتقم لدولته في ساحة معركة أخرى.

ففي المحادثة مع السفير البريطاني، كان الصدر الأعظم «متحررا ولطيفا جدا». بينما كان كلامه مقتضبا مع السفير الفرنسي أو مهينا له. وضرب أحد السفراء الفرنسيين بكرسي على رأسه. وعندما قدم مركيز دي نوينتيل احتراماته للسلطان في العام 1671، أنزل الحُجَاب رأسه بعنف لأسفل حتى خر واقعا أمام العرش. على أن هذا السلوك الذي سيطر على عقلية تلك الفترة وعلى المدينة، لم يمنع تجديد الامتيازات الفرنسية على نحو مواتٍ للفرنسيين في العام 1673⁽¹⁷⁾.

كانت الحكومة العثمانية في عهد فاضل أحمد الكوبرولي، ربما بسبب القلق من تنامي قوة الدول الأوروبية، أقسى من سابقتها مع الدبلوماسيين. من ذلك أن سفيرا روسيا رفض أن يسجد، فطرد من القصر الإمبراطوري بالضرب، لأنه لم ينحن بما يكفي، كما ضُرب السفير البولندي، بينما كان نصيب الترجمان النمساوي علقة بالفلكة. على أن قوة الإمبراطورية العثمانية وثراءها جعلتا معظم الحكومات تتحمل هذه المعاملة. لكن حادثة الصوفا كادت تؤدي إلى قطع العلاقات مع فرنسا.

إبان القرن السابع عشر، سمح أحد الصدور العظماء للسفراء بالجلوس على مقاعد فوق صوفته، أي منصة الشرف المرتفعة في غرفة استقباله. ثم جاء أشد الصدور العظماء كراهية للأجانب قرة مصطفى باشا وصمم على إيقاف هذه الإهانة. قال ألكسندر مافروكورداتو إن السفراء نالوا هذا الامتياز فقط بسبب صدر

أعظم معتل الصحة كان لا يستطيع أن يسمع السفير من المسافة الطبيعية. وفي الثاني من مايو 1677، منع الباشا ماركيز دي نوينتيل من وضع مقعده على الصوفا. وصاح فيه الموظفون العثمانيون «ابتعد، ابتعد، ابعد يا كافرا!» ولبضعة أيام، ظل السفير قيد الإقامة الإجمالية. وبعد خمسة أشهر، وافق نوينتيل مكرها على أن يضع مقعده أسفل الصوفا. وسرعان ما استدعاه لويس الرابع عشر الذي أزعجته أيضا عادة السفير في جمع ضرائب من التجار الفرنسيين للإنفاق على غط حياته الفخم في السفارة⁽¹⁸⁾.

وصل كونت دي غيلراغوس Comte de Guilleragues سفيرا لفرنسا في العام 1679، ومعه تعليمات بضمان احترام لويس الرابع عشر باعتباره «أعظم الأمراء المسيحيين وأقواهم وأفخمهم»، وأن يحافظ على «التحالف القديم بين أعظم وأقوى إمبراطوريتين في العالم». غير أن فرنسا واصلت التصرف كعدو للعثمانيين وليس كحليف لهم. ففي العام 1681، وردا على أعمال القرصنة من السفن المنطلقة من شمال أفريقيا، قصف أسطول فرنسي جزيرة خيوس، ما أدى إلى هدم مسجد وقتل مائتين وخمسين رعية عثمانية. وأرسل غيلراغوس معلومات خطط الحرب العثمانية سرا إلى أعداء الإمبراطورية في مالطا وبولندا. وبدلا من الجلوس أسفل الصوفا، ظل غيلراغوس واقفا، وهدده قرعة مصطفى بقلعة الأبراج السبعة، ورد عليه السفير بأن لويس الرابع عشر سيأتي ليفتح له بابها. وفرضت جزية أواني قدرها مائتين وخمسين ألف دوقية على التجار الفرنسيين^(*).

على أي حال، فقد تعرض الجيش العثماني المحاصر لفينا للهزيمة في العام 1683، وأعدم قرعة مصطفى نفسه. وفي السنة التالية، وفي واحدة من تلك الإيماءات التي تعلن عن نهاية عالم وانبثاق آخر، كما حدث مع أمير سالينا في رواية «النمر» الذي يدعو العمدة المحلي إلى العشاء في أثناء انهيار مملكتي صقلية^(**)، نال السفراء

(*) راجع معنى الأواني avanie في الفصل الخامس. [المترجم].

(**) تؤرخ رواية النمر The Leopard (أو آل غاتوبرادو باللغة الإيطالية) للروائي الإيطالي جوسيبي توماسي Giuseppe Tomasi التغييرات التي لحقت بالمجتمع الصقلي وغط حياته في أثناء عملية توحيد إيطاليا من خلال سرد التحولات التي أجبرت أمير سالينا دون فابريزيو كوربيرا Fabrizio Corbera على الاختيار بين التمسك بقيم الطبقة العليا أو إهدار التقاليد للحفاظ على نفوذ عائلته بالتنزيل من مكانته، ومن ذلك دعوته للعمدة المحلي «العامي» على العشاء. والتناظر هنا بين أمير سالينا والإمبراطورية العثمانية من جانب، والسفراء الأجانب والعامّة من جانب آخر. [المترجم].

الحق في الجلوس على الصوفا. كما حققوا انتصارا آخر في مقابلاتهم في غرفة عرش السلطان، إذ أخذ معظم السفراء منذ ذلك الوقت فصاعدا يقفون منتصبين بينما يحاول الحُجَّاب إنزال رؤوسهم أمام السلطان، حيث «كانوا يحتفظون بانتصابهم بكل ما فيهم من قوة»⁽¹⁹⁾.

أنعشت النجاحات النمساوية بعد الهزيمة العثمانية على أسوار فيينا في العام 1683، الصداقة بين فرنسا والإمبراطورية العثمانية. فقد جمعت الدولتان العداوة لآل النمسا، وحظر لويس الرابع عشر على السفراء رسميا أن يفرضوا ضرائب على التجار الفرنسيين. أثر التحالف الفرنسي- العثماني على معظم جوانب السياسة الأوروبية. كان من الأسباب التي دفعت لويس الرابع عشر إلى الهجوم عبر الراين في العام 1688، تاركا لوليام الأورانجي الحرية لغزو إنجلترا من هولندا واعتلاء عرشها بدلا من جيمس الثاني^(*)، الرغبة في تخفيف الضغط الهابسبرغي على الإمبراطورية العثمانية. وتوثقت العلاقات بين الدولتين كثيرا، لدرجة أن السفير الفرنسي مسيو دي شاتونيف Monsieur de Chateauneuf (أو ماهوت Mahout كما أطلق عليه أصدقاؤه العثمانيون) كان ينتقل إلى إدرة ليظل قريبا من السلطان والصدر الأعظم، وكان عموما يرتدي ملابس عثمانية.

وفي العام 1699، بعد عقد معاهدة كارلوفيتز بين الإمبراطوريتين العثمانية والهابسبرغية، حل مركز دي فيريول Maruis de Ferriol الذي خدم في الجيوش العثمانية في أثناء حملاتها ضد النمساويين في العقد الأخير من القرن السابع عشر محل شاتونيف. ولم تنجح آماله باستعادة الهيبة الفرنسية بسبب حادثة السيف affaire de l'épée. ربما أراد شاتونيف إحراج وريثه حين سجل أنه كان يذهب إلى مقابلات السلطان مرتديا خنجرا تحت سترته. ولذلك أصر فيريول في مقابلة له مع السلطان في الخامس من يناير 1700 على أن يرتدي السيف، كما لو كان أحد رجال الحاشية في فيرساي، على الرغم من أن أحدا في القصر العثماني، ولا الصدر الأعظم نفسه، كان يظهر مسلحا في حضرة السلطان.

تناول السفير الطعام مع الصدر الأعظم، وارتدى قفطانا وتقدم نحو غرفة عرش السلطان. طلب منه الترجمان مافروكورداتو بصوت مرتجف أن يترك سيفه، فأقسم

(*) راجع حاشية سابقة للمترجم حول وليام الأورانجي واعتلائه عرش إنجلترا. [المترجم].

فيريول بأنه سيقاقل لآخر قطرة من دمه إذا حاول أحدهم أن يأخذ سيفه. واعتبر أنه يدافع عن شرف سيده وكل السفراء لدى الباب العالي. رد عليه الصدر الأعظم أمجد زاده حسين باشا بصوت رجل الحاشية القادم عبر العصور بأن «هذا الاغتصاب للمراسم غير مسموح به في البلاطات المنضبطة». وظل كبار المسؤولين العثمانيين يؤكدون لفيريول أنه لم يسبق لأي سفير فرنسي أن وضع سيفاً في خصره في حضرة السلطان. لكنه ظل على عناده قائلاً إن حياته لا تساوي شيئاً في اللحظة التي يهدد فيها الخطر كرامة السفير وإنفاذ أوامر ملك فرنسا. على بعد بضعة أمتار، كان السلطان الذي جاء خصيصاً من إدرة لهذه المقابلة، ينتظر على العرش.

وأخيراً، جرب الصدر الأعظم الحيلة، وأخبر فيريول بأنه يمكن أن يتقدم إلى غرفة العرش. وفي الدهليز، انقض كبر الحرس لنزع السلاح المهين، فلكمه السفير في بطنه. وغداً باب السعادة الساكن عادة يضج بالجدال. وصاح فيريول بامتعاض إلى مافروكورداتو: «أهكذا تنتهكون قانون الأمم؟ هل نحن أصدقاء أم أعداء؟»، فأجابه مافروكورداتو الذي يرتعد خوفاً وفزعاً بصوت هامس: «أصدقاء، لكنك لا تستطيع أن تدخل بسيفك... يجب أن تتكيف مع المراسم وآداب السلوك المتبعة في البلد الذي توجد فيه». وأخيراً، طلب رئيس الخصيان الأبيض من السفير أن يرجع إلى حيث جاء. فخلع السفير وحاشيته القفاطين، واستردوا ساعة حائط ومراة كانوا قد أحضروهما هدايا للسلطان، وعادوا إلى السفارة الفرنسية عبر الشوارع المزدهمة. ولم يعد فيريول إلى القصر حتى غادر القسطنطينية بعد أحد عشر عاماً⁽²⁰⁾.

بلغ جنون العظمة بفيريول أن أمر ببناء قارب كياك مثل قارب السلطان، مزينا من أحد طرفيه بمقصورة مذهب ومبطنة بالحرير الأرجواني. عندما ظهر القارب لأول مرة في الميناء، أمر البستانجي باشا بتحطيمه وضرب طاقمه. بعدها، ظل السفير في كل مرة يذهب فيها من السفارة إلى الباب العالي، يقطع رحلة طويلة على البر حول القرن الذهبي حتى لا يعبره في مركب أقل فخامة. وعلى الرغم من ذلك، فقد أحب فيريول العالم العثماني، فكان يرتدي عمامة وملابس عثمانية داخل السفارة الفرنسية، وحتى في أثناء إقامة القداس.

كان من الأسباب التي جعلت فيريول انفعالياً أن السفارة في القسطنطينية كانت منصبا يتطلب مهارات استثنائية. وقد جذبت سفراء في مقدرة هوبكن Hoepken

(السويد) وفيرجين Vergennes وثوفنيل Thouvenel (فرنسا) وثوغوت Thugut (النمسا)، الذين أصبحوا جميعاً وزراء خارجية لدولهم لاحقاً. وفي العام 1707، كتب فيريول: «إنني أجد نفسي هنا في مركز العالم. وأجدي مضطراً إلى التعامل مع شؤون المجر وبلاد فارس والقرم، السياسية والدينية والتجارية، والمسائل المثارة في أنحاء هذه الإمبراطورية كافة وفي بولندا وموسكو وإيطاليا وغيرها». وكان عليه أيضاً، مثل زملائه من السفراء، أن يتعامل مع العبيد المسيحيين الهاربين الذين يلجأون إلى سفارته (كانوا يُهرَّبون عادة إلى سفن في الميناء ومنها إلى الحرية). ولاحقاً، تأسى أحد السفراء قائلاً: «في القسطنطينية لا يتم المرء عملاً واحداً. فالأمور البسيطة في الأماكن الأخرى معقدة هنا».

كان الدين أحد الاهتمامات الأساسية للسفير الفرنسي. وإبان أوائل القرن السابع عشر، غدت القسطنطينية ساحة حرب بين البروتستانت والكاثوليك، وكذلك بين الإمبراطورية العثمانية وأعدائها. وكان السفير الفرنسي الداعم لمحاولات اليسوعيين السيطرة على البطيركية، يعارض السفيرين الهولندي والبريطاني اللذين كانا يؤيدان البروتستانت. وأسهم السفير البريطاني في طرد اليسوعيين لفترة مؤقتة. وأسهمت دسائس اليسوعيين في الاضطرابات التي شهدتها شوارع غَلَطَة وتدمير المطبعة اليونانية في العام 1626 وقتل البطيريك سيريل لوكاريس Cyril Lucaris بأمر الصدر الأعظم في العام 1638⁽²¹⁾.

لكن بعد العام 1660، جرب الكاثوليك طرقاً أكثر ليناً. فنجح المبشرون في تحويل الأرمن إلى الكاثوليك الأرمن، من خلال الاحتفاظ بالشعائر الأرمنية لكن مع الاعتراف بسلطة البابا. لعل ما جذب الأرمن إلى ذلك التحول هو أنه خَفَضَ ما كانوا يدفعونه لكهنتهم، كما أنقص فترة الصيام إلى أربعين يوماً من مائتين وأربعين يوماً في السنة. وفي العام 1691، ابتهج الكاثوليك الأرمن الذين سرعان ما شملتهم حماية السفارة الفرنسية، بالانتصارات الفرنسية، كأنهم كانوا هم أنفسهم فرنسيين^(*). وسيطر الذعر على الأرمن الأرثوذكس. وفي العام 1707، اتهم البطيريك الأرمني أفيديك Avedik في ديوان الصدر الأعظم، كاهنا يدعى غوميداس Gomidas تحوّل إلى

(*) على الرغم من أن فرنسا لويس الرابع عشر حققت انتصارات أولية في بداية حرب الحلف الكبير ضد تحالف آل هابسبرغ، فقد كانت الهزيمة النهائية من نصيبها. [المترجم].

الكاثوليكية بالقول: «ثمة خطر عظيم بأن الأمة كلها ستلحق سريعا بأمة الفرنجة، وسوف يشكلون في إمبراطوريتك عدوا داخليا». وأعدم الكاهن. وانتقم فيريول من البطريك بأن اختطفه من القسطنطينية في العام 1707 وأرسله إلى فرنسا التي سجن فيها. وفي العام 1710، عاد فيريول إلى فرنسا. وحين جاء الخبر إلى صدر أعظم لاحق بأن فيريول قد أصابه الجنون، رد الصدر الأعظم بأن فيريول كان مجنونا عندما وصل إلى القسطنطينية⁽²²⁾. لكن ربما كان «الجنون» وسيلة لتمكين هذا السفير الذي كانت تعوزه اللباقة من الانسحاب من دون أن يفقد ماء وجهه.

وبعد رحيل فيريول، ساعدت سلسلة من السفراء المتمكنين فرنسا من استئناف دورها باعتبارها الحليف العثماني الأساسي. وفي العام 1724، توسط السفير الفرنسي، عبر سلسلة من المؤتمرات عقدت في القسطنطينية، جهود عقد معاهدات سلام بين الإمبراطورية العثمانية وكل من روسيا وبلاد فارس. ترك ذلك انطبعا عظيمًا في الصدر الأعظم حتى إنه اقترح إقامة حلف بين الإمبراطورية وفرنسا وروسيا. وفي السنة نفسها، قال الصدر الأعظم للسفير الفرنسي الجديد فيكونت داندريزيل Vicomte d'Andrezel في غرفة الديوان بالفناء الثاني من القصر:

كان من المبهج جدا أن إمبراطورية فرنسا ظلت لوقت طويل ترتبط
بصداقة حميمة من باب السعادة المرتبط بالخلود... وقال وهو يتوجه نحو
نائبه: حقا إن فرنسا وإمبراطوريتنا متفقتان في كل شيء، وإن كان ثمة اختلاف
بيننا فهو الدين فقط. واستأنف حديثه قائلا: إنني أكنّ احتراما خاصا لإمبراطور
فرنسا الذي تربطنا به قرابة دم لأن واحدا من سلاطيننا الأوائل تزوج أميرة من
الدم الملكي الفرنسي، ولن أدخر جهدا لإسعاد سفيره ورعاياه الآخرين.

وداعب الصدر الأعظم ضاحكا ولدي السفير اللذين سُمح لهما بالجلوس على
الصوفا، وطلب من الخادم أن يربط منديلين مطرزين حول رقبتيهما، وقدم ألفا
من التبريكات للملك الذي تمنى له عهدا طويلا ومحظوظا مثل عهد سلفه لويس
الرابع عشر⁽²³⁾.

قدمت فرنسا العون للعثمانيين في حروبهم ضد روسيا والنمسا في الأعوام
1736 - 1739 التي استعادت فيها الإمبراطورية العثمانية بلغراد. وبداية من
العام 1740، أخذ اثنان وعشرون من ضباط المدفعية الفرنسيين يساعدون في

إدخال تكتيكات المدفعية الحديثة إلى فرع من الجيش العثماني تحت إشراف أحمد باشا، تلك الشخصية الرائعة وغير المركزية. فالباشا الذي ولد باسم كونت دي بونفال Comte de Bonneval خدم النظام الفرنسي والنظام الهابسبرغي، إلى أن فر إلى الإمبراطورية العثمانية في العام 1729 واعتنق الإسلام. وفي العام 1731، كُلف بمهمة إصلاح سلاح المدفعية. من بيته في بيرا، كان بونفال يقدم النصح للسفيرين الفرنسي والسويدي، وكذلك للصدر الأعظم والرئيس أفندي في الاجتماعات بالباب العالي حول مسار الدبلوماسية العثمانية. وكان توسع روسيا في حكم ورثة بيتر الأكبر شاغلهم الأساسي.

كان الخوف من روسيا قد دفع الإمبراطورية إلى مصادقة شارلز الثاني عشر ملك السويد (*). كان خلفه الملك فريدريك الأول قد خدم في الجيش النمساوي مع بونفال في أوائل القرن الثامن عشر. وقد حثه بونفال في رسائل أرسلت من القسطنطينية إلى استوكهولم بين العامين 1733 و1745 (توفي في العام 1747) على إقامة تحالف عثماني-سويدي وشن الحرب على روسيا وبلاد فارس بالتعاون مع الإمبراطورية المغولية والخانيات الأوزبكية (**). ثمة تشوش واضح في هوية بونفال جعله يكتب رسائل إطراء مطولة إلى الملك أو وزير الخارجية السويدي ويوقعها إما بالصيغة le comte de bonneval; le tres humble et tres obeissant serviteur le comte de bonneval, beylierbey de karamanie (كونت دي بونفال، الخادم المتواضع والمطيع، كونت بونفال، بليرباي قرمان) أو le tres humble et tres obeissant serviteur, ahmet pacha, Beylierbey de Cararmanie, vulgo le comte de bonneval (الخادم المتواضع والمطيع أحمد باشا، بليرباي قرمان، كونت دي بونفال سابقاً) (24).

(*) حكم شارلز الثاني عشر السويد من ملجنه في الأراضي العثمانية، من بندر Bender بمولدافيا بين العامين 1708 و1715. [المؤلف].

(**) بعد الفتح العربي لآسيا الوسطى بقيادة قتيبة بن مسلم، وبعد الهزيمة العربية للجيش الصيني في معركة طلاس في العام 750، توالى على آسيا الوسطى ممالك كثيرة منها السامانيون والصقاريون ثم خانية القرخطاي ثم آلت إلى المغول بعد غزو تيمورلنك لها، وبحلول العام 1510 كان الأوزبك، وهم مسلمون من أهل السنة، قد سيطروا على المنطقة وأسسوا خانية بخارى التي غطى سلطانها منطقة ما وراء النهر، خاصة منطقة طشقند ووادي فرغانة وشمال أفغانستان، كما أسسوا خانية خيوة Khiva في واحة خوارزم، ودخلوا في صراع مع الصفويين في إيران لأسباب توسعية ومذهبية. وفي أواسط القرن التاسع عشر وقعت هذه الخانيات فريسة للاحتلال الروسي، بدءاً بطشقند في العام 1865، ثم بخارى في العام 1867، ثم سمرقند في العام 1868، وأخيراً خيوة في العام 1876. [المترجم].

وفي الوقت نفسه، حاولت الحكومة الفرنسية أن تستخدم الكونت بالتعاون مع السفير الفرنسي لإقناع الباب العالي بأن من مصلحته مهاجمة مملكة هابسبرغ التي كانت فرنسا في حالة حرب معها من العام 1740 إلى العام 1748. لكن بونفال والباب العالي أدركا أن فرنسا ترغب في توريط الإمبراطورية العثمانية في الحرب لكي تتمكن من الخروج منها بصلح أفضل فقط. علاوة على أن الباب العالي شعر بالمهانة من الرفض الفرنسي لعرضه الوساطة في حرب الخلافة النمساوية في العام 1745⁽²⁵⁾ (*).

على خلاف الكثير من الدبلوماسيين الأجانب، لم يقلل بونفال من قدر الإمبراطورية، وامتدح خزانها العامرة، وفي العام 1735 أشار إلى «الإمبراطورية التي في صلابتها السلطان». ووقعت معاهدة بين الإمبراطورية العثمانية والسويد في العام 1740. وفي مقابلته للسفير السويدي في العام 1744، قال السلطان إن «الملك ومملكة السويد» - وهي عبارة تكشف معرفته بأن سلطة الملك كانت محدودة مقارنة بسلطة البرلمان - ليسوا في قلبه مثل الأمراء المسيحيين الآخرين، «بل في صميم قلبه»⁽²⁶⁾.

كان كونت دي فيرجين أحد أبرز السفراء الفرنسيين إلى الباب العالي العثماني. في مقابلته الأولى للسلطان في العام 1755، وصف السلطان لويس الخامس عشر بـ «الحليف الأقدم والأوفى للإمبراطورية العثمانية». لكنه لم يعد تحالفا بين ندين، إذ كانت الإمبراطورية العثمانية تتخلف عن الدول الأوروبية في التقنية العسكرية والقوة الاقتصادية. وفي العام 1766، حذر فيرجين وزير الخارجية دوق دو شوازيل Duc de Choiseul من أن الإمبراطورية إذا لم تصلح نفسها، فسوف تسقط في «هاوية المحن والاحتقار والتقسيم». على أي حال، فقد ظلت باريس والقسطنطينية تشتركان في المخاوف نفسها. وكما كان رأي بونفال، اعتبر شوازيل أن توازن القوة في أوروبا وأمن حليفتي فرنسا بولندا والسويد يتعرض للتهديد بصعود روسيا. وطلب من فيرجين أن يقنع الإمبراطورية العثمانية بأن تهاجم جارتها الشمالية: روسيا. وفي أوائل العام 1768، كان كل من السلطان نفسه والرأي العام في العاصمة - الذي أصبح قوة فعالة جدا - غاضبين - من دون تحريض من أحد - من مذبحة

(*) راجع حاشية سابقة للمترجم حول حرب الخلافة النمساوية (1740 - 1748). [المترجم].

نفذتها القوات الروسية بحق المسلمين على الأراضي العثمانية ومن استمرار وجود عدة آلاف من الجنود الروس في بولندا ووارسو. ودون حاجة إلى تشجيع فرنسي، أعلن «المجلس الاستشاري العالي» تأييده للحرب. وفي السادس من أكتوبر استقبل الصدر الأعظم السفير الروسي، بعد أن تركه ينتظر نصف ساعة، بكلمات قالها كل جيران روسيا خلال القرنين التاليين بصدق مماثل: «خائن! خائن بقسمه!... ألا تخجل أمام الله وأمام الناس من الأعمال الوحشية التي يقترفها أبناء جلدتك في بلاد لا تتبعكم؟» وسُجن السفير في قلعة الأبراج السبعة، وإن أطلق سراحه لاحقاً بتدخل من السفير الفرنسي.

أفسد الضعف الخارجي للإمبراطورية العلاقات بين الجماعات في المدينة. من ذلك أنه في بداية الحملة التي خرجت في مارس 1769، وقف ديبلوماسيون نمساويون يتفرجون على الراية الشريفة للنبي محمد تجوب شوارع القسطنطينية^(*)، فتحوّلت إليهم مجموعة هائجة من الغوغاء وكادوا يفتكون بهم. وحين أسرع النمساويون بالعودة إلى بيرا في حماية حراسهم الانكشاريين، تحوّل الغوغاء - للمرة الأولى - إلى المسيحيين المحليين، وقتلوا الكثيرين منهم، ونهبوا دكاكينهم.

كانت نتيجة الحرب كارثة بالنسبة إلى الإمبراطورية العثمانية، وكذلك لبولندا التي قُسمت لأول مرة بين النمسا وبروسيا وروسيا. وفي أغسطس 1769، ومن باب العقاب على عدم الكفاءة والفساد، عُرضت رؤوس الصدر الأعظم وأمير مولدافيا والترجمان أمام القصر. وفي العام 1770، انتزع الجيش الروسي مولدافيا وولاشيا. ومسح أسطول روسي بحر إيجه وشجع ثورة يونانية في شبه جزيرة بيلوبونيز، وحطم أسطولاً عثمانياً بالقرب من خيوس، وحاصر الدردنيل. وللمرة الأولى منذ العام 1656، باتت القسطنطينية نفسها معرضة للتهديد^(**). وأخذ السخط يعمّ الخانات⁽²⁷⁾.

(*) ظهرت الراية الشريفة التي يعتقد أنها تخص النبي محمداً أو ترجع إلى زمنه - وإن لم يكن من المعلوم كيف وصلت إلى أيدي العثمانيين - لأول مرة في حرب ضد آل هابسبرغ النمساويين في العام 1593، وفي الحرب على المجر في العام 1594، واستخدمها محمد الثالث عندما انتصر في حصار قلعة إغر Eger المجرية، وصارت قائل نصر للجيش العثماني. كان السلطان العثماني إذا خرج للحرب أو أرسل جيشه في حملة، يدخل إلى حجرة أثر النبي ويخرج الراية الشريفة من الصندوق ويحملها إلى قاعة العرش وسط تكبيرات الحضور، وفي قاعة العرش يقبل السلطان الراية في حضور الصدر الأعظم وشيخ الإسلام ثم يسلمها إلى الصدر الأعظم قائلا: «أستودعك الراية الشريفة وأستودعكم الله الذي أدعوه أن ينصر»، وبعد المعركة كانت تعاد إلى الصندوق وسط تراتيل قرآنية وحرق البخور. [المترجم].

(**) في المرة الأولى، حاصر أسطول البندقية الدردنيل، وفر أربعة آلاف من عبيد القوادس العثمانية وانضموا إلى البنادقة، وهجر الناس المدينة خوفاً من القادم. [المترجم].

ساعد المجري بارون دي توت Baron de Tott الذي كان من محاسيب فيرجين وائتمنه السلطان وآواه، في تنظيم دفاعات المدينة، وأشرف على تحديث الحصون التي تحرس مداخل البسفور والدردنيل وبناء بطاريات دفاعية. وبغرض منع الحكومة العثمانية من عقد صلح كارثي مع روسيا، ساعد السفير الفرنسي كونت دي سانت بريست Comte de Saint-Priest في توريد الغلال إلى المدينة بالالتفاف على الحصار الروسي للدردنيل. وبمساعدة اسكتلندي اعتنق الإسلام يدعى أرثشبولد كامبل Archibald Campbell ويعرفه الأتراك خطأ بالاسم «مصطفى الإنجليزي»^(*)، أنشأ بارون دي توت أيضا مسابك لصنع المدافع ومدرسة لتعليم الرياضيات للأسطول.

كان أوكميدان Okmeydan واديا يقع إلى شمال الترسانة، تتناثر فيه معالم مرمية رائعة تخلد المسافات التي كانت أسهم السلاطين تقطعها في مسابقات الرماية. وبداية من العام 1773، أخذ المكان يدوي، ليس بحفيف الأسهم التي تشق الرياح، بل بهدير المدفعية الحديثة. وقُدمت دورات تدريبية، شاهدها حشود من المواطنين والسفير الفرنسي والسلطان مصطفى الثالث نفسه. مُنع الأسطول الروسي من الوصول إلى مياه المدينة، لكن إلى متى؟ وقال بارون دي توت للرئيس أفندي إن الحرب التالية قد تؤدي إلى طرد العثمانيين من القسطنطينية. ووفقا لتوت، فإن الأفندي «نظر فورا من خلال النافذة»، وبعد أن ألقى نظرة على ساحل آسيا، أجابه «توجد هناك بعض الوديان المبهجة»، واستدار إلي مبتسما: «سنبني هناك أكشاكا مبهجة».

أدرك مصطفى الثالث، النشاط والحاضر دائما الذي كان يكثر من زيارة مكاتب الباب العالي، أن الجيش كان في حاجة إلى إصلاح جذري. يصف بارون دي توت السلطان بأنه: «يكرس وقته جله للعمل، ودائما ما تجده مدفونا بين أوراقه... وعندما كان رجاله يقولون له إن هذا الانتباه المتواصل مضر لصحته، كان يجيبهم: انكبائي على العمل لا غنى عنه لأن أحدا منكم لا يفهم كيف يقوم بالعمل»⁽²⁸⁾. في محادثة بالشعر مع مستشاريه، أبدى السلطان انزعاجه:

(*) وصفه مسؤول بالسفارة بأنه «رفيق ذكي وفاضل»، جاء إلى القسطنطينية، و«لا أحد يعرف سبب مجيئه». [المؤلف].

إن العالم في تدهور. ولا تظنوا أنه سيسير في مصلحتنا.
لقد أسلم القدر الوضع الدولة إلى الوضعاء.
اليوم كل الرجال ذوي المراتب العليا جبناء.
لا شيء يبقى لنا غير الأسى الأبدي.

فأنكر المفتي مسؤوليته:

حقا الدولة الدنيوية باتت في قبضة الوضعاء،
ولن يتأتى النظام بالتفكير الصادق،
حتى أوراق الشجر والمطر أصبحت غنيمة الجبناء.
ندعو الله أن تروي الشريعة حديقة الدولة!

وأبدي الصدر الأعظم يأسه:

ما رغباتكم الدنيوية التي لا تنقطع هذه؟
تدور العجلة دورتها الأبدية.
لا تبتئس يا قلبي، فإن الجبان يجد لحظة بهجة
فقد أعطى الخالق العالم الوضع للوضعاء.

انعكس تدهور الإمبراطورية في صعود قوة السفراء في القسطنطينية. فغدا
الصدر الأعظم يستشير كلا من السفير الفرنسي والنمساوي في اجتماعات ليلية
سرية في الأكشاك المطلّة على البسفور فضلا عن المقابلات النهارية في الباب العالي.
وكان السفراء الغربيون من خلال بيع العضوية القنصلية الفخرية لمنح الحماية
لأفراد الأقليات الأثرياء، يسهمون في إضعاف سلطة السلطان على رعاياه. في العام
1774، وبعد عقد اتفاقية سلام من خلال الوساطة النمساوية، دخلت سفارة روسية
القسطنطينية دخول جيش فاتح. دخل السفير الأمير ريبنين Prince Repnin في
ستمائة رجل من الحاشية والخدم والحرس «ينشرون الرايات ويعزفون الموسيقى
ويدقون الطبول، ويحمل ضباط المشاة البنادق في وضع كتفا سلاح، ويضع الفرسان
القربينات (Carbines) على ركبهم، ويسير المشاة رافعين الحراب، والفرسان حاملين
البنادق بدلا من السيوف، لكن بلا حراب». نقل سبعون قاربا من مراكب الكياك
ذات الستة مجاديف وقارب ذو أربعة عشر مجدافا للسفير، السفارة من غَلطة إلى
الباب العالي على الجانب الآخر من القرن الذهبي⁽²⁹⁾.

لم تخفِ روسيا والنمسا مكائدهما ضد الإمبراطورية العثمانية. من ذلك أن كاترين الثانية، في العام 1779، مدفوعة بالأحلام الروسية القديمة، وقبل كل شيء برغبتها الشخصية في المجد، أطلقت على حفيدها الثاني اسما كان برنامجا سياسيا في ذاته: قسطنطين. وأُعطي الطفل لمربيات يونانيات، وبداية من العام 1780 ناقشت مع الإمبراطور الروماني المقدس جوزيف الثاني «مشروعها اليوناني» الذي يقوم على تقسيم الإمبراطورية العثمانية في أوروبا بينهما، وإحياء الإمبراطورية البيزنطية في القسطنطينية، وأن يكون قسطنطين إمبراطورا لها. تأكد التهديد الروسي في العام 1783 بضمها القرم التي كان العثمانيون يعتبرونها المدخل إلى القسطنطينية⁽³⁰⁾، ولم يعد البحر الأسود بحيرة عثمانية. ومنذ ذلك الوقت فصاعدا، أخذ الاهتمام الروسي بالعاصمة العثمانية يتنامى مع نمو التجارة الروسية عبر البسفور والدردنيل.

وفي العام 1784، رد لويس السادس عشر وفيرجين الذي أصبح وزير خارجية فرنسا على العمل الروسي بإرسال الشاب المتعلم من الحاشية كونت دي شوازيل جوفير Comte de Choiseul-Gouffier سفيرا إلى القسطنطينية. كان هذا الكونت الشاب بالنسبة إلى الكاتب الساخر المبغض للبشر شامفور Chamfort: «إنه واحد من تلك الكائنات التي ساعدت بفضائلها وتواصلها في أن تصالحي مع الجنس البشري»، وكان بالنسبة إلى تاليران «الرجل الذي أحببته أشد ما يكون الحب»، والصديق الوحيد الذي لم يخنه. لكنه كان مع ذلك اختيارا مفاجئا كسفير فرنسي في القسطنطينية لأن الصدر الأعظم كان يرتاب في أنه موال للنمسا. وعلاوة على ذلك، كان شوازيل كلاسيكيا يعشق الماضي اليوناني. في كلمته التصديرية لكتابه عن رحلاته إلى اليونان الذي نشر في العام 1782، وصف «المشروع اليوناني» بأنه غاية نبيلة وعظيمة، وتساءل: «كيف يمكن للمرء أن ينظر بلا سخط إلى استقرار المسلمين الأغبياء على خرائب إسبرطة وأثينا ويفرضون عليها جزية العبودية في هدوء؟»، وجد زميله البريطاني سير روبرت إينزلي أن من واجبه أن يلفت انتباه الصدر الأعظم إلى الجملة. وفي عمل تكفيري غال، استعاض شوازيل جوفير عن هذه الكلمة بمقدمة مختلفة، طُبعت في مطبعة السفارة. وزعم للباب العالي أن كل النسخ الأخرى كانت مزورة.

اتبع شوازيل جوفير سياسة لويس السادس عشر وفيرجين بأمانة، إذ كانا مصممين على دعم الإمبراطورية العثمانية - كما كتب فيرجين - «بكل الوسائل التي باستطاعته [الملك]». كانت لدى لويس السادس عشر وفيرجين رؤية عمرها خمسون عاما. جاءت تعليمات فيرجين الرسمية إلى شوازيل جوفير بأن «يوفر الدافع لإحداث ثورة في الإمبراطورية، وأن يعود الحكومة التركية البحث عن التعليم الذي تحتاج إليه، وأن تستعين بالرجال المتعلمين من الخارج إلى أن تتعلم الأمة⁽³¹⁾».

أحضر شوازيل جوفير هيئة عسكرية وبحرية مكونة من ثلاثين ضابطا لمساعدة الإمبراطورية العثمانية في تحديث قواتها المسلحة (فضلا عن الرسامين جان باتيست هيلير Jean-Baptiste Hilair ولوي فرانسوا كازاس Louis-Francois Cassas اللذين كان يدفع لهما من ماله الخاص). وفي العام 1783، افتتحت مدرسة حديثة للهندسة العسكرية بمعلمين فرنسيين، وكان القبطان باشا نفسه يحضر مقررات التحصينات أحيانا، وقام مهندسون فرنسيون بتقوية الحصون التي تدافع عن مدخل البسفور. وفي مطبعة السفارة الفرنسية، طبعت الأعمال حول المناورات البحرية وفن الحرب والقواعد النحوية العثمانية باللغة العثمانية. وأكمل المهندسان كوفر Kauffer ولوشيفالير Le Chevalier أول خريطة دقيقة للمدينة في العام 1786. وبدأ المهندسون الفرنسيون العمل في الترسانة الكائنة على القرن الذهبي، وساعدوا في بناء سفينة حديثة، دُشنت بحضور السلطان في الثلاثين من مايو 1787⁽³²⁾.

أثبت شوازيل جوفير أنه ديبلوماسي مقتدر اشتهر بأنه حين كان يثار كلام عن استدعائه إلى بلاده، كان الصدر الأعظم يكتب إلى لويس السادس عشر يثني على حماسه «للمصداقة التي تجمع هذه الإمبراطورية المهيبية وبلاط فرنسا»، ويطلب منه أن يبقيه. تحلى شوازيل جوفير بالقدرة على الاحتفاظ برباطة جأشه في أصعب الظروف. ففي أحد المؤتمرات، وضع الأسد الذي كان القبطان باشا يربيه، رأسه على حجر شوازيل جوفير، فما كان من السفير إلا أن غنى له *il est beau, fort beau* [نونا نونا هو، أنت جميلة، أنت جميلة^(*)] وواصل كلامه⁽³³⁾.

وفي السابع عشر من أغسطس 1787، دُفع الباب العالي ثانية بفعل الرأي العام في المدينة وبتحريض مما وصفها شوازيل جوفير *les perfides Conseils du*

(*) تهويده مما يغنى للأطفال. [المترجم].

Chevalier Ainslie [نصيحة غادرة من شيفالير إينزلي]، إلى إعلان الحرب على روسيا. حصل العلماء في «مجلس الشورى» على رضى قدرها ثمانون ألف دوقية هولندية لإعطاء موافقتهم. كان من أسباب اندلاع الحرب رفض روسيا إعادة ألكسندر مافروكورداتو أمير مولدافيا الذي فر من ياش في وقت سابق من ذلك العام بتدبير القنصل الروسي. أغضب ذلك الحكومة الفرنسية التي كانت قد بدأت أخيرا تقاربا مع روسيا (ومن هنا جاء حماس إينزلي لهجوم عثماني على تلك الإمبراطورية). كشف لويس السادس عشر عن واقعيته وتفضيله للسلام في رسالة بتاريخ العشرين من مايو 1787 إلى الشاب سليم أفندي ولي العهد الذي كان شوازيل جوفير يتواصل معه سرا: «لقد أرسلنا إلى القسطنطينية على نفقتنا صناعات وضباطا لإعطاء المسلمين عروضاً عملية وأمثلة لكل جوانب فن الحرب... الحرب التي أصبحت علماً معقداً جداً، وتكلف من يسعى إليها دون أن يكون في مستوى الخصوم خسائر فادحة». كان شوازيل جوفير يخشى من أن تكون الحرب كارثة للتجارة الفرنسية في المشرق والآلاف الذين يعيشون في المنتصف، وحذر الرئيس أفندي مرارا وتكراراً من عواقبها الممكنة. وشكره المسؤول العثماني على نصيحته.

تغلّبت اتهامات روسيا بـ «الغطرسة» و «الطموح الجارف» و «سوء النية المثير للقرى»، على التقييم الواقعي لتوازن القوة. كان انهيار الإمبراطورية العثمانية، ولو كحيلة بلاغية فقط، متوقعا داخل الباب العالي نفسه. يذكر شوازيل جوفير أن رئيس الكتاب أخبره بأنه إذا كان الله قد قدر «خراب هذه الإمبراطورية، فإن المسلمين كانوا على الأقل مهينين لأن يموتوا بحماس وأن يفضلوا الموت الشريف على الخزي وعلى صنوف العذاب الطويل والمؤلم التي كان الروس الغادرون يدخرونها لهم»⁽³⁴⁾.

سُحب الضباط الفرنسيون من القسطنطينية في وسط العام 1788، بعد ستة أشهر من إعلان النمسا الحرب هي الأخرى على الإمبراطورية العثمانية. أنهت الحرب واندلاع الثورة العنيفة في فرنسا في العام 1789 خطة لويس السادس عشر للثورة السلمية في الإمبراطورية العثمانية. وانتهت الحرب في العام 1792 بهزيمة العثمانيين وفقد حصن أوشاكوف Ochakov العظيم على البحر الأسود. كانت حدود روسيا تقترب شيئاً فشيئاً من القسطنطينية.

وفي الرابع والعشرين من سبتمبر 1792، بعد إسقاط لويس السادس عشر، استقال شوازيل جوفير من منصب السفير الفرنسي، وأعلن أسفه وامتنانه و«ولاءه للباب العالي». وحصّن نفسه في قصر فرنسا^(*)، وأخذ ينتظر ما تأتي به الأيام، محاطا بحراس من الألبان. وبعد تصويت من التجار الفرنسيين بالمدينة على قبول الجمهورية الفرنسية، غادر المدينة في العام 1793 ومعه تحفه التي تنتمي إلى العصور القديمة وفضيات السفارة إلى سانت بطرسبرغ التي عُيّن فيها مديرا للمكتبة الإمبراطورية ورئيسا لأكاديمية الفنون الجميلة⁽³⁵⁾.

وفي العام 1795، وبعد ثلاث سنوات من فقدان المملكة الفرنسية، فقدت الإمبراطورية العثمانية حليفا آخر، إذ قُسمت البقايا الأخيرة من الكومنولث البولندي بين النمسا وبروسيا وروسيا. وعلى مدى سنوات، تمثل الأثر الرسمي الأخير لوجود بولندا في ترجمان السفارة البولندية السابق في القسطنطينية. كان حارس إنكشاري سابق في السفارة البولندية يقوده إلى الباب العالي ومنه. وصف العثمانيون تلك الحالة بالقول: «شبح لجاووش [حارس] يؤدي مهامه لشبح ترجمان لسفارة ميتة»⁽³⁶⁾. أخذ النظام الأوروبي القديم الذي ساعدت انقساماته الإمبراطورية على حكم ربع القارة لأربعة قرون يتلاشى. وأصبحت الإمبراطورية محاطة بجيران توسعيين كما كانت الإمبراطورية نفسها من قبل.

لم يكن في وسع السفارات في بيرا أن تنجز الكثير لولا أسراب الجواسيس والمترجمين والأطباء والمبشرين والتجار الذين كانوا يعيشون في الشوارع الفرعية المحيطة. كانت السفارات مركز عالمهم الذي وفر لهم العدالة والحماية والتوظيف والترفيه والأخبار. لم يكن بالقسطنطينية بلاط على النمط الغربي يقوم على طقوس حفلات الاستقبال التي تكشف للعالم الخارجي أصحاب الحظوة من غيرهم. ردمت السفارات هذه الفجوة. وحتى العام 1914، كان عدم حصول أحد مسيحيي المدينة على دعوة إلى السفارات يعني موته اجتماعيا. كتب زائر إبان القرن التاسع عشر:

إن مجتمع بيرا متألق إلى درجة تضعه على طرف النقيض مع ذلك المجتمع الذي وصفت قبحة من فوري [حياة الطبقات الدنيا ببيرا]. فلا يوجد مكان آخر من العالم - باستثناء باريس - يجمع كل هذا العدد الكبير من العلماء والفنانين والرحالة ورجال الذوق من كل نوع... تقدم حفلات الاستقبال الكبيرة

(*) كانت السفارات يشار إليها باسم القصور، مثل قصر فرنسا مثلا. [المترجم].

مزيجا ساحرا من السمات القومية المتنوعة، جمعها معا ذوق وأنس رائعان.
فاقت أمسيات قصر روسيا نظيراتها جميعا في الفخامة، بينما تميّزت حفلات
سفراء فرنسا وإنجلترا بذوق أعلى وثراء أقل، في حين تفوقت حفلات العشاء
الرسمي في السفارة النمساوية على كل ما عداها⁽³⁷⁾.

تردد العثمانيون أيضا على سفارات بيرا. من ذلك أن الرحالة والديبلوماسي غير
الرسمي الفرنسي نيقولاس دي نيكولاي لاحظ أن المسؤولين العثمانيين في العقد السادس
من القرن السادس عشر كانوا يستمتعون بتناول العشاء مع السفير الفرنسي مسيو
دارامون Monsieur d'Aramon: «لكثرة أطباق اللحوم الشهية وكثرة أنواع الخمر
والممزي والمُسكات^(*) الممتازة [القادمة من الجزر اليونانية] التي كانوا يتخمون
أنفسهم بها إلى أقصى حد، حتى كانت شوارع المدينة الفسيحة تضيق بهم عادة وهم
في طريق عودتهم إلى بيوتهم، وكانوا يعرفون جيدا كيف يعطرون أنفسهم بهذه
الكحوليات السبتمبرية والباخوسية الحلوة^(**)». وعلى مدار القرنين السابع عشر
والثامن عشر، كان السفراء الفرنسيون إلى القسطنطينية يزورون المفتي، وسأل المفتي
ذات مرة إن كان ابن مركيز دي فيلنوف Marquis de Villeneuve السفير الفرنسي في
الفترة 1729-1740 قد سُمي كونستانتوبوليتان Constantinopolitan [قسطنطيني]
نسبة إلى المدينة. وعندما استضاف الصدر الأعظم السفير الروسي لتناول الغداء في
الباب العالي في العام 1775، طلب منه أن يتصرف كأنه صاحب بيت. وهناك شاهد
السفير «الرقص على الطريقة الآسيوية ومن الجزر اليونانية المختلفة» وغلما نا يغنون
أغاني عربية. وفي حين كان معظم العثمانيين لا يزالون يأكلون بأصابعهم، استخدم الصدر
الأعظم أدوات مائدة ذهبية مطعمة بالماس. وتلت هذه الاستضافة خمس مآدب أخرى
لدى خمسة مسؤولين مختلفين في بيوتهم⁽³⁸⁾.

كان العثمانيون يحضرون حتى حفلات الاستقبال التي يقيمها عدو منتصر. ففي
حفلة راقصة إحياء لعيد القديسة كاترين^(***)، وهو عيد الإمبراطورة، في السفارة
الروسية في العام 1793، لاحظ ديبلوماسي روسي:

(*) الممزي malmsey: نبيذ حلو عطري الرائحة، والمسكات muscat عنب طيب الشذا والنكهة أو خمر معصور منه. [المترجم].
(**) يرمز شهر سبتمبر إلى مولد الزهور، وباخوس Bacchus هو الاسم الذي اتخذته الرومان للدلالة على
ديونيسوس إله الخمر عند الإغريق. [المترجم].
(***) كان من عادة الممالك المسيحية أن تطوّب ملوكها وملكاتهن قديسين وقديسات، غالبا بعد مماتهم، وقد
طوّبت كاترين قديسة في حياتها. [المترجم].

لم تكن الغرف كبيرة بما يكفي لاستيعاب هذا الحشد الكبير. كانت النساء كلهن مغطيات بالماس والجواهر... كان من بين الحضور في هذه الحفلة صديقنا القديم الكابيشي باشا Kapici Pasha [رئيس حرس القصر] وكثير من الأتراك الآخرين من علية القوم... وحين رأوا بريق الخمر الفاخر المقدم لهم، شربوا نخب دينهم وشاركوا في كل متع هذه الحفلة حتى النهاية.

في الصيف، كانت السفارات، مثل غيرهم من السكان الأغنياء، يغادرون المدينة للتمتع بالمناخ الأبرد لقرى بيوكدير وطرابيا وبلغراد Belgrade على البسفور. وهناك كانت الحياة أكثر استرخاء، من ذلك أن أحد الرحالة وجد طرابيا «مكانا مبهجا للغاية». وفي بعض الأوقات، على نحو ما ذكر ضابط بريطاني، كان كثير من اليونانيين يغنون لعشيقاتهم ليلا في جلبة يستحيل معها النوم: يبدو أن «إلهة الحب اتخذت من هذا المكان مقاما مفضلا لها». كان بضعة أتراك ينضمون إلى لقاءات الأحد مع اليونانيين والأرمن واليهود، حيث كان «كل من ينتمون إلى المجتمع» يجتمعون تحت أشجار الليمون في سهل خارج بيوكدير⁽³⁹⁾.

كان التجسس - لا ريب - إحدى الوظائف الأساسية للسفارات. وإبان القرن السادس عشر، كانت كنيسة سانت فرانسيز في غَلَطَة مكان اجتماع مفضلا للديبلوماسيين البنادقة وعملائهم، لأن الحرس الإنكشاري كان يترفع عن دخول الكنائس، وتحت ستار العبادة، كانوا يتحدثون من دون أن ينتبه إليهم أحد. على أن انكشاف أمرهم كان يؤدي بهم إلى القتل. ففي السادس والعشرين من أبريل 1571، في أثناء حرب «الحلف المقدس» المكوّن من البندقية وإسبانيا والبابوية ضد الإمبراطورية^(*)، رُفع جسم جاسوس بندقية يدعى فرا باولو بيسكوتو Fra Paolo Biscotto مخوزقا على سارية خارج نافذة سفير البندقية وترك ليتعفن، «لتشجيع الآخرين»⁽⁴⁰⁾.

وبعد قرن، كان كونت جاكوب كولير Count Jacob Colyer الممثل الهولندي لدى الباب العالي من العام 1685 حتى وفاته في العام 1725، «سيدا مثاليا» لدى العثمانيين واليونانيين. كتب كانتمير أنه «كان يستضيف في بيته حاشية الباب

(*) هي معركة ليبانتو البحرية التي دُمّر فيها الأسطول العثماني، وكانت من أولى الهزائم العثمانية، وجرأت الممالك الغربية على الإمبراطورية. [المترجم].

العالي الذين كانوا شريين جدا للخمر، وكانوا يتنقلون في البيت بحرية، إذ لم يكن بالبيت شيء سري غير ما ينتزعه منهم بهذه الوسيلة»^(*). وكذلك سفير الإمبراطورية الرومانية المقدسة إبان منتصف القرن الثامن عشر هنريتش كرسنوف بينكلر Heinrich Christoph Penkler كان يجيد تحدث اللغة العثمانية ويستخدم عيونا له في كل مستويات المجتمع العثماني وفي السفارات الأجنبية. وجند السفير الفرنسي كونت دي سانت بريست - خليفة هنريتش - المدعو بارون ثوغوت للعمل لحساب فرنسا في العام 1771، لكن نظرا إلى أن المعلومات التي كان يقدمها كانت قليلة القيمة، فرما كانت مهمته هي الخداع المزدوج. تذر ثوغوت من أن الأسرار في بيرا لا تحفظ لأكثر من ربع ساعة، فـ «كل شخص يعرف تحركات كل الأشخاص الآخرين»⁽⁴¹⁾. ومازالوا كذلك إلى اليوم.

لم يكن سكان بيرا يُعرفون باسم البيرين Perotes^(**)، بل باسم القراصنة pirates. تقول إحدى الأغاني الشعبية: «بيرا بيرا، أنتِ عش الأوغاد». وقيل إن ثروة سيدات بيرا الجالسات حول التندور^(***) أو المجرمة، كانت أسوأ من نظيراتها في أسوأ بلدة إقليمية فرنسية⁽⁴²⁾. غير أن بيرا كانت تجمع إلى جانب ذلك إغراء الكوزموبوليتانية. وحتى القرن الحالي، ظل كثير من سكانها يتحدثون خمس أو ست لغات. وفي العام 1718، شَبَّهتها ليدي ماري ورتلي مونتاغيو ببرج بابل:

في بيرا يتحدث الناس التركية واليونانية والعبرية والأرمنية والعربية والروسية والفارسية والسلافونية [الصربية - الكرواتية] والولاشية والألمانية والهولندية والفرنسية والإنجليزية والإيطالية والمجرية، ولعل الأسوأ من ذلك أن عشا من هذه اللغات تستخدم في أسرتي. فسُيَّاس خيلي عرب، وخدمي فرنسيون وإنجليز وألمان، ومربيتي أرمنية، ووصيفاتي روسيات، وأكثر من خمسة آخرين من خادماقي يونانيات، وطباخي إيطالي، وإنكشاريتي أتراك.

(*) بمعنى أن السفير كان يقيم هذه الحفلات لانتزاع المعلومات من المسؤولين العثمانيين. [المترجم].

(**) نسبة إلى بيرا. [المترجم].

(***) التندور (ربما تحريف لكلمة «تنور» العربية) - في بلاد المشرق - طاولة مغطاة بسجادة كبيرة توضع تحتها مجرة بغرض التدفئة. [المترجم].

جذبت بيرا اليهود والأرثوذكس والبروتستانت، فضلا على الكاثوليك. فقد كانت مدينة يمكن أن ترى فيها أوروبا كلها وتسمعها، أكثر حتى من فيينا أو روما أو فاليتا عاصمة فرسان مالطا⁽⁴³⁾ (*).

لم تكن أوروبا واقعا معيشيا في شوارع بيرا فقط، بل في الحياة المهنية للكاثوليك أيضا. فعلى مدى ستة قرون، نادرا ما يغيب اسم عائلة تيسا Testa عن حوليات الديبلوماسية بالمدينة. هذه العائلة التي كانت تعمل في الأصل تجارا وكتاب عدل، جاءت من جنوة إبان القرن الثالث عشر. ويقال إن واحدا من أبنائها وقع المعاهدة التي استعاد البيزنطيون القسطنطينية بمقتضاها من اللاتينيين في العام 1261. وفي العام 1456، دفن توماسو دي تيسا Tomaso de Testa وزوجته لوشيتا دي سبينولا Luchineta di Spinola في كنيسة سانت بول (جامع العرب حاليا في كاراكوي Karakoy، ويوجد شاهدا قبريهما الآن في المتحف الأثري). وفي العام 1513، أسهم أندريا دي تيسا Andrea de Testa في تحمل تكاليف إعادة بناء كنيسة سانت فرانسيز بعد الزلزال المدمر الذي ضرب المدينة من العام 1509، وفي العام 1561 شهد ابنه أنجيلو Angelo التبرع بكنيسة سانت بيتر وسانت بول للدومنيكان. وكما عمل ثلاثة أفراد آخرون من عائلته إبان الثلاثمائة سنة التالية^(**)، شغل أنجيلو موقع رئيس مجلس بيرا السامي Magnifica Communita di Pera وهو كيان من اثني عشر مستشارا كانت مهمته إدارة شؤون وكنائس الجماعة الكاثوليكية المكوّنة من نحو خمسمائة شخص. وكما كانت الحال مع العائلات البارزة الأخرى مثل درابريس وسلفاغو Salvago، عاشت عائلة تيسا في أبهة واضحة في غَلَطَة بجوار خان الفرنجة⁽⁴⁴⁾.

وبفضل معرفتهم باللغات العثمانية واليونانية والإيطالية وغيرها، بدأت عائلة

تيسا من النصف الثاني من القرن السابع عشر في العمل مترجمين للسفارات الغربية.

(*) فاليتا Valetta: عاصمة مالطة، كانت منذ أولى الحملات الصليبية ملتقى للأفراد والجماعات والأخويات المسيحية القادمة من كل أنحاء العالم المسيحي الراغبة في الحرب على المشرق الإسلامي، وكانت فلول الحملات الصليبية المهزومة والولايات الصليبية المنهارة في المشرق تحط رحالها في مالطة انتظارا لأن تمر بهم حملة جديدة قادمة من أوروبا، وكذلك للإغارة وأعمال القرصنة على السفن والشواطئ الإسلامية، وربما من هذا الدور «الجهادي» ضد الإسلام والدول الإسلامية، جاء المثل الشعبي «يؤذن في مالطة» كناية عن عدم الاستجابة والرفض. يفترض أن هذا الدور جعل فاليتا جامعة لأوروبا كلها أكثر من أي مدينة أخرى. [المترجم].

(**) هم بارتولوميو تيسا Bartolomeo Testa في العام 1568، وغاسباري تيسا Gaspare Testa في العام 1651، وبارتولوميو دي تيسا Bartolomeo de Testa في الأعوام 1778-1792. كان فرانسيسكو تيسا Francesco Testa نائب الرئيس في العام 1683.

وإبان القرن الثامن عشر، حققوا تحولا حاسما في المكانة من مترجمين يُستأجرون من بين أهالي المدينة إلى رعايا وسفراء للحكومات الأوروبية. فعمل غاسبار تيستا (1684) Gaspard Testa 1758 ترجمانا للسفارة الهولندية، وشغل ابنه جاك الذي سُمي جونخير دي تيستا (1725-1804) (Jonkheer de Testa) منصب القائم بالأعمال الهولندي في القسطنطينية، وأصبح أحفاده هولنديين وخدموا هولندا بمهنتهم الدبلوماسية العائلية في القسطنطينية وطوكيو ومدريد وأماكن أخرى. ولا يزال فرع من العائلة يعيش اليوم في هولندا. غير أن أثنى مقتنيات العائلة، وهي الشوكة من تاج الأشواك الذي عُذب به المسيح، التي أنقذها فرانسيسكو تيستا Francesco Testa من حريق دمر كنيسة سانت فرانسيز في العام 1660، لم يعد يمكن مشاهدتها في المواكب الدينية في إسطنبول، إذ تحتفظ بها حاليا كنيسة سانت أغنيس St Agnes بأمستردام.



الرسام أنطوان دي فافاري Antoine de Fovary، كوت فيرجين بالزي العثماني، 1768. كان السفراء والرحالة يكتفون رسامين عادة يرسم صور لأنفسهم بالزي العثماني لتوضيح نجاح سفاراتهم أو رحلاتهم. وهذه اللوحة التي رسمت لفيرجين في السنة التي غادر فيها القسطنطينية والتي تظهره متكئا على فراخ ومرتديا فراخ وممسكا غليون، تغلد واحدا من أكثر السفراء الفرنسيين لدى الباب العالي تمكنا.

عندما وصل فيرجين العازب المتزمت إلى القسطنطينية، وقع في حب آن فيفيير Anne Viviers أرملة فرانسيسكو تيستا التاجر ابن عم جاك دي تيستا. ولدت فيفيير لفيرجين طفلين غير شرعيين. وفي العام 1760، أي بعد خمس سنوات من وصوله، خاطر فيرجين بحياته المهنية، بأن كتب لها تعهدا مكتوبا بأن يتزوجها. وبعد سبعة أعوام، وهو ما أثار اشمئزاز الحكومة الفرنسية ومجتمع بيرا، أبرّ الكونت بعهدته وتزوجها في كنيسة سانت لويس دي فرانسيز. كتب فيرجين إلى بارون دي توت: «إنني في غاية السعادة بحالتي الجديدة، وغدت زوجتي التي تشرفت بمعرفتك أحب إليّ من أي وقت مضى، كما أنني أعشق أطفالي». استدعاه لويس الخامس عشر من القسطنطينية بفعل الصدمة. وأثبت لويس السادس عشر أنه أكثر تسامحا من الآخرين. وهكذا، أصبحت المدام كونتيسة دي فيرجين، زوجة وزير الخارجية، البيرية المسنة صاحبة «الماضي» تتولى مهمة تقديم الأميرات الأجنبية في بلاط فيرساي.



الرسام أنطوان دي فافاري Antoine de Favary، الكونتيسة فيرجين بفسان
عثماني، 1768. كانت الكونتيسة في السابق من آل سافويارد Savoyarde، تزوجت من
أحد تجار بيرا الأغنياء، وبعد موته عاشت مع السفير الفرنسي كونت دي فيرجين
بلا زواج وأنجبت له ابنين قبل زواجهما الذي رها عجل باستدعائه إلى باريس، ولم يريا
المدينة ثانية.

وكما فعلت عائلة مافروكورداتو، رفضت عائلة تيستا أن تسجن نفسها في قومية واحدة. فكانت هذه العائلة مثالا متطرفا لظاهرة كانت شائعة جدا وهي الأوروبيون الذين يعتبرون الوطن مهنة وليس قضية تستحق النضال. ولكونهم دبلوماسيين بالوراثة، عمل أفراد العائلة في القسطنطينية لأنها كانت مركز الدبلوماسية، مثلما عمل الأجانب في باريس إبان القرن الثامن عشر لأنها كانت مركز الموضة (في الفكر والفن والأزياء). كان الولاء الأساسي لعائلة تيستا هو لمدينة المدينة (*)، أي للقسطنطينية والدين الكاثوليكي والسلطة التي كانوا يخدمونها في هذا الوقت أو ذاك، أيا كانت. فإلى جانب هولندا، خدمت عائلة تيستا - في أوقات مختلفة - فرنسا والسويد والنمسا وبروسيا وبولندا والبندقية والإمبراطورية العثمانية (كان الزوار المصدومون بالكوزموبوليتانية البيرية يقولون إن أهلها يعرفون لغات خمس أمم، لكنهم لا يمتلكون روح أي منها). يكشف موقف القسطنطينية المتساهل مع القومية والطبقة والجنس أنها كانت في الوقت عينه تقليدية جدا وحديثة جدا.

بدأ كارلو دي تيستا (1755 - 1827) (Carlo de Testa) مهنته ترجمانا لفرنسا التي تلقى تعليمه فيها. وكان يفتخر بأنه «أيضا مواطن فرنسي مخلص»، لكنه فزع كما فزع السلطان والباب العالي بإعدام لويس السادس عشر في العام 1793، وترك وظيفته. وفيما بعد، خدم السويد أولا، ثم النمسا، ترجمانا أول. وقام بارون إغناس دي تيستا (1812 - 1873) (Baron Ignace de Testa) القائم بالأعمال التوسكاني في القسطنطينية بتحرير «موجز معاهدات الباب العالي العثماني مع القوى الأجنبية بداية من العام 1536 إلى اليوم»، ذلك الكتاب الذي بُدئ فيه في العام 1864، ونُشر المجلد الحادي عشر والأخير منه في العام 1911، قبل إحدى عشرة سنة من زوال موضوع الكتاب - الباب العالي - من الوجود. ولسوء الحظ، لم تُكشف رسائل أو يوميات أو مذكرات خاصة أو يؤذن بنشرها من أرشيفات العائلة. فمن المؤكد أن رأي عائلة تيستا في الدبلوماسية العثمانية كان مختلفا تماما عن رأيها الذي بقي في أرشيفات الوزارات الأوروبية والباب العالي. كان ترجمانات بيرا يرون أنهم تجسيد للمهارة الدبلوماسية. وكان السفراء دمي تُحرك وفقا لرغبات الترجمان⁽⁴⁵⁾.

(*) أي مدينة بيرا بمدينة القسطنطينية. [المترجم].

كانت بيسامي Pisami عائلة دبلوماسية شهيرة أخرى في بيرا. رُوج أفرادها أنهم فرع أصغر من عائلة النبلاء البندقية التي تحمل الاسم نفسه، وأنهم جاءوا إلى القسطنطينية من جزيرة كريت بعد فتح العثمانيين لها في العام 1669. سرعان ما أصبحت هذه العائلة ترجمانات السفارة البريطانية، وحصل أحد أفرادها على لقب «مترجم جلالة الملك للغات الشرقية» في العام 1749، وكان جديرا به. ففي العام 1754، وفي خلال خمسة عشر يوما من وصول رسالة سرية من لويس الخامس عشر إلى السلطان تطلب منه الانضمام إلى «سر الملك» secret du roi وهو التحالف السري المعادي لروسيا بين فرنسا والسويد وبولندا، حصل السفير البريطاني على نسخة منها عن طريق أحد أفراد عائلة بيسامي⁽⁴⁶⁾.

تمثل الرسائل اليومية تقريبا إلى سير روبرت ليستون Sir Robert Liston من ترجمان أول يدعى بارتولوميو بيسامي Bartolomeo Pisami، اشتهر بطباعه ولغته الإنجليزية المميّزة، رسائل من ناظر عزبة محنك إلى مالك وصل أخيرا إلى ممتلكاته الجديدة التي لا يتحدث لغة أهلها. يخبر بيسامي ليستون متى يجب أن يكتب إلى الباب العالي، ويسرد له أخبار السفراء الآخرين، وتحركات السفن والسياسة الأوروبية، ويناقش الزيارات إلى الصدر الأعظم والقبطان باشا. تتواتر في الرسائل عبارات مثل «إذا شاء سعادتكم»، يليها اقتراح أو «أرى دائما أن من واجبي أن أبلغ سعادتكم بأي معلومات استخبارية تصلني وقد تؤثر في خدمة جلالة الملك أو تكون مفيدة لعلم سعادتكم الخاص». كان العمل اليومي والمالي للسفارة - في مقابل السياسة العالية - في يدي هذا البيساني.

تكشف الرسالة التالية التي أرسلها بتاريخ الرابع والعشرين من أكتوبر 1794 من بيرا إلى السفير الذي كان لا يزال في ضاحية بلغراد، أسلوب بيسامي الإداري الوثائق وعلاقاته الوثيقة مع السفارات الصديقة للحكومة العثمانية:

السيد المحترم

تشرفت بإحاطة علم سعادتكم بأن القبطان باشا سبق أن أخذ الإذن المعتاد من السلطان بالعودة بأسطوله إلى الترسانة، وقد غادرت سفينته كيرلانغيز Kirlanghiz مع بعض السفن الصغيرة الأخرى القنال [البسفور]

ورست أمام الديوان في هذا الصباح. وسوف تتبعها السفن الكبيرة من اليوم وحتى الأحد المقبل، عندما - كما قيل لي - يبدأ الباشا المقيم في مكتبه، من دون مراسم الدخول العلنية، كما يجري عادة بعد عودة الأسطول من بعثة بعيدة. وبناء على ذلك، يمكن لسعادتكم - إن شئت - أن ترسل له يوم الإثنين أو الثلاثاء المجاملة المعتادة على عودته إلى العاصمة لقضاء فصل الشتاء.

سأظل في المدينة لأتلقى أوامر سعادتكم في الحال، إذ قد تكون رغبتكم أن أكون بين أول من يذهب لإلقاء التحية المعتادة على سعادته. أدرك أن هناك تواصلاً ممتازاً بين حسين ورئيس الوزراء الجديد. أتشرف بأن أتقدم إليكم بأصدق آيات الاحترام والمودة

السيد المحترم،

الخادم المخلص والمطيع لسعادتكم

ب. بيسامي⁽⁴⁷⁾

كان بيساني مخلصاً في عمله. وقضى سنتين في السجن 1807-1809 حينما كانت بريطانيا والإمبراطورية العثمانية في حالة حرب^(*). ذكرت ليدي هيستر ستانهورب Lady Hester Stanhope ابنة أخت بت^(**) التي قضت شتاء 1810-1811 في القسطنطينية وهي في طريقها إلى لبنان، أن بيساني يتحلى «بالموهبة والنزاهة، وأنه يُخشى جانبه ومحبوب أكثر من سعادته»^(***). أعجبت ليدي ليستون بمهارة بيساني في الترجمة بين زوجها والقبطان باشا: «لقد ذهلت وأنا ألاحظ في عدة مناسبات مدى حيوية هذه المحادثات بواسطة مترجمين يدخلون عادة في دعابات الطرفين»⁽⁴⁸⁾. وعندما جاء السفير البريطاني سير استراتفورد كاننغ Sir Stratford Canning لزيارته في فراش مرضه في الثامن من سبتمبر 1826، أودى تأثير الترجمان

(*) بسبب انحياز الإمبراطورية العثمانية إلى نابليون ضد روسيا التي كانت تحارب فرنسا إلى جانب بريطانيا وبروسيا والسويد في حرب التحالف الثالث، دخل الأسطول البريطاني في 19 فبراير 1807 الدردنيل ودمر الأسطول العثماني والحصون العثمانية في بحر مرمرة ورسا قبالة القسطنطينية لكنه ينس من استمرار القتال بسبب قوة بطاريات المدينة وتحصيناتها، فعاد إلى البحر الأبيض المتوسط في 3 مارس. وفي 16 مارس نزلت حملة فريزر إلى الإسكندرية، لكن تصدت لها حامية رشيد والأهالي وألحقوا بهم هزيمة ثقيلة وردوهم إلى الإسكندرية، ثم جاء محمد علي وتفاوض معهم على الانسحاب. ووقعت اتفاقية الدردنيل في يناير 1809 لتنتهي الأعمال العدائية بين الإمبراطورية العثمانية وبريطانيا. [المترجم].

(**) راجع حاشية سابقة للمترجم حول عائلة وليام بت William Pitt وعائلته السياسية. [المترجم].

(***) أي سعادة السفير. [المترجم].

بحياته، إذ مات الترجمان وهو ينزع طاقة النوم عن رأسه. اتخذ استراتفورد كاننغ ترجمانا من ابن أخيه فريدريك بيسانى Frederick Pisani الذي تقاعد في العام 1877. كتب سفير بريطاني لاحق، هو سير أوستن لايارد Sir Austen Layard المتخصص في آثار الإمبراطورية الآشورية، عن فريدريك أنه «كان يبدو كأنه يقيم في مبنى السفارة، بين الرسائل والأوراق التي كان أكثر الناس أمانة وغيره عليها، والتي كان من الواضح أن جل وجوده وجل متعته وآماله تتركز فيها... إنه إنسان أكثر براءة وصدقا وأمانة من أي أحد على وجه الأرض»⁽⁴⁹⁾.

وبعد فترة طويلة من الحروب، طوى النسيان المعاهدات والاتفاقيات التجارية التي خُطت في سفارات القسطنطينية، لكن تبقى الرعاية الثقافية cultural patronage من جانب السفارات أحد أمجاد الدبلوماسية الأوروبية. فبفضل حماية السفارات، تمكن الدارس الأجنبي من توجيه الأسئلة إلى الشخصيات العادية في شوارع المدينة، والرسام من رسمها. اشترى بارون دي بوسبيك مخطوطات يونانية من طبيب السلطان موسى بن هامون للمكتبة الإمبراطورية في فيينا. تظل رسائل البارون (على الرغم من أنها نُقحت مثل رسائل ليدي ماري ورتلي مونتغو في تاريخ لاحق) الرواية الكلاسيكية للإمبراطورية في نهاية عهد سليمان القانوني. وكما هي الحال في رسائل ليدي ماري ورتلي مونتغو، تخلو رسائل البارون مما أسماه إدوارد سعيد «جوهر الاستشراق» أي تلك «الشقة التي تفصل التفوق الغربي عن الدونية الشرقية». يتزايد البارون والليدي في ذكر مزايا المجتمع العثماني لكي ينتقدا مجتمعيهما، كما أنهما أقل تعاليا من الكثير من الروايات الغربية للبلدان الغربية الأخرى. يمتدح بوسبيك انضباط الجيش العثماني وانفتاح الفرص المهنية أمام الموهوبين. وتمدح ليدي ماري السهولة والأناقة في الحياة العثمانية والمزايا العملية للإسلام وحرية النساء المسلمات وجمال تطريزهن.

كتب سفير سابق للبندقية، هو جيوفاني باتيستا دونادو Giovanni Batista Donado، أول دراسة للأدب العثماني بلغة غربية بعنوان «أدب الأتراك» Della letteratura de' Turchi (البندقية، 1688). وكان كونت مارسيلي Count Marsigli الذي كتب أكثر الروايات شمولا حول تنظيم الجيش والأسطول

العثمانيين وتسليحهما وانضباطهما وأزيائهما بعنوان «حالة الجيش العثماني» *L'Etat militaire de l'Empire Ottoman* (مجلدان، لاهاي بأمستردام، 1752)، قد أقام في سفارة دونادو في العامين 1679-1680، في وقت كانت السفارة فيه حقا مدرسة للدراسات العثمانية. اعتمد كتابه على سجلات عثمانية حصل عليها من مفكرين من أمثال حسين أفندي حصارفين. وتمكن الأب تودريني Abbe Toderini من كتابة تاريخ آخر أطول للأدب العثماني لأنه عاش بين العامين 1781 و1786 «في القصر الفخم للسنيور أوغستينو غارزوني Agostino Garzoni سفير البندقية لدى الباب العثماني».

وفرت السفارة الفرنسية أكثر من غيرها، إطارا للاستكشاف العلمي والفني للإمبراطورية العثمانية. وفي هذه الحالة، لا تنطبق أطروحة إدوارد سعيد بأن الاستشراق كان في جوهره تجليا للرغبة الغربية «في حكم الشرق»، لأن فرنسا كانت القوة الأكثر حرصا، لأسباب تتعلق بالسياسة الواقعية، على تقوية الإمبراطورية العثمانية. صاحب نيقولاس دي نيكولاي سفارة فرنسية إلى القسطنطينية في العام 1551. ومع أن كتابه «المقالة والتاريخ الحقيقيان للإبحار والارتحال والرحلات إلى تركيا» *Discours et histoire veritable des navigations, peregrinations et voyages faits en Turquie* (ليون، 1567) يدين بالكثير إلى روايات الرحالة السابقين، فإن الرسوم التوضيحية التي زود بها كتابه ربما كانت أول صور بصرية دقيقة للأتراك تصل إلى الغرب. وكانت معاهدة العام 1604 بين هنري الرابع وأحمد الأول ثاني كتاب يطبع باللغة العثمانية، وهو ما حدث في باريس في العام 1615، بفضل السفير الفرنسي المثقف الملم باللغة العثمانية سافاري دي بريف Savary de Breves الذي أحضر من روما أحرف طباعة عثمانية وعربية وفارسية وسريانية (كان أول كتاب طُبع في روما في العام 1587 كتابا حول المبادئ الإقليدية للتجارة). ومع ذلك فقد دعا سافاري دي بريف من حين إلى آخر إلى تدمير الإمبراطورية العثمانية⁽⁵⁰⁾.

كانت السفارة السويدية القوة الدافعة وراء المَعْلَم الأدبي الأساسي للحياة الدبلوماسية للمدينة. كان مؤلف العمل كاثوليكيًا أرمنيا من القسطنطينية، ولد في العام 1740، يدعى مورادجيا، عمل ترجمانا في السفارة السويدية من العام

1763 إلى العام 1782، وكان يعيش في كشك في حديقة قصر السويد. وفي العام 1780 رفعه غوستافوس الثالث Gustavus III إلى مرتبة النبيل باسم موراجيا دوسون Mouradzea d'Ohsson من لقبه التركي tossun [طوسون] الذي يعني الشجاع. كان موراجيا مؤرخا إلى جانب كونه ديبلوماسيا. أقنعه السفير السويدي غوستاف سيلسنغ Gustaf Celsing بأن يكتب وصفا للإمبراطورية وليس تاريخا لعهد سليم الثاني فقط كما كان مخططا في الأصل. جاءت نتيجة عمله «وصف عام للإمبراطورية العثمانية» (ثلاثة مجلدات، باريس 1787-1820، تُرجم لاحقا إلى الإنجليزية والألمانية والروسية) لا تقل فائدته لدراسة الإمبراطورية العثمانية عن فائدة الكتاب المَعْلَم للحملة الفرنسية- كتاب دينون «وصف مصر» - لدراسة مصر. وهو عبارة عن مسح مزود بمائتين وثلاثة وثلاثين رسما توضيحيا لكل جوانب الإمبراطورية: الإسلام والقصر والأزياء والحكومة والجيش والنظام القانوني والأخلاق والحريم.

قضى موراجيا دوسون اثنين وعشرين عاما في البحث، وتوافرت له ميزة الوصول إلى السجلات الحكومية والمحادثات مع الوزراء ومع أزواج نزيلات سابقات بالحريم، وكتب لاحقا أن الوصول إلى المعرفة بالحريم الإمبراطوري كلفه مالا وجهدا أكثر من المعرفة ببقية جوانب الإمبراطورية جميعها. وقد أراد أن يقلل الإجحاف الشعبي بشأن الشرق في الغرب وأن يجلب المعرفة الغربية إلى الشرق. وطمأن أن يأتي سليمان قانوني جديد «يحافظ على علاقات أوثق مع الأوروبيين، ويتبنى تكتيكاتهم، ويغير وجه إمبراطوريتهم كليا». وأهدى الكتاب إلى غوستافوس الثالث، حليف الإمبراطورية العثمانية في حربها ضد روسيا في الأعوام 1788-1790، وطُبع في باريس (التي عاش فيها موراجيا للإشراف على نشر كتابه بين العامين 1784 و1791)، في مطبعة المسيو- لويس الثامن عشر المستقبلي- صديق العثمانيين مثل معظم آل البروبون⁽⁵¹⁾.

كان من بين ترجمانات المدينة المتعلمين الآخرين جوزيف فون هامر برجستال Joseph von Hammer-Purgstall الذي عمل في سفارة الإمبراطورية الرومانية المقدسة دارسا للغات، ولاحقا مترجما من العام 1793 إلى العام 1799 ومن العام 1802 إلى العام 1806. تعلم جوزيف الذي كان يرتدي اللباس العثماني عادة، اللغة

العربية واليونانية والفارسية والعثمانية في القسطنطينية، وزار أنصائها التاريخية، ولم يفوت فرصة لشراء الكتب والمخطوطات لكتابه «تاريخ الإمبراطورية العثمانية» الذي لا يزال إلى الآن أفضل كتاب في تاريخها سطره مؤرخ أجنبي. تذكر المكتبة التي أخرج منها مادته الأولية وكتب لاحقاً: «لم أعمل في مكتبة أخرى بالحماس والهمة التي عملت بها في مكتبة عبد الحميد»⁽⁵²⁾.

وفرت السفارات الإطار للتخليد الفني للقسطنطينية، فضلاً عن البحث العلمي لها. قبل العام 1600، كلف السفراء رسامين غربيين أو أتراكا برسم ألبومات من اللوحات والرسوم التخطيطية للتراتبية السياسية للمدينة والحياة اليومية والأزياء والمراسم، مثل مواكب السلطان، ومشاهد المصارعة والرمية والدرأويش الدوارين⁽⁵³⁾. وفيما بعد فضلوا الصور. تميزت موسكو ومدريد بأنهما غريبتا الأطوار، وفيينا والبندقية وروما بالفخامة، وباريس بأنها عاصمة الثقافة الأوروبية. وحدها القسطنطينية أوحى بـ«الكثير من لوحات السفارات»^(*). لم تكن هذه اللوحات تقديراً لقوة المدينة وسحرها ولرغبة السفراء في إعطاء برهان بصري على نجاحهم لمعاصريهم وأحفادهم فقط، بل كانت أيضاً - شعورياً أو لاشعورياً - تردم فجوة.

لم تكن هناك مجموعات لوحات عظيمة في القسطنطينية. فتعاليم الدين كانت تمنع السلاطين أو الوزراء من تكليف الرسامين برسم الصور أو شرائها، في حين لم تمنع الخط اليدوي أو المخطوطات المزودة بالصور. ولم تظهر العائلات المسيحية مثل مافروكورداتو أو تيسستا ميلا ولا شجاعة لجمع صور في القسطنطينية (مع أن العائلة الأولى فعلت ذلك في ولاشيا ومولدافيا). ولذلك لم تكن أفضل الصور للقسطنطينية إبان القرنين السابع عشر والثامن عشر تعلق في المدينة نفسها، بل في «العرف التركية» في بيوت ريفية سويدية وقلاع نمساوية وقلاع فرنسية يملكها أحفاد السفراء. يتمثل الموضوع المفضل في استقبال السلطان والصدر الأعظم للسفير في القصر الإمبراطوري، على الرغم من أن بعض اللوحات تصور أحداثاً معينة مثل

(*) ومع ذلك فين العامين 1703 و1741، رسم كارلفاريjs Carlevarijs وجولي Richter وكاناليتو Canaletto لوحات لتشيقات مشهدة للسفراء وهم يصلون بمركب مذهبة إلى قصر دوج البندقية لتقديم أوراق اعتمادهم.

سَجَن الناس في قلعة الأبراج السبعة أو تجديد الامتيازات. كَلَّف سفيران اثنان إبان القرن السابع عشر، هما سفيرا الإمبراطورية الرومانية المقدسة سيغموند فون هيرشتاين Siegmund von Herberstein وفرايهير فون كوفشتاين Freiherr von Kuefstein، وبعدهما بمائة عام فيرجين وزوجته، برسم لوحات لأنفسهم بالزي العثماني. كما كَلَّف السفراء الثلاثة جميعهم برسم لوحات أيضا لمشاهد من الحياة اليومية، مثل مباراة المصارعة أو زيارة البازار، فضلا على المناظر الطبيعية بالمدينة.

كان الرسام الأساسي للسفارة هو جان باتيست فامور. ولد جان في فالنسيان بفرنسا وجاء إلى القسطنطينية في عمر الثامنة والعشرين في العام 1699 ضمن حاشية مركز دي فيريول، وبقي فيها حتى وفاته في العام 1737. كتب جان الذي كان من الواضح أنه يعشق المدينة، أنه أراد أن «يكون لأعماله دور في إبراز الخصوصيات المتعلقة بعادات الأتراك واستخداماتهم»، وسُمح له بمرافقة السفراء إلى مقابلاتهم الرسمية مع السلطان وقادة الدولة. تفيض مشاهدته الرسمية للسلطان أو الصدر الأعظم وبطانتهم الموقّعة والمؤرخة في العام 1711 أو استقبال السفير الفرنسي في العام 1724 والهولندي في العام 1727، بالحيوية والبساطة، وتتسم التضاربات فيها بين الوجوه والأزياء بالحدة. يصوّر جان هولنديا هادئا يمر بجنود انكشارية يندفعون نحو البيلاو، وأبناء السفير الفرنسي الصغار بباروكاتهم يخاطبهم صدر أعظم معمم. كانت صور فامور جذابة جدا حتى إنها ألهمت تمثيلات مماثلة من جانب أيدٍ أقل مهارة لاستقبال سفراء آخرين (البريطاني والبولندي والسويدي والبندقي). وقد كَلَّفه السفير الهولندي كورنيليوس كالكوين Cornelius Calkoen برسم كثير من اللوحات للقسطنطينية، بقيت معا كمجموعة، وفقا لشروط وصيته، وتعلق الآن في متحف ريكز بأستردام.

ربما كان فيريول سفيرا عبثيا، سيظل محبو القسطنطينية ممتنين له، إذ كَلَّف فامور في العام 1707 برسم مائة لوحة للمسؤولين والأعراق المختلفة بأزيائهم الخاصة: رئيس الخصيان، ورسول البلاط، وامرأة يهودية تأخذ بضائع إلى الحريم التركي، ورجل تركي يجرح نفسه ليثبت حبه لحبيبته، والبطريك المسكوني، والشهيد

الأرمني غوميداس^(*)، والألبان والبلغاريين واليونانيين والولاشيين والفرس والعرب. وفي فرنسا، ساعد فيريول في ترتيب نشر مائة طبعة لهذه الصور بعنوان «خلاصة مائة نقش يمثل الاختلافات بين أمم المشرق» Recueil de cent estampes representant differences nations du Levant (1714). كانت الشهية للمعرفة بالإمبراطورية العثمانية نهمة جدا حتى إن الكتاب أعيدت طباعته سريعا باللغة الفرنسية وترجم إلى الألمانية والإيطالية والإنجليزية والإسبانية، وأصبح المصدر الأساسي للتركيات^(**) لرسامين من أمثال واتو Watteau وغواردي Guardi وفان لو Van Loo. ومن باب التقدير الرسمي لموهبته، مُنح فامور في العام 1725 منصب «رسام الملك في المشرق» ذلك المنصب المتفرد، وإن لم يعط راتبا لحامله، على الرغم من احتجاجات فامور على هذه الأخيرة. وعندما توفي في الثاني والعشرين من يناير 1737، حضرت عائلة السفير الفرنسي و«الأمة الفرنسية كاملة» جنازته في كنيسة سانت بنواه في غَلَطَة⁽⁵⁴⁾.

توجد أكثر مجموعات لوحات السفارات شمولا في مدينة بيبى Biby بقلب السويد ضمن مقتنيات عائلة سيلسنغ Celsing. تحوّل هذه اللوحات قصر ريفي سويدي صدئ اللون إلى ضريح لقسطنطينية القرن الثامن عشر. خدم الأخوان العازبان غوستاف Gustaf وأولريك Ulrik سيلسنغ، ابنا أحد ممثلي شارلز الثاني عشر لدى الباب العالي بين العامين 1709 و1711، وفي السفارة السويدية سكرتيرين ومندوبين وسفيرين بين العامين 1745 و1773 وفي العام 1756 والعام 1780 على التوالي. كان كلاهما يعرف اللغة العثمانية، وبسبب الخوف المشترك من روسيا، تمكنا من الحفاظ على العلاقات العثمانية - السويدية في القوة التي كانت عليها في أيام أحمد باشا. أعاد أولريك سيلسنغ إلى السويد - برا وبحرا - مجموعة مهمة من المخطوطات الشرقية، تركها مكتبة جامعة أوبسالا Uppsala محفوظة في دولا ب مكتوب عليه «مجموعة سيلسنغ للمخطوطات الشرقية» ومائة وعشرين لوحة للقسطنطينية.

(*) غوميداس هو الكاهن الأرمني الذي تزعم تحول كثير من الأرمن بالقسطنطينية في أواخر القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر من الأرثوذكسية إلى الكاثوليكية، والذي أوعز البطريرك الأرمني أفيديك إلى الصدر الأعظم بإعدامه. [المترجم].

(**) التركيّات - كالمصريّات - كل ما يتعلق بتركيا والأترك. [المترجم].

لا تتمثل أروع اللوحات في مشاهد استقبال السلطان لهما، ولا صور الحرفيين والضباط المختلفين بالمدينة، ولا شجرة النسب المطعمة بصور السلاطين العثمانيين على شجرة حقيقية، بل في اللوحات الخمس والعشرين البانورامية الساحرة للقرن الذهبي والمدينة والقصور ومراكب البسفور، وقبل كل شيء للأكشاك الزرقاء والخضراء والمقصورات المذهبة بقصر سعادة أباد التي تعد أفضل تسجيل بصري لها. لا توجد توقيعات على هذه اللوحات، لكنها ربما تكون من إنتاج أي. ستين A. Steen الذي أهدى بعض لوحات القسطنطينية وكذلك لوحات من مجموعة سيلسنغ إلى «المسيو غوستاف دي سيلسنغ رئيس المجلس الملكي للتجارة للجالية السويدية والمبعوث فوق العادة إلى الباب العالي العثماني والفارس بالأخوية القطبية»⁽⁵⁵⁾.

وكذلك وفرت السفارات الأوروبية في القسطنطينية الرعاية لعلماء الآثار، كما فعلت مع الرسامين والكتاب. من المؤكد أن ماضي المدينة كعاصمة إمبراطورية رومانية قد أسهم في الافتتان بها. وفي القرن الثامن عشر، كانت الخرائب الكلاسيكية، مثل المنتدى الروماني والكلوسيوم، مصدر الجذب الأساسي لدى شقيقتها روما للزوار والرسامين الأجانب. أما في القسطنطينية، فقد كان الإعجاب والتنقيب مستحيلين على حد سواء. ومنذ نحو العقد الخامس من القرن السادس عشر، وهو وقت مبكر، لاحظ الدارس الفرنسي بيير جيل Pierre Gilles أن المنطقة داخل الأسوار الرومانية القديمة للمدينة قد غطتها بيوت حديثة كلها تقريباً: «خلال الوقت الذي أقمته في القسطنطينية [1544-1547] لم أر الكثير من الكنائس والقصور الخربة وأساساتها، لأنها مُلئت ببنائات للمسلمين، ولذلك لم أتمكن من اكتشاف مخططاتها السابقة، ولا أستطيع أن أقدر بسهولة حجم الدمار الذي ألحقه الأتراك بها منذ أن استولوا على المدينة». ورأى بعينه التمثال الفروسي البرونزي العظيم لجوستينيان محمولاً إلى «المسبك»، لتحويله إلى مدافع عثمانية. كانت الأعمدة الكلاسيكية تستخدم في بناء المساجد العثمانية. ووضعت قبور الأباطرة أنصافاً تذكارية في حديقة قصر السلطان. لقد كان زوار القسطنطينية يأتون من أجل الحاضر العثماني وليس الماضي الروماني⁽⁵⁶⁾.

على أن الكنوز الأثرية في بقية الإمبراطورية التي حكمها وشيّدتها على التوالي الآشوريون واليونانيون والرومان، غدت أحد الشواغل الأساسية للديبلوماسيين المقيمين

في المدينة. كان شغفهم بآثار العصور القديمة عظيما جدا إلى درجة أن مسرحية عُرضت في السفارة الفرنسية بعنوان «فرنسا العتيقة» l'Antiquaire francais. عيّن شوازيل جوفير تاجرا فرنسيا يدعى لويس فرانسوا سباستيان فوفيل -Louis-Francois Sebastien Fauvel لاستكشاف الآثار اليونانية ونهبها. أما السفراء البريطانيون الذين ترددوا على نحو غير مألوف عن التكليف برسم اللوحات، فقد كشفوا عن شهية أكبر لآثار العصور القديمة. وفي العقد الثالث من القرن السابع عشر، سرق سير توماس راو الذي كان يعمل لحساب إيرل أرونديل Earl of Arundel، أجزاء من الباب الذهبي التي توجد حاليا في متحف أشمولين Ashmolean Museum بأكسفورد. وجاء الاحتلال الفرنسي لمصر في العام 1798 وتوقيع التحالف ضد فرنسا في يناير 1799 بين الإمبراطورية العثمانية وروسيا وبريطانيا، ليضع السفير البريطاني لورد إلجين Lord Elgin في مكانة تفوق مكانة شوازيل جوفير. وبفضل مهارة بارتولوميو بيسانى و«الصداقة والإخلاص والتحالف والنية الحسنة التي تسود» منذ القدم» بين البلاط العثماني السامي والخالد وبلاط إنجلترا والتي تنمو بجلاء لدى الجانبين»، حصل اللورد إلجين على فرمان يجيز له التنقيب في البارثينون ونقل أجزاء منه (*). تجاوز اللورد شروط فرمان الأصلية كثيرا، وأخذ أي أعمال نحت من أي قسم بالبارثينون وأي بناية شاء في أثينا. وصلت «مرمريات إلجين» إلى لندن في العام 1806. والنزاع الذي تولد عن ذلك والذي لا يزال قائما إلى اليوم، ترجع جذوره إلى سفارة في القسطنطينية⁽⁵⁷⁾.

(*) البارثينون هو هيكل الإلهة أثينا في مدينة أثينا. [المترجم].

الهوامش

الفصل الأول

الفتاح

- (1) Nicolo Barbaro, *Diary of the Siege of Constantinople 1453*, tr. J. R. Jones, New York, 1969, 67.
- (2) Tursun Beg, *History of Mehmed the Conqueror*, ed. Halil Inalcik and Rhoads Murphy, Minneapolis and Chicago, 1978, 37; Steven Runciman, *The Fall of Constantinople 1453*, 1988 edn., 147 - 8; George Sphrantzes, *The Fall of the Byzantine Empire*, Amherst, 1980, 150; Khoja Sa'dud-din, *The Capture of Constantinople*, tr. E. J. W. Gibb, Glasgow, 1879, 36.
- (3) Philip Sherrard, *Constantinople: Iconography of a Sacred City*, 1965, 16; Robert Liddell, *Byzantium and Istanbul*, 1956, 48; Laurence Kelly, *Istanbul: a Traveller's Companion*, 1987, 151.
- (4) Dimitri Obolensky, *The Byzantine Commonwealth*, 1974 edn., 375; Franz Babinger, *Mehmed the Conqueror and His Time*, Princeton, 1992 edn., 96.
- (5) Harry J. Magoulias (ed.), *The Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks*, Detroit, 1975, 233; Babinger, 230.
- (6) J. R. Melville Jones, *The Siege of Constantinople 1453: Seven Contemporary Accounts*, Amsterdam, 1972, 134, letter of 23 June 1453; P. W. Hasluck, *Christianity and Islam under the Sultans*, 2 vols., 1925, II, 737.
- (7) Julian Raby, 'El Gran Turco: Mehmed the Conqueror as a Patron of the Arts of Christendom', D.Phil. thesis, Oxford, 1980, 188; Babinger, 112.
- (8) Cornell H. Fleischer, *Bureaucrat and Intellectual in the Ottoman Empire: The Historian Mustafa Alt*, Princeton, 1986, 2556-; George W. Gawrych, *Tolerant Dimensions of Cultural Pluralism: the Ottoman Empire and the Albanian Community 1800-1912*, *International Journal of Middle East Studies*, XV, 1983, 523.
- (9) Kritovoulos, *History of Mehmed the Conqueror*, Princeton, 1954, 105, 177; Gulru Nccipoglu, *Architecture, Ceremonial and Power the Topkapi Palace in the Fifteenth and Sixteenth Centuries*, Cambridge, Mass., 1991, 250.
- (10) Babinger, 272; Halil Inalcik, 'The Policy of Mehmed II toward the Greek Population of Istanbul and the Byzantine Buildings of the City', in *The Ottoman Empire: Conquest, Organisation and Economy*, 1978, 241.
- (11) Kritovoulos, 140, 148; Babinger, 328.
- (12) Runciman, *Fall*, 153; Babinger, 195.

- (13) Charles Schœfer (ed.), *Le Voyage de Monsieur Chesneau d'Aramon, ambassadeur pour le Roy au Levant, 1887*, 261 quoting a firman of 7 May 1532; Kritovoulos, 94; Steven Runciman, *The Great Church in Captivity*, 1968, 169, 172 - 4.
- (14) A. Papadakis, 'Gennadius II and Mehmed the Conqueror', *Byzantion*, XLII, 1972, 103; Raby, 109.
- (15) Kritovoulos, 140; Raby, 247; Benjamin Braude, 'Foundation Myths of the Millet System', in Benjamin Braude and Bernard Lewis (eds.), *Christians and Jews in the Ottoman Empire*, 2 vols., 1982, I, 75, 79; Kevork B. Birdakjian, *The Rise of the Armenian Patriarchate of Constantinople*, in *ibid.*, I, 90-:, 94.
- (16) Halil Inalcik, 'Ottoman Galata 1453 - 1553', in Edhem Eldem (ed.), *Recherches sur la ville ottomane: le cas du quartier de Galata*, 1991, 18; Jones, 133, letter of 23 June 1455.
- (17) Inalcik, 'Ottoman Galata', 61; Babinger, 107, 277; Raby, 172; Gertrude Randolph Branletter Richards, *Florentine Merchants in the Age of the Media*, Harvard, 1932, 147, Giovanni Maringhi to Nicolo Michelozzi 29 October 1501.
- (18) Fernand Braudel, *Civilisation and Capitalism*, III, 1982 - 4, 467; Stephane Yerasimos, 'Galata a travers les recits de voyage (1453-1600-)', in Edhem Eldem (ed.), 117; Horatio F. Brown, *Studies in the History of Venice*, 2 vols., 1907, II, 4, 22, 29, 32; Lucette Valensi, *Venise et la Sublime Porte*, 1987, 27 - 9.
- (19) Anon., *Letters Historical and Critical from a Gentleman in Constantinople to his Friend in London*, 1730, 8; J. A. Blanqui, *Voyage en Bulgarie pendant l'annee 1841, 1843*, 302; Hugo Schuchardt, *Pidgin and Creole Languages*, Cambridge, 1980, 67, 72. Count Pisani, British Dragoman, wrote to his ambassador in 1824 about 'the principal scales': *British Museum Additional Manuscripts* (hereafter BM Add. MSS) 36301, f. 268v, letter of 14 June 1824.
- (20) Joseph Hacker, 'The Surgun System and Jewish Society in the Ottoman Empire', in Aron Rodrigue (ed.), *Ottoman and Turkish Jewry: Community and Leadership*, Bloomington, 1992, 5, 9, 17.
- (21) Stanford J. Shaw, *The Jews of the Ottoman Empire and the Turkish Republic*, 1991, 32; Mark Alan Epstein, *The Ottoman Jewish Communities and their Role in the Fifteenth and Sixteenth Centuries*,

- Freiburg, 1980, 135; Avigdor Levy, *The Sephardim in the Ottoman Empire*, Princeton, 1992, 47.
- (22) Babinger, 75, 291.
- (23) Necipoglu, 57; Cema' Kafadar, 'Yeniceri-Esnaf Relations: Solidarity and Conflict', unpublished Ph.D. thesis, McGill, 1981, 14, 246-; Apostolos E. Vacalopoulos, *The Greek Nation 1413-1669*, New Brunswick, 1976, 37; A. H. Lybyer, *The Government of the Ottoman Empire in the time of Suleiman the Magnificent*, Cambridge, Mass., 1913, 41.
- (24) Jones, 33, 128 quoting Leonard of Chios and Zorzi Dolfin; Yerasimos, 158; Nizam al-Mulk, *The Book of Government or Rules for Kings*, 1960, 1034-; Alberto Bobovi, quoted in *Archivum Ottomanicum*, XI, 29 - 30. By one estimate, of the first 48 grand viziers after 1453, only 12 were Turkish: see J. de Hammer, *Histoire de l'Empire Ottoman*, 16 vols., 1835 - 40, VIII, 421.
- (25) Yvelise Bernard, *L'Orient du XVI^e siècle à travers les refits de voyageurs français*, 1988, 145: 'la plus fréquente et la plus étendue de toutes... d'autant qu'elle est commune aux Janissaires'; cf. Matei Cazacu, *Trojets et intrigues scribes à la cour de Soliman*, Gilles Veinstein (ed.), *Soliman le Magnifique et son temps*, 1992, 512; Babinger, 147. Another pair of brothers, one Muslim, one Orthodox, were the sons of the first Duke of Herzegovina. One succeeded his father in the duchy; another went to Constantinople, became Grand Vizier under the name Ahmad Pasha Hcrsekzade and married the Sultan's daughter.
- (26) Michel Lesure, 'Notes et documents sur les relations veneto-ottomanes', *Tunica*, VIII, ii9n.; Geoffrey Goodwin, *A History of Ottoman Architecture*, 1992 edn., 2713-; Runciman, *Great Church*, 204; J. A. Cuddon, *The Companion Guide to Yugoslavia*, 1986 edn., 323. The bridge is the subject of Ivo Andric's famous novel, *The Bridges at the Drina*. Sokollu Mehmed Pasha also commissioned buildings in Thrace, northern Greece, Anatolia and Medina.
- (27) Carlier de Pinon, *Voyage en Orient*, 1920, 111, 123; Esther Juhacz (ed.), *Sephardijews in the Ottoman Empire*, Jerusalem, 1990, 122; Albert Galant, *Histoire des juifs à Istanbul*, Istanbul, 2 vols., 1941, 112, 1, 2-127, 122, 115.
- (28) Nicolas de Nicolay, *Dans l'Empire de Soliman le Magnifique*, 1989, 234, 236; Edmondo de Amicis, *Constantinople*, 1894 edn., 15 56-.

- (29) Babinger, 424.
- (30) Raby, 231; Necipogju, 12, 137.
- (31) Babinger, 4723-; A. Navarian, *Les Sultanspoetes* (145119, 1936, (1809-.
- (32) Annemarie Schimmel, *Calligraphy and Islamic Culture*, New York, 1984, 73; E. J. W. Gibb, *A History of Ottoman Poetry*, 6 vols., 19009-, III, 109, 121.
- (33) Babinger, 505, 508.
- (34) Babinger, 43 2.
- (35) H. Inaïcik, 'Policy of Mehmed II', 244; Babinger, 272; Ashiqpashazade in Khoja Saïd-ud-din, *The Capture of Constantinople*, tr. E. J. W. Gibb, Glasgow, 1879, 29; Stephane Yerasimos, *La Fondation de Constantinople et de Sainte-Sophie dans Us traditions turques*, 1990, 34, 85,244.
- (36) Konstantin Mihailovic, *Memoirs of a Janissary*, Ann Arbor, 197 5, 13; Tursun Beg, 33.
- (37) Nicolas Iorga, *Byzance aprcs Byzance*, 1992 edn., 5660 ,8-.
- (38) C. J. G. Turner, 'The Career of George-Gcnnadius Scholarius', *Byzantion*, XXXIX, 1969, 445; Vacalopoulos, *Greek Nation*, 121; Magoulías, 202, 208.
- (39) Donald M. Nicol, *The Immortal Emperor*, 1992, 98109 ,105 ,102-; Hasluck, II, 7212-; de Amicis, 186.
- (40) Robert Schwoebel, *The Shadow of the Crescent the Renaissance Image of the Turk (14521517-)*, Nicuwkoop, 1967,153, 161- 5.
- (41) Mihailovic, 145; Babinger, 317.
- (42) Jones, 134, letter of 23 June 1453; Babinger, 291- 2,

الفصل الثاني

مدينة الله

- (1) Halil Inaïcik, 'Istanbul: an Islamic City', *Journal of Islamic Studies*, I, 1990, 2; Khoja Sa'd-ud-din, 16, 33.
- (2) Andres Tietze (ed.), *Mustafa Ali's Counsel for Sultans of 1581*, 2 vols., Vienna, 1979 - 82, I, 56; Halil Inaïcik, *The Middle East and the Balkans under the Ottoman Empire*, Bloomington, 1993, 28; Sir Hamilton A. R. Gibb, 'Lutfi Pasa on the Ottoman Caliphate', 287- 95.
- (3) M. A. Cook (cd.), *A History of the Ottoman Empire to 1730*, Cambridge, 1976, 40; Ycrasimos, *Fondation*, 172 - 3; El-Tangrouti, *Relation fune ambassade marocaine en Turquie*, ed. Henry de Castries, 1929, 56 - 7.

- (4) Metin And, *Istanbul in the Sixteenth Century*, Istanbul, 1994, 90; *Encyclopedia of Islam*, 2nd edn. (henceforward referred to as EI 2), art. 'Istanbul' by Halil Inalcik.
- (5) Raby, 268; Yerasimos, *Fondation*, 147; Babinger, plate Xa; Evliya Celebi, *Narrative of Travels in Europe, Asia and Africa in the Seventeenth Century*, 2 vols., 1834-50, 1, 71.
- (6) El-Tangrouti, 64.
- (7) Roy Porter, *London: a Social History*, 1994, 13; A. H. Wratislaw (ed.), *Adventures of Baron Wenceslas Wratislaw*, 1862, 32.
- (8) E. J. W. Gibb, *Ottoman Poetry*, II, 396; Goodwin, *Ottoman Architecture*, 12131-; Theodore Spandouyn Cantacasin, *Petit Traictede foriginedesturcqz* ed. Charles Schefer, 1896, 207; Inalcik, 'Islamic City', 10; Robert Mantran, *La Vie quotidienne a Istanbulau siecle de Soliman leMagnifique*, 1990 edn., 158.
- (9) Lybyer, 42, quoting Lorenzo Bernardo; Henry O. Dwight, *Constantinople and its Problems*, 1901, 79; Gibb, *Ottoman Poetry*, III, 133 - 51.
- (10) R. C. Repp, *The Mufti of Istanbul*, 1986, 144, 19 5; Thomas Naff and Roger Owen, *Studies in Eighteenth-cerrtury Islamic History*, Carbonsville, 1977, 19; Abdulkadir Altuna, *Osmanli Seyhulislamлари*, Ankara, 1972, *passim*. A Durrizade was Mufti of Istanbul in 1734-6, 1756-7, 1762-7, 1783-5, 1785-6, 1792-8, 1808-10, 1812-15 and 1920.
- (11) Faruk Suncr, 'Yavuz Selim s'est-il proclame Calife?', *Turrica*, 1991, XXI-XXIII, 34354-.
- (12) Suraiya Faroqhi, *Pilgrims and Sultans: the Hajj under the Ottomans*, 1994, 147, 150.
- (13) Goodwin, *Ottoman Architecture*, 15, 199203-; Aptullah Kuran, *Sinan the Grand Old Man of Ottoman Architecture*, Istanbul, 1987, 29; Evliya Celebi, I, 174.
- (14) M. Piton de Tournefort, *A Voyage into the Levant Perform'd by Command of the Late French King*, 2 vols., 1718, II, 59; I. Mouradgea d'Ohsson, *Tableau general dt l'Empire Ottoman*, 3 vols., 1787/1820-, I, 287; Charles White, *Three Years in Constantinople*, 3 vols., 1845, I, 26.
- (15) Yerasimos, *Fondation*, 2312-.
- (16) Howard Crane, *The Ottoman Sultan's Mosques: Icons of Imperial Legitimacy*, in Irene A. Bierman et al. (eds.), *The Ottoman City and its Parts*, New Rochelle, 1991 edn., 201, 203.

- (17) Robert Mantran, *Istanbul dans la seconde moitié du XVIIe siècle*, 1962, 110.
- (18) Mantran, *Vie quotidienne*, 203; de Amicis, 1819-.
- (19) Lucy M. J. Garnett, *The Dervishes of Turkey*, 1990 edn., 73 - 4; Raymond F. Lifchez (ed.), *The Dervish Lodge: Architecture, Art and Sufism in Ottoman Turkey*, Berkeley, 1992, 297 - 301.
- (20) Garnett, *Dervishes*, 126.
- (21) Metin And, *A Pictorial History of Turkish Dancing*, Ankara, 1976, 40; Lifchez, 100; Garnett, *Dervishes*, 93, 119, 131.
- (22) John Kingsley Birge, *The Bektashi Order of Dervishes*, 1965, 128; Lifchez, s, 170-1, 191; *Istanbul Ansiklopedisi*, art. 'Halvetilik'
- (23) Dr Mcryon, *Travels of Lady Hester Stanhope*, 3 vols., 1846, I, 51; Mouradjet d'Ohsson, I, 193; Evliya Celebi, I, 132; Adnan Adivar, *La Science chez les Turcs Ottomans*, 1938, 33.
- (24) Mouradjet d'Ohsson, II, 82 - 7; White, I, 230 - 5; Pierre Ponafigdine, *Life in the Muslim East*, 1911, 281.
- (25) Faroghi, *Pilgrims and Sultans*, 42, 57; Onnik Jamgocyan, *Les Finances de l'Empire Ottoman et Us financiers de Constantinople*, these de doctorat, Paris, I, 1988, 41.
- (26) Barnette Miller, *Beyond the Sublime Porte*, 1931, 80, 82; Necipoglu, 151.
- (27) Philippe du Fresne Canayc, *Le Voyage du Levant*, 1986, 2219-; Mouradjet d'Ohsson, I, 205; Thomas Watkins, *Tour through Switzerland... to Constantinople*, 2 vols., 1792, II, 227. In 1828 Charles MacFarlane was impressed by the crowd 'still as death', watching the Sultan's procession: id., *Constantinople in 1828*, 2 vols., 1829, I, 499.
- (28) White, I, 229.
- (29) El-Tangrouti, 63; Mouradjet d'Ohsson, I, 305.
- (30) Stanford J. Shaw, *History of the Ottoman Empire and Modern Turkey*, 2 vols., 1976-8, I, 144; Elizabeth Eisenstein, *The Printing Revolution in Early Modern Europe*, Cambridge, 1993, passim; Fatma Muge Gocsek, *East Encounters West: France and the Ottoman Empire in the Eighteenth Century*, New York, 1987, 11213-.
- (31) Yasin Hamid Safadi, *Islamic Calligraphy*, 1987 edn., 29 - 31; Schimmel, 71 - 2; Lifchez, 242; Bernard Lewis, *The Muslim Discovery of Europe*, 1982, 232.

- (32) The Turkish Legacy, exhib. cat., Bodleian Library, Oxford, 1988, 26; Runciman, Great Church, 273 - 4.
- (33) Marios Philippides (ed. and tr.), The Fall of the Byzantine Empire: a Chronicle by George Sphrantzes, Amherst, 1980, 123, 131 (chronicle of Makarios Melissenos); Mme B. de Khitrovo, Itinéraires russes en Orient, Geneva, 1889, 226; Jones, 108.
- (34) de La Motraye, Voyages . . . en Europe, Asie et Afrique, La Haye, 2 vols., 1727, I, 203.
- (35) Hammer, IV, 3645-; Jean-Michel Cantacuzene, Mille Ans dans les Balkans, 1992, 107.
- (36) Revd R. Walsh, A Residence at Constantinople, 2 vols., 1836, II, 386-8; cf. A. Goodrich-Freer, Things Seen in Constantinople, 1926, 112; Khitrovo, 269; Runciman, Great Church, 201 - 2.
- (37) John Covel, diary entry for 8 November 1674, in J. Theodore Bent (ed.), Early Voyages and Travels in the Levant, 1893, 146 - 8; M. Grelot, Relation nouvelle d'un voyage de Constantinople, 1681, 207; Vacalopoulos, Greek Nation, 121, 124.
- (38) La Motraye, II, 364; Runciman, Great Church, 324.
- (39) Runciman, Great Church, 331; Vacalopoulos, Greek Nation, 176.
- (40) Macarius, Patriarch of Antioch, Travels, 1936, 3, 85; Hammer, XII, 17.
- (41) Runciman, Fall, 189, 201; id., Great Church, 184, 190; Mantran, Istanbul, 48.
- (42) Julia Pardoe, The City of the Sultans, 2 vols., 1837, I, 443; Runciman, Great Church, 189; A. Paliouras (ed.), The Oecumenical Patriarchate, Athens, 1989, 65; Pars Tuglaci, Armenian Churches of Istanbul, Istanbul, 1991, 77, 121.
- (43) Wratislaw, 8496-.
- (44) Antoine Gailand, Journals, 2 vols., 1881, I, 220, entry for 3 October 1672; cf. Grelot, 2823-; Nikolaos Adjemoglou, The Ayazmata of the City, Athens, 1990 (in Greek), 1681-17, 16-7.
- (45) Adjemoglou, 645-; Walsh, II, 388; Henry Carnoy and Jean Nicolaides, Folklore de Constantinople, 2 vols., 1894, I, 65 - 7.
- (46) Necipoglu, 231; Lifchez, 193, 133 - 4.

- (47) Mouradgea d'Ohsson, I, 286. The antiquarian Richard Pococke 'entered publicly at such of the mosques as I desired to see, and sometimes even on Fridays': Richard Pococke, *A Description of the East and some other Countries*, 2 vols., 1745, II, part 2, 13 3; Carnoy and Nicolaides, I, 17 2.
- (48) Tulay Artan, 'Architecture as a Theatre of Life: Profile of the Eighteenth-century Bosphorus', unpublished Ph.D. thesis, Massachusetts Institute of Technology, 1989, 159; M. A. Ubicini, *Letters on Turkey*, 2 vols., 1856, II, 3 59.

الفصل الثالث

القصر

- (1) Necipoglu, 242, 44; Shaw, *History*, I, 130.
- (2) Necipoglu, 15; Babinger, 418.
- (3) Necipoglu, 19.
- (4) Serif Mardin, *The Genesis of Young Ottoman Thought*, Princeton, 1962, 110; Necipoglu, 85, 107.
- (5) Mustafa Naima, *Annals of the Turkish Empire*, 1842, I, 327; Bernard Lewis, *Islam in History*, 1973, 211.
- (6) Babinger, 461.
- (7) B. Miller, *Sublime Porte*, 163; Leslie Peirce, *The Imperial Harem: Women and Sovereignty in the Ottoman Empire*, Oxford, 1993, 243.
- (8) R. B. Merriman, *Suleyman the Magnificent*, Harvard, 1944, 33.
- (9) Necipoglu, 36; Kemal H. Karpat (ed.), *The Ottoman State and its Place in World History*, Leiden, 1974, j i; Veinstein, *Soliman leMagnifique*, 166, 169.
- (10) B. Miller, *Sublime Porte*, 176; Necipoglu, 100; J. M. Rogers (ed.), *The Topkapi Saray Museum: Costumes, Embroideries and Other Textiles*, 1986, 161.
- (11) Mary Nisbet of Dirleton, Countess of Elgin, *Letters*, 1926, 56, to her mother 27 November 1799; El-Tangrouti, 46, 58; H. F. Brown, I, 20.
- (12) Lorrd Charlemont, *Travels in Greece and Turkey 1749*, ed. W. B. Stanford and E. J. Finopoulos, 1984, 168; El-Tangrouti, 61; C. G. and A. W. Fisher, 'Alberto Bobovi's Account of Topkapi Saray' (henceforward referred to as Bobovi), in *Archivum Ottomanicum*, XI, 1985, 23, 80;

- Alexandru Dutu and Paul Cernovodeanu (eds.), *Dimitrie Cantemir, Historian of South-East European and Oriental Civilisations*, Bucharest, 1973 (henceforward referred to as Cantemir), 171; Necipoglu, 26.
- (13) Necipoglu, 249, 616-; Nils Rolamb, 'A Relation of a Journey to Constantinople', in A. C. Churchill (ed.), *A Collection of Voyages*, 5 vols., 1732, V, 683.
- (14) Bobovi, 5 5.
- (15) Esin Aril, *Turkish Art*, 1980, 349; Rogers, *Topkapi: Costumes*, 160.
- (16) Rogers, *Topkapi: Costumes*, n, 37 and passim; Aril, *Turkish Art*, 350; J. M. Rogers and R. Ward, *Suleyman the Magnificent*, 1988, 166; Babinger, 441.
- (17) Rogers, *Topkapi: Costume*, 21; J. B. Tavernier, *Nouvelle Relation de l'interieur du Serail du Grand Seigneur*, 1675, 112; Norman Itzkowitz and Max Mote, *Mubadele: an Ottoman Russian Exchange of Ambassadors*, Chicago, 1970, 167.
- (18) Mouradgea d'Ohsson, II, 142.
- (19) Necipoglu, 68; Domenico Sestrini, *Lettns... petulant le nun de ses voyages en Itatit, en SiciHeeten Turquie*, 3 vols., 1789, III, 474, letter of 5 December 1778.
- (20) Esin Aril, *The Age of Sultan Suleyman the Magnificent*, New York, 1987, 62, 113; B. Miller, *Sublime Porte*, 21521-.
- (21) J. M. Rogers, *The Topkapi Saray Museum: The Treasury*, 1987, 40 and illustrations passim.
- (22) Halil Inalcik and Cemal Kafadar (eds.), *Suleyman the Second and His Time*, Istanbul, 1993, 33, 263-4; Rogers and Ward, 120, 123; Nevber Gursu, *The Art of Turkish Weaving*, Istanbul, 1988, 46; Wratislaw, 58.
- (23) Janusz Tazbir, 'Les Influences oricntales en Pologne au XVIe-XVIIIe sièles', in *La Pologne au XVe Congres International des Sciences Historiques a Bucarest*, Warsaw, 1980, 214. I am grateful for this reference to Andre Nieuwaszny.
- (24) Atil &, *Age of Sultan Suleyman*, 31; Rogers and Ward, 187; Gursu, 167; Nurhan Atasoy and Julian Raby, *Iznik the Pottery of Ottoman Turkey*, 1989, 76-7; Aril, *Turkish Art*, 283.
- (25) Rogers and Ward, 186; Atasoy and Raby, 14-15, 23; Aril, *Turkish Art*, 163-5, 198, 216; Gursu, 112-13.

- (26) Aysegul Nadir (ed.), *Imperial Ottoman Ferman*, 1986, passim; Rogers and Ward, 56.
- (27) Raby, 299; Bobovi, 25, 78.
- (28) Vers FOrient, exhib. cat., *Bibliothèque Nationale*, 1983, 68; Bobovi, 29-54, 30; Barnette Miller, *The Palace School of Mohammed the Conqueror*, Cambridge, Mass., 1941, 7. The Muteferrik, another unit in the palace, were artists and nobles 'of all nations and all religions'.
- (29) Necipoglu, in-16, 149; Bobovi, 37, 49.
- (30) Carter V. Findlay, *Bureaucratic Reform in the Ottoman Empire: the Sublime Porte 1789-1922*, Princeton, 1980, 37; White, I, 183; Fanny Davis, *The Ottoman Lady: a Social History from 1718 to 1918*, New York, 1986, 193.
- (31) Bobovi, 45; Carl Max Kortepeter, *The Ottoman Turks: from Nomad Kingdom to World Empire*, Istanbul, 1991, 133; Hammer, VII, 227; Gerald de Gaury, *Rulers of Mecca*, 1951, 129, 155, 161.
- (32) Celik Gulersoy, *The Caique*, Istanbul, 1991, passim; Major-General Sir Grenville Temple, *Travels in Greece and Turkey*, 2 vols., 1836, II, 18; Bobovi, 56, 61; John Sanderson, *Travels in the Levant 1584-1602*, 1931, 89.
- (33) Hammer, V, 138-45.
- (34) Evliya Celebi, II, 130, 147; Hammer, VII, 148-63; Jean Palerne, *Peregrinations*, Lyons, 1606, 459; Peirce, *Imperial Harem*, 193.
- (35) Hammer, VII, 150-1; Pars Tuglaci, *The Ottoman Palace Women*, Istanbul, 1985, 333-5.
- (36) Tuglaci, *Palace Women*, 34850-; cf. Sestrini, III, 4439- for a description of a princess's wedding procession on 17 November 1778; F. Davis, 68.
- (37) Aril, *Turkish Art*, 186-7, 220-1; Tuglaci, *Palace Women*, 336.
- (38) Tuglaci, *Palace Women*, 341-3; Hammer, XVI, 36; Hans Christian Andersen, *a Poet's Bazaar*, New York, 1988, 120.
- (39) Tommaso Bertele, *Il palaigp degli amhasciatori di Veneqa a Constantinopoli e le sue antiche memorie*, Bologna, 1932-X, 108; du Fresne Canaye, 60; *At the Sublime Porte*, exhib. cat, Hazlitt, Goodcn and Fox, 1988, 15.

- (40) Evliya Celebi, I, 12, 101, 103, 131; Albeit Vandal, *Les Voyages au Marquis de Nointel*, 1900, 62-3, despatch of 9 May 1671; C. Snouck Hurgronjc, *Mekka in the latter part of the Nineteenth Century*, Leiden-London, 1931, 244n.

الفصل الرابع الحريم والحمامات

- (1) Tuglaci, *Palace Women*, 155; F. Davis, 102.
- (2) Peirce, *Imperial Harem*, 40-4, 277.
- (3) Leslie Peirce, *The Imperial Harem: Gender and Power in the Ottoman Empire 1520-1657*, Princeton, 1988 (henceforward referred to as 'Gender and Power'), 98, 100-3.
- (4) Necipoglu, 163.
- (5) Gibb, III, 9; Talat Halman, *Suleyman the Magnificent, Poet*, Istanbul, 1989, passim, Veinstein, Soliman, 99.
- (6) M. Cagatay Ulucay, *Sultanlarina Ask Mektuplari*, Istanbul, 1950, 1-18 passim; Peirce, *Imperial Harem*, 64.
- (7) Peirce, *Imperial Harem*, 60-4.
- (8) Babinger, 66, 40 - 4, 5; A. D. Alderson, *The Structure of the Ottoman Dynasty*, 1956, 26.
- (9) Sherrard, 54; Rogers and Ward, 9; Merriman, 76-7.
- (10) Merriman, 121, 122.
- (11) ragadin, 1526, quoted in Lybyer, 53n.; Ulucay, 39-40; Geuffroy, quoted in Schefer (ed.), 24on.
- (12) Halil Inalcik, 'Sultan Suleyman the Man and the Statesman', in Veinstein, Soliman, 92-6.
- (13) Merriman, 185; Necipoglu, 257.
- (14) Peirce, 'Gender and Power', 157; Merriman, 187.
- (15) Ogier Ghislain de Busbecq, *Turkish letters*, Oxford, 1927, 33; Gibb, III, 119, 131; Ulucay, 47.
- (16) Peirce, 'Gender and Power', 207; Benjamin Arbel, 'A Venetian Sultana?', *Turcia XXIV*, 1992, 241-59.

- (17) Necipoglu, 95-6, 171-2.
- (18) Hammer, VII, 10, 283; Bobovi, 73; James C. Davis (ed. and tr.), *The Pursuit of Power. Venetian Reports on Spain, Turkey, France in the Age of Philip II*, 1970, 2-6.
- (19) J. M. Rogers (ed.), *The Topkapi Saray Museum. Architecture: the Harem and Other Buildings*, 1988, 27, 32, 34.
- (20) Peirce, 'Gender and Power', 180; Susan Skilliter, 'The Letters of the Venetian 'Sultana' Nur Banu and her Kira to Venice', in *Studia Turcologica ... Alexis Bombacci*, 515-27; Necipoglu, 175; Kuran, 181.
- (21) Peirce, 'Gender and Power', 351; Tavernier, 257-62.
- (22) Necipoglu, 175.
- (23) Mehmed Ipsirli, 'Mustafa Selaniki and His History', *Tarih Enstitüsü Dergisi*, IX, 1978, 437; Tietze, I, 60.
- (24) J. C. Davis, 147-9; Peirce, 'Gender and Power', 186; Spandugino in Lybyer, 144; Hammer, VII, 4.
- (25) Peirce, 'Gender and Power', 374, 380, 382.
- (26) White, I, 266; Bobovi, 26; Molly Mackenzie, *Turkish Athens*, 1992, 30-2, Nadir, 113.
- (27) Tuglaci, *Palatt Women*, 84.
- (28) Mantran, *Vite quotidienne*, 81; Evliya Celbi, II, 11; White, III, 234.
- (29) Bobovi, 23.
- (30) Tuglaci, *Palace Women*, 156-9.
- (31) B. Miller, *Sublime Pork*, 26, 27; Chris Hellier and Franco Venturi, *Splendours of the Bosphorus: Houses and Palaces of Istanbul*, 1993, 215.
- (32) Peirce, *Imperial Harem*, 104-5, 244-5.
- (33) Peirce, *Imperial Harem*, 26970-; Hammer, X, 7, 72-5.
- (34) Hammer, X, 176-8.
- (35) Peirce, 'Gender and Power', 291, 112, 194-5; Charles Pertusier, *Promenades pittoresques dans Constantinople et sur le Bosphore*, 3 vols., 1815, II, 197.
- (36) Peirce, 'Gender and Power', 220, 257, 243, 279.

- (37) Peirce, 'Gender and Power', 273, 280, 286, 337n.; Robert Dankoff (ed.), *The Intimate Life of an Ottoman Statesman*, Albany, 1991, 27.
- (38) Pars Tuglaci, *Women of Istanbul in Ottoman Times*, Istanbul, 1984, 189-208; Robert Mantran, *Istanbul dans la seconde moitié du XVIIe siècle*, 1962, 504.
- (39) F. Davis, 132-3.
- (40) Sevgi Gonul (ed.), *The Sadberk Hanım Museum*, Istanbul, 1988, 172, 176; F. Davis, 69-76; James E. P. Boulden, *An American among the Orientals*, Philadelphia, 1855, 165-9.
- (41) Ian C. Dengler, 'Turkish Women in the Ottoman Empire', in Nikki Keddie and Lois Beck (eds.), *Women in the Muslim World*, 1978, 235-8; Hammer, XI, 435 n.
- (42) MacFarlane, *Constantinople*, II, 521.
- (43) Tulay Artan, *The Palaces of the Sultanas*, Istanbul: Selections, I, i, Istanbul, 1993, 87-97; Mouradgca d'Ohsson, III, 315; White, I, 325. Until 1914 one reason for officials' reluctance to leave Istanbul was 'the great reluctance of our women to endure the hardships of the deprivations of provincial life': Marmaduke Pickthall, *With the Turk in Wartime*, 1914, 21 o.
- (44) Hammer, XVI, 20; Dankoff, 226, 233, 234, 259.
- (45) Bobovi, 70; Tijcn Ozdoganci, 'The Ballad of Adile Sultan', in *Istanbul: the Guide*, May 1993, 5. On the death of Mustafa Reshid Pasha in 1858, his wife learnt for the first time that he had two other harems, each containing two young Circassian slave girls: L. Thouvenel, *Trois Annees de la Question Orient*, 1897, 223, Comte de Thouvenel to Comte Walewski, 19 January 1858.
- (46) Cemal Kafadar, 'Women in Seljuk and Ottoman Society up to the Mid-nineteenth Century', in *Women in Anatolia: Nine Thousand Years of the Anatolian Woman*, exhib. cat., Istanbul, 1993, 196-7; F. Davis, 92.
- (47) Quoted in Alev Lyle Croutier, *Harem: the World behind the Veil*, New York, 1989, 154-5.
- (48) Peirce, *Imperial Harem*, 269; Kafadar, in *Nine Thousand Years of the Anatolian Woman*, 198, 204; Pertusier, II, 197; Leila Hanoum, *Le Harem imperial et Us sultanes au XIXe siècle*, Brussels, 1991 edn., 29; Don Juan, V, 158.

- (49) Marquis de Ferriol, *Correspondence*, Antwerp, 1870, 267. Ferriol, the French ambassador, wrote on 16 February 1708 to M. Blondel de Jouvan-court, of 'les femmes de Constantinople qui me pretaient de Pargent'; Kafadar, 'Women in Seljuk and Ottoman Times', in *Nine Thousand Years of the Anatolian Woman*, exhib. cat., 219-20.
- (50) Ulku U. Bates, 'Women as Patrons of Architecture in Turkey', in Keddie and Beck (eds.), 146-7.
- (51) Peirce, *Imperial Harem*, 209; John Freely, *Stamboul Sketches*, Istanbul, 1974, 110.
- (52) Fleischer, 53; *Journal of Ottoman Studies*, VII, Istanbul, 1988, 140; Louis Mitler, *Ottoman Turkish Writers*, Washington, 1988, 55, 81; F. Davis, 229-31; Schimmel, 47.
- (53) De Amicis, 221; Leila Hanoum, 150.
- (54) Pauline Johnston, *Turkish Embroidery*, 1985, 9, 84; White, II, 104; Lady Mary Wortley Montagu, *The Turkish Embassy Letters*, ed. Malcolm Jack, 1994, 116, letter of 10 March 1718.
- (55) Galland, II, 59, diary entry for 20 April 1673; cf. Comte de Guilleragues, *Correspondance*, 2 vols., Geneva, 1976, II, 975, *memoire sur le commerce du Levant* 9 June 1684; Juhacz (ed.), 72-3, 80, 100.
- (56) Dorothy M. Vaughan, *Europe and the Turk: a Pattern of Alliances*, Liverpool, 1951, 132; Michel Carmona, *Marie de Medicis*, 1981, 126; *National Palaces*, Istanbul, 1992, 138.

الفصل الخامس

مدينة الله

- (1) Mantran, *Istanbul*, 25, 74; Grenville Temple, II, 14, 16-17; Pierre Gilles, *The Antiquities of Constantinople*, New York, 1988, 23-5.
- (2) Andersen, 99; Mantran, *Istanbul*, 72, 95.
- (3) M. A. Belin, *Histoire de la Latinité de Constantinople*, 2nd edn., 1894, 337, 341; M. du Mont, *Voyages*, 4 vols, La Haye, 1699, II, 374.
- (4) Necipoglu, 238; Vaughan, 169; Sestini, III, 230-8, letter of 8 May 1778.
- (5) Mantran, *Istanbul*, 88n., 481, 488, 583; Vacalopoulos, *Greek Nation*, 284-5.
- (6) Levy, *Sephardim*, 24; Halil Inalcik and Donald Quataert, *An Economic and Social History of the Ottoman Empire*, 1994, 95, 231, 248.

- (7) Richards, 163, 167, Giovanni Maringhi to Nicolo Michelozzi, 29 March 1502; 'il carico principale di un bailo di Constantinopoli e la difensione delle mercanze della nazione', Navagero, 1553, quoted in Horatio F. Brown, *Studies in the History of Venice*, 2 vols., 1907, 1, 25; Paul Masson, *Histoire du commerce français dans le Levant au XVIIIe siècle*, 1911, 612; Susan Skilliter, *William Harborne and the Trade with Turkey 117-8 -1582*, Oxford, 1977, 50, cf. 115; Alfred C. Wood, *A History of the Levant Company*, 1935, 72.
- (8) Masson, 429, 454; Braudel, *Civilisation and Capitalism*, II, 471.
- (9) Mantran, *Istanbul*, 237, 241, 608.
- (10) M. de Thévenot, *Travels into the Levant*, 5 parts, 1687, I, 18, 62; Lord Charlcmont, *Travels in Greece and Turkey 1749*, ed. W. B. Stanford and E. J. Finopoulos, 1984, 209; cf. 'The police of this city is in many respects beyond that of any other', Lord Baltimore, *A Tour to the East in the Years 1763 and 1764*, 1767, 58.
- (11) Anon., *Letters Historical and Critical*, 30, 38; Mantran, *Vie quotidienne*, 43.
- (12) Hon. Roger North, *Lives of the Norths*, 3 vols., 1890, II, 48, 53, 71-2, 148; Cemal Kafadar, 'Self and Others: the Diary of a Dervish in Seventeenth-century Istanbul and First Person Narrative in Ottoman Literature', *Studia Islamica*, LXIX, 1989, 121-50; Masson, *Commerce français au XVIIe siècle*, 468.
- (13) North, II, 407, III, 58; cf. Naima, I, 138 and Pertusier, II, 108 for other accounts of social relations between Christians and Muslims.
- (14) Daniel Panzac, 'International and Domestic Maritime Trade in the Ottoman Empire during the Eighteenth Century', *International Journal of Middle Eastern Studies*, May 1992, 195-201.
- (15) Hammer, VI, 241; Charles Issawi, *An Economic History of Turkey 1800-27*, 1980, 1914; Mantran, *Vie quotidienne*, 127; Francis Peter Werry, *Personal Memoirs and Letters*, 1861, 90.
- (16) Mantran, *Istanbul*, 190, 1989, 446-n.; de Amicis, 71.
- (17) Anthony Greenwood, 'Istanbul's Meat Provisioning: a Study of the Celepkesjan System', unpublished D.Phil. thesis, Chicago, 1981, 4-5, 9; Naima, I, 37.

- (18) Greenwood, 13-14, 285, 122; Suraiya Faruqi, *Towns and Townsmen of Ottoman Anatolia*, Cambridge, 1984, 228, 231; Thevenot, I, 61.
- (19) Daniel Goffman, *Izmir and the Levantine World* ijjo-Intro, 1990, 34; B. Miller, *Sublime Porte*; 1945-; N. M. Penzer, *The Harem*, 1966 edn., 115, 128, 130.
- (20) Greenwood, 156, 162; Mantran, *Istanbul*, 1812-; Baltimore, 59.
- (21) Mantran, *Istanbul*, 351, 353, 380, 390.
- (22) Babinger, 452.
- (23) Jean Michel Cantacuzene, *Mille Ans dans les Balkans*, 1992, 102, 105, 121, 1256-; Emile Lcgrand, *Recueildepoeemes historiques en grec vulgaire*, 1877, 29-8 ,3-.
- (24) Vacalopoulos, *Greek Nation*, 209, 259, 285; Troian Stoianovic, 'The Conquering Balkan Orthodox Merchant', *Journal of Economic History*, 1960, 272, 302.
- (25) Greenwood, 54; Mantran, *Istanbul*, 366, 374; id., *Vie quotidienne*, 154.
- (26) Nicolas Soutzo, *Memoires*, Vienna, 1896, 10, 24; Rodrigue, 21, 23, 37; Braude and Lewis, I, 105.
- (27) Richard Fletcher, *Moorish Spain*, 1992, 166-8; Halil Inalcik, 'Ottoman Galata', in Bâhem Eldem (ed.), *Recherches sur la ville ottomane*, Istanbul, 1991, 68-70.
- (28) *Levant Herald*, 19 October 1869; Galante, *Histoire des juifs*, I, 33.
- (29) Jak Deleon, *Ancient Districts on the Golden Horn*, Istanbul, 1992, 18 and passim; Shaw, *Jews*, 48-9.
- (30) Shaw, *jews*, 84-5; Nicolay, 23 - 34.
- (31) Cecil Roth, *Dona Gracia Nast*, Paris, 1990, 96, 115, 143; Epstein, 923-; Maria Pia Pedani, *In nome del Gran Stgnore: inviati ottomani allencia dalla caduta di Constantinopoli allaguerra di Candia*, Venice, 1994, 154.
- (32) Cecil Roth, *The House of Nasi: the Duke of Naxos*, Philadephia, 5708170 ,9-8 ,1948/; Nicolas Iorga, *Byzance apres Byzance*, 1992 edn., 50.
- (33) Roth, *Duke of Naxos*, 41, 43, 46, 9 5.
- (34) Galante, *Histoire des juifs*, I, 188, Suleyman to Charles DC 23 March 1565; Roth, *House of Nasi*, 58, 60; M. de Charnere, *Negociations de la France dans le Levant*, 4 vols., 1848-60, III, 61, despatch of 14 March 15 69.

- (35) Roth, *Duke of Naxos*, 50, 152; Michel Lesure, 'Notes et documents sur les relations veneto-ottomanes 1570-1573': IF, *Turcica*, 1972, IV, 148; *Tunica*, 1976, VIII, I, 138.
- (36) Roth, *Duke of Naxos*, 108, 115, 137, 143.
- (37) Abraham Galante, *Appetdices a l'histoire des juifs d'Istanbul*, Istanbul, 1941, 1636-; Mantran, *Istanbul*, 60-5, 61.
- (38) Levy, *Sephardim in the Ottoman Empire*, 91.
- (39) Onnik Jamgocyan, 'Les Finances de l'Empire Ottoman et les financiers de Constantinople', unpublished Ph.D. thesis, Paris, I, 1988, 15; H. D. Barsoumian, *The Armenian Amira Class of Constantinople*, unpublished Ph.D. thesis, Columbia, 1980, 87; Walsh, II, 430.
- (40) Barsoumian, 64, 79, 81.
- (41) Onnik Jamgocyan, *Une Famille de financiers arméniens au XVIII^e siècle: les Serpos*, Paris, n.d., 368, 371.
- (42) Barsoumian, 160-2; Zabel Essayan, *Les jardins de Silihdar*, 1994, 1214-.
- (43) Mantran, *Istanbul*, 463-4; Cclik Gulersoy, *The Story of the Grand Bazaar*, Istanbul, 1990, 21, 55, 56.
- (44) Halil Inalcik, *The Hub of the City: the Bedestan of Istanbul*, *Studies in Ottoman Social and Economic History*, 1985, IX, *passim*, Gulersoy, *Grand Bazaar*, 29, 37; du Fresne Canaye, 95.
- (45) Pertusier, II, 177; Gulersoy, *Grand Bazaar*, 32, 50, 55, 70.
- (46) Hafez Farmayan and Elton L. Daniel (eds.), *A Shiite Pilgrimage to Mecca 1881-142*, 1990, 6-; Stéphane Lauzanne, *Au chevet de la Turquie*, 1913, 2267-; *Istanbul Ansiklopedisi*, Istanbul, 1994-5, art. 'Buyuk Valide Han'.
- (47) North, II, 176; Mantran, *Istanbul*, 5067-; id., *Vie quotidienne*, 143; du Fresne Canaye, 946-; Jean Chesneau, *Le Voyage de Monsieur d'Aramon ...en Levant*, 1887, 34; Cantemir, 52.
- (48) Leila Hanoum, 54, 56, 58; Lady Hornby, *Constantinople during the Crimean War*, 1863, 364, letter of July 1860. In a list of 42 prominent slave dealers in the early 1880s, 14 were women: Ehud R. Tibledano, *The Ottoman Slave Trade and its Suppression 1840-1890*, Princeton, 1982, 59.
- (49) Gulersoy, *Grand Bazaar*, 41; Inalcik, *Studies*, VII, 26, 47.

الفصل السادس

الوزراء والترجمات

- (1) Hammer, VIII, 289, 301, 305n., 310-11; Michael Strachan, Sir Thomas Roe, 1989, 145-8; Pierce, Imperial Harem, 171.
- (2) Paul Rycha, The Present State of the Ottoman Empire, 1675, 46; Inalcik and Kafadar, 103.
- (3) Mantran, Istanbul, 102, 293, 303, 307, 321.
- (4) Findlay, Bureaucratic Reform, 55, 87; id., Ottoman Civil Officialdom, Princeton, 1992, 22; Charlemont, 16870-; Michel Lesure, Lepante: la crise de l'Empire Ottoman, 1972, 1720-; cf. Sir James Porter, an eighteenth-century British ambassador: 'there is no Christian power which can vie with the Porte for care and exactitude in the several offices; business is done with the greatest accuracy, in any important document words are weighed and that signification constantly selected which may most induce to their own advantage - and Papers of the remotest date, if the year of the transaction is but known, may be found at the Porte.'
- (5) Artan, 'Architecture', 97n.; id., The Kadirga Palace shrouded by the Mists of Time', Turcica, XXVI, 1994, 801, 105-; Rifa'at Ali Abou el-Hajj, The 1703 Rebellion and the Structure of Ottoman Politics, Istanbul, 1984, 14n.; Nicolas Vatin, 'Les Cimetieres musulmans ottomans: source d'histoire sociale', in Daniel Panzac (ed.), Les Villes dans l'Empire Ottoman: activite et societe, 1991, 157-8; Yilmaz Oztuna, Devletlir ve Hanedanlar, II, Turkiye (1074-1000-), Ankara, 1990, 834-8; Sir James Porter Turkey, its History and People, 2 vols., 1854, 1, 317-18.
- (6) Mantran, Istanbul, 96, 252-3; Sir Thomas Roe, Negotiations in his Embassy to the Ottoman Porte from the year 1621 to 1628, 1749, 37, 38; Pierce, 'Gender and Power', 295.
- (7) Metin Kunt, The Koprulu Years 1656-1661, unpublished Ph.D. thesis, Princeton, 1971, 32-4, 41, 141, 148.
- (8) Dankoff, 204.
- (9) Hammer, XI, 49-55; Dankoff, 204. The death of the Armenian Patriarch may have been caused by disputes between pro- and anti-papal factions: Leon Arpee, A History of Armenian Christianity', New York, 1946, 229.

- (10) John Covcl, in J. Theodore Bent (ed.), *Early Voyages and Travels in the Levant*, 1893, 206, diary entry for 27 May 1675; B. Miller, 117; Bobovi, 57; Peirce, 'Gender and Power', 296n.
- (11) B. Miller, 116.
- (12) Hammer, XI, 6, 164; Mantran, *Istanbul*, 374; Madeleine C. Zilfi, 'The Kadizadeliler Discordant Revivalism in Seventeenth-century Istanbul', *Journal of Near Eastern Studies*, 45, 4, 1986, 251-62; Charles A. Frazee, *Catholics and Sultans*, 1983, 99.
- (13) Abbe Toderini, *De la Utterature des Tuns*, 3 vols., 1789, I, 57; Bobovi, 57; Abdulhak Adnan, *La Science chez les Tares Ottomans*, 121-3; Covcl, 195, diary entry for 19 May 1676.
- (14) Levy, *Sephardim*, 84-6; Gershom Scholem, *Sabbatai Sevi: the Mystical Messiah*, 1971, 435, 450, 606, 674-9.
- (15) Hammer, XI, 260, 366, 379.
- (16) Abou el-Hajj, 82; Paul Rychaut, *The History of the Turks beginning with the year 1679*, 3 vols., 1687, 6th edn., II, 222.
- (17) Cantemir, 101, 190; Hammer, VIII, 305n.; Paul Fesch, *Constantinople aux derniers jours d'Abdul Hamid*, 1907, 282 quoting Vakit, 27 October 1876; cf. Findlay, *Ottoman Civil Officialdom*, 62 quoting the Kadi of Istanbul at a council in 1784 to the Grand Vizier 'We are obedient and subservient outwardly and inwardly to the wishes and commands of our Sovereign who is Commander of the Faithful. It is impossible to obtain from us an explanation of why things have turned out as they have. You are the absolute delegate of our Sovereign. Deign [to tell us] what is the view of the Sovereign in this matter and we shall say we hear and we obey.'
- (18) Hammer, XII, 238-9, 305; Kenneth M. Setton, *Venice, Austria and the Turks in the Seventeenth Century*, Philadelphia, 1991, 371, 380, Sir William Trumbull to the Earl of Nottingham 6 November 1689, 15 June 1691.
- (19) Vahid Cabuk, *Koprululer*, 1988, 166, 175, 177; Hammer, XII, 307, 319-22; Cantemir, 102.
- (20) Cabuk, 178, 182; Lewis V. Thomas, *A Study of Naima*, New York, 1972, 31-2.

- (21) Rifa'at Ali Abou el-Hajj, 'Ottoman Attitudes towards Peace-Making: the Karlowitz Case', *DerIslam*, 1974, 136; Hammer, XIII, 2930-; visit to Koprulu Yalisi with Fcyaz Koprulu, 27 November 1993. Fcyaz Koprulu says the divanhane will be restored. But for scaffolding recently erected, this incomparable room, whose condition is an object-lesson in the disadvantages of communal ownership, would have colkpsed.
- (22) Ferriol, 162, Ferriol to Louis XIV, 10 August 1700; A. N. Kurat (ed.) *The Despatches of Sir Robert Sutton Ambassador in Constantinople 1710-1714*, 195 3,17, Sutton to Sunderland, 7 June 1710; Louis Rousseau, *Les Relations diplomatique' de la France et de la Turquie a' XVIIIe stick*, 1,1908, 298; Cabuk, 195-7; Cantcmir, 193.
- (23) C. Bosscha Erdbrink, *At the Threshold of Felicity: Ottoman-Dutch Relations during the Embassy of Cornells Calkoen at the Sublime Porte 1726-1744*, Ankara, 1975, 171, Calkoen to States-General 11 April 1733; interview with Orhan Koprulu, j November 1991.
- (24) Setton, 371, Sir William Trumbull to Earl of Nottingham 6 November 1689; Hammer, XII, 322.
- (25) J. H. Elliott, *Richelieu and OUvares*, 1992 edn., 160.
- (26) Nestor Camariano, *Alexandre Mavrocordato le Grand Drogman: son activite diplomatique*, Thessaloniki, 1970, passim; A. C. Stourdza, *L 'Europe orientate et le role historique des Mavrocordato 1660-1830*, 1913, 354; Cantemir, 279; Piton dc Tournefort, I, 385-6; Montagu, 126, Lady Mary Wortlcy Montagu to Lady Birstol 10 April 1718. The present author has met an Armenian Lady of advanced age, living near Taksim, who claims to have visited Istanbul proper only three times.
- (27) N. M. Vaporis, 'A Study of the Zisking MS No. 22 of the Yale University Library', *Greek Orthodox Theological Review*, Fall 1967, XII, 3, 13, 27; G. Chassious, *L 'Instruction publique che% les Grecs depuis la prise de Constantinople par les Tuns*, 18 81, 27.
- (28) Hammer, XII, 141; Vaporis, 'A Study', 21; Camariano, 34, 68; SOAS Library MSS., Paget Papers, 50 X/4, letters of 23 February, 2 April 1699; Setton, 406.
- (29) Camariano, 78, 102.
- (30) E. Miller, 'Alexandre Mavrocordato' *Journal des Savants*, May 1879, 229, Daubert to Torcy 25 July 1698, 264; Galland, I, 237, 18 November 1672; R. W. Seton Watson, *A History of the Roumanians*, 1934, 934-n.; Ferriol, 116, Ferriol to Louis XIV 12 May 1700.

- (31) Hammer, XI, 425; Vapori, 'A Study', 37; Camariano, 81, Mavrocordato to Patriarch 29 August 1707; Philip P. Argenti, Chius Vincta, Cambridge, 1941, clxxv.
- (32) La Motraye, I, 374; Iorga, Byzance, 135, 145; Stourdza, 98; Theodore Blancard, les Mavroyenni: histoire d'Orient, 2 vols., 1909, I, 468; Comte d'Hauterive, Memoire sur l'etat ancien et actuel de la Moldavie. .. en 1787, Bucarest, 1902, 339, 346.
- (33) Cantemir, 158-64; Soutzo, 26-31; Michel Sturdza, Grandes Families de Grece, d'Albanie et de Constantinople, 1983, 142-3.
- (34) Camariano, 85; Cantemir, 144 - 5, 253; A. N. Kurat (ed.), The Despatches of Sir Robert Sutton, Ambassador in Constantinople 1710-1714, 1953, 29, Sutton to Earl of Dartmouth 8 December 1710; Cyril Mango, The Phanariots and the Byzantine Tradition', in Richard Clogg (ed.), The Struggle for Greek Independence, 1973, 44-5.
- (35) William Wilkinson, An Account of the Principalities of Wallachia and Moldavia, 1820, 135; Marechal Prince de Ligne, Memoires, 5 vols., 1828, I, 211-14, Ligne to Comte de Segur i December 1788; II, 390-2.
- (36) Stourdza, 98-9; Baron Eudoxiu de Hurmuzaki (ed.), Documente privitoare la Istoria romanilor, Bucharest, 1912, XVI, 401, letter of 12 December 1716.
- (37) C. Mango, 'The Phanariots and the Byzantine Tradition', in Clogg (ed.), Struggle, 53; Ariadna Camariano-Cioran, Its Academies principes de Bucarest et de jassy et leurs professeurs, Thessaloniki, 1974, 77; Corneliu Dima Dragan, 'La Bibliophilie des Mavrocordato', in L'Epoque phanariote, Thessaloniki, 1974, 209-16.
- (38) G. P. Henderson, The Revival of Greek Thought, Edinburgh, 1971, 23; Stourouva, 134.
- (39) Jacques Bouchard, 'Nicolas Mavrocordato et l'aube des lumieres', Revue des Etudes du Sud-Est Europe, XX, 1981, 237-46; id. (ed.), Us Loistn de Athens-Montreal, 1989, 79, 101, 119, 149, 151, 181; Sutton, 203, despatch of 3 September 1714; Cantacuzcnc, 201, 207.
- (40) Vasile Dragut, 'Le Monastere de Vacaresri: expression des relations artistiques roumaines-grecques', in L'Epoque phanariote, 295-300; Stourdza, 266-70 and figs. 26-33; Sturdza, 320, 328.
- (41) N. Iorga, Histoire des Roumains et de la Romanite orientate, 9 vols., Bucharest, 1937-44, VII, 20-3; Fragments tires des chroniques moldaves et valaques, 2 vols., Jassy, 1843, II, 16, chronicle of Nicholas Muste.

- (42) Mihaila Stăianova, 'Des Relations entre le Patriarcat oecuménique et la Sublime Porte en Constantinople au courant du XVIII^e siècle', *Balkan Studies*, XXV, 2, 1984, 449-56; Theodore H. Papadopoulos, *Studies and Documents relating to the History of the Greek Church and People under Turkish Domination*, Brussels, 1952, 52; Madame Chénier, *Lettres sur les danses grecques*, 1879 edn., 137, 190-1.
- (43) Denis Deletant, 'Romanian Society in the Danubian Principalities in the early Nineteenth Century', in Richard Clogg (ed.), *Balkan Society in the Age of Greek Independence*, 1981, 238.
- (44) Iorga, *Histoire des Roumains*, VII, 9, 154n., 164, 239; Marthe Bibesco, *La Nymphée Europe*, 1960, 306-7, Villeneuve to Maurepas 15 April 1731; Stourdză, 201, 210, 217.
- (45) Hurmuzaki, XIX, part I, 224, Raicevich to Kaunitz 30 November 1784; Paschalis M. Kitromilides, *The Enlightenment as Social Criticism: Miosipis Moisiodax and Greek Culture in the Eighteenth Century*, Princeton, 1992, 83, 94; Clogg, *Movement*, 36, 59-60; Richard Clogg, 'The Greek Millet in the Ottoman Empire', in Braude and Lewis (eds.), I, 185, and Braude and Lewis, 'Introduction', in *ibid.*, 16-17.
- (46) John Cam Hobhouse, *A Journey through Albania and other Provinces of Turkey during the years 1809 and 1810*, 1813, 5889-; cf. A. de Juchcreau de Saint Denys, *Revolutions de Constantinople en 1807 et 1808*, 2 vols., 1819, I, 156.
- (47) Prince Nicholas Ypsilanti, *Memoires*, n.d., 72.

الفصل السابع

وآثار المتعة

- (1) Tulay Artan, 'Architecture', 9; C. R. Cockerell, *Travels in Southern Europe and the Levant 1810-1817*, 1903, 29.
- (2) Musbah Haidar, *Arabesque*, 1944, 42; Mouradgea d'Ohsson, II, 177; Du Fréne Canaye, 87; alter G. Andrews, *Poetry's Voice, Society's Song. Ottoman Lyric Poetry*, Seattle, 1985, 134; Nermin Menemencioglu, *The Penguin Book of Turkish Verse*, 1978, 92.
- (3) Artan, 'Architecture', 320; White, I, 314; Du Mont, II, 114; Z. Duckett Ferriman, *Turkey and the Turks*, 1911, 300-2.
- (4) B. Miller, *Sublime Porte*, 151-5; Necipoglu, 200.

- (5) Thomas Hope, *Anastasius or Memoirs of a Greek*, 2 vols., 1836 cdn., II, 124; Thomas Allom and Robert Walsh, *Constantinople and the Scenery of the Seven Churches of Asia Minor*, 2 vols., 1838, I, 25.
- (6) Allom and Walsh, 25; Boulden, 140-4.
- (7) Necipoglu, 202; Arthur Barker, 'The Cult of the Tulip in Turkey' *Journal of the Royal Horticultural Society*, LVI, 1931, 234-44; Nurhan Atasoy, 'Les Jardins impériaux sous le règne de Soliman le Magnifique', in Veinstein (ed.), *Soliman*, 239-48; Michiel Roding and Hans Theunissen, *The Tulip, a Symbol of Two Nations*, Utrecht-Istanbul, 1993, 10, 54.
- (8) William Wittman, *Travels in Turkey, Asia Minor, Syria and across the Desert to Egypt*, 1803, 14; Dankoff, 107.
- (9) Artan, 'Architecture', 38, 162-3, 242; Du Mont, II, 113; Hope, I, 53.
- (10) *Un Jeune Russe, Voyage en Crimée*, 1802, 177, 199; Cockerell, 28-9; Montagu, 141, Lady Mary Wortley Montagu to Abbe' Conti i April 1718.
- (11) Skilliter, William Harborne, 8 5; Carlier de Pinon, 111-12; Bobovi, 30; Ferriman, 325.
- (12) Nubar Gulbenkian, *Pantaxia*, 1965, 130; Turabi Effendi, *Turkish Cookery*, repr. Rottingden, 1987, passim-, James Dallaway, *Constantinople Ancient and Modern*, 1798, 149; Ferriman, 326.
- (13) Stanley Lane-Poole (ed.), *The People of Turkey: Twenty Years Residence among Bulgarians, Greeks, Albanians, Turks and Armenians by a Consul's Daughter and his Wife*, 2 vols., 1878, II, 39.
- (14) Lewis, *Muslim Discovery*, 196; Katib Celebi, *The Balance of Truth*, ed. G. L. Lewis, 51, 58; White, II, 127-34.
- (15) *Istanbul Ansiklopedesi*, art. 'Kahvehaneler'; Allan Ramsay and Francis McCullagh, *Tales from Turkey*, 1914, xxii, xxviii.
- (16) Hammer, XI, 286, 335; Bernard Lewis, *Istanbul and the Civilisation of the Ottoman Empire*, Norman, Oklahoma, 1963, 132-3.
- (17) White, I, 282.
- (18) F. Billacois (ed.), *L'Empire du Grand Turc vu par un sujet de Louis XIV*, 1965, 96; Walsh, II, 500; Freely, 93; Ramsay and McCullagh, 57-9.
- (19) Charlemont, 166-7.
- (20) Hammer, XVI, 64-5; Baron de Tort, *Memoirs concerning the State of the Turkish Empire and the Crimea*, 4 parts, 1786, I, 140; Mouradgea d'Ohsson, II, 121.

- (21) Artan, 'Architecture', 207, 410, 411; Gibb, II, 227; Mantran, Istanbul, 106; Mitler, 107.
- (22) Hammer, XV, 143.
- (23) Talat S. Halman, Suleyman the Magnificent, Poet, Istanbul, 1989, 53-4; Evliya Celebi, I, 134; Hammer, VI, 279, VIII, 323; Menemencioglu, 100; Mittler, 151.
- (24) And, Istanbul, 193; Marechal de Moltke, Lettres. . . sur T Orient, 1877 edn., 36-7, letter of 12 February 1836; Gibb, IV, 68; F. Munir Katircioglu, 'Ottoman Culinary Habits', in Feyzi Halici (ed.), First International Food Congress Turkey 1986, Ankara, 1988, 163-5.
- (25) Murat Bardakgi, Osmanlida Seks, 1993, 117.
- (26) Elias Habesci, The Present State of the Ottoman Empire, 1784, 388; Tott, I, 163; Melek Hanouim, Thirty Years in the Harem, 1872, 245.
- (27) Bardakgi, 13 2; Ulucay, Ask Mektuplari, 203-5, letter of 11 August 1875.
- (28) And, Istanbul, 211; Alfred C. Wood, 'The British Embassy in Constantinople', English Historical Rsvew, XL, 1925, 551; Charlemont, 204-6; Habesci, 175, 393. The sexual use of graveyards continued into this century, as readers of Claude Farrere's L'Homme qui assassina will recall.
- (29) Necipoglu, 210, 216-17; Alderson, Table XXVII; Kritovoulos, 61; Raymond T. Macnuly and Radu R. Florescu, Dracula, His Life and His Times, 1989, 150; Babinger, 207.
- (30) Carier de Pinon, 119; White, 1, 195; And, Turkish Dancing, 140-1.
- (31) Wratislaw, 54 describes Cigala Pasha, originally from the Kingdom of Naples, who faying once tasted Turkish freedom and pleasures proceeded gradually to worse and worse till now he will have nothing to do with Christianity'; Lady Hornby, 394, on 26 June 1856 meets Slade Pasha who 'infinitely prefers the case and freedom of an Eastern life to the rigid conventionalisms of London and Paris'; Valensi, 47; Pedani, 42. However in 1577 the government tried to forbid 'quel vitio della nazione turchesca': Hammer, VII, 133n.
- (32) Gibb, III, 55, 123; Mencmencioghi, 108-9.
- (33) Dankoff, 278; Gibb, IV, 56.
- (34) Gibb, IV, 220-42; Bardakgi, 103-32. Sunbulzadc Vchbi, who died in 1809, also alternately praised and criticized, in graphic terms, the sexual advantages of women and boys.

- (35) De Amicis, 147; Raphaela Lewis, *Everyday Life in the Ottoman Empire*, 124-7; Tott, I, 175.
- (36) Abou el-Hajj, *The 1703 Rebellion*, 31-3, 86.
- (37) Necipoglu, 258; Artan, 'Architecture', 36, 38.
- (38) B. Miller, *Sublime Porte*, 226, 125; Gocek, 77, 79.
- (39) Gibb, IV, 30; Menemencioglu, 113; Mider, 1067-; Epiphanius Wilson, *Turkish Literature*, 1901, 181-3; Anka: *Revue d'art et de littérature de Turquie*, VII-VIII, 1989, 44-6.
- (40) Levy, Sephardim, 77; Andre Philippides, *Hommes et idées du Sud-Est Européen à l'aube de l'ère moderne*, 1980, 243, Daniel de Fonseca to Jean Leclerc 1 March 1724; Montagu, 142, Lady Mary Wortley Montagu to Abbe Conti 19 May 1718.
- (41) Turhan Baytop, 'The Tulip in Istanbul during the Ottoman Period', in Roding and Theunissen (eds.), 53, 55.
- (42) Artan, 'Architecture', 166; Gocek, 130; B. Miller, *Sublime Porte*, 125.
- (43) Artan, 'Architecture', 166, 201, 360, 414; Arrun and Beyhan Unsal, *Istanbul la magnifique: propos de table et recettes*, 1991, 77.
- (44) E. Wilson, 182; Ligne, I, 214, Ligne to Comte de Segur 1 December 1788.
- (45) Charlemont, 204-5; Bosscha Erdbrink, 138, Calkoen to States-General 22 March 1739.
- (46) Niyazi Berkes, *The Development of Secularism in Turkey*, Montreal, 1964, 37-42; Gocek, 113; Cesar de Saussure, *Lettres de Turquie*, ed. Coloman de Thaly, Budapest, 1909, 94, letter of 21 February 1732; B. Miller, *Sublime Porte* 110.
- (47) Levy, Sephardim, 90; de Saussure, 94, letter of 1 February 1732; Berkes, *Secularism*, 42-5.
- (48) Robert W. Olson, *The Siege of Mosul and Ottoman-Persian Relations 1718-1743*, Bloomington, 1975, 66, 71, 74-5; Mardin, *Genesis*, 433; Bosscha Erdbrink, 93-5.
- (49) Olson, 79; Bosscha Erdbrink, 95, despatch of Cornelius Calkoen 13 November 1730; Albert Vandal, *Une Ambassade française en Orient sous Louis XV: la mission de Marquis de Villeneuve 1728-1741*, 1887, 155-6, despatch of Villeneuve 7 October 1730; Gocek, 159.

- (50) Mary Lucille Shay, *The Ottoman Empire from 1720 to 1754 as revealed in Despatches of Venetian Baili*, Urbana, 1944, 31-3; Olson, 80

الفصل الثامن

السفراء والفنانون

- (1) Hammer, VIII, 148.
- (2) Mcrriman, 236; Colin Imber, 'The Ottoman Dynastic Myth', *Turcica*, 1987, 22.
- (3) Naimur Rahman Farooqi, *Mughal-Ottoman Relations*, Delhi, 1989, 23, 29, 88, 195.
- (4) Lewis, *Muslim Discovery*, 118, 45; Merriman, 133, quoting the chronicle of Kcmal Pashazade; Pierre Duparc, *Recueil des instructions donnees aux ambassadeurs et ministns de France*, 1969, 16, 259, instructions of 22 August 1665, 6 March 1724.
- (5) Vaughan, 124, 127, 129.
- (6) M. S. Anderson, *The Rise of Modern Diplomacy*, 1993, 28; Peirce, 'Gender and Power', 120-1.
- (7) Busbecq, 183; Hammer, VI, 148; Skülliter, William Harborne, 63, Joachim Von Sinzendorf to Rudolf II 24 March 1579.
- (8) Hammer, V, 149, 15 in., letter of February 1526, 333, VII, 185; M. S. Anderson, 75.
- (9) Pedani, 203-8.
- (10) Jacques Lefort, *Documentsgrecs dans les Archives de Topkapi Sarayi: contribution a l'histoire de Cem Sultan*, Ankara, 1981, 20; Bobovi, 12; Baron de Dedem de Gelder, *Memoires*, 1900, 25; Habesci, 268. Fatih boasted that his clandestine network of informers in Italy gave him intimate knowledge of events: Raby, 285.
- (11) Hammer, IV, 48, 138.
- (12) Bosscha Erdbrink, 119, 125.
- (13) Guilleragues, 908-9; Belin, 314; Galland, II, 52, diary entry for 2 April 1673; Vandal, *Une Ambassade francaise*, 38.
- (14) Alberto Tenenti, *Piracy and the Decline of Venice 1580-1615*, 1967, 72; *L'Orient des proven aux dans Fhistoire*, exhib. cat., Marseilles, 1982, 280.

- (15) William Hunter, *Travels through France, Turkey and Hungary to Vienna* in 1792, 3rd edn., 2 vols., 1803, I, 323.
- (16) Wood, *Levant Company*, 238; Hammer, XII, 10. The ostentation of Polish processions continued until the end of the kingdom: see Dedcm de Gelder, 37.
- (17) Marquis de Bonnac, *Memoire historique sur l'Ambassade de France a Constantinople*, 1894, 12; Gerard Tongas, *Les Relations de la France avec l'Empire Ottoman durant la premiere moitie du XVIIe siecle*, Toulouse, 1942, 23-31, 37; Hammer, XI, 229-30, 346; G. F. Abbott, *Under the Turk in Constantinople*, 1920, 102, 9 September 1675.
- (18) Hammer, XI, 255, 259, 282, XII, 8; Coval, in Bent (ed.), 194, diary entry for 19 May 1675; Comte de Saint-Priest, *Memoires sur l'Ambassade de France en Turquie*, 1877, 231; Vandal, *Voyages*, 216, 232.
- (19) Guilleragues, I, 192, 436, 473: *memoire pour servir d'instruction au Sr, de Guilleragues*, 10 June 1679, Guilleragues to Louis XIV 24 May 1680, 12 September, 25 October 1681; Hammer, XII, 56, 167; Piton de Tournefort, II, 27.
- (20) Bonnac, 43-5; Ferriol, 75-9, Ferriol to Louis XIV 8 January 1700; cf. for other accounts of the same incident, La Motraye, I, 272; Piton de Tournefort I, 397-401.
- (21) Cantemir, 261; Ferriol, 190, letter of 25 July 1707; William Miller, *Travel and Politics in the Near East*, 1897, 428; Hammer, LX, 113.
- (22) La Motraye, I, 369; Vandal, *Une Ambassade francaise*, 40; H. Riondel, *Le Bienheureux Gomidas de Constantinople, pretre armenien et martyr*, 1929, 137; Hammer, XIII, 41.
- (23) Archives du Ministerc des Affaires Etrangeres, Paris (henceforward referred to as AAE), Turquie, 68: *Relation de Fait dunct quefaye cut du grand Vizir Ibrahim Pacha Gendre fa Grand Seigneur le mardi 10 Octobre dans son palais de Constantinople*.
- (24) State Archives, Stockholm, Turcica, 100, Bonneval to Hoepken 6 September 1738, 14 May 1741, to G. Bonde 4 September 1736, to Horn 4 August 1735.
- (25) Hammer, XV, 365-78, Desalleurs to Bonneval 23 December 1746, Castellane to d'Argneson 23 March 1747.

- (26) State Archives, Stockholm, Turcica, 100, Bonnca] to Hoepken 19 December 1735, 21 January 1744.
- (27) *Revue d'Histoire Diplomatique*, 1987, 234-5; cf. Virginia Aksan, 'Ottoman-French Relations 1739-68', in *Studies in Ottoman Diplomatic History*, ed. Sinan Kuncralp, 5 vols., Istanbul, 1987-90, I, 50, 56; Vassif Efendi, *Precis historique de la guerre des Tuns contre les Russes*, ed. P. A. Caussin de Perceval, 1822, 6-7; Hammer, XVI, 179, 184, 203-5, 228.
- (28) Onnik Jamgocyan, 'L'Apprivoisement de Constantinople, la Revolution franchise et le declin du negoce frangais', *Arab Historical Reinew for Ottoman Studies*, VII, October 1995, 1029-33; Tott, II, 123, 149, 167, 205, 255, III, 149, IV, 255.
- (29) Berkes, *Development of Secularism*, 54; Itzkowitz and Mote, 161.
- (30) Hugh Ragsdale (ed.), *Imperial Russian Foreign Policy*, Cambridge, 1993, 82, 99.
- (31) Masson, 274; Comte de Choiseul-Gouffier, *Voyage pittoresque de la Grece*, 2 vols., 1782-1809, I, xi; Ixfronce Pingaud, *Choiseul-Gouffier la France en Orient sous Louis XVI*, 1887, 1790. Vergennes to Segur; Duparc, 477, instruction of 2 June 1784.
- (32) Max Roche, *Education, assistance et culture franfaises dans l'Empire Ottoman*, Istanbul, 1989, 17-18.
- (33) Octave Teissier, *La Chambre de Commerce de Marseille*, Marseilles, 1892, 315, Grand Vizier to Louis XVI 16 January 1791; Pingaud, 85.
- (34) Stanford J. Shaw, *Between Old and New, the Ottoman Empire under Sultan Selim 1789-1807*, Harvard, 1971, 17III; Archives du Ministere des Affaires Etrangeres, Correspondance Politique, Turquie, 176, ff. 72V, 87V, 98, 100, 195v; Choiseul-Gouffier to Montmorin 3, 9, 10, 25 August; cf. A. I. Bagis, *Britain and the Struggle for the Integrity of the Ottoman Empire*, Istanbul, 1984, 42, 45.
- (35) Pingaud, 253, 255; BM Add. MSS 41567, f. 186: Choiseul-Gouffier to Sublime Porte 24 September 1792.
- (36) Wanda, *Souvenirs anecdotiques sur la Turquie 1820-1870*, 1884, 174, 175.
- (37) Colonel Rottiers, *Itineraire de Tijlis a Constantinople*, Brussels, 1829, 345.
- (38) Nicolay, 179; Vandal, *Voyages*, 65; id., *Une Ambassade francaise*, 83n.; Itzkowitz and Mote, 176-7.

- (39) Un Jeune Russe [H.-C.-R. von Struve], *Voyage en Crimée*, 190; Dedem de Gelder, 23; Wittman, 25.
- (40) Michel Lesure, 'Notes et documents sur les relations veneto-ottomanes', *Turcica*, IV, 143, 155.
- (41) Cantemir, 259; Karl A. Roider jun., *Austria's Eastern Question*, Princeton, 1982, 92-3, 220, Thugut to Kaunitz 21 March 1771. The British ambassador in 1710, Sir Robert Sutton, obtained secret lists of the Ottoman armed forces: Kurat (ed.), 9
- (42) J. M. Tancoignc, *Voyage a Smyrne... suivi d'une notice sur Pera*, 2 vols., 1817, II, 46.
- (43) Montagu, 122, Lady Mary Wortley Montagu to Lady Mar 16 March 1718.
- (44) Ausilia Roccatagliata, *Notai gnovesi in oltman: afti rogati a Pera e Mitikne*, I, Genoa, 1982, 140; E. Dall'cggio d'Alcassio, 'Liste des Podcasts de la colonie gnoise de Péra', *Revue des Etudes Byzantines*, XXVII, 1969, 152-3; id., 'Une Inscription inedite d'Arab-Djami', *Echos d'Orient* XXVIII, 1929, 408-11; Bclin, 151.
- (45) Sturdza, 590-6; Antoine Gautier and Marie de Testa, 'Quelques Dynasties de Drogmans', *Revue d'Histoire Diplomatique*, 1991, 889-94. J. F. Labourdette, Vergennes, 1990, 48-50; E. L. G. H. de Marcerc, *Une Ambassade a Constantinople: la politique orientale et la revolution française*, 2 vols., 1927, I, 42, letter of Testa 28 March 1793.
- (46) Sturdza, 587; Wood, 'English Embassy', 5 56.
- (47) National Library of Scotland (hereafter NLS), Liston MSS, Pisani to Liston passim and 24 November, 24 October 1794.
- (48) Virginia Quids, Lady Hester Stanhope, 1990, 67; NLS, Liston MSS, Lady Liston journal 1812, f. 38.
- (49) Walsh, II, 440; Sir Austen Layard, *Autobiography and Letters*, 2 vols., 1903, II, 140 and n.
- (50) John Stoye, *Marsigli's Europe*, 1994, 17, 23; Toderini, III, 212; Edward Said, *Orientalism*, 42, 95; *Vers l'Orient*, exhib. cat., Bibliotheque Nationale, 1983, 40.
- (51) Kemal Bcydilli, 'Ignatius Mouradgca d'Ohsson', *Istanbul Umversitesi Edebiyat Fakultesi Tarib Dergisi*, XXXIV, 1984, 252, 260; Mouradgca d'Ohsson, III, 3i2n. Other diplomats and dragomans who wrote accounts of the Ottoman Empire include: Busbecq; Philippe du Fresne Canaye

(Voyage du Levant, 1573); Sir Thomas Roe; Sir Paul Rycaut; Antoine Galiand, translator into French of *One Thousand and One Nights*, who worked in the French embassy in Istanbul from 1671 to 1675, and 1678 to 1683; F. Petis de La Croix; John P. Brown of the US legation, author of books on dervishes and *Turkish Evening's Entertainment* (1850); and Charles Schefer, First Dragoman of France during the Crimean War, who translated many Ottoman texts and became *Directeur de l'Ecole des Langues Orientales Vivantes*.

- (52) Freiherr von Hammer-Purgstall, *Erinnerungen*, Vienna, 1940, 41, 44, 46-7, 133, 134, 137.
- (53) And, Istanbul, 325-6 has identified nineteen such albums.
- (54) At the Sublime Porte, exhib. cat., Hazlitt, Gooden and Fox, 1988; Vandal, *Voyages*, 200-2; Catherine and Andre Boppe, *Les Peintres du Bosphore au XVIIIe siecle*, 1989, 40-7; *Les Peintures 'turques' de Jean-Baptiste Vanmour 1671 - 1737*, exhib. cat., Istanbul, 1975. The portrait of Marshal Sebastiani in the *Musee de l'Histoire de France* in Versailles, with a view of Istanbul in the background, was painted by Winterhalter in 1841-thirty-three years after Sebastiani had ceased to be French ambassador there.
- (55) Visit to Biby and interview with Fredrik von Celsing, 29 August 1994. Other 'embassy pictures' are in the collections of M. de Tugny in France; Prince von Oettingen Wallerstein in Germany; Count von Gudenus in Austria; the Palazzo Mocenigo a San Stac, in Venice; the Villa Valtorta at Dolo, in the Veneto; the Italian Consulate-General in Istanbul; the British Embassy in Ankara; the *Musee de l'Histoire de France*, Versailles, the *Musee des Beaux-Arts*, Bordeaux, the Academy of Fine Arts, Cracow and the Rijksmuseum. Four views of Constantinople and eight portraits of its inhabitants belonging to the son of Vergennes were confiscated 'pour la nation' in 1795 and have since disappeared: see Archives Nationales F 17 1268, no. 126: *Inventaire des olyetf ristrvs poitr la nation, pnvetumts dt Vtrynnu emigre*. I am grateful for this reference to Mme de Tugny-Vergennes.
- (56) Gilles, 221, 97, 170; B. Miller, *Sublime Port*, 14.
- (57) Strachan, 174; William St Glair, *Lord Elgin and the Marbles*, 1983 edn., 90 and passim.

يېليو غرافيا

قائمة المراجع
المصادر الأولية

Archives du Ministere des Affaires Etrangeres, Paris: Correspondance Politique, Turquie, 68, 176: ambassadors' reports, 1724, 1787. British Library, London, Add. MSS 38979, 38985, 38987, 39018, 39023-4, 39103:

Layard Papers, letters of Ahmed Vefyk to Layard; 56301, Pisani to Strangford 1821. Churchill College, Cambridge, De Robeck Papers, MSS 6/1, 6/18: correspondence of Admiral de Robeck.

Imperial War Museum, London, Fox-Pitt Papers (consulted by kind permission of Sarah Fox-Pitt): letters of W. A. F. L. Fox-Pitt to his parents.

National Library of Scotland, Edinburgh, Department of Manuscripts, Liston Papers, MSS 5 572, 5628, 5630: despatches of Liston and Pisani 1794-5, 1815-20; 5709, journal of Lady Liston 1812 - 13.

Public Record Office, Kew, Middlesex, FO 78/225, 3081: diplomatic despatches 1833, 1880; FO 371/4162, 4241, 5162, 5170, 5172, 5178, 5190, 6469, 7893, 7907, 79912, 7916, 7962, 7917, 7962, 7963, 9174, 12255: papers of the British High Commission in Constantinople, 1918-23; WO 161/85: Sir James E. Edmonds, The Occupation of Constantinople 1918 - 1923'.

School of Oriental and African Studies Library, London, Paget Papers 50 X4: letters of Alexander Mavrocordato 1699. State Archives, Stockholm, Turcica 22, 24, 100: letters from Comte de Bonneval 1734 - 45.

المصادر الثانوية

ما لم يُذكر خلاف ذلك، فإن كل الأعمال الإنجليزية منشورة في لندن، وكل الأعمال الفرنسية منشورة في باريس، وكل الأعمال التركية منشورة في اسطنبول.

Abbott, G. F., Turkey in Transition, 1909.

-----Under the Turk in Constantinople, 1920.

Abdullah of Jordan, King, Memoirs, 1950.

Abou el-Hajj, Rifa'at Ali, The iyo) Rebellion and the Structure of Ottoman Politics, Istanbul, 1984.

----- Formation of the Modern State: the Ottoman Empire, Sixteenth to Eighteenth Centuries, Albany, 1991.

Abu-Lughod, Janet, Cairo: 700 Years of the City Victorious, Princeton, 1971.

Abu-Manneh, Butxos, 'Sultan Abdul Hamid II and the Sharifs of Mecca 1880-1900', Asian and African Studies, 1972, 1—21.

Adivar, Adnan, La Science checks Turcs Ottomans, 1938.

Adjemoglou, Nicolaos, The Ayazmata of the City, Athens, 1990 (in Greek).

Adnan, Abdulhak, La Science chezles Turcs Ottomans, 1939.

Afetinan, Prof. Dr, Apercu general sur l'histoire economique de L'Empire Turc-Ottoman, 2nd edn., Ankara, 1976.

Ahmad, Feroz, The Young Turks: the Committee of Union and Progress in Turkish Politics 1908—1914, Oxford, 1969.

----- The Turkish Experiment in Democracy 1910—1971, 1977.

Alderson, A. D., The Structure of the Ottoman Dynasty, 1956.

Alexandris, Alexis, The Greek Minority of Istanbul and Greek-Turkish Relations 1918—1974, Athens, 1983.

Allom, Thomas and the Revd Robert Walsh, Constantinople and the Scenery of the Seven Churches of Asia Minor, 2 vols., 1838. Altuna, Abdulkadir, Osmanli Seyhulislamleri, Ankara, 1972. And, Metin, Karagovz 3rd edn., Istanbul, n.d.

----- A Pictorial History of Turkish Dancing, Ankara, 1976.

----- Turkish Miniature Painting, rev. edn., Istanbul, 1982.

----- Istanbul in the Sixteenth Century, Istanbul, 1994.

Andersen, Hans Christian, A Poet's Bazaar, New York, 1988.

Anderson, Dorothy, The Balkan Volunteers, 1968.

Anderson, M. S., The Eastern Question, 1982.

----- The Rise of Modern Diplomacy, 1995.

Andrews, Walter G., Poetry's Voice, Society's Song: Ottoman Lyric Poetry, Seattle, 1985.

Anon., Fusilier Bluff: the Experience of an Unprofessional Soldier in the Near East 1918—1919, 1934.

Anon., Letters Historical and Critical from a Gentleman in Constantinople to his Friend in London, 1730.

Antonius, George, The Arab Awakening, Beirut, 1969 edn.

----- Argenti, Philip, The Massacres of Chios, 1932.

----- Armstrong, Harold, Turkey in Travail, 1925.

----- Turkey and Syria Reborn, 1930.

Arnakis, G. Georgiades, The Greek Church of Constantinople and the Ottoman Empire, Journal of Modern History, 1952, 235—50.

Arpee, Leon, A History of Armenian Christianity, New York, 1946. Artamian, Sarkis, The Armenian Community, New York, 1955.

----- Artan, Tulay, 'Architecture as a Theatre of Life: Profile of the Eighteenth-century Bosphorus', unpublished Ph.D. thesis, Massachusetts Institute of Technology, 1989.

Artinian, Vartan, The Armenian Constitutional System in the Ottoman Empire 1839-1863, Istanbul, 1990.

Arzik, Imet, Anthologie de la poesie turque, 1968.

Ashmead-Bardett, Ellis, With the Turks in Thrace, 1913.

Atamian, Sarkis, The Armenian Community, New York, 1955.

Atasoy, Nurhan and Julian Raby, Iznik: the Pottery of Ottoman Turkey, 1989.

Atay, Fali Rifi, The Ataturk I Knew, Istanbul, 1982.

Atil, Esin (ed.), Suleymanname: the Illustrated History of Suleyman the Magnificent, Washington, 1986.

----- The Age of Sultan Suleyman the Magnificent, New York, 1987.

----- Turkish Art, New York, 1980.

Auldjo, John, Journal of a Visit to Constantinople and Some of the Greek Islands in the Spring and Summer of 1835.

Avrenche, Henry, La Mori de Stamboul, 1930.

- Babinger, Franz, *Mehmed the Conqueror and His Time*, Princeton, 1992 edn.
- Bailey, Frank E., *British Policy and the Turkish Reform Movement*, Harvard, 1932.
- Baker, Patricia, 'The Fez in Turkey: a Symbol of Modernisation?', *Costume*, 1986, 72-85.
- Baltimore, Lord, *A Tour to the East in the Years 1763 and 1764*, 1767.
- Barbaro, Nicolo, *Diary of the Siege of Constantinople 1453*, tr. J. R. Jones, New York, 1969.
- Bardakgi, Murat, *Osmanlıda Seks*, 1993. Bareilles, Bertrand, *Constantinople*, 1918.
- Barker, Arthur, 'The Cult of the Tulip in Turkey', *Journal of the Royal Horticultural Society*, LVI, 1931, 234—44.
- Barker, Theo and Anthony Sutcliffe (eds.), *Megalopolis: the Giant City in History*, 1993.
- Barnett, R. D., *The Sephardi Heritage*, 2 vols., 1971—89.
- Baronian, Hagop, *The Perils of Politeness*, New York, 1983.
- Barsoumian, Hagop Leon, 'The Armenian Amira Class of Constantinople', unpublished Ph.D. thesis, Columbia, 1980.
- Basmadjian, K. J., *Essai sur l'histoire de la litterature ottomane*, Constantinople, 1910.
- Batu, Hamit et Jean-Louis Bacque-Gramont, *L'Empire Ottoman: la Republique de Turquie et la France*, Istanbul, 1986.
- Batur, Enis (ed.), *Encomium to Istanbul*, Istanbul, 1991.
- Baudin, P., *Les Israelites de Constantinople*, Istanbul, 1872, 1989 edn.
- Belin, M. A., *Histoire de la Latinité de Constantinople*, 2nd edn., 1894.
- Benbassa, Esther, *Un Grand Rabbin sepharade en politique 1892—1921*, 1991.
- Benjamin, S. G. W., *The Turks and the Greeks*, New York, 1867.
- Bennett, J. G., *Witness*, 1962.
- Bent, J. Theodore (ed.), *Early Voyages and Travels in the Levant*, 1893.

- Berk, Nurullah, Istanbul chez les peintres turcs et Strangers, Istanbul, 1977.
- Berkes, Niyazi, The Development of Secularism in Turkey, Montreal, 1964.
- (ed.) Turkish Nationalism and Western Civilisation: Selected Essays of Zia Gokalp, 1959.
- Bernachot, Jean, Les Armées alliées en Orient après l'Armistice de 1918, 4 vols., 1972—8.
- Bernard, Yvelise, L'Orient du XVI^e siècle à travers les récits de voyageurs français, 1988.
- Bertele, Tommaso, Palaze degli ambasciatori di Venezia a Costantinopoli e le sue antiche memorie.
- Bologna, 1932—X. Beydilli, Kemal, 'Ignatius Mouradgea d'Ohsson', Istanbul Universitesi Edebiyat Fakultesi Tarih Dergisi, XXXIV, 1984, 248-314.
- Bibesco, Marthe, La Nymphée Europe, 1960.
- Bierman, Irene et al. (eds.), The Ottoman City and its Parts, New Rochelle, 1991 edn.
- Birge, John Kingsley, The Bektashi Order of Dervishes, 1965.
- Blaisdell, Donald C, European Financial Control in the Ottoman Empire, New York, 1929.
- Blancard, Theodore, Les Mavroghènes: histoire d'Orient, 2 vols., 1909.
- Blanqui, J. A., Voyage en Bulgarie pendant l'année 1841, 1843.
- Blowitz, Henri de, Une Course à Constantinople, 1884.
- Blunt, Wilfrid Scawen, Gordon at Khartoum, 1911.
- My Diaries, 2 vols., 1919—20.
- Boghossian, Sarkis, Iconographie arménienne, 1987.
- Bonnac, Marquis de, Mémoire historique sur l'Ambassade de France à Constantinople, 1894.
- Bonneville de Marsangy, Louis, Le Chevalier de Vergennes: son ambassade à Constantinople, 2 vols., 1894.
- Boppe, Catherine et André, Les Peintres du Bosphore au XVIII^e siècle, 1989.

Boschma, Cornells and Jacques Perot, Antoine-Ignace Melling (iy6j—t8ji), artiste voyageur, 1991.

Bosscha Erdbrink, C, At the Threshold of Felicity: Ottoman-Dutch Relations during the Embassy of Cornells Calkoen at the Sublime Porte 1/26—1/44, Ankara, 197 5.

Bouchard, Jacques, 'Nicolas Mavrocordatos et l'époque des tulipes', Eranisthes, XVII, Athens, 1981, 120-6.

----- 'Les Lettres fictives de Nicolas Mavrocordato a la maniere de Phalaris: une apologie de l'absolutisme', Revue des Etudes du Sud-Est Europeen, XIII, 197 2, 197—207.

----- (ed.), Les Loisirs de Philothée, Athens—Montreal, 1989.

Boulden, James E. P., An American among the Orientals, Philadelphia, 1855.

Boutros-Ghali, Anna Naguib and Archag Alboyadjian, Les Dadian, Cairo, 1965.

Brassey, Mrs, Sunshine and Storm in the East or Cruises to Cyprus and Constantinople, 1880.

Braude, Benjamin and Bernard Lewis (eds.), Christians and Jews in the Ottoman Empire,

2 vols., 1982.

Brown, Horatio F., Studies in the History of Venice, 2 vols., 1907.

Brown, Sarah Graham, Images of Women: the Portrayal of Women in Photography of the Middle East 1860-1900, 1988.

Brummett, Palmyra, Ottoman Seapower and Levantine Diplomacy in the Age of Discovery, Albany, 1994.

Brun, Charles, 'Les Grecs de Constantinople', Revue Modeme, LII, 10 June 1869, 422-39.

Busbecq, Ogier Ghislain de, Turkish Letters, Oxford, 1927.

Buxton, C. R., Turkey in Revolution, 1909.

Cabuk, Vahid, Koprululer, 1988.

Calosso, Colonel, Memoires d'un vieux soldat, Turin—Nice, 1857.

Camariano, Nestor, Alexandre Mavrocordato le Grand Drogman: son activite diplomatique, Thessaloniki, 1970.

Camariano-Cioran, Ariadna, Les Academies princiers de Bucarest et de jassy et leurs pro-

fesseurs, Thessaloniki, 1974. Cambon, Paul, Correspondence, 3 vols., 1940—6.

Cantacasin, Theodore Spandouyn, Petit Traicte de Torigine des turcqvz ed. Charles Schefer, 1896.

Cantacuzene, Jean Michel, MilleAns dans les Balkans, 1992.

Carayon, Pere Auguste, Relations inedites de la Compagnie de fe'sus a Constantinople et dans le Levant, 1864.

Carlier de Pinon, M., Voyage en Orient, 1920.

Carnoy, Henry et Jean Nicolaidis, Folklore de Constantinople, 2 vols., 1894.

Catalogue de la Bibliotheque de feu Ahmed Vefyk Pacha, Constantinople, 1893.

Catalogue desperles, pierreries, bijoux et objets d'artprecieux, le tout ayant appartenu a S.M. le Sultan Abdul Hamid II, dont la vente aura lieu a Paris, November 1911.

Caussin de Perceval, A. P. (tr.), Precis historique de la destruction du corps desfanissaires par le Sultan Mahmoud en 1826, 1833.

Celik, Zeyneb, The Remaking of Istanbul, Seattle and London, 1989.

Cevaat Bey, Ali, Fezleke, Ankara, 1960.

Cezar, Mustafa, XIX Yuzyil Beyoglusu, Istanbul, 1991.

Chalcondyle, L'Histoire de la decadence de TEmpire Grec et de Tetablissement de celui des Turcs, 2 vols., 1662.

Chaliand, Gerard (ed.), A People without a Country: the Kurds and Kurdistan, 199 3 edn. Champonnois, Suzanne, Le Mythe de Constantinople et Topinion publique en Russie au XIXe siecle, Istanbul, 1989.

Charlemont, Lord, Travels in Greece and Turkey 1749, ed. W. B. Stanford and E.J. Finopulos, 1984.

Charriere, M. de, Negotiations de la France dans le Levant, 4 vols., 1848—60.

Chassiotis, G, L'Instruction publique chez les Grecs depuis la prise de Constantinople par les Turcs, 1881.

Chenier, Madame, Lettres sur les danses grecques, 1879 edn.

Chesneau d'Aramon, Jean, Le Voyage de Monsieur Chesneau d'Aramon, ambassadeur pour le Roy au Levant, ed.

Charles Schefer, 1887.

Choiseul-Gouffier, Comte de, Voyage pittoresque de la Grèce, 2 vols., 1782—1809.

Cizgen, Engin, Photography in the Ottoman Empire 1839-1919, Istanbul, 1987.

Clark, E. C, 'The Ottoman Industrial Revolution', International Journal of Middle East Studies, V, 1974, 65—76.

Clayer, Nathalie and Alexandre Popovic (eds.), Presse turque et presse de Turquie, Istanbul—Paris, 1992.

Cleveland, William I., The Making of an Arab Nationalist: Ottomanism and Arabism in the Life and Thought of Sati al-Husri, Cleveland, 1971.

Clogg, Richard (ed.), Balkan Society in the Age of Greek Independence, 1981.

----- The Struggle for Greek Independence, 1973.

----- The Movement for Greek Independence, 1976.

Cockerell, C. R., Travels in Southern Europe and the Levant 1810-1817, 1903.

Constant, Stephen, Foxy Ferdinand, 1979.

Constantinios] Constantiniade ou Description de Constantinople ancienne et moderne comparee par un philologue et archeologue, Constantinople, 1846.

Cook, M. A. (ed.), History of the Ottoman Empire to, Cambridge, 1976.
Correspondence respecting the Disturbances at Constantinople in August 1896 presented to both Houses of Parliament by command of Her Majesty, 1897.

Coufopoulos, Demetrius, A Guide to Constantinople, 1910.

Cox, Samuel S., The Isles of the Princes; or, the Pleasures of Prinkipo, 1887.

----- Diversions of a Diplomat in Turkey, New York, 1887.

Crawford, F. Marion, Constantinople, 1895.

Criss, Nur Bilge, 'Istanbul during the Allied Occupation', unpublished Ph.D. thesis,

George Washington University, 1990. Cunningham, Allan, *Anglo-Ottoman Encounters in the Age of Revolution*, 1993.

----- *Eastern Questions in the Nineteenth Century*, 1993.

Curtis, William Eleroy, *Turkestan, the Heart of Asia*, 1911.

Curtiss, John Shelton, *Russia's Crimean War*, Durham, North Carolina, 1979.

Dadian, Prince Mek-B., 'La Societe armenienne contemporaine', *Revue des Deux Mondes*, 15 June 1867, 903-28.

Dadrian, Vahakn N., 'The Documentation of the World War I Armenian Massacres in the Proceedings of the Turkish Military Tribunal', *International Journal of Middle East Studies*, XXIII, 1991, 549—76.

Dallaway, James, *Constantinople Ancient and Modern*, 1798.

Dalleggio d'Alessio, E., 'Liste des Podestats de la colonie genoise de Pera', *Revue des Etudes Byzantines*, XXVII, 1969, 151-7.

Dankoff, Robert (ed.), *The Intimate Life of an Ottoman Statesman: Melek Ahmed Pasha, as Portrayed in Evliya Celebi's Book of Travels*, Albany, 1991.

Dasnabedian, Hratch, *History of the Armenian Revolutionary Federation Dashnaktsutian 1890—1924*, Milan, 1990.

Davis, Revd, E. J., *Osmanli Proverbs and Quaint Sayings*, 1898.

Davis, Fanny, *The Ottoman Lady: a Social History from 1718 to 1918*, New York, 1986.

Davis, James C. (ed. and tr.), *The Pursuit of Power Venetian Ambassadors' Reports from Spain, Turkey, France in the Age of Philip II*, 1970.

Davison, Roderick H., *Reform in the Ottoman Empire 1856-1918*, Princeton, 1963.

Dawn, C. Ernest, *From Ottomanism to Arabism: Essays on the Origins of Arab Nationalism*, Urbana, 1973.

De Amicis, Edmondo, *Constantinople*, 1894 edn. Dedem de Gelder, Baron de, *Memoires*, 1900.

De Gaury, Gerald, *Rulers of Mecca*, 1951.

----- *Three Kings in Baghdad*, 1961.

----- *Traces of Travel*, 1983.

Deherain, H., *La Vie de Pierre Ruffin*, 2 vols., 1929-30.

Deleon.Jak, *A Taste of Old Istanbul*, Istanbul, 1989.

----- *Ancient Districts on the Golden Horn*, Istanbul, 1992.

Deringil, Selim, 'The Invention of Tradition as Public Image in the Late Ottoman Empire, 1808 to 1980', *Comparative Studies in Society and History*, XXXV, 1, January 1993.

----- 'Legitimacy Structures in the Ottoman State: the Reign of Abdulhamid II 1876-1909', *International Journal of Middle East Studies*, XXIII, 1991, 345-59.

Deschamps, Gaston, *4 Constantinople*, 1913.

Destrilhes, M., *Confidences sur la Turquie*, 1855.

Devereux, Robert, *The First Ottoman Constitutional Period*, Baltimore, 1963.

----- 'Suleyman Pasha's "the Feeling of the Revolution"', *Middle Eastern Studies*, XV, I. 1979. 3—35.

Devrim, Shirin, *4 Turkish Tapestry: the Shakirs of Istanbul*, 1994.

Diamandouros, Nikoros P. (ed.), *Hellenism and the First Greek War of Liberation 1821—18* 0, Thessaloniki, 1976.

Diamantopoulou, Hercule, *Le Reveilde la Turquie*, Alexandria, 1908.

Dimaras, C. Th., *Histoire de la litterature neo-hellenique*, Athens, 1965.

Djevad Bey, A., *Etat militaire ottoman depuis la fondation de l'Empire jusqu'd nos jours*, Constantinople—Paris, 1882.

Dodds, Anna Bowman, *In the Palaces of the Sultan*, 1904.

Dos Passos, John, *Orient Express*, New York, 1927.

Douglas, Revd J. A., *The Redemption of Saint Sophia*, 1919.

Doulis, Thomas, *Disaster and Fiction: Modern, Greek Fiction and the Asia Minor Disaster of 1922*, Berkeley, 1977.

- Driault, Edouard, *La Politique orientale de Napoleon*, 1904.
- *L'Egypte et l'Europe: la Crise de 18)9—1841*, 2 vols., Cairo, 1930-31.
- and Michel L'Heritier, *Histoire diplomatique de la Grece de 1821 d nos fours*, 5 vols., 1925-6.
- Duben, Alan and Cem Behar, *Istanbul Households: Marriage, Family and Fertility 1880—1940*, Cambridge, 1991.
- Dudell, Tim, *Tales from the Orient and Pera: Sketches of Constantinople*, Constantinople, n.d.
- Dufferin and Ava, Dowager Marchioness of, *My Russian and Turkish Journals*, 1917.
- Du Fresne Canaye, Philippe, *Le Voyage du Levant*, 1986 edn.
- Duhani, Said N-, *Vieilles Gens, vieilles demeures*, Istanbul, 1947.
- *QuandBeyoglu s'appelait Pera*, Istanbul, 1956.
- Dumesnil, Vera, *Le Bosphore tant aime*, Brussels, 1947.
- Du Mont, M., *Voyages*, 4 vols., La Haye, 1699.
- Dumont, Paul, *Mustafa Kemal*, Brussels, 1983.
- Duparc, Pierre, *Recueil des instructions donnees aux ambassadeurs et ministres de France*, 1969.
- Durand, Whcd, *Jeune Turquie, Vieille France*, 1909.
- Dutu, Alexandru and Paul Cernovodeanu (eds.), *Dtmitrie Cantemir, Historian ofSouth-East European and Oriental Civilisations*, Bucharest, 1973.
- Dwight, Henry O, *Turkish IJfe in War Time*, 1881.
- *Constantinople and its Problems*, 1901.
- Dyer, Gwynne, *The Turkish Armistice of 1918: 2*, *Middle Eastern Studies*, VIII, 3, October 1972, 313—48. Edib, Halide, *Memoirs*, 1926.
- *The Turkish Ordeal*, 1928.
- *Turkey Faces West*, New Haven, 1908.
- Edwards, Emile, *Mon Maitre che'ri*, 1915.

----- Journal d'un habitant de Constantinople 1914—191), 1915.

Edwards, George Wharton, Constantinople-Stamboul, Philadelphia, 1950.

Eldem, Edhem (ed.), Recherches sur la ville ottomane: le cas du quartier de Calata, Istanbul, 1991.

----- La Vie politique, économique et socio-culturelle à l'époquejeune-turque, Istanbul, 1991.

Eldem, Seddad Hakki, Reminiscences of Istanbul, Istanbul, 1979.

----- Reminiscences of the Bosphorus, Istanbul, 1979.

Eliot, Sir Charles], Turkey in Europe, 1900.

Elliot, Sir Henry G, Some Revolutions and other Diplomatic Experiences, 1927.

Elliott, J. H., Richelieu and Olivares, 1992 edn.

El-Tangrouti, Relation d'une ambassade marocaine en Turquie, ed. Henry de Castries, 1929.

Emin, Ahmed, The Development of Modern Turkey as Measured by its Press, New York, 1914.

----- Turkey in the World War, New Haven, 1930.

Encyclopedia of Islam, 2nd edn., Leiden, 1956—.L'Epoquephanariote, Thessaloniki, 1974 (conference proceedings).

Epstein, Mark Alan, The Ottoman Jewish Communities and their Role in the Fifteenth and Sixteenth Centuries, Freiburg, 1980.

Esenbel, Selcuk, 'A fin de siècle Japanese Romantic in Istanbul: the Life of Yamada Torajiso and his Toruko Gakan or a Pictorial Look at Turkey', unpublished article, Istanbul, 1994. Essayan, Zabel, LesJardins de Silihdar, 1994.

Etmekjian, James, The French Influence on the Western Armenian Renaissance 184)—1917, New York, 1964.

Exertoglou, H., 'The Greek Bankers in Constantinople 1856—1881', unpublished Ph.D. thesis, London, 1985. Exhibition catalogues:

Les Peintures 'turques' deJean-Baptiste Vanmour 1671—17)7, Ankara, 1975.

L'Orient desprovencaux dans l'histoire, Marseilles, 1982.

- Vers TOrient, Bibliotheque Nationale, 1983.
- At the Sublime Porte, Hazlitt, Gooden and Fox, London, 1988.
- The Turkish Legacy, Bodleian Library, 1988.
- Topkapi en Turkomanie, Museum voor Volkenkunde, Rotterdam, 1989.
- Dessins de Uotard, Musee du Louvre, 1992.
- C. G. Lowenhielm, Artist and Diplomat in Istanbul 1824-7, Uppsala, 1993.
- Women in Anatolia: Nine Thousand Years of the Anatolian Woman, Topkapi Saray Museum, 1993.
- Louis-Francois Cassas 1716-1827, Musee des Beaux-Arts, Tours, 1994.
- Evliya Celebi, Narrative of Travels in Europe, Asia and Africa in the Seventeenth Century, 2 vols., 1 834—50. Ezgin, Fouad, YildizSaray Tarihcesi, Istanbul, 1962.
- Farmayan, Hafez and Elton L. Daniel (eds.), A Shiite Pilgrimage to Mecca 188j-6, 1990.
- Farooqi, Naimur Rahman, Mughal-Ottoman Relations, Delhi, 1989.
- Farooqi, Suraiya, Towns and Townsmen of Ottoman Anatolia, Cambridge, 1984.
- Pilgrims and Sultans: the Hajj under the Sultans, 1994.
- Farrere, Claude, L'Homme qui assassina, 1928.
- Fazy, Edouard, Les Turcs d'aujourd'hui, 1898. Ferriman, Z. Duckett, Turkey and the Turks, 1911.
- Ferriol, Marquis de, Correspondance, Antwerp, 1870.
- (ed.), Recueil de cent estampes representant differentes nations du Levant, 1914.
- Fesch, Paul, Constantinople aux dernier jours d'Abdul Hamid, 1907.
- Findlay, Carter V., Bureaucratic Reform in the Ottoman Empire: the Sublime Porte 1789—1922, Princeton, 1980.
- Ottoman Civil Officialdom, Princeton, 1992.
- Finefrock, Michael M., 'From Sultan to Republic: Mustafa Kemal Ataturk and

the Structure of Turkish Politics 1922–24', unpublished Ph.D. thesis, Princeton, 1976.

Fischer, Fritz, War of Illusions: German Policies from 1911 to 1914, 1975.

Fisher, C. G. and A. W. Fisher, Topkapi Sarayi in the Mid-Seventeenth Century: Bobovi's Description', *Archivum Ottomanicum*, X, 1985, 5–81.

Fleischer, Cornell H., Bureaucrat and Intellectual in the Ottoman Empire: the Historian Mustafa Ali, Princeton, 1986. Fletcher, Richard, Moorish Spain, 1992.

Francis, Louis, Le Neige de Galata, 1936. Franck, Harry A., The Fringe of the Moslem World, 1928.

Franco, M., Essai sur l'histoire des Israelites de ('Empire Ottoman, 1897. Frangos, G, 'The Philike Etairia', unpublished Ph.D. thesis, Columbia, 1971.

Frazee, Charles A., Catholics and Sultans, 1983.

Freely, John, Stamboul Sketches, Istanbul, 1974.

Freni, Vera and Carla Varnier, Raimondo d'Aronco: l'opera completa, Padova, 1983.

Fuller, John, Narrative of a Tour through some Parts of the Turkish Empire, 1829.

Galante, Abraham (all works published in Istanbul):

----- Don Joseph Nasi Due de Naxos, 191 3.

----- EstherKyra d'apres de nouveaux documents, 1926.

Hommes et chosesjuifsportugais en Orient, 1927.

----- Documents officiels turcs concernant les fuifs de Turquie, 19 31.

----- Turcs et Juifs, 1932.

----- Abdul Hamid II et le Sionisme, 1933.

----- NottVeaux Documents sur Sabbetai Sevi, 1935.

----- Medecins juifs au service de Turquie, 1935.

----- Don Salomon aben Yacche, Due de Metelen, 1936.

----- Les Synagogues d'Istanbul, 1937.

- Histoire des Juifs d'Istanbul, 2 vols., 1941—2.
- Appendice à l'histoire des Juifs d'Istanbul, 1941.
- Recueil de nouveaux documents concernant l'histoire des Juifs de Turquie, 1949.
- Nouveau Recueil de nouveaux documents inédits concernant l'histoire des Juifs de Turquie, 1952.
- Encore un Nouveau Recueil de documents concernant les Juifs de Turquie: études scientifiques, 1953.
- Les Juifs d'Istanbul sous le Sultan Mehmed le Conquerant, 1953.
- Galland, Antoine, Journal, 2 vols., 1881.
- Gallenga, A., Two Years of the Eastern Question, 2 vols., 1877.
- Garnett, Lucy M.J., The Dervishes of Turkey, 1990 edn.
- The Women of Turkey and their Folk-lore, 2 vols., 1890.
- Gautier, Theophile, Constantinople, Istanbul, 1990 edn.
- Gawrych, George W., 'Tolerant Dimensions of Cultural Pluralism: the Ottoman Empire and the Albanian Community 1800—1912', International Journal of Middle East Studies, XV1983, 519—36.
- Gerasimos, Augustinos, Consciousness and History: Nationalist Critics of Greek Society, New York, 1977.
- Germaner, Semra and Zaynep Inankur, Orientalism and Turkey, Istanbul, 1989.
- Gibb, E. J. W., A History of Ottoman Poetry, 6 vols., 1900—9.
- Gilbert, Martin, Sir Horace Rumbold, 1973.
- Churchill: a Life, 1991.
- Gilles, Pierre, The Antiquities of Constantinople, New York, 1988.
- Gilmour, David, Curzpn, 1994.
- Gocek, Fatma Muge, East Encounters West France and the Ottoman Empire in the Eighteenth Century, New York, 1987. Goffman, Daniel, Izmir and the Levantine World 1660—1690, 1990.

- Gonul, Sevgi, The Sadberk Hanim Museum, Istanbul, 1988.
- Goodblatt, Morris, S., Jewish Life in Turkey in the Sixteenth Century, New York, 1952.
- Goodrich-Freer, A., Things Seen in Constantinople, 1926.
- Goodwin, Godfrey, A History of Ottoman Architecture, 1992 edn.
- Sinan and City Planning, Rome, 1989.
- The Janissaries, 1994.
- Gordon, Mrs Will, A Woman in the Balkans, 1916. Graves, Philip, Briton and Turk, 1941.
- Greenwood, Anthony, 'Istanbul's Meat Provisioning: a Study of the Celepjan System', unpublished Ph.D. thesis, Chicago, 1981.
- Grelot, M., Relation nouvelle d'un voyage de Constantinople, 1681. Grenville, Henry, Observations sur l'état actuel de l'Empire Ottoman (1766), Ann Arbor, 1965.
- Grenville, J. A. S., Lord Salisbury and Foreign Policy: the Close of the Nineteenth Century, 1970.
- Groc, Gerard and I. Caglar, La Presse française de Turquie de 179; à nos Jours, Istanbul, 1985.
- Guilleragues, Comte de, Correspondance, 2 vols., Geneva, 1976.
- Gulbenkian, Nubar, Pantaraxia, 1965.
- Gulersoy, Celik (all works published in Istanbul):
- Hidiver ve Cubuklu Kasri, 1985.
- Dolmabahçe Palace and its Environs, 1990.
- The Story of the Grand Bazaar, 1990.
- Taksim: the Story of a Square, 1991.
- The Caique, 1991.
- The Ceragan Palaces, 1992.
- Gurkan, Dr K. I. et al., Lectures Delivered on the fifth Anniversary of the

Conquest of Istanbul, Istanbul, 1964.

Gursan-Salzmänn, Ayse, Anyos Muxhos y Buenos: Turkey's Sephardim 1492—1992, Philadelphia, 1992.

Gursu, Nevber, The Art of Turkish Weaving, Istanbul, 1988. Guys, M., Voyage litteraire de la Grice, 3rd edn., 2 vols., 1783.

Habesci, Elias, The Present State of the Ottoman Empire, 1784.

Haidar, Musbah, Arabesque, 1944.

Halid, Halil, Diary of a Turk, 1903.

Halman, Talat S., Suleyman the Magnificent, Poet, Istanbul, 1989.

Halpern, Paul G., The Mediterranean Naval Situation 1908-1914, Cambridge, Mass., 1971.

----- The Naval War in the Mediterranean 1914—1918, 1987.

----- (ed.), The Royal Navy in the Mediterranean 191;—1918, 1987.

Hamlin, Cyrus, Among the Turks, 1878.

----- My Life and Times, 1897.

Hammer, J. de, Histoire de t'Empire Ottoman, 16 vols., 1835—40.

----- Erinnerungen, Vienna, 1940.

Hanioglu, M. Sukru, KendiMektuplarinda Enver Pasha, 1989.

Harington, General Sir Charles, Tim Harington Looks Back, 1940. Harris, George S., The Origins of Communism in Turkey, Stanford, 1967.

Hasluck, F. W., Christianity and Islam under the Sultans, 2 vols., 1925.

Hassiotis, J. K., 'The Greeks and the Armenian Massacres', Neo-hellenika, IV, 1981, 69—101.

Hauterive, Comte d', Memoire sur Petal ancien.et actuel de la Moldavie . . . en 1787, Bucharest, 1902.

Heller, Joseph, British Policy towards the Ottoman Empire 1908—1914, 1983.

Hellier, Chris and Franco Venturi, Splendours of the Bosphorus: Houses and Palaces of Istanbul, 1993.

Henderson, Nevile, *Water under the Bridges*, 1945.

Herbert, Aubrey, Ben Kendim, 1918. Herlihy, Patricia, *Odessa: a History 1794—1914*, 1986.

Herzl, Theodore, *Diaries*, 1958.

Hobhouse, John Cam, *A Journey through Albania and other Provinces of Turkey during the*

years 1809 and 1860, 181 3.

Hope, Thomas, *Anastasius or Memoirs of a Creek*, 2 vols., 18 36 edn. Hornby, Edmund, *An Autobiography*, 1929.

Hornby, Lady, *Constantinople during the Crimean War*, 1 863.

Humurzaki, Baron Eudoxiu de (ed.), *Documenteprivitoare la Istoria romanilor*, ol. XVI, Bucarest, 1912.

Hunter, William, *Travels through France, Turkey and Hungary to Vienna in 1792*, 3rd edn., 2 vols., 1803.

Huscher, Herbert, 'Alexander Mavrocordato, friend of the Shelleys', *Bulletin of the Keats—Shelley Memorial Association*, 1965, 29—37.

Ignatyev, Count, 'Memoirs', *Slavonic Review*, X.June 19 31, 386—407, 627—640; 1932, 341-5 3. 556-71.

Ihsanoglu, Ekmeleddin, *Istanbul- a glimpse into the Past*, Istanbul, 1987. Imber, Colin, *The Ottoman Empire ijoo—1481*, Istanbul, 1990.

Inalcik, Halil, *The Ottoman Empire: the Classical Age 1300—1600*, 1973.

----- *The Ottoman Empire: Conquest, Organisation and Economy*, 1978.

----- *Studies in Ottoman Social and Economic History*, 1985.

----- *The Middle East and the Balkans under the Ottoman Empire*, Bloomington, 1993.

----- and Cemal Kafadar, *Suleyman the Second and His Time*, Istanbul, 1993.

----- and Donald Quataert, *An Economic and Social History of the Ottoman Empire*, 1 994.

Iorga, Nicolas, *Byzance apris Byzance*, 1992 edn.

----- Histoire des Roumains et de la Romanite orientate, 9 vols., Bucharest, 1937—44.

Ipsirli, Mehmet, 'Mustafa Selaniki's History of the Ottomans', unpublished Ph.D. thesis, Edinburgh, 1976. Ismail, F., 'The Diplomatic Relations of the Ottoman Empire and the Great European Powers from 1800 to 1821', unpublished D.Phil. thesis, London, 1975.

Issawi, Charles, An Economic History of Turkey 1800—1914, Chicago, 1980.

Istanbul a la Jonction des cultures balkaniques, mediterraneennes, slaves et orientales aux XVT—XIXe siecles, Bucarest, 1977.

Istanbul Ansiklopedisi, 10 vols., Istanbul, 1993—5.

Istanbul Selections, Istanbul, 1993- (magazine).

Itzkowitz, Norman and Max Mote, Mubadele: an Ottoman-Russian Exchange of Ambassadors, Chicago, 1970.

----- and Vamik D. Volkan, The Immortal 'Ataturh a Psychobiography, Chicago, 1984.

Jaekkh, Ernst, The Rising Crescent, New York, 1944.

Jamgocyan, Onnik, 'Les Finances de l'Empire Ottoman et les financiers de Constantinople', these d'etat, Universite de Paris, I, 1988.

----- 'L'Apprivoisement de Constantinople, la Revolution francaise et le declin du negoce francais', Arab Historical Review for Ottoman Studies, VII, October 1993, 127-42.

Jelavich, Barbara, The Ottoman Empire, the Great Powers and the Straits Question 18/0-/887, Bloomington, 1973.

----- History of the Balkans: Eighteenth and Nineteenth Centuries, 1983.

Jevakhoff, Alexandre, Kemal Ataturh Us chemins de l'Occident, 1989.

Johnson, Clarence R., Constantinople Today: the Pathfinder Survey, New York, 1922.

Johnstone, Pauline, Turkish Embroidery, 1985.

Jones, J. R. Melville, The Siege of Constantinople 14J): Seven Contemporary Accounts, Amsterdam, 1972. Juhacz, Esther (ed.), Sephardifews in the Ottoman

Empire, Jerusalem, 1989.

Kadri, Yakup, Sodome et Gomorrhe, 1928.

Kafadar, Cemal, *Yeniceri—Esnaf Relations: Solidarity and Conflict, unpublished Ph.D. thesis, McGill University, 1981.

----- Self and Others: the Diary of a Dervish in Seventeenth-century Istanbul and First Person Narrative in Ottoman Literature, *Studia Islamica*, LXIX, 1989, 121—50. Kalderon, Albert E., Abraham Galante, New York, 1983.

Kaldy-Nagy, G., 'The Holy War in the First Centuries of the Ottoman Empire', *Harvard Ukrainian Studies*, IV, 1980.

Kampman, A. A., The Swedish Palace in Constantinople, 1971.

Kannengiesser Pasha, Hans, The Campaign in Gallipoli, 1927.

Karahan, Abdulkadir, Les Poetes classiques a l'epoque de Soliman le Magnifique, Ankara, 1991.

Karmi, Ishaq, Jewish Sites of Istanbul: a Guide Book, Istanbul, 1992.

Karpat, Kemal H., The Ottoman State and its Place in World History, Leiden, 1974.

Ottoman Population, Wisconsin, 1985.

Kastoryano, Lidya, Quand l'Innocence avait un sens, Istanbul, 1993. Katib Celebi, The Balance of Truth, ed. G. L. Lewis, 1957.

Kayra, Cahit, Maps of Istanbul, Istanbul, 1990.

Kazamias, Andrew, Education and the Quest for Modernity in Turkey, 1966.

Kazgan, Haydar, Galata Bankerleri, Istanbul, 1991.

Keddie, Nikki R., Sayyidfamal ad-din 'al-Afghani', Los Angeles, 1972.

----- and Lois Beck (eds.), Women in the Muslim World, 1978.

Kelly, Laurence, Istanbul: a Traveller's Companion, 1987.

Kemal Bey, Ismail, Memoirs, 1920.

Kent, Marian (ed.), The Great Powers and the End of the Ottoman Empire, 1984.

- Keun, Odette, *Mesdemoiselles Daisne de Constantinople*, c. 1920.
- Kevorkian, Raymond H. and Paul B. Paboudjian, *Les Armeniens dans l'Empire Ottoman a la veille du genocide*, 1992.
- Khitrovo, Mme B. de, *Itinéraires russes en Orient*, Geneva, 1889.
- Kinross, Lord, *Ataturk the Rebirth of a Nation*, Nicosia, 1981 edn.
- Kitromilides, Paschalis M., *The Enlightenment as Social Criticism: Miosipis Moisioudax and Greek Culture in the Eighteenth Century*, Princeton, 1992.
- Kitsikis, Dimitris, *L'Empire Ottoman*, 1985.
- Knatchbull-Hugesson, Sir Hugh, *Diplomat in Peace and War*, 1949.
- Knight, E. F., *The Awakening of Turkey*, 1909.
- Knos, Borje, *L'Histoire de la littérature neo-grecque*, Uppsala, 1962.
- Knudsen, Erik Lance, *Great Britain, Constantinople and the Turkish Peace Treaty*, New York, 1987.
- Koprulu, M. Fuad, *The Origins of the Ottoman Empire*, ed. Gary Leiser, Albany, 1992.
- Kortepeter, Carl Max, *The Ottoman Turks: from Nomad Kingdom to World Empire*, stanbul, 1991.
- Kritovoulos, *History of Mehmed the Conqueror*, Princeton, 1954.
- Kuneralp, Sinan (ed.), *Studies in Ottoman Diplomatic History*, 5 vols., Istanbul, 1987—90.
- Kunt, Metin, 'The Koprulu Years 1656—1661', unpublished Ph.D. thesis, Princeton, 1971.
- Kuran, Aptullah, Sinan the Grand Old Man of Ottoman Architecture, Istanbul, 1987.
- Kurat, Akdes Nimet (ed.), *The Despatches of Sir Robert Sutton, Ambassador in Constantinople 1710— 1714*, 1953.
- Kushner, David, *The Rise of Turkish Nationalism*, 1977.
- Kutschera, Chris, *Le Mouvement National Kurde*, 1979. Labourdette, J. F., Vergennes, 1990.

La Motraye, A. de, Voyages . . . en Europe, Asie et Afrique, 2 vols., La Haye, 1727.

Landau, Jacob M., Ataturk and the Modernisation of Turkey, Boulder and Leiden, 1984.

----- Tekinalp: Turkish Patriot 188)—1961, Istanbul, 1984.

Lane-Poole, Stanley (ed.), The People of Turkey: Twenty Years Residence among Bulgarians, Greeks, Albanians, Turks and Armenians by a Consul's Daughter and his Wife, 2 vols., 1878.

----- The Life of Sir Stratford Canning, Viscount Stratford de Redcliffe, 2 vols., 1888.

Lang, David Marshall, The Armenians: a People in Exile, 1988 edn.

Lauzanne, Stephane, Au chevet de la Turquie, 191 3. Layard, Sir Austen, Autobiography and Letters, 2 vols., 1903.

Lechevalier, J. B., Voyage de la Propontide et du Pont Euxin, 2 vols., 1800.

Lees, Andrew, Cities Perceived: Urban Society in European and American Thought 1820—1940, Manchester, 1985.

Le fort, Jacques, Documents grecs dans les archives de Topkapi Sarayi: contribution a l'histoire de Cem Sultan, Ankara, 1981.

Legrand, Emile, Recueildepoeemes historiques engrec vulgaire, 1877. Leila Hanoum, Le Harem imperial et les sultanes au XIXe siecle, Brussels, 1991.

Lesure, Michel, Lepante: la crise de l'Empire Ottoman, 1972.

Levy, Avigdor, 'The Military Policy of Sultan Mahmud II 1808—1859', unpublished

Ph.D. thesis, Harvard, 1968.

----- The Ottoman Ulama and the Military Reforms of Sultan Mahmud II, Asian

and African Studies, VII, 1971, 13—39.

----- The Officer Corps in Sultan Mahmud IPs New Ottoman Army 1826—1839'

----- Internationaljournal of Middle East Studies, II, 1971, 21—39.

- The Sepbardim in the Ottoman Empire, Princeton, 1992.
- Lewis, Bernard, The Emergence of Modern Turkey, i960.
- Istanbul and the Civilisation of the Ottoman Empire, Norman, Oklahoma, 1963.
- Islam in History, 1973.
- The Muslim Discovery of Europe, 1982.
- The fews of Islam, 1984.
- The Political Language of Islam, Chicago, 1988.
- Race and Slavery in the Middle East: a Historical Enquiry, New York, 1990.
- Liddell, Robert, Byzantium and Istanbul, 1956.
- Lieven, D. C. B., Russia and the Origins of the First World War, 1983.
- Lifchez, Raymond F. (ed.), The Dervish Lodge: Architecture, Art and Sufism in Ottoman Turkey, Berkeley, 1992.
- Ligne, Marechal Prince de, Memoires, 5 vols., 1828.
- Liskar, Elizabeth (ed.), Europa und die Kunst der Islam, Wien, 1985.
- Loti, Pierre, Aziyade: Stamboul 1876-1877, 1892 edn.
- et Samuel Viaud, Supremes Visions d'Orient, 1921.
- Lowry, Heath W., The Story behind Ambassador Morgenthau's Story, Istanbul, 1990.
- Lybyer, Albert H., The Government of the Ottoman Empire in the Time of Suleiman the Magnificent, Cambridge, Mass., 191 3.
- Macarius, Patriarch of Antioch, Travels, 1936.
- MacDermott, Mercia,z4 History of Bulgaria i)9)-i88j, 1962.
- MacFarlane, Charles, Constantinople in 1828, 2 vols., 2nd edn. 1829.
- Turkey and its Destiny, 2 vols., 1850.
- Macfie, A. L., The Straits Question 1909-19)4, Thessaloniki, 1993. Mackenzie, Molly, Turkish Athens, Reading, 1992.

Magoulias, Harry J. (ed.), *The Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks*, Detroit, 1975.

Mamboury, Ernest, *The Tourist's Istanbul*, Istanbul, 1953.

Mamoni, Kyriaki, 'Les Associations pour la propagation de l'instruction grecque a Constantinople (1861-1922)', *Balkan Studies*, 1975, XVI, i, 103-12.

Mango, Cyril, *Studies on Constantinople*, Aldershot, 1993.

Mann, Stuart E., *Albanian Literature*, 1955.

Mansel, Philip, *Sultans in Splendour, the Last Years of the Ottoman World*, 1988.

Mantran, Robert (ed.), *Histoire de l'Empire Ottoman*, 1989.

----- *Istanbul dans la seconde moitié du XVIIe siècle*, 1962.

----- *La Vie quotidienne a Istanbul au siècle de Soliman le Magnifique*, 1990 edn.

----- Mardin, Serif, 'Super Westernisation in Urban Life in the Last Quarter of the Nineteenth Century', in Peter Benedict et al. (eds.), *Turkey: Geographical and Social Perspectives*, Leiden, 1974, 4^o3—45.

----- *The Genesis of Young Ottoman Thought*, Princeton, 1962.

----- *Religion and Social Change in Modern Turkey: the Case of Bediuzaman Said Nursi*, Albany, New York, 1989.

Marinescu, Florin, *Etude genealogique sur la famille Morouj*, Athens, 1987.

----- with Georgeta Penelea-Filitti and Anna Tabaki (eds.), *Documents greco-roumains: le Fonds Morvuj d'Athenes*, Athens-Bucharest, 1991.

Marsigli, Comte de, *L'Etat militaire de l'Empire Ottoman, ses progres et sa decadence*, La Haye—Amsterdam, 1732.

Masson, Paul, *Histoire du commerce francais dans le Levant au XVIIe siècle*, 1896.

----- *Histoire du commerce francais dans le Levant au XVIIIe siècle*, 1911.

Mavrocordatos, G. A., *De la Reforme et de la finance des Romains en Orient*, Athens, 1856. Mavroyennis, Alexandre, *Contribution a l'histoire du Proche-Orient*, 2 vols., Istanbul, 1950.

Mavroyennis Pacha, Chiens errants de Constantinople, et chiens et chats de bonne maison, 1900.

McCarthy, J. W. and Constantin Caratheodory, Relation officielle de la maladie et de la mort du Sultan Mahmoud II, 1841. McCullagh, Francis, The Fall of Abdul Hamid, 1909.

Mears, Eliot Granville, Modern Turkey, 1924. Medlin, William K., Moscow and East Rome, Geneva, 1952.

Meienberger, Peter, Johann Rudolf Schmid zum Schwarzerhorn als Kaiserlicher Resident in Konstantinopel in den Jahren 1629—164), Bern, 1973.

Melas, Achilles and Kostas Stamatopulos, Constantinopolis, Athens, 1990 (in Greek).

Melek Hanoum, Thirty Years in the Harem, 1872.

Melling, Antoine-Ignace], Voyage pittoresque de Constantinople et des rives du Bosphore, 1819.

Menemencioglu, Nermin, The Penguin Book of Turkish Verse, 1978.

Meredith-Owens, G. M., Turkish Miniatures, 1969. Merriman, R. B., Suleyman the Magnificent, Harvard, 1944.

Meryon, Dr, Travels of Lady Hester Stanhope, 3 vols., 1846.

Mihailovic, Konstantin, Memoirs of a fanissary, Ann Arbor, 197 5.

Miller, A. F., Mustafa Pacha Bairaktar, Bucharest, 1975.

Miller, Barnette, Beyond the Sublime Porte, New Haven, 193 1.

----- The Palace School of Mohammed the Conqueror, Cambridge, Mass., 1941.

Miller, William, Travel and Politics in the Near East, 1897.

Millman, Richard, Britain and the Eastern Question 1871-1878, Oxford, 1979.

Minault, Gai, The Khilafat Movement, New York, 1982.

Mismer, Charles, Souvenirs du monde mussulman, 1892.

Mider, Louis, Ottoman Turkish Writers, Washington, 1988.

Moltke, Marechal de, Lettres. . . sur l'Orient, 1877 edn.

- Monconys, M., *Journaldes Voyages*, 4 vols., Lyons, 1666.
- Moorehead, Alan, Gallipoli, 1956.
- Morand, Paul, *Ouvert la nuit*, 1987 edn.
- Morier, James, *A Journey through Persia, Armenia, Asia Minor, to Constantinople, in the Years 1808 and 1809*, 1812.
- Moseley, Philip E., *Russian Diplomacy and the Opening of the Eastern Question 18)8-18)9*, Harvard, 1934.
- Mouradgea d'Ohsson, Ignatius, *Tableau general de l'Empire Ottoman*, 3 vols., 1787—1820. Mouy, Charles de, *Lettres du Bosphore*, 1879.
- Muftyzade, K. Zia Bey, *Speaking of the Turks*, New York, 1922.
- Muller, Mrs Max, *Letters from Constantinople*, 1897.
- Myles, Henri, *La Fin de Stamboul*, 2nd edn., 1921.
- Nadir, Aysegul (ed.), *Imperial Ottoman Fermans*, 1986.
- Naff, Thomas and Roger Owen, *Studies in Eighteenth-century Islamic History*, Carbonsville, 1977.
- Naima, Mustafa, *Annals of the Turkish Empire*, I, 1842.
- Nalbandian, Louise, *The Armenian Revolutionary Movement*, Berkeley, 196}.
- Nami Bey, Ali, *Verite, justice, bonte*, Istanbul, 1918.
- National Palaces, Istanbul, 1987, 1992.
- Navarian, A., *Les Sultanspoetes (14)1—1809)*, 1936.
- Necipoglu, Gulru, *Architecture, Ceremonial and Power, the Topkapi Palace in the Fifteenth and Sixteenth Centuries*, Cambridge, Mass., 1991.
- Nesin, Aziz, *Istanbul Boy*, 3 vols., Austin, Texas, 1977—90.
- Neuville, Pierre de, Gilbert Beaupre et ai, *Images d'Empire*, Istanbul, 1994.
- Nicholas of Greece, Prince, *My Fifty Years*, 1929.
- Nicol, Donald M., *The Immortal Emperor, the Fife and Legend of Constantine Palaiologos, Last Emperor of the Romans*, Cambridge, 1992.
- *The Last Centuries of Byzantium 1261—14))*, 1993 edn.

- Nicolaidès, Jean, *Folklore de Constantinople*, 2 vols., 1894.
- *Contes licencieux de Constantinople et de l'Asie Mineure*, 1906.
- Nicolay, Nicolas de, *Dans l'Empire de Soliman le Magnifique*, 1989. Nicolson, Harold, *Sweet Waters*, 1928 edn. Nicolson, Nigel, Alex, 1973.
- Nigar, Salih Keramet, *Halife İkinci Abdülmecid*, 1964.
- Nisbet, Mary of Dirleton, Countess of Elgin, *Letters*, 1926.
- Noë, Michel, *Pages d'Orient*, 1895.
- North, Hon. Roger, *Lives of the Norths*, 3 vols., 1826.
- Nubar Pacha, *Memoires*, ed. Mirrit Boutros-Ghali, Beirut, 1983.
- Obolensky, Dimitri, *The Byzantine Commonwealth*, 1974 edn.
- Ochsenwald, William, *Religion, Society and the State in Arabia*, Ohio, 1984.
- Okday, Sefik, *Der letzte Grossvezir und seine Preussische Sohne*, Gottingen—Zurich, 1991.
- Okte, Ertughrul Zekai (ed.), *Ottoman Archives. Yildiz Collection. The Armenian Question*, 3 vols., Istanbul, 1989. Olson, Robert W., *The Siege of Mosul and Ottoman-Persian Relations 1718—174*), Bloomington, 1975.
- *The Emergence of Kurdish Nationalism and the Sheikh Said Rebellion, 1880—192*), Austin, 1989.
- Orbey, Raouf d', *Les Amours dangereuses*, Constantinople, 1874. Orga, Irfan, *Portrait of a Turkish Family*, 1988 edn.
- Osborne, Hon. and Revd Sydney Godolphin, *Scutari and its Hospitals*, 1855.
- Osmanoglu, Ayse, *Avec Mon Père le Sultan Abdulhamid de son palais à son prison*, 1991.
- Ostle, Robin (ed.), *Modern Literature in the Near and Middle East 1800—1970*, 1991.
- Owen, Roger, *The Middle East in the World Economy 1800—1914*, 1981.
- Ozdamar, Ali, *Beyoglu in the Thirties through the Lens of Selahattin Giz*, Istanbul, 1992.
- Oztuna, Yilmaz, *Devletler ve Hanedanlar*, II, *Türkiye (1074—1996)*, Ankara,

1990.

Palerne, Jean, *Peregrinations*, Lyons, 1606.

Paliouras, A. (ed.), *The Oecumenical Patriarchate*, Athens, 1989.

Palmer, Alan, *The Decline and Fall of the Ottoman Empire*, 1993 edn.

Pannayotopoulos, A. J., 'The Great Idea and the Vision of Eastern Federation', *Balkan Studies*, XXI, 2, 1980, 331—65.

Panzac, Daniel, *La Peste dans l'Empire Ottoman 1700—1800*, Leuven, 1985.

----- 'International and Domestic Maritime Trade in the Ottoman Empire during the Eighteenth Century', *International journal of Middle Eastern Studies*, May 1992, 189—206.

----- *Les tulles dans l'Empire Ottoman: activite et societe*, 1991.

Papadakis, A., 'Gennadius II and Mehmed the Conqueror', *Byzantion*, XLII, 1972, 88-106.

Papadopoulos, S. A. (ed.), *The Greek Merchant Marine*, Athens, 1972.
Papadopoulos, Theodore H., *Studies and Documents relating to the History of the Greek Church and People under Turkish Domination*, Brussels, 1952. Pardoe, Julia, *The City of the Sultans and Domestic Manners of the Turks in 1806*, 2 vols., 837.

Park, George T., 'The Life and Writings of M. Fuad Koprulu', unpublished Ph.D. thesis, Johns Hopkins University, 1975. Pears, Sir Edwin, *Forty Years in Constantinople*, 1917.

Pedani, Maria Pia, *In nome del Gran Signore: inviati ottomani a Venecia dalla caduta di Constantinopoli alla guerra di Candia*, Venice, 1994.

Peirce, Leslie, *The Imperial Harem: Gender and Power in the Ottoman Empire 1520—1657*, unpublished Ph.D. thesis, Princeton, 1988.

----- *The Imperial Harem: Women and Sovereignty in the Ottoman Empire*, Oxford, 1993.

Penzer, N. M., *The Harem*, 1966 edn. Pernot, Maurice, *La Question turque*, 1925.

Pertusier, J. C., *Promenades pittoresques dans Constantinople et sur le Bosphore*,

3 vols., 1815.

----- La Valachie, la Moldavie et de l'influence politique des Grecs du Fanal, 1822.

Petrovich, Michael Boro, The Emergence of Russian Panslavism 1806—1870, New York, 1956.

Philippides, Andre, Hommes et idées du Sud-Est Européen à l'aube de l'ère moderne, 1980.

Pickthall, Marmaduke, With the Turk in Wartime, 1914.

Pingaud, Leonce, Choiseul-Gouffier. la France en Orient sous Louis XV, 1887.

Piton de Tournefort, M., A Voyage into the Levant Perform'd by Command of the Late French King, 2 vols., 1718.

Pococke, Richard, A Description of the East and some other Countries, 2 vols., 1745.

Ponafidine, Pierre, Life in the Muslim East, 1911.

Porter, David] Constantinople and its environs in a series of letters, 2 vols., New York, 1835.

Porter, Sir James, Turkey, its History and People, 2 vols., 1854.

Porter, Roy, London: a Social History, 1994. Poynter, Mary A., When Turkey was Turkey, 1921.

Puaux, Rene, De Sofia à Tchataldja, 1913.

----- Quataert, Donald, Social Disintegration and Popular Resistance in the Ottoman Empire 1881-1908, New York, 1983.

----- Ottoman Manufacturing in the Age of the Industrial Revolution, Cambridge, 1993.

----- Quella-Villegier, Alain, Istanbul le regard de Pierre Loti, 1992.

Raby, Julian, 'El Gran Turco: Mehmed the Conqueror as a Patron of the Arts of Christendom', unpublished D.Phil, thesis, Oxford, 1980. J.; Ragsdale, Hugh (ed.), Imperial Russian Foreign Policy, 1993.

Rambert, Louis, Notes et impressions de Turquie, 1926.

Ramsaur, jun., Ernest Edmondson, *The Young Turks: Prelude to the Revolution of 1908*, Princeton, 1957.

Ramsay, Allan and Francis McCullagh, *Tales from Turkey*, 1914.

Ramsay, Sir W. M., *The Revolution in Constantinople and Turkey*, 1909. Rankin, Lt-Col. Reginald, *The Inner History of the Balkan War*, 1914.

Raymond, Andre, *Le Cain*, 1993.

Reed, Howard, *The Destruction of the Janissaries by Mahmud II in June 1826*, unpublished Ph.D. thesis, Princeton, 1951. Reed, John, *War in Eastern Europe*, 1994 edn.

Repp, R. C., *The Mufti of Istanbul- a Study in the Development of the Ottoman Learned Hierarchy*, 1986.

Revue d'Histoire Diplomatique, 1991, issue on consuls and dragomans. Rich, I—Jorman, *Why the Crimean War? A Cautionary Tale*, 1985. Richards, G. R. B., *Florentine Merchants in the Age of the Medici*, Harvard, 1932.

Riondesl, H., *Le Bienheureux Gomidas de Constantinople, pretre armenien et martyr*, 1929.

Roche Max, *Education, assistance et culture francaises dans l'Empire Ottoman*, Istanbul, 1985).

Rodinz, Michiel and Hans Theunissen (eds.), *The Tulip, a Symbol of Two Nations*, Utrecht—Istanbul, 1993.

Rodrigue, Aron (ed.), *Ottoman and Turkish Jewry: Community and Leadership*, Bloomington, 1992. Roe, Sir Thomas, *Negotiations in his Embassy to the Ottoman Porte from the year 1621 to 1628*,

Roget—s, J. M. (ed.), *The Topkapi Saray Museum: Costumes, Embroideries and Other Textiles*, 198. 6.

----- *The Topkapi Saray Museum: the Treasury*, 1987.

----- *the Topkapi Saray Museum. Architecture: the Harem and Other Buildings*, 1988.

----- and R. M. Ward, *Suleyman the Magnificent*, 1988.

Roider, jun., Karl A., *Austria's Eastern Question*, Princeton, 1982.

Rolamb, Nils, 'A Relation of a Journey to Constantinople', in A. C. Churchill (ed.), *A Collection of Voyages and Travels*, 5 vols., 1732, V, 669-716. Rose, Norman, *Churchill: an Unruly Life*, 1995 edn.

Rosenthal, Steven T., *The Politics of Dependency: Urban Reform in Istanbul*, Westport, 1950.

Rossos, Andrew, *Russia and the Balkans: Inter-Balkan Rivalries and Russian Foreign Policy*, Tczronto, 1981.

Rothz, Cecil, *The House of Nasi- the Duke of Naxos*, Philadelphia, 5708/1948.

----- JDona Gracia Nasi, Paris, 1990.

Rotti-ers, Colonel, *Itine'raire de Tijlis a Constantinople*, Brussels, 1829.

----- Runtzriman, Steven, *The Great Church in Captivity*, 1968.

----- *The Fall of Constantinople 14;*, 1988 edn.

Russell, W. H., *The British Expedition to the Crimea*, rev. edn. 1858.

----- *A Diary in the East during the Tour of the Prince and Princess of Wales*, 1869.

Rya ru, Sir Andrew, *The Last of the Dragomans*, 19 51.

Ryca_ut, Paul, *The Present State of the Ottoman Empire*, 1675.

----- *The History of the Turks beginning with the year 1679*, 3 vols., 1687.

Saab , Hassan, *The Arab Federalists of the Ottoman Empire*, Amsterdam, 1958. Sa'd—ud-din, Khoja, *The Capture of Constantinople*, tr. E. J. W. Gibb, Glasgow, 1879.

Safavdi, Yasin Hamadi, *Islamic Calligraphy*, 1987 edn.

Saint Clair, William, *Lord Elgin and the Marbles*, 198 3 edn.

Saint-Priest, Comte de, *Memoires sur l'ambassade de France en Turquie et sur le commerce des Francais dans le Levant*, 1877.

Sanderson, John, *Travels in the Levant 1/84—1602*, 193 1.

Sarkisian, A. O., *History of the Armenian Question to 1881*, Urbana, 1938.

Scalieri, Cleanthe, *Appel a la justice des Grandes Puissances*, Athens, 18 81.

Schefer, Charles (ed.), *Le Voyage de Monsieur Chesneau d'Aramon, ambassadeur pour le Roy au Levant*, 1887.

Schimmel, Annemarie, *Calligraphy and Islamic Culture*, New York, 1984.

Schmidt, Jan, *Through the Legation Window 1871—1926*, Istanbul, 1992.

----- 'Sunbulzade Vehbi's *Sevk-Engiz*, an Ottoman Pornographic Poem', *Turcica*, XXV, 1993, 9-37-Scholem, Gershom, *Sabbatai Sevi: the Mystical Messiah*, 1971

Schreiner, George A., *From Berlin to Baghdad*, New York, 1918.

Schwoebel, Robert, *The Shadow of the Crescent, the Renaissance Image of the Turk 1743—1717*), Nieuwkoop, 1967. Senior, Nassau W., *A Journal kept in Turkey and Greece*, 1859.

Sepiha, Haim Vidal, *L'Agonie des Judeo-Espagnols*, 2nd edn., 1979

Sestini, Domenico, *Lettres. . . pendant le cours de ses voyages en Italie, en Sicilie et en Turquie*,

1789.

Seton-Watson, R. W., *A History of the Roumanians*, 1934.

----- *Britain in Europe 1780-1814*, Cambridge, 1937.

Setton, Kenneth M., *Venice, Austria and the Turks in the Seventeenth Century*, Philadelphia, 1991.

Shaw, Stanford, J., *Between Old and New: the Ottoman Empire under Sultan Selim III 1780-1807*, Harvard, 1971.

----- *A History of the Ottoman Empire and Modern Turkey*, 2 vols., 1976—8.

----- *The Jews of the Ottoman Empire and the Turkish Republic*, 1991.

Shay, Mary Lucille, *The Ottoman Empire from 1720 to 1744 as revealed in Despatches of Venetian Baili, Urbana*, 1944.

Sherrard, Philip, *Constantinople: Iconography of a Sacred City*, 1965.

Shmuelevitz, Aryeh, *The Jews of the Ottoman Empire in the late Fifteenth and the Sixteenth Centuries*, Leiden, 1984.

Shukla, Ram Lakhan, *Britain, India and the Turkish Empire 1813—1882*, New

Delhi, 1973.

Shurrock, William L., *French Imperialism in the Middle East*, Madison, 1976.

Simsir, Bilal N, *Dis Basinda Ataturk ve Turk Devrimi*, cilt I, Ankara, 1981.

Sitwell, Sacheverell, *Far from my Home: Stories Long and Short*, 19 31.

Skendi, Stavro, *The Albanian National Awakening 1878—1012*, Princeton, 1967.

Skilliter, Susan, *Life in Istanbul 1/88: Scenes from a Traveller's Picture Book*, Oxford, 1977.

----- William Harbome and the Trade with Turkey 1/78—1/82, Oxford, 1977.

Slade, Adolphus, *Turkey, Greece and Malta*, 2 vols., 1837.

----- *Turkey and the Crimean War*, 1867.

Smith, Albert, *A Month at Constantinople*, 1850.

Snouck Hurgronje, C, *Mekka in the latter part of the Nineteenth Century*, Leiden—London, 1931.

Sonyel, Salahi R., *Minorities and the Destruction of the Ottoman Empire*, Ankara, 1993.

Soutzo, Prince Nicolas, *Memoires*, Vienna, 1896.

Sperco, Willy, *Istanbul indiscret*, Istanbul, n.d.

----- *L 'Orientqui s'eteint*, 1936.

----- *Mustafa Kemal Ataturk*, 1958.

Sphrantzes, George, *The Fall of the Byzantine Empire: a Chronicle*, ed. and tr. Marios Philippides, Amherst, 1980.

Stchoukine, Ivan, *La Peinture turque d'apres Us manuscrits illustres*, 2 vols., 1966—76.

Stitt, George, *A Prince of Arabia: the Emir ShereefAli Haidar*, 1948.

Stoianovic, Troian, *The Conquering Balkan Orthodox Merchant*, *Journal of Economic History*, 1960, 234—313.

Stone, Norman and Michael Glenny, *The Other Russia*, 1991 edn.

Stourdza, A. C, *L'Europe orientate et le role historique des Mavrocordato 1660-*

18)0, 1 913.

Strachan, Michael, Sir Thomas Roe, 1989.

Studia Turcologica Memoriae Alexis Bombacii Dicata, Naples, 1982.

Sturdza, Michel, Grandes Families de Grece, d'Albanie et de Constantinople, 1983.

Sugar, Peter F., Southeastern Europe under Ottoman Rule 1)14-1804, Seattle, 1977.

Sumner, B. H., Russia and the Balkans 1870-1880, 1937.

Sumner-Boyd, Hilary and John Freely, Strolling through Istanbul, 2nd edn., Istanbul,

Svenson, Glen, The Military Rising in Istanbul, Journal of Contemporary History, V, 1970, 17.

Synvet, A., Les Grecs de l'Empire Ottoman: etude statistique et ethnique, Constantinople, 1878.

Tahsin Pasha, YildizHatiralari, 1990 edn.

Tavernier, J. B., Nouvelle Relation de l'interieur du Serail du Grand Seigneur, 167 5.

Temple, Bt., Major-General Sir Grenville, Travels in Greece and Turkey, 2 vols., 1836. Tenenti, Alberto, Piracy and the Decline of Venice 1967.

Thalasso, A. et F. Zonaro, Deri Se'adet ou Stamboul, porte du bonheur, 1908.

Theotokas, G., Leonis, enfant grec de Constantinople, 1985.

Thevenot, M. de, Travels into the Levant, 3 parts, 1687.

Thomas, Lewis V., A Study of Naima, New York, 1972.

Thouvenel, L., Trois Annies de la Question d'Orient 18/6-18/9, 1897.

Thuasne, L., Gentile Bellini et Sultan Mohammed II, 1888.

Tietze, Andreas (ed.), Mustafa Ali's Counselfor Sultans of 'rjtl, 2 vols., Vienna, 1979-82.

Tinayre, Marcelle, Notes d'une voyageuse en Turquie, 1909.

- Titley, Norah and Frances Wood, *Oriental Gardens*, 1991.
- Toderini, Abbe, *De la Litterature des Turcs*, 3 vols., 1789.
- Toledano, Ehud R., *The Ottoman Slave Trade and its Suppression 1840-1890*, Princeton, 1982.
- Tongas, Gerard, *Les Relations de la France avec l'Empire Ottoman durant la premiere moitie du XVIIe siecle*, Toulouse, 1942.
- Toros, Taha, *Turco-Polish Relations in History*, Istanbul, 1983.
- *The First Lady Artists of Turkey*, Istanbul, 1988.
- Tott, Baron de, *Memoirs concerning the State of the Turkish Empire and the Crimea*, 4 parts, 1786.
- Trubetskoy, Professor Prince Eugene Nicolayevich, *Saint Sophia, Russia's Hope and Calling*, 1916.
- Trumpener, Ulrich, *Germany and the Ottoman Empire 1914-1918*, 1968.
- Tsourkas, Cleobule, *Les Debuts de l'enseignement philosophique et de la libre pensee dans les Balkans: la vie et l'œuvre de Theophile Corydalee (1770-1846)*, Thessaloniki, 1967. Tuglaci, Pars (all works published in Istanbul):
- *Women of Istanbul in Ottoman Times*, 1984.
- *The Ottoman Palace Women*, 1985.
- *Turkish Bands of Past and Present*, 1986.
- *The Role of the Balian Family in Ottoman Architecture*, 1990.
- *Armenian Churches of Istanbul*, 1991.
- *The Role of the Dadian Family in Ottoman Social, Economic and Political Life*, 1993.
- Tuncay, Mete and Erik J. Zürcher, *Socialism and Nationalism in the Ottoman Empire 1876-1922*, 1994.
- Turner, C. J. G. *The Career of George-Gennadius Scholarius*, *Byzantion*, XXXIX, 1969, 420-55.
- Turner, William, *Journal of a Tour in the Levant*, 3 vols., 1820.
- Tursun Beg, *History of Mehmed the Conqueror*, ed. Halil İnalcık and Rhoads

- Murphy, Minneapolis and Chicago, 1978.
- Ubicini, M. A., *Letters on Turkey*, 2 vols., 1856.
- Ulker, Muammer, *The Art of Turkish Calligraphy from the Beginning up to the Present*, Ankara, 1987.
- Ulucay, M. Cagatay, *Sultanlarina AskMektuplari*, 1950.
- *Harem II*, Ankara, 1971.
- *Padishahlarin Kadinlari ve Kizlari*, 1992.
- Un Jeune Russe [H.-C.-R. von Struve], *Voyage en Crimée, suivi de la relation de l'ambassade envoyée de Pétersbourg à Constantinople en 1793*, 1802.
- Unsal, Artun and Beyhan, *Istanbul la magnifique: propos de table et recettes*, 1991.
- Upward, Allen, *The East End of Europe*, 1908.
- Vacalopoulos, Apostolos E., *Origins of the Greek Nation: the Byzantine Period 1204-1461*, New Brunswick, 1970.
- *The Greek Nation 1453—1669*, New Brunswick, 1976.
- Vaka, Demetra, *The Unveiled Ladies of Stamboul*, Boston, 1923.
- Valensi, Lucette, *Venise et la Sublime Porte*, 1987.
- Vandal, Albert, *Les Voyages du Marquis de Nointel*, 1900.
- *Une Ambassade française en Orient sous Louis XV: la mission du Marquis de Villeroy 1728—1741*, 1887.
- Van der Dat, Dan, *The Ship that Changed the World: the Escape of the 'Goeben' to the Dardanelles in 1914*, 1986 edn.
- Vaner, Semih (ed.), *Istanbul*, 1991.
- Varol, Marie-Christine, *Balat, faubourg juif d'Istanbul*, Istanbul, 1989.
- Vassif Efendi, *Precis historique de la guerre des Turcs contre les Russes*, ed. P. A. Caussin de Perceval, 1822.
- Vaughan, Dorothy M., *Europe and the Turk: a Pattern of Alliances 1500—1700*, Liverpool, 1951.

Veinstein, Gilles (ed.), *Salonique 1800-1918: la ville des fuifs et le réveil des Balkans*, 1992.

----- *Soliman le Magnifique et son temps*, 1992.

Vryonis, Speros, 'The Byzantine Legacy and Ottoman Forms', *Dumbarton Oaks Papers*, XXIII-XXIV, 1969-70, 253-318. Walder, David, *The Chanak Affair*, 1969.

Walker, Christopher J., *Armenia: the Survival of a Nation*, 1991 edn.

Walsh, Rev^d R., *A Residence at Constantinople*, 2 vols., 1856.

Wanda, Soum/enirs *anecdotes sur la Turquie 1820—ittjo*, 1884.

Washburn, George, *Fifty Years in Constantinople*, Boston and New York, 1909.

Waterfield, Gordon, *Layard of Nineveh*, 1963.

.Watkins, Tfcionas, *Tour through Swisserland. . . to Constantinople*, 2 vols., 1792.

Waugh, Sir Telford, *Turkey Yesterday, Today and Tomorrow*, 1930.

White, Charles, *Three Years in Constantinople*, 3 vols., 1845.

Wilkinson, "William, *An Account of the Principalities of Wallachia and Moldavia*, 1820.

Wilson, Epiphanius, *Turkish Literature*, 1901.

Wilson, M»_ry C, *King Abdullah, Britain and the Making of Jordan*, Cambridge, 1987.

Wittek, Patal, "Notes sur la tughra ottomane", *Byzantion*, XVIII, 1948, 311—34.

Wittman, VCilliam, *Travels in Turkey, Asia Minor, Syria and across the Desert to Egypt in the years 1799z 1800 and 1801*, 1803.

Wolff, Sir Henry Drummond, *Rambling Recollections*, 2 vols., 1908. Wood, Alfir-cd C, 'The English Embassy in Constantinople', *English Historical Review*, XL, 1925, 533.

----- *A History of the Levant Company*, 1935.

Woods, Sir Henry F, *Spun- Yam from the Strands of a Sailor's Life*, 2 vols., 1924.

Wortlcly Montagu, Lady Mary, *The Turkish Embassy Letters*, ed. Malcolm Jack, 1994.

- Wrangel, A_lexis, General Wrangel, Russia's White Crusader, 1990.
- Wrangel, O_Seneral P. N., Memoirs, 1929.
- Wratislaw, T_Jaron Wenceslas, Adventures, ed. A. H. Wratislaw, 1862.
- Wright, H. C. Seppings, Two Years under the Crescent, 1985 edn.
- Yerasimos, Stephane, La Fondation de Constantinople et de Sainte-Sophie dans les traditions turques, 1 990.
- (ed.), Istanbul 1914—192): capitale d'un monde illusoire ou fagonie des vieux empires, 1992.
- Yiannias, John, The Byzantine Tradition after the Fall of Constantinople, 1991.
- Ypsilanti, F_zrince Nicholas, Me'moires, n.d.
- Zarcone, T~hiearry, Mystiques, philosophes et franc-macons en Islam, 1993.
- Zeine, M., z-Arab-Turkish Relations and the Emergence of Arab Nationalism, Beirut, 1958.
- Zeman, Z. A. B. and W. B. Scharlau, The Merchant of Revolution, 1965.
- Zurcher, E-rik J., The Unionist Factor: the Role of the Committee of Union and Progress in the Turkish zVational Movement 190)—1926, Leiden, 1984.
- Political Opposition in the Early Turkish Republic: the Progressive Republican Party, Leiden, T99i.
- Turkey: a Modern History, 199 3.

المؤلف في سطور

فيليب مانسيل

■ مؤرخ البلاطات والعائلات الحاكمة.

■ من أهم أعماله «بلاط فرنسا 1789 - 1830»، وتاريخ «باريس بين الإمبراطوريات 1814 - 1852»، و«حياة الأمير دي لاين (أمير أوروبا).

■ يقدم آخر أعماله «المشرق - ازدهار مدن البحر الأبيض المتوسط وانهارها» تاريخاً لثلاث مدن عثمانية: سمرنا والإسكندرية وبيروت.

■ زميل «الجمعية التاريخية الملكية» ومعهد البحوث التاريخية، ومحرر مجلة «مؤرخ البلاط»، يكتب في مجالات وصحف كثيرة مثل «فاينانشال تايمز» Financial Times و«إنترناشونال هيرالد تريبيون» International Herald Tribune و«ملحق تايمز الأدبي» Times Literary Supplement و«سبكتاتور» Spectator.

المترجم في سطور

الدكتور مصطفى محمد عبدالله قاسم

■ مترجم مصري.

■ حاصل على جائزة خادم الحرمين الشريفين العالمية للترجمة في دورتها السابعة 2014 في فرع العلوم الإنسانية من اللغات الأخرى إلى العربية عن كتابه «مأساة سياسة القوى العظمى».

■ من أهم أعماله المترجمة: «مقدمة إلى ريادة الأعمال» (مركز الترجمة في وزارة التعليم العالي السعودية، تحت النشر)، «الدين والدم: إبادة شعب الأندلس» (هيئة أبوظبي للسياحة والتراث - مشروع كلمة، 2013)، «الحياة اليومية في مصر القديمة» (المركز القومي للترجمة - مصر، 2013)، «مأساة سياسة القوى العظمى» (مركز الترجمة بجامعة الملك سعود، 2012)، «مولد الوفرة - كيف تشكل رخاء العالم الحديث؟»

(مركز الترجمة بجامعة الملك سعود، 2012)، «التقنية والثقافة في العصور القديمة»
(هيئة أبوظبي للثقافة والتراث - مشروع كلمة، 2011)، «الاقتصاد السياسي لمصر:
دور علاقات القوة في التنمية» (المركز القومي للترجمة، مصر، 2010)، «الفرض في
التربية الليبرالية الجديدة» (المركز القومي للترجمة، مصر، 2010)، «الأطفال واللعب»
(المركز القومي للترجمة، مصر، 2010)، «العلاقات الحضارية المسيحية الإسلامية بين
احتمالات التعاون والصراع» (المركز القومي للترجمة، مصر، 2010)، «صعود الصين»
(المركز القومي للترجمة، مصر، 2010)، «الإعاقة العقلية: الماضي والحاضر والمستقبل»
(دار الفكر للنشر والتوزيع، الأردن، 2010)، «مقدمة إلى التطور اللغوي»، (دار
الفكر للنشر والتوزيع، الأردن، 2010)، «التاريخ الاجتماعي للوسائط من غتبرغ إلى
الإنترنت» (سلسلة عالم المعرفة، العدد 315، مايو 2005، المجلس الوطني للثقافة
والفنون والآداب، دولة الكويت).

سلسلة عالم المعرفة

«عالم المعرفة» سلسلة كتب ثقافية تصدر في مطلع كل شهر ميلادي عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت - وقد صدر العدد الأول منها في شهر يناير العام 1978.

تهدف هذه السلسلة إلى تزويد القارئ بمادة جيدة من الثقافة تغطي جميع فروع المعرفة ، وكذلك ربطه بأحدث التيارات الفكرية والثقافية المعاصرة . ومن الموضوعات التي تعالجها تأليفا وترجمة :

1 - الدراسات الإنسانية : تاريخ - فلسفة - أدب الرحلات - الدراسات الحضارية - تاريخ الأفكار.

2 - العلوم الاجتماعية : اجتماع - اقتصاد - سياسة - علم نفس - جغرافيا - تخطيط - دراسات استراتيجية - مستقبلات.

3 - الدراسات الأدبية واللغوية : الأدب العربي - الآداب العالمية - علم اللغة .

4 - الدراسات الفنية : علم الجمال وفلسفة الفن - المسرح - الموسيقى - الفنون التشكيلية والفنون الشعبية .

5 - الدراسات العلمية : تاريخ العلم وفلسفته ، تبسيط العلوم الطبيعية (فيزياء ، كيمياء ، علم الحياة ، فلك) . الرياضيات التطبيقية (مع الاهتمام بالجوانب الإنسانية لهذه العلوم) ، والدراسات التكنولوجية.

أما بالنسبة إلى نشر الأعمال الإبداعية - المترجمة أو المؤلفة - من شعر وقصة ومسرحية ، وكذلك الأعمال المتعلقة بشخصية واحدة بعينها فهذا أمر غير وارد في الوقت الحالي.

وتحرص سلسلة «عالم المعرفة» على أن تكون الأعمال المترجمة حديثة النشر . وترحب السلسلة باقتراحات التأليف والترجمة المقدمة من المتخصصين ، على ألا يزيد حجمها على 350 صفحة من القطع المتوسط ، وأن تكون مصحوبة بنبذة وافية عن الكتاب وموضوعاته وأهميته ومدى جدته . وفي حالة الترجمة ترسل نسخة

مصورة من الكتاب بلغته الأصلية، كما ترفق مذكرة بالفكرة العامة للكتاب، وكذلك يجب أن تدون أرقام صفحات الكتاب الأصلي المقابلة للنص المترجم على جانب الصفحة المترجمة، والسلسلة لا يمكنها النظر في أي ترجمة ما لم تكن مستوفية لهذا الشرط. والمجلس غير ملزم بإعادة المخطوطات والكتب الأجنبية في حالة الاعتذار عن عدم نشرها. وفي جميع الحالات ينبغي إرفاق سيرة ذاتية لمقترح الكتاب تتضمن البيانات الرئيسية عن نشاطه العلمي السابق.

وفي حال الموافقة والتعاقد على الموضوع - المؤلف أو المترجم - تصرف مكافأة للمؤلف مقدارها ألف وخمسمائة دينار كويتي، وللمترجم مكافأة بمعدل عشرين فلساً عن الكلمة الواحدة في النص الأجنبي، أو ألف ومائتي دينار أيهما أكثر (ويحد أقصى مقداره ألف وستمائة دينار كويتي)، بالإضافة إلى مائة وخمسين ديناراً كويتياً مقابل تقديم المخطوطة - المؤلف والمترجمة - من نسختين مطبوعتين.

وكلاء التوزيع

الدولة	وكيل التوزيع الحالي	العنوان	تليفون	فاكس
الكويت	المجموعة الإعلامية العالمية	الشيخ - الحرة - قسيمة 34 - الكويت - الشيخ - ص ب 64185 - الرمز البريدي 70452	24826820/1/2 24613872 /3	24826823
الإمارات	شركة الإمارات للطباعة والنشر والتوزيع	Emirates Printing, Publishing & Distribution Company Dubai Media City/ Dubai UAE P.O Box: 60499	+971 242629273	+971 42660337
السعودية	الشركة السعودية للتوزيع	المملكة العربية السعودية - الرياض - حي المؤتمرات - طريق مكة المكرمة - ص ب 62116، الرمز البريدي 11585	+966 (01) 2128000	+966 (01) 2121766
سورية	المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات	سورية - دمشق - البرانكة	+963 112127797	+963 112128664
مصر	مؤسسة دار أخبار اليوم	جمهورية مصر العربية - القاهرة - 6 شارع الصحافة - ص ب 372	+202 25782700- 25782632	+202 25782632
المغرب	الشركة العربية الأفريقية للتوزيع والنشر	المغرب - الرباط - ص ب 13683 - زنقة سحلماسه - بلفدير - ص ب 13008	+212 522249200	+212 522249214
تونس	الشركة التونسية للصحافة	تونس - ص ب 719 - 3 نهج المغرب - تونس 1000	+216 71322499	+216 71323004
لبنان	مؤسسة نفوع الصحفية للتوزيع	لبنان - بيروت - خندق العميق - شارع سعد - بناية فواز	+961 1666314/5 01 653259	+961 1653260
اليمن	القائد للنشر والتوزيع	الجمهورية اليمنية - صنعاء	+967 2/3201901	+967 1240883
الأردن	وكالة التوزيع الأردنية	عمان - تلال العلي - بجانب مؤسسة الضمان الاجتماعي	+962 65300170 - 65358855	+962 65337733
البحرين	مؤسسة الأيام للنشر	-----	+973 17 617733	-----
سلطنة عُمان	مؤسسة العطاء للتوزيع	ص ب 473 - مسقط - الرمز البريدي 130 - العذبية - سلطنة عُمان	+968 24492936	+24493200968
قطر	دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع	قطر - النوحة - ص ب 3488	+974 4557809/10/11	+974 44557819
فلسطين	شركة رام الله للنشر والتوزيع	رام الله - عين مصباح - ص ب 1314	+970 22980800	+970 22964133
السودان	دار الريان للثقافة والنشر والتوزيع	السودان - الخرطوم - الرياض - ش المشتل - العقار رقم 52 - مربع 11	+2491 83242702	+2491 83242703
الجزائر	شركة بوقادوم للنقل وتوزيع الصحافة	Cite des preres FARAD. lot N09. Constantine. Algeria	+213 (0) 31909590	+213 (0) 31909328
العراق	شركة الظلال للنشر والتوزيع	-----	+964 700776512 +964 780662019	-----
نيويورك	Media Marketing	Long Island City. NY 11101 - 3258	+1718 4725488	+1718 4725493
لندن	Universal Press	Universal Press & Marketing Limitd	+44 2087499828 +44208 7423344	+44208 7493904
ليبيا	شركة الناشر الليبي	-----	+218 217297779	-----

تنويه

للاطلاع على قائمة كتب السلسلة انظر عدد
ديسمبر (كانون الأول) من كل سنة، حيث توجد
قائمة كاملة بأسماء الكتب المنشورة
في السلسلة منذ يناير 1978.

سعر النسخة

الكويت ودول الخليج	دينار كويتي
الدول العربية	ما يعادل دولارا أمريكيا
خارج الوطن العربي	أربعة دولارات أمريكية
الاشتراكات	

دولة الكويت

للأفراد 15 د . ك

للمؤسسات 25 د . ك

دول الخليج

للأفراد 17 د . ك

للمؤسسات 30 د . ك

الدول العربية

للأفراد 25 دولارا أمريكيا

للمؤسسات 50 دولارا أمريكيا

خارج الوطن العربي

للأفراد 50 دولارا أمريكيا

للمؤسسات 100 دولار أمريكي

تسدد الاشتراكات والمبيعات مقدما نقداً أو بشيك باسم المجلس الوطني
للثقافة والفنون والآداب، مع مراعاة سداد عمولة البنك المحول عليه المبلغ
في الكويت، ويرسل إلينا بالبريد المسجل على العنوان التالي:

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص. ب 23996 الصفاة - الرمزي البريدي 13100

دولة الكويت

بدالة: 22416006 (00965)

داخلي: 1196 / 1195 / 1194 / 1193 / 1153 / 1152

**قسمة اشتراك في إصدارات
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب**

البيان		سلسلة عالم المعرفة		الثقافة العالمية		عالم الفكر		إبداعات عالمية		جريدة الفنون	
		دك	دولار	دك	دولار	دك	دولار	دك	دولار	دك	دولار
مؤسسات داخل الكويت	25			12		12		20		12	
أفراد داخل الكويت	15			6		6		10		8	
مؤسسات دول الخليج العربي	30			16		16		24		36	
أفراد دول الخليج العربي	17			8		8		12		24	
مؤسسات خارج الوطن العربي	100			50		40		100		48	
أفراد خارج الوطن العربي	50			25		20		50		36	
مؤسسات في الوطن العربي	50			30		20		50		36	
أفراد في الوطن العربي	25			15		10		25		24	

الرجاء ملء البيانات في حالة رغبتكم في: تسجيل اشتراك ☐ تجديد اشتراك ☐

الاسم:
العنوان:
اسم المطبوعة:
المبلغ المرسل:
التوقيع:
مدة الاشتراك:
نقدا / شيك رقم:
التاريخ:

هذا الكتاب...

ما بين «الفتح» محمد الذي دخل القسطنطينية في العام 1543 مظفرا على حصان أبيض، و«المنفي» عبدالمجيد الذي خرج منها في العام 1924 مطرودا في قطار الشرق السريع، يحكي هذا الكتاب قصة عشق سلالة حاكمة لمدينة حوّلتهم من أمراء إمارة مجهولة إلى أباطرة لواحدة من أقوى إمبراطوريات العالم الحديث المبكر والحديث، وأطولها عمرا وأكثرها حضورا على مشهد الأحداث العالمية. يغطي الكتاب القرون الخمسة للعاصمة العثمانية القسطنطينية، بالغوص تحت السطح الإمبراطوري الكوزموبوليتاني للمدينة التي كانت في الوقت عينه عاصمة إمبريالية ومدينة مقدسة ومركزا تجاريا وجنة للمتعة. يبرز المؤلف الطابع الكوزموبوليتاني الفريد - في زمانه - للمدينة، الذي جعل منها - في آن معا - ملتقى وساحة حرب لكل السائرين على أرضها، وذلك بالدرجة الأولى لكونها منذ نشأتها «المدينة التي يشتهيها العالم». يرسم مؤرخ البلاطات فيليب مانسيل صورة حية لمدينة عالمية، وسلالتها الحاكمة، وعائلات الكبرى على اختلاف أديانها وقومياتها، والسفارات والكوناكات والياليات التي خدر ساكنوها بسحر أمواج البسفور وأذان الصلاة. يبرز مانسيل مراوحة السلالة الحاكمة بين الرقة والوحشية، وتنازع المدينة بين رائحة الدم وعبق الزنبق، في كتاب يعد من أفضل ما كُتب حول القسطنطينية وسلالتها الحاكمة. وفي «تاريخ إنساني» ممتع يتتبع مانسيل المدينة وأهلها المتنوعين منذ فتحها واتخاذها عاصمة، حتى تبديد تنوعها ونقل العاصمة منها، ويزيد على ذلك تتبع المشتتين من العاصمة «التي ماتت» إلى أماكن شتاتهم في تاريخ ساحر لمدينة كوزموبوليتانية وأهلها من أوج القوة إلى غربة الشتات.

نم احاطه الشرفى هوامنه

مكتبة عملى

ask2pdf.blogspot.com